

قطار العمر

في أدب المؤانسة والمجالسة

اللهم لا تجعلني جزاراً يذبح الشاة أو شاة يذبحها الجزار
(طاغور)

محمد خير البدوي



سيرة ذاتية

• من مواليد قرية القليعة في دار الرباطاب عام ١٩٢٦م أو ١٩٢٧م.

• تلقى تعليمه في مدرسة الأحفاد ثم في كلية غوردون التذكارية.

• عمل كاتباً حربياً في قوة دفاع السودان في أواخر الحرب العالمية الثانية ثم في قطاع الفنادق والمرطبات التابع لمصلحة الخطوط الحديدية السودانية **SR** ثم عمل محاسباً في مشروع الزاندي (أنزارا) حيث أسهم بدور رئيسي في تأسيس أول تنظيم نقابي في جنوب السودان.



• عضو في اللجنة التنفيذية لحزب الاتحاديين (الأبروفيين). أوفده مؤتمر الخريجين في عام ١٩٤٧ لمدينة أتبرا مع المرحوم محمد نور الدين لتنظيم مقاومة الجمعية التشريعية هناك وحكم عليه جراء ذلك بالسجن لمدة عامين تقريباً أمضاها في سجن الدامر.

• أسهم في تأسيس الحزب الجمهوري الاشتراكي في أول الخمسينات وكان ناطقا باسمه وأحد مندوبيه في المفاوضات السودانية البريطانية المصرية التي أسفرت عن اتفاقية الحكم الذاتي وتقرير المصير.

• احترف الصحافة في أول الخمسينات كرئيس تحرير لصحيفة الوطن اليومية الناطقة باسم الجمهوري الاشتراكي ثم في صحف أخرى ومدير لمكتب وكالة الأنباء العربية (رويتر) في الخرطوم إلى أن التحق بالبي بي سي العربية في عام ١٩٦٢م واستقال متقاعداً في عام ١٩٨٥م.

• من مؤلفاته كتاب «بطولات سودانية» عن دور السودان في الحرب الثانية.



تنفيذ

قطار العمر

في أدب المؤانسة والمجالسة

محمد خير البدوي

الطبعة الأولى
يناير ٢٠٠٨



تصميم الغلاف : الفنان سامي الملك
الإشراف العام : عماد مصطفى
الطباعة : دار النهار للإنتاج الإعلامي ـ الخرطوم
هاتف : ٠٩١٢١٥٢٧٣٩ ـ ٠٩١٢١٤٤٦٠٣
فاكس : ٨٥٣٢٣٢١٧

المحتويات

الإهداء

إلى زوجتي . . . ثم إلى بناتي وأبنائي وأحفادي وحفيداتي زينة حياتي وهنائي وزادي وأنسي في رحلتي على متن قطار العمر .

م .خ .ب .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

أما وقد وفقت لإخراج قطار العمر إلى حيز الوجود أرى لزاما على تنبيه القارئ لكي يحكم له أو عليه إلى أنني توخيت في ما سطرت الصدق والأمانة والشجاعة وكلها فضائل لكنها في الوقت نفسه شر قد تلقي بصاحبها «في الكرب العظام» !! ثم أرى لزاماً على أيضاً أن أزجي أطيب أيات الشكر وأزكاها لنفر أعزاء ممن أعانوني بالتشجيع وأسهموا في وصول هذا الكتاب لأيدي القراء . وأبدأ بأصدقائي الثلاثة : البرفيسور محمد عمر بشير الشايقي ودكتور النور عبد المجيد وأميرالعود حسن عطية رحمهم الله . البرفيسور الشايقي كان يبادرني دائما كلما التقينا بالتحية ويردفها متسائلا : يا أخي متي ستكتب مذكراتك ؟ وكان آخر لقاء بيننا قبل رحيله بأقل من أسبوع وطمأنته يومذاك بأني شرعت في الكتابة فبدت عليه علامات الارتياح . والشكر أيضاً للصديقين الأديب الروائي الطيب صالح وصديقي اللدود الودود سيد محمد أحمد محجوب ورفيق العمر المرحوم الفنان عثمان وقيع الله أعظم فنان في تأريخ الخط العربي وقد شرع قبل أن توافيه المنية في إعداد الجوانب الفنية من خطوط وخلافها وتولى هذه المهمة عقب وفاته فنان ملهم لا يقل عنه قدرا هو سامي الملك فله الشكر أيضاً . أما الأستاذ الطيب صالح مصدر وحي وإلهام للعديد من حملة الأقلام ولن يجد القارئ عنتا في تتبع اثره وبصماته في قطار العمر من محطة لأخرى . ويكفي أن تكون كلمته الرصينة الصادقة التي قدم بها هذا الكتاب للقراء بمثابة الصفارة والبيرق الأخضر لانطلاق قطار العمر .

لم تحـل ظروف أستاذنـا الكبير الصحية دون المساهمة بقلمـه في التقديم حرصا منه على الوفـاء لصداقة وزمالة امتدت عشرات السنين . مرة أخرى لشيخنا الطيب - هكذا أدعوه دائمـا - أجزل الشكر وأصدقـه متمنيا لـه العافيـة وطـول العمـر وغـزارة العطـاء .

والشكـر موصـول أيضاً للقراء الذين أكرموني برفقتهـم في رحلة قطار العمر وأدعوهم لمشاركتي في الدعاء بالرحمة وحسن المآب لكل المتوفين ممن وردت أسماؤهم في هذا الكتاب . ولا بـد مـن الشكر أيضاً لناقلنا الجوي الخطوط الجويـة السودانية التي أسهمت في وضع هذا الكتاب في يسر وسهولة في متناول أيدي القراء في السودان . أما دار النهار للانتاج الإعلامي بقيادة مديرها العام الأستاذ عماد مصطفى والسيدة حرمه آمال عوض حسين قطان فلهم من الشكر مسك ختامه على ماقدمته من عون وتوجيهات فنية في الإخراج و الطباعة .

(م خ ب)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم : (الصفارة والبيرق الأخضر لانطلاق قطار العمر)
بقلم الروائي المبدع الأستاذ الطيب صالح

كتاب (قطار العمر) للأستاذ محمد خير البدوي ، أطال الله عمره ، كتاب حافل بالأحداث والشخصيات . والكاتب يصفه بقوله «في أدب المؤانسة والمجالسة» ورغم أن الكتاب يسرد كثيرا مما يدخل في باب (المؤانسة والمجالسة) لكنه يكاد يكون رواية لتأريخ السودان الحديث منذ أواخر الأربعينات حتى استقلال السودان ، من وجهة نظر الكاتب .

تكاد حياة الأستاذ محمد خير البدوي تكون موازية لتلك الحقبة . فقد ولد في أواخر العشرينات في منطقة الرباطاب في شمال السودان . لكن حياته ارتبطت بعد ذلك ارتباطاً وثيقاً بمدينة أم درمان . وتخرج من كلية غوردون التذكارية العتيدة وعاصر فيها عدداً من السودانيين النوابغ الذين لعبوا أدواراً بعضها انتهى نهايات مأساوية مثل المرحوم عبد الخالق محجوب الذي كان من أبناء دفعته . دخل في غمار الحياة العملية باكراً . وعمل في الصحافة التي أصبحت همه الأول وطبعت حياته بطابعها .

تقلب في مناصب كثيرة وعمل فترة في جنوب السودان وله هناك تجربة ثرية يصفها في كتابه هذا . وقد عمل رئيسا لتحرير صحيفة الجزيرة التي تصدرها إدارة مشروع الجزيرة الذي يعتبر مثلاً فريداً في العمل المشترك بين الحكومة والشعب . واستقر المقام به أخيراً في لندن حيث قضى فترة طويلة في العمل في القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية . وقد أنجب أبناء وبنات منهم زينب البدوي التي تخرجت من جامعة أوكسفورد وصارت إذاعية لامعة في التلفزيون البريطاني . وهو يعيش الآن متقاعدا متنقلا بين لندن وأمدرمان .

يخصص الأستاذ محمد خير البدوي جزءاً كبيراً من كتابه للحديث عن نضال السودان للحصول على الاستقلال من الحكم الثنائي ويصف دوره فيه وقد كان دوراً كبيراً ، وقد عرف معظم الزعماء ممن قادوا ذلك الصراع . ساعده في ذلك صلته بعمه الشيخ بابكر بدري مؤسس مدارس الأحفاد وصلته الحميمه بابن عمه ابرهيم بدري مؤسس الحزب الجمهوري الاشتراكي .

عرف محمد خير البدوي السيدين عبد الرحمن المهدي وعلي الميرغني . وكان السيد اسماعيل الأزهري زعيم الحزب الاتحادي الديمقراطي وأول رئيس للوزراء بعد الاستقلال أستاذه في كلية غوردون فكانت صلة محمد خير به وثيقة .

استهوت السياسة الكاتب حتى قبل تخرجه من كلية غوردون وكان عظيم الحماسة فألقى بنفسه في خضم المظاهرات وانضم لحزب الاتحاديين (الأبروفيين) الذي كان ينادي بقيام ارتباط مع مصر . هو دون الوحدة الكاملة . وقد أدى به نشاطه السياسي ضد الاستعمار إلى السجن . ولما أنشأ ابن عمه ابرهيم بدري الحزب الجمهوري الاشتراكي انخرط فيه وكان بمثابة الساعد الأيمن لزعيم الحزب (إبرهيم بدري)

كل هذا وأكثر يسرده الكاتب بأسلوب سهل تتخلله في كثير من المواقف روح السخرية والدعابة . وقد لا يتفق بعض القراء مع بعض وجهات النظر التي يعبر عنها وعن أحكامه على بعض المواقف والشخصيات . إنما لا شك عندي أن القارئ سوف يجد فائدة ومتعة من قراءة الكتاب وأن الكتاب سوف يجد رواجا ويحرك جدلاً واسعاً .

الطيب صالح

لندن ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٧

أبي كما عرفته

أبي – محمد خير البدوى – أو بداوي كما ينطقها الإنكليز- رجل نادر وفريد . تعلمــت منــه كثيراً . ظل حبه لكل بناته وأولاده ثابتا وقويا لا يتغير أو يتبدل . كما ظل ملتزمـا بمبادئه على الدوام وكـم شقي مراراً في سبيل ذلك . وهذا ما قصدته بنازير بوتو حينمـا طلبـت مني في آخر لقـاء بيننا أن أبلغ تحياتها وتمنياتهـا الطيبة لأبي لأنه يذكرها بأبيهـا المرحوم ذو الفقـار علي بوتو . لما أبلغت أبي رد علــي في عفوية معهودة : بوتو لقي ربه شهيداً على حبال المشنقة فارتاح راحة أبدية بينما أمضيت نصف عمري – ولا أزال -في غربـة المنفـى وعذابـه كهدهـد سليمـان بـين قـوم لا يعرفـون قـدري!!

زينب البدوي



اللهم لا تجعلني جزاراً يذبح الشاة

أو شاة يذبحها الجزار

(طاغور)

محطـة ١

*** قرية القليعة * كشف الحلة * أمي تتحدى التقاليد وأبوها يتحدى الزبير باشا * جدي مالك في المهدية * رباطاب أم عمراب × أبي وبابكر بدري يفتتحان مدرسة الشريك * الملائكة حملة جثمان ود نوري * من كرامات الشريفة مريم الميرغنية.**

كأس مزاجها عسل وحنظل وبطيخ وفسيخ ... خليط متنافر شكلاً ولوناً ومذاقاً هو حصاد العمر على مر السنين قطعتها مغمورا مشهورا ومشهورا مغمورا . كتب على أن أعيش في آن واحد في هذه الدوامة من المتناقضات – كما قال صديق لي – إلى أن أقتل أحداً أو اختطف لقمةً من فم يتيم محروم لأن هذا أقصر الطرق في زماننا إلى الشهرة ومسقط الأضواء... أما إذا سحقت شعبا أوفريقا منه واغترفت ما شئت من المال العام أو الخاص فسوف يفرش لك البساط الأحمر على مد البصر وتنصب لك التماثيل في كل مكان وميدان . قلت لصاحبي معاذ الله!! حسبي من هذه الدنيا ألا أكون جزارا يذبح الشياه أو شاة يذبحها الجزار!! وهذا يوضح تعلقي بالديمقراطية قبل أن أقرأ عنها فهو تعلق فطري راجع إلى أني لا أرضي بالذل لنفسي أو لغيري وأرفض الاستبداد في جميع الأحوال وأينما كان وعندما قال لي ابرهيم عبود في أول لقاء معه بعد يومين من استيلائه انقلابياً على الحكم إن الأحزاب السياسية أفسدت الحرية وأساءت استخدامها قلت له إن الحرية في أبشع صورها خير من الاستبداد والتسلط على رقاب العباد بقوة السيف والبندقية والدبابات!!

إذن دعـوني أتجـرع تلك الكأس بمحتوياتها المتنافرة فقد ألفتها وألفتني ولعلي لو نبذتها أو نبذتنـي فارقتهـا موجع القلب باكيا ولما يبق من العمر غـير أضغاث !! أقول رداً على أهل الفضول المتسائلين عن عمري إن الستين عاما الأولى من حياة الفتي ليست سوى جولات من التجارب تبدأ بعدها الحياة الحقيقية . وإذا أمضي الفتي الستين الأولى من عمره متشائما فلا بد من أن يعلم الكثير أما إذا أمضاها متفائلا فلن يعلم إلا القليل!! وأدب المذكرات أو السير الذاتية ظاهـرة حديثة نسبيا في مجتمعاتنا العربية والإسلامية ولكنها شاعت في المجتمعات الغربيـة منـذ القرن السادس عشر في انجلترا والسابع عشر في فرنسا وربما يعلل ذلك في أحوال كثـيرة بحب الظهور ولكنه يرجـع في الغالب إلى أن الغربيين يجـدون راحة في الحديث عن أنفسهم أو تحدث الناس عنهم فإذا لم يتيسر لهم ذلك يعمد الواحد منهم إلى تدوين ما يجول في خاطـره عن نفســه ليشغل به الناس . كما يرجـع أيضاً إلى أن الخارجـين على الكنيسة الكاثوليكيـة اتخـذوا من سيراتهم الذاتية بديلا عن الاعتراف أمـام الكاهن بالخطايا والآثام والنوايا المكبوتة .

ولا أدري كغـيري متي سأفارق الحياة الدنيـا لكنني لا أدري خلافا لهم متي دخلتها إذ إن تاريخ مولدي غير معروف أيضاً على وجه التحديد فقد ولدت في عهد لم يكن تسجيل المواليـد فيـه اجبارياً أو حتى متعارفـاً ولم تكن مرافق التسجيل الحكوميـة متوفرة خاصة في القـري . وفي حـالات نادرة قد يجـد الواحد - إن أسعفه الحـظ - تأريخ مولده مسجلا على هامش صفحة من مصحف أبيه أو قريب له . والثابت أني من مواليد قرية القليعة التي تعرف أيضاً باسم الشويباب نسبة للشويب جدنا الأكبر من ناحية الوالدة . وتقع القليعة على ضفة النيل الغربية في دار قبيلة الرباطاب على مسافة نحو خمسمائة كيلو متر من مدينة أم درمان وهـي قرية وادعة وأهلها بسطاء وكل مساكنها مبنيـة من الطين في شريط واحد على امتداد ضفـة النهر ومن النادر أن تجد بيتا خلـف بيت آخر . والقليعة واحدة من القرى التي تشكل مشيخة الترعة الممتدة على مسافة ١٥ ميلا من قرية المراقيب جنوبا إلى قرية الحواتية شمالا .

وتقـع إلى شمـال القليعة مجموعة من القيزان الرملية وغابة صغيرة من أشجار السلم تفصلها عن قرية الحلة التي كانت بها كنيسة في العهد المسيحي داخل سور من الحجر لا يزال قائما حتـى اليـوم . وإلى الجنوب من القليعة قرية أوليس وهذا اسم له ما يقابله على ساحل البحر الاحمـر بالقرب مـن جدة قيل إنه اسم ميناء قديم للسفـن في رحلاتها بين الحجاز وسواكن علـى الساحـل الغربي مما يدعم اعتقـادي باتصال دار الرباطاب مع العـرب منذ زمان موغل في القـدم وهنالـك شواهد أخرى تدل على ذلك بينها قبور وآثـار لحوافر الخيل على الصخور منسوبـة كلها للصحابة . وإذا كان بعض المؤرخين ومنهم العلامة دكتور عبد الله الطيب يرون أن الهجـرة الأولى كانـت لأرض السودان التي تشكل القطاع الغربي من مملكة الحبشة آنذاك فإني لا أستبعد أن تكون دار الرباطاب المقصودة بذلك وكان بين المهاجرين سيدنا عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول عليه السلام . ومن يدري - إذا صدقت الرواية - أنهما عاشا سويـا في قريـة القليعة وكان ثراها موطئا لأقدامهم الشريفـة ؟؟ وهل ساءل أحد نفسه : لماذا خرج أصحاب الفيل بقيادة أبرهة لتحطيم الكعبة دون غيرها من سائر المعابد المقدسة في ذلك العهد كبيت المقدس مثلا؟؟ هل خرجوا لتحطيم الكعبة انتقاما من ابرهيم عليه السلام الذي حطـم معابدهم وأصنامهم ثم عبر البحر الأحمر إلى الضفة الأخرى حيث ابتنى بمعاونة ابنه اسماعيل معبدا أسماه الكعبة؟ ألا يعني ذلك على خلاف ما ورد في الاسرائيليات أننا «قوم ابرهيـم» الذيـن ورد ذكرهم في القرآن الكريم وأن ابرهيم نفسه واحد منا . يضاف إلى ذلك أن في البجراوية آثار معهد قديم لتدريب وترويض الأفيال كما لا ينكر أحد أن مننا السيدة هاجر زوجـة ابرهيم الثانية وأم اسماعيل عليهم السـلام . هذه هواجس عنقالى أو LAYMAN كما يقول الإنجليز فما رأى علمائنا حملة الدرجات السنية العلية؟؟

شيخ مجموعة قري الترعة عطية الله أبشر خال أمى ، رجل قوي البنية ، شديد البأس لا يقبـل الضيم لنفسه ورعيتـه ، جمع كل فضائل أهل القرى مـن طيبة وصفاء وسمو عن الصغائر . جاءه يوماً شاب متظلماً من جاره ومتوعداً بأدخال أصابعه الخمسة في عينيه حتى

يفقأهما . نصح عطية الله الشاب بأن يذهب لتوه ويغرس خمس نخلات لتكون مصدر غيظ دائـم لخصمـه وذريته من بعده بدلا من الاقدام علـى أى عمل آخر انتقاما منه . كان عطية الله يحمـل كل مقومـات ومواصفات الزعامة على مستـوى قومي لا قروي وكان من الممكن أن يكـون كذلـك لو نال حظا من التعليم . قرى الترعة في ذلك الزمان ضمن عمودية العمدة عثمان أبوحجل التابعة بدورها لمشيخة خط بربر تحت إدارة الناظر أيوبيه (اللوبيه) عبد الماجد الـذي يعـد واحدا من أساطـين الإدارة الأهلية ومعروف بولائه المطلـق للسيد عبد الرحمن المهـدي إمام الأنصار . ومن طرائف اللوبيه إنه علم مـرة أن حزب الأمة يزمع ارسال وفد إلى لنـدن يضم محمد صالـح الشنقيطي ومحمد أحمد محجوب وزيـادة أرباب المحامي فطلب اللوبيـه في اصـرار شديد مـن الإمام عبد الرحمن راعي الحزب ضمـه للوفد فلما قيل له إن أعضاء الوفد متعلمون ويتحدثون الإنجليزية رد اللوبيه عليهم إنه سيكون ممثلا للجهل . وذهب بالفعـل مع الوفـد فاجتذب مندوب الجهل الأضواء دون سائر أعضائه وكان اهتمام المسئولين البريطانيين به أشد من اهتمامهم بالآخرين .

وتضـم مجموعة قرى الترعة قرية أذكرها لطرافة اسمها الذي يعد فتحا في علوم النحو . ينسب أهل هذه القرية لجدهم يوسف ولهذا السبب أصبح اسمها «الأسايفة» صيغة جمع تكسير «يوسف» . صيغة عبقرية خفيفة على اللسان وذات وقع رقيق على الأسماع ولو أنصف الناس لجعلـوا مبتدعها في مصاف سيبويه . وأشهر رجال الأسايفة العالم الجليل الشيخ عبد الله أحمد يوسف القاضي الشرعي المعروف الذي عمل في معظم مدن السودان ملتزما بنهج القضاة في صدر الإسـلام إذ كان لا يدخـل مطلقا سوق المدينة التي يعمل فيها مخافة أن يتعرض لما يؤثر على أحكامه . وتربطنا بالشيخ عبد الله «القاضي» قرابة وثيقة من جهة والدتي وله كتاب فريد عن النخيل يعتبر موسوعة نادرة في هذا المجال . هذا الكتاب لا يزال مخطوطة تحتفظ بها دار الوثائق المركزيـة والمأمول أن تجد طريقها إلى النـور كي تعم الفائدة . وأشجار النخيل الطابع المميز لقرية القليعة وقري دار الرباطاب بوجه عام ومدار الحياة فيها . وتعيش النخلة في وجدان كل أحد منذ

نعومـــة أظفــاره يرى فيها امتدادا لحياة أسلافه الذين غرسوها إلى درجة تماثل عقيدة الطوطمية . كما يقاس وزن المرء اجتماعيا وحظه من الثراء بقدر ما يملك من النخيل . والنخلة شجرة مهابة لها قدسيتها دون سائر الأشجار فجذورها تمتد إلى أعماق سحيقة في باطن الأرض مطلعة على أسرارهــا بينما تعانق هامتها عنان السماء حيث الصفاء والنقاء ومنها يتنزل الملائكة . وتشارك النخلة الإنسان في أنها النبتة الوحيدة التي تموت مثل الإنسان إذا قطع رأسها وفصل عن باقي الجسد . وقد شرف الله النخلة بأن نزلت تحتها الصديقة مريم بنت عمران لتهدي للبشرية ابنها عيســى رسول الله وكلمته وروح منه . وجاء في الحديــث قول الرسول صلعم : «أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم وليس من الشجر شيئ يلقح غيرها» أي ينقل صاحبهــا اللقاح من الذكر إلى الأنثى بينما تعتمد الأشجــار الأخرى على الهواء والحشرات ، وأعلــم أنــه حديث ضعيف قال ابن حيان لا يجوز الاحتجــاج براويه الأوزاعي لكثرة ما نسبه زورا للرسول صلعم . ومع ذلك ذكرت هذا الحديث لأنه يثبت على ضعفه مدي تعلق المسلمين وتقديسهم للنخلة .

وقد اشتهر الرباطاب في ما اشتهروا به بالكبرياء والشموخ وبالصبر والعطاء وكلها صفات اكتسبهــا الرباطاب من معايشتهم النخيــل وارتباطهم به . وللنخلة في مجتمع قرية القليعة وما جاورها دور عظيم فهي المعلم الأول للاشتراكية فما من نخلة ملك لفرد وحده وانما ملك لعدد كبير من الوارثين بما في ذلك أصحاب الارض يتقاسمون ريعها الذي يفردون منه نصيبا لمن قام بتلقيح النخلة وقطع سبائطها ولمن حضروا القسمة عند الحصاد . إنها الاشنراكية في أرقي صورها لم يسمع أولئك القوم بها أو قرؤوها في كتاب وانما يمارسونها بالفطرة . وكل قائم على الفطرة فمن عند الله . ومن مظاهر الاشتراكية في مجتمع القليعة وما حولها أن للجميع في النيل مغتسلا باردا وشرابا وأن الشمس تشرق على البيوت وتغيب عنها في وقت واحد دون تمييز لأن البيوت على شريط واحد فلا تجد بيتا يحجب الشمس عن آخر . كما أن الوقود والمرعي بين أشجار النخيل أو في العدوة حق للجميع والكل فيه سواسية .

هـذا عن مسقط رأسي في حضن الاشتراكية أمـا مولدي فإن الاتفاق السائد أني من مواليـد عـام ١٩٢٦ أو ١٩٢٧ وكان ذلك في الشتاء في يوم أطبقت فيه زوبعة صحراوية كثيفة على قرية القليعة وتعرف مثل هذه الزوبعة باسم (الكبتة) ويقال إنها من فعل الجن يركبونها هاربـين عندما يضيـق الملائكة الخناق عليهم!! احتجبت الشمس تمامـا يومذاك وابتلع الليل النهـار ولـولا نهيق حمار جارنا أحمد عكليت لما اهتـدت القابلة زهرة بنت عبد الرحمن في الظـلام الحالك إلى دارنـا لمباشرة مهمتها !! ولكل حمار صوت مميـز يعرف به مثل بصمات الأصابع تماما . ويبدو أن القابلة وصلت متأخرة بأدواتها البدائية الملوثة داخل حقيبة مصنوعة مـن جلـد الغزال . وكانت أمي في تلك اللحظة ممسكـة بالحبل المتدلي من سقف الغرفة وقد اشتـدت بهـا آلام المخاض وحولهـا النسوة يحاولـن تخفيف الألم بدلا مـن البنج بعبارات مشجعـة ومستنجدين بالأولياء الصالحـين . وقالت أمي في ما بعد أن ولادتي كانت متعسرة للغايـة استغرقت وقتا طويلا وإني على حد تعبيرها «من يومك عنيد وراسك قوي « . كانت عمليـة التوليد قاسية محفوفة بأخطار لا حد لها على الأم والجنين في تلك الأيام قبل انتشار القابـلات المدربـات من خريجات «مدرسة الدايات» التي أنشئت في عام ١٩٢١ بجوار ستاد كرة القدم في أم درمان ولم تكن مهمة الخريجات قاصرة على التوليد وانما تشمل أيضاً العناية بالأم وجنينها أثناء فترة الحمل وبعدها بالكشف والفحص بانتظام . وفي البداية كانت معظم الخريجات من القابلات التقليديات الأميات اللائي يميزن بين الأدوية بلونها ورائحتها . مؤسس مدرسة الدايات طبيب بريطاني يدعي دكتور هوفل وتعرف المدرسة باسمه في بعض الأحيان ومن مساعديه السودانيين الذين تدربوا على يديه داؤود اسكندر وعبد الرحمن عتباني اللذان حصلا في ما بعد على زمالة أمراض النساء والولادة من بريطانيا . وابتدعت القابلة البريطانية التـي افتتحت المدرسة فلسفة مقنعة ومقبولة من واقـع المرأة السودانية نفسها إذ كانت تقول لهـن إن الحمـل مثل عملية طهي الطعـام يتحتم على الواحدة كشـف غطاء الحلة بين كل حـين وآخر حتى لا يحـترق الطبيخ (الملاح) وتضيف إليه كميـات مضبوطة من الماء والملح والبهارات حتى ينضج ثم تقدمه إلى زوجها على طبق نظيف وبالهناء والشفاء . وهكذا لا بد

مـن الكشف على الجنين في بطن الحامل بانتظـام كالملاح وإسعافه مع الأم بما يحتاجان إليه مـن دواء (بهارات) إلى أن يخرج الجنـين سليما موفور الصحة . ولهذا السبب عرف الكشف علـى الحوامـل حتى عهد قريب باسم كشف الحلة . كان هذا حـظ الأجيال التي تلتنا فهي بحق «أجيال الحلة» والحلـل أشكال وأفانين منها المصنوعة من الألومينيوم والنحاس وأخرى مـن فاخر المعـادن المطلية المصقولة ووقودها الغاز والكهرباء . امـا نحن جيل «الكنتوش» وهو آنيـة بدائية من الفخار المصنوع مـن طين ليس لازبا أو حمأ غير مسنون وقوده الحطب وروث البهائم ولا غطاء له يحميه من الهوام والحشرات والغبار المشبع بالجراثيم القاتلة . لكن عناية الله كانـت فـوق كل شيء ولا تزال . وللملاح المطبـوخ في الكنتوش مذاق لذيذ ونكهة مميزة خاصة الملوخية والبامية وأوراق اللوبيا .

انتمـي أمـا وأبا لقبيلة الرباطـاب وموطنها بـين الباوقة جنوبا وأبوحمـد شمالا وقد اشتهـر الرباطاب بالذكاء وسرعة البديهـة وبالعبارات الساخرة والردود المفحمة وينعتون بغنم التمسـاح لكثرة ما يفترسـه التمساح منهم في موطنهم على ضفاف النيل أو خلال رحلاتهم الماراثونيةعلـي النيل الأزرق وروافده من الدندر إلى وسط البلاد . وقطع الأخشاب من غابات الدنـدر مهنة يحتكرها الرباطاب دون غيرهم من أهل السودان وكانت تجارة رابحة قبل انتشار فن العمـارة الحديث واستخدام أنواع الوقود المعاصرة المختلفـة . ويعرف الذين يباشرون هذه المهمة بالحطابة وهم قوم أشداء يذهبون إلى الدندر في جماعات في موسم الفيضان ويحتطبون مستعينين بأدوات بدائية . ويصنع الحطابة من الجذوع والفروع التي يقطعونها أطوافا مسطحة ينحـدرون علـى ظهرها إلى الأسواق في مدني والحصاحيصـا والكاملين وأم درمان . وقد تبدأ الرحلـة بعشريـن تختطف التماسيح إثنين أو ثلاثة منهم خـلال «لعبها في البحر» : إشارة لما جاء في مزامير داؤد عليه السلام «ما أعظم أعمالك يارب . كلها بحكمة صنعت . . . والأرض ملآنـة من غناك . . . وهذا البحـر الكبير الواسع الأطراف . . . وهناك دواب بلا عدد صغارها والكبار . . . هناك تجري السفن ولوياثان ﴿التمساح﴾ خلقته ليلعب فيه .»

وأمي الرسالة بنت أحمد عبد القادر التاجر بين مصر والسودان في فترة المهدية ، ويبدو أنـه كان يذهـب بتجارته إلى الحجاز أيضـاً إذ أحضر من هناك في واحدة من رحلاته نخلتين تعرفان باسم «العالم» و«المخيزين» و لا مثيل لهما في دار الرباطاب حتى اليوم وثمرهما شهي يـؤكل رطبا ويابسا وتتميز ثمار المخيزين بلونها الأسود الداكن مثل بلح المدينة المنورة . وكثيرا مـا التقي عمـي الشيخ بابكر بدري في مصـر عندما كان أسيرا بجـدي أحمد عبد القادر ، ووصفـه لي بأنه كان رجلا نحيفا طويل القامة ومتواضعـا لكنه على قدر عظيم من الكبرياء وعـزة النفس . زجره الزبير باشا رحمـة مرة في صلف وغطرسة لأن أحمد عبد القادر لم يكن يـتردد عليه في القاهرة كغيره من التجار السودانيـين الطامعين في ماله ونفوذه . وكانت للزبير حظـوة وكلمـة مسموعة عند الحـكام المصريين فرد عليه أحمد عبد القـادر : يا ود رحمة لا يغرنـك مـا أنت فيـه فالمرء لا قيمة له مهما بلـغ من الجاه والثراء طالما ظـل غريبا عن أهله وعشيرته وأن تأخذ بثأر ابنك سليمان خير وأكرم من نعيم في كنف قتلته!!

وورثت الرسالة الكثير من صفات أبيها وكانت مثله نحيفة طويلة القامة ولعلها سبقت بنـات عصرها في الاصـرار على حقوق المرأة ومقاومة التقاليد الجائـرة التي تكبلها وتحط من قدرهـا ومكانتهـا في المجتمع . فقد حاولـت أمها وهي دون العشرين عقـد قرانها على شيخ متصابـي أكبر منها بعشرات السنين وله من البنـين والبنات من في سنها أو أكبر لكنه غني يمتلـك ثروة طائلة من الأطيان والنخيل والأنعام والرقيق . ورفضت أمي رفضا باتا ورغم ذلك دفـع الشيـخ المتصابي مهرا سخيا وجيء بالمأذون وتم العقد ولم يتعـد الأمر ذلك إذ لم تتنازل الرسالـة عن موقفها رغم الاغـراءات والتهديدات ورغم الوسطاء من الأهل رجالا ونساء ... ويئـس الشيخ في النهاية فكان الطلاق وتزوج فتاة أخرى في مثل سنها من الأشراف المقيمين في دار الرباطـاب مقابـل زواج أبي الفتاة وأخيها من ابنتي الشيـخ المتصابي . لم يكن زواجا ولكنهـا صفقة مقايضة صارخـة في مجتمع بدائي يتعامل مع المرأة وكأنها سلعة تباع نقدا أو بالمقايضـة . كانـت الرسالة يومذاك جريئة في وقفتها ضد التقاليـد الظالمة للمرأة وضد قهرها

وإهدار كرامتها . أطلقتها صيحة تداعي جدار الصمت لها وومضة مزقت أستار الظلام . كان من الممكن في ذلك الزمان أن تفقد الرسالة حياتها أو تقضي بقية عمرها منبوذة في المجتمع . فمــا أحرانا أن نضعها عند تسجيل تأريخ المرأة السودانية جنبا إلى جنب مع رائدات حركات تحــرر المرأة في كل مكان وزمان . لــو كانت الرسالة في مصر لأصبحت مثل هدي شعراوي في شهرتها ودورها في تحريرالمرأة أو دكتورة السعداوي في عصرنا الحاضر .

ولأمي صور عديدة مطبوعة في ذاكرتي حتى اليوم كثيراً ما استرجعها في خضم الحياة ومعتركهــا ولكن صورتها وهي على الحصيرة تؤدي صلاة الصبح تتراءي لي كل صباح تقريبا وهــي تتلو سورا من القرآن ثم تردفهــا بدعوات مطولة لنا ولأهلها من الموتي والأحياء . كانت تلاوتهــا لا تخلــو من أخطاء نحويــة ولغوية كمعظم النساء من جيلهــا ولكني عندما كبرت استطعــت تصحيحهــا ومعاونتها على حفظ آيــة الكرسي وسورتي يــس والواقعة ولم تخف سعادتها بذلك . ولا أنكر أني ورثت من أمي الكثير من الصفات والخصال ولكن ليس بينها القصد في النفقة وتدبير المال .

جدتي لأمي : زينب بنت أبشر – أبو الشر أم أبو البشر لا أدري – إمرأة شجاعة ذات شخصيــة قوية يهابها الجميع ويتقونها .يروي أنها كانــت تسافر وحدها على حمارها المحمل بالتمر لتبيعه في سوق سيدون الواقعة على ضفاف نهر أتبرا وتعود بالذرة وخيرات المدينة من أتــبرا وبربــر . ولم يكن الطريق حينذاك آمنا بين دار الرباطاب ونهر أتبرا إذ كان مشهورا بقطاع الطرق من عرب الحسانية والمناصير والبشاريين وغيرهم من شذاذ الآفاق . وتصدت زينب مرة بسيفهــا الذي لا يفارقها لعصابة اعترضتها ففروا هاربين ظنا منهم أنها فارس مغوار في إهاب أنثي!! وكانت رحمها الله رغم ذلك إمرأة مزواجة لأن الزواج في ذلك الزمان طريق تحرص المرأة عليه لوضع يدها على ثروة الرجل . وهكذا تزوجت جدتي زينب أربع مرات أولهم أحمد عبد القادر . لقد كانت حقا إمرأة جبارة لا تقبل الضيم لنفسها أو غيرها حتى وإن كان من أقرب الناس إليها ولها في ذلك مواقف مع أبيها وإخوانها . ويروي أن حلبيا (غجريا) يدعى محمود

باعها مرة بضاعة مغشوشة ولما عاد مع قافلة الغجر في العام التالي أنكر فعلته فانقضت جدتي عليه وطرحته أرضا رغم ضخامته ولفت حبلا حول عنقه ثم جرته وألقت به في النهر . وراح المسكين يختفي تحت سطح الماء تارة ليظهر تارة أخرى حتى امتلأ جوفه بالماء وأصبح قاب قوسين أو أدني من الهلاك غرقا . لكن جدتي زينب كانت تود بدلا من موته تأديبه وتلقينه درسا لا ينساه طيلة عمره ، فأمرت عبيدها بانتشاله من النهر إلى بر السلامة . وعندما أفاق محمود الغجري من كربته رد لها ضعف ما أخذه منها لقاء بضاعته المغشوشة . وكانت جدتي زينب تؤثرني دون إخوتي بحبها وعطفها ربما لأني أحمل اسم آخر أزواجها . وكثيرا ما تصطحبني معها في مناسبات الأفراح والمآتم . وكان يؤتي لها في تلك المناسبات بصحن مليئ باللحم المحمر لا يشاركها فيه أحد وتلتهمه كله في نهم وشراهة فقد كانت مفرطة في حبها للحوم وإذا مضت أيام طويلة عليها دون لحم تتغشاها نوبة هستيرية لا تهدأ إلا بعد أن تهيأ لها وجبة من اللحم أو بليلة من البقوليات المسلوقة وأشهرها اللوبيا المعروفة بلوبا عفن أو القورسيال وتعرف حبته بالثور .

أما أبي البدوي مالك فقد تلقي في صباه قدرا يسيرا من التعليم الديني في أم درمان على يد العالمين الجليلين ود عبد الماجد (جد أمير ومنصور خالد) وود البدوي (جد سعاد الفاتح) الذي درس عليه مختصر خليل موسوعة المذهب المالكي . وعند افتتاح مشروع الزيداب - أول مشروعات القطن في السودان - عمل أبي مزارعا فيه ثم عاد إلى دار الرباطاب ليواصل العمل في الزراعة ثم أصبح ناظرا لمدرسة الشريك الأولية أول مدرسة للتعليم المعاصر في دار الرباطاب . وكان الشيخ بابكر بدري مفتش التعليم حينذاك قد حصل على تصديق من مدير مصلحة المعارف الإنجليزي لفتح مدرسة أولية في أبوحمد لأن فيها أكبر تجمع سكاني في دار أهله الرباطاب . لكن أهل أبوحمد رفضوا لما جاءهم الشيخ بابكر بنفسه لافتتاح المدرسة وأشبعوه سبا وكادوا أن يعتدوا عليه بالضرب إذ كان الاعتقاد السائد بينهم آنذاك أن المدارس تفسد أخلاق الأولاد وتعلمهم التخنث والانحراف . وقرر الشيخ بابكر - بدلا من

العـودة إلى الخرطوم خائبـا - افتتاح المدرسة في الشريك وهي المنطقة التي فيها أهله الأقربون وصديقه العمدة عثمان أبو حجل . ووقف أبي إلى جانب الشيخ بابكر يشد من أزره حتى تم افتتـاح المدرسة وعين أبي ناظرا لها . ومنذ ذلك العهـد توطدت أواصر الصداقة بين الإثنين زيادة علـى وشيجة القربي . ولم تبق مدرسة الشريك طويلا .أغلقت أبوابها نظرا لقلة الاقبال عليها . ومن خريجيها العمدة سلمان عثمان أبو حجل وخالى أحمد المهدي وعدد من أقاربنا الذيـن التحقوا بمدرسة الصنائع التابعة لمصلحـة السكك الحديدية في أتبرا أمثال عبد الخالق أحمد محمد والحسين الحسن وسيد أحمد الشيخ الذي تقلد مناصب قيادية في نقابة عمال السكك الحديدية .

وتحول والدي بعد إغلاق المدرسة إلى التجارة في كوستي أولا ثم رفاعة ليكون قريبا من شقيقه الأصغر أحمد (أبوعكاز) عند التحاقه بمدرسة رفاعة فقد جرت التقاليد في ذلك الزمان أن يتولي الابن الأكبر في غياب الوالد أمر الأسرة مهما كانت سنه وهذا تقليد محمود تلاشي للأسف مع مرور الزمن . وقد تخرج عمي أبوعكاز مهندساً وعمل مدة طويلة في مصلحة الري ومن بناته نعمات أرملة عبد الخالق محجوب ، وأم المهدي زوجة محمد حبيب الله .

كان أبي فوق العاشرة بقليل عندما توفي أبوه مالك في الدويم تاركا وراءه ثروة طائلة من المـال والأراضي الزراعية في بربر والنيل الأبيض والجزيرة . وتولي عمي عثمان أمر تلك الثروة الطائلـة بعـد وفاة أبيه مالك ولم يكن عثمان أكبر أنجاله وانما كان له أخ شقيق أكبر منه معتوه فاقـد العقل اسمه محمد أحمد ومشهور بلقب (البيه) لأنـه كان في مستهل شبابه وبفضل ثراء أبيه فتي لعوبا ومدللا . أما أبناء مالك الإخرون فهم ابرهيم ومجذوب القاضيان الشرعيان ثـم الأشقاء البدويْ وأحمد وبتول وعائشة وأمهم ستنا الرباطابية الفتيحابية . ثم محمد وأمه حـواء الحبشيـة الأمهرية والطيب وخـادم الله . وهنالك أيضاً زينب وأمهـا النسيم بنت عبد الرحمـن إمرأة تقية صالحـة ، تعلمت الكتابة والقراءة وحفظت القرآن في مصر خلال اقامتها هناك ضمن من وقعوا في الأسر في صعيد مصر ، بعد هزيمة جيش الدراويش المهدويين بقيادة

الأمير الباسل عبد الرحمن النجومي ، الذي أرسله الخليفة عبد الله في حملة انتحارية ظاهرها غـزو مصر وباطنها تخلص الخليفة عبد الله من خصومه . وكانت زينب حسناء رائعة الجمال بالمقاييس السودانية ، خطبها الشاعر محمد سعيد العباسي الذي تربطه صلات صداقة وطيدة بالأسرة ، ولسبب أو آخر لم يجد قبولا وقال فيها قصيدته ذكري حبيب ومنها :

وإن تسألي يا زينب إبنة مالك فلله ما لاقيت فيك من السهد

ويبدو مما ذكرت أن جدي مالك كان رجلا مزواجا ، فقد أحصيت له سبع زوجات من قبيلة الرباطاب وغيرها ، وربما يرجع هذا لكثرة أسفاره . وقد غاب مرة بعد زواجه من جدتي ستنا بنت برة في رحلة طويلة رافقه فيها صديقه باتار الشاعر الرباطابي . لم يخف مالك عن صديقه وجده والتياعه فأنشد باتار أبياتا منها :

مالك وقع وإنقد قدا ما اترقع
فارق جديات النقع بنات برة كسرن عضمو كع

وبرة هذه من قبيلة الفتيحاب سكان أم درمان الأصليين ، ومن أقاربها الطبيب البلدي مصطفي بتي وعمتي حلبية بنت ستنا زوجة حامد أفندي البدوي من كبار موظفي الحكومة التركية قبل المهدية ، وعمل حامد أفندي في عهد الإدارة البريطانية مع سلاطين باشا في قلم المخابرات . اما حلبية فقد اشتهرت بجمالها الصارخ وقيل إنها الحسناء التي قصدها الشاعر الغنائي أبوصلاح في أغنية «بدور القلعة» . والقلعة حي في أم درمان يعرف بقلعة الفتيحاب ، فيه مساكن آل حامد البدوي والنور الجريفاوي وصالح جبريل الذى تنسب القلعة إليه أيضاً . ومن أبناء عمتي حلبية الشاعران حسن وعلي صاحب أغنية «عشت يا سوداني» . ومن أقارب جدتي ستنا لأبيها بابكر ود رخيص أول سائق قطار سوداني ، وكانت أولى رحلة له إلى بورتسودان وقيل أنه عندما بلغ موضعا محازيا لدار لشريفة مريم الميرغنية قي سنكات ، أطلق صفارة القطار تحية للشريفة وتبركا . وأصبح ذلك تقليدا متبعا درج عليه سائقو القطارات حتى

عهد قريب . ويروي من كرامات الشريفة مريم أن سائقا تجاهل هذا التقليد عمدا ، فلما بلغ القطار الهضبة التي يصعدها ثم ينحدر صوب بورتسودان رجع القطار مندفعا بقوة إلى الوراء وعجز السائق عن إيقافه وانطلق القطار منحدرا «كجلمود صخر حطه السيل من عل» عائدا إلى سنكات!! وعفت الشريفة مريم عن السائق ، لما جاءها معتذرا ونادما على فعلته ، وتحرك القطار بعد ذلك مستأنفا رحلته إلى بورتسودان!!

ولبرة ثلاث بنات غير جدتي ستنا وولد واحد يسمي يوسف عمل كاتبا في ديوان غوردون آخر حاكم عام للسودان في العهد التركي .

كان يوسف خطاطا بارعا كما ذكر لي الشيخ بابكر بدري . واتهم يوسف بالاشتراك في مؤامرة الأشراف (أسرة الامام المهدي) ضد الخليفة عبد الله فنفاه الخليفة مع الأمير محمد عثمان أبو قرجة إلى الرجاف في الجنوب . وتمكن الاثنان في أواخر عهد المهدية من الهروب إلى الفاشر عاصمة دارفور حيث توفي يوسف بينما عاد الأمير أبو قرجة إلى أهله في مدينة القطينة جنوبي الخرطوم وعينته الإدارة البريطانية عمدة للدناقلة في المدينة . ويسجل التأريخ للأمير أبوقرجة أنه قائد جيش المهدي الذي اخترق لأول مرة في التأريخ المربع الإنجليزي في معركة شيكان ، قبل أن يخترقه ثانيةالأمير عثمان دقنة في شرق السودان . وينتمي الأمير أبو قرجة إلى أسرة حاكمة في احدي الممالك القديمة في دنقلا . ومن أبنائه نصر زوج عمتي خادم الله والأمير كنتباي أبوقرجة زوج السارة بابكر بدري .

كان جدي مالك من مشاهير التجار وأوفرهم ثراء منذ عهد الحكم التركي ، يعمل بين مصر والسودان في تجارة الصمغ وريش النعام وسن الفيل والرقيق ، ويستورد من الخارج العطور والسجاد والمنسوجات ، ومقره الرئيسي في الدويم . وابتلي جدي مالك في عهد المهدية بالسجن ومصادرة تجارته مراراً وتكراراً على أيدي رهط الخليفة عبد الله ، مما اضطره إلى الاحتماء في آخر الأمر بالحاج خالد العمرابي أمير الجعليين ، مدعيا أنه عمرابي مثله وليس رباطابيا!! وقد استند مالك في إدعائه إلى قصة متداولة ، مفادها أن جدتنا تزوجها أولا عمرابي عابر

سبيـل رمي به الطريق إلى دار الرباطاب ، ثـم اختفي العمرابي فتزوجها ابن عمها الرباطابي قبل اكمال العدة ، التي لم يكن معمولا بها في السودان رغم انتشار الإسلام حتى أواخر عهد السلطنـة الزرقاء . وأنجبـت جدتنا ولدا أصلع الرأس بعد وفاة زوجها الرباطابي الذي كان وليا صالحا ، قال عندما حضره الموت إذا جاء الوليد أصلعا فهو ابنه . وهكذا سمي الوليد (شكاك أبـو ضكيليم) نسبة لصلعـه وللشكوك التي حامت حول نسبته ، واليه تنتمي أسرتنا الكبيرة المعروفـة بالشكاكيك نسبة لجدهم المشكوك في نسبه . وظل جدي مالك تحت حماية الأمير حاج خالد ثم ابنه محمد عثمان طيلة عهد المهدية ، ومعروفا بمالك العمرابي .

وعندمـا تشكلت الحكومة القومية من الختمية والأنصار عقب استقلال السودان أقيم حفـل استقبال كبير في القصر الجمهوري وكان يقـف فيه مع الدرديري محمد عثمان رئيس مجلـس السيادة وحفيد الأمير حـاج خالد السيدان الصديق المهـدي وخاله محمد الخليفة شريف . ولما تقدمت لتحيتهم قال لي الدرديري مداعبا كعادته :

ـ يا شاطر متي ستعلن عمرابيتك ؟؟

ـ سأفعل ذلك قريبا إذ يبدو أن المهدية على الأبواب ياعمي الدرديري!!

وضحـك ثلاثتهم . وروي الدرديـري للسيد الصديق وخاله القصـة كاملة ... وكان الأنصـار بالفعـل المهيمنين على المناصـب الوزارية الرئيسية في الحكومـة القومية فضلا عن منصـب رئيس الوزراء (عبـد الله خليل) . وأصبح السيد الصديق منـذ ذلك اليوم يناديني بالعمرابـي أما خاله محمـد الخليفة شريف وهو مناكف خفيف الظـل وسليط اللسان في آن واحد فقد أصبح يناديني «يا ود الحرام» ، وهو تعبير شائع في السودان بين الأصدقاء والأخوان مثل عبارة ابن الكلب عند المصريين!! وكانت بيني وبين السيد محمد مودة وصداقة حميمة ، رغم فارق السن ، ورغم عنفه وشراسته ضد الجمهوريين الاشتراكيين ، وعنفي وشراستي أيضاً ضد حزب الأمة والأنصار في ماضيهم وحاضرهم .

علي أية حال جدنا شكاك رباطابي حتى النخاع ،لكن من الممكن أن نصبح عمرابيين عند اللزوم ومن يدري لعل وعسي ؟؟ لا سيما أن من شعارات حزب الأمة : البلد بلدنا ونحن أسيادها؟؟

وموطن أسرتنا (الشكاكيك) جزيرتان في دار الرباطاب ، هما مرو وكشوي غربي أبوهشيم وجنوبي أبوحمد . وأشهر بيوتات الشكاكيك يعرفون بالدوداب وهم أبناء الشقيقين الصادق جد بابكر بدري وأحمد المشهور بود نوري أبوعكاز جد أبي . ويعرفون بالدوداب نسبة لجدتهم بنت ود دود من قبيلة البشاريين . وجدنا أحمد ودنوري ولي صالح ، لقب بأبو عكاز لعصاه الغليظة التي تنسب اليها كرامات عديدة أشبه بمعجزات عصا موسي عليه السلام . واشتهر بلقب ود نوري لأنه درس القرآن وعلوم الدين في بلدة نوري في بلاد الشايقية . وقيل أنه توفي هناك ، وحملت الملائكة جثمانه الطاهر إلى دار الرباطاب حيث دفن مع أسلافه في جزيرة مرو . وليس في هذا غرابة عند من يؤمنون بالملائكة وكرامات الأولياء أحياء وأمواتا!! لكن ربما يكون تفسيره العقلاني أن المرض داهم أبو عكاز أو اشتد عليه في طريق عودته على ظهر مركب شراعية من نوري إلى أهله ، ووصلت المركب إلى جزيرة مرو ليلا فأنزلوه على الشاطئ ثم مضت المركب في طريقها ليكتشفه أهله في الصباح جثة هامدة!!

الجمعية الأدبية – الأحفاد الوسطي ١٩٤٠

من اليمين إلى الشمال :

الواقفون :

الصـف الأول : عبـد الرحمن حسن أبوالعلا – وجيـه توفيق – حسن سلامة – حسن طالب اسماعيل – ؟؟ – يونس ابرهيم القاضي – هارون عبد الرحمن شوقي – حسين الطاهـر –عبد العزيز المنياوي – محمد العوض سلمان – أحمد الطيب شرفي – عبد الحميد خليل .

الصـف الثاني : محمد خير البدوي – سلمان بدري – عبد الرحيم عثمان صالح – محمود طالب اسمعيل – محمد الخير عمر أزرق – التجاني الطيب بابكر – محمد عز الدين الحسين – منصور عبد الرحمن – ؟؟– يعقوب عبد القادر خليل – أحمد عوض جبارة .

الصف الثالث : سعد الدين محمد علي – ابرهيم الياس رحمة الله – نيازي يوسف – عبـد الفتـاح فضل المولي – . . الأمـين – جبر الله غالى – حسن محمـد حسن – مبارك مصطفـي كاشنتـوت – سعد الدين حامد محمد علي – . . . الفكـي – نظام الدين الريح العيدروس .

سعـد الديـن كامل المقاول – صلاح أمبابي – ابرهيم ولزلي – عزيز مالك – الأستاذ شيـخ الدين جبريـل – الأستاذ محمد أحمد ياجي – محمد سيد أحمد عرديب – فاروق ميرغني شكاك – خالد الخير عمر أزرق – عمر أبوالقاسم هاشم .

محطـة ٢

* نشأة الخطوط الحديدية * خليل فرح في القضارف * ذبيح الرسول * النبي صلعم بين الرؤية والرؤيا * الرحلة من القضارف لمدني * السحرة في سنار * بابكر بدري والبقيع والأحفاد * جولة دائرية في العاصمة * حكايات عمتي البتول * الوليد الذي أفزع الحاكم العام * ملامح أمدرمانية في الثلاثينات * أبي وعمي يوسف بدرى جاران في ضيافة ود تكتوك * مدرسة في حي العاهرات * حياتي في الحوش وليالى المديح * ندوة الجمعية الأدبية في الأحفاد * الشيخ دفع الله الغرقان * ذبحت الحرباء بشفرة حلاقة * خريجو كلية غوردون التذكارية حرروا ثلاثة أقطار عربية * الخطيئة الأولى وغدة جي.(G)

اخـترت عنوان هذا الكتاب تلقائيا بلا كد وإجهاد أواجتهاد ، ثم أضفت اليه المؤانسة والمجالسة ، لأني أطمع أن يكون لمن يقتنيه - كما قال المتنبي - خيرأنيس وجليس في الدنيا . وكان االصديق البروفيسورمحمد عمر بشير الشايقي يحثني على تدوين مذكراتي فأسأله ماذا أكتب ؟ فيرد قائلا : ياخي كفاية تكتب فقط ما نسمعه منك في الونسة!! وفي الواقع أن عبارة «قطار العمر» لم تأت من فراغ فقد أمضيت ما يعرف بسنوات التكوين في عالم القطارات ، إذ إن والـدي التحق بعد التجارة بمصلحة الخطـوط الحديدية أوما يعرف حينذاك بسكك حديد السودان ، ويرمز اليها اختصارا بحرفي «S R» . وترجع نشأتها إلى عام ١٨٩٦ في بداية الحملة التـي قادها لورد كتشـنر لاسترجاع السودان . ووصل الخط الحديـدي بالفعل إلى بلدة كرمة في اقليـم دنقلا في مايو ١٨٩٧ ، ثـم في اكتوبر من نفس العام إلى أبوحمد ومنها إلى الخرطوم

بحـري في آخر عام ١٨٩٩ . وبعد تشييد الجسرين علـى النيل الأزرق بين الخرطوم والخرطوم بحـري وعلي النيل الأبيض عند مدينة كوستي ، تم في الثلاثين من ديسمبر ١٩١١ مد الخط الحديدي إلى الأبيض عبر الجزيرة بدلا من غرب النيل الأبيض تنفيذا لنصيحة سلاطين باشا بعـد حركة عبد القادر ودحبوبة التي حركها سلاطين لدعم تخوفه من انبعاث «المهدية» من أرضـ الجزيـرة إذا قدر لها ذلك . ومن ناحية أخرى امتد الخـط الحديدي من أتبرا إلى ميناء بورتسـودان في ٢٧ يناير١٩٠٦ ، وكان ذلك قبل ثلاث سنوات من قيام خديوي مصر بافتتاح الميـنـاء رسميـا . وفي مرحلة لاحقة مد الخط إلى بورتسـودان عبر القضارف وكسلا . وتم تمويل الشبكة الحديدية في مراحلها الأولى بقروض فرضتها الإدارة البريطانية على الخزانة المصرية . ومعظم الأيدي العاملة التي أسهمت في مد الخطوط الحديدية من أبناء الرباطاب الذين جاء بهـم العـم مصطفى تكونة المتعهد بجلـب العمال . ويرجع إلى ذلك ارتبـاط أبناء الرباطاب بالعمـل في «الدريسـة» كارتباط أبنـاء الشايقية بالجندية . والدريسة هـم فرق عمال صيانة قضبـان الخطوط الحديدية وتجديـد التالف منها .ولكل فرقة رئيـس يدعى الحكمدار يخضع لإشراف مهندسين فنيين بريطانيين أو سودانيين من خريجي كلية غوردون التذكارية ، اشتهر مـن أبكارهم محمد الفضـل وأمين محمد على السنجاوي ويوسف سكر ومحمود محمد طه وأبـو القاسم حاج حمد الرباطابي . وقد أسهمت الدريسة السودانية بخبراتها في أوائل القرن الماضي في مد الخطوط الحديدية في إيران وبعض البلدان العربية .

وتنقـل أبـي في عمله بين محطات عديـدة ابتداء من أدني الوظائـف ، إلى أن أصبح كاتبـا للشحن أو ما يعرف بكاتب البضاعة . وعندمـا بلغت سن الإدراك في حوالى الخامسة مـن عمـري كنا في محطة القضارف نقطن في قطية (كوخ) في حي المحطة مبنية من الحجر ، وسقفهـا المخروطي من الخرسانة المسلحة ، ينتهي في قمته بفتحة يعلوها غطاء حديدي يشبه القبعة وينبعث منه صفير عند مرور الهواء في طريقه إلى الداخل .ويصير الصفير عاليا ومخيفا في موسم الرياح عندما يختلط ليلا بعواء الذئاب . وللقطية نافذة واحدة وأمامها فناء (حوش)

صغـير . في تلك القطية الضيقة كانت تعيشـ أسرتنا : أبي وأمي وشخصي وشقيقاي مالك والتجاني . وقام أبي بتشييد عشة (راكوبة) في ركن الحوش من الأعواد والقصب ، كانت بمثابة المطبخ ومأوي لمعيزنا الأربعة والدجاج . ثم انتقلنا من القطية إلى مسكن في نفس الحي مؤلف من قطيتين وفناء أرحب . وانتقلت الراكوبة معنا بسكانها من المعيز والدجاج . كان قربه كل مجموعـة من تلك القطاطي بيتـان للراحة متلاصقان ، أحدهما للحريم ، والآخر للرجال يقوم عامل من أهل غرب افريقيا بتفريغ جرادلهما كل ليلة . ويتزود الحي كله بالماء النقي من عربة صهريج ، كعربات نقل البنزين . وتتاخم مبني المحطة من ناحية الشرق زريبة الصمغ وغربال السمسم . ومنطقة القضارف لا تزال حتى اليوم أكبر المناطق لانتاج الصمغ العربي والسمسم والغلال والفول السوداني .

والتحق أخي مالك بالمدرسة الأولية لكني لم أقبل فيها لصغر سني ، ثم قبلت بصورة غير رسمية في العام التالي ولما أبلغ السن القانونية ، بفضل وساطة عمي مجدوب لدي صديقه كريم الدين ناظر المدرسة . وكان من زملائي في الفصل خليل نصر الدين بكر الذي أصبح في ما بعد من قادة الحزب الشيوعي وابن عمه الرشيد الطاهر المحامي والسياسي المعروف .

كنـت مولعا باصطياد الطيور التي تأتي أسرابها في الصباح الباكر أو العصر إلى الغربال لالتقاط حبات الغلال المتناثرة حول فنائه . وكان لي شركان ، أحدهما قلوبية معدنية ، والآخر مـن سبيبـب ذيول الحمير . وفي ذات يوم وقع في الشـرك زرزور صغير يعرف بيننا باسم ذبيح الرسول ، لأن حول عنقه طوقا أحمر اللون . وحملت صيدي فرحا إلى البيت ، ولما رأتني أمي صاحت في وجهي :

* ويلك يا شقي هذا زرزور الرسول ألم تجد طيرا غيره ؟
* لقد سعى دون أن أدعوه إلى الشرك المنصوب لقمرية .
* إذن أطلق سراحه قبل أن يغضب الرسول علينا ويحشرنا في النار يوم القيامة!
* ولماذا لا تستنجدين بجدي أبو عكاز مثلما تفعلين كل مرة؟؟

وتناولت أمي الزرزور في حنان بالغ وهمست في أذنيه بكلام ، لعله اعتذار أو لتخفيف روعه ، ثم سقته عسلا مذابا في الماء ، وعطرته بالزباد الذي تحتفظ به في جونة هي في الأصل قـرن غزال . ثم أطلقت والدتي الزرزور رغم احتجاجي فطار ، وظللت أتبعه حتى اختفي عن الأنظـار ، بعيدا في السماء . ودخل في روعي حينذاك أن الزرزور ذبيح الرسول سيلقي الرسول في السمـاء ويشكـوني اليه ، وسيكون مصيري النار لا محالة . إنهـا سذاجة الطفولة التي لا تـري مكانـا للأنبياء أجـدر من السماء ، كمـا أن العقاب في الآخرة بالنار أقـرب إلى أفهام الأطفـال مـن الجزاء الحسن . فالطفـل يري النار كل يوم حوله ويدرك مـا تفعله لا سيما في مدينة كالقضارف ، حيث تلتهم الحرائق كل يوم تقريبا عشرات المساكن المبنية من القش ، في حين أن مدارك الطفل من ناحية أخرى تقصر ، عن فهم نعيم الجنة من حور وخمور وشراب طهور ، فهذه أشياء لا معني لها عنده في تلك المرحلة من العمر . ثم أن الخوف لصيق بغريزة البقـاء التـي تولد مع الطفل ، بل إنها هي التي تدفعـه للخروج من بطن أمه إلى حيز أرحب ملائم للنمو والبقاء . وانخرطت أمي في تلك الليلة بعد صلاة العشاء في ملحمة من الدعاء ، فلم تترك وليا لم تستنجد به ابتداء بالحسن أبجلابية ومرورا بتور كدباس وانتهاء بمؤدب الفيلة والآخر الذي صار صقرا واختطف القفة من رأس الهمباتية سارقة عشاء الأيتام .

أويت إلى فراشي مهموما وقد استبدت بي المخاوف والهواجس ، لأني أغضبت الرسول عليـه السلام باعتدائي على طيره . وأخذت أتقلـب في الفراش مؤرقا من شدة القلق ، حتى غرقـت في آخر الأمر في نوم عميق ، فرأيـت في المنام الرسول صلي الله عليه وسلم على ظهر جواد أبيض مجنح مع نفر من الرجال على ظهور الحمير بالقرب من الغربال ، في نفس الموقع الـذي نصبت فيه الشرك .كانوا جميعا سمر اللـون ومتلفحين بثياب بيضاء ، وعلي رؤوسهم عمامـات بيضاء أيضاً . وتقدم نحـوي واحد منهم لعله جدي أبوعكاز ، لأنه كان يتوكأ على عصا غليظة ، وقال لي مشيرا بيده إلى راكب الجواد : ذلك هو الرسول وقد عفا عنك هذه المرة ، لكن حذار أن تمس طيره بشر مرة ثانية ، وقل لأمك إن عليها قربانا من ذوات الأربع .

ثـم صعد الرسول صلعم على جـواده المجنح صوب السمـاء ، في نفس الاتجاه الذي سلكه الزرزور في اليوم السابق!!

لم يصدق أبي وأمي عندما حكيت لهما في الصباح رؤياي في المنام . ونقل أبي القصة إلى زملائـه في العمل وذهبت معهم في العصـر إلى الموقع الذي أذكره حتى اليوم بدقة وعلي وجـه التحديد ... وكانت المفاجأة المذهلة أنهم وجـدوا فيه بالفعل آثار حوافرالحمير والجواد المجنـح . على أية حال لم يخلـف الحلم في نفسي حين كبرت أي أثر سلبي أو إيجابي ، وهو في عقيدتـي مجرد حلـم مرجعه عامل الخوف من عذاب النار لا أكـثر أو أقل . ولا أنكر أن مثـل هذه الرؤيـا أمر جائز كسائر الأحلام ، لا يعني بالضرورة أن من رأيت في المنام هو النبي حقـا . يجب أن نتناول مع ذرة من الملح الحديثين اللذين رواهما أبو هريرة وأبوقتادة رضي الله عنهمـا في هذا الصدد . ويـروي أن القاضي ودشين (قاضي العدالة) في عهد السلطنة الزرقاء أصيب بمرض جلدي ، عندما أفتي بفسخ زواج الولي الصالح ود الهميم بشقيقتين في آن واحد لأنـه حـرام شرعا ، فرد عليه ود الهميم قائلا : فسخ الله جلدك يا ودشين مثلما أفتيت بفسخ زواجـي منهمـا!! وأصيب ودشين بالفعل وعلي الفور بمرض جلـدي عضال وانتشرت القروح في جسـده . وتقول الرواية إن ود شين رأي في المنام الرسول عليه السلام وطلب منه أن يعتذر لـود الهميم ، ولم يتردد ود دشـين في الاعتذار فشفي من مرضه!! وقد ظهر في آخر المطاف أن الزوجتين المعنيتين ليستا شقيقتين وانما جاريتان لأحدهم . والقصة طويلة انتهت بوضع اللبنة الأولى لمدينة ود مدني عاصمة الجزيرة ، ولمن أراد المزيد عليه بكتاب طبقات ود ضيف الله .

أمـا القول برؤية ﴿لا رؤيـا﴾ النبي صلعم في اليقظة ، كما يزعـم ، البعض فإنها من الشطحـات الصوفية مأخوذة عن أدبيات بني اسرائيل وديانات أخرى غير سماوية كالحلولية والتناسخ عند الهنود كما أنها لا تستقيم مع الآيات القرآنية التي تشدد على أن النبي صلعم من طينة البشر ، يأكل الطعام ، ويغشي الأسواق ، ويعتريه الموت مثلهم . وما من مخلوق حتى الأنبيـاء يشارك الله في الوحدانيـة والقدم . ومن يؤمن بغير ذلك فهو مشرك وكافر لا محالة!!

وليس النبي محمد صلعم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، في حاجة إلى معجزات ، وكفاه القرآن المعجزة الكبري الباقية على مر الأيام . كما أن الإسلام نفسه دين كامل ومكتمل ليس في حاجة إلى أضافات منذ حجة الوداع .

أقول هذا مع اعترافي بأن ثقافتي الدينية محدودة للغاية وتغلب عليها أفكار المعتزلة ،لكن أليس الإسلام دين الفطرة ؟؟ ثم أنني من جيل سلك بدافع فطرته طريق المعرفة لفهم القرآن ، وأخضاع ما جاء به لحكم العقل ، عكس من سلكوا من أجيال سابقة ولاحقة طريق القرآن إلى المعرفة!! طعام واحد تناولناه بالعلم على أطباق من فضة وذهب ، وتناوله آخرون بجهلهم على أطباق من طين وخشب . ولا أدعي أنني من أولياء الله الصالحين الذين يمشون فوق الماء أو يخترقون حجب الغيب ، بل ربما أكون في بعض الأحيان أقرب إلى الشيطان ، ومع ذلك أعلم أن الله يحبني ربما لأني لم أؤذي في حياتي أحدا من خلقه . وما ألفيت نفسي في مأزق إلا وهيأ الله لي أسباب الخروج منه . وهو بالمرصاد لمن ظلموني يعجل بعقابهم في الدنيا قبل الآخرة .

كانت دارنا في القضارف لا تخلو من الزوار من أهلنا ومعارفنا ، بعضهم عابرون وبعض يقيم أياما ، أذكر ثلاثة جاءوا لزيارتنا ممتطيا كل منهم جوادا هم : ابرهيم بدري وصديقان له ، عرفت بعد سنوات إنهما المطرب الفنان خليل فرح وبابكر القباني .جاؤا لزيارة صديق من ضباط الجيش في القضارف ....وقد حزن أبي حزنا شديدا عندما بلغه بعد سنوات نبأ وفاة خليل فرح ، وكثيرا ما تدمع عيناه عندما يسمع أغنيته «عزة في هواك» .

ومن القضارف نقل أبي إلى ود مدني ، فارتحلنا اليها بالقطار في عربة شحن ، بدلا من عربات الركاب . وهذه ميزة لا تمنح لغير موظفي السكك الحديدية . العربة كالحاوية عبارة عن غرفة متنقلة ، تكدس فيها كل ما لدينا من أثاث وحقائب ، بالإضافة إلى الدجاج والمعيز ، ووابور الغاز والصاج لتحضير الكسرة . ليس للعربة نوافذ . لكن لها باب واسع مفتوح ، لا بد من وضع عنقريب(سرير بلدي) كحاجز على عرضه حتى لا نسقط أثناء انطلاق القطار ، أو تهرب المعيز والدجاج .

وصلنا ليلا إلى محطة سنار التقاطع فحولتنا أمي ونحن نيام ، إلى أقصي ركن في العربة وغطتنــا ببرشــ (حصيرة) . فقد كانت الخرافة السائدة وربما حتــى الآن أن سنار التقاطع بلد السحــرة منذ قديم الزمان ومنهم السحرة الذين جاء بهم فرعون لتحدي موسي عليه السلام . ولما انتصر موسى وصاح السحرة معلنين إيمانهم برب موسي ، صاح فرعون فيهم : إنه كبيركم الذي علمكم السحر ، مما يوحي بأن موسى عليه السلام كان يعرفهم . وتقول الخرافة أيضاً إن موســى تعلم السحر هناك في منطقــة الدمازين المعروفة بالسحر حتى اليوم . والدمازين صيغة جمع مفردها دمزون من الأسماء المتعارفة ، التي ينادي الساحر بها خادمه من الجن . والخرافة في بعض الأحيان ليست بعيدة عن الحقيقة!!

استغرقــت الرحلــة إلى مــدني ثلاثة أيام نظــرا لبطء قطارات الشحــن وتسكعها بين المحطــات . وجدنــا في انتظارنا هذه المرة بيتا مريحا من الطــوب في حي المحطة ، يضم ثلاث غــرف وصالة والمنافــع وفناء أماميا ، يحيط بــه سور من شجر الحناء . هــذا المسكن الفسيح المريــح وواحد من إثني عشر مسكنا متلاصقات ، أمام كل ثلاثة منها حنفية الماء المشتركة . ولنــا جارا ن مباشران هما السيد أفندي وكيل التلغراف والد دكتور مصطفي من رواد الحركة الشيوعيــة ، والمعلــم أحمد حماد المسئول عــن صيانة القضبان (الدريســة) وابنه ابرهيم من مشاهــير لاعبي كرة القــدم في ود مدني . ومن جيراننا غير المباشرين حبيب أفندي القبطي ، والشاطر أفندي بصيلي المصري ، وله ابنة اسمها كوكب أجمل فتيات الحي ، وكذلك محمد أفنــدي عبد الوهاب والد عبــد الوهاب بوب المحامي ، ثم الباشكاتــب النورأفندي مصطفي الــذي يرتدي دائما بدلة بيضاء كاملــة وطربوشا ، وعرفت في ما بعد أنه كان نشطا في حركة اللواء الأبيض التي قادت ما تعرف في السودان بثورة ١٩٢٤ . وللنور أفندي أربعة أولاد أحدهم بابكــر ، وبنتان إحداهما ستنا التي كنت أقول لأمها أني سوف أتزوجها عندما أكبر ، وأصبح باشكاتبــا كأبيها . ولا أدري هل كنت جادا أم مــن أجل المليمات التي تنفحني أم ستنا بها من حين لآخر .

ومجتمع حي المحطة يعيش في ألفة وأخاء ، سكانه مترابطون كالأسرة الواحدة ، ومتكاتفون في السراء والضراء .يخضعون لمقتضيات السلم الوظيفي حتى خارج ساعات العمل ، فالمرؤوس يؤدي لرئيسه عن طيبة نفس العديد من الخدمات المنزلية ، مثل الكنس وغسل الملابس وكيها ، ونسج العناقريب وملء الجرار بالماء .ومكانة المرأة بين نساء الحي تتكيف حسب درجة زوجها ، عليها أو لها من الحقوق والواجبات في مجتمع الحريم ما على زوجها ، أو له في مجتمع الرجال خارج ساعات العمل . ويرجع هذا النمط من الحياة الاجتماعية إلى نشأة مصلحة السكك الحديدية العسكرية منذ عهد لورد كتشنر . كان أبي رحمه الله زاهدا يحتقر المال ، وكثيرا ما أسمعه يردد في مجالسه عبارة «الدنيا جيفة وطلابها كلاب» وكان بوسعه أن يحصل على مال وفير كرشوة بوصفه المسئول عن قسم الشحن في محطة ود مدني . لكنه بقي قانعا بمرتبه الشهري الحلال . وأذكر أن عمي اسماعيل بواب السينما أدخلنا مرة بالمجان لمشاهدة فيلم «معروف البدوي» . ولما علم أبي بذلك في اليوم التالي استشاط غضبا ، وذهب بنفسه ودفع قيمة التذاكر كاملة .

وبعد أسابيع قليلة من وصولنا ود مدني زارنا عمي الشيخ بابكر بدري ، في جولة ماراثونية لجمع التبرعات لتشييد مباني مدرسة الأحفاد في أم درمان ، قبالة قصر أبو العلا (دار حزب الأمة حاليا) على الأرض ، التي منحه لها مستر برامبل مفتش مركز أم درمان . جاء الشيخ بابكر حاملا دفاتر في كل دفتر مائة تذكرة قيمة الواحدة خمسة مليمات ، أدني ما يمكن أن يتبرع المرء به . ولا يجد الشيخ غضاضة في ذلك لأن همه الأول - كان ذلك في عام ١٩٣٤- اشراك جميع الشعب في بناء الأحفاد ، كل في حدود قدراته ، حتى يصبح الشعب في المستقبل مالكها المدافع عنها . وأمضي الشيخ بابكر في ضيافتنا عشرة أيام ، وتعود أن يأخذني معه عصر كل يوم ، إلى عمتي البقيع بنت عثمان ، في بيتها الكائن في طرف سوق ود مدني قبالة مقر شركة سودان ماركنتايل ، وبالقرب من بنك باركليز . وتصنع البقيع لزائرها القهوة (الجبنة) على الطريقة السودانية ويتسامران ، بينما ألهو بقطعة الحلوي التي اشتراها لي الشيخ بابكر في الطريق ، من دكان اليوناني المجاور للمحطة . ما كنت أعلم

حتى ذلك الحين أن الشيخ بابكر تزوج البقيع أيام الأسر في مصر ، وطلقها على مضض تحت ضغـط إخوانها ، ليتزوجهـا الزبير باشا الذي لم تبق معه زمنا طويـلا . ولم تنجب البقيع من الزبير باشا أو من الشيخ بابكر ، لكن رزقها الله بالبنين والبنات من زوجها الثالث ، وهو رجل عادي من أهلنا في بربر ، ولها اليوم أحفاد نجباء لهم مكانة مرموقة في المجتمع خاصة في دنيا المال والأعمال والرياضة . وقد تزوج الشيخ بابكر نساء كثيرات ، لكن من إطلعوا على سيرته الذاتيـة في كتـاب «حياتي» يعرفون أنه لم يحب أمرأة مثل حبـه للبقيع . واسم البقيع واحد مـن أسماء كثيرة شائعـة في السودان مستقاة من السيرة النبوية مثل مدينة وأم رخام وأم قزاز والشبـاك وكلها أسماء للمدينة المنورة وقبر الرسول صلعم شائعة بين السودانيين!! تزوج شيخ بابكـر غير البقيع نحو خمس زوجات لم يطلق واحـدة منهن ، باستثناء حفصة التي تزوجها أيضـاً أثناء أسره في مصر ، وهي مـن النسوة اللائي خرجن مع حملة عبد الرحمن النجومي لفتح مصر . وأنجب شيخ بابكر من حفصة نصف دستة من البنات ورغم ذلك اضطر لطلاقها ثلاثا . وهذا شيئ معيب غير مألوف حسب تقاليد المجتمع السوداني .وهنالك كثيرون يلومون شيخ بابكر على فعلته لأنه لم يضع حسابا لبناته الست . غير أن حفصة كانت إمرأة حمقاء ناشرا ولعلها متخلفة عقليا تخلفا مقرونا أحيانا بما يندرج في إطار الاكتئاب «شيزفرينيا « . لا تقيم وزنا للحياة الزوجية ولا تضع اعتبارا لزوجها كأب لبناتها حتى أمام الغرباء . وروي شيخ بابكـر في كتاب سيرته الذاتيـة «حياتي» بعض حماقات حفصة ونشوزها ولكن في اقتضاب شديـد آمـلا أن يأتي بعده مـن يضع النقاط على الحروف!! حكـى شيخ بابكر عن وفد من أقـارب حفصـة حضر إليه يتقدمه شيخ الإسلام ود البـدوي لمحاسبته على شكاوى حفصة منـه وادعائها سوء معاملته لها . ولماعرف الوفد الحقيقة واكتشف إدعاءاتها الكاذبة زجر شيخ الإسـلام حفصـة زجرا شديدا وأنذرها بأنه سوف يجتث شعـر رأسها من جذوره إذا لم ترعو عن حماقاتها!! وحلق رأس المرأة «نمرة واحد» بشفرة حادة أقسى عقوبة توقع على المرأة حسب التقاليد السودانية في ذلك الزمان ، لا تبقى بعدها سوى عقوبة القتل . رأيت حفصة في أواخر سنـي حياتها .وأذكـر حتى اليوم صورتها وهي جالسة فوق العنقريب تنتف شعرها النابت في

مكان الذقن والشارب تحسبها لشدة سوادها غرابا منحوسا ينتف ريشه . وقال لي من أثق فيه من الأسرة ، لو بقي شيخ بابكر مع حفصة ولم يطلقها لما قامت مؤسسة الأحفاد . ويبدو أن حفصة تحمل بين مكونات شخصيتها جينات لا أدري من أين وصلت إليها لكنها جينات متوارثة لم تسلم منها إلا القليلات من سلالتها مما جعل حالات الطلاق بينهن عالية جدا . والطلاق متفش في محيط عائلتنا بالمقارنة مع العائلات التي في حجمها ولكنه يكاد أن يكون محصورا في حفصة ونسلها حيث نجد أن بين كل ثلاثين حالة طلاق في محيط عائلتنا بدءا بحفصة اثنتين فقط من غير نسلها!! . أعلم أن كلامي هذا سيغضب كثيرين وكثيرات ولكن لعل القدر استجاب لرغبة شيخ بابكر فأسند لي مهمة وضع النقاط على الحروف انصافا لمن لولاه لما أصبحت شيئا مذكورا . أنجبت حفصة إضافة لبناتها الست ولدا واحدا اسمه الحسين مات صغيراً ورثاه شيخ بابكر بقصيدة باكية جاء فيها :

يقولون لي لا بأس والبأس حاصل كيف أسلو والحسين فقيد؟؟

عاد الشيخ بابكر إلى أم درمان ، واصطحبناه أنا وأخي مالك إذ إن الشيخ بابكر تعهد بأن يتكفل بتعليمنا وقال له أبي وهو يودعنا في محطة القطار «يا بابكر لك الجلد ولي العظم» ، أي افعل بهما ما تراه من أجل تعليمهما ويكفيني أن يعودا إلى هيكلا عظميا متعلما . هكذا كان أبي حريصا على تعليمنا . أما أمي فقد جزعت لفراقنا وذرفت دموعها ساعة وداعنا كأنما استكشفت ما في الغيب . كانت أمي تكني أخي مالك بأبو القاضي تمشيا مع التقاليد في ذلك الزمان ، حيث يعاب على المرأة أن تنطق باسم زوجها أو أمه وأبيه ومن العيب أيضاً أن تأكل أمامهم . اختارت أمي هذه الكنية لابنها البكر لأن لجدي مالك كما أسلفت ابنين : ابرهيم ومجذوب القاضيان الشرعيان ... وهكذا كانت تدعوه أبو القاضي . وتفعل نفس الشيئ عندما تقرأ الفاتحة إذ تقول حياء : أبو القاضي يوم الدين بدلا من مالك يوم الدين!! هكذا كانت نساؤنا في الماضي لا كنساء اليوم اللائي لا تكتفي الواحدة منهن بمخاطبة زوجها ومناداته باسمه وإنما تردف ذلك - إذا دعا الحال - بشجرة نسبه كاملة ومضغها ورقة بورقة؟؟ .

وأرسل الشيخ بابكر بعد أيام من عودته لأم درمان إلى أبي ، طقم جلوس فاخر مصنوع في مصـــر ، يتألف مـــن أربعة كراسي أسيوطية منقوشة ، ومنضـــدة كبيرة وأخريين صغيرتين . كان الطقم حديث الحي كله ، وأعجب الناس بالمناضد لأنهم لم يروا قبلها منضدة متماسكة بـــدون مسامير . أما الكراسي فقـــد انتهى المطاف بها طعاما لدابة الأرض في القليعة ولا يزال في صالون عميد الأحفاد طقما من نوعها وفي عمرها .

وفي غـــداة يـــوم وصولنـــا إلى أم درمـــان ، اصطحبنا موسي ومحمـــد في جولة سياحية افترعناها حسب توجيهات أبيهما الشيخ بابكر بزيارة قبة الإمام المهدي . كانت القبة يومذاك أنقاضـــا خربة ملأي بالعقارب والثعابـــين ، وتنتشر في ساحتها الحشائش وأحراش من أشجار الســـدر والسلـــم ، تسرح بينها أسراب الدجاج البري والقـــرود التي قال لنا الحارس ، إنها بشر سكارى مسخوا قرودا عقابا لهم لتبولهم في فناء مسجد الامام المهدي ، أوعلي جدرانه القريبة مـــن القبة . وأقسم الحارس إنه طالمـــا رأى في الليل بنات الحور في خدمة صاحب الضريح ثم يتحولن عند صلاة الفجر إلى هذا الدجاج البري ، خوفا من الفتنة نهارا!! وقد بنيت القبة في موقع غرفة آمنة بنت أبي بكر الجركوك زوجة المهدي المصريةوهي عنده في مقام الصديقة بنت الصديـــق عند النبي عليه السلام . وقد فاضـــت روح المهدي في غرفة آمنة وأوصى بأن يدفن فيها ثم بنيت القبة وكان ارتفاعها واحدا وتسعين قدما وتحف بها على كل من أركانها الأربعة قبة قصيرة . وبقيت القبة هكذا إلى أن أطاحت مدفعية الجيش الفاتح تحت قيادة كتشنر بقمتها مستخدمـــة قنابل الليديت المحرمة قبل يوم من معركة كرري ، ثم جرى نسف القبة بأكملها بعـــد المعركة . ويذكر المؤرخ السوري نعوم شقير أن الإمام المهدي توفي عن نحو مائة إمرأة أربع منهـــن زوجات شرعيات عرفن بأمهات المؤمنين والباقيات سراري . وشاع عند وفاته أنه مات مسموما على يد زوجته آمنة انتقاما لأبيها الذي ذبحه الأنصار يوم سقوط الخرطوم وأوشكت أن تقع فتنة يفتك فيها بكل المصريين . ولم تهدأ الخواطر إلا عند غسل جثمان الإمام المهدي وقيام أقاربه بشد لحيته فلم تسقط شعرة منها مما دل على أنه لم يمت مسموما .

ومن قبة المهدي ذهبنا إلى محل الحلواني الأرمني ، بجوار الجامع ، حيث أكلنا البقلاوة ولبن الزبادي والقشطة المحلاة بسكر ناعم ، وكلها متع لم أرها من قبل . ثم قمنا بجولة دائرية في العاصمة المثلثة . أقلنا الترام الكهربائي من محطة أم درمان الوسطي إلى الخرطوم ثم الخرطوم بحري . ومن هناك أخذنا الترام البخاري إلى شمبات ، حيث أقلتنا العبارة (البنطون) إلى مرسي أبوروف في أم درمان . وركبنا الترام الكهربائي من أبوروف عائدين مع مغيب الشمس إلى المحطة الوسطي .

شهدنا بعد أيام قليلة من وصولنا أم درمان ، زفاف الأستاذ خالد موسي (أمه فاطمة بنت السهوة بدري) إلى صالحة بابكر بدري ، ورأيت في الوليمة التي أقيمت بهذه المناسبة المكرونة لأول مرة في حياتي ، وأسرفت في أكلها حتى أصبت بالتخمة وملحقاتها من القيء وألام البطن ، وانتهي المطاف بي في المستشفي . وهذا سر عزوفي عن أكل المكرونة حتى اليوم . كما أنني منذ ذلك التأريخ تعودت على ترك المائدة ونصف معدتي فارغا ، فلا آكل حتى أجوع ، وإن أكلت لا أشبع حتى وإن كان أمامي طعام شهي . وما كنت في تلك السن أعلم بالحديث النبوي الشريف الذي يأمر بذلك . وتوفيت في تلك الأيام عمتي أم طبول أخت الشيخ بابكر من أبيه . ولأم طبول اخت تدعي البتول ، أمهما شقيقة جدي مالك . وقد اصطحبهما عمي بابكر مع آخرين وأخريات من الأسرة في نفرته ، إلى مصر مع جيش عبد الرحمن النجومي . وظلت البتول حتى مماتها أنصارية على سن ورمح ، تؤمن بالإمام المهدي ايمانا لا حد له ، كإيمان الصحابة بالرسول صلعم . وكثيرا ما تروي لنا قصصا مثيرة عن كرامات المهدي وعن شجاعة النجومي ومناقبه وتستشهد دائما بمقولاته المفعمة بالإيمان كمقولته المشهورة مخاطبا الجنرال غرانفيل قائد الجيش المصري عندما طلب من الأمير النجومي الاستسلام في توشكي : «الخوف من غير الله اشراك» . ولما اشتد الجوع بجيش الأنصار المحاصر في توشكي في صعيد مصر ، خرجت البتول ذات ليلة إلى الخلاء فأنست نارا عن بعد حسبتها مضربا للبدو ، فيممت شطرها لتجد حول النار- كما حكت لنا- قوما

مـن الجـن المسلمين يتعشون وأخبروها بأنهم جاءوا من وراء المحيط على مسيرة أربعين يوما ، ليبايعـوا الإمـام المهدي ، ودعوها إلى مائدتهم . كان عشاء الجـن في تلك الليلة سمكا وقرعا (دبة) مطبوخا مع اللبن ، فأكلت البتول وتجشأت سبع مرات ، ولم يعد في معدتها مكان لمزيد . ثم أعطوها سلة مليئة بالطعام حملتها إحدى فتيات الجن إلى المعسكر فكانت وليمة مشهودة لأسرتهـا ومن حولهم مـن المجاهدين . وفي كل مرة نسأل البتـول في خبث ، وهي تروي لنا حكايتهـا ، عـن فتاة الجن حاملة السلة؟؟ تتلفت البتول يمنـة ويسارا ، حتى إذا اطمأنت إلى عـدم وجود واحد أو واحدة من نسل حفصة ، تقـول هامسة : إنها حفصة ، ألا تعرفون ذلك ؟؟ وتقسم البتول أنها رأت أهل حفصة من الجن يزورونها في رفاعة وأن لها قرونا تخفيها تحت شعرها الغزير!! ولا يفوت عمتي البتول وهي تروي كل ذلك أن تقسم بالمهدي وبرأس أخيها بابكـر علـى أنها صادقة في ما تقول!! على أية حال هذه ظاهـرة لها الكثير مما يماثلها في عهد المهديـة ، ومـا اقترن به من هوس ديني . ولن يعجز الروحانيـون وعلماء النفس عن تعليلها . لكنـا شهدنا لعمتي البتول واقعة أخرى محيرة ، فقد جاءت إلى أم درمان في أواخر الصيف ، وبـدلا مـن أن تمكث شهرين أو ثلاثـة كعادتها ، حزمت البتول أمتعتهـا بعد اسبوع واحد!! وقالـت إنها عائدة إلى رفاعة ، لأن فيضـان البحر (النيل الأزرق) هذا العام سيكون عرما غير عـادي ، وسوف تكتسح المياه بيتها .لم يصدقهـا أحد وقالوا عجوز مخرفة!! وعادت البتول إلى رفاعـة وعجب الناس واستهـزأوا بها لما رأوها تحيط بيتها بأكياسـ الرمل . لكنهم سرعان ما ندمـوا فقـد جاء الموسم مبكرا وكان أعنف فيضان شهده النيـل وروافده منذ سنوات طويلة ، اجتاحـت المياه كل المدن والقري الواقعة على الضفاف .لكن بيت عمتي البتول بقي شامخا كالطـود في رفاعة بينما انهارت البيوت حوله!! وقد اشتهـر أهلنا الرباطاب بالسخرية ، لكن عمتـي البتول فاقت كل ساخر في الأولـين والآخرين . ويروي أنها أخبرت مرة أالشيخ بابكر بأن فلانا سيأتي اليه طالبا يدها ، فسألها مستنكرا : ماذا تريدين بالزواج ولك بنت من زوجك الأول ؟؟ وردت البتول على أخيها في الحال : يا بابكر إنت فاكرني مريم بنت عمران ؟؟ وهكذا أسقـط في يد الشيخ!! وعمتي البتول شخصيـة طريفة في محيط الأسرة نحبها جميعا ونهرع

لمجلسهـا في الأمسيات لنستمتع بحكاياتها ونوادرها وقد كانت نموذجا فريدا للحبوبة (الجدة) أيـام زمـان . وهي لم تدخل مدرسـة أو خلوة لكنها موسوعة مكتنزة بمختلـف ألوان الفولكلور ووقائع التأريخ . تحكي لنا في أحاجيها عن كليب وعنترة ابن شداد وحروب داحس والغبراء ، وعن أبي زيد الهلالي وسير الأنبياء والأولياء الصالحين وكأنها اطلعت على أسفار الأقدمين . ولمـا كبرنـا لم نر لما سمعناه منها جديدا في كتاب طبقات ود ضيف الله أو كتاب كليلة ودمنة ورحلات السندباد . وعندما ساقتني الأقدار بعد نحو أربعين عاما إلى بريطانيا ، وقع في يدي كتاب يضـم مجموعة من الأحاجي الاسكوتلاندية .ودهشت عندمـا اكتشفت شبها كبيراً بينهـا وبين الأحاجـي التي كانت تحكيها لنا عمتي البتول . ولـولا الاختلاف في التفاصيل لقلـت أنهـا صورة طبق الأصل . تدور كلهـا حول الفتاة الجميلةالتـي يتسابق على خطبتها ويتقاتـل الأغنياء وذوي الجـاه والسلطان . وكيف تغالي الفتاة في مهرها ، كأن تطلب كنزاً من الذهـب يحرسه جان على هيئة ثعبان ، أو شجرة في جزيرة وسط سبعة بحور ، ثمارها أحجار كريمـة وأغصانهـا من ذهب خالص . هذا التشابه في الأحاجـي الشعبية ليس ظاهرة عفوية ، وإنما يؤكد أن البشر كانوا في بداية الخليقة أمة واحدة ، ثم تفرقت على مر الحقب والأجيال ، وبقيـت بينها أواصر الأحاجي في جوهرها وإن اختلفت في تفاصيلها كاختلاف ألوان البشر ، أما الجوهر – وهو الدم –فلونه الأحمر واحد لا يتأثر بألوان البشرة .

لحقـت أمـي بنا في أم درمان للاطمئنان علينا فقد كانت تلك المرة الأولى التي تفارقنا فيهـا . وذهبت مع أمي ذات يوم لزيارة الشريفـة فاطمة زوجة السيد على الميرغني ، لتهنئتها بمناسبـة مولد ابنها البكـر في تلك الأيام . رافقتنا في الزيارة نفيسـة بنت الريف زوجة عمي بابكـر ، والنسيم عبـد الرحمن آخر زوجات جدي مالك . كان فناء الدار وما حولها محتشدا بالزوار رجالا ونساء حول حلقات المادحين ، وتنطلق بين حين وآخر الزغاريد وطلقات الأعيرة النارية . ولما جاء دورنا للدخول على الشريفة ، طلبت أمي مني خلع حذائي فأبيت لأني كنت معجبا بالحذاء ، وهو من الجلد المصقول ﴿قزاز﴾لا أتخلى عنه حتى عند النوم منذ أن اشتراه

لي عمي أبو عكاز قبل يومين ، من محلات البون مارشيه في الخرطوم . حاولت أمي نزع الحذاء من قدمي بالقوة فانخرطت في نوبة من البكاء والصراخ . وتدخلت نفيسة بنت الريف – وهي كأهلها المصريين ذكية واسعة الحيلة– فحملتني مخفية قدمي تحت ثوبها بحيث لم يعد الحذاء ظاهرا . وهكذا دخلنا على الشريفة التي كانت راقدة على عنقريب عال ، وإلى جانبها مولودها نائما . وجلسنا على الأرض بعد التحية التقليدية وعبارات التهاني ، فقد كانت الغرفة خالية من المقاعد . وجاءتنا إحدي وصيفات الشريفة بصحن من التمر وضعته أمامنا . وما كان مني إلا أن أفلت من نفيسة بنت الريف وأقبلت على الصحن أحشو جيبى من التمر . وانتهرتني أمي وهمت بإرجاعي ، لكنها تركتني عندما طلبت الشريفة ذلك . ثم قربتني الشريفة منها ، ومسحت على رأسي وناولتني مزيدا من التمر . وانتهزت الفرصة فألقيت نظرة على الطفل الوليد النائم في دعة واطمئنان لا يعلم ما في انتظاره من مهام جسام في مقبلات السنين ، حين خلف والده زعيما لطائفة الختمية ، وأصبح تلقائيا رئيسا لتنظيمها السياسي . وهنالك واقعة أخرى في هذا السياق . أقمنا قبل سنوات في لندن احتفالا بعيد الاستقلال ، دعونا إليه كضيف شرف سير دودز باركر وزير الدولة السابق في الخارجية البريطانية ، الذي تسلم نيابة عن حكومته العلم البريطاني لدى انزاله من فوق ساريته في الخرطوم في أول يناير ١٩٥٦ . قال سير دودز باركر في كلمة الافتتاح إنه عندما كان سكرتيرا للحاكم العام ، هب من نومه مذعورا ذات صباح على صياح وضجيج ودوي أعيرة نارية في ضفة النيل الأزرق المقابلة للقصر حيث تقع الخرطوم بحري .لم يخالجه الشك في أنها نذر ثورة . وأغلب الظن أنها الثورة المهدية قادمة من جديد . قال سير دودز إنه هرع لتوه إلى غرفة الحاكم العام ، وأيقظه حتى يستعد لمواجهة الموقف ، كما أخطر القائد العام البريطاني . ثم استقل سير دودز باركر سيارته عابرا جسر النيل الأزرق إلى مدينة الخرطوم بحري . وأوقف السيارة في أطراف المدينة ، ثم أرسل السائق للاستطلاع والوقوف على ما يجري فيها . وعاد السائق بعد ساعة مبتهجا يكاد يطير من الفرح ليقول له : جنابك سيدي على جابو ليهو ولد!! ومضى سير دودز باركر قائلا : هذا هو السيد محمد عثمان الميرغني الذى تعرفونه اليوم؟؟

كانت أم درمان عندما جئنا اليها في عام ١٩٣٤ مدينة صغيرة جدا بمقاييس اليوم ، مقسمة إلى أربع وحدات إدارية تسمي الواحدة منها ربعا ، وهو بدوره مقسم إلى حارات ، ولكل ربع أو حارة شيخ . وتحد المدينة جنوبا المنطقة العسكرية بجوار كوبري النيل الأبيض وشمالا مقابر شرفي والبكري ، وشرقا النيل ، وغربا المصرف الكبير بالقرب من مسجد الملك فيصل الذي شيد بعد ذلك بعشرات السنين .

ولا يزال المصرف قائما حتى اليوم مهملا ، وأصبح مستودعا للأوساخ بدلا من تصريف مياه الأمطار . وكان لفريق الهلال الرياضي ملعب مكشوف غربي المصرف في مكان المسجد ، تقام فيه التمارين ومباريات كرة القدم . وكنا نطلق سيقاننا للريح مع صفارة الحكم معلنا انتهاء المباراة ، خوفا من أن يخطفنا عرب الكبابيش ، فالمكان خلاء تماما ، لا أثر فيه للعمران ، ووراءه غربا الجبال التي قيل أن الخليفة عبد الله أمر الجن بالسكن فيها كما جاء في منشوره المشهور!!

والأحياء الرئيسية في أم درمان في ذلك الزمان هي أبوروف وودنوباوي والسوق وحي العرب والموردة . وهنالك أحياء فرعية كالعباسية التي فيها مساكن آل المهدي ثم الهاشماب والعمراب والرباطاب وبيت المال والعمدة والمسالمة والدباغة ثم حي البوستة ، وفيه بيت الشيخ بابكر بدري .وكان يسمي بالحوش نسبة لسعته وكثرة من فيه من الأهل وطالبي العلم في مدرسة الأحفاد والمعهد العلمي . بينهم طلاب من يوغنده واريتريا والصومال أذكرمنهم عبد الحميد الذي أصبح وزيرا للدفاع في عهد سياد بري في الصومال .

ويعد حي البوستة مع بعض امتداداته نموذجاً مكتملاً للنسيج الاجتماعي في ذلك الزمان ، وحتى عهد قريب قبل ابتداع نظام السكن على درجات قائمة على أساس المستويات المالية والاجتماعية ، مما أدي إلى تمزيق ذلك النسيج الفريد ، ووضع البذرة الأولى لنظام طبقي غير مألوف ، فقدنا في ظله الكثير من قيمنا الفاضلة ، التي عرف السودانيون بها ، كالمروءة والتواضع ، والتراحم والأمن والأمانة ، ونكران الذات .

كان أهل الحي خليطا منسجما على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعرقية . يجاور بعضهم بعضاً . يلتقون في مناسبات الأفراح والأتراح . شبكات مياه الشرب كانت محدودة للغاية ، ومن لا يطيقون إدخالها في بيوتهم يحصلون على الماء من الجيران المباشرين وغير المباشرين ممن بسط الله لهم في الرزق . ولعل جيران الشيخ بابكر بدري كانوا أسعد حظا من سواهم ، إذ كانت في الركن الجنوبي الغربي لبيته بئر مطلة على الشارع (شارع التجاني الماحي الآن) ، يردها بالمجان من يشاء ومتى شاء .

بيوت الفقراء البسطاء المبنية من الطين والقش مثلا ، تحيط من كل جانب بقصري ابرهيم باشا عامر وأمير المحسنين عبد المنعم محمد ، وهما من أغني أهل السودان في ذلك الزمان . كان حي البوستة عصبة أمم مصغرة فيه من غير السودانيين أجانب كثيرون :هنود ويهود وأقباط وأحباش وأوروبيون ، ومن أهل الهلال الخصيب (سوريا ولبنان وفلسطين والعراق) والفلاتة من غرب ا فريقيا .

ويتجلي هذا التنوع النموذجي عندما يلتقي أبناء الحي للعب كرة «الشوراب» عصرا أوألعاب شعبية في المساء . تجد بينهم أبناء تلك الجاليات الوا فدة ، جنبا إلى جنب ، مع السودانيين ، لا فرق بين أبناء التجار والموظفين والشرطة والأطباء والمهندسين ، والقانونيين وأصحاب الحرف المختلفة ، وحتى أبناء العاطلين . كنا جميعا نعيش في ألفة ومودة وأخاء . أبواب بيوت الحي تظل مفتوحة على مصاريعها ليلا ونهارا ، لا حراس أو كلاب شرسة على نحو ما نشهده الآن في أحياء الدرجات الأولى .

أما مدرسة الأحفاد التي التحقت بها في عام ١٩٣٤ مع أخي مالك الذي يكبرني بعامين ، فقد كانت عبارة عن بيت قديم من الطين وسط حي العاهرات في أم درمان المعروف باسم فريق جهنم . ويدير بيوت الدعارة فيه مخنثون يرتدون ثياب النساء ويصبغون مثلهن أياديهم وأقدامهم بالحناء ، وأصواتهم متكسرة كالنساء تماماً . ومن حسن الحظ أن الحي كان ينشط ليلاً بينما الدراسة نهاراً . غير أن لوجود المدرسة في فريق جهنم ايجابيات ، أولها إننا ترعرنا على الاشمئزاز من نشاطاته وانحرافاته ، وعلي احتقار رواده والعاملين والعاملات فيه .

كان ميز (سكن) المدرسين بيتا مجاورا للمدرسة . ومن أولئك المدرسين : أحمد عمر الشيخ الذي اشتهر بصوته الرخيم في ترتيل القرآن وانشاد الشعر من إذاعة أم درمان ، وعلي عبد الرحيم شقيق الشاعر عثمان عبد الرحيم ، والمهندس مكي المنا رئيس اضراب طلبة كلية غوردون ، وقد التحق بعد رضاء الإنجليز عنه بمصلحة المساحة ، وبقي فيها إلى أن أصبح مديرا لها ثم وزيرا للري . ومن مدرسينا الآخرين خارج الميز الخالدان : خالد آدم بن الخياط الصحفي المعروف ، وخالد عبد الرحمن أبو الروس الشاعر ورائد المسرح والإثنان من خريجي المعهد العلمي الذي كان بمثابة الأزهر ومقره جامع أم درمان الكبير . ويبدو أن الخالدين كانا من طلبة المعهد المناكفين الأشقياء ، وفيهما قال الشاعر يومذاك :

عمي الشيخ سمعت مسامع خالد وخالد حرقوا الجامع

وضمت هيئة التدريس في الأحفاد في تلك الحقبة بعض رجال الأسرة : ابرهيم إدريس ومالك ابرهيم مالك المحامي في ما بعد وعمنا عبد الكريم بدري الذي يعتبر الساعد الأيمن لأخيه شيخ بابكر في تأسيس الأحفاد . ومن طلبة الأحفاد في تلك الأيام : الهادي المهدي امام طائفة الأنصار ، وكامل شوقي خبير الغابات ، وثابت حسن مدير مصلحة الآثار ، والأديب والشاعر والعالم الموسوعي اسحاق محمد شريف وكمال عبد الله الفاضل ومهدي حسن شريف . وهنالك أيضاً صادق أحمد بدري والمهندس أحمد الطيب بابكر ومحمد داؤود الخليفة ، وموسي بدري الذي هرب في أواخر الثلاثينات بالقطار إلى مصر دون علم والده الشيخ بابكر ، حاملا دراجته النارية (موتورسايكل) داخل سلة .وعاد موسى في الأربعينات إلى الخرطوم ، على متن طائرة يقودها بنفسه فكان بذلك أول طيار سوداني . وهرب مع موسى إلى مصر ، ولنفس الغرض عمر الضمري (فتوة الحي) الذي لقي مصرعه هناك تحت عجلات طائرة خلال اشتراكه في صيانتها .

انتقلت مدرسة الأحفاد في عام ١٩٣٦ إلى مبانيها الجديدة في شارع الموردة تجاه سراي أبو العلا (دار حزب الأمة الآن) ، وهي مبان فخمة وفاخرة بمقاييس ذلك الزمان قام

بتصميمهـا وأشرف على بنائهـا الشيخ بابكر بدري بنفسه . ولم تكـن المباني مكتملة حين انتقالنـا إليها ، فاستأجر الشيخ بابكر بيتا خلفها كان عبارة عن عرائش تستخدم لفرز الصمغ العربـي ، وفي موقعها الآن مكتبة البشير الريح . وقضينا نحو عام تحت تلك العرائش تتساقط من سقفها العناكب والعقارب والفئران على رؤوسنا . سقطت مرة عقرب فوق حجر التجاني الطيب بابكر ، لعلها كانت مبعوثة من السي آي إيه(CIA) لعلمها المسبق بفضل حساباتها وحاستهـا السادسة ما سيكون التجـاني عليه في مقبل الأيام : شيوعيـاً عنيداً متفانياً . لقد صدقت الحسابات وما كذبت الحاسة السادسة!!

وبقيـت مع عمي الشيخ بابكر في حوشه ومدرسته ﴿الأحفاد﴾ ثماني سنوات ، توفي خلالهـا أخي مالك في موجـة الالتهاب السحائي التي اجتاحت السـودان في عام ١٩٣٦ . وحزنت عليه كثيرا وكان أول ميت ذرفت الدمع عليه وبكيته بصوت عال وبكته الأسرة كلها لأنـه كان صبيـا ذكيا واعدا . حدثت وفاة مالك فجأة . اشتكـي في الصباح من صداع حاد فأعطـوه قرص اسبرين . وذهبنا إلى المدرسة ولكن الصـداع اشتد عليه في منتصف النهار مع ارتفاع شديد في حرارة جسمه ، ثم أغمي عليه فحملوه إلى المستشفي حيث أسلم الروح بعد ساعات قلائل .

والالتهاب السحائي مـن الأمراض المستوطنة في السودان ، يتحول في بعض السنوات إلى وباء مريع ينتشر كانتشار النار في الهشيم . وأصبح السحائي في السنوات الأخيرة وباء شبه مقيم في ربوع السودان ،ينتشر بصفة خاصة في فصل الصيف .ويعرف السحائي بأسماء كثيرة منهـا الحمي الشوكية وأبو فرار والحمـي أم دم .ومن الثابت أن الإمام المهدي مات به في عام ١٨٨٥ حسب رواية طبيبه الخاص حسن زكي . تغزو جرثومة السحائي في العادة غشاء الدماغ والسلسلـة الفقرية وتتلف السائل الذي فيها ، مما يفضي إلى اصابة الضحية بالحمي والصداع وتشنج الرقبة مع تقلص الظهر . ولا ينجو من الموت السريع أكثر من اثنين بين كل عشرة من مرضـاه ، قبل اكتشاف أقراص البرونتوسيـل المستخلصة من السلفا كعلاج له . وكانت تلك

الأقراص حديثة عهد في عام ١٩٣٦ وغير متوفرة في السودان بكميات معقولة لمكافحة الوباء، لذلك درجت السلطات على حرق الأكواخ في القري بأكملها حتى يضطر السكان للبقاء في العراء أو تحت الأشجار، حيث الهواء الطلق، لأن الإزدحام من أشد العوامل المساعدة على انتشار السحائي. ومن النادر أن يكون للأسرة في القرية أكثر من كوخ واحد تحتشد فيه ليلا ونهارا مما يسهم في انتشار الوباء.

توفي أبي بعد أخي مالك بأقل من عامين في سنار المدينة ﴿مكوار﴾ إثر إصابته بحمي الكلازار، وهي من الحميات المستوطنة في السودان. ودفن أبي في مقابر الشيخ فرح ود تكتوك من قبيلة البطاحين التي يحفظ التاريخ لها في ما يحفظ أنها أنجبت نقيضين: اللبخ أشهر سفاح وقاطع طريق، والشيخ فرح قطب الأولياء الذي وهب من الحكمة ما يذكرنا بلقمان الحكيم. وللشيخ فرح ودتكتوك شعر في الزهد كأشعار أبي العتاهية يمتاز بالبساطة والسلاسة كقوله:

من باع دينا بدنيا واستعز بها — كأنما باع فردوسا بسجين
فلقمة من طعام البر تشبعني — وجرعة من قليل الماء ترويني

وقال في مقام آخر مخاطبا المتهافتين على أبواب الحكام:

يا واقفا عند أبواب السلاطين — ارفق بنفسك من هم وتحزين
إن كنت تطلب عزا لا فناء له — فلا تقف عند أبواب السلاطين.

وللشيخ فرح ود تكتوك فوق ذلك، نبوءات مسجوعة صادقة، مما يثبت أنه من أهل الكشف. وينسبون اليه في هذا الصدد قوله «يأتي زمان السفر فيه بالبيوت والكلام بالخيوت». وبعد ذلك بمئات السنين ظهر القطار بعرباته التي تشبه البيوت ثم الكرافانات. كما جاء التلفون الذي تنقل «خيوطه» السلكية المكالمات بين الناس!! وتحتل مقابر الشيخ فرح موقعا طبيعيا خلابا شمالى خزان سنار، فوق ربوة على الضفة الشرقية للنيل الأزرق. وما أمتع أن يكون هذا أول ما تقع العين عليه، عندما يمرق المرء من ظلمة الأجداث يوم النشور!! أرجو

ألا يجـد أهلــي وأحبابي مشقــة في أن يصبح مثواي الأخير بجوار الشيـخ فرح وأبي وعمي يوســف بدري المدفون هنــاك أيضاً . وهو شقيق الشيخ بابكـر وكان من كبار التجار في الدويم وغرب السودان وله ابن واحد هو ابرهيم بدري . وما من شك في أن تجاور أبوينا في الممات في قبرين متلاصقين كان واحدا من أقوي عناصر وأواصر الصداقة الفريدة بيني وبين ابرهيم في المستقبـل . إنها مجرد رغبــة ليست تدخلا في القدر أو تطفلا على مشيئة الله فالمرء لا يدري بأي أرض أو مكان سيموت . ولنا عبرة في ما صار إليه أميل البستاني الذى كان أوسع الخلق جاهـا وثراء . أعد القبر الذي سيكون مثواه في لبنان عندما توافيه المنية بعد عمر طويل . يبدأ يومه كل صباح بتفقد القبر واقتراح ما يعن له من ديكور وتحسينات تليق بمرقده الأخير . كان أميل البستاني كثير الأسفار على طائرته الخاصة لتصريف أعماله ولكنه كان واثقا من ترحيل جثمانــه إلى لبنــان من أي مكان في العالم يموت فيه ، غير أن القدر رسم له مصيرا آخرا لم يدر بخلده . سقطت طائرة أميل البستاني قبل نحو أربعين عاما في عرض البحر الأبيض المتوسط في طريقهــا عائدة به إلى بيروت . ولم يعثر حتى اليوم على حطام الطائرة أو جثمان صاحبها!! ولا أريــد أن يكون مصيري أيضاً كمصير لورد كتشنر فاتح الخرطوم الذي مات غرقا في المحيط الأطلســي خلال الحرب العالمية الأولى في حادث مشهور دبرته المخابرات البريطانية للتخلص منــه . ولم يعثر حتى اليوم على جيفة لورد كتشنر . وندد شاعر الهند اقبال به في قصيدة جاء فيهــا : لقد حرمك الله قبرا في الدنيا لأنــك نبشت قبور أولياء الله الصالحين!! وفي هذا إشارة إلى اعتداء اللورد في وحشية بالغة على قبر الإمام المهدي .

انتهــت حياة عمي يوسف بــدري في أواخر العشرينات نهاية أليمــة نتيجة مؤامرات التجــار الدنيئة ومحاربتهم له عندما تصدي في ذلــك العهد لمكافحة «الشيل» . وهو نوع من الربا الفاحش يتعامل به تجار المحصولات مع المزارعين .

ولعمــي يوسف مكانة عظيمة بين الأسرة حتى بعد مماته ، ولا تقسم نساؤنا بغيره من الموتي والأحياء ، وهو قسم عندهن عظيم .

ضمـت أسـرة التدريس في مدرسـة الأحفاد الأوليـة والوسطـي في مبانيها الجديدة بالاضافة إلى ناظرها الشيخ بابكر بدري أساتذة أجلاء كان لهم دور عظيم في تربيتنا وتكوين شخصياتنـا . ولا أزال كغـيري متأثرا بهم حتى اليوم!! .من أولئـك الأساتذة ، دكتور محمد أحمد ياجي أستاذ العربي ، ومحمد فضل المولي أستاذ الإنجليزي ، وشيخ الدين جبريل أستاذ كل شيـئ بمـا في ذلك الرياضة البدنيـة ، وسيد أحمد عبد الرحمن الحـاوي الرسام الشاعر وحكم كرة القدم . ويأتي طلبة مدرسة المعلمين العليا في تلك الأيام إلى مدرسة الأحفاد كل يـوم خميس ، مع عميدهم مستر لين ، للتدريب والاستفادة من خبرات الناظر بابكر بدري . ومن أولئك الطلبة بشير محمد سعيد ، والمعلم عبد الرحيم الأمين هاساي ، والدكتور عبد الله الطيب ، وأبو القاسم بدري ، وأحمد عبد الله المغربي ، وصلاح المليك ، ولاعب فريق الهلال الشهـير هاشم ضيف الله ، والدكتور أحمد الطيب عميـد المسرح الحديث في السودان . ومن المفارقـات العجيبة أن الشيخ بابكر بدري كان يراقب أولئك المعلمين تحت التدريب في حصة اللغة الإنجليزية ويضع تقريرا عن أدائهم وملاحظاته مع أنه لا يعرف اللغة الإنجليزية !!

وفي أيامنـا كانت للجمعيـة الأدبية في مدرسة الأحفاد تحت اشراف الأستاذين ياجي وشيـخ الديـن شهرة عظيمة تجاوزت حـدود المدرسة إلى المجتمع العاصمـي ، إذ يؤم ندواتها الاسبوعية كثيرون من الأدباء والمفكرين ، منهم ضيوف مواظبون أمثال يحيى الفضلي وبدوي مصطفـي وعبد الله عشري الصديق وعثمان أحمـد عمر (عفان) وصالح محمود اسماعيل . وقـدم عبـد الله عشري في أحد الأيام محاضرة عن نظرية النشوء والارتقاء ، لم نستوعب منها شيئـا ، لكنها بذرت في نفوسنا شكوكا كثيرة أصبحنا نتساءل بعدها عن بعض المسلمات في حياتنـا . كان مما ذكره عبـد الله عشري أن المرأة ليست في الأصل من طينة البشر ، وإنما أنثي مخلوق آخر استولي الرجل عليها . أما يحيي الفضلي ، الذي عرفته في ما بعد صديقاً حميماً وخصماً سياسياً مخيفاً ، فقد كلف في ختام إحدي ندواتنا ، بالتعليق على ما دار فيها . أتحفنا يحيـي بتعليـق شيق صيغ في كلمات رشيقة كما كان إلقـاؤه رائعا ومؤثرا . ومما قاله في ذلك

اليوم : «استمعنا اليوم إلى أدب ممتاز أولهما حضري والثاني بدوي» ثم أنشد بيت المتنبي :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

وفي حديثه هذا إشارة إلى شخصي وزميلي معاوية الحضري ، وكنا يومذاك من فرسان الجمعية الأدبية . وفسرت استشهاده بالمتنبي ، بأنه حكم بتفوقي على زميلي معاوية .

وذهبنا يوما في صحبة الأستاذين ياجي وعبد الله عشري الصديق لزيارة معاوية محمد نور العائد من مصر ، ويعاني من داء عضال قضي عليه في ريعان شبابه وباكورة عطائه . معاوية محمد نور صاحب فكر وأديب متعمق في العربية والإنجليزية . تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت . ولما عاد إلى وطنه لقي عنتا شديدا من الإدارة البريطانية ، وسدت أبواب العمل أمامه ، فارتحل إلى مصر ، حيث بهر أدباءها ومفكريها بكتاباته الرصينة وثقافته الغربية العالية . كان عباس محمود العقاد أشدهم إعجابا وإكبارا . وليتنا لم نذهب لزيارته ، فإن منظر معاوية يومذاك ظل عالقا في ذهني سنوات طويلة ، يبعث في نفسي الألم والحسرة . شبح قادم من عالم الفناء ... شعر منفوش ، ووجه كالح معروق ، وعينان غائرتان سارحتان إلى ما لا نهاية ؟؟ . ولا أظن أن معاوية أحس بوجودنا ، أو حتى كان على وعي بما يدور حوله . أسلمه ذووه إلى مشعوذ دجال ، آملين في شفائه بالسحر والرقي والجلد بالسياط ، بعد أن يئسوا من الأطباء والمستشفيات في مصر والسودان . وشهدنا أيام دراستنا في مدرسة الأحفاد حادث اعتداء بشع على ناظرنا الشيخ بابكر بدري في فناء المدرسة وعلى مرأى منا . المعتدى رجل مهووس متشنج دينياً يدعى أمين هديب . دخل على الشيخ بابكر في مكتبه وانهال عليه ضرباً بعصا خيزران مع سيل من السباب والشتائم والطعن في دينه «والله أكبر» . وسرعان ما هب التلاميذ والمعلمون والفراشون لنجدة الشيخ بابكر واحتشدوا جميعاً حول المعتدي فأوسعوه ضربا بكل ما وصلت إليه أيديهم بما في ذلك الحجارة والطوب وكانت ضربة البداية «روسية مدنكلة» من الأستاذ ابرهيم إدريس شجت رأس المعتدي وسقط على أثرها صريعاً على الأرض ولم ينقذه من الموت المحقق ضربا ورجما إلا الشيخ بابكر الذي وقف فوق الجسم

المدد على الأرض وحال دون الوصول إليه . كان سبب هذا الإعتداء الآثم محاضرة في الليلة السابقة قدمها قسيس بريطاني معروف بنشاطه التبشيري وتولى الشيخ بابكر تقديم المحاضر بكلمة مناسبة تليق بالمقام ولكن أمين هديب وأمثاله من المتشنجين رأوا فيها ثناء على القسيس المبشر لا داعي له ويعني ضمنيا الدعوة للمسيحية وخروجا على الإسلام . وللشاعر الشيخ عبد الله عبد الرحمن الأمين الضرير قصيدة هجا فيها الشيخ بابكر بسبب موقفه من تلك المحاضرة جاء فيها :

أبعد الشيب يا ود بدري تأتي أمورا في بني الإسلام تنكر
ما أسفت عليك لكن أسفت على الأحفاد بين يديك تخسر
وقفت تقدم القسيس جهرا أأنت له مبشر؟؟

وليس غريباً أن يسير الشاعر على درب جده الذي له قصيدة مشهورة في هجاء الإمام المهدي!! ورد عليه الإمام المهدي بعبارته المشهورة «ود الضرير أعمي البصر والبصيرة» . على أية حال الاعتداء الآثم على الشيخ بابكر بدري لا يمكن أخذه بمنأى عن خلفيات الصراع بين طائفتي الختمية والأنصار وبالتالي التنافس بين المدرسة الأهلية في أم درمان ومدرسة الأحفاد في ذلك العهد فقد كانت أولاهما محسوبة على طائفة الختمية ويرأس مجلس إدارتها الشيخ عمر اسحاق كبير مستشاري السيد على الميرغني بينما صلة الأحفاد والشيخ بابكر بدري بطائفة الأنصار معروفة . لقد شق علينا الاعتداء على ناظرنا الشيخ بابكر بدري فالمعلمون في زماننا موضع قداسة واجلال بينهم وبين الأنبياء خيط رفيع أو كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي «كاد المعلم أن يكون رسولا» . وكثيرا ما تعود بي الذاكرة «فلاش باك» كلما جاء في أيامنا هذه ذكر الإرهاب الفكري والديني في عصرنا الحاضر . كانت هذه الواقعة أول جرعة اجترعناها في فجر حياتنا لم نفهمها ونستوعبها ، مثلما نفعل الآن حيث أصبح الإرهاب الفكري والعقائدي طابعاً شائعاً في حياتنا من يوم ليوم كما كان موقف ناظرنا أول درس لنا في الصفح والتسامح سمة المستهدفين من دعاة الإصلاح في كل زمان ومكان .

جلسنا في نهاية المرحلة الوسطي مع طلبة المدارس الأخرى المماثلة لامتحان دخول كلية غوردون التذكارية ، لاختيار مائة وأربعين من جميع الجالسين للامتحان وعددهم نحو خمسمائة من طول السودان وعرضه باستثناء الجنوب .

كانت منافسة حامية جدا في مرحلة حاسمة من العمر ، يتكيف على ضوء نتائجها مصيرنا في الحياة ومستقبل السودان بأسره .فخريجو كلية غوردون التذكارية هم الذين كتب عليهم الارتقاء بالمجتمع السوداني اقتصاديا وفكريا وأخلاقيا في اطار قيادتهم لمسيرة الحركة الوطنية حتى الاستقلال .

وكان الامتحان تحريرياً وشفوياً ، وانتدب لامتحاننا شفوياً في العربي والإنجليزي في مدرسة الأحفاد ، إثنان من أسرة التدريس في الكلية ، هما الأستاذ الشاعر أحمد محمد صالح ، والمؤرخ مستر ثيوبولد . قرأت على الأستاذ أحمد قصيدتين حفظتهما من شعره ، ثم قصيدة ساذجة وركيكة نظمتها في مدح الإمام عبد الرحمن المهدي كانت آخر محاولاتي الشعرية . قال لي الأستاذ أحمد في سخريته المعهودة : يابني ما فيش شاعر غيري وغيرك ؟؟

أما مستر ثيوبولد فقد ذهل عندما قرأت عليه قصيدة للشاعر الإنجليزي كولدريدج لم تكن من المقررات ولكني حفظتها من يوسف بدري (العميد في ما بعد) العائد حديثا من دراسة الصيدلة في الجامعة الأمريكية في بيروت .

ظللنا مع أهلينا أسابيع في قلق بالغ في انتظار النتيجة ، ولما ظهرت احتل المرتبة الأولى بالاشتراك أحمد حسن آدم ومحمد أحمد أبونورة ، وكان ترتيبي السابع . لكن فرحة الناظر بابكر بدري كانت أكبر فقد اجتاز الامتحان بنجاح سائر طلبته الذين جلسوا للامتحان . وبفضل هذه النتيجة المشرفة احتلت الأحفاد في ذلك العام المرتبة الأولى بين سائر المدارس الوسطي في السودان ، مما شكل دفعة قوية لمضيها قدما في مسيرتها المباركة ، حتى أصبحت بعد سنوات جامعة للبنات ، تطاول غيرها من الجامعات في العالم طولا وعرضا . كما تغيرت

نظـرة النـاس باحتقار إلى التعليم الأهلي ، إذ كانوا حتى ذلـك الحين يعتبرونه أدنى مستوى مـن المدارس الوسطى الحكومية . وأخذت تنتشر منـذ ذلك العام المدارس الوسطى الأهلية ، في كل أنحاء السودان ، وكان الشيخ بابكر بدري عونا لها يمدها بنصائحه وبالمعلمين الأكفاء ، فهو لم ينظراليها كمدارس منافسة وانما امتداد لرسالته التربوية ، ونشر العلم والمعرفة ، مما جعله جديرا بلقب رائد التعليم الأهلي في السودان . وأذكر من طلبة الأحفاد الآخرين الذين اجتازوا الامتحـان بنجاح في ذلـك العام : فاروق الطيب ميرغني ، ومحمـد وخالد الخير عمر أزرق ، والتجاني الطيب بابكر ، وصلاح الدين أمبابي وبسطاوي بغدادي .

انتقلت كلية غوردون في ذلك العام ١٩٤٢ بسبب الحرب العالمية الثانية من مبانيها التي تشغلهـا اليوم جامعة الخرطوم إلى أم درمان ، فانفرط عقد ما اشتهرت به من نظام وانضباط ، لأن مبنـي المدرسـة الأميرية الذي انتقلت اليه في أم درمـان ، أضيق من أن يسعها بفصولها العشريـن وداخلياتها . فاستأجرت إدارة الكلية بيوتـا في أحياء أم درمان المختلفة كداخليات لايـواء الطلبـة القادمين من الأقاليم ، بينما سمح للآخرين مـن أبناء العاصمة المثلثة أو من لهم أقارب فيها ، بالسكن مع ذويهم كطلبة خارجيين . وهكذا كتب على لحسن حظي البقاء في الحوشـ مـع عمي الشيخ بابكر أربع سنوات أخرى . وأفخر دائما بأني عشت معه في بيته ومدرسته سنوات أطول مما عاشها أي من أبنائه من ظهره ، تعلمت خلالها صفات كثيرة منها الصبر والاعتداد بالنفس ، والتسامح وخدمة الناس دون انتظار شكر أو جزاء . كان شيخ بابكر بـدري رب أسرة مثاليـا في زمان – ليس كحاضرنا – الأسرة فيه كيان واسع يشمل الأقربين المباشريـن وغير المباشريـن بل يمتد عند أمثـال الشيخ بابكر ليشمـل القبيلة ﴿الرباطاب﴾ بالإضافة إلى أصدقائه ورفاقه في الجهاد تحت راية الأمير عبد الرحمن النجومي . كان الحوش يضـم كل يوم نحو ثلاثين علـى الأقل من المقيمين والعابرين يجـدون في ظله الحفاوة وكرم الضيافة . كان الشيخ بابكر أميل إلى البساطة في ملبسه ومأكله . أحب الطعام إليه (الكسرة) مـع الإدام المسلـوق وخاصة البامية الناشفـة (الويكة) ويكثر مـن أكل الخضروات الطازجة

﴿السلاطة﴾ والفاكهة وأفضلها عنده الجواافة والقشطة والكمثرى . أما لباسه فعبارة عن قميص «عراقي» وصديرية وسروال طويل وقفطان على هيئة جلابية مفتوحة من أمام وفرجية . يصحو مـن النوم قبل شروق الشمس فيؤدي الفريضة ويتلو القـرآن وأدعية مقتبسة من راتب الإمام المهدي ثم يذهب إلى الحمام لا للاستحمام فقط وإنما للتخلص أيضاً من رائحة «عجين الدرة المخمـر» الـذي تدلكه به كل ليلة بخيتة أم الكباريت . وتأتي بخيتة بعد الحمام بمكواة دافئة تجريهـا علـى ظهره لتخفيف الآلام الخفيفة التي لازمته منـذ سقوطه من بعير في دنقلا أثناء تجوالـه خلال عمله في السابق مفتشا لخلاوي القرآن . ثـم آتي له بشاى الصباح لأني كنت أتفاءل برؤيته في بداية يومي وأشعر بطمأنينة في حضرته وأحظى بالإضافة لذلك دون غيري بمـا تبقـى من شاي وبسكويـت . وكان للشيخ بابكر حمار أبيض يتنقـل على ظهره قبل أن يقتني سيارة طراز مورس . وكثيرا ما أصحبه راكضا وراء الحمار في زياراته وخاصة للإمام عبد الرحمن المهدي في بيته في العباسية . ومهمتي حراسة الحمار خارج البيت الذي يزوره الشيخ إلى أن يعـود . أمـا في المدرسـة فلا ينكر أحد أن الشيخ بابكر بـدري معلم مطبوع وبالفطرة . مقـررات التأريـخ والجغرافيا واللغة العربية نظمها شعرا تيسيرا لحفظها ولا أزال أذكر معظم ما نظمـه في علم النحـو مثل : بلم ولما لام أمر أو نهي . . . أجـزم مضارعا ولا تحفل به!! بخيتة أم الكباريـت التـي سبق ذكرها ابنة دهب التاجر جارية جدي مالك وهي سيدة فاضلة تقطر طيبـة وحنانا كانت بمثابة اليد اليمني لعزيـزة في إدارة الحوش ورعاية الشيخ بابكر على نحو ما أسلفت . ولبخيتة ابنان – كبريت الصغير وكبريت الكبير –تكفل بتعليمهما الشيخ بابكر أحدهما عبد الغفار لاعب فريق الموردة عمل ضابطا في القوات المسلحة وفصل منها لاشتراكه في محاولة انقلابية شيوعية .

* * *

عرفـت خلال السنوات التي أمضيتها في الحوش عـددا من كبار شخصيات المجتمع ، الذين يأتون لزيارة شيخ بابكر ، مما أفادني كثيرا عندما انخرطت في الحياة العامة . أذكر من هؤلا الأستاذ اسماعيل الأزهري وقد رأيته أول مرة قي عام ١٩٣٩ ، خلال الأيام الأولى للحرب العالمية

الثانيــة ، عندما جاء لزيارة شيخ بابكر .كان الأزهري يومذاك سكرتيرا لمؤتمر الخريجين ، ولم أكن في سن أعي فيها ما دار بينهما من حديث ، لكن لا بد أنه كان عن موقف السودان من الحرب العالمية الثانية بوجه عام ، ومؤتمر الخريجين بوجه خاص . وكان الأزهري أحد المدعوين للاجتماع الــذي عقده الحاكم العام غــداة إعلان الحرب ، وحضره السيدان عبــد الرحمن المهدي وعلي الميرغنــي ، والشريف يوسف الهندي ، والشيخ الفيل مفتي الديــار السودانية وبعض الأعيان . لا أذكــر إن كانــت زيارة الأزهري لشيخ بابكر قبل ذلــك الاجتماع أم بعده . والمعروف أن مؤتمر الخريجــين وجه نداء إلى الشعــب السوداني للوقوف إلى جانب الحلفاء . ودرج شيخ بابكر على إحيــاء ليال للمديح ، معظم المادحين مــن الأنصار ، وأشهرهم يدعى حكومة . كان الإمام عبد الرحمن المهدي يحضر بعض تلك الليالي . وكنا نتسابق على إحضار الصحن والإبريق لغسل يديــه ، بعد العشاء . وتلقيــت أول دروس في الوطنية على يدي عمي بابكر بدري ، من خلال احاديثــه وحكاياته عــن الإمام المهدي وعن الأميرين عبد الرحمــن النجومي وعبد الحليم ود مساعد اللذين انخرط تحت قيادتهما في الزحف على مصر أو ما يعرف عند العامة بتجريدة ود النجومي .استدعاني شيخ بابكر عقب اعتقالي لاشتراكي في مظاهرة سياسية دينية في أم درمان -سيأتــي ذكرها في مكانها – وسألني أين كنــت في المظاهرة ؟ وتبسم وتنفس الصعداء عندما علــم ، أني كنــت في الصف الأمامي ، مع على طالب الله وآخريــن ، ثم ربت شيخ بابكرعلي كتفي في رفق وحنان قائلا : لقد أحسنت وأثلجت صدري إذ كنت أخشي أن تكون في الصفوف الخلفية . أريد منك أن تكون دائما في الصدارة متبوعا لا تابعا !!

حياتنــا في الحوشــ لم تكن مريحة أوعلي مستــوي المألوف في ظل الآبــاء والأمهات علــى الأقــل ، ورغم ذلك لم أشك لأحــد . وسألني عمي بابكر مرة لمــاذا لا أشكو إليه كما يفعــل الآخرون فأجبتــه بأن أمي تقول لي دائما عندما أذهــب في العطلة إلى القليعة «عزيزة مــا أمــك لكن بتربيك» . وعزيزة ابنته هي ربة البيــت المسئولة ، ترملت بعد عامين فقط من زواجهــا أنجبت خلالهمــا ابنيها فاروق والطيب .ونذرت عزيزة بقيــة حياتها لتربيتهما ورعاية

أبيهـا . كانت مشكلة غـيري من الطلبة المقيمين معها في الحوش ، إنهـم يطالبونها بالتخلي عـن عاطفـة الأمومة ، ومعاملتهم على قدم المساواة مع ابنيهـا حتى في أصغر الأشياء . انهم يطلبون المستحيل ، فعاطفة الأمومة أقوي غرائز المرأة وأكرمها . وإذا كان فاروق والطيب عندي حتـى الآن في مقـام الأخوين الشقيقين فإن عزيزة ظلت أيضاً حتى مماتها ، في مقام أمي التي ولدتنـي . ولم تنقطـع مشاعر عزيزة نحوي بالعطف والحنان ، حتى آخر لحظة من حياتها . ولا أظن أن الخنساء بكت أخاها صخرا أشد من بكاء عزيزة على أخي مالك ، فقد كانت تعتبر كل طالب في بيتها أمانة في عنقها حتى يعود إلى أهله .

يقـع حوشـ الشيخ بابكر كماأسلفت في حي البوستـة في أم درمان شمالى مستشفي التجاني الماحي للأمراض العصبية الذي حل مكان مستشفي الارسالية الأمريكية التبشيرية المسيحية ، وملاصقا لعمارة وقف شكري النجار التي قامت في موقع بيت جارنا أحمد حمدي النجـار ، وهو سوري علوي كان له متجر للخـردوات والحلويات قبالة جامع أم درمان الكبير ، ولـه أخ أوفر منه ثراء يدعي شكري يعمل بالتجـارة في مدينة مدني . ومن جيراننا الآخرين الخواجة ناشد القبطي ، وله ابن في عمرنا اعتنق الإسلام وهاجر إلى الأبيض . ثم فاطمة بنت الليمـون ، وهـي أنصارية شديدة الحماسة من قبيلة كنانـة ، بايعت الامام المهدي فور ظهوره ورافقتـه في زحفه من كردفان حتـى سقوط الخرطوم ، ولها أخت تدعى مريم التاجرة في سوق النساء في أم درمان .وكان السيد عبد الله الفاضل المهدي يأتي لزيارتهما وتفقد أحوالهما بين حـين وآخر . وفي بيت فاطمة بنت الليمون الملاصق مباشرة للحوش من جهة الشمال شجرة أراك كبـيرة خضراء طـول السنة مصدر المساويك الطازجة لأهل الحي . كما يعيش في البيت قطيـع من القطط يتجاوز عددها الثلاثين . وكثيرا مـا يصل إلى أسماعنا صوت بنت الليمون وهـي تتحدث لقططهـا ، وتدعي أن القطط تفهم كلامها كما تفهـم هي كلام القطط . ومن جيراننا الآخرين في الحي العم بابكر زروق تاجر الجلود ، ولديه تكية ينفق عليها من ماله بها عـدد كبير من طلاب المعهد العلمي ، وهو والد مبارك زروق المحامي . وقد نزحت أسرة زروق

في الأصل من بلاد المغرب إلى السودان ، في أعقاب سقوط دولة الأندلس العربية على أيدي الفرنجة . ومن آل زروق صديقتا الهلالابي محمد على زروق رئيس حزب الاتحاديين في حي البوستة والفنان زنقار شقيق إحدى زوجات العم بابكر زروق ومن أبنائها السفير صلاح .

وتتوسط حي البوستة قبة الولي الصالح الشيخ دفع الله الغرقان من قبيلة الجموعية ، سلك الطريقة القادرية على يد الشيخ العبيد ود بدر ، وحضر معه موقعة أم ضبان التي أظهر الغرقان فيها بعض كراماته . وآوى إليه عددا كبيرا من أسر قادة الأنصار عقب معركة كرري . وفر الشيخ الغرقان لهم الحماية وكان يصنع لهم الطعام بنفسه .وسمي الشيخ دفع الله بالغرقان لانقطاعه عن الدنيا لعبادة الله غارقا في ملكوته إلى أن توفي في عام ١٩١٧ .وشيدت ابنته حليمة على قبره القبة القائمة الآن . وعاصرت في الثلاثينات والأربعينات حفيد الغرقان وخليفته الشيخ جاه الله ، وقد كان رجلا وسيما طويل القامة موفور الصحة ، وأبيض اللون ، ويرجع ذلك إلى أن أمه خديجة بنت المهندس اسماعيل الإيطالى الذي وقع في أسر الإمام المهدي ، وبقي في السودان إلى أن توفي في عهد الإدارة البريطانية .أشرف المهنس اسماعيل في عهد المهدية على بناء قبة الإمام المهدي ومسجده وبيت الخليفة عبد الله .كانت تحيط بقبة الغرقان بيوت عتيقة حقيرة ، قامت دون نظام او تخطيط ، ويسكنها لفيف من مريدي الشيخ الغرقان مع أسرهم . ومعظمهم مريدون بالوراثة ، ومنهم مشردون ومجرمون كثيرون . وقد داهمت الشرطة في أوائل الأربعينات تلك البيوت ، فأخرجت منها العديد من المسروقات والأسلحة البيضاء والخمور البلدية (العرقي) وأدوات تقطيرها . وأطلقت الشرطة بكفالة مالية سراح الشيخ جاه الله في انتظار محاكمته . لكنه توفي فجأة عشية محاكمته ، واعتبر ذلك كرامة أنجته من المرمطة أمام القاضي الإنجليزي .

كانت غرفتي في الحوش ذات نافذة مطلة على الشارع ، ومنعزلة عن باقي الغرف . ويبدوأني اخترتها لموقعها الاستراتيجي الذي يضمن خروجي وإيابي متى أشاء ، دون أن يفطن أحد وخاصة في الأمسيات . وفي ذات يوم سمعت بعد مغيب الشمس طرقا خفيفا

علـى النافـذة ، ففتحتها لأجد سيدة في أوائل العشرينات من عمرها من سكان بيوت الشيخ دفـع الله ، يستلطفها جميع شبـاب الحي ، ويحلمون بالقرب منها ، فقد كانت لوحة جذابة ، تصـور جمال المـرأة السودانية بقوامها الفاتن وشلوخها ، وشفتهـا السفلي الموشومة بلون اللما الأزرق!! قالـت لي السيـدة إنهـا تريدني في أمر هام ، فذهبت معهـا إلى تلك البيوت التي لم أدخلها من قبل ، واكتشفت أنها عبارة عن غرف وعشش متناثرة هنا وهناك ، بعضها مسقوف والبعضـ الآخر ليس بينه وبـين السماء حجاب . قادتني السيدة إلى غرفة غارقة في البخور ، فيهـا عدد من النسوة حول عنقريب تجلس عليـه شابة نصف عارية . كان ظاهرا أنها سقيمة تعاني من مرض ما . وأخرجت عجوز من سلة صغيرة في حجم حقيبة اليد حرباء ، وضعتها برفـق فوق رأس الشابـة المريضة ، وسرعان ما تحول لون الحربـاء إلى سواد كلون شعر المريضة الغزيـر المسدل علـى كتفيها حتى منتصف ظهرهـا العاري . وناولتني العجـوز شفرة حلاقة لأذبـح الحرباء ، فترددت قليلا ثـم أقدمت تحت الحاح العجـوز والأخريات . ذبحت الحرباء المسكينـة التـي لم تكف عن شخيرهـا المخيف حتى خمدت أنفاسها . ثـم غمست - كما أشـارت العجوز- يدي اليسري في الدم المتناثرعلي شعـر الشابة المريضة ومسحت به وجهها وصدرهـا ومواقع أخرى من جسدها يمنعنـي الحياء عن ذكرها . كانت بشرتها البيضاء ناعمة الملمسـ كالحرير الدمشقي ودافئة من أثر الحمي . ثم أخذت العجوز جثة الحرباء ودفنتها مع حجاب وحفنة من الأعشاب وقشور البيض في الأرض عند مدخل الغرفة الذي لم يكن عليه بـاب . وقدموا لي في النهاية طبـق أرز باللبن وطبق زلابية . جائزتي الكبري كانت قبلة رنانة طبعتهـا السيدة التي جاءت بي على خدي الأيمن لكنهـا أجفلت عندما هممت بالرد على التحية بأحسن منها . ولم ينقص ذلك من نشوة سروري فأنا أهتم دائما بالنصف الممتلئ من الكوب ولا أحفل بالفارغ!!

رويت هذه الواقعة لأمي خلال العطلة المدرسية ، فقالت لي إنها طقوس لابطال السحر (العمل) الذي كان سبب مرض الشابة .ولا بد من أن يكون ذلك السحر من فعل شيخ من

الفلاتـة جندته ضرتها لهذا الغرضـ . ولم تخف أمي جزعها على من نقمة الشيخ الفلاتي ، لأني شاركـت في ابطال سحـره . وأحضرت أمي لتحصيني من شره حجابا من عمنا الفكي شكاك راجل عتمور !!

ترجع نشأة كلية غوردون التذكارية إلى أواخر عام ١٨٩٩ ، عندما انتهز لورد كتشنر فرصة زيارتـه إلى أدنـبرا لتسلم درجة فخرية من جامعتها ومفتـاح المدينة ، في شهر نوفمبر من ذلك العام .اقترح كتشنر في أدنبرا اعتماد مائة ألف جنيه استرليني لتشييد كلية في الخرطوم ، تخليدا لذكري الجنرال غوردون .وقال في كلمته في الجامعة «إن علينا توفير العدالة لأهل السودان ومن واجبنا تجنيد قوة من الشرطة لأن في رجل الشرطة قوة عظيمة لنشر المدنية والحضارة ... وإني أتطلع إلى اليوم الذي ينهض البريطاني فيه ليوفر ما لا تستطيع الحكومات توفيره ، وخاصة توفير فرص التعلم لأطفال ذلك الشعب الفقير» واعتذرت الحكومة البريطانية عِن توفير المبلغ المطلوب من الخزانة العامة ،ونصحت اللورد بالالتجاء إلى البريطانيين الأغنياء الذين جنوا ثروات طائلة من مصر . أعربت الحكومة البريطانية في الوقت نفسه عن ترحيبها بالفكرة قائلة في ردها على لورد كتشنر «إن مشروعك الرامي إلى خلق أداة لنقل المعرفة الأوروبية إلى سكان وادي النيل لا يدعو إلى الاعجاب فحسب وإنما يمثل أيضاً السياسة الوحيدة التي لايمكن بدونها تنفيذ رسالتنا الحضاريـة على نحـو فعال» . ووجه لورد كتشنر نداء نشرته التايمـز في نوفمبر ١٨٩٩ جاء فيه «لقـد جـاء دور الفاتحين ليكونوا رسل المعرفة والحضارة ، وينبغي استئناف العمل الذي افترعه غـوردون» . وتلقي لورد كتشنر تبرعـات طائلة استجابة لندائه من الأغنياء البريطانيين ، أمثال اللوردات روتشيلد وريفلستوك وهيلينغدون ، وسير ارنست كاسل وهيو كولين سميث . وتجمعت ١١١ ألف جنيه استرليني قبل انتهاء العام . ونظم كيبلنغ شاعر الأمبرطورية أبياتا يستحث فيها السودانيين لتأييد مشروع لورد كتشنر قال فيها مخاطباً أهل السودان :

انهضوا حاملين أحذيتكم في أيديكم وأحنوا رؤوسكم حتى الصدور

لأن من لم يجزركم عبثا لن يتلاعب في تعليمكم .

ويرجـع اهتمـام لورد كتشنر بانشاء الكليـة والتعليم بوجه عام ، إلى أن همه الأول في ذلـك العهـد كواحد من بناة الامبرطوريـة ، كان متجها إلى توطيد أقـدام بريطانيا في السـودان وحكمـه على نحو فعـال ، ويتطلب هذا بالطبـع مددا من الكتبـة السودانيين وأنصـاف المهنيـين والحرفيين . وهكذا قام كتشـنر بافتتاح مدرسة أوليـة ومعهد لتدريب المعلمـين في عـام ١٩٠٠ لتغطية احتياجاتـه العاجلة المحـدودة ، و كاد أن يصرف النظر عـن مشروع الكليـة . ليس في ذلك ما يدعو إلى الاستغراب ، فقـد عرف كتشنر بأنه ذو مـزاج حـاد ومتقلب الأطوار ، زيادة على أنه كاد في تلك الأيـام أن يفقد أعصابه بسبب الحمـلات العنيفـة عليه في البرلمان البريطاني وفي الصحافـة لاكتشاف الأعمال الوحشية التـي ارتكبهـا خلال حربـه في السودان ، ومنها نبشـ قبر الامام المهدي وقتـل خليفته وأصحابـه رميا بالرصاص وهم يصلون !! . وأبدي لورد كرومر - المندوب السامي في مصر - امتعاضـه في رسالـة إلى الحكومـة البريطانية جاء فيهـا ، أن كتشنر أصبـح «متضايقا مـن بنـت أفكاره - كليـة غوردون - ولا أري في ذلك مـا يدعو للدهشـة مطلقا» . وقام لـورد كرومـر بزيارة الخرطوم ووضع الحجـر الأساسي لمباني كلية غـوردون التذكارية التي تشغلها الآن جامعة الخرطوم ، وقال مخاطبا الأعيان في حفل تكريمه : إن عليهم أن يطلبوا العدالـة من كتشنر الحاكـم العام لا من لندن أو القاهرة . ولعل هذه أول إشارة إلى جوهر اتفاقيـة الحكم الثنائي ، ومـا تعنيه عبارة رفاهية أهل السودان التـي نصت عليها ، وفيها دعـوة صريحـة إلى السودانيين لحمل أعباء بنـاء وطنهم دون التطلع إلى عون من الخارج . وفيهـا أيضاً لفت نظـر إلى أن السلطات المطلقة الممنوحة للحاكـم العام تغني عن اللجوء إلى العاصمتـين البريطانية والمصرية . وفي الحقيقـة أنها سلطات مطلقة لا تعادلها سلطات أعتـي الدكتاتوريـين في التأريـخ المعاصـر .

هكـذا كانـت نشأة كلية غـوردون التذكارية التـي التحقنا بها في عـام ١٩٤٢ . مدة الدراسـة فيها أربع سنوات يتلقي الطالب خلالها كل المـواد باللغة الإنجليزية باستثناء الدين

واللغة العربية . وهنالك حقيقة عايشتها بل إنني في الواقع من غرسها وثمارها ومع ذلك ، لا أجد لها تعليلا حتى اليوم ، رغم اجتهادي وطول التفكير فيها ، وهي أن المستعمر البريطاني أنشأ كلية غوردون وأشرف على أدارتها ووضع مناهجها على نحو يتفق مع مصالح الأمبرطورية البريطانية . ومع ذلك تخرجت من الكلية أجيال متتابعة كتبت عليها قيادة الحركة الوطنية وزعزعة الاستعمار ، لا في السودان وحده بل في بلدين عربيين آخرين على الأقل . برز من تلك الأجيال أربعة هم : اسماعيل الأزهري ومحمد أحمد محجوب في السودان واللواء محمد نجيب في مصر وقحطان الشعبي في ما كانت تعرف قبل الوحدة باليمن الجنوبية . اللواء نجيب قاد الثورة التي حققت جلاء البريطانيين عن وادي النيل وتحرير مصر من النظام الملكي ، والأزهري ومحجوب رفعا علم السودان المستقل مكان العلم البريطاني ، وفجر قحطان الشعبي الثورة التي أجبرت البريطانيين على ما يشبه الهروب من الجنوب العربي ، وعاصمته عدن خاصرة الأمبرطورية البريطانية . وبين الأربعة قاسم مشترك ، فقد انتهي كل منهم نهاية مؤلمة في وطنه على يد العناصر الانتهازية الشريرة العسكرية أو المدنية التي لا تؤمن بالديمقراطية وحق المواطن في حياة حرة كريمة . لفظ أربعتهم باستثناء محمد أحمد محجوب ، أنفاسهم الأخيرة وهم رهن الاعتقال ، محرومين من الحرية التي حققوها لشعوبهم!! نهاية مؤلمة لا تقل لؤما وعقوقا عن جزاء سمنار .

احتككت بالأزهري والمحجوب ونجيب احتكاكا مباشرا في معترك السياسة والحياة العامة . أما قحطان الشعبي ، الذي كانت الكلمات تخرج من فمه بسرعة طلقات مدفع رشاش ، فقد عاصرته في كلية غوردون . وكنا ننتمي إلى داخلية واحدة (كوكس هاوس) . وضمتنا مجموعة واحدة عندما جند طلبة الكلية لجني القطن في مشروع الجزيرة نظرا لقلة الأيدي العاملة في عام ١٩٤٣ . نزلت مجموعتنا في مكان قريب من قرية ود سلفاب . واعتدنا بعد انتهاء ساعات العمل في آخر النهار ، على الاستحمام في قناة الري عند القنطرة التي تتحكم في انسياب الماء من الجنوب إلى الشمال . وتفتح أبواب القنطرة

أو تقفل حسب احتياجات الري . واختار قحطان في أحد الأيام الاستحمام في الناحية الجنوبية من القنطرة ، فجرفه التيار إلى داخلها ليخرج من الناحية الأخرى مندفعا وسطنا إلى السطح ، كقذيفة البولاريس المنطلقة من غواصة في قاع البحر . وذهلنا جميعا إذ حسبناه تمساحا أو عفريتا مقيما في قاع القناة . أما قحطان فقد كان أشد منا رعبا وذهولا!! لو كانت أبواب القنطرة مقفلة في ذلك اليوم ، لما وجد صاحبنا منفذا للخروج منها ولمات غرقا ، ولما تحرر اليمن الجنوبي على الأرجح من قبضة الاستعمار البريطاني!! إذن ما سر تخرج أولئك الأربعة ومناضلين آخرين من كلية غوردون التذكارية ؟؟ أهو في مناهج الكلية التربوية ومعدن معلميها من سودانيين وخلافهم ؟؟ أترك الإجابة لخبراء التربية كما أتركها للقائلين بأن كلية غوردون صنعها الاستعمار لتنفيذ سياساته وتحقيق أطماعه!! ولا بد من أن أذكر اننا كنا نتلقي ضمن المناهج دروسا مرتين في الاسبوع ، في ما يعرف بالتربية الوطنية .اختفت هذه المادة من مناهجنا التربوية منذ سنوات طويلة ، ومن المؤكد أنها أسهمت في غرس الوعي في نفوسنا بالمواطنة وما للمواطن الصالح من حقوق وواجبات في ظل المجتمع . كانت تلك الدروس علما ومنهجا أخلاقيا تشربنا من خلالها بالقيم الخيرة النبيلة ، وما تعنيه من تقديس للحرية والعدالة والدفاع عن الحق ، لا مجرد حقن مخدرة من شعارات وحماسيات جوفاء يرددها الغوغاء كالببغاوات وراء «مسوح الرهبان أو قرون الشيطان»؟؟ عبارة ما قصدت بها أحدا ، أو تنظيما بعينه ، لكنها كالقبعة الطائرة في الهواء فليلتقطها من يشاء!! لماذا لا تعاد دروس التربية الوطنية إلى مناهجنا التربوية مثلما كانت في الماضي ؟؟ ومن الملاحظات التي تستحق التسجيل أيضاً ، إننا وجدنا عند التحاقنا بالكلية أساتذة أربعة أحدهم الأزهري رئيس مؤتمر الخريجين العام والثلاثة الآخرون (عوض ساتي وأمين زيدان ونصر حاج علي) تولي كل منهم منصب سكرتير المؤتمر في فترات مختلفة وحرجة للغاية . كما وجدنا عبيد عبد النور حادي ثورة ١٩٢٤ . تري هل حدث هذا اعتباطا أم أنها كانت سياسة مقصودة من جانب الإنجليز؟؟

وأسعدنا الحظ إننا عاصرنا في كلية غوردون التذكارية غير هؤلاء ، أساتذة أجلاءآخرين ، سودانيين وإنجليز أمثال محمد أحمد سليمان ، وعبد الحليم على طه ، والنصري حمزة وأحمد المرضـي جبارة من خريجي الجامعـة الأمريكية في بيروت إلى جانـب الشاعر أحمد محمد صالح ، وعبد الكريم محمد نائب العميد ، وأحمد بشير العبادي وخالد موسي والهادي أبوبكر خريج دار العلوم في القاهرة ، وبشري عبد الرحمن صغيرون خريج الجامعات البريطانية . ومن أساتـذة الديـن واللغة العربية المعممين الأساتذة مجذوب جـلال الدين وعبد الله عمر البنا الملقـب بأمير شعـراء السودان ، وعباس العبيد وحسن أحمد بشاشة . وانضم اليهم في السنة الأخيرة دكتورعبد الله الطيب والمعلم عبد الرحيم الأمين هاساي ، والفيلسوف الصوفي محمد علـى يوسف وهو من أتباع الطريقة السمانية المتفانين ، هاجر من السودان إلى المملكة العربية السعوديـة ، حيث انقطع للعبـادة والتدريس في جامعاتها . ولا يتسـع المجال للاستفاضة في الحديث عـن أولئك الأساتذة الأجلاء ، ومنهم من يستحق كتابـا بأكمله .وهكذا سأكتفي بانطباعاتي عن بعضهم في عبارات مختزلة كلغة البرقيات :

* اسماعيـل الأزهـري : أستاذ الرياضيات الذي نقل الأصفـار في لحظة حاسمة من الشمال إلى اليمين .

* عوض ساتي : معلم وصديق للجميع .

* بشري عبد الرحمن : مشاعر الأبوة فيه لا تنفصل عن روح المعلم .

* النصري حمزة : كوميدي نقل المسرح إلى حجرات الدراسة .

* أحمد محمد صالح : مهيب ورهيب أدباً وشكلاً .

* عبد الحليم على طه : سلة نكات تسعى على قدمين .

* أحمد بشير العبادي : شيخ عرب وكفي .

* عبيـد عبد النور : أستـاذ التأريخ الذي وقف التأريخ عنـد بابه في الشوط الأول ثم مضي في الشوط الثاني إلى أستاذ الرياضيات .

* حسن أحمد بشاشة : زاد في الرقة حتى إنقطع .
* عبد الله البنا : متألق دائما ولكن خارج المناهج والمقررات .
* خالد موسي : من علمني حرفا صرت له عبدا

وحرصـت الإدارة البريطانية منذ البداية على الدقة في اختيار صفوة المعلمين الإنجليز للعمل في الكلية ومعظمهم من أبناء الأسر العريقة ومن خيرة خريجي الجامعات البريطانية . لم يبخلوا علينا بما لديهم من كنوز الثقافة الغربية يمينية ويسارية . ويرجع هذا الموقف من جانب البريطانيين إلى ما يكنونه للسودانيين من اعجاب واحترام خاص دون غيرهم من سائرشعوب الأمبرطورية الأخري . وهنالك حقيقة لا بد من تسجيلها وهي أن السلطات البريطانية درجت على الجمع بين التدريس والعمل في السلك الإداري فقد ينقل المدرس البريطاني من الكلية ليعمل مفتش مركز أو العكس .والقصد من ذلك التعارف عن كثب بين البريطانيين والطلبة قبـل أن يلتقوا بهـم في المراكز التي يعملون فيها بعد تخرجهم . وعاصرنا في الكلية نخبة من المعلمـين البريطانيين : المستر سكوت الذي ترجم إلى الإنجليزيـة كتاب حياتي للشيخ بابكر بدري ، ومستر هيبرت المشهور بأبو نفيسة ، ومستر براون أستاذ العلوم والرياضي المطبوع الذي أصبح في ما بعد عميدا لمدرسة حنتوب الثانوية . ولا شك في أن الشيوعيين لا يذكرون مستر بـراون بخير بسبب تلميذه الشيخ حسن الترابـي ، ولا يذكره الإسلاميون أيضاً بخير بسبب تلميـذه محمد ابرهيم نقـد زعيم الشيوعيين بينما يلعنه الجميع لأن من طلبته جعفر نميري!! وثلاثتهـم كما هو معروف من خريجي مدرسة حنتوب الثانوية!! ومن المعلمين الإنجليز روبين هودجكـن أستـاذ الجغرافيا الذي فقد أصابعه لانقطاع الدم عنهـا من جراء الصقيع ، خلال مغامـرة لتسلق جبال الهملايا .وصار روبين موضع احترام واكبار لدي جميع السودانيين لأنه البريطاني الوحيد الذي رفض التعويض المالى المغري ، عندما استغني عن خدماته قبل الآوان مـع بقية الموظفين البريطانيين ، تمهيـدا لاستقلال السودان . وهنالك مستر ديل مدرس العلوم الـذي أصيب بصدمة جراء السودنة عند عودته لبـلاده فقتل زوجته وطفليه ثم قتل نفسه .

وكان هناك أيضاً مستر هولت أستاذ التأريخ ، ومستر برايت أستاذ اللغة الإنجليزية الذي دخلت معه في معركة حامية منذ السنة الأولى ، حينما طلب منا حفظ قطعة من الشعر الإنجليزي (ماتيلدا الكذابة) . ورفضت الامتثال لأمره بحجة أنها من الأهازيج والأراجيز التي تلقن للأطفال أي ما يشبه الشعر الحلمنتيشي ، وقلت له أنني أحفظ الكثير من روائع الشعر الإنجليزي ، ولا مانع عندي من حفظ مزيد منها . واعترف بأني كنت عنيدا في موقفي وعاقبني مستر برايت مرتين بالجلد في مكتبه . وفي المرة الثالثة ، لم أذهب إلى مكتبه لتلقي الجلدات الخمس ، وانما استنجدت بمستر كرايتون رئيس شعبة اللغة الإنجليزية وكان عاقلا ومنصفا ، إذ أعطاني مجموعة من الشعر الإنجليزي الجيد لكي أطلع عليها وأحفظ منها ما يروقني ، على أن أحفظ في الوقت نفسه أهازيج مستر برايت .

ومهما يقال عن كلية غوردون التذكارية (GMC) فإني اعترف بأنها لعبت دورا كبيرا في تكييف شخصية جيلنا ثقافيا واجتماعيا ووطنيا ووطدت في نفوسنا الالتزام بالمسئولية والحرص على الصدق والأمانة في مستقبل حياتنا ، وهي صفات انقرضت للأسف مع اختفاء خريجي الكلية عن ساحة الحياة العامة والسياسية بوجه خاص . وأفخر بأني واحد من خريجيها وأقول لمن يصنفها كمؤسسة استعمارية هذا كتابنا فأقرأوه وأين أنتم منا اليوم يا غرس ما جاء بعدها من معاهد وجامعات حتى ما عوز منها جورا وبهتانا بالرقي والسبع المثاني ؟؟ لا جدال في أن للاستعمار مساوئه ومآسيه ولكن يجب ألا ننسى أن السودان لم يعرف الوحدة إلا في ظل نظام العدل والمساواة بين سكانه وسيادة القانون الذي أحدثته الإدارة الاستعمارية ، وكلها مقومات لا سبيل للوحدة بدونها . وقد رأينا كيف أخذت هذه الوحدة تتهرأ منذ فقدان تلك المقومات في ظل الحكومات الوطنية التي خلفت الاستعمار . ويصدق هذا على الهند التي توحدت في ظل الاستعمار البريطاني ثم تمزقت عندما غادرها وتحولت إلى كيانات مستقلة يعادي بعضها بعضا !! . كنا أمة وحدت بينها محنة الاستعمار وترابطت في مقاومته ولكننا فشلنا فشلا ذريعا في إيجاد بديل عن الاستعمار يضمن بقاء وحدتنا وترابطنا .

لـماذا توحدنـا وترابطنا في ظل الاستعمار ، ثم اختلفنا وافترقنـا عند الاستقلال ؟؟ يجب أن نحاســب أنفسنا وأن نقلع عــن اتخاذ الاستعمار حبل غسيل ننشر عليه اخفاقاتنا وأخطاء نا فلم يبق في الحبل مكان حتى لسوتيان غلى صدر كاعب!!

لا أدعــي أني كنــت طالبا نابها في كلية غوردون التذكارية رغم أني عندما قبلت فيها كنت واحدا من أنبغ عشرة طلاب على مستوى القطر . كنت في اﻻلكلية طالبا فالتا ، وشقيا ، ومتمــردا علــى النظام . لم أحل في السنــوات الأربع التي أمضيتها في الكليــة مسألة رياضية واحــدة ، رغم جهود أستــاذي الرياضة (اسماعيل الأزهري وعوضــ ساتي) واهتمامهما بي بصفــة خاصــة ، لا لشيئ ســوى أني كنت رغم ما لمساه في من ذكاء فطــري طالبا خائبا في الرياضيــات وفي حاجــة للاهتمام بأمري . ولم أستوعب من دروس العلوم سوى تقنية الصبارة THERMOS FLASK وتشريــح الضفادع .لكني كنت متفوقـا في الإنجليزية لغة وأدبا وأحصــل دائمـا على أعلي الدرجات ، في العربي والجغرافيـا ، والتأريخ والتربية الوطنية .وقد انجرفــت إلى التدخين في ذلــك العمر المبكر ، وما زلت أدخن بشراهــة حتى اليوم .لكن أشر مــن ذلك أني أدمنت ارتياد حفلات الأعراس والاستمــاع إلى مطربي ذلك الزمان - كرومة وســرور وزنقار ، وعائشة الفلاتية وآخرين وأخريات من أهل الفن . أصبحوا يعرفونني ، وكثيرا مــا يفتقدونني في الحفلات في حالات الغياب . كانت في حي البوستة في تلك الأيام كوكبة من الفنانين والفنانات : زنقار والكناني وعاشة الفلاتية وفاطمة الحاج ورابحة ، ومهلة العبادية التــي نظمت فيها أول أشعــاري ، فقد كانت فاتنة بارعة الجمال تمثل بشلوخها البراقة جمال المرأة السودانية في أبهي صوره ولا يزال هذا معيار الجمال عندي . كانت رابحة ومهلة ملكتي أغــاني التــم تم التي غزت مجتمعنا لأول مرة في تلك الحقبة إمــا من الجنوب أو عبر الحدود الأثيوبيــة وهــذا الأرجح وانضيمت إليهما في مرحلة لاحقة الفنانــة والراقصة المبدعة سعدية العوادية القادمة من كردفان . كنا في حي البوستة ننام ونصحو على دقات دفوف تلك الأغاني وأنغامها المشحونة بالرقة والحنان . وتعرفت في تلك الفترة أيضاً على عدد من شعراء الأغاني

أمثال على محمود التنقاري ، وعبد الرحمن الريح ، والجاغريو وخضر حسن سعد . وكنت كثير الغياب عن الدراسة نهارا مع حرصي على ارتياد حفلات الغناء ليلا .

أنقذني سرور مرة من حماقة كبري ، كادت لولاه ، أن توقعني في مأزق لا تحمد عقباه . فقد برزت مرة إلى وسط حلبة الرقص وخلعت جلبابي - كعادة الفتيان يومذاك - ووقفت في انتظار العريس ليهوي كالعادة على ظهري العاري بالكرباج حتى يدمي ، ثمنا أدفعه مقدما للفوز بشبال من الفتاة الراقصة ، التي استهواني تثنيها في دلال ورشاقة . وطار لبي من فرط حسنها وجمالها . وسرعان ما اختطف سرور الكرباج من يد العريس ، وضربني في رفق ضربات خفيفة ، ثم قال للراقصة ، بصوت عال سمعه الجميع «الشبال يا السمحة ست البنات للرباطابي ود الكلية» . ونفحتني الجميلة بالشبال مثني وثلاث بينما تعالت زغاريد الأخريات ، حتى بلغت عنان السماء . وخرجت من الحلبة مختالا متبخترا كالطاؤوس . ولولا سرور لخرجت يومذاك بظهر دام ، وربما انتهت الجروح بالتيتنوس القاتل كما يحدث في حالات كثيرة للعديد من فتيان ذلك الزمان . كانت حفلات الأعراس في ذلك الزمان كرنفالات زاهية بألوان السحر والجمال ونفحات العطور من بخور الصندل ، وأريج الخمرة ﴿ضم الخاء﴾ وهي عبارة عن خليط من الصندل والمسك ورائحة الفلور دامور الفرنسية والرفدور ، وبنت القسيس ، وأشياء أخرى بينها أظافر حيوان بحري تعرف بالضفرة . ثم جاءت رائحة المايقوما في زمن لاحق لتنافس الخمرة .وهي رائحة زيتية مستوردة من أندونيسيا ظهرت لأول مرة في حفلات زواج صديقي محمد سيد أحمد سوار الذهب ، وهي من الحفلات النادرة التي لا تزال محفورة في ذاكرة جيلنا حتى اليوم ، وسأظل أتبعها حيثما سقطت من العمر . شارك في احيائها معظم الفنانين : حسن عطية وابرهيم الكاشف وأحمد المصطفي وحسن سليمان الهاوي . وحفلات الأعراس في ذلك الزمان ظاهرة اجتماعية جديرة بالدراسة من جانب أساتذة التأريخ والأنثربولوجيا . كانت تقام الحفلات في فناءات الدور بدلا من الصيوانات التي لم تكن معروفة آنذاك ، وكان الشباب من الجنسين يأتون إليها في أبهي حللهم وثيابهم .

يمضون السهرة التي قد تمتد حتى الصباح في جو تسوده العفة والحياء من جانب الجنسين . ولا يجد الواحد منا غير متعة النظر ، أو إيصال محبوبته إن أسعفه الحظ مع أمها وإخوتها وأخواتها إلى بيتهـا ، بعد انفضاض الحفلة ، وربما تكون في ذلك الخطوة الأولى نحو الخطوبة التي يليها الرفـاء والبنين وبيت المال والعيال . كانت حفلات الأعراس مناسبة بريئة للمتعة ، والتقاء الجنسين لا للتفاخر والتباهي كما يحدث الآن ومنذ اختلال القيم الأخلاقية والاجتماعية ، واستبدال الثوب السوداني الانيق المحتشم بالكوشة للعروس ليلة الزفاف .

فـزت في عامي الأول في الكلية بجائزة أحسـن مقال ، في المسابقة التي تجريها الكلية سنويا .كان المقال عن شرور الحرب ، أما الجائزة فقد كانت مائة وخمسين قرشا مصريا بالتمام والكمـال ، أي ما يعادل جنيها استرلينيا ونصـف في ذلك العهد . وهذا أول رزق يدره قلمي مصـدر رزقي الرئيسي حتى اليـوم ، ولو أن الكومبيوتر حل مكان القلم في السنوات الأخيرة . أرسلت خمسين قرشا من الجائزة بالبريد إلى والدتي في الرباطاب ، بينما أنفقت الباقي على نفسـي وأصحابي في بذخ وسخاء ، وعلـي أول زيارة في حياتي إلى حي العاهرات . فقد كان مبنـي المدرسـة الأميرية القائم حتى اليوم على شارع الموردة في أم درمان في قلب ذلك الحي ، تحيـط بـه بيوت الدعارة شمالا وجنوبا ، وتطل عليها نوافذ الطابق العلوي من مبني المدرسة . نفسـس الحي الذي كانت مدرسة الأحفاد فيه خـلال سنواتها الأولى لكن في هذه المرة كنت أفهم تماما المقصود من :

وصل لما عسر بالمنديل ونحوه كالحبل والتوكيل

هـذا بيت من العشرية عن الغسل (الحمـام الشرعي) كنا نحفظه في السنوات الأولى ونردده في براءة كالببغاوات دون أن ندري معني له على الاطلاق .

تسللـت إلى الحـي في جنـح الظلام في تجربتـي الأولى التي لم يبق شـيء منها عالقا بذاكرتي سوى صفعة موجعة ، فاجأتني بها بائعة الهوي في النهاية على خدي الأيسر . لماذا

لا أدري ؟ لعلها انتقام مني لتحسسي دون جدوي ، في عنف وخشونة ، موقع غدة جي(G) الأسطوريــة التــي قيل في ما قرأت ، أنهــا موطن اللذة عند الأنثي . لم أكــن موفقا في العثور عليها لأن بائعة الهوي كانت في حجم شجرة الجميز ، وربما كان أوفر حظا لها اختيار حلقات الملاكمة (الوزن الثقيل) بدلا من سوق الدعارة!!

ورحت كأي فتي مغامر في ميعة الصبا أروي في اليوم التالي لأصحابي ، وهم يصغون مشدوهــين ومسحورين بحديثي عن الليلة السابقة ، وكيف ارتجت الأرض تحتى كأنما اقتلعها بولــدوزر مــن جذورها ودكها دكا ، وخلــت أن سقف الغرفة انهار فــوق رأسي في دوي هائل كالبركان ، وأن العنقريب طار بنا سويا في الهواء . كانت تلك تجربتي الأولى . . . ومن كان بلا خطيئة فليرمني بحجر !! وليغفر الله لنا جميعا .

شاهــدت قبل نحو عامين بائعة الهوي نفسها تتسول وهي مشلولة ، راقدة فوق الأرض أمام متجر قي سوق الخرطوم ، وكأنها بقية نعل بالية ، تذروها السافيات على كثيب من الرمال . لم تعد اربة فيها لغير الذباب والهوام . ثيابها أسمال ملطخة ببقع أشأم منها أنها في رقع . قيل لي أنها تأتي كل صباح محمولة على ظهر أحد وتعود في آخر النهار بنفس الطريقة . لم تعرفني بالطبع فأنا لست سوى واحد من مئات البشر الذين عبروا حياتها ، ومع ذلك تصدقت عليها بألــف جنيه بالتمــام والكمال . مبلغ كبير لكنه أقل قيمة - بفضــل التضخم - من القروش العشرة التي دفعتها ثمنا للرذيلة المشتركة قبل أكثر من نصف قرن . أما غدة جي التي نالتني الصفعــة بسببها ، فإنها تنسب إلى مكتشفها العالم الأمريكي إرنست جرافنبيرج لذلك عرفت بالحرف الأول من اسمه . ويقال إن موقعها تحت عظمة العانة ، وتقابلها البروستاتا عند الرجل . علــى أية حال وجود غدة جــي لا يزال حتى اليوم موضع أخذ ورد بين العلماء ، ولو أن بعض إخواننا المجربين يقولون بوجودها ظاهرة بين نساء قبيلة في شمال بحر الغزال .

في السنة الأخيرة في الكلية بلغ بي التمرد غايته ضد إدارتها وضد الاستعمار بوجه عام . ربما كان ذلك باكورة وعيى سياسيا ووطنيا .استدعاني العميد الأنجليزي مرة إلى مكتبه للتحقيق

حول كلمة ألقيتها في حفل داخل الكلية أحياه عازف الكمان الفلسطيني الشهير سامي الشوا . تحدثت في كلمتي عن حادث الاصطدام بين الشرطة والمتظاهرين من أهل توتي بقيادة مصطفي خالـد (والد دكتور داؤود) . قتلت الشرطة في الحادث أحد المتظاهرين رميا بالرصاص . كانت المظاهـرة احتجاجا على اخلاء جزيرة توتي من أهلها وتحويلها إلى منتجع سياحي . ونددت في كلمتـي الساخنة بالاستعمار ، وهتفت في ختامها بسقوط الاستعمار وملك بريطانيا . شعرت مـن التحقيق أن العميد كان يعتقد أن بعضـ المعلمين وراء ما أقدمت عليه . وفي تلك الأيام أخذت في تدبيج منشورات سرية وتوزيعها داخل الكلية . وتطورت المنشورات إلى جدارية سرية باسم «البركان» أعلقها كل اسبوع في موقع مختلف ، أتناول فيها موضوعات وقضايا لا أستطيع تناولها جهرا في الجدارية الأخرى «صور المجتمع» ، التي كنت أصدرها أيضاً ولكن بعلم إدارة الكلية وتحت اشراف الأستاذ المعلم عبد الرحيم الأمين . ويشاركني في تحريرها نفر من الطلبة بينهـم محمد عمر بشـير واسماعيل المليك وعثمان وقيع الله وموسـى خليل أبو زيد ومحمد مأمـون المرضي وأديب اللغتين عبد الرحيم ميرغنـي . خلقت البركان والمنشورات السرية قلقاً عظيمـاً لإدارة الكلية . وكان من الطبيعي اتجاه أصابع الاتهام نحوي .استدعاني العميد مستر لانـغ مـراراً إلى مكتبه للتحقيق دون جدوي . وبقيت الإدارة محتـارة إلى أن وقعت في كمين نصـب لي ذات يوم في ساعة مبكرة جدا من الفجر ، وضبطت متلبسا بإلصاق «البركان» على جـدران دورة الميـاه!! لم يكن أمامي من سبيل إلى الانـكار أو الدفاع ، فأصدر مستر لانغ قرارا بفصلـي فورا ، دون الرجوع إلى هيئة التدريس حسب العرف المتبع ، أو حتى لولي أمري الشيخ بابكر بدري الذي حاول علاج الموقف لكن بعد فوات الأوان .

وهكـذا أصبحت أول طالب يفصل من كلية غـوردون لأسباب سياسية منذ اضراب طلبتها الشهير في عام ١٩٣٠ . وتوكلت على الله منذ ذلك اليوم مقتحماً معترك الحياة .

أعانـني حسين سليم التاجـر في أم درمان ، في الحصول على وظيفة مع شركة اليهودي يوسف تابت للعمل في فرعها في جمبيلا ، على الحدود السودانية الاثيوبية . وحسين سليم والد

عبـد العظيم زميلي في الكلية كان على خلاف معظـم التجار الوطنيين في تلك الأيام يرتدي الزي الافرنجي . غير أن الأقدار لعبت لعبتها إذ التقيت في طريقي إلى المقر الرئيسي للشركة في الخرطوم ، بصديقي محمد عبد الرحيم العمرابي ، لاعب فريق الهلال المعروف ، وكان حينذاك موظفـا في مكتـب التخديم .ذهبت مع العمرابي لمكتبه في مبنـي مديرية الخرطوم ، ثم ذهبت بتوجيـه منه إلى مصلحة المصروفات والسجلات (قـوة دفاع السودان) ، حيث قبلت في اليوم نفسه للعمل كاتبا عسكريا مع وحدات قوة الدفاع المحاربة ، في اريتريا والجبهة الغربية (ليبيا) . لم أذهب إلى اريتريا أوليبيا ، إذ رأي ميخائيل بخيت باشكاتب المصلحة ، ابقائي في الخرطوم في قسـم نفقات زوجات الجنود المطلقات الذي ترد اليه أحكام المحاكم الشرعية ووثائق الطلاق . ومهمتنا ضمان وصول النفقة المحكوم بها إلى المطلقة في آخر كل شهر .وتوثقت عري الصداقة بينـي وبين عدد من الزمـلاء في المصلحة منهم مجذوب مصطفي التني ، وعبد المنعم حسب الله ، وأبوعاقلة يوسف ، وعبد الماجد أبوحسبو ، وأحمد محمد على السنجاوي . كان مجذوب شابـا وسيما أنيقا محبـا للحياة وفنانا عذب الصوت ، ومن القليلين الذين يجيدون تقليد أمير العود حسن عطية .وتوثقت من خلال مجذوب صداقتي مع الشاعر الغنائي خضر حسن سعد تاتـاي ، والمطرب الفنان حسـن سليمان «الهاوي» ، ومع أمير العود الـذي ربطتني به صداقة فريـدة ، زيـادة على اعجابي الشديد بفنه وأغانيه ، ونادرا ما نفترق ، مما جعل زميلي الصحفي الساخر على حامد يقول للناس في زمن لاحق : إن محمد خير ودكتور النور عبد المجيد كطير البقر أينما وجدتهما تجد أبوعلي!! وطير البقر الأبيض اللون يتابع دائما قطعان الماشية ويتغذي بالحشرات العالقة بها أو التي تثيرها الأبقار بين حشائش المرعي .

ومـن المتناقضـات أن الناس يأخـذون على أبوعلي مضغه لكلمـات الأغنية إلى حد تغيب عنهم .لكن هذا في رأيى سر عبقريته وابداعه الذي لا يشاركه فيه أحد . فهو في الواقع فنـان يطـرب نفسه أولا ، والكلمة عنـده شحنة كهربائية متفجرة مفعمـة بالأحاسيس ، لا يمضغها كما يخيل للسامع ، وإنما يمزقها ليترنم بها حرفا حرفا في انسجام واتساق مع موسيقاه .

ومهمـا يقال عـن حسن عطية فإنه سيظل في تأريخ فن الغنـاء والموسيقى رائدا حمل رسالة الانتقال بفن الغناء في السودان ، من آخر مراحله التقليدية ذات الطابع العربي الخالص ، إلى مرحلة امتزج فيها بإيقاعات التم تم الافريقية الراقية ، ليصل بفن الغناء في النهاية إ لي مرحلة الموسيقـي الوترية (العود والكمان) التي حلت مـكان الكورس الصوتي (الشيالين) . وهكذا يصبـح حسن عطية معلما فريدا يمثل وحده مرحلة متميزة في مسيرة فن الغناء السوداني ، مما يجعـل مستحيـلا تصنيفه على نحو ينسب فيه إلى واحدة مـن المرحلتين المتعارف عليهما : أغاني «الحقيبة» والأغاني الحديثة .

محطـة ٣

بين الصحافة والحركة الوطنية * حزب الاتحاديين مدرستي الأولى * نشأة مؤتمر الخريجين * ميخائيل بخيت وحسن الكد * مظاهرة ضد المبشرين في أم درمان * ثورة ابرهيم العبادي على الإمام الصديق * تخطيط مدينة الخرطوم * منشور يغضب السيد على الميرغني * العنف السياسي * ناظر الجعليين يتهم الإمام عبد الرحمن. والهندي يقاضي محمد أمين حسين * السيدة الخليعة في الفندق الكبير * محاكمة حماد توفيق * سودنة قاضي القضاة المصري * الباشا يهزم صادق عبد الماجد ابن المدينة * وليمة ثمنها علقة ساخنة *

كانـت الصحافة الباب الـذى نفذت عبره إلى ساحة الحركـة الوطنية ، وقبلها كانت الصحافـة الجداريـة سبباً في انقطاعي قبل الأوان عن الدراسـة وربما العكس صحيح . ولعل تطلعاتي إلى الانخراط في مسيرة الحركة الوطنية ، هي التي قادتني إلى بلاط صاحبة الجلالة . كانـت فـترة الأربع سنوات إلا قليلا تقريبـا التي قضيتها في كلية غـوردون التذكارية كافية لإذكاء مشاعـري وأحاسيسي الوطنية ، وإن كانت مجرد خامة لم تتبلور حتى ذلك الحين وفي حاجة إلى المزيد من الصقل . بدأت أولا بكتابة مقالات في صحيفة الأمة باسم «سارة» متأثرا في اختيـار هـذا الاسم برواية العقاد المعروفة . ولولا (عرس الزيـن) للطيب صالح لقلت إنها الرواية العربية الوحيدة التي اكتملت لها عناصر فن الرواية ومقوماتها خلقا وابداعا . حاولت قراءة روايات عربية غيرهما ، لكنني في كل مرة ينقبض صدري وينفد صبري ، بعد صفحات لا تتجـاوز أصابع اليد . وهـذا مقياس الجودة الذي استرشد به دائما لتقييم أي عمل أدبي .

فالرواية هي في الأصل امتداد للأحاجي التي تحكي لنا في الأمسيات في عهد الصغر ، منها ما يصرعنا على الفور كأقراص المورفين أو الضربة القاضية في حلقة الملاكمة ، ومنها ما يقهر سلطان النوم ويبقينا ساهرين حتى ساعة متأخرة . هكذا ستبقي عرس الزين وسارة عباس العقاد التوأمتين اليتيمتين في دنيا الأدب العربي ، إلى أن يجود رحم الزمان علينا بوليد آخر!! ربما أكون قاسيا في حكمي على الرواية العربية والروائيين العرب . ومن الظلم أن أحكم على رواية على ضوء صفحاتها الأولى ، لكن المرء قد ينفر من البستان الموشي بالأزهار والرياحين والورود إن كان مدخله غير سار مليئا بالأشواك والعقارب والروائح الكريهة !!

تناولت في مقالاتي في صحيفة الأمة قضايا المرأة ، مثل توفير المزيد من فرص التعليم الثانوي والعالى للبنات ، إذ لم تكن في السودان يومذاك مدرسة ثانوية للبنات ، باستثناء مدرسة الاتحاد (اليونيتي) التابعة للكنيسة الكاثوليكية . لم يسمح حتى ذلك العهد لسوى ثلاث من خريجات اليونيتي بالالتحاق بالتعليم العالى احداهما درست الآداب ، والأخريان هما الطبيبتان ، خالدة زاهر وزروي الأرمنية الأصل . ودعوت في تلك المقالات أيضاً إلى محاربة عادة الخفاض الفرعوني ، وإلى تمثيل المرأة في المجلس الاستشاري لشمال السودان ، الذي كان بمثابة الخطوة الأولى إلى الحكم الذاتي . ولقيت تشجيعا على الاستمرار في الكتابة من ابن عمي محمد عثمان ميرغني أحد مؤسسي حزب الأمة .كنت حريصا في تلك الأيام على زيارته وتناول الغداء معه في أيام الجمعة ، حيث يجري النقاش بيننا حول القضايا الوطنية ، يضفي عليه جعفر ابن أخيه محمد طابعا يساريا . كانت تلك المدرسة الأولى التي تعلمت فيها أصول وآداب النقاش . ولفتت مقالاتي في صحيفة الأمة نظر ابرهيم بدري فبعث إلى برسالة من الجنوب ، يبدي فيها اعجابه ، وكانت هذه بداية العلاقة بيني وبين من أصبح في المستقبل أستاذي وأبي الروحي . طلب ابرهيم مني في إحدى رسائله ، الاتصال بمكي عباس الذي استقال في تلك الأيام من المجلس الاستشاري ، وأصدر صحيفة الرائد ، أول صحيفة سودانية دعت إلى نظام الحكم الجمهوري الاشتراكي في السودان . وقد باع ابرهيم بدري بيته

الفخم في شارع العرضة بأم درمان لتمويل الرائد . كانت دائرة المهدي أول المتقدمين لشرائه . لكن ابرهيم باعه نكاية بالدائرة لخصومها الختمية الذين خذلوا ابرهيم وباعوا البيت بعد سنوات قليلة لدائرة المهدي . وآل البيت بعد وفاة الإمام عبد الرحمن لابنته زوجة ابن أخيه دكتور الفاضل البشري المهدي!!

انضممت في تلك الأيام إلى حزب الأمة ، وذهبت إلى ناديه لأول مرة ، مع محمد عثمان ميرغني فقدمني إلى كبار أعضاء الحزب الذين تصادف وجودهم في النادي بينهم السيد صديق المهدي وخاله السيد محمد الخليفة شريف والشيخ سيد أحمد عثمان القاضي ، وعبد الكريم محمد والأمير عبد الله نقد الله .

كان انضمامي لحزب الأمة مرحلة عابرة في طريق البحث عن الذات لم تدم طويلا ، إذ إن الحزب بسياساته المعلنة وغير المعلنة لم يشف غليلي ، وقد كنت متعطشا للاصطدام مع المستعمرين لا مهادنتهم . وأخذت اكتشف رويداً رويداً أن حزب الأمة صنيعة استعمارية ، أرادها الاستعمار البريطاني ترياقا ضد الحركة الوطنية . وصدق حدسي فقد اكتشفت قبل سنوات قليلة رسالة في جامعة ديرهام البريطانية ، من مؤسسي الحزب إلى سير جيلان «صديق السودان» -كما ذكرت الرسالة - يستأذنونه لإنشاء حزبهم . وسير جيلان هو السكرتير الأداري الذي تبلورت في عهده التيارات السياسية المختلفة في السودان ، وقد عمل في أول سنوات خدمته ضابطاً سياسياً للحملة التي قضت في عام ١٩١٦على السلطان على دينار وضمت دارفور إلى السودان . ومهما يكن من أمر فإن حزب الأمة كان متفقا مع أهداف السياسة البريطانية بدعوته إلى استقلال السودان تحت شعار السودان للسودانيين .وعليه كان من الطبيعي أن يجد ترحيبا من الإدارة البريطانية . وتجلي ذلك بصفة خاصة في منشور من السكرتير الإداري في تلك الأيام بعث به إلى موظفيه في الأقاليم يدعوهم فيه بطريقة غير مباشرة إلى التعاون مع حزب الأمة باعتباره رد فعل للتهديدات المصرية . وتسرب المنشور إلى قيادة الختمية ، ومنها إلى صحيفة البلاغ المصرية . وأعيد نشره في صحيفة صوت السودان

في مـا عرف في تاريخ الصحافة السودانية بقنابل دكتور أحمد السيد حمد . يضاف إلى ذلك أن قـادة حزب الأمة لم يخفـوا في تصريحاتهم التي ظهر بعضها في الصحف السودانية وقوف الإدارة البريطانية إلى جانبهم .

وجـاء يـوم التقيت فيه مع ابرهيم يوسف سليمان سكرتير حزب الاتحاديين في مكتب ميخائيـل بخيت . جاء ابرهيـم مع زميله حسن زيادة أمين صندوق الحزب لمراجعة حسابات مصلحة السجلات والمصروفات . وبهرني ابرهيم بافكاره الاشتراكية وبحماسته الوطنية ولباقته في الحديـث . وكنت معجبـا قبل أن أراه بمقالاته الشهيرة في صوت السودان بعنوان «فلسطين أخـري» ، تناول فيها خطـة الإدارة الاستعمارية البريطانية لمحو وجـه السودان العربي بسيل دافـق مـن المهاجرين من غرب افريقيا ، وتوطينهم كأيد عاملـة في المناطق الزراعية ، مع بقاء جنـوب السودان منطقة مقفولة ، تمهيدا لانفصالـه في المستقبل أو ضمه إلى يوغندا . وتنفيذا لهذه السياسة البريطانية الانفصالية جلبت الحكومة زنوجا أمريكيين للعمل في مشروع القطن في الزيداب في سنواته الأولى بدلا من جلب أيد عاملة مثلهم عرقيا من الجنوب .

ويرجع الفضل لابرهيم يوسف سليمان ، في جعل ايقاف الهجرة من غرب افريقيا أول مطلب في مذكرة المؤتمر الشهيرة بعد المطالبة بتقرير المصير مباشرة . وهكذا تركت حزب الأمة ، وأصبحـت عضوا في حزب الاتحاديين ، وشجعني على ذلك أن ميخائيل بخيت وعبد المنعم حسـب الله كانا عضوين في حزب الاتحاديين . ويعقد الحـزب في تلك الأيام اجتماعاته مرة كل اسبـوع في منزل سكرتيره في حـي الركابية بأم درمان . وزاد من سعادتي عندما حضرت أول اجتمـاع للحـزب أنني تسلمت في ذلك اليوم من يوسـف نعمان (ترزي المؤتمر) أول بدلة كاملـة من الدمـور البلدي اقتنيتهـا في حياتي .ذهبت إلى الاجتماع مرتديـا البدلة الجديدة وصنـدلا من جلد الشاموا مصنوعا محليا . وكنت اتخـذت في تلك الأيام بدافع وطني قرارا انفراديا بألا ارتدي غير المنتجات المحلية اقتداءاً باسماعيل الأزهري وعبيد عبد النور والأمير عبـد الله نقـد الله . وعدلت عن ذلك بعد فترة قصيرة ، ولـو أني لم استبدل الصندل بالحذاء

إلا عند أول مقابلة لي مع اللواء نجيب ، بعد أيام من انقلاب ٢٦ يوليو . كان ظهوري في الاجتماع مفاجأة لمعظم الحاضرين إذ لم يكونوا على علم مسبق بانضمامي إلى حزبهم ، وظن بعضهم أني دسيسة من حزب الأمة لما علموا نسبتي لآل بدري . كانت سمات التحفظ بادية على وجوههم .غير أن ذلك لم يمنعني من المشاركة في مناقشة مذكرة أعدتها لجنة من المعلمين الأعضاء حول «تقرير براون» الحكومي عن مستقبل التعليم في السودان . من أولئك المعلمين محمد أحمد عبد القادر والهادي أبوبكر وعثمان أحمد عمر(عفان) وعمر أبو شمة ومحمد خليل جبارة . وعندما ذكرت في مداخلتي أن المذكرة والتقرير لم يوفيا تعليم البنات حقه ، واقترحت انشاء جامعة خاصة بالبنات علق خلف الله بابكر ضاحكا «طبعا آل بدري» مشيرا بذلك إلى دور الشيخ بابكر بدري ، رائد تعليم المرأة في السودان . قادنا الاقتراح إلى نقاش طويل حول التعليم المختلط الذي لم يكن موجودا في السودان آنذاك . وكان من رأيي الذي طرحته في الاجتماع أن التعليم المختلط يجب أن يسبقه تحقيق المساواة الكاملة بين الجنسين ، وبالتالي المساواة في القدرة على التنافس . وحرام أن نزج بالبنت السودانية في معترك التنافس مع البنين في جميع مراحل التعليم ، في الوقت الذي تفتقر فيه البنت السودانية إلى أدني مقومات التنافس مع الجنس الآخر ، في ظل مجتمعنا الحاضر بعاداته وتقاليده المتوارثة ، حيث تعتبر المرأة فيه مخلوقا ناقصا جسمانيا وذهنيا . كان هذا رأيي في عام ١٩٤٦ ولم أعدل عنه كثيرا ، رغم التطور الاجتماعي الذي حدث في السنوات التالية ، لأن ما حدث حتى الآن ليس سوى مساواة وهمية خادعة على حساب العديد من قيمنا الأخلاقية الأصيلة بما في ذلك الإسلامية منها . وأري أن الطريق أمامنا لتحقيق المساواة الكاملة بين الجنسين لا يزال طويلا وشاقا . بل أن الأمر ازداد تعقيدا في السنوات الأخيرة بفعل التيارات الإسلامية غير الواعية التي تستمد ثقافاتها الدينية من عهود موغلة في القدم ، احتكر الرجل فيها أمور الدين تفسيرا وافتاءآ واجتهادا ، وأخضع كل ذلك لدعم سيادته على المرأة!! واكتشفت بعد سنوات طويلة أن للشيخ بابكر بدري رأيا مماثلا لرأيي في التعليم المختلط فهو لا يمانع في الاختلاط بين الجنسين خلال السنوات الثماني الأولى من مراحل التعليم (الأولية والوسطي) . وقد كانت

الأحفاد في أول عهدها مختلطة ، ضمت أبناء وبنات أسرته وأسرة المهدي . ولم يسمح الشيخ بابكر بدري لفتيات الأسرة بالالتحاق بجامعة الخرطوم ، وبينهن نابغات أحرزن نتائج ممتازة في امتحانات الشهادة مثل الدكتورة فاطمة عبد الكريم بدري ، التي قبلت بالفعل لدراسة الطب ، لكــن عمها الشيخ بابكر رفض السماح لها بالالتحاق بكلية الطب . وفي الواقع لم تجرؤ فتياتنا علــى الالتحاق بجامعة الخرطوم ، إلا بعد وفــاة الشيخ بابكر بدري!! ولا يرجع موقف الشيخ بابكــر هذا لعدم إيمانه بجدوي التعليم الجامعي للبنات ، وانما يرجع إلى رفضه الاختلاط بين الجنســين في تلك المرحلة ، قبل إعــداد المجتمع السوداني لها حتى لا يأتي الاختلاط بنتائج عكسيــة .وكان الشيخ بابكــر يخطط بالفعل لانشاء جامعة للبنات وهــذا ماتحقق بعد وفاته بسنــوات قليلة . على أية حال ضمنت فكرة جامعــة البنات في رد حزب الاتحاديين يومذاك علــى التقرير الحكومي عن مستقبل التعليم . وبقيت نحو ثلاثين عاما إلى أن ظهرت إلى حيز الوجــود جامعة الأحفــاد للبنات التي نراها اليوم طودا شامخا ومنــارة وهاجة ،لعلها الجامعة الأهلية النسائية الوحيدة لا في السودان فحسب ، وانما في الوطن العربي بأسره .

أرسلنــا نسخة من ردنا على مشروع براون إلى المجلس الاستشاري ، رغم اعتراض قلة مــن الأعضاء بحجة امكانية تفسير ذلك بأنه اعتراف بالمجلس .ووجدنا بعد أيام صدي ردنا في المناقشات التي جرت في المجلس الاستشاري للتقرير ، انتهت برفضه رفضا غير مباشر ، إذ شكل المجلس لجنة لبحث سياسة التعليم بأكملها . والمعروف أن اللجان في مثل هذه الحالات هي الحانوتي الذي يعهد اليه بدفن الأفكار والمشروعات غير المرغوبة .

إنفضــ اجتمــاع حزب الاتحاديين في منزل ابرهيم يوسف سليمان ،لكن بقي نفر منا يتسامــرون . وقال لي ابرهيم عثمان اسحاق ، وكنت جالسا بجواره ، إنه سمع كثيرا عني من ابنه بشير زميلي في كلية غوردون ،وإن مرحلة الدراسة الحقيقية تبدأ بعد الكلية بمواصلة القراءة والاطلاع . وجدت في هذه النصيحة ما أغناني عن التفكير في مواصلة التعليم حتى المراحل الجامعيــة في مصــر أو السودان . ولقيت ابرهيم عثمان بعد أيام في مكتبة سودان بوكشوب في

الخرطوم ، واختـار لي ثلاثة كتب دفع ثمن واحد منها هدية لي . وفي الواقع أن راتبي المحدود يومـذاك (٨ جنيهات مصرية شهريـا) لم يكن يسمح بشراء أكثر من كتاب واحد في الشهر . وهكـذا كنت أكثر اعتمادا ،على الاستعارة مـن ابرهيم عثمان ، وغيره من زملائي في حزب الاتحاديين ، خاصة حسن أحمدعثمان (الكد) الذي تصله بانتظام في تلك الأيام من لندن ، مطبوعـات جمعية الفابيان البريطانية الاشتراكية ، وكنت حريصا على استيعابها بدقة خوفا مـن الكد الذي كان يسألني كلما لقيني ، عـن محتوياتها بقصد الاختبار ، ويزجرني عندما يكتشف أني لم أقرأها أو ادعيت قراءتها خوفا منه .

تأسـس حزب الاتحاديين عام ١٩٤٥ كامتداد أملته الظروف السياسية لجمعية أبوروف رائـدة حركـة التنوير الثقافي والفكري في السودان ، منذ أوائـل الثلاثينات . وقد جر الجمعية إلى السياسة الحزبية الخلاف الذي نشب في شيخ الأندية في أم درمان بين مجموعتي أحمد السيـد الفيل ومحمد على شوقـي ، وهو في الواقع خلاف بـين التيارالمحافظ وتيار الاصلاح والتجديـد . ينتمـي معظم الأبروفيين وجميعهـم من الشباب إلى التيـار الأخير ، ويتطلعون إلى السيطـرة على اللجنة التنفيذية للنادي بترشيح الشيـخ الفيل لمنصب الرئيس نظرا لسنه ووقاره ، ومكانته الدينية . غير أن مجموعة شوقي انتصرت في الانتخابات ، وكانت تضم إلى جانـب اسماعيل الأزهري يحيي الفضلي المشهور بدهائـه وقدراته الخارقة على المناورة ومعه عـدد ممـن عرفوا في ما بعد بالأشقـاء مثل بابكر القباني وحسن عوض الله وإمام المحسي . ووقف خطيبهم عند إعلان النتائج صائحا : ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟؟ كانت تلـك نكتة الموسم!! ويري البعض أن الطائفية وجدت منفذا من خلال هذا الخلاف لاقتحام الساحـة السياسيـة ، فقد كان محمـد على شوقي من كبار مستشـاري الامام عبد الرحمن المهدي بينما كانت للشيخ الفيل نفس المكانة لدي السيد على الميرغني . لم يخض الأبروفيون الانتخابـات يومذاك من منطلق طائفي ، بل إنهم ظلـوا دائما وأبدا ضد هيمنة الطائفة على الساحـة السياسية . وضمت جمعية الأبروفيين في أول عهدها عددا من الشباب المتوثب من

أبناء حي أبوروف وأحياء مجاورة له مثل خضر حمد وابرهيم يوسف سليمان وابرهيم وحسن عثمـان اسحاق ومحمـد محجوب لقمان وعبد الرحيم وشي والهـادي أبو بكر وحسن الكد الـذي كان الأعضـاء في البداية يجتمعون في منزله ، عصر كل يـوم لقراءة الكتب والصحف المصريـة والإنجليزية ، ومطبوعات جمعية الفابيان البريطانية الاشتراكية ، ومناقشة ما يقرأون ، مستكشفـين مدي انعكاساته على السودان في الحاضـر والمستقبل . وانضمت للأبروفيين في مرحلة لاحقة جمعية حي المسالمة ، ومن أعضائها عبد الله ميرغني وعثمان أحمد عمر(عفان) وعبد المنعم حسب الله . ومن الملاحظ أن جمعية الأبروفيين كانت تضم خليطا من أبناء أسر أنصاريـة وختمية عريقة ، وبقي هذا طابعها بعد تحولها إلى حزب سياسي . ويبدو أن جمعية الأبروفيـين قامت على أنقاض جمعيـة قبلها ، تعرف بجمعية «السـر الخفي» من أعضائها خضـر حمد وحسن الكد ومحمد عامر بشير وعبد الله خليل (البك الأميرلاي في ما بعد) . ولتوفيـق صالـح جبريل قصيدة عن هذه الجمعية مطلعها «جمعيـة السر الخفي بعامر حزت السماك»!! . كانت الجمعية تعقد اجتماعاتها غير المنتظمة في دار دكتورعلي خير شقيق أحمد خـير المحامي ، ولعل هذا مدخل أحمد خير المحامي على الأبروفيين ثم حزب الاتحاديين في ما بعد ، زيادة على وشيجة القربي مع حسن الكد . ترى هل من قبيل الصدفة ارتباط ثلاثة مـن رموز الحركـة الوطنية بوشيجة القربي : أحمد خير وحسـن الكد وعبد الخالق محجوب زعيم الحزب الشيوعي السوداني؟؟ ماذا يقول علماء النفس والأجناس والتأريخ؟؟

وتزامنـت مع جمعية الأبروفيين جمعية الهاشمـاب ذات الارتباط الوثيق بمجلة الفجر وطائفة الأنصار . وقد حامت شبهات حول تفاهمها مع السلطات الحاكمة ، لأن من أعضائها البارزين ادوارد عطية الموظف في مكتب السكرتير الاداري ، وهو سوري الأصل ، وخريج جامعة أوكسفورد .رحل إدوارد عطية بعد تقاعده إلى بريطانيا حيث أقام هناك . ولاحقته شبهات أيضاً في بريطانيا ،إذ اتهم بأنه كان أثناء دراسته في جامعة أوكسفورد عضوا نشطا في مجموعة شيوعية برئاسة فيليبي ، الذي هرب في أوائل الستينات إلى موسكو خوفا من القاء القبض عليه ، حين

اكتشف أنه يدير شبكة تجسس لحساب الاتحاد السوفييتي . وقيل إن جمعية الهاشماب كانت تتلقـي عونا ماليا من الحكومة ، ولـو أني شخصيا استبعد ذلك . اشتهـر من أعضاء جمعية الهاشماب عدا عرفات صاحب مجلة الفجر ، محمد وعبد الله عشري الصديق ، ومحمد أحمد محجـوب وابن خاله دكتور حليم ، وأحمد يوسـف هاشم ، ويوسف مصطفي التني ، ومعاوية محمـد نور وأمين بابكـر الملقب بابن الشعب . ولدي المقارنة بـين الجمعيتين نجد أن جمعية الهاشمـاب لعبت دورا كبيرا في بلورة القوميـة السودانية والدعوة إلى الاستقلال ، وكان مجال نشـر أفكارهـا أوسع ، بفضل مجلة الفجر . أما جمعية أبـو روف فقد كانت بمثابة انتليجنسيا الحركة الوطنية بوجه عام ، وفي محيط الدعوة إلى الاتحاد مع مصر بوجه خاص . كما أنها كانت بلا منازع رائدة الفكر الاشتراكي في السودان .غير أن طابعها المميز يتمثل في توجهاتها القومية العربيـة . ويمثل حـزب الاتحاديين محطة رئيسية في حياتي ، أسهمـت إلى حد كبير في بلورة مسيرتي فكريا وثقافيا وأخلاقيا ، مما انعكس على سلوكي في الحياة السياسية والعمل الوطني . لم يكن حزبا جماهيريا ، أو راغبا في ذلك ، راضيا بدوره كمركز إشعاع يضيء الطريق . يحمل المستنـيرون أفكاره وينشرونها بين المجتمـع ، كما تحمل الفراشة اللقاح من الزهرة إلى الأشجار الواعدة ، فيزدهر البستان ، ويطرح ثماره ليقطفها من يقطفها ، دون أن يحمد الفراشة . كان حزب الاتحاديين قائدا رائدا بلا شعب . يؤمن بالاتحاد مع مصر ، من خلال ممارسة السودانيين لحقهم في تقرير مصيرهم ، على أن يكون اتحادا على غرار العلاقة بين بريطانيا وشعوب الكومونويلث ، حيـث تصبح للسودان حكومـة حرة مستقلة في ظل التاج المصري المشترك ، زيادة على ارتباط البلديـن بسياسات اقتصادية وخارجية ودفاعية مشتركة . ويري الاتحاديون في هذه العلاقة مع مصر ، تجسيدا لاتجاهاتهم العروبية زيادة على الارتباطات الأزلية بين شعبي وادي النيل .

لم يغفل الاتحاديون في دستورهم الجوانب الأخرى غير السياسية ، وكان واضحا تأثرهم في هـذا الصـدد بأفكار جمعية الفابيان البريطانية الاشتراكيـة القائمة على القيم الأخلاقية النبيلـة أولا ثم تأتي توجهاتهـا المادية الاقتصادية من أجل بنـاء المجتمع الإنساني المثالي .

كما يؤمن الفابيون بالتدرج لتحقيق أهدافهم وسبيلهم لذلك إشاعة المعرفة بين الفئات المختلفة وتنويرها ، ويلتزم حزب الاتحاديين بإرادة الشعب التي يعبر عنها ديمقراطيا في جو من العدالة ، مع كفالة الحريات الأساسية ، ودون افتئات على حقوق الأقليات . أما في الجانب الاقتصادي نجد أن الاتحاديين يشددون على رفض الاحتكار والإقطاع ، وعلى التوزيع العادل للثروة ووضع نظام للتكافل الاجتماعي ، أشبه بنظام الضمان الاجتماعي القائم في بريطانيا والدول الاسكندينافية ، لاعانة الفقراء والعاطلين عن العمل والمرضي والطاعنين في السن . ويشدد الاتحاديون أيضاً على تحقيق التنمية الاقتصادية ، عن طريق الحركة التعاونية ، وعلى تأميم الخدمات العامة ومشروع الجزيرة ، وغيره من المشروعات الزراعية المماثلة التي تقام في المستقبل .ويدعو الاتحاديون في دستورهم إلى ضبط الهجرة إلى السودان عبر حدوده الغربية ، وإلى الغاء قانون المناطق المقفولة من أجل توفير الأيدي العاملة التي يمكن أن تحل مكان المهاجرين القادمين من غرب افريقيا ، ومن أجل انصهار سكان السودان على اختلافهم في بوتقة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ظل السودان الموحد .

ويتضمن دستور حزب الاتحاديين مواد أخري ، تتعلق بالاصلاح في مجالات التعليم وتوفير فرص العمل والارتقاء بمستوي المعيشة ، وباعادة رسم حدود السودان لتشمل مناطق في اثيوبيا واريتريا كانت تابعة له في العهد التركي مثل مصوع وهرر . ويقول الناس على سبيل الدعابة ، أن المطالبة باستعادة تلك المناطق من بنات أفكار ممثلها في حزب الاتحاديين «ميخائيل بخيت» المسيحي الاثيوبي الأصل . وهو من أبكار خريجي كلية غوردون التذكارية ، تخرج منها معلما ، ورفض الذهاب إلى الجنوب عندما طلب الإنجليز منه ذلك للعمل في حقل التعليم مع الإرساليات المسيحية . واختار ميخائيل بخيت أن يهجر مهنة التعليم إلى غير رجعة ليعمل في السلك الكتابي ، بدلا من خدمة التبشير المسيحي في الجنوب .

إن ميخائيل بخيت سعد أحد الشخصيات الفريدة التي قابلتها في حياتي ، وطني من الطراز الأول خلقا وعملا ، يجري حب السودان وأهله مجري الدم في العروق . لم تمنعه الفوارق

الدينيــة من مشاركة الجميــع في مناسباتهم الدينية والاجتماعية ، حتى أن كثيرين يحسبونه مسلما مثلهم ، لا سيما عندما يخوض في النقاش مع الآخرين في موضوعات إسلامية بحتة ، فتتجلي غزارة اطلاعه العميق في هذا المضمار . هذا هو التسامح الديني الذي كنا نعيشه ولا نزال ننشده منذ أن فقدناه .

وفي هــذا السياق لم أشعر باستغراب ، حين شــارك القانوني الضليع يوسف ميخائيل بخيــت بــدور فعال في وضع قوانين الشريعةالإسلامية في عهــد جعفر نميري ، مسترشدا في ذلــك بما تشبع به في كنف أبيه من قيــم التسامح الديني في ظل مجتمع غالبيته مسلمون . ولا يعنــي ذلك بالضرورة قبولي تلك التشريعات التي شــارك في وضعها يوسف ميخائيل ، ولدي تحفظات كثيرة إزاءها ، نابعة من ايماني بأن في النظام الإسلامي أمورا ينبغي أن ينظر فيهــا مــن خلال العقليــة المتحررة التي حرمت الــرق ، مع أنه ركن هــام في الفقه والعبادة وسلوكيــات المسلمــين ومعاملاتهم ، وقد مارســه الصحابة بيعا وشــراء وعتقا وما «ملكت أيمانكــم» . أفلا يجوز لمثل تلك العقلية الإسلامية الواعية المتحررة التي حرمت ما أحل الله أن تحــل من ذات المنطلق ولنفســ الأسباب بعض المحرمات أو أن تحــرم أشياء أخرى تعد حــلالا متفقا عليه أو مشكــوكا فيه ؟؟ هنالك أحكام وممارســات إسلامية - بعضها مدار أخــذ ورد - لــو نظرنا إليها اليوم مثل نظرتنا للرق وبنفس المعايــير لما ترددنا في إلغائها أيضاً وتوقيــع العقــاب على من يرتكبها مثــل ختان الإناث والحجــاب والعقوبات الحدية!! هذه مجــرد تســاؤلات لا أكثر أو أقــل . وما يجري في السودان منذ عهــد النميري ، ليس سوى قشــور وآيات وأحكام تفسر في غــير سياقها ، إرضاء للحاكم أو سلمــا للوصول إلى كراسي الحكم .وليســ في هــذا انتقاص لدور يوسف ميخائيل ، ويشفع له أنه لم يكن وحده المكلف بهــذه المهمــة وانمــا كان معــه آخــرون مسلمــون .

قــال لي السفــير الاثيوبي ملس عندوم في احدي المــرات ، إن الامبرطور هيلاسلاسي طلــب مــن ميخائيل بخيت العودة معــه إلى اثيوبيا عقب تحريرها مــن الاستعمار الايطالي ،

ليصبح رئيسا للوزراء ، لكن ميخائيل بخيت اعتذر قائلا إن الوفاء يحتم عليه البقاء في السودان ، ولا يمكن أن يعيش في بلد سواه .

ظل ميخائيل في الواقع أحد المستشارين المقربين جدا للامبرطور طيلة اقامته في السودان في قصر الشريف يوسف الهندي في ضاحية بري ، خلال سنوات الحرب العالمية الثانية . أما ملس عندوم أول سفير اثيوبي جاء إلى السودان عقب الاستقلال ، فقد عاش قبل ذلك سنوات طويلة في السودان . كان والده يعمل نجارا مع البعثة التبشيرية الكاثوليكية في الخرطوم .

ويسجل التأريخ لجمعية أبوروف التي انبثق حزب الاتحاديين منها ، أن فكرة تأسيس مؤتمر الخريجين نبعت من أروقتها ، حين طرحها حسن أحمد عثمان الكد ، وبشر بها خضر حمد في عاموده «في الصميم» في صحيفة السودان تحت توقيع (طوبجي) . ثم تلقف الأبروفيون في الجمعية الأدبية في مدينة ود مدني الفكرة ، وتولوا تنفيذها بقيادة أحمد خير المحامي . عقدت اللجنة التمهيدية التي أخرجت المؤتمر إلى حيز الوجود أول اجتماع لها في دار اسماعيل عثمان صالح بأم درمان ، وشارك في ذلك الاجتماع التأريخي إلى جانب رب الدار : اسماعيل الأزهري ومحمد عثمان ميرغني ومكي شبيكة وعبد الله ميرغني ودكتور ابرهيم أحمد حسين ، وسيد أحمد عثمان القاضي وجمال محمد أحمد . هكذا وبخلاف إدعاءات كثيرة كانت قصة مؤتمر الخريجين قائد الحركة الوطنية منذ الثلاثينات : حسن الكد صاحب الفكرة ، وخضر حمد بشر بها ، وقامت الجمعية الأدبية في ود مدني بتنفيذها بزعامة أحمد خير ، وعقدت اللجنة التمهيدية اجتماعها الأول في دار اسماعيل عثمان صالح . وإذا كان لا بد من وسام على صدر أحد فإن حسن أحمد عثمان الكد أولى الناس به ، وهو أشد الاتحاديين تأثرا بأفكار جمعية الفابيان الاشتراكية . اعتنق بالذات من خلال قراءاته لبالم دت أحد كتابها الهنود أفكار غاندي في مقاومته السلمية للأستعمار البريطاني وعزوفه عن مناصب الحكم بعد جلاء الاستعمار . لم يسع حسن الكد - كغاندي - لأي منصب في ظل الحكم الوطني ، وما أكثر ما يستحق بفضل ثقافته ، ودوره الوطني . اكتفي حسن الكد بدلا من

ذلك بمواصلة عمله مديرا لمصلحة التعاون حتى تقاعده . ثم تولي بعض المهام في هذا المجال ، مـع هيئة الأمم المتحـدة خارج السودان ، وهي مهـام تتسق بالطبع مـع عقيدته الاشتراكية . ولا يعفـي قادة الحركة الاتحادية من اللوم حـين أغفلوه ، أولا عند تشكيلهم في مكتب اللواء نجيـب في القاهـرة الهيئة القيادية للحزب الوطني الاتحادي . وأغفلـوه ثانية فلم يرشحوه لأية دائرة انتخابية في برلمان الحكم الذاتي أو حتى لهيئات أخرى مثل مجلس السيادة . وما أكثر المظلومين من رواد الحركة الوطنية وحداتها من أمثال حسن أحمد عثمان (الكد) .

مـن آراء حسـن الكد : أن قادة الحـركات الوطنية لا يصلحون لحكـم بلادهم ، بعد تحررهـا ، وانمـا خير لهـم ولبلادهم البقـاء تحت هالة نضالهـم ، بعيدا عـن كراسي الحكم ، مثلمـا فعل أستاذه غانـدي في الهند لا كما صنع كوامي نكرومـا في غانا وجومو كينياتا في كينيـا ، أو اسماعيـل الأزهري الذي كان عليه أن يتنحي عن الحكم غداة رفعه علم السودان المستقـل!! الزعيـم الوطني لا يليـق به ترشيح نفسـه للحكم أو حتى لعضويـة البرلمان وانما عليـه أن يظـل قائدا يمثل طموحات شعبه للحرية والاستقـلال لا حاكما مشغولا بالمناصب وأبهـة الحكم وصولجانه . قال لي حسن الكد هـذا الكلام عندما زرته في المستشفي في لندن UNIVERSITY COLLEGE HOSPITAL في منتصـف الستينات . جاء معي لزيارتـه محمد عثمـان يس ، واثنان من قادة حزب العمال : لـورد بروكواي المشهور بمناصرته لقضايا الشعوب المستعمرة ، وستونهاوس الوزير في حكومة هارولد ولسون ، كلاهما من جمعية الفيبيان ، وترجع صلاتي بهما إلى قبل مجيئي إلى بريطانيا للعمل مع «البي بي سي» . عرفت بروكواي قبيل إعلان الاستقلال خلال زيارته القصيرة إلى الخرطوم في طريقه إلى يوغندا . أما ستونهاوس فقد كان زميلا لصديقنـا المشترك محمد عثمان يس خلال دراستهما في جامعة لندن ، ويعد من مؤسسي الحركة التعاونية في يوغندا وروديسيا الجنوبية (زمبابوي الآن) .

كانـت عند انضمامي إلى حـزب الاتحادين في أوائل عام ١٩٤٦ ، ثلاثة أحزاب على الساحة السياسية تدعو للوحدة أو الاتحاد مع مصر بخلاف حزب الاتحادين هي :

* حـزب الأشقاء بزعامـة اسماعيل الأزهري ومن أعضائه محمـد نور الدين ويحي الفضلي ومبارك زروق وعلي عبد الرحمن . ومن المتعاطفين مع الأشقاء عبد الله الفاضل الذي كان يعمل من وراء ستار في إطار خطته الرامية للاستيلاء على قيادة طائفة الأنصار في حياة السيد عبد الرحمن أو بعد مماته .

* حـزب وحدة وادي النيل بزعامة الدرديري أحمد اسماعيل المحامي ، ومن أعضائه الدكاتـرة عقيل أحمـد عقيل وأحمد السيد حمـد وأحمد الطيب عابـدون ، وسنجر وعبد الحميد أبو القاسم هاشم .

* حزب الأحرار الاتحاديين ، من مشاهير أعضائه أحمد محمد على السنجاوي ومحي الدين البرير والطيب محمد خير (الزعيم) وعبد الرحيم شداد .

ينـادي حزب وحدة وادي النيل بالاندماج الكامل مع مصر ، ويؤمن حزب الاتحاديين بحق تقرير المصير للسودان ويدعو إلى الاتحاد مع مصر . بينما ينكر الحزبان الآخران (الأشقاء والأحرار الاتحاديين) منح السودان حق تقرير المصير ، ويتمسكان بإرجاء تحديد شكل الوحدة مـع مصر إلى ما بعـد جلاء البريطانيين عن السودان . لكن بين قيـادات حزب الأشقاء من يدعون جهارا إلى الوحدة الاندماجية بزعامة محمد نور الدين وكيل الحزب ؟؟

ومن الأحزاب الاستقلالية في ذلك العهد ، بخلاف حزب الأمة : حزب القوميين ، ومن أعضائه البارزين أحمد يوسف هاشم ومحمد حمد النيل والسيد الفيل وهاشم الكمالي ،والصحفي أمين بابكر الملقب بابن الشعب . ومن المتعاطفين دكتور حليم ومحمد أحمد محجوب .

وهناك أيضاً ، حزب الأحرار ومن أعضائه البارزين : عوض ساتي ويوسف بدري وحسن الطاهـر زروق ونصر الحاج على وأحمد بشير عبـادي . ثم الحزب الجمهوري بزعامة المهندس محمود محمد طه ومن أعضائه الشاعر محمد المهدي المجدوب ، وعبد القادر المرضي ، وأمين صديـق عيسـي ، ومنصورعبد الحميـد وذا النون ﴿زنون﴾ جبارة ، ودكتـور سيد أحمد عبد

الهادي ومهدي أبو بكر . والظاهرة المشتركة بين كل الأحزاب ، أنه لم يكن بينها حزب واحد يضـم أعضـاء مؤسسين أو عاديـين من الجنوب . بل ليس بين قياداتهـا أي عضو من أصول جنوبية!! هذه الظاهرة كان لها دور سلبي فعال في مسيرة الحركة الوطنية .

كان أعضاء حـزب الاتحاديين يرتادون في الأمسيات نادي الخريجين ، مقر المركز العام لمؤتمر الخريجين في أم درمان ، رغم أن سائر الأحزاب السياسية قاطعت المؤتمر ، أو ابتعدت عنه منـذ استيـلاء حزب الأشقاء على المؤتمر ، وبالتالي على نـادي الخريجين ﴿شيخ الأندية﴾ . وأصبح اسماعيل الأزهري الرئيس الدائم للمؤتمر وحزب الأشقاء . كما أصبح الشاعر محمود الفكي رئيسا دائما لنادي الخريجين في أم درمان وهو من أقطاب حزب الأشقاء ولو أني رأيت اسمه في قائمة ضمت قدامى أعضاء حزب الاتحاديين . وما حدث في أم درمان حدث كذلك لمعظم لجان المؤتمر الفرعية وأندية الخريجين في المدن الأخري .

نقـل الينـا غندور أفندي الموظف بمصلحة البريد ، ذات يوم ، نبـأ اعتناق فتاة سودانية الديانـة المسيحيـة . الفتاة تعمـل ممرضة في مستشفـي الارسالية الأنجليكانيـة في أم درمان (مستشفـي التجاني الماحـي الآن) . خرجنا من نادي الخريجـين في مظاهرة هادرة ، وانضم الينـا جمهور غفير مـن رواد المقاهي القريبة من النادي . سـارت المظاهرة بصخبها وهديرها ، إلى بيت مفتش أم درمان المجاور لبيت الخليفة حيث أخفيت الفتاة المتنصرة . كان معنا على رأس المتظاهرين على طالب الله الرائد الأول للتيار الإسلامي السياسي في السودان ، في زمان كانت الزعامة والريادة مغرما لا مغنما!! وتعالت هتافاتنا أمام مسكن المفتش البريطاني مستر ارمسترونغ . وتناوب على المنبر الخطباء : عبد المنعم حسب الله وعثمان جاد الله النذير والعم راشـد والد كيشـو والأديب الشاعر حمزة طمبل . ثم جاءت بعـد قليل قوة من الشرطة إلى المكان بقيادة الضابط عبد الله محمد أحمد ، فتفرقت المظاهرة . وألقي القبض علينا وأمضينا الليلـة في حراسـة الشرطة في أم درمـان إلى أن أطلق سراحنا في منتصـف نهار اليوم التالي ، بعـد توقيعنا على تعهدات بعدم اثارة القلاقل والاخلال بالأمن العام . كان ظاهرا أن المفتش

البريطاني ، مدرك لحساسية الموقف كدأب الاداريين البريطانيين في حرصهم طيلة عهد الإدارة البريطانيـة على احترام المشاعـر الإسلامية والتخوف من إثارتها . كانـت هذه أول مصادمة لي ساخنـة ومباشرة مـع السلطات الاستعمارية ، فتحت شهيتي لمزيد من المصادمات . وتوفي غنـدور أفنـدي بعد أيام قليلـة إثر نوبة قلبية . وشق نعيه علـى الكثيرين من رواد حلقته في النادي ، فقد كان بمثابة وكالة أنباء متنقلة . أما الفتاة المتنصرة فقد هربت أو هربت إلى الجنوب للعمـل مع البعثات التبشيرية هناك . وانقطعت أخبارها . ولا أدري إن كانت حية حتى الآن أم ودعـت الحياة على غير ديـن أبائها أو بالأحري سادة آبائهـا الغنادير!! البعثات التبشيرية تتمركـز في جنوب السودان ولها نشاط تبشـيري واسع أيضاً في الشمال ، تحت ستار خدمات الصحة والتعليم ، لكنها لم تنجح في تنصير مسلم أو مسلمة - باستثناء الفتاة الغندورية- طيلة الخمسـين عاما ، التي أمضتها البعثـات التبشيرية تحت حماية ورعاية الإدارة البريطانية . بل هنالـك مسيحيـون كثيرون من المقيمين أو القادمين من الخـارج اعتنقوا الإسلام . ويروي أن احتفالا كبيرا أقيم في الجزيرة أبا ابتهاجا باعتناق أحد الخواجات الإسلام على يد الإمام عبد الرحمن المهدي .وتعاقب الخطباء والشعراء على المنبر ، مشيدين بالإمام وغيرته على الإسلام والمسلمـين . ولمـا جاء دور الشاعر ابرهيم العبادي صعـد إلى المنبر متصنعا الغضب ، وقال في ختـام كلمتـه مخاطبا الإمام : لقد أسلم العشرات على يديك ، لكني أقسم أن مئات خرجوا من ملة الإسلام بسبب ابنك السيد الصديق ، وأنا أولهم!! وبهت الحاضرون وتعجبوا مما قاله العبـادي؟؟ وسـر غضبة العبادي يومـذاك أن له مشروعا زراعيا صغـيرا ، تتولي دائرة المهدي أمره ، ولا يعرف العبادي عنه شيئا . وما عليه إلا أن يأتي إلى مكتب الدائرة ، في آخر الموسم ليتسلم حصيلة مشروعه نقدا وبالكامل . هكذا كان أمره ، قبل أن يصبح السيد الصديق مديرا للدائرة خلفا للسيد عبد الله الفاضل . وجاء ابرهيم العبادي كعادته إلى السيد الصديق ففاجأه بأنه مدين للدائرة هذا الموسم بضعف ما كان يحصل عليه في المواسم السابقة . ورفض السيد الصديـق صـرف أي مبلغ من المال للعبادي ، وهدده بأن الدائـرة ستلجأ للقضاء إن عجز عن سداد دينه!! وأسقط في يد العبادي ، وقد فقد عماد معيشته الذي كان يأتيه كل عام بانتظام ،

فكان منه ما كان في الاحتفال . ولما علم الإمام عبد الرحمن بسر غضبة ابرهيم العبادي ، أمر ابنه السيد الصديق بإعطائه مبلغا من المال أكبر مما كان ينتظره . وهكذا «صحت البلفة» لكن في غير المناسبة التي ذكرها العبادي في قصيدته الغنائية ﴿يا سايق الفيات﴾ .

كان النضال الوطني في تلك الأيام قاصرا على المظاهرات التي كثيرا ، ما نصطدم فيها بالشرطة المسلحة بالعصي والقنابل المسيلة للدموع . اشتريت يومذاك كفني ثوبا من الدبلان أحمله على ظهري في المظاهرات تأهبا للموت في سبيل الوطن . وتحول الكفن بعد سنوات إلى خاتم من الذهب الخالص ، لا يفارق أصبعي ، ويحسبه كثيرون زينة محرمة ، وما هو الا تذكيرا دائما بالموت ، وبذل الروح فداء للأوطان . وذكر الموت أرقي درجات الايمان ؟؟ وتسمي جداتنا مثل هذا الخاتم بالكفان ، ينفق ثمنه عند موت إحداهن ، على لوازم المأتم ، وتحضير جثمان المرحومة لرحلتها الأخيرة دون مشقة أو ارهاق لذويها!! مثل هذه المهمة تقوم بها شركات تأمين متخصصة في المجتمعات الأوروبية المعاصرة . هكذا كانت جدات الأمس مدرسة أرضعتنا منذ نعومة أظفارنا أسمي معاني الايمان بقضاء الله ، والحرص على العزة والكرامة حتى عند الممات .

وإلى جانب المظاهرات كانت هنالك المنشورات السرية ، نكتبها بخط اليد على ورق الاستنسيل ، ونوزعها في الظلام . وكذلك المذكرات السياسية من الأحزاب إلى مكتب السكرتير الاداري ، وهو بمثابة رئيس الوزراء . كان حزب الاتحاديين أوفر الأحزاب نشاطا في هذا المضمار . أسند الحزب إلى ثلاثتنا : عبد المنعم حسب الله وعبد الوهاب البشير وشخصي طبع المنشورات السرية وتوزيعها . كنا نقوم بكتابة المنشور ، ويتولي عبد الوهاب ، وهو من أبناء كردفان ، نسخه في اليوم التالي . واكتشفنا بعد زمن طويل أن عبد الوهاب البشير يقوم بهذه المهمة في بيت محجوب حمد بالقرب من حي البوستة ، اتخذه الحزب الشيوعي وكرا له . واكتشفنا أيضاً أن عبد الوهاب ومحجوب عضوان عاملان في الحزب الشيوعي إلى جانب عضويتهما في حزب الاتحاديين . وقد نشأت في المستقبل صداقة حميمة للغاية ، بين

محجوب حمد وعبد الخالق محجوب السكرتير العام للحزب الشيوعي السوداني . كانت منشوراتنا لا تعدو كشف السياسات والممارسات الاستعمارية ، والهجوم على حزبي الأمة والأشقاء ، الأول لتعاونه مع الإدارة البريطانية ، والثاني لارتمائه في أحضان المصريين . وتتناول منشوراتنا في بعض الأحيان بالنقد الصارخ مواقف قيادة الختمية (السيد على ميرغني) ومنها منشور كتبناه في شمبات في بيت السيد محمد عثمان الميرغني ابن شقيق السيد على الملقب بزعيم الشباب ، وقد كان متعاطفا مع حزب الاتحاديين ، وبينه وبين عمه جفوة سببها الميراث . كشف لنا زعيم الشباب ، عن أحد الأسرار التي صاحبت تخطيط الخرطوم في أوائل القرن ، إذ روي لنا وبحضور محمد الخليفة طه (الريفي) كبير خلفائه ، أن البريطانيين راعوا في ذلك العهد بناء كلية غوردون التذكارية في أول شارع النيل ، على مقربة من ثكنات الجيش البريطاني ليكون ذلك مصدر ارهاب للطلبة صباح مساء . ثم عمد البريطانيون لتمثيل سائر الديانات الرئيسية على امتداد الشارع نفسه ، وهي (البروتستانت - الكاثوليك - الأقباط - المسلمين) وحددوا موقعا على الشارع لكنائسها وللمسجد . قامت الكنائس على نحو ما هي عليه الآن على شارع النيل . لكن السلطات وبتحريض من سلاطين مستشار الحاكم العام عدلت عن فكرة المسجد لأسباب أمنية وصحية فأعطت الموقع المعين له للسيد على الميرغني باعتباره حفيد الرسول عليه السلام وممثلا للإسلام ، مقابل الأرض التي عليها منشئات النقل النهري (الوابورات) في الخرطوم بحري ، وهي ارض ملك لأسرة الميرغني ،وليست للسيد على وحده . لهذا السبب يدعي زعيم الشباب أن له نصيبا كغيره من الورثة في الجنينة التي أقامها السيد على في موقع المسجد وسجلها باسمه . ويطالب زعيم الشباب بتوزيعها على الورثة ، أو نزعها وإقامة مسجد عليها ليكتمل تمثيل الديانات الرئيسية على شارع النيل!! ذكرنا ذلك في المنشور ، وأرسلنا صورة منه بالبريد إلى السيد علي ، واشتد حقده على حزب الاتحادين لما علم بمصدر المنشورمن خلفائه المدربين على فنون المخابرات منذ عهد سلاطين باشا . وكانت كلمة «خليفة» في أوائل عهد الحكم الثنائي مرادفة لعميل المخابرات . وسنحت فرصة الانتقام للسيد على عندما جاءت انتخابات بلدية أم درمان بعد أيام . رشحنا المهندس حسن عثمان

(والد اللواء مصطفي جيش) ، ورشح السيد على باسم حزب الأشقاء ، رجلا أميا معوقا يعمل في صناعة الأحذية البلدية . فاز المعوق بأغلبية ساحقة ، مع أن مرشحنا المهزوم من البيوت العريقة الموالية لطائفة الختمية ، ومهندس من أبكار الخريجين ومن أعيان أم درمان المحترمين . اشترك زعيم الشباب شخصيا في حملته الانتخابية .ولم يشفع لمرشحنا حسن عثمان أيضاً أنه من المناضلين الذين فجروا ثورة ١٩٢٤ ، وهم موضع قداسة واحترام بين السودانيين قاطبة . وقد قدم حسن عثمان إلى المحاكمة مع على عبد اللطيف رئيس جمعية اللواء الأبيض ولم تثبت إدانته فأطلق سراحه .

لقد كان السيد على في الحقيقة عنيفا في خصومته ، لا يتردد في كيل الصاع صاعين كلما سنحت له الفرصة حتى وإن طال الزمن . هذه حقيقة أدركتها من خلال تجربتي السياسية معه ، خصما وحليفا ، وما سمعته من معاصريه . بل أدركتها أيضاً من خلال عدائه التقليدي للأنصار وآل المهدي الذي تظاهر بتخليه عنه في آخر عمره نكاية باسماعيل الأزهري ورفاقه ، ودفاعا عن الطائفية من تغولات السياسيين . إن الخصومة بين الختمية والأنصار حالة مزمنة كالداء العضال لا علاج له وقد تفلح المسكنات الطارئة في تهدئته إلى حين فتندمل الجراح مؤقتا على صديد .

انتقلنا بعد انتخابات البلدية من نادي الخريجين إلى الدار التي استأجرها حزب الاتحاديين في حي مكي ود عروسة في أم درمان . وهي بيت فاخر من الطوب الأحمر يملكه التاجر عباس كباشي ، ويتألف من غرفتين بالاضافة للمنافع ، في نفس الموقع الذي قامت فيه محطة لخدمة السيارات . وتكفل عبد الله ميرغني بتأثيث النادي ودفع الايجار شهريا لصاحب البيت . عبد الله لم يكن أوفرنا ثروة فحسب ، وإنما كان الثري الوحيد ، والباقون فقراء أو مستوري الحال على الأكثر . ولما وقع الخلاف بعد سنوات بين الاتحاديين حول تعديل دستور الحكم الذاتي ، جاء عبد الله ليلا إلى النادي وأنزل اللافتة المعلقة على بابه ثم أغلق الباب بالضبة والمفتاح!! وأطلق خلف الله بابكر نكتة طريفة قال فيها : عبد الله لم يستعن

بسلم لانزال اللافتة لطول قامته ، ولم يره شرطي أو أي أحد في تلك الليلة المظلمة لشدة سواد لونه!! وعبد الله ميرغني أعظم من عرفت خلقا ووطنية .كان طيبا حلو المعشر ومن أسرة كنزية عربية عريقة . لكن للنكات والدعابة أحكاما خاصة بين الأصحاب والأحباب . وكان خلف الله ظريفـا خفيف الظل ، بارعا في حبك النكات والتعليقـات الساخرة شعرا ونثرا وبالعربية والإنجليزية .

أخذ يتردد على نادينا في تلك الأيام زائر يثير في نفوسنا الذعر والرعب كلما أطل علينا مع صاحبه الذي أسماه محمد الخليفة طه (الريفي) العفريت أبو ذيل لطول قامته وضخامته . عندما يمتطي العفريت حماره تكاد قدماه تلامسان الأرض ، ولا يظهر من الحمار المسكين غير الذيل!! أما الزائر فهو الشيخ أزرق ، الجزار الشهير في أم درمان ومن سكان حي الشجرة المجاور لنادينـا . أسس الشيخ أزرق في تلك الأيام حزبـا سياسيا يدعو جهارا لبقاء الإنجليز ، وأسماه حـزب المفتش البريطاني!! اعتاد شيخ أزرق الحضور إلى نادينا مع صاحبه ، من مكان عملهما رأسا في ثيابهما الملطخة بالدماء ومعهما مخلاة فيها عدة المهنة ، من سواطير وسكاكين حادة عليهـا آثار الدمـاء . كان منظرهما وأمامهما المخلاة على المنضـدة مثيرا للرعب . ونزداد رعبا كلمـا امتدت يد الشيـخ أزرق إلى المخلاة غاضبا متشنجا ، ويحتد معنـا في مناقشة القضايا الوطنيـة وما يعتبره تطاولا منا على الإنجليز ، وهم في رأيه أعدل شعوب العالم وأرقاها . وكثيرا مـا نتظاهـر بموافقته على أرائه خوفا من محتويات المخلاة ـ . والتجأنا في آخر الأمر إلى تجنيد شخص مناسب لحمايتنا من غزوات الشيخ أزرق ، فأحضر لنا عبد الوهاب البشير لهذا الغرض صديقـه محجـوب حمد ، الجزار أيضاً . هكذا حققنا ما يعرف في لغـة السياسة اليوم بتوازن القوي . كنا موفقين في اختيار محجوب إذ ارتكب بالفعل بعد أقل من عام ، جريمة قتل شنيعة ونجا من عقوبة الاعدام فقد حكم عليه بالسجن لمدة سبع سنوات!! التقيت في عهد النميري بالشيخ أزرق في حفل استقبال في السفارة البريطانية بالخرطوم ، وتحدثنا عن تلك الأيام وجري بيننا الحوار التالي :

* أعضـاء حزب المفتش البريطاني قبل الاستقـلال كانوا أقل من عشرة أما اليوم فإن الشعب السوداني بأكمله معنا ومستعدون لخوض حرب من أجل عودة الإنجليز

* ياشيخ أزرق نحن الآن أحرار في بلادنا وليست الحرية مثل العبودية

* يـا أستـاذ ذل الحرية والضياع فيها أشد وطأة من ظلم الاستعمار!! أنظر ما تراه اليوم حولك من تخريب وعبث بالمال العام . حكامنا الوطنيون ظنوا أن التحرر من الاستعمار يعني أيضاً التحرر من ضمائرهم ومكارم الأخلاق .

* لكن الإنجليز سيرفضون العودة إلى السودان يا عم أزرق ؟

* في هـذه الحالة سنعلن الحرب على بريطانيـا العظمي حتى إذا جاءتنا بجيوشها برا وبحرا وجوا قابلناها بالأحضان وقطعنا عليها طريق العودة!!

لقـد عبر الشيخ أزرق رئيس حزب المفتش البريطاني في هذا الحوار الساخر عن خيبة الأمل التي تعيشها غالبية الشعب السوداني منذ الاستقلال . ومن المؤكد أن الاستقلال لا بديـل له ، وأن الخروج مما نحن فيه لا يعني عـودة العلم البريطاني كما يدعو الشيخ أزرق . وإنمـا المطلـوب باختصار وبعيدا عن الفذلكـة السياسية والمذهبية احيـاء الضمائر والالتزام بمـكارم الأخـلاق .

مـن أسبـاب انتقالنـا إلى نادينا في حي مكـي ود عروسة ، أن نـادي الخريجين صار هدفا لغارات المتطرفين من حزب الأمة بقيادة عوض صالح وعلي فرح ، وسراج سعيد والياس الشايقي . ولا تخلو تلك الغارات من العنف أحيانا ، ومن السباب والشتائم في أكثر الأحيان . وقد اقتحموا في احدي المرات النادي فحطموا الأثاث واعتدوا على من فيه بالضرب ، وبينهم الشاعر محمود أنيس صديق الشاعر التجاني يوسف بشير «وأنيس حياته « . كان أنيس يعمل محررا في صحيفة المؤتمر الاسبوعية ، وفقد المسكين اصبعه في هذا الاعتداء الآثم .

واغتيل في تلك الأيام على بشير كمبال الضابط المتقاعد طعنا بسكين ، وهو مطمئن على كرسيه في ظل الضحي أمام داره في الحلفاية كما يفعل أرباب المعاشات . وقيل إن القاتل أنصاري من أهل الغرب ظن أن القتيل هو اللواء حامد باشا صالح الملك من أشهر دعاة وحدة وادي النيل . وقال آخرون إن القاتل جاء خصيصا من دارفور لما بلغه أن في الحلفاية رجلا غنيا يعيش في رغد يدعى على (السيد على الميرغني) وهو كافر بالمهدي ومنكر لمهديته ويناصب العداء الإمام عبد الرحمن . وهكذا جاء الرجل إلى الحلفاية للانتقام . وسأل عن الرجل الجالس على الكرسي في ظل الضحي فقيل له إنه «علي» فأيقن القاتل أنه بغيته وزاده يقينا ما يحيط به من أبهة ونعيم فانقض عليه وقتله .

واعتدت مجموعة قيل أنها من حزب الأمة في تلك الأيام أيضاً على الدكتور مكي شبيكة في طريقه من المدارس العليا (جامعة الخرطوم) إلى منزله ، وضربوه ضربا مبرحا حتى لم يصبح بينه وبين الموت سوى خيط رفيع . وأسباب هذا الحادث لا تزال مجهولة .لكن كانت هنالك شبهات تحوم حول الدكتور شبيكة مفادها أنه صاحب المقالات التي كانت تنشر في صحيفة الرأي العام بتوقيع اتحادي ، كما أصدر كتابا وصف فيه الثورة المهدية بأنها هوس ديني . وعندما وصل نبأ الاعتداء إلى الكاملين ، جاء عمنا الطيب شبيكة إلى أم درمان لا اشفاقا على ابنه المعتدي عليه وإنما ليعاتب السيد عبد الرحمن المهدي ، لأن المعتدين لم يجهزوا على ابنه مكي المنكر للمهدية ودعوتها . وعاد الأب إلى الكاملين دون أن يري ابنه الدكتور مكي طريح المستشفي .

وفي حادث آخر فتح الحاج محمد ابرهيم ناظر الجعليين بلاغا إدعى فيه أن الإمام عبد الرحمن المهدي أرسل إلى شندي رجلا من أبناء غرب السودان لاغتياله . واستدعي مفتش المركز البريطاني الناظر حاج محمد للتحقيق في البلاغ ودارالحوار التالي بينهما :

* يا شيخ محمد هل بينك وبين الإمام عبد الرحمن ثأر ؟

* لا يا جنابك .

* هـل بينكما خلاف على مـيراث أو يطمـع في أن يحـل مكانـك في النظـارة؟

* هل سيرث أراضيك وأموالك بعد مماتك ؟

* لا

* إذن لماذا يريد الإمام عبد الرحمن اغتيالك ؟

وهكذا انتهي الحوار بين الناظر والمفتش بسحب البلاغ .

غير أن أشد أعمال العنف السياسي وقعت في مدينة الحاج عبد الله في منطقة الجزيرة ، حيـث اندلع اشتباك بين أنصار حزب الأشقـاء وأتباع الشريف عبد الرحمن يوسف الهندي سقـط فيـه عدد من القتلي والجرحي . وكانت هذه أول محاولة يبذلها الشريف عبد الرحمن لإيجـاد موطئ لقدميه على الساحة السياسية ، أسـوة بالسيدين المهدي والميرغني . ونشرت صـوت السودان الناطقة باسم الختمية في اليـوم التالي مقالا ساخنا بقلم محمد أمين حسين المحامـي ، عنوانه «اخطبوط الشركـة الزراعية» حمل فيه على الموظفـين الإنجليز في الشركة البريطانيـة التي تدير مشروع الجزيرة ودورهم في انتخابـات المجلس الريفي للمنطقة ، مما كان سببـا مباشرا في انـدلاع الاشتباكات . ويبدو كما ظهر في ما بعـد أن أولئك الموظفين كلفوا الشريف عبد الرحمن بمهام أمنية خلال الانتخابات .ووردت في المقال اشارة إلى الشريف عبد الرحمـن بكلمـة (اللبخ) ، وإلى أتباعه بأنصار المذهب الهنـدي الجديد «صاحب التيرمومتر المرتفـع هذه الأيام» . ورفع الشريف عبـد الرحمن قضية ضد محمد أمين حسين يتهمه فيها بالقذف والتشهير ، لأنه شبهه باللبخ قاطع الطريق الشهير ، كما وصف الطريقة الهندية بأنها مذهـب هندي جديد غير الإسلام . وانعقدت المحكمـة في مبني مديرية الخرطوم من قاض بريطـاني واحد يدعي مستر تـردول ، وتولي قضية الاتهام مستر غرنوود بتكليف من المدعي . حصلت يومذاك على إجازة مرضية لحضور المحاكمة .

أدلي الشريف عبد الرحمن بأقواله أمام المحكمة ذاكرا أن جريدة صوت السودان كتبت مقـالا يسيـئ اليه وإلى أسرته ، وانه غضب جدا ، ولما رأي استيـاء أتباعه تقدم بشكواه . ثم أشار الشريف عبد الرحمن بيده إلى محمد أمين حسين في قفص الاتهام قائلا : «أنا ما شايف سبـب يخلي الزول ده يسيئ الي ، وإلى أسرتي ويشبهني باللبخ الحرامي» . واعترف الشريف عبد الرحمن عند استجوابه بأنضمامه في تلك الأيام إلى الجبهة الاستقلالية ، وبارساله برقية تأييـد إلى السيد عبد الرحمن خـلال زيارته إلى لندن . كما اعترف بتكليف موظفي الشركة الزراعية البريطانيين له بمهام أمنية خلال الانتخابات . ثم جاء دور شهود الاتهام ومنهم سائق التاكسـي الأمـين يوسف الذي كتب مقـالا في صحيفة النيل ، ردا علـى ما جاء في صوت السودان ، وصف فيه محمد أمين حسين بأنه «دخيل حرب» ، قاصدا بذلك أنه مصري وليس سودانيا ، وأنه جاء إلى السودان قبل عام واحد فقط . وقال سائق التاكسي أمام المحكمة «اللبخ حرامـي مشهـور قبل ما نولد ، ولو محمد أمين قال الـكلام ده في الحاج عبد الله كان يشوف مايشـوف»!! وذكـر في شهادته أنهم ذهبوا إلى مكاتب صوت السـودان ، واستقبلهم عبد الله ميرغني رئيس التحرير استقبالا كريما وأوضح لهم أن المسألة كلها خطأ مطبعي تبادلت نقطتان بسببـه موقعيهمـا في حرفين متجاورين ، وأن المقصود اللنـج أي الجديد وليس اللبخ الحرامي المشهور . واستدعت المحكمة حسن عثمان أسحق باعتباره كما قال القاضي ضابط الصحافة وكبـير المترجمين في مكتب السكرتـير الاداري ، ويعد بذلك خبيرا فنيا في المشاكل الناجمة عـن تفسيرات اللغـة العربية . قال حسن اسحاق في شهادتـه ، إن الكلمة المعنية حسب ما يتضح له غلطة مطبعية ، ومثل هذه الأخطاء شائعة في الصحف العربية والإنجليزية ، ولا يمكن للقارئ العادي أن يقبل كلمة اللبخ على أنها الكلمة الصحيحة في جملة صحيحة . وأن كلمة مذهب في اللغة العربية تعني أية عقيدة من أي نوع وليست بالضرورة عقيدة دينية . وفي رأيه أن الكاتب يقصد أن المدعي شرع في أخذ نصيبه من النشاط السياسي .

ومن شهود الدفاع الآخرين الأستاذ شوقي الأسد ، الخطاط المعروف الذي قال في شهادته إنه جعلي مولود في مصر وأن كلمة لنج مصرية معناها الجديد!!

وبرأ القاضي في النهاية محمد أمين حسين . وعلى أثر صدور الحكم ، خرجنا من قاعة المحكمة في مظاهرة صاخبة حملنا فيها محمد أمين على الأكتاف ، وسار مئات المتظاهرين إلى تمثال غوردون أمام سراي الحاكم العام ، وخطب فيهم هناك محمد أمين ومحمد نور الدين . وتسلقت قاعدة التمثال لأقود الهتاف بحياة محمد أمين ووحدة وادي النيل وسقوط الاستعمار . واتجهت المظاهرة بعد ذلك إلى المحطة الوسطي ، ثم إلى نادي الخريجين في الخرطوم عبر شارع فيكتوريا (شارع القصر حاليا) .

كان الشريف عبد الرحمن الهندي في غني عن المرمطة التي لقيها في المحكمة ، إذ لم يرحمه محمد أمين بقفشاته الخاطفة ونكاته الذكية المدمرة التي اشتهر بها ، واستطاع أن يحول المحاكمة إلى تمثيلية كوميدية متصلة الحلقات ، تتضاءل أمامها مسرحيات نجيب الريحاني في تلك الأيام أو الفاضل سعيد وعادل أمام . ولعل الشريف عبد الرحمن الهندي فقد منذ ذلك الحين ما ورثه عن أبيه من وزن ومهابة على الساحة السياسية . لم أسعد بلقاء الشريف عبد الرحمن الهندي إلا في أواخر حياته .لكني عرفت قبله إثنين من أخوانه عن قرب ، وتوثقت بيننا عري الصداقة ، هما ابرهيم وحسين .أسهم أولهما معنا في تأسيس الحزب الجمهوري الاشتراكي ، وعرفته وطنيا صادقا دمث الأخلاق ، وسياسيا محنكا . وعلمت أن والده كان يعده ليخلفه زعيما للطائفة الهندية ، هذا ما قاله لي الشيخ عثمان جاد الله في قرية الرميتاب القريبة من ود مدني ، وهو من أشهر حواريي الشريف يوسف الذين تربوا في أكنافه ، واغترفوا من علمه الغزير في التأريخ والآداب الشعبية .ومن أبناء الشريف ابرهيم (صديق) الذي أناديه دائما بابن أخي ، ويناديني بعمي وهو كأبيه خلقا ووطنية ورجاحة عقل . وربطتني مع الشريف حسين مودة حميمة وزمالة في العمل الوطني في عهد الحكم الذاتي ، عندما تضافرنا في العمل على تعديل مسار الحزب الوطني الاتحادي الحاكم من وحدة وادي النيل

إلى الاستقلال . وكنا نستأجر مكتبا في عمارة قطان في الخرطوم التي آلت في ما بعد إلى آل عثمان صالح . والتقيت مع حسين الهندي بعد ذلك بسنوات تحت راية الجبهة الوطنية لمقاومة نظام جعفر نميري .

وعرفت أيضاً زين العابدين الهندي وهو كشقيقيه ابرهيم وحسين فاكهة شهية حلوة المذاق ،لكن يعيبه أنه تعجل ونضج اصطناعيا قبل الأوان بفعل السحر والطيلسان ، في بيت الجيران !! . كما أن الطريق إليه مفروش دائما بقشور الموز . ورغم كل ذلك بيننا ود متين واحترام متبادل .

جرت أحداث قضية الشريف عبد الرحمن ضد محمد أمين حسين في عام ١٩٤٧ ، وكنت قد تركت العمل في مصلحة المصروفات والسجلات الى وظيفة في الفندق الكبير (القراند أوتيل) في الخرطوم هيأت لي فرصة الاحتكاك بالمجتمعات الأجنبية ، دون حاجة إلى السفر للخارج . كان الفندق الكبير في ذلك العهد منطقة محظورة ، لا يجرؤ السودانيون على ارتيادها ، وجميع نزلائه أو رواده من أعضاء الجاليات الأوروبية المقيمين في السودان أو من يأتون من الخارج في زيارات سياحية أو للعمل بالإضافة إلى ضباط جيش الاحتلال البريطاني وضباط القاعدة الأمريكية في وادي سيدنا .

وبين نزلاء الفندق في تلك الأيام العديد من الفنانات وسيدات المجتمع الحسناوات القادمات من أمريكا وأوروبا ومصر ولبنان للترفيه على الضباط البريطانيين والأمريكيين . وأثارت حنقي واحدة منهن بالذات اسمها (ق . د) لأنها مصرية ، ولأنها كما قيل لي من أسرة دينية عريقة في مصر . كان مصدر حنقي غيرة مزدوجة على الإسلام ومصر الشقيقة ، التي لها في نفوسنا قدسية مثل قدسية السودان وطننا الصغير تماما .

لقد كانت تلك السيدة خليعة في حركاتها وسلوكها وهندامها وكلامها ، إلى حد يدعو للإشمئزاز . طلبت مني مرة في إلحاح شديد بعد منتصف الليل ، إحضار أقراص أسبيرين

لها في غرفتها ، لأنها تعاني من صداع حاد . كنت مسئولا عن الفندق في تلك الليلة حتى الصباح .ذهبت تحت إصرارها ورنين التلفون المتواصل إلى غرفتها ، لأجدها مستلقية على فراشها مخمورة عارية ، كما ولدتها أمها !! . ناولتها علبة الإسبرين وكوب الماء فابتلعت ثلاثة أقراص مرة واحدة . ولما أردت الخروج من الغرفة أغلقت الباب وشدتني إليها!! لقد همت بي مثلما هممت بها . كان منظرها مثيرا للغاية مشحونا بكل دوافع الإغراء . وتذكرت في تلك اللحظات قصة يوسف عليه السلام ، وشتان بين موصوم مثلي ونبي معصوم من عباد الله المخلصين ، رأي برهان ربه فصرف عنه السوء والفحشاء!!

وللفندق الكبير في ذلك العهد شهرة عالمية خاصة المصطبة (تيراس) المطلة على النيل الأزرق وكوكتيل حجازي (البارمان) الذي قال لي أحد النزلاء ، إنه لا مثيل له في أرقى حانات العالم وإنه يأتي خصيصا من بلاده لاحتسائه على التيراس ، تحت قبة السماء الصافية ، بينما ترقد جزيرة توتي الساحرة على الضفة الأخري ، وكأنها عروس في انتظار فارس أحلامها ليلة الزفاف .

أصدر حزب الاتحاديين في تلك الأيام قرارا بالانسحاب من مؤتمر الخريجين نظرا لتغول الأشقاء ، وطلبنا من حماد توفيق الاستقالة من لجنته الستينية ، وشكلنا مع الأحزاب الاتحادية الأخرى وبعض المستقلين تنظيماً جديداً باسم الجبهة الوطنية العامة ، واختير حماد توفيق سكرتيراً عاماً لها ، وأصبحنا نتعاون مع المؤتمر من خلالها . وصادف أن أصدر سيرجيمز روبرتسون الحاكم العام بالنيابة بيانا عن سياسة الحكومة الداخلية والخارجية لا يمكن السكوت عنه ، فصدر بيان مشترك بتوقيع محمود الفضلي السكرتير العام لمؤتمر الخريجين وحماد توفيق سكرتيرعام الجبهة الوطنية . كان حماد يشغل منصب مفتش حسابات مصلحة الزراعة والغابات في درجة (S) أرفع الدرجات في السلم الوظيفي ، لم ينلها آنذاك سوى عشرة تقريباً من كبار الموظفين السودانيين . ورأت الحكومة في توقيع حماد على البيان المشترك مخالفة لقوانين الخدمة العامة ، وتحريضا على

إشانــة سمعــة الحكومة التي يشغل فيها منصبا مسئــولا . أحيل حماد توفيق بموجب البند السادســ من قانون الموظفين لسنة ١٩٢٧ إلى مجلســ تأديب برئاسة مستر واطسون قاضي المحكمــة العليا ، وعضوية مستر هوبسون نائــب مدير مصلحة الزراعة والغابات ، ومستر لي مــن مكتب السكرتير المالي . قدم حماد دفاعــه إلى المجلس في مذكرة قمت بطباعتها على الآلــة الكاتبة نفي فيها الاخلال بواجبات وظيفتــه ، مشيرا إلى عدم وجود شروط واضحة لموقــف الموظف سياسيا مــن الحكومة منذ أن سمحت في عــام ١٩٣٨ للموظفين المدنيين ، بالعمــل في معــترك السياسة علنا . وليس له علم بأي قانــون يحرم الموظف من أداء واجبه نحــو وطنــه . وأكد حماد في دفاعه أنــه سيواصل العمل في الحقــل السياسي إلى أن تضع الحكومــة شروطا واضحة ، يلزم الموظفون بها ، وسوف يحدد موقفه حينذاك . ووصف حماد بيــان الجبهــة الوطنية بأنه تعليــق عادل . ثم قــرأ القاضي واطســون ملاحظات في سجل خدمــة حمــاد ، يتضح منها أنه أنذر ثلاث مرات من مديــر مصلحة الزراعة والغابات ومن السكرتــير المالي . ولفت نظره في المرات الثــلاث إلى أن عليه الاستقالة ، إذا أراد الاستمرار في نشاطــه السياســي . ورد حماد على القاضــي بانه تسلم الانــذارات ، لكنه لا يري في الاستقالــة صواباً . وكان آخــر سؤال وجهه اليه القاضي واطســون :هل أنت مستعد لترك العمــل السياسي وأن تظل موظفا مخلصــا لواجبات الوظيفة ؟ ورد حماد بالنفي في عبارة ، أصبحت درة وضيئة في أدبيات الحركة الوطنية : يا سيدي أن أكون للاستعمار ضحية خير مــن أن أكون لــه مطية . ثم حمل حماد توفيق قبعته وعصاه خارجا من القاعة ، ومضي في طريق النضال الذي انتهي به في آخر المطاف وبعد شقاء طويل إلى منصب أول وزير للمالية في عهــد الحكــم الوطني!! . وأصدر مجلس التأديب في اليــوم التالي قراره بفصل حماد عن الخدمة وحرمانه من المعاش ، مع اعطائه مرتب سنة كاملة كمكافأة .كان حماد توفيق رمزا للعفة وطهارة اليد والصمود بين أبناء جيله . وأضرب موظفو مصلحة الزراعة في اليوم نفسه عــن العمل ، وخرجــوا في مظاهرة انضم اليهــا موظفو المصالح الحكوميــة الأخري . طافت المظاهــرة بشوارع الخرطوم هاتفة باسم حماد البطل . وانضم إلى المتظاهرين كما جاء في بيان

حكومي «متجولو الشوارع» أي الشماسة بلغة اليوم الذين لم يبق لهم في حياتهم من شيء ينسبون اليه غير شمس السودان وحرها الذي يذيب دماغ الضب منذ اختفاء الساحات الخضراء والأشجار الوارفة ، أيام كانت الخرطوم زينة العواصم وزهرتها .

وتولت متابعة المظاهرة ، قوة من الشرطة تحت إمرة أمين الشاذلي ، ملاحظ شرطة الخرطوم . وأجري مدير مصلحة الزراعة والغابات تحقيقا مع موظفيه الذين قادوا المظاهرة وهم : على البكري كيلاني وأبوبكر محمد أبوبكر ، وعبد العزيز محمد حامد . اكتفي المدير بخصم راتب سبعة أيام من كل واحد منهم .

ومن حق حماد توفيق أن يفخر بأنه أول وآخر موظف يفصل من الخدمة ، بسبب نشاطه في الحركة الوطنية في وقت كان فيه معظم زملائه من قادة الحركة الوطنية موظفون مدنيون ، على رأسهم اسماعيل الأزهري . لكن حماداً ليس كغيره فقد كان قيادياً فريداً وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم .

استقبل حماد قرار فصله عن الخدمة في رباطة جأش ، ودون جزع على ما فاته من نعيم الوظيفة الحكومية وراووقها . هكذا كان جيلنا - ، جيل البذل والتضحيات لا تهزه المحن أو يستذله الحرص . ولا يرجو من وراء نضاله وجهاده ثوابا أو يخشي عقابا . جيل صنع التأريخ لأنه بحجم التأريخ . وتدفقت يومذاك الوفود والأفراد على نادي الاتحاديين معربين عن تقديرهم لموقف حماد الوطني ، وبينها وفد من السيد عبد الرحمن وحزب الأمة ، عرض على حماد وظيفة في دائرة المهدي عوضا عن ما فقده . لم يكن للأسف بين تلك الوفود وفد من حزب الأشقاء أو قيادة الختمية!! تلقينا برقية من محمد جبارة العوض رئيس حزب الاتحاديين في كسلا ، اقترح فيها تعيين حماد رئيسا للحزب . ولقي اقتراحه قبولا من الجميع لكنا لقينا عنتا شديدا من ابرهيم يوسف سليمان ، عندما طلبنا منه التنحي عن منصب سكرتيرعام الحزب فقد كنا نعلم أن في انتظاره مصير حماد أيضاً ، فهو موظف مثله تابع للسكرتير المالي . واستطعنا بعد جهد شديد اقناع ابرهيم وحل مكانه عبد الله ميرغني ، الذي ترك الوظيفة

الحكومية منذ سنوات . ومن ناحية أخرى لم ينج الأستاذ عثمان أحمد عمر (عفان) من مصير حماد توفيق ، فقد فصل عن الخدمة في المدرسة الأهلية في أم درمان ، وأمر مدير المعارف البريطاني بشطب اسمه من سجل المعلمين ، عقب إدانة عفان أمام محكمة كبري برئاسة القاضي هيز وعضوية القاضي محمد أحمد أبورنات وآخر بالتحريض على كراهية حكومة السودان ، تحت المادة ١٠٥ من قانون عقوبات السودان ، لنشره مقالات مثيرة ، ورفضه الادلاء بأسماء من يكتبون معه في صحيفة الشباب الاسبوعية التي يصدرها .كان بين المقالات المعروضة على المحكمة مقالة كتبتها بعنوان «رويدك يا معالي الحاكم العام» . وصدر الحكم على عفان بغرامة مقدارها خمسون جنيها أو ثلاثة أشهر سجنا . سددت الغرامة في موعدها بفضل التبرعات التي جمعناها من المواطنين ، لكن النصيب الأكبر جاءنا به عبد المنعم حسب الله سكرتير تحرير الشباب وابن عمه محمد على الطيب التاجر في السوق العربي ومن أشد أعضاء حزب الاتحاديين نشاطا . وقد كسر محمد على الطيب يد مستر كوتس قومندان الشرطة البريطاني في مظاهرة في الخرطوم اعتدي القومندان فيها بالضرب على حماد توفيق ، وسجل حادث الاعتداء على القومندان ضد مجهول .

وشغلت قضية سودنة وظيفة قاضي القضاة في تلك الأيام الساحة السياسية .وهي وظيفة ظل يشغلها مصريون أزهريون منذ قيام الحكم الثنائي منهم : مصطفي المراغي وقراعة ﴿عم أسرة أمبابي بأم درمان﴾ ونعمان شقيق الشاعر على الجارم . أقدمت الحكومة عند انتهاء خدمة قاضي القضاة المصري الشيخ حسن مأمون في النصف الثاني من سنة ١٩٤٧ ، على تعيين الشيخ أحمد الطاهر القاضي الشرعي السوداني خلفا له . لقيت هذه الخطوة ترحيبا كبيرا لدي الرأي العام . غير أن مؤتمر الخريجين الذي يسيطر عليه حزب الأشقاء ، أرسل مذكرة احتجاج إلى الحكومة طالب فيها بسودنة الوظائف التي يشغلها موظفون بريطانيون بدلا من سودنة منصب رئيس القضاة ، المنصب العالي الوحيد الذي يشغله مصري . وعمل الشيخ على عبد الرحمن الأمين القاضي الشرعي وأحد القياديين في حزب الأشقاء ، على

تأليب زملائه وحملهم على التوقيع على مذكرة احتجاج ، ولما انكشف أمره بعث برسالة تهنئة إلى قاضي القضاة الجديد !! . ثم أصدر الشيخ علي بيانا نشرته الصحف يومذاك جاء فيه : «إني أفرق بين المباديء والأشخاص . ومع أني لا أزال عند رأيي الذي أعلنته بخصوص سودنة هذه الوظيفة ، إلا أني لا أري غضاضة مطلقا في تقديم التهاني للشخص الذي أسند اليه هذا المنصب مهما تعارض ذلك مع رأيي خصوصا أن صلتي بالأستاذ الشيخ أحمد الطاهر وثيقة العري في الماضي والحاضر . وإذا أبديت سروري بإسناد هذه الوظيفة إليه فليس معني ذلك رجوعي عن فكرتي أو اعتذاري عن رأيي . . ويكشف هذا الموقف المتأرجح تجاه سودنة منصب قاضي القضاة عن حمي المزايدات في تلك الأيام بين قيادات حزب الأشقاء ، من أجل الحظوة لدي المسئولين في مصر مما كان مصدر امتعاض في كثير من الأوساط السياسية وخاصة حزب الاتحاديين .

جاء النائب المصري محمود جلال في زيارة إلى الخرطوم في تلك الأيام ، وهو من أعضاء الحزب الوطني الذي أنشأه مصطفي باشا كامل وشعاره «لا مفاوضات مع بريطانيا قبل الجلاء!!» تري ما ضرورة المفاوضات بعد تحقيق الجلاء؟؟ احتفلنا بالنائب الزائر في نادينا ، ودار نقاش بيننا حول مستقبل العلاقة بين مصر والسودان انتقدنا فيه ربط مصير السودان بجلاء البريطانيين عن مصر . وقلنا للنائب الزائر أننا نؤمن بالاتحاد مع مصر ، ونكافح من أجله ، لكننا نري تحقيقه من خلال مباشرة السودانيين لحق تقرير مصيرهم ، وأن يكون الاتحاد شراكة بين ندين في رأس الدولة والسياسات الدفاعية والخارجية . وقلنا له أنتم في مصر ترفعون شعار لا مفاوضات مع بريطانيا قبل الجلاء ، ونحن مثلكم شعارنا لا مفاوضات مع مصر قبل التحرر من الحكم الثنائي . ولم يبد محمود جلال ارتياحا لما سمعه منا ، واختتم النقاش قائلا : أنتم أخطر علينا من الانفصاليين!! واحتفل بالنائب جلال أيضاً في ناد اجتماعي في حي البوستة بأم درمان ، دعيت فيه إلى لعب مباراة في تنس الطاولة ضد المحتفي به فهزمته شر هزيمة . وما كان لي أن أفعل ذلك احتراما لسنه لولا رعونة الشباب وخشونة أهل القرية!! كما أن للضيافة

أحكامـا وواجبـات . لكن صادق عبد الله عبد الماجد ابن المدينة تدارك الموقف لما جاء دوره ، فانهـزم أمام النائب الزائـر أو تهازم لا أدري!! وقد تولي الشباب ومضت الرعونة . أما الخشونة التي فرضها شظف الحياة في القرية فما زالت رواسبها باقية في أغوار نفسي ، تطفو على السطح بين حين وآخر ، لا سيما حين يشتد حنيني إلى القليعة مسقط رأسي ومرتع الصبا .

وجاء إلى السودان في تلك الأيام أيضاً ، صالح باشا حرب زعيم حركة الشبان المسلمين في مصـر ، وهي سابقة لحركة الاخـوان المسلمين ، وللباشا أقارب مستوطنون في دنقلا .اشتهر صالـح باشـا حرب في شبابـه بالاشتراك في المقاومـة الليبية المسلحة ضد الغـزو الإيطالي . واحتفـي الاتحاديـون به بصفة خاصة ، لأنـه جاء حاملا معه رسالة مـن خضر حمد مدير مكتـب عزام باشا الأمين العام في الجامعة العربية ، أو بالأحري مندوب السودان غير المعتمد في الجامعـة . غـير أن تهور صالح باشا حـرب في دعوته إلى الوحـدة الاندماجية مع مصر ، جرعليـه عداوات كثيرة على الساحة الوطنية ، بلغـت ذروتها في مقالات بقلم محمد أحمد عمر تحدي فيها الباشا ودعاه كعادة الفرسان في القرون الوسطي إلى مبارزته في الفضاء ، الواقع خلـف مطـار الخرطوم ، قبل ظهور حي الرياض إلى حيز الوجـود . ولما لم يستجب حرب باشا المحارب الصنديد ووزير الحربية السابق في حكومة على باشا ماهر ، اكتفي محمد أحمد عمر بمبـارزة في العراء نفسه ، لكن ضد زميلنـا الصحفي المخضرم يحيى عبد القادر الذي ، انبري للدفاع عن الباشا بقلمه .نال يحيى عبد القادر ما نال على يدي محمد أحمد عمر!! . كانت مبارزة غير متكافئة ، أكل يحيي فيها «علقة ساخنة» ضربا وسبا ، ولكما وشتما ظلت حديث المجتمع زمانا طويلا . وعاد يحيي يومذاك بعد العلقة إلى بيته بشحنة الخضر والفاكهة واللحوم التي استدرجه محمد أحمد عمر بها من سوق الخرطوم إلى سيارته الفارهة بدعوي ايصاله إلى بيتـه في الخرطوم بحري ، لكنه سار به بدلا من ذلك إلى موقع المعركة!! ويروي يحيي الواقعة ضاحـكا فيقـول «إن صاحبنا لم يدعني في الخلاء بعد أن شفي غليله ، وانما دعاني في شهامة معهـودة إلى العودة للسيـارة وأوصلني إلى بيتي . وحمل محمد أحمـد عمر بنفسه الشحنة

الغاليــة إلى داخل البيــت ثم نفحني بثمن نظارتي التي تهشمــت ، وودعته شاكرا . وابتهج العيــال يومــذاك بالوليمة الفاخرة التي دفع أبوهم ثمنها علقة فاخــرة أيضاً بكل المقاييس !!»

وما أكثر ما دفعه يحيي من أثمان معنوية وأدبية وجسدية ، خلال مشواره الصحفي من أجل العيال ، فقد كان أبا مثاليا متفانيا .لا يعرف لنفسه من متع الحياة سوى علبة الدخان وقرطاس التسالي الذي يشتريه بخمس مليمات أمام دار السينما التي يرتادها كل مساء بالمجان!! وهذا كل نصيبه من رزقه في اليوم ويذهب باقيه إلى العيال . وقد وهب الله يحيي في آخر عمره أبناء بررة وبنات حانيات ، لو اشتهي لبن الطير أتوا به إليه على صحاف من فضة وذهب ، حتى وإن لاذ الطير بأبراج الجوزاء!! وتربطني بالاثنين - محمد أحمد عمر ويحيي - صداقة حميمة زيادة على الزمالة . وروي لي كل منهما ما حدث ، ولم يختلفا حتى في التفاصيل .

محطة ٤

وفد السودان إلى القاهرة يصيب الساسة المصريين بخيبة أمل * دور تأريخي لاتحاد الطلبة بقيادة دكتور مشعال * لعنة الطربوش في محطة الخرطوم * انقاذ الفنان ابرهيم عبد الجليل * وفدان سودانيان لمجلس الأمن * تعليق الخلاف بين لندن والقاهرة حول السودان * مشروع صدقي بيفن * استقالة المحجوب من القضاء *

أخذت أنظار الحركة الوطنية تتجه إلى الخارج في أوائل عام ١٩٤٦ . وبرز في البداية تيار يدعو إلى ارسال وفد لنيويورك ، لعرض قضية السودان في أروقة الأمم المتحدة ، من أجل انهاء الحكم الثنائي ووضع السودان تحت الوصاية الدولية لمدة لا تقل عن خمس سنوات ، يجري بعدها تقرير المصير ، غير أن هذه الدعوة لم تجد قبولا عند عرضها علينا في حزب الاتحاديين ، ولم يكن حظها بأوفر في المعسكرات السياسية الأخري . كان من رأينا أن الوقت لا يزال مبكرا ، لاتخاذ خطوة من هذا القبيل . ومهما بلغت عدالة قضيتنا فإننا لن نقوي عند المساومة والمناورات ، على مواجهة نفوذ دولتي الحكم الثنائي على الصعيد الدولي وفي أروقة الأمم المتحدة بالذات . كما أن في امكان كل من مصر وبريطانيا استغلال الخلافات القائمة بيننا حول مستقبل السودان للخروج بتسوية تحقق مصالحهما في السودان . وكان من رأينا في حزب الاتحاديين أيضاً أن أمامنا خيارات أخرى ليست بديلة ، وإنما يجب أن تسبق الالتجاء إلى الأمم المتحدة ، منها إيجاد دور للسودان في المفاوضات التي يوشك طرفا الحكم الثنائي على الدخول فيها لاعادة النظر في معاهدة ١٩٣٦ ، التي كانت في الواقع مجرد عملية تجميلية

للمعاهدة الأولى قصد بها استرضاء المشاعر الوطنية المصرية . لم يكن السودانيون طرفاً في المعاهدتين وانما كانوا كعكة على مائدة المفاوضات تدعي مصر أنها ملك لها ، بينما تنازعها بريطانيا بحجة حق الفتح ، وبأنها كبير الطهاة (شيف) الذي تكبد مشقة إعداد الكعكة الشهية . لقد أصبح الوضع مختلفا الآن ، فهناك مؤتمر الخريجين وهناك أحزاب سياسية ووعي عام ، وهنالك قبل كل هذا وذاك اجماع على التخلص من عبودية الحكم الثنائي . وبدا لنا واضحا من تصريحات المسئولين البريطانيين والمصريين أنهم يضعون هذه المرة حسابا لمطالب السودانيين ، لكن كل حسب هواه ، ففي مصر قال النقراشي باشا رئيس الوزراء في تلك الأيام إن المفاوضات ستتناول قضية السودان وسوف تسترشد حكومته في ذلك بمصالح السودانيين وتطلعاتهم . وفي الخرطوم صرح جيمز روبرتسون السكرتير الإداري بأن الحكومة سوف ترجع إلى المجلس الاستشاري لشمال السودان ، إذا أثير مستقبل السودان لدي إعادة النظر في معاهدة ١٩٣٦ . وأمام هذه الظروف الملحة ، تقدم حزب الاتحاديين باقتراح دعا فيه إلى إرسال وفد إلى القاهرة يمثل سائر الأحزاب الاستقلالية والاتحادية التي سبق أن وقعت على ما سمي بميثاق الأحزاب المؤتلفة ، تقتصر مهمته على العمل بموجب المطالب السياسية القومية الواردة في الميثاق . ولقي الاقتراح قبولا من سائر الأحزاب باستثناء حزب الأشقاء . بل أن حزب الأمة بالذات ، بلغت الحماسة به حداً أوفد فيه إلينا نفراً من أعضائه (حسن داؤود ويوسف التني وعبد الله نقد الله) ليبلغونا قرار الحزب بالموافقة على الاقتراح ، وقالوا إن حزبهم سوف يرسل إلى القاهرة وفدا يمثله وحده ، لكنهم يفضلون أن يكون الوفد ممثلاً لسائر الأحزاب وخاصة حزب الأشقاء ، ولا يمانعون في إسناد رئاسة الوفد لاسماعيل الأزهري رئيس حزب الأشقاء أو حماد توفيق . انتهزنا الفرصة فناقشنا مع وفد حزب الأمة امكانية تفسير المطالب السياسية في الميثاق تفسيرا يرضي الأشقاء ويقطع عليهم خط الرجعة ، إذ كان الاعتقاد السائد أن الأشقاء يبيتون النية لإرسال وفد وحدهم ، بحجة أن مؤتمر الخريجين الممثل الشرعي لشعب السودان . ووضع حزب الاتحاديين على ضوء ما دار في النقاش تفسيراً نص على المطالبة باعتراف مصر وبريطانيا بقيام حكومة سودانية ديمقراطية حرة في اتحاد مع

مصـر ، يترك تحديد نوعه للمصريين والسودانيين ، علـى أن تتفاهم الدولة المتحدة عن طريق المفاوضـات مع بريطانيا لتحديد العلاقـة معها أيضاً على ضوء المصالح المشتركة . وزعنا على الأحـزاب مذكرة بهذا المعنـي . وقام المهندس عبد القادر عمر الصـادق بتسليم نسخة منها إلى عبـد الماجد أحمد الذي كان في تلك الأيام بمثابـة حمامة سلام بين التيارات السياسية المختلفـة ، وينضم اليه أحيانـا أحمد خير المحامي وأحمد مختار وثلاثتهم من المتعاطفين مع حزب الاتحاديين . وتوليت مع عبد المنعم حسب الله والريفي نقل المذكرة شفهيا في مساء اليوم التـالي إلى عبد القادر مشعال رئيس اتحـاد طلبة كلية غوردون الجامعية ومعه الطالب الزراعي عبـد الحميد سر الختم في سهرتنـا الاسبوعية في المطعم المجاور لنادي الخريجين خلف جامع أم درمـان الكبـير .كان المطعم متخصصا بالذات في رأس النيفـة أو كما ينادي الجرسون «ذو العينـين موضب» . وضمت السهرة في تلك الليلة سعـد سليمان تادرس والشاعر عبد القادر كـرف الأستاذين في مدرسة كمبوني ،والشاعر محمد المهدي المجذوب ، وممرضا في مستشفي أم درمان يدعي اسماعيل ، لا أدري لماذا لم يلمع اسمه في دنيا الغناء فقد كان ذا صوت شجي لا يقل عذوبة عن كثير من الفنانين في ذلك الزمان .

وتكللـت مساعـي عبد الماجد أحمد واتحاد الطلبة باقنـاع الأشقاء بارسال وفد موحد للقاهـرة . وتم الاتفاق على تمثيل المؤتمر وحزب الأشقاء بخمسة أعضاء هم اسماعيل الأزهري رئيس الوفد ، ومحمد نور الدين ومبارك زروق وابرهيم المفتي ، ويحيى الفضلي ، وتمثيل حزب الأمـة بثلاثة هم الأمـير عبد الله نقد الله ويوسـف مصطفي التنـي ، والدرديري نقد نائب الرئيس . وانضم أحمد خير المحامي إلى الوفد كعضو مستقل . أما الأحزاب الأخرى فقد مثل كل منها بعضو واحد على النحو التالي :

حـزب الا تحاديـين عبـد الله ميرغني - حزب وحـدة وادي النيـل الدرديري أحمد اسماعيـل المحامي - حـزب الأحرار الاتحاديين محيى الدين البريـر - حزب الأحرار مالك ابرهيم مالك المحامي - حزب القوميين احمد يوسف هاشم . وتم الاتفاق على وثيقة ارتضتها

كل الأحزاب يعمل الوفد على هداها ، تضمنت ثلاثة بنود يمكن تلخيصها في : إقامة حكومة سودانيــة في ظل اتحاد مع مصر وتحالف مع بريطانيــا ، دون توضيح لنوع الاتحاد . أما التحالف مع بريطانيا فقد ترك أمر تحديده للحكومة السودانية . ونصت الوثيقة على لجنة مشتركة تضع الطريقة المثلي لتصفية الحكم الثنائي بأسرع ما في الامكان . وتتألف اللجنة من أعضاء تعين الحكومتــان المصرية والبريطانية نصفهم ، بينما يعين المؤتمر النصف الثاني . كما نصت الوثيقة على كفالة الحريات العامة ومنها حرية الصحافة والتنقل .

اقترن سفر الوفد إلى القاهرة في أواخر مارس ١٩٤٦ بمظاهرات حاشدة صاخبة في محطة الخرطوم . سافر أولا اسماعيل الأزهري ومحمد نور الدين ومبارك زروق ، ولحق بهم بعد اسبوع عبد الله ميرغني وأحمد خير وأعضاء الوفد الآخرون . اشتريت يوم سفرهم طربوشا من محل الطرابيشي الواقع على شارع الموردة جنوبي المدرسة الأميرية . وظن المتظاهرون في المحطة أنني الدرديــري أحمد اسماعيل المحامي عضو الوفد ، الذي كان يرتدي الطربوش دائما ، ونتشابه في الخلقــة إلى حــد ما ، زيادة على الشلوخ . حملني المتظاهرون على الأكتاف وسط الهتافات بحيــاة الوفــد ووحدة وادي النيل ، وبسقوط الاستعمار . ولما ظهــر الدرديري الحقيقي أنزلوني دون رفــق وطار الطربوش من فوق رأســي إلى غير رجعة . شققت طريقي وسط الحشود حتى بلغــت القطار فقدمــت إلى عبد الله ميرغني مصحفا صغيرا أنيقــا هدية من شباب الحزب . وألقي أحمد خير من فوق سلم عربة القطار كلمة ألهبت مشاعر الجماهير ، استهلها بالحديث الشريف «من كانت هجرته ... إلخ» وحمل فيها على موقف الإدارة البريطانية التي أصدرت بيانــا استنكرت فيه ذهــاب الوفد إلى القاهرة ، وقالت أنه لا يمثــل السودان ، ولا يستحق أن يستمع المتفاوضون اليه . كنت أقف يومذاك إلى جانب أحمد خير أقود الهتافات ، ثم ألقيت كلمــة قلت فيها إنه وفد الولاء للشعب الســوداني . ولو كان كالوفد الذي ذهب إلى لندن في أعقــاب الحرب العالمية الأولى لوجد ترحيبا من بريطانيــا . لكن وفدنا في هذه المرة سيتشرف بمقابلــة فاروق الأول ملك مصر والسودان لا ملــك بريطانيا وامبرطور الهند ، وهذا سر انزعاج

الإدارة الاستعمارية في الخرطوم . وكرد فعل لسفر الوفد إلى القاهرة صرح ارنست بيفن وزير الخارجية البريطانية ، امام مجلس العموم ، بأن حكومة السودان تعمل على تحقيق الحكم الذاتي في البلاد ، وسودنة الوظائف كخطوة أولى في طريق الاستقلال . وأضاف الحاكم العام البريطاني في الخرطوم إلى ذلك قوله : إن حكومته تسعى لإقامة الدولة السودانية الحرة المستقلة التي عليها تحديد العلاقة مع مصر وبريطانيا ، ووعد بتحقيق ذلك في غضون عشرين عاما .

ولدي اكتمال وصول الوفد إلى القاهرة عين عبد الله ميرغني سكرتيرا له ، كما عين بعض السودانيين المقيمين في مصر مستشارين ، بينهم مواطن من جنوب السودان يدعي عيسي . ثم أصدر الوفد بيانا أثار سخط الأوساط المصرية التي استقبلت الوفد في البداية استقبالا حارا ، وبالغت في الاحتفاء به . ذكر الوفد في بيانه إنه جاء ليكون طرفا في المفاوضات المصرية البريطانية ، وليطالب بإنهاء الوجود الأجنبي ، وقيام حكومة سودانية ديمقراطية في اتحاد مع مصر وتحالف مع بريطانيا . كان الاخوان المسلمون وحزب الوفد المصري أعلي الأصوات في استنكار البيان .بل إن بعض الأوساط المصرية ذهبت إلى حد اتهام الوفد السوداني بأنه دسيسة بريطانية ، خاصة بعد قيام اسماعيل الأزهري مع بعض الأعضاء بزيارة مجاملة إلى مكتب وكيل حكومة السودان البريطاني في القاهرة . كما ترددت اشاعات مصدرها مصطفي راشد (كيشو) عن اتصالات بين الدرديري نقد نائب رئيس الوفد والوكيل البريطاني .

ووصف فؤاد باشا سراج الدين سكرتير عام حزب الوفد المصري البيان ، بأنه يعني التخلي عن جهاد استمر ستين عاما ، بينما ردد مصطفي باشا النحاس رئيس الحزب ، في حفل أقيم لتكريم الوفد السوداني مقولته المشهورة «تقطع يدي إن وافقت على فصل السودان عن مصر» . ودعا النحاس باشا إلى وجوب عودة الأوضاع في السودان إلى ما كانت عليه قبل عام ١٩٢٤ . ووصف صالح باشا حرب البيان بخيبة أمل كبيرة ، بينما دعا الاخوان المسلمون في استنكارهم للبيان إلى قيام مملكة وادي النيل في ظل وطن موحد ودستور واحد . رفضت كل الأحزاب المصرية رفضا باتا اتاحة الفرصة للوفد السوداني ليكون طرفا ثالثا في

المفاوضـات مع بريطانيـا ، باستثناء الاخوان المسلمين الذين لم يمانعوا في اشراك بعض أعضاء الوفـد السوداني في وفد المفاوضات المصري كممثلين لسكان جنوب وادي النيل ، شريطة أن يعلنوا مقدما ايمانهم بالوحدة مع مصر وولاءهم لفاروق الأول .

إننـي أكتـب عن أحداث كنـت بعيدا عن مسرحها ، لكنني أحـاول بقدر الإمكان استرجاعهـا علـى ضوء ما جاء عنها في الصحافة القاهريـة يومذاك ورسائل عبد الله ميرغني وخضـر حمـد إلينا . كان واضحا أن البيان المشئوم جر على الوفد ضغوطا هائلة لإرغامه على السـير على الخط المصـري المتمثل في ما يشبه الوصاية على شعـب السودان ، والعمل على تحقيـق وحـدة وادي النيل ، مما يعني تنصـل وفدنا عن وثيقة الأحـزاب المؤتلفة التي تحظي بإجمـاع الشعب السوداني . استجاب الوفد السوداني للضغوط فأصدر بيانا زعم أنه تفسير لما ورد في بيانـه الأول ، لكنـه في الواقع اعتذار وإلغاء صريـح لدوره . كان من الطبيعي أن يلقي البيـان قبـولا في الأوساط المصرية ، لكنه من ناحية أخري ، أفضي إلى انسحاب حزب الأمة مـن الوفـد ، ولحق به بعد قليل حزبا الأحرار والقوميـين . وطلبنا من عبد الله ميرغني البقاء لانقاذ ما يمكن انقاذه ، وحرصا منا على وحدة المعسكر الاتحادي . ورأينا يومذاك أن ماحدث خلاف لم يمس جوهر الوثيقة ، وانما هو خلاف حول الأساليب التي يتعين انتهاجها لبلوغ الغاية التي قدم الوفد من أجلها إلى القاهرة . غير أننا في الوقت نفسه انتبهنا بفضل بيان الاعتذار ، إلى مـا يمكـن أن تجره حاجة الوفد إلى المال من استسـلام للمصريين والارتماء في أحضانهم ، فدعونـا الجبهة الوطنية إلى اجتماع عاجل حضرته مـع حماد توفيق وعبد الرحيم وشي عن حزب الاتحاديين . لم نفكر في فورة الحماسة في توفير المال اللازم لاقامة الوفد في مصر ، دعك عـن ما تتطلبـه مهمته من نفقات . وتم الاتفاق في اجتماع الجبهة الوطنية على تشكيل لجنة مالية لهذا الغرض برئاسة ابرهيم يوسف سليمان ، لجمع التبرعات في الداخل . وأسندت لي مـع هاشـم أبو سمرة مهمة الطواف كل آخر شهر ، علـى دواوين الحكومة في العاصمة لجمع التبرعـات من الموظفين ، دون الحصول على إذن بذلك مـن السلطات الحكومية . وكدت أن

أقع مرة في فخ أثناء قيامي بتحصيل مساهمات موظفي مصلحة التموين بمعاونة عمر أحمد يوسف وموسي خليل أبوزيد صديقي منذ عهد الدراسة . لكن عناية الله أدركتني في آخر لحظة . كما كلف آخرون بالاتصال مع الرأسمالية الوطنية للمساهمة في تمويل الوفد . وأحيينا بالاضافة إلى ذلك وبتصريح من السلطات حفلا غنائيا ساهرا في نادي الخريجين في الخرطوم ، تظاهرنا بأنه لحساب الفنانين الثلاثة الذين أحيوه : ابرهيم عبد الجليل وحسن عطية وعثمان الشفيع .اتفقنا مع ثلاثتهم على التبرع بريع الحفل كاملا لصندوق الوفد . كنا نحاول عبثا في تلك الأيام انتشال ابرهيم عبد الجليل (عصفور السودان) من حياة الضياع التي فيها بمساعدة صديقيه الرشيد منزول ومحمود سحابة لاعب المريخ . وتجلي العصفور في بداية السهرة ، بل اكتسح زميليه وسحب البساط من تحت أقدامهما عندما صعد إلى المسرح قبلهما وأدي أشهر أغانيهما أداء ممتازا صفق له الجميع . وقابل الجمهور أبو علي والشفيع عندما جاء دورهما بالعواء والصفير مطالبين بعودة العصفور إلى خشبة المسرح ، وما دروا أن العصفور في تلك اللحظات استسلم كعادته للضياع وراء الكواليس ، في غفلة من زميلنا المكلف بمراقبته تلك الليلة . كانت خيبة الأمل كبيرة لنا وللجمهور ، عندما عاد العصفور في غيبوبة كاملة ليغني الفاصل الثاني فسقط على خشبة المسرح مغشيا عليه . كنا نري في انتشال عصفور السودان يومذاك من حالة الضياع قضية وطنية ، فالفن وما يرتبط به من تراث من صميم العناصرالأساسية المكونة للشعور الوطني بوجه عام .افتتحنا حفلنا الساهر يومذاك بنشيد المؤتمر «للعلا» بقيادة المطربين الثلاثة من فوق خشبة المسرح ، وردده الحضور من ورائهم في دوي هائل اهتزت له أركان المدينة من أقصاها لأدناها .

كان الحفل في حد ذاته مظاهرة سياسية عادت علينا بدخل لا بأس به ، لا سيما بعد تنازل الحاج أبوزيد خليفة صاحب مطبعة التمدن عن تكاليف طبع التذاكر . كان الدخل رغم فرحتنا زهيدا بالقياس لحاجة الوفد نزيل فندق الكونتننتال في القاهرة ، ولعله كان كافيا لتغطية احتياجات عضو واحد لمدة اسبوع في وكالات حي الفجالة ، لو تواضع الوفد واختارها

يومـذاك نـزلا بدلا من الفنادق الفاخرة ، التي أصبحت منذ ذلـك التأريخ وحتى اليوم طابع النضـال على الساحة السياسيـة السودانية . ومن الواضح أن سياسات البريطانيين والمصريين رغـم اختلاف مراميهم ، اتفقت يومـذاك على تمزيق الوفد وتشتيت الجبهة الداخلية . وتلقينا في تلـك الأيـام رسالة من أحمد خير جاء فيها أن وفدنـا برئاسة اسماعيل الأزهري ، جعل السـودان سلعـة في سـوق النخاسة تتنافس الأحـزاب المصرية على شرائهـا لحساب سراي عابدين . وأشار أحمد خير إلى ما قلته يوم وداعه في محطة الخرطوم عن وفد الولاء لبريطانيا ، الـذي رافقـه الشاب اسماعيل الأزهري في رحلة مذمومـة إلى لندن لخدمة جده لأبيه مفتي الديـار السودانية عضو وفد الولاء ، الذي كان على رأسه الزعماء الطائفيين الثلاثة : الميرغني والمهدي والهندي!! قال أحمد خير في رسالته التي حملها أحد القادمين من مصر إلى ابرهيم يوسـف سليمـان «إن وفدكم الذي جاء إلى القاهرة لتحقيـق الحرية للسودان مصحوبا بمباركة الشعـب وتأييـده المطلق ، أصبح وفد ولاء لمصر والجالس علـى عرشها ، كما أصبحت وثيقة الأحـزاب التـي أؤتمن عليها سفر ولاء للفاروق ملك مصر والسـودان . هكذا ضاعت قضيتنا علـى يـدي الجد وحفيده بين طرفي الحكـم الثنائي فما أشبه الليلـة بالبارحة ؟؟» . واختتم أحمـد خـير رسالته راجيا تبليغ تحياته لذلك الشاب الذي تحـدث عن وفد الولاء يوم وداعه في محطـة الخرطوم!! لقد أذعن الوفد السوداني في آخرالمطـاف للضغوط المصرية ، خاصة من جانب الاخـوان المسلمين الذين سلطهم اسماعيل صدقي رئيس الوزراء عليه . وتخلي الوفد جملـة وتفصيـلا عن وثيقة الأحـزاب السودانية ، التـي أقسم على الالتزام بهـا ، معلنا أن أهدافه الجديدة مطابقة لأهداف «اخوتنا المصريين» وهي جلاء البريطانيين عن مصر والسودان ووحدتهما الكاملة تحت التاج المصري .

وبـاءت بالفشل المفاوضـات في القاهرة بين اسماعيل صدقي رئيس وزراء مصر والوفد البريطـاني برئاسة لورد ستانسغيـت الوزير في حكومة العمال .ارتطمـت المفاوضات كالعادة بالصخـرة الصماء المتمثلة في قضية السـودان . تمسك المفاوض المصري بالسيادة المصرية على

السـودان الـذي لا يمكن - كما قال اسماعيل صدقي - أن يشكل وحده كيانا سياسيا قائما بذاتـه ، وانما ينبغي أن يكون تابعـا لدولة ثابتة الأركان كمصر الحريصـة على رفاهية أهله . ومن ناحية أخري ، رفض المفاوض البريطاني قبول سيادة مصر على السودان ، وبالتالي وحدة وادي النيـل لتعارضهـا مع حق تقريـر مصير السودان . و شد اسماعيـل صدقي الرحال إلى لندن لمواصلة المفاوضـات مع ارنست بيفين وزير الخارجية البريطانية .وبشر صدقي باشا قبل مغادرتـه القاهـرة شعب وادي النيل قائلا : سأعود وفي جيبـي السيادة على السودان !! . لقد كان صدقـي باشـا سياسيا بارعا ومراوغا من الطراز الأول ، مما استحق عليه لقب نمر السياسة المصريـة . استطـاع صدقي باشـا بدهائه وحنكتـه أن يصل في لندن إلى اتفـاق فضفاض ، عـرف في ما بعد ببروتوكول صدقـي – بيفن . وقع الاثنان عليه بالأحـرف الأولى . واتصل صدقـي باشـا فور التوقيع تلفونيا مع الديوان الملكي في القاهـرة ، ليبلغهم بأن تاج مصر ازدان بـدرة جديدة ، وأن ملك مصر عاد إلى حـدوده التأريخية والطبيعية . ثم أدلي بتصريح لوكالة رويـتر عنـد عودته إلى القاهرة في أواخر اكتوبر ١٩٤٦ ، وصف فيه مهمته بالنجاح وفاء للعهد الـذي قطعـه عشية سفره إلى لندن . وقال صدقي باشـا إن الوحدة بين مصر والسودان أقرت بصفة نهائية .رحب اسماعيل الأزهري الذي رافق صدقي باشا إلى لندن بهذه التصريحات ، كمـا رحب بها في الخرطوم يحيي الفضلي ، وحرضـ طلبة الجامعة (كلية غوردون الجامعية) علـى الخروج في مظاهـرات ابتهاجا بتحقيق وحدة وادي النيل . ولمـا علمنا بذلك في حزب الاتحاديـين أجرينـا اتصالا مع عبد القادر مشعال رئيس اتحـاد الطلبة ، واقترحنا عليه التريث حتـى ينجلـي الموقف ونعرف حقيقة ما تم الاتفاق عليه في لنـدن . كان لقاؤنا مع مشعال في بيـت زميل اتحادي في بري . وقد أرشدنا إلى مكان وجود مشعال هناك صديقنا المشترك سيد عبـد الله الذي التقينـا به في مقهي المحطة الوسطي في الخرطـوم ، ورافقنا إلى بري في سيارة عبد الله سلمان أمين صندوق حزب الاتحاديين . وفي مساء اليوم نفسه عقدت الجبهة الوطنية اجتماعا حضرته نيابة عن حزب الاتحاديين إلى جانب عبد المنعم حسب الله ومحمد خليل جبـارة . أدار حمـاد توفيق الجلسة . وكان الاتجاه العام تأييـد اتفاقية صدقي بيفن من ناحية

المبدأ ، باعتبارها خطوة في طريق الوحدة مع مصر وعودة السيادة على السودان إلى شعب وادي النيـل ، على أن نرجيء مناقشة التفاصيـل إلى أن نتلقي رسالة في هذا الشأن من اسماعيل الأزهـري . وتحدث عبد المنعـم حسب الله معترضا على ذلك داعيا إلى التريث حتى تكتمل المعلومـات لدينـا ، لكن اعتراضه ذهب أدراج الرياح ، لا سيما أن حماد توفيق كان أميل إلى موقـف الآخريـن . وفي الواقع أن حماد توفيق كان أكثر الاتحاديـين تعاطفا مع الأشقاء وبينه وبـين اسماعيل الأزهري مـودة واحترام متبادل . اتخذت الجبهة في تلك الجلسة قرارا بتسيير مظاهـرة تأييدا للمشروع ، وكلفت ثلاثة من الحاضريـن بالحصول على إذن من مفتش المركز البريطاني ، فاقترحت ساخرا أن تخرج المظاهرة دون الرجوع إلى مفتش المركز لأن في استئذانه اعترافـا ضمنيا بسيادة بريطانيـا على السودان التي انتقلت بموجـب اتفاقية صدقي - بيفن إلى مصـر . ويتعـين علينا أن نطلب الإذن من البشاري قائد الجيش المصري في الخرطوم ، فهو الـذي تجب عليه حمايـة المظاهرة في حالة اعتداء السلطـات عليها .وخرجت مظاهرة الجبهة الوطنيـة بعـد يومين ، قوامها جماهير الأشقاء ، واقتحمـت مجموعة منها على رأسها محمد أحمد قاسم الهاشمابي ، وحسين عثمان منصور دار حزب الأمة في أم درمان . تصدي الشيخ الطيب السراج للمتظاهرين صائحا : نحن أبناء الثورة أيهددنا هؤلاء الغلمان ؟؟ وقيل أنه انقض عليهم بسيفه فأطلقوا سيقانهم للريح!! لم أكن بين المتظاهرين ولعلها المظاهرة الاتحادية الوحيدة التـي لم أشـارك فيها في تلك الأيام . لكنني اشتركت قبلها بيوم واحد في مظاهرة حزب الأمة ضـد الاتفاقيـة وكان معي عبد المنعم حسب الله ومحمد على الطيب ورهطه من تجار السوق العربـي . انضممنا إلى المظاهـرة في ميدان عباس (الأمم المتحدة حاليـا) في الخرطوم .وسارت المظاهـرة عبر ميدان المحطة الوسطي إلى مكتب السكرتير الاداري بجوار سراي الحاكم العام . رأيت محمد أحمد محجوب يلقي - محمولا على الأكتاف - كلمة أعلن فيها استقالته من الهيئة القضائية ، وندد بالاستعمار مستنكرا موقف البريطانيين واستسلامهم للمصريين الذين لا يريدون سوى استعباد السودانيين والسيطرة على مياه النيل . ووجه محجوب في كلمته نداء إلى الأحزاب الاتحادية داعيا إلى الوقوف جبهة واحدة في ساحة الجهاد من أجل الاستقلال .

وفي ختام المظاهرة قام سيد أحمد عثمان القاضي بتسليم مذكرة احتجاج إلى جيمز روبرتسون السكرتـير الاداري .وسرعـان ما نشب خلاف حول تفسير البروتوكـول ، حيث استنكر أتلي رئيس الـوزراء البريطاني تصريحات صدقي باشا نافيا الوصـول إلى اتفاق . وقال أتلي إن ما جري كان مجرد محادثات من أجل التفاوض لا الوصول إلى اتفاق نهائي بشأن القضايا التي تناولتهـا . ويجب أن أذكر للحقيقة والتأريخ أن موقف الاستقلاليين وحزب الاتحاديين ما كان ليؤدي وحده لسقوط مشروع صدقي بيفين ، وانما كان هنالك أيضاً الموقف المتشدد الذي اتخذه الإداريون البريطانيون في السودان ضد الحكومة البريطانية ، إذ وصلوا في رفضهم للمشروع حدا هدد فيه الحاكم العام سير روبرت هيدلستون وعدد من كبار أعوانه بالاستقالة من مناصبهم ، مـا لم تؤكد بريطانيا تمسكها بحق السودانيـين في تقرير مصيرهم . كما اتخذوا من المظاهرات المعاديـة للمشروع دليلا على ما ينطوي المشروع عليه من أخطار على الأمن والسلام في سائر أنحـاء البلاد . ومنذ ذلك الحين ، ونظرا لاستسلام اسماعيل الأزهري لصدقي باشا ، أخذت ثقتنـا تتزعـزع فيه وفي الوفد المقيم في القاهرة . وظهر بيننـا في حزب الاتحاديين جناح ينادي بالانسحاب من الوفد واستدعاء مندوبنا . ضم الجناح معظم الأعضاء الذين بقيت في نفوسهم رواسب العداء ضد حزب الأشقاء منذ عهد الصراع بين محمد على شوقي والسيد الفيل ثم بين ابرهيم أحمد واسماعيل الأزهري . وفي الحقيقة أن بين الأشقاء والاتحاديين عداء تقليديا عميـق الجـذور ، يطفح إلى السطـح بين حين وآخر ، ويصل إلى حـد التطرف ، لا سيما بين معسكـري خضر حمد ويحيي الفضلي . كان من الممكن أن يتطور الأمر يومذاك إلى انشقاق في الحزب لولا حكمة ابرهيم يوسف سليمان في أم درمان وعبد الله ميرغني في القاهرة . كنت أرى بقـاء حزبنـا في الوفد باعتباره طلقة في الهواء إن لم تصب الهدف ، فإن دويها على الأقل يقضـ مضاجع الاستعمار في الخرطـوم ولندن والقاهرة . وسيظل الـدوي مجلجلا طالما بقي الوفـد في القاهـرة . هكذا كنت مع نفر من طلائع الحزب الشيوعي الذين اندسوا بين صفوفنا ومنهـم عبد الكريم ميرغني وعوض عبـد الرازق وآدم على آدم أميل إلى موقف ابرهيم يوسف سليمـان الداعي إلى عدم الانسحاب من الوفد .لكن صبرنا نفذ بمرور الأيام . وأخذت تتدفق

علينا الرسائل مباشرة من أحمد خير وخضر حمد وآخرين عن تصرفات يحيي الفضلي عضو الوفد ، الذي أطلق عليه في تلك الأيام لقب «يحيي الرز» بسبب ما قيل عن احتكاره بدعم من الحكومة المصرية ، تصدير الأرز إلى السودان . كما ظهرت قصة الشيك الذي سقط من جيب رئيس الوفد في ردهات فندق الكونتنتال ، وسلمه أحد العاملين في الفندق بحسن نية إلى أحمد خير!! كانت مجرد شائعات وأقاويل لا أدري مدي صدقها ،غذتها الخصومة التقليدية بين أحمد خير وخضر حمد من ناحية ويحيي الفضلي من ناحية أخري . غفر الله لهم في الحالتين إن كانوا على حق أو باطل فكل منهم ضرب المثل الأعلي في التضحية وانكار الذات والاخلاص للقضية الوطنية . ومع أن ما نسب لعضو الوفد ورئيسه كان مجرد شائعات وأقاويل الا أنني - مع الأسف الشديد - اتخذتها مادة لسلسلة من المقالات الساخنة في صحيفة اللواء الناطقة باسم حزب الاتحاديين بامضاء (م خ ب) ، تحت عنوان ضبع الأشقاء وهو اللقب الذي خلعته على محمود الفضلي بعد تصديه للرد في صحيفة المؤتمر على المقال الأول . وتوقفت عن تلك المقالات عندما نما إلى علمنا أن مكتب السكرتير الإداري مرتاح لها ، وأن مندوبه يشتري معظم النسخ المطروحة للبيع من صحيفة اللواء لتوزيعها على المراكز حتى تصل لأكبر عدد من القراء!! لعن الله السياسة فإنها بغي فاجرة وخاصة في معترك الحزبية بكل ما تنطوي عليه من إحن وأحقاد .

لا بد من الإشارة تبرئة للذمة وتسجيلا للتأريخ إلى أن يحيي الفضلي ، كان يمارس التجارة قبل انضمامه للوفد ، وعضوا في غرفتي التجارة في الخرطوم والقاهرة . ولم يطلب من أي حد في تلك الحقبة التفرغ للعمل الوطني تاركا مصدر رزقه ، وظيفة حكومية كانت أم أعمالا حرة . وعليه لا غضاضة في مواصلة يحيي نشاطه التجاري في القاهرة . ومن يعرفون يحيي الفضلي ، يعلمون أن كل ما كسبه من التجارة في تلك الأيام أنفقه في سخاء وطيبة نفس على تمويل الوفد في القاهرة ، ومساعدة أعضائه وأسرهم في السودان . كان هناك آخرون يمارسون التجارة مثله على نحو مباشر أو غير مباشر وبعون من السلطات المصرية مثل على

ومحي الدين البرير ومحمد عبد الرحمن الكبيدة . كما كان آخرون من حاشية الوفد انتفعوا في تجارتهم من صلات الوفد مع السلطات المصرية منهم محمد عبد الحليم عتباني وابرهيم جبريل وحسين الهندي ،لكن شقي الحال - كما يقول المثل السوداني - يقع في القيد!! وهل أشقى من يحيي الفضلي الذي فارق الحياة في منزل متواضع مستأجر من الأوقاف ؟؟ عرفت يحيي الفضلي في خضم الحياة السياسية خصما وصديقا ، ونالني منه ما نالني في الحالتين ، وهو أقدر من رأيت على صنع الأصنام حين يرضي وعلي هدمها وتقويضها ساعة الغضب!! كان يحيي شخصية فريدة بين رواد الحركة الوطنية ، ماكرا وحريصا كالغراب وذكيا بارع الذكاء ومحدثا ساحر العبارة . يجرفك وأنت معه احساس قوي بالخوف والرهبة والحب والكراهية في آن واحد ، وتقف محتارا أمام هذه المتناقضات : أهو مخلوق كريم حنون يقطر قلبه عطفا ومحبة ، أم حيوان مفترس في ظل قانون الغاب ؟؟ .

في هذه المرحلة لم يكن ثمة جدال في أن اسماعيل الأزهري ومن ورائه حزب الأشقاء ، كان مؤمنا بوحدة وادي النيل إلى حد أصبح فيه أداة في يد السياسيين المصريين يديرونها كما يشاؤون للضغط على بريطانيا . وتكشف كل تصريحات الأزهري آنذاك عن انكاره حق تقرير المصير للسودان باعتباره قضية محسومة تاريخيا وعرقيا وجغرافيا . ولا أعتقد أن الأمر كان مجرد سياسة مرحلية في الطريق إلى الاستقلال التام كما يتوهم الكثيرون ، وانما كان ايمانا راسخا لا نفاق فيه أو خداع . ومن هنا يمكن القول بأن اعتناق اسماعيل الأزهري لمبدأ الاستقلال بعد سنوات كان تحولا ظاهرا في فكره وعقيدته . وهذا ما حدث لسائر دعاة وحدة وادي النيل دون استثناء . ولا أعرف سببا لذلك غير ارادة الشعب . ودعونا من اللف والدوران وحمل الأثقال والأفيال بين الأسنان ، فليس في الخضوع لإرادة الشعب ما يعيب اسماعيل الأزهري أو ينتقص من قدره بل إنه أكرم له مما يساق من مبررات أخري . لقد عرفت الأزهري عن كثب ، معلما للرياضيات يري أن الخط المستقيم أقرب طريق للوصول إلى غايته . ثم عرفته كخصم وحليف وطنيا صادقا لا يخلط بين الوطنية والسياسة التي

سلاحها الكذب والرياء والخداع ، وكلها صفات لا مكان لها في قلبه الكبير . قلت كلاما في هـذا المعنـي للصاغ صلاح سالم عندما قال لي عقب إعلان الاستقلال إن اسماعيل الأزهري غشنا ، وأردف ذلك بعبارات جارحة رددت عليها قائلا : أنتم العسكريون في كل زمان ومكان تكفـرون بإرادة شعوبكم وتفضلون البندقية على صناديق الاقتراع !! . على أية حال سأتناول موضوع تحول الوطني الاتحادي إلى الاستقلال في مقام لاحق .

أعـود لأقـول اختصارا عن أحداث كانت تجري بعيدا عنـا في الخارج ، إن الأزمة بين حـزب الاتحاديـين والوفد بلغت ذروتها عندما حمل النقراشـي باشا رئيس وزراء مصر قضية الخلاف مع بريطانيا إلى مجلس الأمن وضمنها بالطبع قضية السودان . قرر الوفد السوداني في القاهرة ارسال بعض أعضائه المقيمين في مصر إلى نيويورك ، بالاضافة إلى آخرين من المعروفين باتجاهاتهـم الوحدوية ، ليدعموا موقف النقراشي باشا . وسافـر بالفعل إلى هناك : اسماعيل الأزهري وابرهيم المفتي والدرديري أحمد اسماعيل ، ومن غير أعضاء الوفد حامد باشا صالح المـك وتوفيق البكري ، وعمر الخليفـة عبد الله التعايشي . كما أرسلت حكومة السودان وفدا برئاسـة توماسـ كريد السكرتير القضائي ليكون - كما ادعـت - تحت خدمة دولتي الحكم الثناني لمد أي منهما بالنصح والمشورة بشأن السودان . وسافر إلى نيويورك أيضاً وفد من جانب حـزب الأمة بقيـادة السيد صديق المهدي وعضوية عبـد الله خليل ومحمد أحمد محجوب . ومحمـد صالـح الشنقيطـي . وقيل لنا أن وفد حـزب الأمة سافر يومـذاك إلى نيويورك على نفقـة الحكومة فودعه الريفي حادي الحركة الوطنية وريحانتها بأرجوزة ساخرة ملؤها التبكيت والتنكيت نشرت في صوت السودان مطلعها :

طيري بنا طيري   يا مركب الميري
طيري إلى سكسس   للأهل والمجلس

وفي نيويورك أيد وفدنا برئاسة اسماعيل الأزهري عريضة الشكوي التي رفعها النقراشي إلى مجلسـ الأمن تأييدا مطلقا .وأرسل حزب الاتحاديـين برقية إلى نيويورك ، لفت فيها نظر

اسماعيل الأزهري إلى أن العريضة المصرية جاءت ناقصة في ما يتعلق بالمبادئ التي حملها الوفد معه إلى القاهرة . وأرسلنا نسخة من البرقية إلى كل من النقراشي وفارس الخوري المندوب السوري . واتخذ مجلس الأمن قراره المعروف بتعليق قضية الخلاف بين مصر وبريطانيا مع بقائها في جدول أعماله ، إلى أن يثيرها أحد الطرفين في المستقبل . أما في ما يتعلق بقضية السودان فقد قال غروميكو (المندوب الروسي) رئيس المجلس أنها غير واضحة ، وأنهم لم يطلعوا في ما دار من مداولات ، على الرغبة الحقيقية للشعب السوداني!! وعلي ضوء هذه التصريحات اعتبرنا أن وفدنا فشل في مهمته في نيويورك . وعلقت على ذلك في مقال في صحيفة اللواء بعنوان «ديك البطانة ماشي السوق مدلدل وراجع مدلدل»!! كنا في حزب الاتحاديين غير راضين أيضاً عن الطريقة التي اختار بها اسماعيل الأزهري المجموعة التي رافقته إلى مجلس الأمن . وطالبنا بعودة الوفد من القاهرة إلى الخرطوم ، لمواصلة الكفاح من الداخل على أسس واضحة محددة وأصدرنا بالفعل بيانا جاء فيه : «إن حزب الاتحاديين إذ يعلن اصراره على وجوب عودة الوفد يعلن أيضاً قراره بأنه إذا لم تتم هذه العودة في الحال فهو يعد نفسه غير مرتبط بالوفد وغير مسئول عن أي التزامات يرتبط بها الوفد في القاهرة بوضعه الحالي . وسيعمل الحزب آنذاك لتحقيق مبادئه التي تهدف لتحرير البلاد وقيام اتحاد بينها وبين مصر يشتركان فيه في التاج والدفاع والسياسة الخارجية في ظل حكومة سودانية ديمقراطية حرة لها برلمانها وجيشها وكامل سيادتها الخاصة . وهي نفس المباديء التي ارتبط الوفد بها وأيدته البلاد على أساسها . وسيعمل حزب الاتحاديين بكافة الوسائل التي تؤدي بالبلاد إلى بلوغ هذا الهدف» . بقي الوفد رغم ذلك في القاهرة ، واستقال عدد من أعضائه حتى لم يبق في النهاية غير مندوبي حزب الأشقاء . ومنذ ذلك التأريخ أختفي الوفد كما اختفي المؤتمر من قبل تحت عباءة الحزب المذكور . وعندما استرجع ما جري في مجلس الأمن يومذاك بشأن السودان ، يخيل إلى أن النتيجة الوحيدة التي خرجت بها الوفود الثلاثة : الحكومة وحزب الأمة والوفد الاتحادي - هي أن السودان لم يصل إلى مرحلة النضوج التي تؤهله ليصبح دولة كاملة السيادة . وهو في رأي الوفد الاتحادي لم ولا ولن يمتلك أية مقومات

ومؤهلات لمثل تلك الدولة حتى في المستقبل غير المنظور . بينما طرح الوفدان الآخران مشروعا طويـل الأمد لتطور السودان دستوريا حتى يبلغ مرحلة تقرير المصير ، وهو الطريق الذي وصفه عبد الله ميرغني في افتتاحية صحيفة صوت السودان بأنه «طويل وشاق» .

وفي الواقـع أن مبعوثـي حزب الأمة والحكومـة كانوا أوفر نشاطـا في أروقة هيئة الأمم المتحـدة مـن حيث المقابلات والمذكرات والاتصال مع وسائـل الاعلام ، في الوقت الذي آثر فيـه الوفد الاتحـادي أن يكون ظلا للنقراشي باشا . وليت الوفـد الاتحادي قبل اقتراح حزب الاتحاديـين قبيل سفره من القاهرة بالاقتصار على المطالبـة بحق تقرير المصير . كان من رأينا أن يتـم ذلـك بالاتفاق مع النقراشي ووفـد حزب الأمة لا سيما أن معظـم الدول الأعضاء أبدت ترحيبها بحق تقرير المصير للسودان . وقد تحقق ذلك الاتفاق بعد سنوات بفضل الثورة المصرية وجنينا ثماره استقلالا كاملا غير منقوص بفضل مبادرة الحزب الجمهوري الاشتراكي وسأعرض لتفاصيل ذلك في حينها من رحلة قطار العمر .

ومهمـا يكـن من أمر فإن انصهـار الوفد الاتحادي وذوبانه في بوتقـة المطامع المصرية ، وانقيـاده الأعمي للنقراشي في مجلس الأمن كانا سببا في تأخر ذلك الاستقلال لمدة خمس سنوات على الأقل!!

محطة ٥

* مع الإمام عبد الرحمن المهدي في أركويت * تعليم أبناء قيادات الأنصار والختمية * دور الشوام في بناء زعامة الأنصار * مقارنة بين أئمة الأنصار *

فرضت طبيعة العمل على في الفترة التي جرت فيها أحداث مشروع صدقي بيفن ومجلس الأمن التغيب عن العاصمة بين حين وآخر لفترات تتراوح بين شهر واحد وثلاثة أشهر أمضيتها في فنادق البحر الأحمر في بورتسودان والنيل في حلفا ومصيف أركويت ، وكلها فنادق تابعة لمصلحة الفنادق والمرطبات ، والأخير منها منتجع موسمي يأتي اليه في فصل الصيف الحاكم العام وكبار الموظفين البريطانيين وسراة القوم من السودانيين ، وعلي رأسهم الإمام عبد الرحمن المهدي وحاشيته وأهله وخيله . أتاحت لي فرصة العمل في مصيف أركويت التعرف عن كثب على الامام عبد الرحمن المهدي ، وساعدني على ذلك أن بين حاشيته ثلاثة من أقاربي جاءوا معه إلى المصيف : الشيخ بابكر بدري والشيخ دفع الله شبيكة ، والأمير المأمور كنتباي أبو قرجة ، وثلاثتهم من الأنصار الخلصاء المقربين . درجت على حضور مجلس الإمام في الأمسيات حيث يدور الحديث حول القضايا الوطنية والاجتماعية . وكان الإمام عبد الرحمن أميل إلى الاستماع . وعندما يشارك في الحديث يكتفي بعبارات موجزة متأنية يختار كلماتها بدقة فائقة ، لكنه يكون أكثر انطلاقا عندما يدور الحديث حول التأريخ الإسلامي ، وخاصة عهد المهدية . وللإمام عبد الرحمن إلى جانب ذلك ولع بنوادر العرب الأقدمين وأشعارهم ، ويفضل منها أخبار عمر ابن أبي ربيعة وأشعاره

التـي يحفـظ بعضا منها . وعرفت منه لأول مرة أن جدة عمر بـن أبي ربيعة سودانية ، ومن رأيـه أن هذا سر عبقريتـه . وكثيرا ما يطلب الإمام عبد الرحمن منـي أن أسمعه ما أحفظه مـن قصائد ، وأحبها إلى نفسـه قصيدة للمقنع الكندي يفخر فيها بمناقبه كسيد لقومه ، كأنما يمتـدح فيها الامام عبد الرحمن لا نفسه ، فالإمام عبد الرحمن مثلما ادعي الشاعر مفرط في تسامحـه ، لا يحمل حقدا على أحد ، ويصفح عن المسيئين اليه ، ولا يبخل بماله حتى على من يضمرون له العداء ويسعون لإيذائه .

وقـد أحضـرت معي إلى أركويت لحسـن الحظ جزء من كتاب الأغـاني لأبي الفرج الأصفهاني استعرته من صديقي الأديب الشاعر بابكر أحمد موسي ، وكنت استعين بعمي الشيـخ بابكـر على اختيار ما يـروق الامام عبد الرحمن مما في الكتـاب من حكايات ونوادر وأشعـار . كان الإمـام يعلم أنني اتحادي لكنني كنت حريصا على التزام الصمت في مجلسه ، كلما أثير موضوع العلاقة بين مصر والسودان وقليلا ما يثار . ألقيت مرة في المجلس على مسامع الامام قصيدة أحمد شوقي (أنس الوجود) وهي من عيون شعر أمير الشعراء ومطلعها :

أيها المنتحي بأسوان دارا كالثريا تريد أن تنقضا

واستحسـن مولانـا القصيدة ، لكن التعليق عليها جرنـا إلى الحديث عن وحدة وادي النيـل ، ورأيت علامات الرضا علـى وجه السيد الامام عندما قلت : «ليس في أهرامات مصر ومعابد الفراعنة التي يتغني شوقي بها نفع لنا أو للمصريين لأنها كتل من الحجارة ، لا تشبع أو تغني من جوع . لكن المصريين في حاجة إلى النيل الذي يجري معظمه في أرض السودان من الجنـوب والشـرق في رحلته السرمدية إلى مصر» وأوقعني القاضي عبد الرحمن النور - حامل حقيبة الملح والطرائف في مجلس الامام - في مأزق عندما قال إنني من الرافضين تتويج الامام عبد الرحمن ملكا على السودان ، ولعله كان يريد بذلك دفعي إلى الكلام في مجلس كل من فيه مستعد للموت في سبيل الاستقلال وتتويج السيد الامام ملكا عليه!! فقلت على الفور : «يا مولانا ماذا تريد بملك السودان وأنت اليوم أعظم من ألف ملك في ألف مملكة جاها وهيبة وتراثا

وثراء ... اننا نريدك خليفة للمسلمين تعيد عهد الراشدين ، وتجبي لك السحب أينما أمطرت في أركان المعمـورة»!! وتنفس الحاضرون الصعداء عندما قال لي الامام : «بارك الله فيك» . وفي مناسبة أخرى جئت إلى المجلس متأخرا ، وفاجأني عبد الرحمن النور مخاطبا الامام «يا مولانا هذا الشاب قال لنا أمس إنك شيوعي من شوشة رأسك حتى الاخمصين»!! وضحك الامام والحاضرون ثم وجموا عندما اعترفت لهم بذلك .ومرت عليهم لحظات من الصمت ، كأنما على رؤوسهم طير من فصيلة الأبابيل . وبدت علامات الإرتياح عليهم عندما استطردت قائلا إنها مجـرد تعليـق بريء على الطاقية الحمراء التي كانت علـى رأس مولانا الامام مساء أمس مع الحذاء الأحمر (المركوب) المصنوع في دارفور!! وأسر مولانا الامام بكلمات إلى خادمه فأتى بعد قليل بطاقية حمراء معطرة ، وضعها الإمام على رأسي ، وشكرته على هديته ...كانت الطاقية حمـراء صارخة اللون اختطفتها من فوق رأسي في أم درمان حدأة جائعة حسبتها لحما طريا!! وعبـد الرحمـن النور من الأفذاذ في تأريخ القضاء السـوداني يمتاز بابتسامة فريدة تكشف عن طيبته وصفاء نفسه ، وتشد المرء اليه من الوهلة الأولى . ولا تفارقه تلك الابتسامة الا في قاعة المحكمة لتحل مكانها سمات الجد والحزم . ولا يخشي من يقفون أمامه من أحكامه بقدر ما يخشون من حيثياته التي يصل فيها إلى حد الردح في تأنيب المدان ومرمطته!! وفي قضية قتل في ود مدني كان ضحيتها رجلا في طريقه إلى الحج طلب القاتل من القاضي عبد الرحمن النور إصدار حكمه دون حيثيات لأنه لا يخشى من الحكم بإعدامه بقدر خشيته من حيثياته!!

ولم أحقـد علـى عبد الرحمن النور يوم ذاك وإنما غفـرت له استهدافي مراراً في مجلس الامام عبد الرحمن لعلمي أنه يضطر إلى ذلك كلما نضب معين الحقيبة من الملح والطرائف ولا يجـد في المجلـس حائطا قصيرا دوني . وأهـداني الامام عبد الرحمـن خلال مقامه في أركويـت ، قلما ذهبيا فاخـرا ، منقوشا عليه اسم شركة سـودان ماركنتايل احدي الشركات البريطانيـة الكـبري في الخرطوم . لعل القلم كان هدية منها لدائرة المهدي ؟؟ قدمه لي قائلا : «هدية بسيطة ياولدنا الأنصاري (هكذا كان يدعوني دائما) تقبلها منا» أخذت القلم وقبلت

يده شاكرا قائلا «إن الهدية على قدر مهديها لا المهدي اليه وهدايا الملوك شرف لا ترد» . وسرعان ما ارتسمت على وجهه علامات الرضا . ويبدو أن كلمة (الملوك) وقعت في نفسه موقعا حسنا!! وعندما قبلت يده مودعا في ذلك المساء وضع يده فوق رأسي ، داعيا لي بالشفاء من الصداع الذي منعني من حضور مجلسه في اليوم السابق . وانقطع الصداع منذ تلك الليلة ولم يعد مع أنه كان قبل ذلك شبه مزمن ولعله من فصيلة الشقيقة!! وليس من عاداتي تقبيل الأيادي ولو أنه لا غضاضة فيه إن كان تعبيرا عن احترام الكبار وأهل الصلاح . وقد تشرفت من قبل بزيارة الإمام عبد الرحمن في العاصمة ، وكنت اكتفي من التحية بإنحناءة رمزية فقط عند القدوم والوداع . ولم أقبل خلال حياتي يد أحد مصافحا باستثناء عمي الشيخ بابكر بدري وعمي ابرهيم مالك . وهذا تقليد درجنا عليه جميعا في محيط الأسرة رجالا ونساء . ومن ناحية أخرى ليس من اللياقة بالطبع أن أقبل في أركويت يد عمي ولا أقبل يد الامام عبد الرحمن ، وهما يجلسان دائما على مقعدين متجاورين ، وحولهما من لو دعي لتقبيل قدمي الامام عبد الرحمن لحبا إليهما حبوا من شدة التفاني في حبه وطلبا لبركاته .

كان معنا في عهد الدراسة في مدرسة الأحفاد السيد يحيي ثالث أنجال السيد الامام ، يفيض رقة وحياء . لكن الشيخ بابكر لا يرحمه عندما يستحق العقاب ، فيضربه بمسطرة معدنية على ظهر كفيه ضربا مؤلما ثم يقبلهما معتذرا طالبا الصفح!! وكثيرا ما يمسح الشيخ في حنان بطرف عمامته دموع حفيد الإمام المهدي الذي بقي الشيخ على بيعته حتى مماته ، رغم بغضه الشديد لخليفته عبد الله التعايشي ، الذي يري الشيخ بابكر أنه مسخ مباديء ثورة المهدي وحولها إلى ملك عضوض . وفي إحدي المرات قال داؤود بن الخليفة عبد الله معاتبا الشيخ بابكر «يا عمي بابكر ما لي أري عزبتك تزداد قصرا يوما بعد يوم ؟» فرد عليه الشيخ بابكر على الفور : «عزبتي أخذت تقصر ثم تقصر منذ هروب أبيك من أم درمان!» وهنالك قصة طريفة أيضاً حول هروب الخليفة عبد الله فقد كانت لدى حفيده السيد محمد داؤود قطة مدللة أصابتها وعكة فأخذها إلى الطبيب البيطري سلمان حفيد الشيخ بابكر بدري .وبقيت

القطة مع الطبيب في بيته تحت العلاج حتى شفيت ولما جاء السيد محمد لاستلامها أخبره الطبيب بأنها هربت في الليلة الماضية فاستشاط غضبا واتهم الطبيب بالاهمال والتفريط في حراسة القطة فرد عليه ساخرا ومتعجبا : مهلا يا سيد محمد لاتلمني كيف لا تهرب القطة مني وقد هرب سلاطين من جدك الخليفة بجنده وحراسه!! ويروى أيضاً أن الخليفة عبد الله درج أثناء هروبه على الحديث لأتباعه كل صباح بعد الصلاة عن زيارة نبي الله الخضر له في الليلة السابقة وما حمله له من بشائر . وقال لهم ذات صباح إن الخضر بشره بأن في انتظارهم في موقع في جبال النوبة جيشا عرمرما من الملائكة والأولياء الصالحين وعليهم أن يذهبوا إلى هناك ليعودوا مع ذلك الجيش لقتال الكفرة وتطهير البقعة ﴿أم درمان﴾ من رجسهم!! وانبرى الأمير يونس ود الدكيم للخليفة متسائلا : يا خليفة الصديق نحن «معردين» عارفين سببنا . . . نبي الله الخضر معرد معانا سببو شنو ؟؟ ومعرد في لهجة أهل غرب السودان معناها «هارب» .

كان الامام عبد الرحمن حريصا على ارسال أبنائه إلى المدارس العامة في جميع مراحل التعليم ، حتى تتسع مداركهم ويشتد التصاقهم بسواد الشعب . وهذه صفات لا بد من توفرها في من يتولي القيادة ويقع على عاتقه اختيار الرجال الصالحين ممن يكونون عونا له على تصريف الأمور . وأتت هذه السياسة أكلها في مابعد . ويكفي الاستشهاد في هذا المجال بالإمام لصديق أكبر أنجال الامام عبد الرحمن وخليفته طائفيا وسياسيا . ومن المأثور عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قوله نادما بعد عزله خالد بن الوليد : رحم الله أبابكر فقد كان أعلم مني بأقدار الرجال!!

ومن ناحية أخرى ، كانت لأبناء المراغنة - طائفة الختمية المنافسة - مدرسة خاصة في الخرطوم بحري تسمي مدرسة الأشراف ، تضم إلى جانبهم عددا محدودا جدا من أبناء الخلفاء والمقربين .وتعترف الحكومة بهذه المدرسة ، وتنتدب لها المعلمين من مصلحة المعارف . ومن أشهر نظار مدرسة الأشراف الأستاذ محمد نورعمر اسحاق الذي كان زميلا لنا في حزب الاتحاديين ، ووالده عمر اسحاق كبير مستشاري السيد على الميرغني من أساطين التربية في

السودان وغلاة الداعين لوحدة وادي النيل تحت راية حزب الأشقاء . رويت مرة لمحمد نور قصة الشيخ بابكر مع تلميذه السيد يحيي ، فعلق بقوله : «لسنا مسئولين عن تأديب الأشراف لأن الله يؤدبهم ويحسن تأديبهم كجدهم الرسول عليه السلا م» . وعقب بعض الحاضرين وبينهم شيوعي معروف على ذلك بكلام لا يصلح للنشر خاصة إنني احتفظ منذ مقتل الثور الأبيض بمسافات مقدرة بيني وبين الدروة أو حبل المشنقة!! ومن يريد الرجوع إلى خلفيات ما تعج به الساحة السياسية اليوم ، من فوضي وميل للدكتاتورية ، يجدر به أن يستعيد إلى ذهنه نشأة القيادات الطائفية الحاضرة في مرحلة التعليم ، بالإضافة إلى نسيان الجيل الجديد من قيادات الأنصار تراث الإمام عبد الرحمن . وأترك لغيري وضع النقاط على الحروف لأن «قطار العمر » ليس سجلا للتأريخ بقدر ما هو سفر يرجي ممن يتصدون لتسجيل تأريخ الحركة الوطنية المفتري عليها تقليب صفحاته أولا فإن في بعض ما يكتب عن الحركة الوطنية بهتانا ونفاقا أو ادعاء كاذبا للبطولات . . . . ترهات أشبه بالبصق على القبور ؟؟ ولا أدعي أن صلتي بالإمام عبد الرحمن كانت وثيقة ، أوأني من المقربين إليه ، فهذه أشياء أترك لغيري الحكم عليها .لكنني أقول واثقا إنها كانت تعارفا متبادلا عن كثب ، وأني كنت في ذلك أشبه بذبابة على ظهر فيل أو نغبة ماء سقطت من منقار عصفور فوق بحر لا ساحل له!! بيننا بون شاسع بحكم السن والمقام والتراث والثراء . أما من الناحية السياسية فقد كانت علاقة متأرجحة يتحكم فيها تأثري بموقف حزب الاتحاديين ثم الجمهوري الاشتراكي من الطائفية على الساحة السياسية بوجه عام ، ويتمثل في رفض سلبياتها وتسخيرايجابياتها لخدمة الحركة الوطنية . ايجابيات قيادة الختمية على قلتها وقف على دعاة وحدة وادي النيل ، أو بالأحري خاضعة لتوجهات السياسة المصرية ، أما ايجابيات الامام عبد الرحمن وهي كثيرة فقد كانت للجميع ،لكنه خص معسكر الاستقلاليين بقدر كبير منها ، أو بالأحري بنصيب الأسد . لقد أفلح الإمام عبد الرحمن بعكس منافسه السيد على في تطويع السياسة البريطانية لنصرة أفكاره وطموحاته المتمثلة في استقلال السودان وتتويجه ملكا عليه .

ومـن المسلم به أن للخلاف بين قيادتي الأنصار والختمية جذورا تأريخية ، ليس هذا مـكان تفصيلها . لكنني أضيف إلى الخلاف عاملا جديـدا في عهد الحكم الثنائي ، نجم عن التنافس المحموم بين كبار الموظفين المصريين والشوام العاملين مع الإدارة البريطانية ، وللطرفين كلمة مسموعة لدي الحكام الإنجليز .

كان السيد على الميرغني بحكم نشأته في مصر ودور طائفته الختمية في تخليص السودان مـن حكم المهدويين أقرب إلى قلوب المصريين ، فاحتضنـوه مثلما احتضنهم ، مما دفع الشوام المنافسـين إلى الاتجاه لطائفـة الأنصار . عمل الشوام جاهدين على إزالـة الأشواك ومعوقات أخـرى من طريق الامام عبد الرحمن ، ليصبح زعيما معترفـا به لطائفة الأنصار . لم يتحقق ذلـك لهم إلا في أواخـر النصف الثاني من عشرينيات القرن الماضـي . ويسجل التأريخ قبل تلـك الفترة أن سير جوفري آرشر الحاكم العـام ، فصل من الخدمة تعسفيا وفي لؤم لأنه جرؤ علـى زيـارة الامام عبد الرحمن في جزيرة أبا ، ولم يشفع لـه أنه قبل مجيئه إلى السودان قتل مهدي الصومال (الملا المجنون) وأخمد ثورته . كان آرشر مرشحاً لمنصب نائب الملك في الهند أعلـي المناصب في منظومة الأمبرطوريـة البريطانية!! واستعان الموظفون الشوام على رفع أسهم الامام عبد الرحمن في عيون الإدارة البريطانية بالعاملين في دنيا المال والأعمال في الخرطوم من أبنـاء جلدتهم والأوروبيين . وتطلق كلمـة الشوام في السودان على القادمين من سوريا ولبنان وفلسطين ومن العراق إلى حدما . واحتلت أعداد كبيرة منهم مناصب ذات مسئولية ، في عهد الحكم الثنائي خاصة في المخابرات والقضاء والمالية والخدمات الطبية ، ومنهم آخرون لهم دور بـارز في حركـة التجارة استيرادا وتصديرا وتجزئة في الخرطوم وغـرب السودان وجنوبه . وغني عـن البيان أن الشوام لا شأن لهم عرقيا وجغرافيا بوحدة وادي النيل . ومن هنا كان التقاؤهم طبيعيا مع الامام عبد الرحمن ، تحت راية الاستقلال . ويظهر ذلك جليا في دور إدوارد عطية خريج جامعة أوكسفورد ، بين أعضاء جمعية الهاشماب وأسرة مجلة الفجر ، وهم بلا جدال رواد الحركـة الاستقلالية . كما أن الشاعـر الشامي جوزيف صباغ كان حتى عهد قريب من

ألمع النجوم في المناسبات ، التي يحييها حزب الأمة الواجهة السياسية لطائفة الأنصار . وليت المعنيين بتأريخ السودان اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً عملوا على دراسة دور الشوام في تلك المجالات خلال عهد الحكم الثنائي . أما المصريون فقد كانوا أكبر عددا ، لكن قليلين منهم يشغلون مناصب رفيعة ، ولم يكونوا - على عكس الشوام - موضع ثقة أو احترام الاداريين البريطانيين . ولا دور لهم يذكر في الحياة الاقتصادية ، باستثناء إبراهيم باشا عامر الأسواني ، وشركة الطوخي للعب الأطفال والساعات ماركة «يد المصري» . وقد اشتريت واحدة منها بعشرين قرشا مصريا في أوائل الأربعينات ، وسرعان ما اكتشفت أنها في حاجة إلى فتحها كل نصف ساعة لتحريك عقربتيها يدويا . ثم تناثرت أحشاء الساعة المصنوعة من ورق البردي والقصدير بعد أسبوع واحد ، وأوشكت أحشائي أن تتقطع معها لأن العشرين قرشا هي مصاريف وجبة افطاري لمدة شهر كامل!!

ولعل أكبر تجمع للجالية المصرية كان من نصيب مدينة أتبرا عاصمة الحديد والنار ، حيث المقر الرئيسي لإدارة الخطوط الحديدية ، كما كانت ترابط فيها أورطة من الجيش المصري حتى عام ١٩٢٤ . وبفضل ذلك أصبحت مدينة أتبرا من المعاقل الرئيسية للنضال الوطني في سبيل وحدة وادي النيل .

علي أية حال كان لقائي مع الإمام عبد الرحمن في أركويت محطة مهمة في مسيرة حياتي . وما كنت أعلم حتى ذلك الحين أن القدر رسم ذلك اللقاء تمهيداً لقيامي بدور حاسم بعد سنوات عندما قرر إسماعيل الأزهري إعطاء برلمان الحكم الذاتي الحق في إعلان استقلال السودان ، متحديا الاتفاق بين دولتي الحكم الثنائي . وسئلت مرة في مقابلة تلفزيونية عن الإمام عبد الرحمن ، فأجبت بأنه عمارة شامخة أبوابها ونوافذها مفتوحة على مصاريعها أمام طيور الزينة والحيوانات المستأنسة المسالمة ، مثلما هي مفتوحة أمام الهوام والحشرات والوحوش الضارية . ولا أزال عند رأيي في أن الإمام المهدي أخرج الثورة المتأججة في الصدور وفجرها في العلن ، بعد أن خلع عليها طابعا دينيا تحت شعار «في شان الله» . ثم انتكست الثورة في عهد

خليفته إلى حكم فوضوي أسري جائر . وجاء من بعدهما الإمام عبد الرحمن فأحيا الثورة وأعادها إلى أصلها واعية وخالية من الفوضي والهوس الديني ، فكان بذلك أعظم وأنفع من أبيه الأمام المهدي لدى المقارنة بين الإثنين من حيث العطاء والمنجزات ، وليس في امتداح الابن وإنصافه انتقاص لأبيه أو افتئات على انجازاته . لقد وقع على عاتق الإمام عبد الرحمن عبء المحافظة على أسرة أبيه المهدي ودعوته السياسية والدينية ، وهو لا يزال يافعا مطاردا من قبل السلطة الحاكمة التي أبادت تقريبا جميع إخوانه لأبيه . بل أن اكتشافه باقيا على قيد الحياة في قرية البرياب جنوبي مدينة ود مدني بعد مقتل الخليفة شريف ، كان مصدر قلق مفاجئ لخصوم المهدية . ومع ذلك ورغم ضيق ذات اليد ، نهض الإمام عبد الرحمن بذلك العب ء الكبير بشقيه فاستطاع في غضون أقل من ثلاثين عاما أن يصبح قوة اقتصادية وسياسية لها وزنها . وربما تؤخذ عليه مداهنته للسلطة البريطانية الحاكمة ،لكن ذلك كان ضربا من الحنكة والدهاء ، وهي حقيقة لم ندركها في حينها ، أو لعلنا تغابينا عنها لكي نؤمن مسيرتنا الوطنية ضد الاستعمار . وقد دفع الأمام عبد الرحمن ثمن تلك المداهنة غاليا في ساحة الحركة الوطنية ، حيث اتهم بالخيانة والرجعية ، بل إن نفرا منا دعا يومذاك لاعدامه شنقا لتمرده على فاروق الأول ملك مصر والسودان!! مضى الإمام عبد الرحمن في طريقه غير عابئ بما جرته المداهنة عليه حتى تكلل نضاله بالاستقلال ، وربما يؤخذ عليه أيضاً خلوده إلى حياة منعمة مترفة في مأكله وشرابه وسكنه ولباسه ، لكن يمكن أن يعزي هذا إلى حرصه على إحياء الثورة المهدية في ثوب جديد معاصر ، بعيد عن الجبة الخشنة المرقعة وشظف الصوفية وحرمان أهلها من نصيبهم في الدنيا . موائده عامرة دائما بما لذ وطاب من حلال الطعام والشراب . وقصره في وسط الخرطوم يضاهي سراي الحاكم العام على شارع النيل . ولباسه القومي من فاخر الثياب وأغلاها . وكذلك رجال حاشيته الذين يحسبهم المرء من شدة أناقتهم نجوم في معرض للأزياء يتقدمهم زين العابدين بلال (السكرتير الخاص) بقامته السمهرية وجسمه النحيل ، في زيه القومي الأبيض الناصع المصنوع من حرير فاخر ، مع حذاء بلدي أحمر فاقع كعرف الديك .

وخلف الإمام عبد الرحمن بعد مماته ابنه الصديق ، وكان لا بد من مبايعته إماما حفاظا على تماسك حزب الأمة وبيت المهدي وطائفة الأنصار بوجه عام . وهذه حقيقة أدركها ابن عمه السيد عبد الله الفاضل المهدي المتطلع للإمامة . كان السيد عبد الله فطنا حكيما ومدرسة في السياسة والوطنية . تخرج على يديه العديد من دهاقنة السياسة والحركة الوطنية أمثال اسماعيل الأزهري ويحيي الفضلي ومحمد على شوقي . ولو امتد العمر بالامام الصديق لصار أعظم من جده وأبيه . وربما يختلف معي كثيرون ، لكن هذا ما أراه من خلال احتكاكي بالإمام الصديق سياسياً واجتماعياً ، ومن خلال مواقفه المشهودة في ظروف عصيبة مرت طائفة الأنصار بها ، كان من الممكن أن تنحدر إلى شر مستطير لا يبقي ولا يذر ، لولا حكمة الإمام الصديق وتقديره لمسئولياته في الدنيا والآخرة كإمام للأنصار .

كنت حاضرا ذات مساء والامام الصديق جالس على الأرض مهموما مغموما ، وحوله جموع من الأنصار الهائجين يتطاير الشرر من عيونهم ، والزبد من أفواههم وهم يصيحون «يا سيدي أعطنا الإشارة لنأتك بعد ساعة واحدة فقط برأس عبود ورؤوس رهطه الآخرين» . لم يخرج الإمام الصديق عن صمته أو يتحرك من مكانه ، وإنما ظل يحرك رأسه في حزم يمينا ويسارا تعبيرا عن رفضه الاستجابة لهم . أمرهم باحضار الأسلحة النارية التي غنموها في اشتباكهم مع الشرطة في ساحة المولد بأم درمان ، فأحضروا أكواما من تلك الأسلحة كدسوها أمامه . وكانت الشرطة في ذلك المساء ، داهمت سرادق الأنصار في ساحة المولد النبوي في أمدرمان ، واعتدت عليهم بأسلحتها النارية ، فتصدي الأنصار لها بالعصي والأسلحة البيضاء .أسفر الاشتباك عن سقوط قتلي من الجانبين . ولم يهدأ الموقف إلا قبيل منتصف الليل بقليل . جاء حينذاك محمد أحمد أبو رنات رئيس القضاء والناظر سرور رملي فنهض الإمام الصديق واصطحبهما إلى غرفة بقوا فيها نحو نصف ساعة ، وودعهما حتى الباب حافي القدمين . ثم عاد الإمام الصديق إلينا في الصالون وكان غاصا بشيوخ الأنصار ،.وجلس هذه المرة على مقعد ، وأخذ يتحدث بصوت متهدج .كان مما قاله «الأنصار أمانة في عنقي

ومعاذ الله أن أدفع بهم إلى التهلكة . وويلي إن لقيت ربي يوم الحساب وعلي عنقي نقطة دم أنصـــاري سفكت بأمـــر مني دون طائل!! ما عذري يومذاك ؟؟» . وجــاء بعد الإمام الصديق خلــف كالثور الذي يقود القطيــع إلى السلخانة بدلا من مواطن الماء والكلأ . سالت في ظلهم دمــاء الأنصار أنهارا وأنهارا ، وتفرقوا كأيــدي سبأ ، ونالهم ما نالهم من ذل وهوان حتى على أيــدي قياداتهــم . لم يسلم بيت المهدي نفسه من شر أولئــك الخلف وشقاقهم .وعندما تجاوز الأمر الحد وبلغ السيل الزبا خاطبهم محمد أحمد محجوب بقولته المشهورة «إن تختلفوا علينا خير من أن تختلفوا في ما بينكم» . حقا لقد كان الإمام الصديق زعيما رشيدا وقائدا فريدا ، قــل أن يجــود الزمان بأمثاله!! وهو حالة استثنائية كزعيم فرض نفسه على الساحة السياسية مــن خلال فكره ووطنيته وسلوكه ، ولم يفرض نفسه عليهــا بحكم الوراثة والعقيدة الطائفية العمياء . وهو حالة استثنائية أيضاً لأنه لم يكن من موقعه الديني حربا على دعاة التقدمية في الفكــر الدينــي . كانت داره عامرة بهم في معظم الأحوال . كنا نراه في هذه الناحية أقرب إلى المستقبليين لا السلفيــين الباحثين عن الكمال البشري في الماضي!! . وللسيد الصديق مقولة مأثورة في الطائفية لا يمكن صدورها إلا من ألد خصومها والداعين لزوالها فقد قال في إحدى الليالي السياسية «إن الطائفية من عمل الاستعمار» وفي رأيه أن بقاءها رهن ببقاء الاستعمار . بل أنه لا يقبل بادراج الأنصار في عداد التنظيمات الطائفية في السودان لأنهم ورثة ثورة وطنية ضد الظلم والظالمين والفساد والمفسدين فيها صلاح الدنيا والدين .

محطة ٦

* الرحلة إلى الجنوب برفقة ابرهيم بدري * شيلي وابن سينا في غابة الزرزور * زواج حفيد الخديوي في بور * عاريات وسافرات ومحجبات * جمعية رفاهية جنوب السودان وأول اضراب هناك * الجنوب في نصرة فلسطين * الجلابة صلبوا المسيح عليه السلام *

ذقت طعم الفاكهة المحرمة طازجة من قطوفها الدانية مباشرة لأول مرة ، بعد أسابيع قلائل من أحداث مشروع صدقي - بيفن . والفاكهة المحرمة عنوان كتيب أصدره ، في تلك الأيام محمد يوسف كاتب بلدية مدينة كوستي عن السياسة الاستعمارية في جنوب السودان في ظل قانون المناطق المقفولة . وأصبح عنوان الكتيب اسما متعارفا للجنوب ، بين الأوساط الوطنية في العاصمة!! ذهبت إلى الجنوب نائبا لمستر غراهام المدير البريطاني لفندق جوبا عاصمة الاستوائية ، في إطار مشروعات السودنة ، على أمل إيفادي في بعثة لأوروبا للتخصص في إدارة الفنادق وخدماتها .

كانت الاستوائية في تلك الأيام مديرية مترامية الأطراف ، تضم بحر الغزال ، ويحكمها مدير واحد بمساعدة سبعة فقط من مفتشي المراكز البريطانيين ومفتش سوداني واحد هو ابرهيم بدري في مركز أمادي .

عادت بحر الغزال إلى وضعها السابق مديرية مستقلة في أول عهد الحكم الوطني ، إرضاء لأطماع الإداريين السودانيين فقط لا غير . كانت تلك البذرة الأولى لأحداث التمرد ،

وبالتالي تداعي وحدة السودان بأسره . واستفحل الترهل الإداري في الوقت الحاضر ، فتمزقت مـا تعرف في الأربعينـات بمديريتي الاستوائيـة وأعالي النيل إلى مجموعـات لا تحصي من الولايـات والمحافظـات ، يحكمها مئات من الولاة والمحافظـين ومساعديهم ، تقنينا لما يسود المنطقة من انهيارات أمنية واجتماعية واقتصادية مزمنة وصراعات مسلحة مشئومة!!

استغرقـت رحلتي إلى جوبا أكثر من عشرة أيام على ظهر الناصر ، أول باخرة نيلية في اسطول النقـل النهري (مصلحة الوابورات) وقودها الديزل بدلا من البخار . كان بين الركاب ابرهيـم بدري في طريقـه إلى أمادي بعد فترة قصيرة ، أمضاها مجـبرا مفتشا لمركز سنكات . ظل ابرهيم بدري يرفض مراراً الانتقال إلى الشمال مترقيا إلى منصب المفتش ، مفضلا البقاء مأمـورا في الجنـوب الذي ليس في ميزانيته بند لمفتش سوداني . ورؤي كحل وسط نقله مؤقتا إلى الشمال مفتشا لمركز سنكات ، على أن يعود إلى الجنوب بعد فترة قصيرة . وابرهيم بدري ظاهرة نادرة وفريدة قل أن يجود الزمان بها . لو ولد وعاش في غير السودان (مقبرة العباقرة) ، لكان له شأن عظيم ، لا يقل عن شأن عمالقة الفلاسفة والمفكرين الموسوعيين أمثال ابن رشد وفرنسيسـ بيكـون ، وبرتراند رسل . تتجلي عبقرية ابرهيم بـدري في رؤيته الملهمة السباقة ، التي تأتي بأراء وأفكار تعتبر في حينها كفرا وخيانة ،لكنها تصبح مع مر الأيام حقائق مفعمة بالحكمـة والإيمان ، تصب كلهـا في مصلحة من مصالح الواقع الماثـل للعيان . وأصدق مثال علـى ذلـك مواقفه وآراؤه حـول مستقبل العلاقة بين الجنوب والشمـال . لقد كنت يومذاك محظوظـا برفقـة ابرهيم بدري في السفر لأول مرة إلى الجنوب . كانت في الواقع أشبه بسياحة في وادي الملـوك برفقة شقيـق توت عنخ أمون ، أو مع ابن خوفـو كمرشد سياحي في منطقة الأهـرام . لقـد أمضي ابرهيم بدري ربع قرن من حياتـه في الجنوب مما جعله حجة في شئونه الاجتماعيـة والتأريخية والسياسية والأنثربولوجية . قال لي من أثق فيه إن جامعة أوكسفورد البريطانيـة تعتبرابرهيـم بدري مرجعا ، كلمته الفاصلة في تلك الشئـون ، وإن أحكامه وأراؤه فيهـا غـير قابلة للنقض ، خاصة ما يتعلق منها بقبائل الدينكا الذين كثيرا ما يحتكمون اليه

في أنسابهم ومشاكلهم اللغوية لأنه أدري بها منهم . هكذا لم تعد الرحلة على ظهر الناصر بفضل ابرهيم رحلة إلى الجنوب وحده ، وانما كانت سياحة أيضاً إلى آفاق أخرى في عوالم الفكر والمعرفة والثقافة والتأريخ لم أعهدها من قبل . كانت الرحلة في الحقيقة بمثابة انقلاب جارف في أفكاري ومعايير تفكيري ونظرتي إلى مختلف القضايا المطروحة على الساحة الوطنية في تلك الأيام .ولا يعني ذلك بالضرورة التخلي عن مبادئي الاتحادية . قرأنا سويا على ظهر الباخرة الناصر كتابا من مؤلفات ارنست رينان أشهر المؤرخين في القرن التاسع ، عن ابن رشد وفلسفته . والكتاب في جملته خلاف السيرة الذاتية عبارة عن مقارنة بين الأديان السماوية ، وتأريخ الفكر الإنساني منذ عهد المعلم الأول أرسطو ، الذي لم يستوعب أحد في الشرق أو الغرب فلسفته مثلما فعل ابن رشد . وكانت لدي نسخة من كتاب «الله» لعباس العقاد قرأتها من قبل مرتين أو ثلاث فلم أفهم شيئا البتة . كان الكتاب في نظري مجموعة من الطلاسم والألغاز .ذكرت ذلك لابرهيم فضحك قائلا : يا أخي إنك لم تنتقل من مرحلة الشك إلى اليقين ولم تصل بعد لمرحلة الطمأنينة والاستقرار ، وأن العقاد سئل مرة عندما كان صغيرا إن كان يعرف الله فرد قائلا : «نسيبو يدور علينا هو»!! ولما انتقل العقاد إلى مرحلة اليقين وأحاط بتفاصيله ، خرج على الناس بهذا الكتاب الذي لن تفهمه ما لم تبلغ بدورك مرحلة اليقين المفصل!! كنت في تلك الأيام متدينا ملتزما بقواعد الإسلام الخمسة ، لا أتعاطي الحرام أو اقترف الموبقات إلا لماما . وكان وعيي الديني كمسلم بالوراثة أقرب إلى الصفر ، أو لم يبلغ الرشد على الأقل إلا بعد ذلك بسنوات . والوعي الديني ظاهرة مكتسبة ، تعين المرء على النفاذ ببصيرته إلى أغوار المقدسات في الكون أو في سلوك الإنسان . وربما يصبح التدين غير المدعوم بالوعي الديني ظاهرة أقرب إلى الوثنية ، بكل ما فيها من عبادة الأصنام والأشخاص والمخلوقات الأخري ، بالإضافة إلى ما فيها أيضاً من انحطاط أخلاقي وتجن على القيم والمقدسات . هذا هو المعيار الذي يحكم موقفي من الطائفية الدينية السياسية ، ومن ما يسمي بالمشروع الحضاري الإسلامي القائم على سلبيات الماضي دون إيجابياته ، وعلي تحويل المسلمين إلى مخلوقات مستنسخة من الصحابة رضوان الله عليهم . سيقودنا ذلك

المشروع حتما إلى الضد عاجلا أو آجلا مثلما حدث في تركيا ، عقب انهيار الخلافة العثمانية واستيلاء مصطفى كمال أتاتورك على الحكم . ليست هذه دعوة إلى نبذ تراثنا ، وإنما دعوة إلى التمييز بين سلبياته وإيجابياته بدراسته على نهج علمي صحيح .

مـرت الناصر قبل رسوها في ملاكال (عاصمة مديرية أعـالي النيل) على غابة الزرزور فأفزعـت بصفيرها أسراب العصافير في أوكارهـا الآمنة . انطلقت العصافير سابحة في الفضاء لتحجـب شعاع الشمس ، وكأنها مـن شدة كثافتها زوبعة رملية عاتية . وذاب هدير محركات الناصـر ، وسط صخـب العصافير وضجيجهـا وحفيف أجنحتها الذي تحـول إلى دوي يصم الآذان . وقفـت مأخـوذا أمام هذا المشهد الخلاب ، وأنا منذ الصغر أحب الطيور على اختلاف أشكالها وأراها أجدر المخلوقات بعرش الجمال وكمال الأجسام ، فهي الملكة بلا منازع لما حباها الخالق سبحانه وتعالى من حسن الصياغة والتركيب شكلا ولونا . لعل جمال الطير الحسن غير المجلوب الذي قصده أبو الطيب المتنبي ، فالطير لا يغير ثيابه ولا يبدل أفواف ريشه ومع ذلك يظـل جميلا في رأي العين . تعلمت من خلال عشقي للطير أشياء كثيرة ، منها حبه الجارف للحريـة ، والعـزوف عن العروش وأصحابها ، وعن بهرج الحيـاة وخداعها . إنني كقبرة شيلي الشاعـر الإنجليزي ، أنفر مـن القيود ، وأسبح في فضاء حياتي حرا طليقا ، ويكفيني من نشب الحيـاة حبة عيش ونغبة ماء . وإذا ضقت بغصن أو ضاق بي ارتحلت كالطائر إلى غصن آخر . لا تقلقني الضراء . ولا تبطرني السراء . سيان عندي أن أرفرف بين السماء والأرض مع شعاع الشمس وضوء القمر ، أو أهبط مستكينا فوق الأرض . ولطائر الهدهد في نفسي مكانة خاصة فهـو مخبر النبوة صاحب الخبر اليقين ، في زمان كانت الصحافة فيه نطفة غير مخلقة في رحم الغيب!! والأخبار عندي أفضل مجالات العمل الصحفي ، لا سيما في مجتمعاتنا التي تفتقر حكوماتها إلى الشفافية ، وتعتمد على التضليل بدلا من تمليك المحكومين الحقائق والمعلومات . ويـري الإمـام الغزالي -كما ورد في رسالته «منطق الطـير» - في الطيور رمزا للنفس البشرية في صعودها وهبوطها ، بينما رأي ابن سينا في الورقاء الأليفة المستأنسة تجسيدا للروح حين قال :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وترفع
محجوبة عن كل مقلة عالم وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهي ذات توجع

انضـم إلينـا في ملاكال عروسان ملكيـان : العروس فاتنة مكسيكيـة اسمها غلوريا روبيـو ، والعريس أحمد فخري بك ابن الأميرة فوقيـة ، أخت الملك فاروق لأبيه من الأميرة شويكارالتـي طلقها الملك فؤاد عقب اطـلاق شقيقها الرصاص عليه!! . وقع البك ابن الباشا في غـرام العروسـ في باريس ، لكن والده فخـري باشا السفير المصـري في فرنسا ، لم يوافق علـى زواجه منها فهربا إلى السودان . وذهب الإثنان فور وصول الناصر إلى بور لمكتب المفتش البريطـاني ، وأبديا رغبتهما في اعتناق غلوريا الإسلام وزواجهما حسب الشريعة الإسلامية . وبعـد مشـاورات مع الحاج الياس بابكر سر التجار ومحمد الحاج باشكاتب المركز قرر المفتش تلبيـة رغبتهمـا . فأشهرت غلوريا أولا إسلامها في بيت المفتش ، على يد الشيخ الياس الذي تولي بعد ذلك صيغة عقد القران ، وشهد يوسف فخري مهندس الناصر والشيخ عوض سيد أحمـد التاجر في بور وبالرفاء والبنين . تبرع تجار بـور بعجلين نحرا احتفالا بالمناسبة أحدهما في حي السوق وزع لحمه على الأهالي ، والثاني عند الشاطيء رفع إلى سطح الناصر بأكمله ، حيث سلخ العجل ووزع لحمه على الركاب .

تأخـر اقـلاع الناصر من بور مدة ساعتين ، بسبب الزفـاف الخديوي الميمون!! لم يكن هنالـك مفر من ذلك فالمهندس فخـري الذي تتحرك الباخرة بأمره مشغول بمراسيم القران في بيـت المفتش المشهور ، دون غيره من المفتشين البريطانيـين بالاستبداد والجبروت ، لا يسمح لأيـة باخرة بالرّسو في بور ، ونـزول أي قادم منها إلا بإذنه . ولا يسمح لها بالاقلاع دون إذنه أيضاً .وقـد منع المفتش في احدي المرات الشيخ على عبد الرحمن قاضي شرعي الجنوب من مغادرة الباخرة في بور . ولما احتج القاضي وهدده بالشكوي للمدير رد عليه في غطرسة وازدراء :

أنا هنا الحاكم لا سلطة لأحد على حتى الحاكم العام وجلالة الملك وفاروقكم!! ولمفتشي المراكز البريطانيين سلطات مطلقة كسلطات دكتاتور القرية .

وتحولت الباخرة الناصر في طريقها من بور لجوبا إلى زفة عائمة ، إذ أقام ركاب الطابق العلوي من الباخرة حفل عشاء فاخر للعروسين امتد حتى الساعات الأولى من الفجر على نفقة العم عكاشة سر تجار جوبا الذي كان عائدا من زيارة أهله في كبوشية . وألقيت كلمة نيابة عن المحتفين ، مهنئا العروسين ، قوبلت بالاستحسان والتصفيق . كل كلمة منها كافية لالقائي في النهر طعاما للتماسيح المفترسة - كما يفعل الرومان بخصومهم في قديم الزمان - بموجب مادة الكراهية ضد بريطانيا وحكومة السودان من قانون العقوبات!! اختتمت الكلمة بالهتاف بوحدة وادي النيل وحياة فاروق الأول مليك الوادي المفدي . وردد الحاضرون الهتاف .واتخذ الاحتفال على سطح الباخرة الناصر طابعا شعبيا ، كأي حفل عرس في قلب أم درمان ، بكل ما فيه من رقصات وغناء وأعيرة نارية ، وزغاريد رددت صداها ضفتا النيل . ألبسنا العروس ثوبا سودانيا وحلية ذهبية مستعارة من الراكبات ، كما ارتدي العريس زيا سودانيا . ونزل العروسان إلى الحلبة مع الراقصات والراقصين . وكانت نجمة الحلبة بلا منازع ، فتاة من واو اسمها زهرة ، ونجمها الكمساري خليفة الطيب من قبيلة العبابدة ، أعانته قامته العسكرية الممشوقة المديدة على أداء رقصة العرضة في إبداع واتقان . كنا نخشي على خليفه الطيب من السقوط في النهر أو أن تفوته الباخرة وهو معلق في الهواء على ارتفاع عشرة أقدام ، ليجد لدى هبوطه بدلا من سطح الباخرة ظهر فرس البحر ، أو تمساحا عشاريا . وقد عمل خليفة الطيب أيام الحرب ضابطا مع قوة دفاع السودان في الصحراء الليبية ، ثم التحق بعد تسريحه بمصلحة الخطوط الحديدية . وكان كمعظم الضباط السودانيين محبا للمرح والحياة رغم أن صنعتهم الموت لهم وللآخرين .

في الطريق من بور إلى جوبا رست الباخرة «الناصر» في شامبي ، فرأيت لأول مرة فتيات عاريات في العراء . سرب من فتيات قبيلة النوير يجلسن تحت شجرة في مكان غير بعيد من

المرسـي . عاريـات تماما إلا من حـزام (حقو) من خرز ملون يحيط بالخصـر ، وأسورة معدنية تطبـق بقـوة على أعلى الذراع ، غير مواكبة لنمـوه ، إذ أن الفتاة النويرية ترتدي تلك الأسورة منـذ سن البلوغ ولا تخلعها فيضيق الذراع بها عندما يصير «مثل ذراع البكر أوأشد»!! ظللت واقفا بالقرب منهن مشدوها ، تائها في بحر من الأحلام ، فقد كان منظر الفتيات جالسات أو واقفـات ، مثـيرا ومغريا ، أحدث في نفسي ما يحدث لفتي مثلي في تلك المرحلة من العمر!! غـير أن الأمـر أصبح عاديا في مقبل الأيام من كثرة التكـرار . لا أكترث عند رؤية فتاة عارية بمواطـن الشهوة ودوافعها ، بقدر ما أتعبـد في محراب حسنها وجمالها متبتلا في عفة وبراءة . وقـد تثـير المرأة المتحجبة من غرائـز الرجال أكثر مما تثيره العاريـة ، فكل محجوب مرغوب ، وكل ما تحجبه الأستار أشد إثارة للفضول . ومن الناس من يظن أن في الحجاب ضمانا للعفة والطهارة ، لكنه في رأيي - لدي المقارنة بين النقيضين - داع للفساد وحافز للغوا ية . الحجاب يجعـل للجسـم نجاسة تشتهي لا بـد من حجبها وراء أستار وأسـوار حتى وإن كان في ذلك إخفـاء لما في الجسم مـن إبداع الخالق وحسن تصويره . ليست هذه دعوة لسفور المرأة أو رفضا للحجاب ، وانما دعوة إلى الاعتدال باعتبار أن وظيفة الملابس إظهار جمال الأجسام لا إخفاؤه أو اخفـاء القبيح منها . ويروى عـن الأديب الفيلسوف كارليل قولـه «إن المجتمع ليسبح في فضـاء على الملابس لا نهاية له كأنـه سابح على بساط سليمان ولولا هذا البساط لسقط في أعماق الهاوية وعالم الفناء» . على أية حال الثوب السوداني الذي ترتديه نساؤنا مثالي يؤدى في اعتدال الوظيفة المطلوبة من الثياب عفة وطهارة وحياء . يظهر الجميل ولا يخفي القبيح أو يعـين على ارتكاب جريمة وأعمال منكرة . وتحضرني أبيات تغنى فيها الشاعر محمد أحمد محجوب بثوب المرأة السودانية :

وقوام قد لفه الثوب نعمى واحتواه الهوى غير شريك
كل خيط يود لو يتدلى عند ساقيك بالمنى يحتويك
بورك الثوب ضم عطرا ونورا ومزاجا من الجوى والشكوك

استقبلنا على رصيف ميناء جوبا النهري عدد من الجنوبيين ، بينهم ستانسلاوس عبد الله بياساما وغوردون أيوم ومايكل ضيف الله ، ومن الشماليين مكي النور عنقرة . جاؤا بالطبع لاستقبال ابرهيم بدري . استانسلاوس كان يعتبر في ذلك العهد أكبر موظف جنوبي ، يشغل منصــب المعاون الإداري في مركز جوبـا ، وهو في الأصل من غرب افريقيا ،ولأبيه الفقيه عبد الله خلوة لتعليم القرآن في مدينة راجا أشهر عاصمة إسلامية في بحر الغزال إلى ماقبل الحكم الثنائي . ولهذا السبب عملت الإدارة البريطانية على تحجيم مدينة راجا وطرد المسلمين منها ، وهــدم مسجدهــا حتى صارت قرية مغمورة . ورغم هذه الخلفيــة الدينية اعتنق السماني ابن الفقيه عبد الله العقيدة الكاثوليكية ، واختارت الكنيسة له اسم ستانسلاوس . تعهده ابرهيم بدري منذ وصوله في النصف الثاني من العشرينات إلى واو ، للعمل كنائب مأمور ونمت بينهما علاقة متينة أشبه بالعلاقة بين الابن وأبيه .

اصبحت بعد أيام قليلة من وصولي إلى جوبا ثاني عضو شمالي في جمعية رفاهية جنوب الســودان برئاسة ستانسلاوس . ابرهيم بــدري صاحب فكرة إنشاء هذه الجمعية وبمثابة الأب الروحي لجميع أعضائها ومعظمهم من المثقفين الجنوبيين آنذاك الذين أصبحوا بعد سنوات نواة للحزب الجمهوري الاشتراكي ، التنظيم السياسي السوداني الوحيد الذي ضم أعضاء مؤسسين جنوبيين ، في وقت لم يكن فيه للأحزاب الأخرى أعضاء مؤسسون أو عاديون من أبناء الجنوب . جمعيــة رفاهية جنوب السودان أول تنظيم شبه سياسي للجنوبيين ، يمكن اعتبارها صنوا لمؤتمر الخريجــين في سنواته الأولى ، عندما كان المؤتمر أقرب إلى تنظيم نقابي يرعي مصالح أعضائه ، ويهتــم كما جــاء في مذكرته إلى السكرتــير الإداري في عــام ١٩٣٨ «بالإصلاح الاجتماعي والأعمــال الخيرية» وليس من أغراضه «إزعاج الحكومة» . سبقني إلى الانضمام للجمعية من الشماليين محمود أفندي منصور باشكاتب المديرية ، وهو شقيق الثائر حسين منصور صاحب كتــاب «الشاطــئ الصخري» الذي أطلــق أول صيحة ضد الزعامــات الدينية ومشائخ المعهد العلمــي في أم درمان . وواجه حسين منصور بسبب موقفــه مضايقات أجبرته في النهاية على

النزوح إلى مصر ، والإقامة فيها ، وودعه صديقه التجاني يوسف بشير بقصيدة مطلعها :

وداعا هزار الربي والأكم أريش الجناح وسيق القدم

وسعيت عقب انضمامي للجمعية إلى إشراك مزيد من الشماليين فانضم إليها من فئة التجار محمد الياس ومصطفي حاج الأمين وأبوطربوش وجورج حجار ومن الموظفين المهندسان أمين محمد على السنجاوي وعبد العزيز صادق والأرباب حسن محجوب مصطفي الذي جاء إلى جوبا موظفا في مؤسسة تجارية حكومية إثر استقالته من رئاسة تحرير صحيفة «الأمة» ، بسبب خلاف بينه وبين قيادات حزب الأمة . رفعنا في تلك الأيام مذكرة إلى مدير الاستوائية ، عهدت الجمعية إلى بترجمتها إلى اللغة العربية وإرسالها إلى الصحف في الخرطوم . وتكمن أهمية هذه المذكرة التأريخية في أنها كانت صدي إيجابيا لمؤتمر جوبا الذي قرر الوحدة بين شقي البلاد جنوبا وشمالا . وضع المؤتمر بذلك حدا للسياسة الانفصالية ، التي كانت تنتهجها الإدارة البريطانية .كما أنني أعتبر جمعية الرفاهية البذرة الأولى للحركة الوطنية المعاصرة في جنوب السودان . ولا تقل قيمة مذكرتها عن مذكرة مؤتمر الخريجين في نهاية الحرب العالمية الثانية . وباستثناء المرحوم محمد عمر بشير ، لم يلتفت أحد من المهتمين بقضية الجنوب لهذه المذكرة الخطيرة ، التي تمثل الخلفيات الأساسية لما جري ويجري في الجنوب منذ جلاء الجيش البريطاني عن السودان تمهيدا لاستقلاله . وأرى حرصا على فائدة الباحثين إيراد النص الكامل للمذكرة :

سعادة مدير المديرية الاستوائية

بكل احترام نتقدم نحن الموقعين أدناه من الموظفين الجنوبيين بهذه العريضة ، راجين النظر فيها بعين العطف . ونعتذر عن أية كلمة أوعبارة يند بها القلم فتبدو غير لائقة ، ومرد ذلك إلى مستوانا الضعيف في اللغة الإنجليزية . إننا ما زلنا نطمع أن تأخذ بناصرنا ، وأن تقف في صفنا في مطالبنا التالية :

إننا نطلب من الحكومة أن ترفع مستوي مرتباتنا حتى يتاح لنا تحسين مستوي معيشتنا ، إذ إننا نجد صعوبة في الاستمرار أية مدة بمرتباتنا الحالية . إن جميع مستويات الحياة التي نعرفها إنما تتقاصر دونها وسائلنا ، وهذا ما يدفع بعضنا إلى السرقة وغيرها من الأعمال المشينة . ولكي نزيدكم إيضاحا فإننا نطلب من الحكومة أن تعطينا نفس الفرص والدرجات التي تعطيها لإخواننا السودانيين من أبناء الشمال . إننا بحاجة لأن نعلم أطفالنا ، وبحاجة لأن نأكل طعاما جيدا ، ونعيش في بيت مؤثث ، وأن نقتني الملابس ونواجه غير ذلك من ضرورات الحياة . وبمعني آخر إننا في حاجة إلى مأوي ، نتمتع فيه بالسعادة الحقيقية ، لكننا بمرتباتنا الحالية لا نستطيع الحصول على بعض الضروريات التي يحتاج إليها الآدميون .إذ إن معظمنا لا يتقاضي مرتبا أكثر من جنيهين أو ثلاثة في الشهر . إننا لا نستطيع أن نفهم قصد الحكومة من قولها لنا بأننا مختلفون عن السودانيين في الشمال بالرغم من أننا جميعا سودانيون . ولعل تمسك الحكومة بقولها راجع إلى تأخرنا في كل ناحية ، فإذا صح ذلك فإنما الخطأ يقع على الحكومة .

إننا نود أن نسأل الحكومة كيف يمكننا أن نحصل على ما يكفل لنا مطالبنا الضرورية للحياة ؟ ؟ لهذا فإننا لنرجو منكم أن تنظروا في هذه النقطة بعين العطف والاهتمام ، ونحن مستعدون لإعداد بيان بمصروفاتنا الشهرية إذا أردتم ذلك .

إننا نرفع إليكم أيضاً مسألة السكن المجاني : إن إعطاءنا السكن المجاني لا يجوز أن يكون سببا لتخفيض مرتباتنا . لماذا لا نعطي مرتبات إن لم تكن متساوية فمعقولة ومتناسبة مع مرتبات السودانيين الشماليين على أن تخصم منا نسبة من المرتب تتكافأ مع مستوي ونوع المنزل المستأجر . ونحن نعلم أن إيجار المنازل الحكومية لا يأخذ إلا نسبة ضئيلة من مرتب المستأجر . ولا ندري ما السبب الذي يمنع أن نعامل كالشماليين في إعطائنا مرتبات مثلهم ، واستقطاع إيجار المسكن وغيره بالطرق المعتادة . وهناك اعتقاد بأن إعطاء مرتبات عادلة للجنوبيين معناه زيادة تعاطيهم المسكرات ، وهذا أمر تشكو منه الدنيا بأسرها وفي مقدمتها

الشعوب التي بلغت أرقي درجات الحضارة ، ولا يصلح أن يكون سببا يحول دون رفع مستوي المرتبات إلى حد معقول . إن نسبة من يفعلون ذلك قليلة وليس من العدل أن يعاقب بلد بأسره لأن نسبة قليلة من المواطنين تفقد الإتزان .

هناك موضوع بدل السفرية وبدل الإقامة : إن الحد الأدني المخصص لصغار الموظفين الجنوبيين هو ٢٥ مليما في الليلة وللكبار ٤٠ مليما . هذا في الحقيقة مستوي متواضع إلى حد غير معقول . إن الموظف ليصرف فوق ذلك بكثير ، حين يخرج في مأمورية بل إنه يصرف كل مرتبه في اليوم زائدا هذا المبلغ الذي يعطي له . وإنا لنتساءل لماذا لا توحد بدل السفرية والإقامة للشماليين وللجنوبيين ، أو تعطي للجنوبيين نسبة معقولة قريبة من النسبة التي تعطي للشماليين . إننا نطالب الحكومة بتغيير كادرنا الحالي وأن يوضع لنا كادر مماثل لكادر السودانيين الشماليين . ولا نري في الوقت الحاضر ما يدعو لأن تقسم الحكومة السودان إلى فصيلين شماليين وجنوبيين . ولم نسمع بأن هذا قد حصل في أي بلد آخر غير السودان . وعلي العموم ليس هناك من سبب لفصل ولدين أمهما واحدة!! وإذا كان السبب هو أننا أكثر سوادا في لوننا فإن عددا كبيرا من الشماليين في مثل سواد بشرتنا ، وكثير منهم تجري في عروقه دماء الجنوب ، ولذلك فهم لا يختلفون عنا . أما إذا كان السبب هو أن الحياة في الجنوب أرخص ، فلماذا إذن لا تخفض مرتبات السودانيين الشماليين العاملين في الجنوب ؟؟ ومهما قيل عن يسر المعيشة في الجنوب في الماضي فهذا قول لا يمكن ترديده الآن . إننا نعتقد أن العيش سهل في القري سواء أكان ذلك في الشمال أو الجنوب ، لكن العيش في المدن الكبيرة فيهما مكلف على السواء خصوصا في أوساط موظفي الحكومة . إننا يجب أن ننال تعليما عاليا مثل الشماليين . ولا يمكننا الآن نيل ذلك لأن بعضنا ممن أرسلوا إلى يوغندا عاد أكثرهم لعدم وجود أماكن لهم . ولا يمكننا من الناحية الأخرى الذهاب للخرطوم لتلقي مزيد من العلم لأننا لا نتكلم العربية وهكذا يضيع أبناء الجنوب بين هذين العاملين . لذلك نطالب الحكومة بأن تفتح لنا مدارس حكومية هنا في الجنوب بنفس الطريقة التي تتبعها في الشمال . ويجب أن تعلمنا اللغتين الإنجليزية والعربية حتى يمكننا في المستقبل الذهاب إلى

الخرطوم لمواصلة تعليمنا في مدارس حكومتنا بدلا من استجداء التعليم في بلاد أخرى كيوغنده. إن مدارس الإرساليات، لا يمكن أن تعطينا تعليما كافيا لأنه ليس عندها المال الكافي، وفوق ذلك إنها تطالب الآن بمصروفات مدرسية لا يستطيع كثير من الأهالي دفعها. ثم إن الأهالي قد رأوا أننا نحن الذين تعلمنا والتحقنا بخدمة الحكومة لم نحصل على فائدة كبيرة ولهذا فقدوا الحافز لتعليم أطفالهم وإنهم ليسخرون منا الآن!!

وتلقينا ردا رقيقا من مدير المديرية البريطاني أبدي فيه تعاطفه مع الجمعية في مطالبها. ووعد بتلبية ما يقع منها في دائرة اختصاصه وصلاحياته، وتحويل الباقي إلى الخرطوم مشفوعا بتوصياته. وأوفي المدير بما وعد إلى حد ما مما يعتبر خطوة أولى نحو تحقيق المساواة تدريجيا في ما بعد بين الموظفين الشماليين والجنوبيين. هذه المذكرة جديرة بوقفة أمام ما تثيره من علامات الاستفهام. فالجنوب ظل حتى ذلك الحين لمدة تقارب الخمسين عاما خاضعا لسياسة استعمارية انفصالية صريحة، تدعمها الإرساليات المسيحية التي عهدت الإدارة البريطانية إليها بخدمات التعليم. ومعظم الموظفين الجنوبيين تنصروا على يديها وتخرجوا من مدارسها ذات المناهج المعادية للشماليين والعروبة والإسلام. ومع ذلك صدرت منهم مثل هذه المذكرة التي يعربون فيها عن عجزهم عن فهم «قصد الحكومة من قولها لنا إننا نختلف عن سودانيي الشمال بالرغم من أننا جميعا سودانيون وليس هناك من سبب لفصل ولدين أمهما واحدة وإن عددا كبيرا من الشماليين في مثل سواد بشرتنا وكثيراً منهم تجري في عروقهم دماء الجنوب».

وجاء الحكم الوطني عقب مذكرة جمعية رفاهية جنوب السودان بعشر سنوات تقريبا، فكانت الحرب الأهلية التي اكتوينا بنارها عشرات السنين. لقد فشلت السياسة الاستعمارية الانفصالية في دق اسفين بين الجنوب والشمال، لأنها كانت سياسة مخالفة لطبيعة الأشياء، وفشلنا بعد جلاء المستعمرين في المحافظة على الالتحام بين شقي البلاد لأننا انشغلنا بمحاربة طواحين الهواء بدلا من تطهير الجنوب من القنابل الموقوتة التي غرسها المستعمر، قبل تحوله من سياسة الانفصال إلى الوحدة. قنابل موقوتة بقيت خامدة هامدة لم تجرؤ واحدة منها على

الانفجـار طيلة عهد الاستعمار ، بفضل وعي الجنوبيين الذي تجلي واضحا في مذكرة جمعية رفاهية الجنوب . لقد زرع المستعمر حصرما في الجنوب فأخرج رطبا جنيا ثم زرعنا بعده النخل فلم نجن منه إلا حصرما وزقوما!!

إنهـا حقـا مفارقات تثير حشدا من علامـات الاستفهام ربما تأتـي الإجابة عليها في المحطات التالية من رحلة «قطار العمر» . لكني أكتفي الآن بالإشارة إلى أن المذكرة كانت أمام اسماعيل الأزهري رئيس أول حكومة وطنية بعد اسبوع واحد من توليه الحكم!!

وشكلنا يومذاك في جوبا لجانا فرعية تحت مظلة الجمعية لكنها مستقلة عنها إلى حد ما كلجنة محو الأمية لتعليم العربية ، ولجنة مكافحة العري ، ولو أن معظم الرجال والنساء من قبيلة الباريا التي تشكل أغلبية سكان مدينة جوبا وضواحيها يرتدون ثيابا . غير أن النساء من قبائل أخرى وقليلات من الباريا وخاصة الفتيات يفضلن أوراق الشجر العريضة لستر سوأاتهن فقط من الأمام ، ويتركن باقي الجسم عاريا . كانت بجوار فندق جوبا على الطريق إلى المطار شجرة ضخمة كأشجار البلوط ، أوراقها عريضة للغاية تغشاها الفتيات كل صباح لاقتطاف حلة جديدة طازجة ، بدلا من حلة اليوم السابق الذابلة .أطلقت على الشجرة اسم «المراش» أشهر متاجر الخرطوم لبيع القماش الفاخر المستورد من بريطانيا ، ويقع المتجر في منطقة السوق العربي خلف عمارة البنك الصناعـي الآن وصاحبه من بلاد الشام . ودرجت في تلك الأيام وأنا في عنفوان الشباب ،على احتسـاء شاي الصباح كل يوم تحت تلك الشجرة ، وعينـاي الجائعتان شاخصتان دون إنقطاع إلى أعلى الشجرة ، تتنقلان بين المتسلقات العاريات ، وهن يقلبن البضاعة لانتقاء أكثرها نعومة ونضـارة . واقتنيت منظارا ثنائي العينية (بينوكيولار) يقرب البعيد حتى تكاد يداي المرتعشتان تمتدان في شبق لملامسته . وقد ينتاب الحرج واحدة أو أخرى من نظراتي النافذة فتخصف الأوراق في هلع لتستر سوءتها كما فعلت أمنا حواء عندما فتنها إبليس فنزع الله لباسها هي وآدم ليريهما سوءتيهمـا وكانـا قبل ذلك من الخالدين في نعيم الجنة . مـرة أخري : من كان - يا أماه - بلا خطيئـة فليرمني بحجـر لو أبقت أبابيل الأقصي على حجر!! كانت تلك المرة الثانية التي أري

فيها نساء عاريات أو شبه عاريات في العراء أو في الشارع وكان منظرهن في البداية مثيراً يلهب الخيال المشوب بنزق الشباب لكن منظرهن أصبح عاديا مع مر الأيام .

وقمنا ضمن نشاط لجنة مكافحة العري بتوزيع أحذية باتا وفساتين وقطع من القماش تصلح مئزرا أو وشاحا لتغطية الرأس والصدر تبرع بها المحسنون من تجار جوبا رغم اعتراض الأرباب حسن محجوب المناكف دائما بحجة أن في ذلك حجبا للمحاسن التي خلقها الله متعة للإنسان . وأقسم على فتح ألف ناد للعراة في الخرطوم عندما يعود إليها!!

لم يكن نشاط الجمعية كافيا لشاب مثلي بلغت مشاعره الوطنية ذروة التطرف ، ومتعطش للصدام مع السلطة الاستعمارية .كانت الجمعية أميل إلى المهادنة والاعتدال . وكنت في الوقت نفسه حريصاً على تحقيق تلاحم بين الوطنيين في الجنوب والشمال ، لكن محاولاتي في هذا الصدد لم تتعد تبادل الرسائل بين بعض أعضاء الجمعية ونفر من الاتحاديين بينهم ابرهيم يوسف سليمان وحسن الكد ، وعبد الكريم ميرغني الذي أبدي استعدادا لاستضافة من يود من الجنوبيين زيارة العاصمة .

تحولت سهراتنا في صالون حواء كريش في حي الملكية بعد فترة قصيرة إلى جناح سري لجمعية رفاهية الجنوب دون علمها رسمياً . كان الصالون في الواقع قطية رحبة جدرانها من الطين ، وسقفها المصنوع من القش تتحول مساحات منه عند سقوط المطر إلى دش يصب ماءه مدراراً ، وفي سخاء فوق رؤوسنا الساخنة . معظم رفاق السهرة المواظبين موظفون من أعضاء جمعية الرفاهية ، مثل مايكل ضيف الله وغوردون أيوم ودومينكو المحاسب في مصلحة الأشغال بالإضافة لبعض الشماليين . حواء كريش صاحبة الصالون سيدة من واو في منتصف العمر ، لها شقيقة أصغر منها تدعي خميسة ، زوجها جاويش سابق عمل مع سلاح المهندسين في أم درمان ، وأحضر معه من هناك فونوغرافا (حاكي) أكل الدهر عليه وشرب . كنا نستمع من الحاكي إلى أغان وموسيقي أفرنجية ، على أسطوانات معظمها مشروخة وممسوحة ، يبدو أن مصدرها براميل الزبالة في الحي الأفرنجي المخصص لسكني البريطانيين . لكن كانت هنالك

أيضـاً أسطوانة واحدة للأغنيـة العربية السودانية «قلبي هامالو . خديدك وجمالو . معذب في هـواك مالو» . في بعض الأحيـان ينضم إلينا عبد المنعم ابرهيم هاشـم (الزينة) وأحمد عمر وكلاهمـا عازفان ماهـران على العود ، وصوتهما لا بأس به وشيـئ خير من لا شيئ أو كما يقول المثل : ليمونة في بلد قرفان !! .

تولدت خلال سهراتنا فكرة تنظيم إضراب شامل في جوبا ، مهدنا له أولاً بالمنشورات السرية ثم الاتصال بمن نثق فيهم من صغار الموظفين الشماليين والجنوبيين في المصالح الحكومية المختلفـة . واستغرقـت عملية التوعية شهرا كاملا ، ركزنا فيهـا على ما يعانيه الجنوبيون من ألـوان الظلم والحرمان وسوء المعاملة في ظـل السياسات الحكومية ، التي تصل إلى حد اعتبار الجنوبيـين مخلوقات من غير طينة الإنسان ، وأقل مرتبة حتى من الحيوان . ساعدنا الحظ في تلك الأيام إذ ارتفعت أسعار الذرة في جوبا ارتفاعا جنونيا . ولقيني قبل الإضراب بأيام مفتش المركز البريطاني (مستر آربثنوت) في حي الملكية مع مجموعة من الجنوبيين نخطط للإضراب . غـوردون أيوم الـذي كان حاضرا قال للمفتش ردا على تساؤلاتـه إننا نناقش مذكرة جمعية الرفاهية للتأكد من مدي تعبيرها عن رأي الجنوبيين بوجه عام . كانت تلك المرة الأولى التي ألتقي فيها مع مستر آربثنوت منذ وصولي إلى جوبا ، وقلت له دفعا لشكوكه أنني أجري بحثا اجتماعيـا يعينني على كتابة مقالات واقعية لنشرها في صحافة الخرطوم ، بعيدة عن المبالغة التي يتسم بها ما ينشر عن قضايا الجنوب .

جاء الإضراب شاملا ومفاجئا ، أخذ السلطات على حين غرة ، وأصدر مكتب الاتصال العام في الخرطوم بيانا أذاعته أم درمان في المساء ، اعترفت الحكومة فيه بأن الاضراب كان شبه عـام ، وشمل جميع المرافق الحكوميـة . وكما تفعل وسائل الإعلام الحكومية حتى في أيامنا هذه ، عزا البيان الإضراب إلى ارتفاع أسعار الذرة . ومما ساعد على نجاح الإضراب إننا روجنا تمهيـدا لـه إشاعات بين مجتمعات الجنوبيين ، تنذرهم بأن «كتابـو» كبير الفراشين في فندق جوبـا سوف يسلط سحره على من يتخلف عن الإضراب أو يعمل على احباطه . وكتابو من

قبيلة الزاندي ومشهور في تلك المجتمعات بأنه ساحر حاذق ينسبون إليه خوارق تثبت قدراته السحرية التي لا تخيب ، أشبه بكرامات الأولياء الصالحين . شوهد كتابو في يومي الإضراب وهو يتجول - كما طلبنا منه - في حي الملكية بكامل الزي التقليدي الذي يرتديه سحرة الزاندي ، أضاف إليه قطعا من المحار والأصداف التي جمعتها عندما كنت في بورتسودان ، إمعانا في إثارة الذعر والمخاوف بين أفراد مجتمع شبه بدائي غريب عن البحار في قلب القارة السوداء .

كانت خطتنا أن يستمر الإضراب لمدة يومين (الجمعة والسبت) ، لكن دولاب العمل ظل مختلا لمدة أسبوع على الأقل ، لأن عددا كبيرا من المضربين انتهز الفرصة فذهبوا إلى قراهم ، ولم يعودوا إلا بعد أيام . وانفردت صحيفة صوت السودان بنشر تفاصيل الإضراب أتبعتها بافتتاحية حملت فيها حملة شديدة على سياسة الحكومة إزاء الجنوب . ويرجع إنفرادها دون غيرها من الصحف إلى رسالة مطولة كلفت قائد طائرة (BOAC) البريطانية بتسليمها إلى زميل لي في الفندق الكبير في الخرطوم ، سلمها الزميل بدوره إلى صوت السودان . وقام وفد من المضربين بتسليم مكتب مدير المديرية في جوبا مذكرة مختصرة تتضمن مطالبهم ، يدور معظمها حول تحسين الأجور وأحوال العمل والمعيشة ، بالإضافة إلى المطالبة بأن يكون قانون العمل المزمع آنذاك موحدا يطبق على سائر السودان دون تمييز أو استثناءات . و كان هنالك إتجاه بالفعل لوضع قانون عمل خاص بالجنوب وحده . وجاء إلى جوبا موفد من مكتب السكرتير الإداري في الخرطوم لهذا الغرض واجتمع بلجنة الرفاهية ، وجرت مناقشات بينه وبين بعض أعضائها خلال جلسات خاصة في فندق جوبا . كان من رأيي آنذاك ولا أزال - وكذلك رأي حزب الاتحاديين - أن تقوم النقابة على أساس المهنة لا مكان العمل ، كما هو الحال حتى الآن حيث أصبحت التنظيمات النقابية حكرا على المحظوظين ممن توفرت لهم فرص العمل . أما العاطلون فلا شيئ لهم غير الضياع ومزيد من الضياع ، إذ ليس هناك أي تنظيم يدافع عن حقوقهم حتى الأساسية ومنها حق العمل .

وارتماء التنظيمات النقابية في أحضان الحكومات السلطوية المتعاقبة في السودان وانقيادها لهـا راجع بكل تأكيد إلى قيامها على أساس مـكان العمل لأن الحكومة أكبر مخدم كما أن أصحاب العمل في القطاع الخاص مطية الحكام في كل زمان ومكان .وهذه قاعدة وما يخالفها رغم ندرته مجرد نشوز لا يقدم أو يؤخر!!

علـي أية حال كان الإضراب وثبة من وثبات اليقظة ، أو بالأحري منعطفا ثوريا أفلت الجنوبيـون عبره من الأقبـاء المظلمة التي حشرتهـم فيها السياسـة الاستعمارية نصف قرن مـن الزمـان تحت شعارات مختلفة ، بعيدا عن أنظار العـالم وأسماعه . ولعل دوري في تنظيم الإضـراب الـذي كان أول إضراب في تأريخ الجنوب محطة رئيسيـة من تلك المحطات التي تستجـم فيهـا قطارات ذلك الزمان ، وتتـزود بالماء والوقود و يستجـم ركابها من عناء الرحلة الطويلة ويجددون زادهم .

أخـذت تطـل نكبة فلسطين علينا في تلك الأيام من النصف الأخير من عام ١٩٤٧ . لم يقعدنا وجود الاستعمار في السودان عن تلبية نداء الجهاد أسوة بالشعوب العربية الأخري . وتسابقـت سائر التنظيمات السياسية والاجتماعيـة على نصرة الحق الفلسطيني بما في ذلك الحزب الشيوعي السوداني ، الذي عصا أوامر موسكو ، دون غيره من الأحزاب الشيوعية العربية ومنهـا الحزب الشيوعي الفلسطيني . أعلن الحـزب الشيوعي السوداني بالإجماع تضامنه مع شعب فلسطين ، ورفض قيام الدولة الصهيونية في أرضه باستثناء مجموعة صغيرة من الحزب يتزعمهـا أحمد محمد خـير المرضي ، هي نفس المجموعة التي ناصبت موسكو العداء في ما بعـد وارتمـت في أحضان بيكين . قامت في العاصمة اللجنة القوميـة لتحرير فلسطين برئاسة الأمـيرالاي (معاشـ) حامد بك صالح المـلك ، كبير الضباط الوطنيـين السابق في قوة دفاع السـودان ، لجمع التبرعات وتجنيد المتطوعين للحرب ضـد الاسرائيليين في فلسطين . وأنشأنا بدورنـا لجنة قومية فرعيـة في جوبا برئاسة محمود منصور ، وأسنـد لي منصب سكرتاريتها . عقدنا اجتماعا مشهودا في نادي الموظفين حضره عدد غفير من الشماليين والجنوبيين في جوبا ،

كما لبي دعوتنا تجار من المراكز التجارية القريبة من جوبا بينهم من مريدي محمد أحمد عترة وحسـن طه ومحمود وعباس المهدي ، ومن توريت الشيخ الفزاري ، ومن ياي محجوب وعلي منصور ويوسف حلمي . جادوا جميعا بتبرعات سخية بينها مرتبي لمدة شهر كامل . حولنا ما جمعنـاه في ذلك اليوم إلى اللجنة القومية المركزية في العاصمة . كما تم في الاجتماع تسجيل الدفعة الأولى من المتطوعين ، ووصلت القائمة في آخر المطاف إلى نحو خمسين معظمهم من الجنـود السابقين ، الذين خاضوا الحـرب العالمية الثانية مع قوة دفاع السودان في شرق افريقيا والصحـراء الليبيـة . لم يصل إلى ميادين القتـال في فلسطين ، أكثر مـن عشرين من أولئك المتطوعـين تحـت قيادة على مطر الكاتب في رئاسة المديرية في جوبا ، وهو من أسرة معروفة في حي الموردة بأم درمان ، ومن طلبة الكلية الحربية الذين اشتركوا في حركة ١٩٢٤ . انضم على مطـر مع رجاله في جبهة القتال إلى مجموعة يقودها الصاغ زاهر سرور السادات ، بطل معركة النقـب الشهيرة التي سجل المقاتلون السودانيون فيها أروع مشاهد البطولة ، وأشادت الرسائل الحربية التي نشرتها معظم الصحف العربية والأجنبية بشجاعة الصاغ السادات ، حين وقع في الأسر بعد المعركة مع من بقي من جنوده . وشاءت الأقدار أن التقي في لندن في عام ١٩٦٥ مـع الضابـط الإسرائيلي جوليان هيس الذي كان مكلفا بحراسـة الصاغ السادات وجماعته في المعتقـل في الجليل . سألني جوليان هيس عندما علـم أني سوداني عن الصاغ السادات ، وتحـدث عنـه في إعجاب شديد ، قائلا إنه ضابط عظيم لم يتخـل عن كبريائه وواجباته تجاه الأسـري من جنوده ، على عكس الأسري الآخرين من الضباط العرب . وقال لي «إن الصاغ زاهـر السـادات طلب منا فور وصوله للمعتقل ألا نشغـل أنفسنا به وبجراحه ، قبل أن نعني براحة جنوده وتضميد جراحهم .وظل الصاغ زاهر السادات يبدأ يومه صباحا طيلة فترة الأسر بتفقـد جنوده واحـدا واحدا في خيامهم ، ورفع احتياجاتهم لنـا في صيغة أوامر ، كنا نرضخ لهـا في الحال لشدة ما فرضه علينا من احـترام ومهابة .» واعترف جوليان هيس بأن المقاتلين السودانيـين كانوا - دون سائـر المقاتلين العرب الآخرين - مصدر رعـب وفزع لهم يتجنبون الاصطدام معهم ، لأنهم رجال أشداء ومحاربون صادقون .

استدعـاني مستر أربثنوت مفتش المركز البريطاني بعد أيام من اجتماع النادي للتحقيق بحجة أني لم أحصل على إذن منه لجمع التبرعات . أجبته بأني فعلت ذلك بتكليف من اللجنة المركزية التي سمحت الحكومة لها بجمع التبرعات داخل السودان ، وأبرزت له خطاب اللجنة في هذا الشأن مشفوعا بإيصال التحويل من مكتب البريد في جوبا . ورفضت إعطاءه قائمة بأسماء المتبرعين والمبالغ التي تبرعوا بها . قال لي المفتش ، إنه يعتبرني عنصرا مثيرا للشغب وأن تقارير عديدة وردت عن نشاطي منذ وصولي إلى جوبا ودوري في الإضراب ، وعن ما أكتبه في صحيفة الحائـط في النادي . طلب المفتش مني التعهد بحسن السير والسلوك لمدة ستة أشهر ، فرفضت موضحا للمفتش أني لست مدانا بارتكاب جريمة يعاقب القانون عليها حتى يفرض على مثل هـذا التعهد ، الـذي يعني الاعتراف بجريمـة لم ارتكبها ، ويمكن أن يؤخـذ كسابقة ضدي في المستقبـل . أما الإضراب ، فقد كان عملا جماعيـا لا يمكن أن يحاسب عليه شخص واحد ، والحكومة هي المسئولة أولا وآخرا بسبب سياساتها الجائرة تجاه الجنوبيين . وفي الختام قال المفتش لي إن قضيـة فلسطين شأن عربـي بحت ، ولا يري داعيا لتجنيد جنوبيين للحرب هناك لأنهم أفريقيون وليسو عربا كسكان الشمال . قلت للمفتش : إسمح لي أن أقول إنكم يا معشر الإنجليز تنظرون في بعض الأحيان إلى الأمر الواحد من خلال معيارين متناقضين ، فتغرقون في مغالطات أنتم في غني عنها . لا ينكر أحد أن الجنوبيين أفارقة ولكنهم سودانيون ، وهم ذاهبون للحرب في فلسطين لنفس الأسباب التي دفعتنا في الشمال والجنوب إلى القتال في صفوفكم ضد النازيين ، مـع أننـا قد لا نلتقي معكم في ظل شجرة الأنساب .رحبتم بذلك ولم نقل أو تقولوا يومذاك إن تلـك الحرب شأن أوروبي بحت لا ناقة لنا فيه أو جمـل!! وقضايا العدالة والحرية والدفاع عن حقوق الإنسان ، لا تعترف بالحدود والانتماءات العرقية . وصمت المفتش قليلا لعله كان يفكر في رد علـى ماسمعه . ولما أعياه التفكير انتقل للحديث عن الصيد في الجنوب هويته المفضلة ، إلى جانـب الشطـرنج ، وأبدي ارتياحا عظيما عندما قلت لـه إن الشطرنج هويتي المفضلة ولدي طقمـاً مصنوعاً من العاج ، لكني لا أجد في جوبا مـن يشاركني اللعب!! هكذا بدأت صداقة بيني وبين المفتش أربثنوت ، وأصبح يدعوني بانتظام إلى بيته لنلعب الشطرنج سويا . ودعاني مرة

للذهاب معه إلى السجن لمشاهدة تنفيذ حكم بالإعدام على جنوبي يدعي إزبوني قتل زوجته ، وجاء بلحمها للسوق ليبيعه بدعوي أنه لحم قرد . ودفعني مجرد الفضول لاصطحابه في الفجر إلى السجن . وجيئ بالشقي إزبوني من زنزانته موثقا بالسلاسل ، لا يرتدي سوى خرقة من الجوت تغطي نصفه الأسفل حتى قدميه وقناع على وجهه . كان إزبوني رابط الجأش لم يبدر منه ما ينم عن جزعه ، أو الخوف من مصير تفصله عنه دقائق معدودات !! . اقتاده شرطي عبر الدرجات إلى منصة المشنقة ، بينما انخرط بقية السجناء يرددون على مسمع منه عبارات التشجيع . ثم قام العشماوي بلف حبل غليظ حول عنق الشقي إزبوني ، وفي أقل من دقيقة وبإشارة من أربثنوت سقطت أرضية المنصة إلى بئر تحتها في دوي هائل تبعه صوت انكسار عنق إزبوني الذي لم يمت في ساعته ، وانما ظل جسده متدليا ينتفض يمنة ويسارا ، لم يهمد إلا بعد نحو عشرين دقيقة نزل بعدها أربثنوت ودكتور حبيب عبد الله إلى بئر المشنقة . وكشف دكتور حبيب على الجثة ليصدر عقب ذلك قرارا بأن إزبوني فارق الحياة «شنقا حتى الموت» كما نص الحكم الذي أصدرته المحكمة . لقد لازمني شبح إزبوني وهو ينتفض يمينا وشمالا زمنا طويلا .وعندما استرجع المشهد اليوم يقشعر بدني من هوله ، وأتمني لو ألغيت عقوبة الاعدام جملة وتفصيلا بغض النظر عن وسائل تنفيذها . ومهما يساق في تبريرها فإنها جريمة ضد الإنسان وفيها امتهان لآدميته . سألت مرة أحد قضاتنا الأفاضل ، فرد على بأنه أصدر خلال حياته العملية عددا من الأحكام بالإعدام ونفذت بالفعل ، لكنه ما كان ليجرؤ على الحكم بالإعدام لو أوكل إليه أمر تنفيذه بدلا من العشماوي!! إن السجين يفرج عليه متي ثبتت براءته ولو بعد سنوات طويلة ، وقد يدفع له تعويض سخي عن السنوات التي أمضاها في السجن . أما الذي ينفذ حكم الإعدام عليه فلا سبيل لعودته للحياة إذا ثبت بعد اعدامه أنه مظلوم ، وبريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب!! سألني الرئيس السابق جعفر نميري مرة عن صدي إعدام الثلاثة (الشفيع وعبد الخالق وغرانغ) في بريطانيا فقلت له إن الناس هناك يرفضون أحكام الإعدام الصادرة من قضاة محترفين ، فكيف بها إن صدرت من قضاة غير محترفين ، وحرم المتهمون من حق الاستعانة بمحامين يدافعون عنهم؟؟

كانت جوبا في تلك الأيام محطة مهمة في طريق الطائرات بين أوروبا ووسط افريقيا وجنوبها ، تغشاها جيئة وذهابا للتزود بالوقود ، ويبقي ركابها وطاقمها ساعات في فندق جوبا لتناول المرطبات أوالوجبات ، وفي بعض الأحيان يمضون الليلة لاستئناف رحلتهم فجر اليوم التالي . وفقدت جوبا هذه المكانة عقب ظهور الطائرات النفاثة التي تقطع الرحلات الطويلة رأسا دون حاجة إلى الهبوط خلالها للتزود بالوقود . وبخلاف طائرات الخطوط الجوية السودانية ،كانت تغشي جوبا بانتظام طائرات الخطوط الجوية الأمبرطورية البريطانية (BOAC) والخطوط الجوية البلجيكية (سابينا) . وذات صباح رفض كابتن الطائرة البريطانية التوقيع على فاتورة الفندق التي قدمتها إليه ، قائلا إنه لا يتعامل مع أمثالي من السود القذرين ، وراح يكيل لي في انفعال شديد ، الشتائم يمينا ويسارا . ثم أطبق على عنقي ووجدت نفسي في لمحة عين ، في وضع لا يحسد عليه في الجانب الآخر من الكاونتر . كان الكابتن عملاقا قوي البنية ، ولم ينقذني من بطشه إلا ظهور ضابط البوليس ، مايكل ضيف الله في كامل زيه الرسمي . جاء كعادته صباح كل يوم في طريقه إلى مكتبه لتناول الصبوح في تيراس الفندق . حاول مايكل أولا تهدئة الكابتن ، لكن الكابتن ازداد هياجا وانفعالا ، ولوح أكثر من مرة بقبضته في وجه مايكل . وتحدث مايكل هاتفيا ، مع مكتبه طالبا ارسال قوة مسلحة ، وقال للكابتن بلهجة الآمر إن عليه أن يعتذر للفندق ويوقع على الفاتورة ، وإن لم يفعل ذلك سيصبح عرضة للاعتقال بموجب القانون ، ولن يسمح للركاب بمغادرة الفندق ، أو للطائرة بمغادرة جوبا . استعرض مايكل رجال الشرطة الثمانية الذين وصلوا ببنادقهم أمام الكابتن ومن معه في مشهد مهيب كان بمثابة استعراض صادق للعضلات . ثم أمر اثنين منهم بالوقوف أمام مكتبي ، بينما وقف الباقون عند باب الفندق الرئيسي ، ولديهم تعليمات صريحة بمنع أي أوروبي (خواجة) من الخروج . وفات موعد قيام الطائرة ، وجاء محمد سعيد أبو ظعبوط مدير المطار مستفسرا . ولما علم بالأمر أبلغ الكابتن بأنه لن يسمح هو الآخر أيضاً للطائرة بالإقلاع . وفي النهاية لم يجد الكابتن مفرا سوى الإذعان تحت التهديد وإلحاح الركاب ، وطلب مني في غطرسة

إعطاءه الفاتورة للتوقيع عليها . وما أن فعل الكابتن ذلك حتى فاجأته بالبصق عليه بصقا ناشفا لكنه مدويا كالقنبلة ومشحونا بكل معاني التقزز والاحتقار ، وأتبعته بسيل جارف من الشتائم الأفرنجية والعربية .وبدت على وجه الكابتن مظاهر الغضب ، وكاد أن يفقد أعصابه من هول المفاجأة لكنه لم يجرؤ على الرد فقد كان الشرطيان المسلحان واقفين على يمينه ويساره أمام الكاونتر . وتعمد أبو ظعبوط في المطار تأخير الطائرة لمدة أربع ساعات على الأقل . في المرة الأولى طلب من الكابتن إبراز وصل يثبت أنه سدد ما عليه للفندق ولما لم يكن لديه وصل جاء معه إلى الفندق ليتأكد من توقيعه على الفاتورة .وافتعل أبو ظعبوط أسبابا أخرى لمزيد من التأخير ، آخرها انشغال العاملين في برج المراقبة بأداء صلاة الظهر!! وأبو ظعبوط رياضي معروف منذ عهد الدراسة في كلية غوردون ، ويعتبر أشهر حارس مرمي في تاريخ كرة القدم في السودان ، إذ كان أول وآخر من صد ضربة جزاء أرسلها طلعت فريد في مرماه . ودفع أبو ظعبوط ثمنا لذلك تهشم أصابع يديه ولم تفلح الجراحة في اصلاح ما نالها من إعوجاج .

كانت الطائرة يومذاك في طريقها إلى جوهانسبورج ، ولا أذكر إن كانت تابعة للخطوط البريطانية ، أم لجنوب افريقيا . أما الكابتن المتغطرس فقد كان يشبه إلى حد كبير قامة ووجها ونطقا إيان سميث آخر رئيس وزراء في عهد حكم البيض العنصريين في روديسيا (زمبابوي الآن) ، والمعروف أنه طيار اشترك في الحرب العالمية الثانية ثم عمل طيارا مدنيا قبل انخراطه في العمل السياسي . وبقي إيان سميث في الحكم إلى أن طردته الأغلبية السوداء ، وخرج مثلما خرج من فندق جوبا مصحوبا مرة ثانية بالبصق واللعنات!!

وصل إلى جوبا بعد هذا الحادث بأسابيع قليلة ، الشيخ على عبد الرحمن قاضي شرعي الجنوب في أول زيارة له للمديرية الاستوائية ، وهو أول من شغل هذا المنصب الجديد آنذاك .اتخذ شيخ على من ملاكال عاصمة مديرية أعالي النيل مقرا رئيسيا له ، ربما لأن في جوبا الشيخ سمساعة مبعوث الأزهر المقيم . لكن أغلب الظن أنه اختار ملاكال ليكون قريبا

من المصريين العاملين في محطة الري المصري في ملاكال . استقبلت جوبا شيخ على استقبالا حافلا . وأقمنا له حفل تكريم (شاي ومرطبات) في فندق جوبا ، ألقيت فيه كلمة الترحيب نيابة عن المحتفين .لم يخف شيخ على وبعض الحاضرين امتعاضهم عندما تعرضت في كلمتي لمطالب الجنوبيين ، وقلت أن حاجتهم إلى تحسين أحوالهم المعيشية ، يجب أن تأتي قبل المحاكم الشرعية وتعليم اللغة العربية ، وأن الحكومة تعلم ذلك لكنها ترمي بتركيزها على هذه الأمور الثانوية جدا إثارة حفيظة الجنوبيين على الشماليين عاجلا أو آجلا!! يبدو أن تلك الكلمة أصبحت خميرة جفاء متبادل بيني وبين الشيخ على عبد الرحمن أمدا طويلا ، على نحو ما سيلاحظه ركاب قطار العمر لاحقا . والشيخ على أحد القضاة الشرعيين الأربعة في حزب الأشقاء .الثلاثة الآخرون : محمد أحمد المرضي ، وعبد الإله أبوسن ومدثر البوشي ، الذي كان أقربهم إلى اسماعيل الأزهري .أما الشيخان على والمرضي فقد كانا في قلب الخلية الداخلية لحزب الأشقاء . وأطلعني سير وليام لوس – آخر إداري بريطاني غادر السودان – مرة على تقرير سري عنهما لا يصلح كله للنشر . ومما جاء فيه أن الشيخ على عضو نشط في مؤتمر الخريجين يأتي إلى العاصمة مراراً على قطارات نقل المواشي من مقر عمله في كوستي لحضور اجتماعات المؤتمر . وجاء في التقرير أن الشيخ على عبد الرحمن قام في عام ١٩٤٦ بزيارة مدينة سنكات وعمل على تسميم الأجواء فيها وفي كسلا بين الختمية وبرودبنت نائب المدير الجديد . ولما أصبح قاضيا شرعيا في ملاكال عمل على ترويج الدعايات المصرية خلال جولاته في الجنوب . وجاء في التقرير أيضاً إن الشيخ على عبد الرحمن يعتبر دائما واحدا من مدفعية المؤتمر السرية الثورية ، ويعلم أسراره الدفينة غير المدونة التي لا يعرفها إلا قليلون . ثم يعرج التقرير على الشيخ محمد أحمد المرضي فيصفه بأنه مخلب قط للشيخ على وإنه يعيش في القضارف التي يعمل فيها قاضيا شرعيا حياة عصرية!! ويتهمه التقرير بتنظيم النشاط الشيوعي هناك وبأنه شوكة موجعة في جنب مستر وير مفتش المركز ، الذي يعلم – كما جاء في التقرير – كل شيئ عن شيخ المرضي .

وأتيحت لي في تلك الأيام زيارة مدينة بور وأورد في ما يلي خلاصة ما كتبته عن تلك الزيارة في صحيفة السودان الحديث في ابريل عام ١٩٩٢ تحت عنوان «جيش منصور ... وعدو مقهور» بمناسبة استرجاع بور من أيدي المتمردين :

« ظلت بور طيلة حقبة الحكم الثنائي مركزا مغلقا بالضبة والمفتاح داخل منطقة الجنوب الخاضعة لقانون المناطق المقفولة وكأنها علبة مسدودة في بطن قمقم مختوم .لم يكن مفتشها البريطاني (ميجر كمنز) يأذن لأحد بدخولها إلا في حدود ضيقة للغاية ، ولا يستثني من ذلك حتى أبناء جلدته البريطانيين . لقد كان في الواقع دكتاتورا متعسفا ومتهورا جدا . وغاية القول إن مركز بور كان حكومة داخل حكومة وكان الميجر كمنز ملكيا أكثر من الملك . جاهر برفضه لقرار مؤتمر جوبا الذي بارك الوحدة بين الجنوب والشمال ، كما رفض الانصياع لقرار حكومة الخرطوم بإلغاء قانون المناطق المقفولة ، ورفض كذلك طلبا تقدم به الشيخ الياس كبير تجار بور لبناء جامع فيها ذي مئذنة .

وفي الوقع أن ميجر كمنز انخرط منذ وصوله إلى بور ، في حملة محمومة ضد تجارها الشماليين مما دفع كثيرين منهم إلى تصفية أعمالهم ، والهجرة منها . كما لم يسمح لأبناء الشيخ الياس (محمد وعبدالله والفاتح) بعد إكمال تعليمهم في الشمال بالبقاء في بور لمساعدة أبيهم في تجارته الواسعة التي أفني في سبيلها زهرة شبابه . وإزاء ذلك اضطر الأبناء الثلاثة للارتحال إلى جوبا وأمادي ، وأكبرهم محمد من خريجي كلية غوردون التذكارية بينما تخرج عبد الله من مدرسة التجارة في أم درمان والفاتح من مدرسة الأحفاد الوسطى .

زرت بور في شتاء عام ١٩٤٧ في رحلة صيد قام بتنظيمها مكي النور عنقرة لنفر من هواة الصيد الأمريكيين ، بينهم عضوان في الكونغرس . ومكي صياد ماهر خبير بمواقع الصيد في الجنوب ، وكان بارعا في الرماية . وقد طبقت شهرته الآفاق .كان هواة الصيد يأتون إليه في مواسم الشتاء من أمريكا وأوروبا وأصبح ذلك مصدر رزقه إلى جانب منجم صغير للذهب في

كبويتا ، يديره ابنه روشان . جاء مكي في الأصل إلى الجنوب ضمن خدم إداري بريطاني ، ولما تقاعد الإداري كافأه كعادة الإداريين مع خدمهم بمنحه رخصة تجارية . وهنالك كثيرون ولجوا ميدان التجارة في الجنوب عن هذا الطريق مثل محمد أحمد عكاشة سر تجار جوبا ، وعمر محمد عمر أغني تجار الجنوب على الإطلاق ، وقد أسس عمر على حسابه أول مدرسة أهلية وسطى في الخرطوم عرفت باسمه . كانت الرخصة التجارية في ذلك العهد في مناعة أنف الأسد لا يطمع في نيلها أي شمالي بسبب قانون المناطق المقفولة .

ولست بحاجة إلى القول بأن مكي - كما يظهر من اسمه - نجل الأمير النور بك عنقرة أحد القادة العسكريين في الثورة المهدية ، وكان قبل مبايعته الإمام المهدي من كبار موظفي الحكومة المصرية التركية في دارفور .

طلب مكي النور مني مرافقتهم في الرحلة لأنه لا يتكلم الإنجليزية ، ولم ينل أي حظ من التعليم في صغره . واستغرقت الرحلة نحو اسبوعين أمضينا ثلاثة أيام منها في ضيافة ميجر كمنز في استراحة الحكومة ، في مدينة بور . ودعانا في إحدي الأمسيات إلى العشاء في داره المطلة على النيل ، وشدت انتباهي على صدر الصالون لوحة للمسيح عليه السلام وهو مصلوب وحوله الجلادون ... المسيح أسود اللون ، والجلادون ملامحهم عربية سودانية يرتدون الجلابية والعمامة بالإضافة إلى الشلوخ على الخدين !! علق أحد الأمريكيين على اللوحة بأن مضمونها يتناقض تناقضا بينا مع ما جاء في الكتاب المقدس ، ورواه المؤرخون . شرحت لهم من جانبي ما ذكره القرآن والمؤرخون الإسلاميون عن واقعة صلب المسيح عليه السلام . وانفجر الجميع ضاحكين عندما أبدت سارة كير الأمريكية في سخرية بالغة تخوفها من أن تصبح اللوحة وثيقة يستند السودان إليها في المطالبة بأرض الميعاد ، حيث جرت واقعة الصلب لا سيما أن أحد الجلادين يشبه إلى حد كبير مستر النور!! قلت للمستر كمنز إنني أخشى عليكم من يوم يتحول فيه الحقد الذي زرعتموه في نفوس الجنوبيين إلى حقد جارف ضد البريطانيين .

وامتدت سهرتنا إلى ما بعد منتصف الليل . كانت سارة كير واسطة العقد بجمالها الصارخ ونكاتها التي كانت تطلقها في سخاء ودون حياء . لكن ما يهمني الآن بمناسبة استرجاع بور ما قاله ميجر كمنز في تلك الليلة مما جعلني عند استعادته بعد أربعين عاما أصل إلى اقتناع بأن بور لم تصبح اعتباطا المعقل الرئيسي لحركة التمرد في الجنوب . قال مستر كمنز يومذاك إن مركز بور أكبر مراكز الدينكا وأغناها ، وسوف يعمل في حالة فشل السياسات الانفصالية على قيام دولة الدينكا المستقلة وعاصمتها بور ، وستكون عضوا في الكومونويلث ، وقال ميجر كمنز إن أمنيته أن يصبح لورنس افريقيا أسوة بلورانس العرب . ومن رأيه أن من المستحيل قيام دولة موحدة في السودان تضم الشماليين والجنوبيين نظرا لما بينهما من فوارق عرقية ودينية . وبهت ميجر كمنز عندما لفت أحد الضيوف نظره إلى أن مثل هذه الفوارق قائمة في أمريكا ، ولم تحل دون انضواء الجميع تحت راية دولة واحدة عاصمتها واشنطون .

محطة ٧

*** مقاومة الجمعية التشريعية * المظاهرات في عاصمة الحديد والنار * سجن الدامر * قاسم أمين وعبد القادر سالم * في رفقة توفيق صالح جبريل * حكايات وخرافات وأساطير من السجن * حركة ١٩٢٤ ما لها وما عليها.**

تركت جوبا بعد شهور حافلة بالعمل السياسي والاجتماعي ، وعلي خلاف تجاربي السابقة في العاصمة ألفيت نفسي هناك في مكان الصدارة أو في المقاعد الأمامية ، وبين يدي عجلة القيادة أديرها وحدي أو بالاشتراك مع زملائي من القياديين الجنوبيين في معظم الأحيان . وكلهم باستثناء إستانسلاوس شباب في مثل سني نعمل جميعا على هدف مشترك ، يتمثل في إنهاء الحكم الثنائي ووحدة السودان جنوبا وشمالا . تصدينا بصفة خاصة لمحاولات الهيئات التبشيرية المسيحية عن طريق مستر أوين نائب المدير في واو ، للحيلولة دون اشتراك الجنوبيين في الجمعية التشريعية المقترحة للسودان كله ، بدلا من المجلس الاستشاري القاصرعلي الشمال . من رأي الهيئات التبشيرية المسيحية الاكتفاء بمجلس استشاري فقط للجنوب وحده ، يسمح له في ما بعد بإرسال أعضاء مراقبين للجمعية التشريعية في الخرطوم . ومن الواضح أنها حركة التفاف حول قرارات مؤتمر جوبا ، التي نصت على وحدة السودان . كان مستر أوين كثير التردد على جوبا عاصمة المديرية ، والتقيت معه مرة في دار مستر أربثنوت ، ودار بيننا نقاش حول مشاركة الجنوبيين في الجمعية التأسيسية .كان موقفي حرجا للغاية بسبب قرار حزب الاتحاديين وأحزاب الحركة الوطنية الأخرى مقاطعة الجمعية التشريعية ، جملة وتفصيلا ، تحت شعار نقاطعها ولو جاءت مبرأة من كل عيب!! قلت للمستر أوين إن

الأسباب التي دفعتنا لمقاطعة الجمعية التشريعية هي نفس الأسباب التي تدفعنا إلى الحرص على مشاركة الجنوبيين مشاركة فعالة في الجمعية ، لأن وحدة السودان جنوبا وشمالا تأتي قبل الاتحاد مع مصر الشقيقة . بل لا معنى لهذا الإتحاد في حالة انفصال الجنوب وبالتالي ضياع المصدر الرئيسي لمياه النيل . تحدث مستر أوين في خبث عن مخاوف الجنوبيين ، وعدم ثقتهم في الشماليين الذين سيتغولون عليهم حتما في ظل الوحدة . وأثار قضايا أخرى يمكن تبينها من ردي عليه حيث قلت له إن الجنوب ليس وحده منطقة متخلفة ، فهنالك جهات أخرى عديدة في الشمال أشد تخلفا منه لم تنل من الخدمات في مجالات الصحة والتعليم ما يناله الجنوب . وما يقال عن الرواسب التي خلفتها تجارة الرقيق فإنها مجرد أوهام يعمل المبشرون المسيحيون على تجسيمها لدعم دعوتهم إلى الانفصال . وهي فوق ذلك أمر انقضى عهده ، ولم تكن تجارة الرقيق قاصرة على السودان وإنما كانت هنالك دول أطول منه باعا على رأسها بريطانيا . بل إن تجارة الرقيق من افريقيا إلى أمريكا الجنوبية كانت حكرا للكاثوليك الجيزويت . وإذا كان الجنوبيون يخشون حقا من هيمنة الشماليين واضطهادهم ، فإن ذلك لا يمكن فصله عن الأوضاع المزرية التي لا تزال مفروضة على الافريقيين في أمريكا الجنوبية والولايات المتحدة الأمريكية . وحري بالجنوبيين أن ينظروا إلى أبناء جلدتهم المقيمين في الشمال ، ممن جيء بهم أو بأسلافهم إليه بسبب القرعة (التجنيد الاجباري) في مصر أو تجارة الرقيق . لقد انصهر أولئك في المجتمع في مدن الشمال وأريافه ، ويعيشون بين ظهرانينا في ظل المساواة الكاملة ، دون أي تمييز في الحقوق والواجبات .وباءت بفشل ذريع محاولات الحكومة لتجنيدهم في الحزب الانفصالي الذي أنشأته في العاصمة بزعامة دكتور محمد آدم أدهم والشاعر عبد القادر عبد النبي مرسال .

على أية حال تركت جوبا بعد المماطلة الطويلة من جانبي ، والإلحاح المتواصل من جانب مستر تيلور مراقب مصلحة المرطبات ونائبه عبد المجيد ماهر ، إذ كانا يخططان لإيفادي في بعثة إلى أوروبا لدراسة إدارة الفنادق في إطار مشروعات السودنة ، التي اتجهت الحكومة

لتنفيذها في تلك الأيام . وكان مديرو الفنادق التابعة لمصلحة المرطبات أوروبيين ، وكنت أنا الموظف السوداني الوحيد من خريجي كلية غوردون . ولدي وصولي إلى الخرطوم وجدت عبد المنعم حسب الله في سجن كوبر ، فحللت مكانه سكرتيرا لشباب حزب الاتحاديين ومندوبا مع عبد الله ميرغني عن الحزب في جبهة الكفاح الداخلي ، التي تشكلت من الأحزاب الاتحادية لإدارة حملة مقاطعة الجمعية التشريعية . وتضم الجبهة بخلاف حزب الاتحاديين ابرهيم المفتي ومبارك زروق وحسن أبوجبل ومحمد عبد الحليم عتباني ومحمد نور الدين وخضر عمر عن حزب الأشقاء ومؤتمر الخريجين ، والدرديري أحمد اسماعيل وعبد الحميد أبو القاسم عن حزب وحدة وادي النيل ، وأحمد على السنجاوي والطيب محمد خير عن حزب الأحرار الاتحاديين . أسندت سكرتارية الجبهة إلى خضر عمر . وأصدرت الإدارة االبريطانية في شهر سبتمبر من ذلك العام (١٩٤٧) بيانا أعلنت فيه عزمها على المضي قدما في إقامة جمعية تشريعية ، تنفيذا لتوصيات مؤتمر إدارة السودان .قابلت الأحزاب الاتحادية البيان بالرفض والتهديد بالمقاطعة ، بحجة أن الجمعية ستكون هيئة تمثيلية إسما ومعينة بالفعل . كان من رأينا في حزب الاتحاديين أن النظم الديمقراطية الدستورية ، إذا لم تقم في ظل الحرية الكاملة تصبح عائقا في طريق التقدم ، وإن أية خطوات دستورية تتخذ قبل تصفية الحكم الثنائي ستكون مجرد عبث بإرادة شعب السودان والتغرير به لتحقيق مآرب الا ستعمار وسياساته . ووصفت في مقال في صحيفة اللواء الجمعية التشريعية بأنها ستكون حتما مسلوبة الإرادة وعديمة الاستفادة ، وأن المؤسسات الدستورية التي تقيمها الإدارة البريطانية الاستعمارية وصولا إلى الحكم الذاتي في آخر المطاف لا تهمنا بقدر ما تهمنا الديمقراطية التي تعني الحرية والعدل والمساواة .

وتقدمت الحكومة المصرية بمشروع مضاد ، أبدت فيه تمسكها بالعودة لمجلس الأمن الذي اكتفي بتعليق قضية السودان ، متهربا من اصدار ما كنا نرجوه من حكم تقتضيه العدالة ، ويفرضه حق السودان في التحرر من الاستعمار .طالب المشروع المصري بسودنة جميع

وظائف الحكومة باستثناء مناصب الحاكم العام وأعضاء مجلسه الأربعة . كما اقترحت مصر في مشروعها تعديل قانون الانتخابات ، على نحو يحقق التمثيل الصحيح للشعب السوداني . وقوبل المشروع كما كان متوقعا بالقبول من جانب اسماعيل الأزهري بوصفه رئيسا لوفد السودان ، ومؤتمر الخريجين ، وحزب الأشقاء . لكننا رفضنا المشروع في جبهة الكفاح جملة وتفصيلا من ناحية المبدأ ، دون الخوض في تفاصيله بحجة أن مهمتنا تنحصر في مقاومة الجمعية التشريعية ، وأن المشروع المصري بغض النظر عن محاسنه ومثالبه يضفي الشرعية على نظام الحكم الثنائي ، ولا يدعو من قريب أو بعيد لتصفيته . ووجهت الجبهة بيانا إلى الشعب السوداني جاء فيه : إنها أخذت على عاتقها إحباط مشروعات السودنة الاستعمارية الضارة بالبلاد ومصيرها ، وإحباط الجمعية التشريعية ومجلسها التنفيذي ، بكل الوسائل التي تراها نافعة . كما حملت الجبهة على قانون جديد سنته الحكومة في تلك الأيام يحظر على موظفيها العمل السياسي . وسبق عرض المشروع المصري علينا في حزب الاتحاديين ، وتشعبت الآراء حوله لكنا اتفقنا في النهاية على رفضه لأنه لا يحقق المطلب الأساسي المتمثل في قيام الحكومة السودانية الديمقراطية الحرة المتحدة مع مصر . كما أن المشروع يثير الشكوك ويقوي المزاعم القائلة بأن مصر إنما قصدت من وراء مشروعها استرضاء الحكومة البريطانية ، مقابل التسليم بالجلاء الفوري عن مصر مع تأجيل البت في قضية السودان إلى أجل غير مسمي . ولن أعرض لتفاصيل المشروع المصري ، لكن يمكن استخلاص فحواه من خلال استعراض البيان الذي أصدره في هذا الشأن عبد الله ميرغني سكرتير عام حزب الاتحاديين معبرا عن موقف الحزب .

جاء في البيان : أن للمشروع المصري مزايا وحسنات لدي مقارنته بمشروع حكومة السودان الهزيل وتتلخص في مطالبة الحكومة المصرية بحق السودانيين في حكم أنفسهم ومنحهم كل مناصب الحكومة في غضون ثلاث سنوات انتقالية وهذا أمر طبيعي في نظر السودانيين بينما يراه الإنجليز قفزة انقلابية غير طبيعية بدليل ما جاء على لسان سير ألكسندر

كادوغان السفير البريطاني لدي الأمم المتحدة . وأبدي الاتحاديون بصفة خاصة ارتياحهم لحرص المشـروع المصري على «ضرورة كفالة الحريات العامة كخطوة أولى لقيام أي نظام ديمقراطي في البلاد .»

ثـم عـرج البيان على عيوب المشروع المصري مبديا أسفـه ، لأن المشروع لم يحدد أمدا لنظام الحكم المقترح في ظل الجمعية التشريعية مما يضمن للحكم الثنائي صفة الاستمرار لمدة ست سنوات على الأقل بينما يجمع السودانيون على ضرورة الاعتراف بإنهاء الحكم الثنائي فورا وتسجيل ذلك دوليا .

ومـن عيـوب المشروع المصري أيضـاً إغفاله المطالبة بوضع قانـون للانتخابات يضمن تمثيـل السودانيين تمثيلا صحيحا . كما أغفل تفاصيل أهلية الناخبين ، ومؤهلات المرشحين ، وكيفيـة تجنب تدخل الإداريين في العمليـة الانتخابية . ومن ناحية أخرى يرفض الاتحاديون إشارة المشروع المصري إلى وجوب عرض القوانين التي تصدرها الجمعية التشريعية على دولتي الحكـم الثنائي ، كمـا يأخذون على المشروع عدم النص على قدسيـة وحدة السودان شماله وجنوبه ، ممـا يهدد بامكانية استخدامه كأداة دستورية للانفصال عن مصر . ويري الاتحاديون وجـوب ترك هذه الأمور للجمعيـة التأسيسية ، التي ستقوم مباشرة عقـب الاعتراف بإنهاء الحكم الثنائي .

ومـع اقتراب موعد اجراء انتخابات الجمعيـة التشريعية ، انتشرت المظاهرات في كافة المدن تأييدا للمقاطعة ، لكن أعنفها كان في مدينة أتبرا عاصمة الحديد والنار في منتصف مايو ١٩٤٨ . هذه المظاهرة دعت لها اللجنة الفرعية لمؤتمر الخريجين بزعامة سكرتيرها أحمد حسين الرفاعـي ، لكن الفضل في تنظيمهـا وحشد الجماهير وقع بصفة رئيسيـة على عاتق أعضاء حـزب الاتحاديين في أتبرا ، الذين يشكلون أكبر تجمع فعـال للحزب خارج العاصمة المثلثة ، وجميعهـم من رواد الحركة العمالية أمثال قاسم أمين والشفيع أحمد الشيخ وتاج السرحسن آدم وابرهيـم زكريا ، والأستاذان محمد سعيد معروف ومصطفي عبد القادر الجعفري سكرتير

اللجنة الفرعية لحزب الاتحاديين . كان من الممكن أن تمر المظاهرة بسلام دون اشتباكات عنيفة بين الشرطة والمتظاهرين ، لولا تصرفات مستر هيغ مفتش المركز البريطاني المشهور بين زملائه بلقــب «فــأر الكنيسة» بسبب غبائه وحماقته . أذن مستر هيغ في البداية بتسيير المظاهرة ، ثم أرسل عشية خروجها المتفق عليه خطابا للرفاعي ، يخطره بسحب الإذن بحجة أن المفاوضات الدائــرة في القاهــرة في تلك الأيام حول الجمعية التشريعية ، تجعل من غير المناسب التصديق بمظاهــرات لمعارضيهــا أو مؤيديهــا . وبالطبع لم تتمكن لجنة المؤتمر مــن اخطار جماهيرها نظرا لضيق الوقت . وأخذت الجماهير تتدفق على الميدان منذ ساعات الصباح وهي تردد الهتافات ونشيــد المؤتمر «للعلا» . ولما حــان موعد خروج المظاهرة في الساعة العاشرة وقف الرفاعي فيهم خطيبــا ، وأخطرهــم بقــرار مفتش المركز ، وقال في عبــارات حماسية مؤثــرة إن الكلمة الآن للشعــب فتعالــت الهتافات «مظاهــرة ... مظاهرة» . وتحركت الجموع الهــادرة على الفور إلى مبــاني المركــز عبر منطقة السوق ، وواصلت السير حتى بوابة حــرم محطة القطارات . وهناك اعترضتهــا قــوة مسلحة من رجال الشرطــة ، بقيادة القومندان البريطــاني يرافقه مستر هيغ ، للاستعانة به عند اللزوم - بوصفه قاضيا من الدرجة الأولى - على إصدار أوامر الاعتقال أو اطــلاق النار على المتظاهرين . طلب القومنــدان من الرفاعي توجيه نداء للمتظاهرين بالتفرق مهــددا بتفريقهــم بالقوة إن لم يفعلوا . وطلب الرفاعي من القومنــدان تراجع قوة الشرطة أولا بعيــدا عن المتظاهرين ، فتراجعــت من مكانها خطوات إلى الوراء . غــير أن الجماهير الهادرة الفائــرة لم تستجب للنداء ومضت في طريقها إلى الأمــام ، فانقضت الشرطة عليهم بهراواتها والغازات المسيلة للدموع . ونشبت معركة حامية بين الجانبين ، كاد عبد القادر سالم أن يكسر فيهــا عنــق القومندان البريطاني ، لولا ارتخاء السير الذي يشــد خوذته حين ألقاه عبد القادر على الأرض وجثم فوقه ، بينما انهال رجال الشرطة على عبد القادر ضربا بهراواتهم لتخليص قومندانهم من قبضته دون طائل .لم يدع عبد القادر سالم القومندان إلا بعد أن فقد الوعي تماما وحسبه فارق الحياة . وخلف الضرب على ظهر عبد القادر نتوءات مستديرة في

حجم ثمرات الليمون لازمته طيلة حياته . ولم تجرؤ الشرطة على الاقتراب من عبد القادر لاعتقاله فقد كان في أتبرا كالأسد الورد تهابه سائر الوحوش في الغابة وترهب صولاته . أسفرت الاشتباكات في ذلك اليوم عن نحو خمسين جريحا من المدنيين ، بينهم عشرون أصيبوا بجراح خطيرة تبرع الدكتور بتريدس اليوناني بعلاجهم مجانا . وبلغ عدد المعتقلين خلال المظاهرة نحو ثلاثين بينهم الرفاعي . أما عبد القادر سالم فقد قامت قوة مسلحة من الشرطة بمداهمة منزله واعتقاله في اليوم التالي في منتصف الليل !!

وأصدرت الحكومة في الخرطوم بيانا وصفت فيه الأحداث بأنها مجرد شغب من عمل الغوغاء . بينما أرسلت لجنة المؤتمر الفرعية برقيات عاجلة إلى الملك فاروق ورئيس الوزراء المصري وإلى السكرتير الإداري واتحاد الصحافة في الخرطوم ، نددت فيها بسلوك الشرطة واستفزازها للمتظاهرين دون مبرر . وقدم المعتقلون للمحاكمة أمام هيغ ﴿فأر الكنيسة﴾ بوصفه قاضيا من الدرجة الأولى . واستغرقت المحاكمة أربعة أيام تحت حراسة مشددة ثم صدرت الأحكام على النحو التالي :

* قاسم أمين نائب سكرتير هيئة شئون عمال السكك الحديدية ٢٤ شهرا سجنا و١٠ جنيهات غرامة

* عبد القادر سالم ٣ ستوات سجنا و١٠ جنيهات غرامة

* عبد اللطيف ربيع ٦ أشهر سجنا

* أحمد حسن أحمد سنة سجنا و٢٠ جنيها غرامة

* حسان محمد أحمد وأحمد طه صالح وعبد الله مشالي ومحمد حسب الله وعثمان الزين ٣ أشهر سجنا لكل منهم .

أحمد حسين الرفاعي ١٥ جنيها غرامة وفي حالة عدم الدفع ٣ أشهر سجناً .

وبرأ القاضي ساحة سليمان موسي رئيس هيئة شئون العمال الذي دافع عن نفسه بأنه جاء إلى المظاهرة بصفته الشخصية لفضها بعد تهديد الشرطة باستخدام القوة .

نقل جميع السجناء فور صدور الأحكام إلى السجن في مدينة الدامر .وتلقي قاسم في اليوم نفسه برقية مطولة من أبيه الشيخ محمد الأمين قال فيها «السجن عرين الأبطال المكافحين عن الأوطان» وتم في مرحلة الاستئناف تخفيض الحكم ضد قاسم أمين إلى سنة ونصف وعبد القادر سالم إلى سنتين وفصل سليمان موسي عن الخدمة في ورش السكك الحديدية مع منحه راتبه لمدة سنتين . عرفت سليمان موسى أول مرة قبل نحو عام من تلك الأحداث عندما أجريت معه في أتبرا مقابلة لصحيفة الشباب التي يصدرها في تلك الأيام عثمان أحمد عمر (عفان) . كانت هيئة شئون العمال حينذاك في أوج قوتها ، تكفي كلمة واحدة من رئيسها سليمان موسي ، لشل نشاط السكك الحديدية برا ونهرا ، من حلفا شمالا حتى نيمولي جنوبا مرورا بملاكال وجوبا ، ومن بورتسودان وكسلا شرقا حتى الأبيض غربا مرورا بالخرطوم ومناطق الإنتاج في القضارف والجزيرة المروية . كانت الإدارة البريطانية تضع ألف حساب لهيئة شئون العمال ، وتخشاها أكثر مما تخشي سائر الأحزاب السياسية في ذلك العهد ، لدور السكك الحديدية الاقتصادي خاصة نقل المنتجات الزراعية ومنها القطن للمصانع البريطانية فضلا عن أنها عامل حيوي لحفظ الأمن وإدارة البلاد . إذن لا غرابة في انهيار الأمن والإدارة في السودان منذ انهيار السكك الحديدية التي كانت بلا نزاع أوسع شبكة للخطوط الحديدية في القارة الإفريقية ، فضلا عن أسطولها النهري من أسوان إلى حلفا ، وبين الخرطوم وجنوب البلاد . ترتبط شخصية سليمان موسي في أتبرا برفيقه المناضل ابرهيم المحلاوي زعيم حزب الأشقاء .قال أنتوني مان في كتابه الساخر «عندما ضحك القدر» إن سليمان يبدو في جلبابه الأبيض والعمامة ، كحاو قادم من الهند ، بينما يبدو المحلاوي إلى جنبه بطربوشه كصبي الحاوي . أما عبد القادر سالم بطل المظاهرة بلا نزاع فقد وصفه قومندان الشرطة خلال المحاكمة بأنه رجل مخيف غير عادي كان أثناء المظاهرة يلتقط القنابل المسيلة

للدمــوع في الهواء قبل سقوطها وســط المتظاهرين ويردها بسرعة إلى جمــوع الشرطة فتنفجر بينهــم . ويحتل اسم عبد القــادر مكان الصدارة في سجل النضال الوطني في عاصمة الحديد والنار منذ التحاقة بالعمل هناك في ورشة السيمافورات في أوائل الثلاثينات . وهو صانع ماهر في الأشغــال الحديدية وخاصة صناعة الخزائن واشتهر بصنع ميداليات من النحاس لتعليقها علــى الصدور خلال المظاهرات تحمل شعارات وطنيــة مكتوبة بلون فضي مثل «الله أكبر» أو رسمــا منقوشا ليديــن متصافحتين رمزا للوحدة والتضامن . كان مجــرد ذكر اسم عبد القادر سالم يثير الرعب بين العمال المتخاذلين المتخلفين عن الإضرابات ويطاردهم شبحه ليلا ونهارا رهبة من صولاته وخوفا من قوته وجبروته وربما كان لانتمائه في فجر حياته لحركة مصر الفتاة المتطرفة أثر في سلوكه .

مع اقتراب موعد الانتخابــات للجمعية التشريعية ، اشتد التوتر على الساحة الوطنية في سائــر أنحاء البلاد وتصاعدت المشاعر الوطنية إلى أوجها ، وتواصلت اجتماعاتنا في جبهة الكفــاح في شيــخ الأندية كل ليلة دون انقطاع . لم تفتني جلسة واحدة رغم أني كنت مقيما في الفنــدق الكبــير في الخرطــوم . وعندما يغيب عبد الله ميرغني يحــل مكانه حسن أحمد عثمــان (الكد) أو حسن زيادة وفي بعض الأحيان محمد خليل جبارة . لقد اجتذبني العمل في جبهــة الكفاح إلى حد استقلت فيه من مصلحــة المرطبات ، وأصبحت «مشاغبا متفرغا» كمــا قال لي مفتشــ أم درمان البريطاني ، عقب اعتقالي في إحــدي المظاهرات . رفض مستر تيلــور مدير المصلحــة أولا قبول استقالتي ، لأنه كان يري في بقائــي مستقبلا باهرا ، إذ كان كل العاملــين فيهــا إما عصاميون أو ممن أكملوا التعليم الأوســط على الأكثر ، ولم يقبل أحد غــيري مــن خريجي كلية غوردون العمل فيها . قال مستر تيلــور لي عندما قابلته في مكتبه : إن السياحــة صناعــة المستقبل وســوف يحتل السودان مكان الصــدارة فيها بفضل ما يمتلك مــن كنوز أثرية ، ومرافق الصيد ومنتجعات جبال البحر الأحمر وسواحله . وستكون مصلحة المرطبــات محور تلك الصناعة . كان مستر تيلور ونائبه عبد المجيد ماهر حريصين على بقائي

ويريـان في تركي العمل خسارة كبيرة للمصلحة ولي شخصيا . عرضا على كثيرا من المغريات والضمانـات ، لكـن دون جدوي فقد كان تحرير وطني من قبضـة الاستعمار أهم عندي من نفسي ومستقبلي ، ومن القمر عن يميني وأطواد الذهب عن يساري!!

حـاول اليساريون في تلك الأيـام احتواء حزب الاتحاديين ، فقـد انضمت إليه أعداد كبـيرة منهم ، ورحبنا بهم وما كنـا نعلم أنهم في الخفاء نواة الحزب الشيوعي السوداني . كان أبرزهـم عبد الرحيم الوسيلـة ، والطيب محمد ابرهيم ، وآدم علـى آدم ، وعوض عبد الرازق (سـام) الـذي اكتشفنا في ما بعد أنـه أمين عام الحزب الشيوعـي إلى أن تنازل لعبد الخالق محجـوب . وقال لي من كان حاضرا اجتماع اللجنة المركزية يومذاك إن عوض فاجأ الأعضاء بترشيحـه عبـد الخالق أمينا عاما بدلا عنه ، فأسقط في يد الأغلبية التي كانت حريصة على بقـاء عوض سام . لقد لف عوض سـام حبل المشنقة حول عنقه ، إذ انتهي به الأمر أولا إلى المنفـي في بورتسودان مسئولا عن الحزب الشيوعي فيها ثم فصل من الحزب في آخر المطاف ، وأمضي بقية عمره في ما يشبه الضياع على الساحة السياسية . ولعل هناك من هو أكثر إلماما منـي بتفاصيل هـذه القصة .ولكن مبلغ علمي أن انتخاب عبد الخالق محجوب كان منعطفا خطـيرا في تأريـخ الحركة اليسارية في السودان بوجه عـام انتقلت فيه من مجرد حركة تحررية بزعامة دكتور عبد الوهاب زين العابدين أولا ثم عوض عبد الرازق إلى حزب سياسي يحمل في طياته عناصر فنائه لا أمل له في البقاء على وجه الحياة في مجتمع غير طبقى لا اقطاعيون أو رأسماليـون وتهيمـن الطائفية على الساحة السياسية فيـه وله من العادات والتقاليد ما لا ينسجم مع التوجهات الشيوعية . رحبنا باليساريين في حزب الاتحاديين لأنهم كانوا أقرب إلى أفكارنـا الاشتراكية الفابيانية ويشاركوننا في موقفنا من مصـر ومستقبل العلاقة بين شطري الـوادي . ومع صعود نجم معسكر عبد الخالـق محجوب أخذت تظهر أحقاد الحزب الشيوعي السوداني على مصر وعداؤه لها بسبب ما تعرض له قادته وكوادره من تنكيل واضطهاد على أيـدي الحكومات المصرية في عهـد اسماعيل صدقي وابرهيم عبد الهادي . أقول اختصارا إن

خلفيات وأسباب مأساة الحزب الشيوعي السوداني تكمن في الخلاف بين معسكري عوض سام وعبد الخالق . لقد سلك الحزب عند مفترق الطرق المنعطف الخاطئ وأية محاولة لنفخ الروح في الحزب الشيوعي السوداني يجب أن تبدأ بالعودة لمفترق الطرق وسلوك المنعطف الآخر الذي انحرف عنه في الماضي . عبد الخالق صديقي منذ عهد الدراسة في كلية غوردون التذكارية وكثيرا ما كنت أقضي عطلة آخر الأسبوع في ضيافة أسرته في حي الشهداء بأم درمان .ومن ناحية أخرى تربطني بعوض سام صداقة وطيدة منذ سنوات الدراسة في الكلية أيضاً التي أمضاها عوض في بيت مولانا القاضي أحمد أكبرأنجال عمي بابكر بدري . أحدث مولانا أحمد بدري في أول حياته العملية أزمة هزت منظومة القضاء في السودان ، فقد التحق بعد تخرجه بالقضاء الشرعي ، لباسه التقليدي الرسمي «الفرجية والعمامة والطربوش المغربي» . لم يعجبه هذا الزي فجاء ذات يوم إلى المحكمة الشرعية مرتديا بدلة أفرنجية كاملة بكل اكسوسراتها!! كانت مفاجأة أذهلت الجميع ووضعت المسئولين في موقف حرج . رفض أحمد بدري التخلي عن زيه الأفرنجي . وتدخل قاضي القضاة لاقناع قاضيه المتمرد بالرجوع إلى الزي التقليدي الرسمي دون طائل ، إذ طلب القاضي المتمرد منه أن يأتيه بنص من القرآن أو الحديث الشريف يفرض على القاضي زيا خاصا ، أو يحرم ارتداء ه البدلة . وأسقط في يد الجميع ، ولم يجدوا حلا سوى تحويل القاضي الشرعي المتمرد إلى العمل قاضيا مدنيا!!

سافرت خلال الاسبوع الأول من اكتوبر (١٩٤٧) إلى أتبرا مع محمد نور الدين وكيل حزب الأشقاء منتدبين من جبهة الكفاح والمركز العام لمؤتمرالخريجين ،لتنظيم مقاومة الجمعية التشريعية هناك . التقينا في الطريق مع قطار الإكسبريس القادم من حلفا ، ولمحت في عربة البوفيه أحمد سليمان المحامي . لفت نظري شاربه الكثيف مثل ستالين ، ولعله كان في تلك اللحظة متقمصا شخصية لينين في طريقه بالقطار إلى روسيا لإشعال نار الثورة . وأحمد سليمان صديق حميم أيضاً مثل عوض سام ، ومن المفارقات أنهما في صلتهما مع عبد الخالق محجوب بين فريسة ومفترس ، هذا مجرد «وسواس» لا أدري إن كان صادقا أم خناسا لكنه

ليس اتهاما على كل حال!! والمتتبع لتأريخ الحزب الشيوعي السوداني يري في ثلاثتهم تشابها كبيرا مع تروتسكي (عوض) وستالين (عبد الخالق) وخروتشوف (أحمد) الذي افترس ستالين ميتا وسطر بذلك الأحرف الأولى في شهادة وفاة الحزب الشيوعي السوفييتي ودولته!!

استغرقت رحلتنا على القطار إلى أتبرا نحو عشر ساعات .استقبلتنا في سائر المحطات تقريبـا جماهـير غفيرة ، معظمها من أنصـار حزب الأشقاء ، باستثنـاء محطة المحمية التي كانـت الغلبة فيها للاتحاديين لأنها أقرب المحطات إلى دار قبيلة الكتياب ، موطن عبد المنعم حسـب الله ، وله بين عشيرتـه هناك شعبية واسعة ومكانة عظيمـة ولا يخلو بيت فيها من طفـل يحمـل اسمه تيمنا به .وفور وصولنا لأتبرا شرعنا في تنظيـم المقاومة والتخطيط لها في اجتماعـات متتاليـة في النـادي الأهلي ودار سليمـان موسي أو دار ابرهيـم المحلاوي زعيم حـزب الأشقـاء . ثم جـاء اليوم الموعود الأحـد ١٤ نوفمـبر (١٩٤٨) وكان يوما مشهودا في مسـيرة الحركة الوطنيـة . كانت أتبرا كدأبها الدرة الوضيئة في عقـد أمجادها صمودا وصدقا عنـد اللقاء . أخـذت الجماهير تتدفق منذ منتصـف النهار أفواجا وأمواجـا على دار النادي الأهلي ، وضاقت بهم الدار رغم سعتها فانتشروا خارجها يرددون الهتافات بسقوط الاستعمار وجمعيتـه التشريعية ، وبكفاح الشعب في سبيل الحريـة ووحدة وادي النيل .واعتلي حسان محمـد أحمد (عضو حزب الاتحاديين) جدار النـادي ليقود من فوقه بصوته الجهوري كورس نشيـدي المؤتمر (للعـلا - خضرحمد) و (صرخة روت دمي - محيي الدين صابر) . انتظمت حشـود المتظاهريـن بعد صلاة العصر في صفوف أمام دار النـادي الأهلي للخروج في مظاهرة تجوب أنحاء المدينة ، حسب الخطة المرسومة . وظهرت أمامنا على مسافة غير بعيدة قوة كبيرة مـن رجال الشرطـة المسلحين بالعصي والبنادق ، بعضهم راجلـين ، والآخرون على سيارات مكشوفة تتقدمها سيارة فيها مفتش المركز وقومندان الشرطة البريطانيان وفوقها لافتة مكتوب عليهـا عبـارة (تفرقوا وإلا سنضـرب بالنار) . كنت أقف في الصـف الأمامي مع محمد نور الديـن ونخبة من قادة أتبرا المحليين بينهـم ابرهيم المحلاوي وسليمان موسي وكمال حسين

سليـم سكرتير حزب الأشقاء وعبد القادر عثمان الجعفري سكرتير حزب الاتحاديين والشاعر فـؤاد عـزت سكرتير جبهة الكفاح في أتـبرا . كانت صفوفنا متجهة نحـو الغرب وأمامنا قوة الشرطـة متأهبة للانقضاض علينا أولانقضاضنا عليها . ومـا أن صدر النداء بتحرك المظاهرة حتى سمعنا من خلفنا دويا هائلا من الرصاص مصدره تل شرقي دار النادي ، تختفي وراءه وحـدة من جنود فرقة الهجانة جيئ بها خصيصا لهذا الغرض ، وما كنا نعلم بوجودها خلف التـل . امتزج دوي الرصاص مع قعقعة القنابل المسيلة للدموع التي ألقتها قوة الشرطة علينا . وسقـط على الفور خمسة شهداء من جـراء الرصاص أو شظايا القنابل المسيلة للدموع ، كما أصيـب كثيرون بجراح . الشهداء الخمسـة هم : قرشي الطيب وفؤاد سيد أحمد وعبد العزيز إدريس وحسن أحمد دياب ، وعبد الوهاب حسن الذي فاضت روحه في الطريق للمستشفي . ألفيت عند باب النادي رجلا ملقي على الأرض ، تحول بفعل الشظايا التي مزقت جسده إلى نافورة تنزف دما ، وعرفت في ما بعد أنه الترزي شاكر أحمد شاكر . تبرعت بعمامتي لتضميد جراحه وإيقاف النزيف . وكتب لشاكر عمر جديد رغم جراحه البالغات ليواصل الكفاح من أتبرا عاصمة الحديد والنار .

وجـدت في غرفة داخل النادي ابرهيم المحلاوي ومحمد نـور الدين وسليمان موسي وآخريـن . ناولنـي المحلاوي برقية إلى الحاكم العام في الخرطوم طالبا مني تسليمها إلى عوض الله دبـورة مراسل صحيفة الرأي العام وصاحـب المكتبة المشهورة ، في قلب سوق أتبرا ، التي أسهمت إلى جانب توزيع الصحف المحلية والمصرية بدور كبير في نشر الثقافة ، وتنوير المجتمع الأتـبراوي . وما أذكره من البرقية أنها بالإضافة للتنديد بتصرفات السلطة المحلية الوحشية ، تدعو الحاكم العام باسم الإنسانية للحضور شخصيا إلى أتبرا ليشهد برك الدماء البريئة ، التي تمـلأ ساحة النادي الأهلي وما جاورها . سلمت الرسالة لدبورة فأملاها هاتفيا إلى مدير الرأي العـام عبد الرحيم وشـي . وقبل أن أغادر مكتبة دبورة جاء رجل على سيارة حكومية مرتديا زيـا مدنيا بلديا (جلابية وعمامة) وطلب مني مرافقته إلى المركز . رد الرجل على استفساري

بـأن هنالك أمرا بالقـاء القبض علي ، وأنهم يعلمون أني جئت مـن الخرطوم لإثارة القلاقل والاضطرابـات . فقلـت له ساخرا أليس من العدل بدلا من ذلـك أن تلقوا القبض على من جـاء من بريطانيا ليزهق أرواح المواطنين الأبريـاء المسالمين أمام ساحة النادي الأهلي؟؟ دعنا نذهـب مـن مكاننا هذا لألقـاء القبض على مستر هيـغ فهو السفاح القاتـل الذي يستحق القصاص حسب شرائع الأرض والسماء!! . وفي النهاية طلبت من الرجل أن يريني أمر إلقاء القبضـ ، فأجاب بأنه ليس معه ، لكن يمكننـي الاطلاع عليه عند وصولي إلى المركز . وهبط في تلـك اللحظة شرطيان بالـزي الرسمي من السيارة ولما حاولـت مقاومتهما ألقيا بي على الأرضـ وقيدا يدي إلى الخلف ، ثم حمـلاني إلى السيارة التي انطلقت بنا إلى مركز الشرطة المجـاور للمستشفي . ولما لم يكن في سجن الانتظار هنـاك مكان لمزيد من المعتقلين ، نقلوني مع آخرين إلى سجن المركز الرئيسي القريب من السوق ريثما تجري محاكمتنا .وانتدبت نقابة المحامـين في مصر وفدا برئاسة مكرم باشا عبيد للدفاع عنا وعن المعتقلين في المدن الأخري ، لكـن طائرة من السلاح الجوي البريطاني اعترضت الطائرة التي تقل وفد المحامين ، وأجبرتها على الهبوط في مدينة حلفا حيث استقبلهم مفتش المركز البريطاني ، الذي أبلغهم بأنهم غير مرغوب فيهم ، وأن النظام القضائي في السودان لا يسمح لهم بالترافع أمام المحاكم السودانية ، ولا بـد مـن عودتهم إلى مصر . وخرجت مظاهرة جماهيرية هادرة جابت أرجاء مدينة حلفا ، شارك فيها وفد المحامين المصريين ، وخطب مكرم باشا في الجماهير في ساحة السوق . فرضت السلطـات علـى الوفد الإقامة الجبرية في فنـدق النيل ولم تسمح لهم بمقابلـة أحد إلى أن تم ارجاعهم إلى أسوان على باخرة نيلية .

ومن ناحية أخرى انتدب السكرتير القضائي في الخرطوم القاضي ميجر هولي لمحاكمتنا في أتبرا ، نظرا لعدم توفر قاض مناسب فيها . وجيئ بالميجر هولي على عجل إلى أتبرا في عربة الصالـون الخاص بالحاكم العام أضيفت إلى قطـار نقل غير مخصص للركاب ، رغم احتجاج السكرتير المالي لأن القاضي الميجر موظف صغير ، وفي درجة لا تسمح له باستخدام الصالون!!

وبين السكرتيرين المالي والقضائي دائما ود مفقود!! ونشر القاضي ميجر هولي الذي أصبح منذ سنوات سير دونالد هولي مذكراته وقال فيها عن محاكمتنا في أتبرا :

«مثلت أمامي مجموعة من أحد عشر رجلا ، متهمين بإثارة شغب خطير ، بينهم اثنان أصبحا وزيرين في ما بعد . وأصدرت حكما بالسجن على المتهم الأول محمد نور الدين لمدة ستة أشهر . وفوجئت بطلبه الإذن خلال إجراءات المحاكمة ، لإلقاء كلمة ، وذهلت عندما شكرني في كلمته بحرارة ، ودون استخفاف قائلا : إنني وفرت لسائر المتهمين محاكمة عادلة للغاية ، وإنه كغيره من السودانيين ، لا يحمل حقدا على أمثالي من الموظفين البريطانيين الذين يؤدون واجباتهم . واحتفظت بصلات الود والصداقة مع نور الدين بعد ذلك سنوات وسنوات . وبين من أدنتهم يومذاك محمد خير البدوي ، الذي أصبحت ابنته زينب عقب ذلك بسنوات عديدة نجمة تلفزيونية مرموقة في بريطانيا ، كما عمل هو بنفسه صحفيا مع الإذاعة البريطانية في لندن ، وحثني في مطلع حقبة التسعينات على ضرورة العمل لتعزيز العلاقات البريطانية السودانية ، وبث الروح من جديد في جمعية الصداقة البريطانية السودانية» .

وما أن انتهي نور الدين من كلمته حتى وقفت ثائرا دون استئذان ، مستنكرا شكره للقاضي ، قائلا باللغة الإنجليزية إن مجرد تقديمنا للمحاكمة هو الظلم بعينه ، لأننا نطالب بحقنا المشروع في الحرية ، وليس في ذلك اعتداء على أحد ، وسوف تلعننا أرواح شهدائنا في السماء إن رضينا بما قاله السيد محمد نور الدين . وسنواصل كفاحنا حتى يكتب لنا النصر ، أو نلحق بهم في جنات النعيم .

واعترف الآن وبعد مضي أكثر من نصف قرن بأن ميجر هولي ، كان لينا في أحكامه ، لم يفارقه الهدوء وضبط الأعصاب طيلة أجراءات المحاكمة ، رغم الاستفزازات داخل المحكمة وخارجها حيث احتشدت جماهير غفيرة من المتظاهرين ، الذين لم يكفوا عن هتافاتهم العدائية . كان نصيبي مع آخرين الحكم بالسجن لمدة واحد وعشرين يوما . وخرجنا من قاعة المحكمة ، نردد هتافات بوحدة وادي النيل وتاج الفاروق المفدي ملك مصر والسودان .

وحز في نفسي يومذاك أن المحكمة لم تساوي في أحكامها بيني وبين محمد نور الدين ، ورأيــت في ذلك استهانة بــدوري ودور حزب الاتحاديين في مقاومة الحكم البريطاني ، وتحطيم مشروعاتــه الاستعمارية لا سيما أني قدمت سويا مع نور الدين من العاصمة لتنظيم مقاطعة الجمعيــة التشريعيــة في عاصمة الحديد والنار . لقد كانت مشاعــري وأحاسيسي الوطنية في تلك الأيام ملتهبة وفي القمة .كنت أشبه بالثور الذي يحمل الكرة الأرضية على قرنين !!

كانت في انتظاري قضية أخرى خطيرة جرت وقائعها خلال التحقيقات ، التي باشرها مستر هيغ مفتش مركز أتبرا تمهيدا لمحاكمتنا .

ومفتشــ المركز في ظل الحكم الثنائي أشبه بدكتاتور القرية ، في يده صلاحيات إدارية وتنفيذية وقضائية أخطبوطية ما أنزل الله بها من سلطان ، فهو قاض ومهندس ومعلم وشرطي وبيطري ومسئول عن الخدمات الصحية وقاية وعلاجا إلى آخر القائمة . ويزداد الطين بلة أنه حاكــم عرفي إذ كانت الأحكام العرفية (حالة الطــوارئ) طابعا مقيما بموجب اتفاقية الحكم الثنائي!!

باشــر مستر هيغ التحقيق معنــا بعد يومين أو ثلاثة من اعتقالنــا .كان يستدعي كل واحــد منــا على حدة من السجن إلى غرفة في الجناح الشمالي في مبني المركز ، ذات نافذتين مطلتين على الشارع . ولما جاء دوري اقتادني شرطي من السجن إلى الغرفة التي لا تبعد أكثر مــن ثلاثين مترا . كان الشارع في حالة غليان مكتظا بحشد من المتظاهرين . وتبادلت التحية والهتاف مع عشرات منهم كانوا يقفون وراء النافذتين مباشرة .

وجلس مستر هيغ وراء المنضدة ، بينما وقفت أمامه بين شرطي على اليمين (الجاويش الهــدي) وآخر على اليسار . وما أن شرع مستر هيــغ في استجوابي ، حتى تعالت الهتافات إلى عنــان السماء وتعالــت معها نشوتي وحماستي أيضاً . ثــم انطلقت من وسط الصخب والضوضــاء قذيفــة (نصف طوبــة) ضربت مستر هيغ علــى خده الأيمن المقابــل للنافذة .

وسرعـان ما انقض الشرطيان على وطرحاني أرضا ، وحاول الجاويش الهدي الضغط بركبته علـى موقع حساس من جسمـي ، ولولا عناية الله ومقاومتي يومـذاك لأصبحت في عداد الأغاوات بين حريم السلطان . وأعادوني إلى السجن متهما بالاعتداء على مستر هيغ «أثناء مباشرته عمله كقاض من الدرجة الأولى» . في هذه المرة وضعوني في حبس انفرادي داخل زنزانـة ضيقـة مكبل اليدين والرجلين . لم أجد مشقـة في التحرر من أغلال اليدين إذ كان في امـكاني الضغـط على راحتى حتى تصير أرق من المعصم . ولما يأتي السجان في الصباح ويجـدني طليـق اليدين أقول لـه معللا ذلك إن السيـد الحسن أبجلابيـة زارني في الليل وأزاح الأغـلال . كان السجـان الساذج يصدق ذلك لأنه ختمي لا يأتي الباطل عقيدته في آل الميرغنـي من قدام أو وراء . وأصبح السجـان المخدوع ينظر إلى كواحد من أقرب الناس اليهم . ولن يغفر السادة آل الميرغني له إذا مسني بأذي . وازداد رفقا بي عندما قلت له مرة إن (أبجلابيـة) يبشـره بالترقيـة إلى رتبـة أعلـي .

لقـد وجدت نفسي يومذاك في مـأزق أمام خيارين ، أمرهما أحلي ، فالجريمة المتهم بها عقوبتهـا السجن لمدة سبـع سنوات . ومع أني لم ارتكبها فإن انكارها سوف يحرمني من هالة البطولـة التي بدأت خيوطهـا تنسج حولي ، وسأفقد المكانة التـي تنتظرني في صدارة سجل المناضلين ضد الاستعمار .

كانت حالتي الذهنيـة وهتافات المتظاهرين التي لم تنقطع والبرقيات والرسائل تفرض علـى الاعـتراف بدلا من الانكار!! استقـر رأيي وأنا وحدي في الزنزانـة على أمر الخيارين . ثـم عدلـت عن ذلك تحت ضغط مـن خضر حمد ومحمد عثمان عبـد القادر (عضو حزب الاتحاديـين ومـن تلاميذ الشيخ الطيب السراج) اللذين جـاءا إلى أتبرا ، مبعوثين من الحزب للوقوف إلى جانبي . اتفقنا على ألا أعترف أو أنكر تاركا للاتهام مهمة الاثبات!! هذا ما فعلته أمـام القاضي مستر هوغ - (مفتش شنـدي) - الذي تولي محاكمتي عندما سألني إن كنت مذنبا أم لا ؟؟ ثم جري بيننا حوار أورد في ما يلي طرفا منه :

القاضي : إذن من رمي مستر هيغ؟

ج : إنها يد الشعب المغبون وأنا واحد منهم فقد كان الشارع الذي تطل نافذتا مكتبه عليه مليئا بالمتظاهرين وبينهم من هو أشد مني جرأة وحماسة .

القاضي : ألا تعلم أن مستر هيغ كان يؤدي واجبه الرسمي كقاض من الدرجة الأولى؟

ج : أعلم أنني أؤدي واجبا وطنيا . وما أعلمه عن مستر هيغ إنه سفاح حقير يداه ملطختان بدماء الشهداء ، وأن مكانه قفص الاتهام ليحاسب على جرائمه الشنيعة ، بدلا من أن يحاسب وطني مثلي من أجل نقطتين من دمه الأزرق .

القاضي : ألا تعترف بقوانين الحكومة ؟

ج : إننا طلاب حرية لا نعترف بأي قانون عمل لحماية الحكومة ومشاريعها السياسية التي تقيمها ضد رغبتنا ، وإنما نعترف بالقوانين التي تعمل لحماية الشعب من جور الحكومات .

ودارت مناقشات ومناكفات حامية بيني وبين المحكمة وممثل الاتهام .كنت دقيقا في انتقاء العبارات القاسية بالعربية أوالإنجليزية ، إلى حد ضاق فيه صدر مستر هوغ مرات ومرات . وما أكثر ما هددني بادانتي بإهانة المحكمة خاصة عندما قلت أنني لا أعترف بمحكمته لأنه لا يمكن أن يكون محايدا في قضية المعتدي عليه ليس ابن جلدته فحسب وانما صديق وزميل له في المهنة . وطلبت أن يحاكمني قاض سوداني محترف على الأقل ، أو أقدم لمحكمة كبري أعضاؤها سودانيون كابرهيم الشوش شيخ أتبرا وعمدتها سرور السافلاوي . ويكفي أنني حرمت أدني حد من العدالة عندما رفضت الحكومة التصريح لمكرم باشا بالدفاع عني وعن الآخرين ، مع أن الحكومة البريطانية لم تر بأسا في الجلوس مع مكرم باشا قبل سنوات قليلة على مائدة المفاوضات لتقرير مصير شعب وادي النيل بأسره!! .

أما ممثل الاتهام فقد كان حظه سيئا إذ سلطت عليه كل ما ورثته من سخرية أهلي الرباطاب ، واعترف لي بعد سنوات عندما أصبح وكيلا لوزارة الاعلام ، بأنه قطع على نفسه عهدا منذ ذلك اليوم بألا يقف خصما أمام رباطابي حتى وإن كلفه ذلك منصبه!! وقد بهت ممثل الاتهام ولم يحر جوابا ، عندما طلبت منه أن يبين للمحكمة عمليا كيف استطعت وأنا مرتديا قميصا وبنطلونا أن أخفي نصف طوبة ، دون أن تلفت نظر أحد في طريقي إلى مكتب مستر هيغ أو خلال وقوفي أمامه بين شرطيين؟؟ إنها مهمة تتطلب حاويا قديرا!! لكن يبدو أن المسئولين في الشرطة في حاجة لكبش فداء يدرء عنهم غضبة رئيسهم وبطشه!!

سألني القاضي قبل إصدار حكمه إن كان لدي ما يوجب الرفق والرحمة فرددت عليه قائلا :

إنني لا أعترف بقانونية شهادة الشرطة لأنها جزء من الحكومة ، ومعني هذا أن الحكومة هي الاتهام وشهوده وهي الحكم أيضاً ، ويتعين على المحكمة وضع اعتبار لهذه الحقيقة قبل أن تفكر في موجبات الرحمة التي لا يليق بمثلي من طلاب الحرية استجداؤها من المستعمرين وجلادي الشعوب ، الذين كلما زادوا من بطشهم وتنكيلهم إزداد موعد التخلص منهم اقترابا . وليعلم من داخل هذه القاعة وخارجها ، إننا طلاب حق وحرية ولا يمكن لأية قوة في الأرض أن تصدنا عن الوصول إلى أهدافنا . وأعلم بدوري أني سائر في طريق لن أحيد عنه حتى نبلغ غايتنا ، وهي جلاء المستعمر وقيام دولة وادي النيل تحت تاج الفاروق المفدي ملك مصر والسودان . والحكم في النهاية ليس لمحكمتكم وإنما للتأريخ والله سبحانه وتعالى الذي بيده وحده مفاتيح الرحمة يغلق أبوابها أو يفتحها لمن يشاء .

أصدر مستر هوغ في النهاية حكمه على بالسجن لمدة ١٨ شهرا مستندا للقرائن - كما جاء في حيثيات الحكم . كان حكما ظالما حتى بمقاييس العدالة في ذلك الزمان . فالقرائن وحدها كما يعرف أهل القانون لا تكفي للإدانة وإنما يجب تفسيرها لمصلحة المتهم . كان من الممكن أن يأتي قرار المحكمة مغايرا لو قبل مستر هوغ كما طلبت منه تأجيل المحاكمة ، ريثما

يصل محمد أحمد محجوب من الخرطوم للدفاع عني . وقد وصل المحجوب في اليوم التالي بعد فوات الأوان ، ورفع استئنافا لقاضي المحكمة العليا الذي رد بعد نحو شهر مؤيدا الحكم .

علي أية حال لم استقبل الحكم في رباطة جأش فحسب ، وانما بغبطة وابتهاج أيضاً . ولولا مشاعـر الحقد المتأججة في صدري يومذاك ضد الاستعمار لغمرت قاعة المحكمة بابتسامات الفرح . ولعلني كنت سأحزن لو جاء الحكم دون ذلك ، لأنه في نظري مقياس لضخامة دوري في النضال الوطني ضد الجمعية التشريعية وفي سبيل التحرر من الاستعمار .

لقد تملكني ساعة النطق بالحكم شعور جارف براحة النفس ، وكأني طائر مهاجر عاد إلى سربــه بعد طول فراق ، أو مسافر ألقي رحله بين عشيرته وأحبابه بعد سفر شاق وطويل . السجــن كمــا يقولون مقبرة الأحيــاء ، والقبر يمثل نهاية حياة الإنســان يدفن المرء فيه مودعا بآيــات الحــزن وعويل الثكالي دون أمل في عودته إلى الحياة من جديد . لكن ليس هذا مصير كل ما يودع في باطن الأرض . قد تكون في ذلك بداية للحياة لا موتها . فالحبة تزف كالعروس إ لي باطــن الأرضــ ، ويهال التراب عليها وهي مغتبطة تضحك مــلء شدقيها ، ومن حولها مبتهجون في انتظار خير وفير . هناك في باطن الأرض تدب الحياة في الحبة لتسفر بعد أيام أو شهور وسنوات شجرة يانعة ، دانية القطوف ، تمنح الظل والثمر والنسيم الفواح العليل .

أمضيت في سجن أتبرا نحو أسبوعين ثم نقلت مع مجموعة من السجناء العاديين إلى السجــن العمومي في مدينة الدامر . حملنا القطار إلى هناك تحت حراسة شرطيين مسلحين ، وبــين المجموعة شــاب من أبناء دنقلا يدعي على لطيف ، نشــال ومحتال بارع وحريف ، لا يعجــز بأنامله الرقيقة عن سرقة الكحل مــن العين كما يقول المثل . تخرج لطيف في حواري مصــر -حيث عاش ردحا من الزمن - على يد أساطين النشل والاحتيال هناك . وينفرد كما تتطلــب المهنة بــذكاء مفرط لماح ومظهر خــداع ينم عن الطيبة وبــراءة الأطفال ، زيادة على ابتساماتــه الماكــرة التي يطلقها عمــدا لتكشف عن أسنانه الذهبيــة . وفي الحقيقة أن النشل أو الاحتيــال ليس عند أمثــال لطيف ، مجرد وسيلة للعيش وإنما هوايــة أيضاً تملكته إلى حد

الإدمـان!! كان القطـار مزدحما بالركاب كعلبة الساردين . هكـذا وجد لطيف فرصة سانحة لممارسة هوايته ، فامتدت أنامله الرقيقة إلى جيب تاجر من المسافرين في خفة ورشاقة لتخرج بمحفظتـه المكتنزة . ثم شق لطيف طريقه متظاهرا بمغص مفاجئ إلى دورة المياه ، حيث أفرغ المحفظـة من محتوياتها من النقود ، وأخفاها داخل جوفه عبر موضع حساس ، تاركا المحفظة الفارغة في مكانها!! ادعي التاجر صادقا أن سارق محفظته واحد من السجناء . وجري تفتيش السجنـاء جميعا تفتيشا دقيقا علـى رصيف محطة الدامر دون جدوي . لم يشملني التفتيش لحسن حظي ، فقد أوقفني الشرطيان المرافقان منذ البداية بعيدا عن الباقين .

كانـت تجربة مثيرة ومحرجة للغاية ، لعلها إيذان بالحياة التي تنتظرني في دنيا السجن بين اللصوص والقتلة وقطاع الطريق!!

الدامر مدينة لها تاريخ عريق ، تحتل موقعا استراتيجيا على ضفة النيل الشرقية وجنوبي نهـر أتـبرا بالقرب من ملتقاه مع نهر النيـل . لم يبق للمدينة من ماضيهـا التجاري والثقافي والاجتماعـي سوى أضغاث من تـراث السادة المجاذيب ، أهل الصلاح وكعبة العلوم الدينية في غابر الأزمان .اختيرت الدامر في عهد الحكم الثنائي عاصمة لما عرفت أولا بمديرية بربر ثم الشمالية ، بدلا من مدينتي أتبرا وشندي خوفا من وقوع احتكاكات واصطدامات بين الإدارة المدنيـة من جهـة وإدارة مصلحة الخطـوط الحديدية في أولاهمـا وقيادة سلاح السواري في الثانيـة . وتسمي الدامر مدينـة جوازا فهـي كمـا خاطبهـا نائب مأمورهـا الشـاعر توفيق صالح جبريـل :

أيا دامر المجذوب لا أنت قرية بداوتها تبدو ولا أنت بندر

ويكفـي أن يقال إن الدامر العاصمـة الوحيدة التي لم تكن فيها في تلك الأيام شبكة لميـاه الشـرب أو الكهرباء ولا مستشفي أو مرفق للتعليم فوق الأولى . والانطباع الذي لا يزال عالقـا في ذهنـي ، أنها مدينة كئيبة باهتة ، كل ما فيهـا يدعو إلى الاحباط . ولا أدري كيف

خـرج منها أعلام أفذاذ في مجـالات مختلفة ، أمثال العالم الموسوعي دكتور عبد الله الطيب ، وأستاذ الدراما دكتور أحمد الطيب ، والشاعر محمد المهدي المجذوب ، وأستاذنا بشير محمد سعيد الكاتب والصحفي المعروف ، ثم فتي الدامر اللواء أحمد عبد الوهاب من مشاهير القادة العسكريـين ، والطيب محمد الطيـب عميد تراثنا القومي ، والمناضـل الوطني ربيع حسنين وشقيقه المطرب محمد ، وآخر قزم في خلقته عملاق في فنه !! . ويقال إن سير مجدي يعقوب أشهـر جراحـي القلب في هذا العصر من مواليد الدامر أيضاً . كيف خرج كل هؤلاء العمالقة من الدامر ؟؟ هذا سر يعلمه الله مخرج اللبن من فرث البقر!! ويسجل التأريخ للدامر أن الإدارة البريطانية اتخذتها خلال الثلاثين عاما الأولى من حكمها منفي لقادة الجنوبيين المناوئين لها ممـن قـادوا انتفاضات مسلحة ضدها خاصة من قبائل الدينكا . كمـا نفت إليها الملكة آمنة زوجـة خوجلي حسن زعيم قبيلة الوطاويط المشتركة بين السودان واثيوبيا . وقعت الملكة آمنة في الأسـر بعـد معارك دامية ، وأدانتهـا الإدارة البريطانية بتهريـب الأسلحة عبر الحدود إلى منطقـة الكرمك ، ومن هناك إلى مناطق الفونج الأخرى والنيل الأبيض وجبال النوبة لتقع في أيدي الحركات المسلحة التي كانت تندلع ضد الإدارة البريطانية بين حين وآخر . كما أدينت الملكة آمنة بتجارة الرقيق .

يمتـد الشـارع الرئيسـي في مدينة الدامر ، مـن غربها متجها شرقا حتـى المقابر مرورا بالسجن الذي قدر لي أن أمضي فيه زهاء عام ونصف ، كانت أحلي وأخصب فترة في حياتي ، رغم أني أمضيتها وراء القضبان في مدينة كئيبة باهتة .

يقـع السجـن داخل أسوار أربعة عالية ، وله باب حديـدي ضخم يطل على الساحة التـي تقام فيها الاحتفالات بالمولـد النبوي ، ويفضي إلى الداخل حيث يوجد بالإضافة إلى مكتـب ضابـط السجن وملحقاته كالمخازن والمطبخ أحد عشر عنـبرا للنزلاء . وهنالك أيضاً زنزانتان لمن يعاقبون بالحبس الانفرادي من السجناء المشاغبين ، أو المحكوم عليهم بالإعدام ، ريثمـا ينقلـون إلى السجن العمومـي في الخرطوم بحري في حالة تصديـق الحاكم العام ودار

الإفتـاء علـى تنفيذ الأحكام . كانت في سجن الدامر مشنقة لا تزال آثارها باقية ، وأول من علـق عليها الشيـخ حمد المجذوب -من مشاهير قادة المهدية - متهما بتحريض أتباعه على الثـورة ضد إدارة الحكـم الثنائي . وتوجد بئـر وسط فناء السجن هـي المصدرالوحيد للماء لأغراضـ الشـرب وغيره . وهنالك أيضاً صف من المراحيض التـي يأتي عمال الصحة ليلا لافـراغ جرادلها . وانضممت إلى قاسم أمين وعبد القادر سالم في العنبر رقم ١١ ، وهو كغيره مـن العنابـر عبارة عن غرفة عالية الجـدران مساحتها ٢٠×١٥ قدما تقريبـا لها أربعة نوافذ قريبـة مـن سقفها . ومعنا في العنبر نـزلاء آخرون من علية القوم تجـارا وموظفين ، ممن رمى بهـم حظهـم العاثر إلى هذا المكان أمثال : إدريـس الشايقي من كبار تجار الدامر ، ومحجوب عبـادي ومحمـد على عباس من تجار أتبرا ، وعبد الوهاب الخضـر محاسب بلديتها ومحمد داش كاتب مستشفي حلفا . تتراوح جرائمهم بين السرقة والاحتيال واختلاس المال العام . ومعظم السرقات من مخازن وورش السكك الحديدية في أتبرا . وإلى جانب هؤلاء كان معنا في العنـبر ثلاثـة سجناء عاديين يتولون خدمتنـا طواعية بما في ذلك كنـس العنبر ، وغسل ملابسنا ، وافراغ الجردل الذي يوضع معنا داخل العنبر في المساء لقضاء الحاجة . ولكل عنبر بـاب من أسياخ فولاذية بـين كل قضيب منها والأخر أقل من نصـف قدم ، ويغلق الباب بعـد مغيـب الشمس . ويبقي السجناء داخل العنبر إلى ما بعد الشروق بقليل . وصرفت لي فور وصولي السجن حصيرة (برش) وبطانية هما كل فراشي على أرضية العنبر الصلبة طيلة المـدة التي أمضيتها في السجـن . أما الطعام فقد كانت الوجبات الثـلاث تقدم لنا بانتظام وفي مواعيدها : في الصباح قرص من الدرة مع حفنة ملح . وبعد الظهر قرص أيضاً مع الفول المدمسـ ، ثم قرص آخر عند المغيب مع حساء من اللحم والخضار . كان نصيب الواحد من اللحـم قطعة صغيرة جدا لا يزيد حجمها عن نصـف بوصة مكعبة . ولكي تكتمل عناصر الغـذاء الثمانية أوصي الطبيب لي بنصف رطل من اللبن وبضعة أوقيات من الكبدة يوميا . ولا أصـدق حتـى اليوم أن الطبيب فعل ذلك كما قيل لي مقابـل رشوة دفعها له أصدقائي في أتـبرا ، الذين نظموا لي أيضاً جالونا يوميا مـن المريسة (البيرة البلدية) عند الرحمة بنت

عائشة التي تسكن في بيت قريب من مصنع النسيج التابع للسجن ، وعرفت في ما بعد أنها كانت زوجة لأحمد أفندي الشيخ والد صديقي الزعيم العمالي الشفيع ، وله منها ولد توفي صغيرا . كان الطبيب يأتي مرة كل أسبوع من أتبرا لتفقد السجن والسجناء من الناحية الصحية وعلاج الحالات التي يحيلها إليه مساعد الحكيم العم مصطفي رحمة . وإذا كانت الحالة مستعصية ، يحول السجين المريض إلى المستشفي الرئيسي في أتبرا . وللطبيب في تلك الأيام كلمة نافذة في السجون ، وله سلطة أعلي من سلطات الحاكم العام ، كما كان يردد دائما سجين مجنون من أهلنا الرباطاب يدعي عبد الرحمن قرشي ، الذي كان يعجب كثيرا لبقائي في السجن رغم أن ابن عمي (دكتور على بدري) شيخ الأطباء ووزير الصحة !! . الأوضاع الصحية في السجن لا بأس بها وقائيا وعلاجيا وغذائيا ، باستثناء انتشار القمل الذي يخيفنا كثيرا لما يسببه من أوبئة فتاكة أخطرها ما يعرف بالحمي الراجعة . والقمل في السجن على خلاف فصائله في الخارج الواحدة منه في حجم حبة الحمص مكتنزة بدماء البشر ، فهي بنك دم متنقل لكن دون نفع . ولقملة السجن فك يتضاءل أمامه بالقياس لحجمها فك أسماك القرش . ومن القمل نوع مسطح يسميه السجناء (أبو ثمانية) ، لأن له ثمانية أرجل يغرسها بقوة في جلد فريسته حتى يصير جزءا منه ، خاصة عند منابت الشعر ، ويبقي في مكانه ليمتص في شراهة دم الفريسة ، ولا سبيل للتخلص منه إلا بأمواس الحلاقة مع وداع الحواجب والشوارب!! خصصنا يوم الجمعة من كل أسبوع لتنفيذ أوامر اخلاء القمل اللعين من ثيابنا التي يتخذها مسكنا له دون إيجار .كنا نتبارى في تنفيذ عمليات الإخلاء القسري والغلبة فيها دائما لداش أفندى لكثرة ما في طيات ثيابه من ساكنيها دون إيجار ويبدو أن لدمه طعما يفضله القمل الذواقة على دماء الآخرين . ويخرج كل واحد منا عند انتهاء المعركة بابهاميه المخضبتين كابهامي العروس لكن بالدماء بدلا من الحناء . إنه ضرب من التسلية فيه ترويح للنفس ووقاية للجسم في آن واحد قد لا يرضي حكيم المعرة القائل :

تسريح كفك برغوثا ظفرت به أبر من درهم توليه محتاجاً

يقوم عبد العاطي بعد الفراغ من عملية الإخلاء بغسل ثيابنا جيدا بالماء والصابون ومبيد الـدي دي تي (DDT) الذي كنا نغسل به أيضاً أرضية العنبر ، ونخلطه مع ماء الاستحمام في كثير من الأحيان ، إذ لم تكن صلته بأمراض السرطان معروفة في ذلك الزمان .

قرر نزلاء العنبر رقم ١١ الاحتفاء بي بعد يومين من انضمامي إليهم فأعدوا عشاء فاخرا بـكل ملحقاته جيئ به من منزل إدريس الشايقي باتفـاق مع (برميل) رئيس الحرس في تلك الليلة . واسطة العقد في الوليمة رأسا نيفة عنيدان عجز (برميل) لضخامتهما عن تمريرهما عبر القضبـان طولا أوعرضا ، واقترح في النهاية شـق الرأسين إلى نصفين ، فنهض قاسم أمين ثائرا متحديا ، وأطبق بيديه على قضيبين وسط الباب ، فانثنيا رغم سمكهما وصلابتهما تحت قبضته وكأنهمـا عصا مطاط لدن . وهكـذا اتسعت الفجوة بينهما فمر الرأسـان عبرها سالمين في زهو واختيال ليحتلا مكان الصدارة على مائدة العشاء . كان قاسم أمين يومذاك عملاقا في عنفوان شبابـه قوة وحيوية ، إذا مشي تئن الأرض وتهتز تحت قدميه . وشاءت الأقدار أن أراه بعد أكثر مـن عشريـن عاما ، في عهد حكم جعفر نميري عندما جيئ بقاسم من سجن كوبر في الخرطوم بحري للعلاج في مستشفي يونيفيرستي كولدج في لندن . أرشدتني الممرضة إلى غرفته فدخلت عليه في لهفة واشتياق ، لأفاجأ بالعملاق الذي عرفته في السجن وقد تقلص إلى شبح ناحل ، فقـد القدرة على النطق والحركـة ، وانكمشت قامته الفارهة (٦ أقدام) إلى نحو نصفها ولم يبق على وجهه من أثر للحياة سوى عينين واسعتين براقتين وابتسامة لعلها تعبير عن فرحته باللقاء أو نشوة الرجعي إلى الأحلام والآمال الوطنية التي كنا نعيشها أيام السجن في الدامر ، ولم يكتب لهـا غـير الخيبة والإحباط ، أو نجن إلا الحسرة والندم . أين سودان اليوم من ما كنا نأمل ونحلم به بالأمس ، ونبذل في سبيل تحقيقه كل غال ونفيس ؟؟ بكيت يومذاك بكاء شديدا لم أعهده مـن قبل ، وبقيت ساعة كاملة كانت الإشارة والدمـوع لغة التفاهم بيننا . وأخذت أتردد على المستشفي مرة أو مرتين كل يوم ، إلى أن نقل قاسم إلى براغ لمواصلة العلاج هناك . لكنه لم يعش

طويــلا فقد عذبه زبانيــة النميري في سجن كوبر عذابا لم يعذبه أحد ولحقه من جرائه ما عجز الطــب المتقــدم عن تداركه في لندن وبراغ . ومن نزلاء سجن الدامر في تلك الأيام داش أفندي باشكاتــب مستشفى حلفا ، الذي وقع في حبائل بائعة هــوي مشهورة أنفق عليها أموالا طائلة من خزانة المستشفي حتى أكتشف أمره فكان جزاؤه السجن سنة كاملة . ولم يكن داش أفندي بنظارتــه السميكــة آخر ضحايا بائعة الهوي ، فقد لحق بــه في السجن بعد شهور قلائل الحاج ابرهيم السنغالي الذي وقع في حبائلها ، مثلما وقعت هي في حبائله ، إذ اتخذها خليلة وعونا له على اصطياد السذج والساذجات ، بدعوي أن له رفيقا من الجن يضاعف مائة مرة الثروات من فضة وذهب وأوراق نقدية . واستطاعا بهذه الخدعة الاحتيال على عشرات من الرجال والنساء وسلبهــم ثروة طائلة من الحلي الذهبية والفضية والأموال ، ولمــا اكتشف أمرهما ، هربت بائعة الهوي إلى مصر وحكم على الحاج ابرهيم بالسجن لمدة ثلاث سنوات . والحاج ابرهيم من أهل السنغال أسود اللون طويل القامة في عينيه بريق ينم عن دهاء وذكاء هما عدة أمثاله من المحتالين الدجالــين . واصل حاج ابرهيم شعوذته والدجــل في السجن . وسرعان ما التف حوله مريدون مــن السجناء والسجانين طمعا في بركاته واتقاء شره . حتى ضابط السجن وهو من المستنيرين إلى حــد مــا أصبح يضع له حسابا !! . قال حاج ابرهيــم لي مرة إن رفيقه الجان أحضر لي علبة سجائر دسها بين طيات فراشي داخل العنبر ، فسخرت منه لكنني عندما ذهبت إلى فراشي بعد ساعــات لكي أنام وجدت العلبة . وتملكتني الدهشة وأنا أفكر في تعليل هذه الظاهرة وأمضيت ليلة مزعجة في نوم متقطع ، لا أخرج من كابوس مخيف إلا ليتسلمني كابوس شر منه . حرائق ومشانــق وثعابــين وحيوانات مفترسة!! لم أجد مخرجا من هذه المحنة إلا في الاستعانة بكتاب الله فأخرجت مصحفي من تحت الوسادة ، ورحت أتلو حتى الصباح ،لعلي أكملت تلاوة نصفه يومــذاك . ذهبت في الصباح للعمــل كالعادة في مصنع النسيج التابــع للسجن تاركا العلبة في مكانهــا ، خوفــا من أن تكون وراءها مكيدة من عمل حاج ابرهيم ورفيقه الجان ، وعلي أمل أن أجــد مــع الحارس قسم الله علبة السجائر التي تعود أن يتسلمها في طريقه كل صباح من دكان قريب من المصنع ، حسب الاتفاق بين أبوزيد صاحب الدكان وأصدقائي في أتبرا . لكن الحارس

لم يأتني بالعلبة في ذلك الصباح ، ولما سألته أجابني بأنه أحضر في اليوم السابق علبة طلبها منه الحاج ابرهيم كهدية لي فحسب أنني لست في حاجة لمزيد اليوم!! كان معنا من السجناء خمسة محكوم عليهم في جرائم قتل بالسجن المؤبد أحدهم (عبد الشكور) الذي قتل عمدا بحارا انجليزيا مخمورا في بورتسودان . أحدثت القضية دويا هائلا في المجتمع السوداني خاصة في دوائر القضاء لأن القاضـي (الدرديري محمد عثمان) رفض الحكم بإعـدام عبد الشكور بحجة أنه لا يجوز شرعا اعدام مسلم لقتله نصرانيا ، وأيده في ذلك مفتي الديار السودانية والسيدان على الميرغني وعبد الرحمن المهدي .هكذا لم تجد السلطات مفرا من النزول على حكم القاضي . ومن المحكوم عليهم بالسجن المؤبد أيضاً قمر الدين ، شيخ عجوز جاوز الثمانين عاما من عمره ، قتل ابنته قبل سنوات انتقاما لشرفه وقطعها أربا أربا مع ثمرة الخطيئة التي في أحشائها ، ثم ألقي بكل ذلك في النيل طعاما للحيتان على حد تعبيره . كان قمر الدين يروي لنا تفاصيل جريمته بكل برود غير نادم عليها وقد قضي المسكين نحبه في السجن . واستضافت زنزانتا المحكوم عليهم بالإعدام في تلك الأيام عددا من الأشقياء في طريقهم إلى حبل المشنقة في سجن كوبر في الخرطوم بحري ، بقـي إثنان منهـم في الذاكرة .أحدهما ابرهيم محمود ، الذي كتب له عمر جديد ، والثاني إبن عـوف من شرطة أتبرا ، ارتكب جريمته أيـام وجودنا هناك في انتظار محاكمتنا . كان ابن عوف مكلفـا نلك الليلة بحراسة مركز الشرطة القريب من المستشفي . جاء ابن عوف مخمورا وتحت تأثير المخدرات (البنقو) لتسلم الحراسة من زميله الجاويش على محمد على الذي آثر بدلا من الذهـاب لأهله في ساعة متأخرة من الليـل أن ينام في فناء المركز حتى الفجر ، كعادته في أكثر الأيام ، لكي يؤدي صلاة الجماعة في المسجد في طريقه إلى البيت . وبعد أقل من ساعة انتابت ابـن عوف نوبة من الهياج مصحوبة بالهتاف ضد الاستعمار وغير ذلك من الشعارات الوطنية التي كانت شائعة يومذاك . وهب الجاويش على من فراشه مذعورا ، لعله – وقد كان أعلي رتبة – أغلـظ في نصـح ابن عوف ومعاتبته ، فما كان من الأخـير إلا أن أطلق رصاصة من بندقيته على صدر الجاويش على محمد على أردته قتيلا في الحال . وأيقظ صوت الرصاصة شرطيا آخر كان نائمـا في فنـاء المركز أيضاً ، لما نهض مستفسرا كان نصيبه رصاصة قضت عليه . ثم توجه

ابن عوف إلى الغرفة التي فيها المعتقلون السياسيون بينهم نور الدين والمحلاوي وسليمان موسي فاعترضـه شرطي آخر يدعي عبد المجيد محمود فكان جزاؤه رصاصة لم تصبه في مقتل لكنها كانت كافية لتعطيله . فتح ابن عوف باب الغرفة آمرا كل من فيها بالخروج إلى رحاب الحرية . وتـردد المعتقلون في البداية ، ثـم أذعنوا في النهاية تحت التهديد ، فذهب نفر منهم إلى المحطة ، وآخـرون إلى المستشفي ، باستثناء المحلاوي الذي اقتـاده ابن عوف معه ليرشده لبيت المفتش مستر هيغ وغيره من كبار الموظفين البريطانيين في الحي الإنجليزي ، ليقتلهم جميعا . وساعدت ظلمة الليل وحدائق الحي ذات الأشجار الكثيفة المحلاوي على الإفلات منه . وأصيب الشرطي المكلف بحراسـة السجناء المرضي بذعرعندما أبلغه المعتقلـون الهاربون للمستشفي بالحادث ، فتنـاول بندقيته مذهولا لتعبئتها ، خوفـا من أن يأتيه الدور ، فانطلقـت رصاصة من البندقية اخترقـت السقف!! وظن من سمعوا دوي الرصاصـة أنها استقرت في صدر قتيل آخر على يد ابن عوف الحائم في الحي الإنجليزي !! . ثم وصلت أنباء تقول إن ابن عوف في طريقه إلى مبني المركـز القريب من السوق لاطلاق سراح المعتقلين الآخرين ، فأعلنت حالة الطوارئ على الفور ووزعـت الشرطة المسلحـة على المواقع الاستراتيجية داخل المبنـي . وصل ابن عوف كما كان متوقعا ، وشاهدناه يدخل من الباب الرئيسي حاملا بندقيته دون أن يعترضه أحد ، حتى رجال الشرطـة المسلحين هربوا كالجرذان من مواقعهـم الاستراتيجية إلى مخابئ آمنة داخل الغرف أو بين المعتقلين . وما أن وصل صاحبنا إلى وسط فناء المركز وألقي بندقيته ، حتى انقض الجميع عليه من كل صوب وأشبعوه ضربا بهراواتهم ومؤخرات بنادقهم دون رحمة .لم يشفع لابن عوف أنـه زميل ورفيق سلاح . كانت عواطفنا يومذاك مـع ابن عوف ، فهو رغم فعلته الشنيعة تحت تأثير الخمر والمخدرات ، لم يخرج عن إطار المشاعر الوطنية المتأججة في ذلك الحين ، وعبر عنها في سكرته بهتافاته وعمله على اطلاق سراح المعتقلين السياسيين . ينتمي ابن عوف إلى أسرة اشتهرت في بلاد الشايقية بصيد التماسيح لها حضور في تراث المنطقة الشعبي من أغان ومدائح صوفية ونبوية .

أمـا الشقي الآخرابرهيم محمود فقد جيئ به إلى الزنزانة ، في طريقه للخرطوم بحري محكومـا عليه بالإعدام شنقا حتى الموت في جريمة قتـل في سوق الزيداب . الضحية مجرم شريـر ، تنفست المنطقة كلها الصعداء لمقتله لأنـه كان مصدر رعب وإرهاب للجميع ، لكن القانـون - وهـو جحش كما يقولون - حكم على ابرهيم القاتل بالإعدام ، بدلا من مكافأته نيابـة عـن المجتمع . روي لي إبراهيم من وراء قضبان الزنزانـة قصته وكيف أن القتيل ألقاه أرضـا ، وجثـم فوقه ثـم أطبق على عنقه بقـوة حتى لم يبق بينه والمـوت خنقا سوى خيط رقيـق!! في تلـك اللحظات الفاصلة بين الموت والحياة (حلاوة الـروح) استل إبراهيم سكين القتيل المعلقة على ذراعه ، وغرسها في قلب صاحبها!! وعلي الباغي تدور الدوائر!! لقد كان صراعـا غـير متكافئ ، أشبه بالمبارزة بين النبي داؤود وجليـات الجبار!! كان إبراهيم كداؤود المغلـوب على أمـره شابا نحيلا قصير القامة ، بينما خصمه ضخـم الجثة مفتول العضلات وفي عنفـوان فتوته . كتبت يومذاك عريضة مؤثرة أعطيتها لأم ابرهيم ، طالبا منها أن تسلمها بنفسها لقاضي المحكمة العليا البريطاني يدا بيد في بيته لا مكتبه . كما طلبت من صديقي حبـوب مساعدتها في ذلـك وهو سجين مضمون يعمل بستانيـا في حديقة القاضي وأصبح بعـد خروجـه من السجن من القادة النقابيين في أتبرا . دخلـت الأم المكلومة على القاضي يسبقهـا نواحهـا وأنينها وسلمته ، العريضة المبتلة بدموعهـا . لا بد من أن القاضي وهو بين أطفالـه تأثـر بحالها التي كانت أبلغ مـن محتويات العريضة . وبعد أيـام قليلة انتهت هذه الدرامـا الواقعيـة بتعديـل الحكم على إبراهيم مـن الإعدام شنقا حتى المـوت إلى السجن خمسـ سنوات . انتابت أمه حالة هستيرية من الفرح أشد من فرحتها يوم ولدته ، وأحسب أن آلامهـا وكربتهـا خلال الأيام التي أمضتها مفترشة الأرضـ أمام السجن أقسى عليها مما لاقته ساعة المخاض . أما أنا فقد شعرت براحة الضمير وبإيمان دافق ، وإذا كان زوال الأرض ومـا عليها ، أهون عنـد الله من قتل نفس دون حق ، فما جزاء مـن ينقذ نفسا مظلومة من المـوت عنده سبحانه وتعالى في يوم لا ينفع المـرء فيه غير عمله الصالح ؟؟ لم تكن العريضة مؤثـرة فحسـب فقـد أودعتها كل ما اطلعـت عليه من حجج قانونية خـلال قراءتي لمجلد

قانون العقوبات المعمول به في المحاكم الجنائية في السودان ، وهو الكتاب الوحيد في مكتب ضابط السجن الذي ألحقت بالعمل فيه مقابل نحو خمس مليمات في اليوم تدفع حصيلتها للسجين يوم خروجه ، أو بالأحرى تخرجه لأن السجن في نظر فلاديمير لينين مرحلة دراسية أعلـي من الجامعات ، جدير بـأن يلتحق الشباب بها!! وإلى جانب قانون العقوبات ، أخذت تصـل لي بعد مدة مطبوعات أخرى من خـارج السجن بينها مجلة الرسالة وصحف مصرية أخـري ، يرسلهـا كل أسبوع تقريبا عوض الله دبورة من أتبرا . أما الصحف السودانية المحلية فقـد تكفل بهـا صديقي أحمد عبد المجيـد شجر الخيري ، أمين مخـازن المديرية . ويمدني السجنـاء «المضمونون» العاملون في منازل الموظفين البريطانيين ، بالصحف الإنجليزية . كانت تلـك الصحـف شديدة الاهتمـام بشئون السـودان في تلك الأيام ، نظرا لمـا يجري فيه من تطـورات دستورية لها ارتباط بمقاومة مصر للوجود البريطاني في وادي النيل جماهيريا ، وعن طريق المفاوضات بين لندن والقاهرة . وأتيحت لي إلى جانب ذلك فرصة الإطلاع على بعض الكتـب الدينية بفضـل شاب من آل المجـذوب يأتيني بها من مكتبـات أهله وخلواتهم ، ومعظمهـا باليـة ممزقة ، أقبل على قراءتهـا لما فيها من طرائف ونوادر رغـم ما ألقاه فيها من عنـاء فكري وروحي ، لأنها لا تنسجم مع نظرتي إلى الإسـلام كوسيلة للتقدم ومركبا تمخر بنـا عبـاب الحياة نحو المستقبل . بل إنها تثير أحيانا شكوكا في نفوس من لا ينطلقون مثلي في إيمانهـم من جوهر الإسلام القائم على الوحدانية والقدم .ومما قرأته في تلك الكتب البالية الممزقـة وبعضهـا من تفاسير القرآن الكـريم ، أن ياجوج وماجوج أمة مـن ولد آدم ، يسيرون في خـراب الأرض . وهم ثلاثة أصناف صنف مثـل شجر الأرز ، وآخر طوله وعرضه سواء ، وصنـف ثالـث يفرش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى . لا يمـرون بفيل أو وحش وخنزير إلا أكلـوه ، ومن مات منهـم أكلوه ، ويشربون أنهار المشرق وبحيرة طبريـا ، ومنهم من تنبت له مخالـب وأضراسـ كأضراس السباع . وقـرأت في كتاب آخر أن سيدنا نوحـا عليه السلام بنـي سفينته من عظام حيـوان عرضه مسيرة عام كامل ، وطوله قدر ما بين الأرض والسماء !! . ويحكـي الكتاب نفسـه عن رجل يدعى عوج بن عناق ، عاصـر نوحا وموسى عليهما

السلام ، طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع!! . كان ابن عناق هذا ابـن سفاح يلتقط السمكة مـن البحر ، ويشويها في قرص الشمس . كمـا يهزأ بسيدنا نوح وسفينتـه ، ويقول لـه : ما هذه القصعة التي لك ؟ يعني السفينةالتي جاء في الكتاب نفسه أنهـا مـن ثلاث طوابق وطولها ألفا ذراع وعرضها مائتان ، وأن ركابها قالوا لنوح كيف نطمئن ومعنـا الأسد ؟؟ فسلط الله الحمـي على ملك السباع فكانت أول حمي نزلت في الأرض!! ثم اشتكوا من الفأر لأنه يفسد الطعام والأمتعة ، فأمر الله الأسد فعطس وخرجت الهرة مع عطسته ولاذ الفأر بالفرار إلى جحره!! ويروي واحد من تلك الكتب سيرة شيخ طريقة صوفية مشهـورة تنسب إليـه كرامات ترقي إلى ما فـوق معجزات الأنبياء عليهـم السلام . بل إن بعضها يصل إلى حد مشاركة الله سبحانه وتعالى في إدارة الكون . ولا داعي لذكر اسم ذلك الشيخ لأن له مريدين كثيرين في السودان وسائر أنحاء العالم الإسلامي!! من تلك الكرامات أن النبي عليه السلام عندما بلغ سدرة المنتهي ، قال له جبريل لو تقدمت أنا خطوة من هذا المقـام لاحترقت!! فأرسل الله روح «الشيخ» ومعها الـبراق إلى النبي وركب النبي على رقبة الشيـخ وسار الشيخ به ممسكا بزمام البراق حتى صار قاب قوسين أو أدني!! وتشفع «الشيخ» مرة عند الله في صاحب له ليغفر له كبيرة اقترفها ولم يقبل الله شفاعته ، فما كان من الشيخ إلا أن أضـرب عن تصريـف الأمور الكونية حتى قبل الله شفاعتـه وغفر عن صاحبه فرفع الشيـخ إضرابـه . ومن كرامات الشيخ أيضاً كما جاء في الكتاب أن محمدا عليه السلام مد يـده مـن قبره الشريف (هكـذا) إلى الشيخ فقبلها الشيخ ووضعها علـى رأسه!! وفي إحدى المرات تحول حذاء الشيخ إلى صاروخ عابر للقارات ، طار من مكانه ليضرب فاسقا حتى لفظ الفاسق أنفاسه الأخيرة ؟؟ ولم يغفل راوي سيرة الشيخ مكانته الرفيعة عند الإمام أحمد بن حنبـل ، إذ ذكر أن الإمـام نهض من قبره وخلع على الشيخ قميصا أبيض ، وصافحه معانقا أمـام رهط من الأوليـاء . لعل الراوي أراد بذلك ردع أتباع مذهب الإمام «أنصار السنة» عن المساس كدأبهم بصاحبنا «الشيخ» . أرجو ألا تنصـرف الأذهان إلى أن الشيخ المقصود إمام الطريقـة الشاذليـة التـي يتبعهـا آل المجـذوب .

كنا نضحك من هذه الخرافات والترهات ضحكا كالبكاء ، تمتزج فيه الابتسامة بالعبرات ، لأنها رغم طرافتها الكوميدية ، بلية على عقولنا وعلى ثوابت الإيمان الراسخة في نفوسنا ، ومن شأنها طمس أفكارنا التقدمية ، لا في الدين وحده وإنما في سائر مجالات حياتنا الثقافية والاجتماعية . أقول بعد مرور أكثر من نصف قرن تقريبا على مقامي في سجن الدامر ، إن المسلمين في هذا الزمان بلغوا قمة الانقسام إلى سلفيين ومستقبليين ، وهوانقسام ضروري للمجتمع شريطة ابتعاد الطائفتين عن التطرف المقيت المصحوب بالعنف والإنقلابات العسكرية ، لفرض أفكارهما ومناهجهما ، وشريطة ابتعادهما أيضاً عن تبادل الألقاب المعيبة كالرجعية والإلحاد والتكفير . وعلي السلفيين أن يدركوا أنه ما من عهد مضي منزه عن العيوب والمثالب ، وأن استدبار الحاضر واحتضان الماضي ظاهرتان يرفضهما ناموس الحياة المتحركة دائما إلى الأمام . أن الإسلام نفسه دعوة تقدمية مستقبلية مستمرة لدي مقارنته بعصور الجاهلية ، ولولا ذلك لما أصبح صالحا لكل الأزمان . أما المستقبليون وأنا أميل إليهم من سواهم ، فإن عليهم أن يذكروا أن احترام أسلافنا وماضينا عاطفة لا عيب فيها ، فالأمة التي تتنكر لماضيها وتنفر منه غير جديرة بالبقاء . إنما علينا دراسة تأريخنا وتمحيصه في جرأة وموضوعية ، وتقييم أسلافنا بعيدا عن الشطح والتغالي . وعلي المستقبليين أيضاً أن يتجهوا إلى بث الوعي بين الجماهير وتنويرها ،لكي تتحرر من النظم وأنواع الحياة التي ألفتها حتى تقبل ما لا تألفه من أشياء نافعة جديدة . قد يقتضي ذلك زمانا طويلا ، لكن التدرج أضمن دائما لتحقيق الغايات وأبقي لها ، على عكس النهج الثوري الفوري المهدد دائما بالإنتكاس . التدرج يخضع للعقل ويسترشد به . وفي الثورة جموح وجنوح لأنها وليدة العاطفة والمشاعر العابرة .التي سرعان ما تنطفئ جذوتها مع دوران عجلة الحياة ، وتنقلب على بنيها لتحصدهم واحدا تلو الآخر كالهرة المجنونة آكلة بنيها . هكذا فعلت الثورات على مر التأريخ : الثورات الفرنسية والبلشفية في أوروبا والمهدوية في السودان وأخيرا ٢٣ يوليو في مصر!! وفي فمي ماء فكيف ينطق من في فمه ماء ؟؟

ليست هذه دعوة للبقاء في كهف مظلم لا مخرج منه ، وإنما دعوة لاستخلاص ما في الكهف من مشاعر إيجابية وتراث معبر عن قوي التقدم في مجتمعاتنا لمسايرة روح التطور والتجديد .

من ناحية أخرى كانت تلك الكتب الصفراء التي يأتينا صاحبنا بها مصدر تسلية لنا في عـالم ، لا تتوفر فيه مرافق التسلية واللهو الأخـري ، كالسينما والمسرح والراديو ، باستثناء عروض مسـرح الممثل الواحد التي يمتعنا بها عبد الرحمـن قرشي ، لعله أول من ابتدع هذا الفن المسرحي . وقرشي هذا من أهلنا الرباطاب ، حرفته السرقة خاصة ما يعرف منها بالكسر المنـزلي ، أو «زوار الليل» . طاف قرشي بمعظم سجـون السودان إلى أن أصيب بلوثة في عقله ، فأودع السجن حماية للمجتمع من نوباته الجنونية . ومن حكاياته أنه تسلل ليلة إلى بيت في أم درمـان وأهله نيام ، وداهمته لسوء حظه نوبـة سعال أيقظت من في البيت ، فتسلق الجدار هاربـا وتبعـه رب البيت وظل جاريا وراءه لا يمسكه كلما لحق به في آخر الشارع فيعود قرشي راجعـا ويواصل صاحب البيت العـدو خلفه كأنهما عداءان في مضمارللسباق . امتد السباق ساعـة كاملة طوى الاثنان فيهـا الشارع جيئة وذهابا عشرين مرة حتى نال قرشي ما نال من التعـب ، فجلس على الأرض لاهثا لا يستطيع حراكا ، أمام البيت الذي كان بداية الملحمة المنحوسـة!! ويمضـي قرشي في حكايته المأساوية قائلا إن رب البيت كان نبيلا ﴿ود ناس﴾ ، اقتاده إلى داخل البيت وقدم له ماء باردا أطفأ ظمأه وأطعمه ، ودعاه لقضاء الليلة في ضيافته حتى الصباح ، قبل قرشي الدعوة لأنه مرهق للغاية لا يقوى على المشي خطوات . نام قرشي نومـا عميقا على فراش وثير وتحت مروحتين في غرفة عبقة برائحـة البخور . ودعه صاحب البيـت في الصباح راجيا منه ألا ينقطع عن زيارتهـم في المستقبل . يروي قرشي لنا حكاياته بأسلـوب درامـي ، معبرا بالكلمة والحركة ، كما يفعل الممثـل القدير على خشبة المسرح !! . يدعي قرشي أن له خليلة من الجن تأتيه من تحت الأرض في صورة ضفدعة ، وكثيرا ما نجده مستلقيـا وأذنه علـى الأرض يتسامر مع الضفدعة المزعومة . واتهـم قرشي مرة الحاج ابرهيم السنغالي بأنه عمل سحرا لحبيبته الضفدعة وحبسها في قعر بئر السجن . ولما لم تجد توسلاته

لإطـلاق سراحها هرع قرشي في غفلة إلى البئر ، ونزل إلى قاعها مستعينا بحبل الدلاء ، قبل أن يلحق به أحد ، وأقسم ألا يبرح القاع عائدا إلى السطح إلا ومعه الضفدعة المسحورة . كان مأزقـا حرجـا لم تنفع كل المحاولات للخروج منه ، لا سيما أن البئر مصدر الماء الوحيد لنزلاء السجـن . جاء الفرج أخيرا بفضل الأونباشـي عوض سعيد ، وهو رجل خبر الحياة وعركته ، يمتاز بذكاء فطري ودهاء ، وبسعة الحيلة . أمضي قبل عمله في السجون فترة من حياته مقاتلا ضد النوير المتمردين ضمن فرقة السواري التي كان حامد صالح الملك (الباشا في ما بعد) من أشهـر ضباطها الوطنيين . تفتق ذهن الأونباشي عوض عـن حيلة عبقرية ، فأحضر ضفدعة وعلـق علـى ساقها ورقة ملفوفة على هيئة حجاب ثم أسقطها على رأس قرشي داخل البئر ، فتناولهـا بين يديـه فرحا بها وانخرط في سيمفونية من الزغاريـد المجلجلة . خرج قرشي إلى السطـح بنفسـس الطريقة التي تدلى بها وحرق أولا الحجاب المعلق على ساق الضفدعة ابطالا للسحر!! وظل قرشي محتفظا بالضفدعة أياما ثم هربت!!

أمضيـت الأشهر الستـة الأولى داخل السجن في الدامر معـزولا عن العالم الخارجي أعمـل نهارا في مكتب الضابط مساعدا لكاتب السجن الرجل الطيب النبيل أحمد بخيت ، ثـم وقـع الانقلاب المنتظر فأصبحت سجينا (مضمونا) تحت كفالـة قريبي الشيخ أبو القاسم الإمام نائب القاضي الشرعي . وزوجة ألشيخ أبو القاسم شقيقة يوسف المأمون زميلنا في حزب الاتحاديـين وأبوه عمنـا المأمون من أعيان الرباطاب في حي الموردة بأم درمان . ألحقت كسجين مضمـون بخدمة صديقي الشاعـر المعروف توفيق صالح جبريل نائب المأمور كسائس لحصانه الأعرج الذي لم أره إلا في أبيات ساخرة من شعر توفيق :

فحصاني أعرج محدودب ... كان يمشي خطوة أو لم يكد
يقتني في الشهر خمسا ولنا ... منه في القسمة ما نال الأسد
ما رأي حبا ولا رطبا سوي ... ظل سدر ثم حبل من مسد
فتلاشي السدر والظل ولم ... يبق إلا شبه ظل للوتد

وكان لكل إداري في ذلك الزمان حصان يتجول به في المدينة لتفقد أحوالها وتذكير الرعية دائما بالسلطة الحاكمة . ولكل حصان مخصصات تتفاوت حسب رتبة صاحبه ، يتلقاها الإداري كل شهر مع راتبه لشراء العلف وراتب السائس الذي يرعاه ، وهو غير السجين الملحق بخدمته مقابل خمس مليمات في اليوم تدفعها سلطات السجن للسجين عند الإفراج عنه!! كانت مخصصات حصان توفيق في تلك الأيام خمس جنيهات أي نصف راتبه تقريبا مع الفارق الكبير في احتياجات الاثنين من مأكل وشراب ولباس ومسئوليات عائلية . هكذا أمضيت باقي فترة السجن في ضيافة توفيق مكرما ومنعما ، أغدو إلى بيته قبالة السجن صباحا فألقي في رحابه مغتسلا باردا وشرابا .

وكم شربنا بجمع الشمل صافية كالصرخدية قد علت بسلسال
إذ منتدى الفضل نادينا وخمرتنا مما يدار بكأس المنطق العالي

وأعود في العشية إلى السجن وربما لا أعود - باتفاق مع الحراس - حين يمتد سامرنا أحيانا إلى ما بعد منتصف الليل . وفي تلك الأيام ابتدع توفيق فلسفة «رأس الحكومة» ، ويعني به القبعة التي كانت جزء من زيه الرسمي يرتديها أثناء ساعات العمل . وعندما يعود آخر النهار يخلعها قبل أن يتخطى عتبة داره ويسلمها للخادم ليعيدها له في الصباح . واحتدم الخلاف مرة بيني وبين توفيق حول إعراب الآية الكريمة «فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين» فدلف توفيق إلى الغرفة المجاورة ، وظننت أنه يريد أن يحضر مرجعا من كتبه المتناثرة في أرجاء المنزل ، لكني فوجئت به يعود والقبعة على رأسه ليقول لي متصنعا الحزم والصرامة «يا سائس مكانك الإصطبل ، فأذهب إليه ولا تغالط الحكومة لأنها أعلم من سيبويه» وسرعان ما أسقط في يده عندما هتف الحاضرون وأنا معهم «تسقط الحكومة» . فرمي توفيق القبعة بعيدا مستعيذا بالله . وتبين لي في ما بعد أن نائب المأمور كان على صواب وأن ما ذهبت إليه ضعيف عند معظم النحاة . وكان معنا من علماء اللغة في تلك الليلة الشيخان أبو القاسم الإمام ، وشيخ

كليـب ناظر المدرسة الأولية . وكثيرا ما كنا نمضي أيام العطلات في أنس شيق وسمر عند ملتقـي نهـر أتـبرا بالنيـل . وهنـاك يهبـط الوحـي علـى الشاعـر :

إلى جنة في شاطئ النيل برة تطالعنا الأمواه إيان ننظر
أزاهيرها الحمراء مسدلة على عناقيدها والنخل فيها مزنر
وغنت لنا هيفاء تختال كيفما يحركها ناي وعود ومزهر
أقمنا بها حتى الضحي في خميلة تطوف علينا بالقوارير كوثر
تألقت الأرواح صفوا ورقة وتاقت إلى ما ليس يبدو وينظر

وكوثر التي أشار الشاعر إليها فنانة في صوتها غنة عذبة شيقة ، لها ذخيرة لا بأس بها مـن أغاني التراث خاصة الحماسية ، وتؤدي أيضـاً أغاني التم التم الخفيفة ، وتحسن الرقص علـى دقاتها مثلما تحسن الرقص التقليدي . فنانة بحق تغني وترقص وتضرب على الدف في آن واحد . اسمها الحقيقي الزلال لكن القافية جعلتها كوثرا ، ربما من قبيل التورية لأن الكوثر والـزلال صنـوان . ولعلها أعادت لتوفيق ذكريات فوز صاحبـة الصالون الشهير ملتقي أعضاء جمعيـة الاتحاد السوداني السريـة في عشرينات القرن الماضي . وفوز لقـب أطلقه عليها رواد الصالون وطغي على اسمها الحقيقي (الشول بنت حلوة) .

رأيت توفيق أول مرة عام ١٩٤٦ ، في لقاء عابر على رصيف محطة الخرطوم حين جاء لـوداع ابرهيـم بدري الذي كان في طريق عودته إلى جنوب السـودان ، ولم يعر أي منا انتباها للآخـر ، بـل أني حسبت توفيقا في بادئ الأمر شقيقا للفنـان كرومة سلطان الطرب في تلك الأيام فقد كان يشبهه في خلقته وهندامه البلدي والفصادة (الشلوخ) على الخدين ، ولا يبدو عليـه مـا ألفناه في الإداريين من سمات الرهبة والهيلمان . حتى أن صبيا احتك بتوفيق عند درجات سلم القطار ، محاولا نشل محفظته فانتهره توفيق معاتبا : مش عيب يا شاطر تنشل نائـب مأمور غلبان ؟؟ وطأطأ الصبي رأسه خجلا ثم ولي مختفيا بين الجمهور بحثا عن صيد من الموسرين ذوي الجيوب المنتفخة .

ينتمي توفيق لأسرة عريقة من قبائل الكنوز المنتشرة في مصر والسودان ، التي هاجرت في الأصل من شبه الجزيرة العربية إلى مصر في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان .وتنسب القبيلة إلى جدها الأكبر العارف بالله نجم الدين بن عثمان الملقب بكنز الدولة ، وله مقام يزار عند باب الوزير في القاهرة . والكنوز نفس القبيلة التي ينتمي إليها الإمام محمد أحمد المهدي ، والأميرالاي عبد الله بك خليل ، وعبد الله ميرغني قطب حزب الاتحاديين وعثمان صالح ، رائد الرأسمالية الوطنية .

كان صالح بك جبريل من ضباط الجيش المصري الذين رافقوا الحملة المصرية البريطانية ، بقيادة لورد كتشنر لاسترجاع السودان في آخر القرن التاسع عشر . ويعود الفضل إليه في انقاذ الفيلق البريطاني يومذاك من كمين وقع فيه في الطريق إلى دنقلا .ولولا تدخل صالح بك جبريل ورجاله في آخر لحظة ، لهلك الفيلق بأكمله على يد الدراويش بقيادة الأمير عثمان أزرق المشهور بلقب ثعلب الصحراء نفس اللقب الذي أطلقوه على الجنرال الألماني روميل خلال الحرب العالمية الثانية .

لم يكن توفيق موفقا في حياته العملية التي بدأها معلما ثم تاجر حمير ، قبل التحاقه بمدرسة نواب المآمير في عام ١٩٢٣ وتخرج نائب مأمور في السلك الإداري . بقي توفيق في هذه الوظيفة حتى تقاعده ، دون ترقية أو يحزنون . كانت أمامه في سلم الترقية خمس درجات على الأقل . ويرجع ذلك إلى أن متطلبات النجاح في السلك الإداري ، لا تتناسب مع طبيعة شاعر مثله اختار الحياة خارج النظام في شعره وسلوكه في الحياة بوجه عام . سألت توفيقا مرة عن سر تجاوزه في الترقية حتى لمنصب مأمور فرد على ساخرا : لأني وجدت في بني تميم من ينهاني!! ثم أنشد ساخراً :

بني تميم ألا فأنهوا سفيهكم إن السفيه إذا لم ينه مأمور

وينظر توفيق حوله ليري أقرانه ومن تلوه يتدرجون إلى أعلي المناصب فيعزي نفسه قائلاً :

فإن فاتني في ظل قوم مقيد فما فاتني في المكرمات طليق

ويقول أيضاً :

قد كنت أستطيع الحياة مدللا في ظل عيش منهم ممدود
وأظل أرقي كيفما هيأتم لمؤمر ومفتش وعميد
لكني آثرت أن أسمو إذا ما راع قومي حسرتي ونشيدي

وتوفيق صالح جبريل أحد مؤسسي جمعية الاتحاد السوداني السرية ينسب إلى جناحها الداعي لوحدة وادي النيل لكنه لم ينضم إلى اللواء الأبيض مع الآخرين المنشقين على جمعية الاتحاد السوداني بزعامة عبيد حاج الأمين وانما بقي مناصرا لحركة اللواء الأبيض من بعيد . ولتوفيق شقيقان أشتركا في تلك الحركة أحدهما على الطالب في الكلية الحربية والثاني اليوزباشي سر الختم رأس الحركة في كردفان . وقد دون سر الختم مذكراته بقلم الرصاص في كراسة روي فيها أحداث ١٩٢٤ في كردفان حيث كانت ترابط وحدات من الجيش المصري في الأبيض وتلودي إلى جانب حياته خلال الفترة التي أمضاها في سجن كوبر ثم في مصر وبريطانيا بعد خروجه من السجن . ولعل اليوزباشي سر الختم (سري) صالح جبريل أول سوداني تزوج سيدة بريطانية ، حضرت إلى السودان وأقامت معه في منزله المعروف بسراى سري في حي القلعة بأم درمان ثم عادت لوطنها في بريطانيا . وآخر عهدي بالكراسة التي حوت مذكرات سري في خزينة توفيق ولا أدري إلى أين انتهي بها المصير ، وهي مهداة لصديقه الأميرالاي عبد الله بك خليل . وتوفي على عبد اللطيف رئيس جمعية اللواء الأبيض في مستشفي للأمراض العصبية في مصر خلال مقامي في سجن الدامر . لم أحزن لوفاته كثيرا لأن حركة اللواء الأبيض في اعتقادي نكسة في مسيرة الحركة الوطنية أسفرت عن عكس ما تنادي به ، استقلالا كان أم اندماجا في مصر . قضت الحركة على جمعية الاتحاد السوداني بانشقاق العديد من أعضائها عنها لينخرطوا في سلك اللواء الأبيض للعمل في العلن ، وأطلقت من ناحية أخرى يد البريطانيين في السودان ، كما كانت سببا

في الإطاحة بسعد زغلول في مصر فلم تقم له قائمة بعد مقتل سير لي ستاك سردار الجيش المصري وحاكم عام السودان في القاهرة . والمعروف أن مقتله السبب المباشر لاشتعال أحداث حركة اللواء الأبيض في السودان ، مما يعزز الرأي القائل إن تلك الحركة مؤامرة نسج خيوطها المندوب السامي البريطاني في القاهرة والملك أحمد فؤاد الأول . المندوب السامي كان يهدف من ورائها لاطلاق يد بلاده في السودان . أما الملك فؤاد فقد كان همه التخلص إلى الأبد من سعد زغلول الذي صار مع حزبه ﴿الوفد﴾ شوكة في جنب الملك . وتحقق الهدفان بفضل اللواء الأبيض .وقد استعان المتآمرون سواء في مصر أو السودان بعدد من عملاء بريطانيا والملك فؤاد المعروفين من السياسيين في مصر والموظفين وضباط الجيش المصري في السودان . ومن أولئك السياسيين عبد الرحمن فهمي رئيس اتحاد عمال النقابات في مصر الذي كان كثير التردد على الخرطوم وأتبرا .أصبح عبد الرحمن فهمي رجل بريطانيا الأول في مصر منذ تولي حزب العمال الحكم بزعامة ماكدونالد ، ومهمته الأولى صد المد الشيوعي في شقي وادي النيل . واستطاع فهمي بفضل التنظيمات التي أنشأها في أتبرا والخرطوم اكتشاف أول مطبوعات شيوعية تسربت إلى السودان في أول العشرينات من القرن الماضي ، ولعب دورا كبيرا في التحريض على أحداث ١٩٢٤ . وعلي من يريد الاطلاع على مزيد من تفاصيل المؤامرة البريطانية الملكية وراء أحداث ١٩٢٤ في السودان أن يرجع إلى مذكرات الأديب والمفكر المصري لويس عوض الذي استقي ما رواه عن تلك الأحداث من الوثائق البريطانية . وغاية القول أن اللواء الأبيض حركة مهووسة مضطربة لم تكن خاضعة لقيادة موحدة . قامت باسمها ودون علم قياداتها في الخرطوم حركات تولت تنظيم مظاهرات في العديد من المدن تحمل العلم المصري الأخضر بدلا من الأبيض . بل إن طلبة الكلية الحربية خرجوا حاملين العلم المصري في مظاهرتهم التي كانت أشد المظاهرات إثارة للمشاعر الوطنية وتأثيرا على الرأي العام . لقد خرجت يومذاك عشرات المظاهرات ليس بينها كما روى المعاصرون سوى ثلاث منها تحمل الرايات البيضاء شعار اللواء الأبيض . أعلم أن حديثي هذا لن يعجب أحد لأن حركة اللواء الأبيض بقرة مقدسة في تأريخ مسيرتنا الوطنية لا يقبل خدشها بأي حال

من الأحوال . وكل من فاته شرفها يدعي صدقا أم كذبا أن له قريبا شارك فيها ، ولا تكتمل صـورة البطولـة لأحد مالم ينسب إليه صدقا أو كذبـا دور في حركة ١٩٢٤ . إنني لا أنكر أن حركة اللواء الأبيض بغض النظر عن نتائجها لعبت دورا كبيرا في إذكاء الشعور الوطني ونشر الوعي بين أبناء الشعب السوداني ضد الحكام البريطانيين . ولا أنكر أيضاً ما شهدته الساحة يومـذاك من بطولات مدهشة نفاخر بها . والسودانيـون بطبعهم مغرمون بالأبطال والبطولات وبالشجاعـة والشجعان . وهذا سر ترحيبهم دائما بالانقلابـات العسكرية يتسابقون قبل أن تنفد كلمات «البيان الأول» على تأييدها ونصرتها حتى إذا تكشفت الحقيقة لهم طال الزمن أم قصر يخرجون إلى الشارع هاتفين «إلى الثكنات يا فتيات» . أما الشجاعة فإننا في السودان وغير السودان نفهمها فهما خاطئا ولا نجعل عند تقديرها وزنا لما يترتب عليها أو ما تحققه من أهداف وغايات . فالشجاعة لا تعرف عندنا إلا بنقيضها وهو الخوف حيث يصبح الشجاع من لا يخـاف أويهاب اقتحام الأخطار دون مبـالاة .إن الشجاعة لا تعني عدم الخوف وانما تعني الانتصار عليه وعدم الاستسلام له . ورب شجاع مقدام يكون اقتحامه للأخطارعن جهل لها وغباء كالحيوان حين ينقض على فريسته دون إدراك للعواقب . الشجاعة التي تميز الإنسان عن الحيوان هو أن يبصر الإنسان الخوف ثم لا يستسلم له أو يصرفه الخوف عن غايته . أن يكون الإنسـان أقـوى من الخوف حين يخاف بل ربما يكون الخوف مـن حساب الضمير ومن العار والصغار أقوى دافع يسوقه إلى اقتحام المعارك ومواطن الأخطار فهو إذن خائف شجاع وشجاع يرتعـد خوفا . وفي رأيي أن أهم أسباب فشل حركـة ١٩٢٤ يتمثل في عجزها عن استقطاب المطالـب الاجتماعية للجماهير أو المناداة بتحسين أحوال عامة الشعب السوداني .لقد اتجهت الحركة بدلا من ذلك إلى فئات العسكريين والموظفين وصغار التجار . وأخطر ما وقعت حركة اللـواء الأبيض فيه أنها حملت في طياتها طابعا عرقيا مما فتح الباب أمام خصومها والسلطات البريطانيـة الحاكمة للإيقاع بـين مكونات المجتمع السوداني الذي لم يتحرر حتى ذلك الحين مـن النعـرات القبلية زيادة على مخلفات ورواسب الرق الـذي لم يمض على إلغائه رسميا في السـودان آنذاك أكثر من عشرين عاما . على أية حـال لو كتب لحركة اللواء الأبيض النجاح

لأصبح السودان ولاية تابعة لمصر ولأصبح أهله رعايا للجالس على عرشها ، ولكن كتب للحركة الفشل وترتب على ذلك اطلاق يد البريطانيين في السودان وانفرادهم بإدارته لمدة تربو على الثلاثين عاما . ولا أريد الدفاع عن الطابع الاستعماري للإدارة البريطانية في السودان ولكني أتساءل : هل كان من الممكن أن يحقق السودان ما حققه خلال الثلاثين عاما من ازدهار وتقدم مادي ومعنوي ، لو بقي الوضع القائم في السودان قبل عام ١٩٢٤ أو لو أصبح السودان ولاية مصرية ؟؟ وهل كان من الممكن أن يتم جلاء البريطانيين مدنيا وعسكريا من السودان قبل جلائهم عن مصر ؟؟ الإجابة على هذه التساؤلات يجب أن تكون معيارنا لتقييم حركة ١٩٢٤ وتحديد ما لها أو عليها .

إننا يجب أن ننظر إلى جمعية اللواء الأبيض ودورها في أحداث ١٩٢٤ بعيدا عن هالة القداسة التي نخلعها عليها ، وهي جديرة بالدراسة الجادة لما تنطوي عليه من خلفيات ومؤثرات نحن أشد حاجة اليوم لتحليلها وتقييمها من أجل تأمين التلاحم العرقي الذي ننشده في سودان المستقبل .

محطة ٨

* شهر العسل بعد الإفراج من السجن * مضايقات السلطات في العاصمة وبورتسودان * مجابهة فرعون الصغير في الخرطوم * عزام وعلوبة والجامعة العربية * مقهى خرلبو ملتقي الأدباء والمفكرين * الأدب الرخيص في سوق الموية * عبد الله بك خليل ينقذ الموقف ويرسلني لمشروع الزاندي * أنزارا تشهد أول تنظيم نقابي في الجنوب * بوادر التمرد في الجنوب * جماعة اتحاد المسلمين العالمية * تعديل دستور الحكم الذاتي * مولد الحزب الجمهوري الاشتراكي

لم يـدم شهر العسل طويلا عقب خروجي من السجن!! أمضيت الأيام الأولى ، متنقلا بين أتبرا ودار الرباطاب وسط حفاوة الأهل والأصحاب . كانت في انتظاري يوم خروجي مأدبة غـداء فاخـرة في النادي الأهلي حفلت بما لذ وطاب من مـأكل وشراب ،أشرف على إعدادها ابرهيم المحلاوي رئيس النادي . وكانت لفتة بارعة منه حين اتصل بي قبل أيام من خروجي مـن السجن ، طالبا مني اختيار قائمة الطعام . كان بـين المدعوين لفيف من الأصدقاء أمثال سليمـان موسي وقاسم أمين وتاج السر حسن وابرهيم زكريا وكلهم من قادة الحركة العمالية ، وعوضـ الله دبـورة ، ومصطفي عبد القادر رئيس حزب الاتحاديـين في أتبرا ، وصادق سكرتير الحزب الذي دعاني لمأدبة مماثلة في منزله في اليوم التالي . شددت الرحال بعد نحو أسبوعين إلى العاصمـة ، واستقبلنـي في محطة شندي عبد المنعم حسب الله ومحمد على الطيب ونفر من رجال الحركة الوطنية في المدينة منهم العم الطيب بابكر وصديقي محمد الحسن محمد سعيد . وبقـي القطار في محطـة شندي نحو نصف ساعة تباري خلالها الخطبـاء من فوق سلم عربة

القطار . وسرعان ما التف حولنا جمهور غفير ، وتحول الاستقبال إلى مظاهرة هادرة تردد هتافات معادية للاستعمار ، شاركت فيها محمولا على الأكتاف . كان آخر الخطباء العم الطيب بابكر (والد الشيوعي المخضرم التجاني) الذي لم تلتقط أذناه من شدة الصخب زيادة على ثقل سمعه صفارة الكمساري مؤذنة بتحرك القطار . انطلق القطار ولما يترجل العم الطيب من فوق السلم ، وظـل مستمرا في الـكلام حتى اجتاز القطار رصيف المحطة ثم توقف لحسن الحظ خارجها في انتظـار الإشارة الأخـيرة بانطلاقه للمحطة التالية . هكذا سنحـت الفرصة لعم الطيب بابكر للنـزول ، وأغلب الظن أنه عاد إلى المحطة ليواصـل مخاطبة الجماهير . كان رحمه الله خطيبا ساحرا يمتلك ناصية الجماهير كلما أطل عليها من فوق المنابر بعباراته الوطنية الحماسية .

واصلـت الرحلـة مع عبـد المنعم ومحمد علـى الطيب إلى الخرطـوم ، حيث كان في استقبالنا لفيف من قادة حزب الاتحاديين على رصيف المحطة . وسرنا في موكب من السيارات الخاصـة والتاكسي إلى أم درمان . ولما بلغنا كوبري النيل الأبيض ، فوجئت بابرهيم الكاشف يغنـي «أفكاري حيارى»!! أخذت أتلفـت يمينا ويسارا بحثا عن مصدر الصوت ، وقد حسبته في بـادئ الأمـر صادرا من مذيـاع أو حفل نهاري في حديقة المقرن ، لكـن الكاشف واصل الغنـاء حتى وصلنا إلى مشارف حي المـوردة . وازددت دهشة عندما أعقبه صوت المذيع . ولما تساءلت ، ضحك من في السيارة الهيلمان المزودة بجهاز راديو!! هذه الظاهرة الحضارية لم يكن لهـا وجود قبـل دخولي السجن .أما أجهزة الترنزيستور والريكوردر فقد جاءتنا في السودان بعد ذلك بسنوات . ظل خضر حمد صاحب السيارة ومبارك ميرغني ، منذ ذلك اليوم يستشهدان في مناكفاتهمـا معـي بهذه الحادثة بعد اضافة رتوش من نسـج الخيال ، كدليل على تخلف الرباطـاب حضاريا عن معشـر الدناقلة!! التقينا جميعا في ذلك اليـوم على مائدة الغداء في بيـت عبـد الله ميرغني ، ولمست خلال ما دار من نقاش حدة الخلاف بين الاتحاديين ، حول موقفهم من مشروع تعديل الدستور الذي غمرت ارهاصاته يومذاك الساحة الوطنية . بعضهم يؤيد المشروع بزعامة عبد الله ميرغني وحسن عثمان اسحق وآخرون يمثلون الأغلبية يرفضونه

بزعامة خضر حمد وحسن الكد . كنت أميل إلى الرافضين ، لكنني أري مع فريق آخر بزعامة حماد توفيق وابرهيم يوسف سليمان ، أن من السابق لأوانه الإعلان عن أي موقف محدد من هذه القضية في تلك المرحلة المبكرة التي علينا فيها المحافظة على وحدة الحزب وبالتالي وحدة صفوف الحركة الوطنية ، التي كان واضحا تمسكها بالرفض ، خاصة حزب الأشقاء ومن ورائه أو قدامــه الحكومة المصريــة . أدي الخلاف حول تعديل الدستور في النهاية إلى تصدع الحزب لكن علاقاتنا الأخوية الحميمة لم تنقطع على عكس ما حدث ، ولا يزال يحدث في أحزاب أخري ، حيث ينحدر الخلاف بين أصدقاء وزملاء الأمس إلى عداوات سافرة فاجرة . ضمت المائدة في ذلك اليوم صينية كنافة ضخمة فخمة ، انفرد محمد الخليفة طه الريفي بها والتهم معظمهــا . ولقيت الريفي بعد ذلــك بسنوات وسنوات في القاهرة ، وقد اشتد مرض السكري به ، وذكرت له تلك الواقعة فرد على في سخريته المعهودة قائلا «أنا أصلي سكر ومع السكري أصبحت سكر زيادة !!» .

بقيــت في العاصمةِ قرابة شهرين أبحث عن عمل دون طائل ، ولم تكل السلطات من متابعتــي آنــاء الليل وأطراف النهــار ، حتى غدا الأمر بيني وبينها أشبــه بلعبة القط والفأر . والأخــير هو الخاسر في النهاية لا محالة .جلست في إحدي المرات لامتحان لوظيفة كاتب في مجلســ مدينة الكاملين ، القريبة مــن الخرطوم ، ووقع الاختيار على بعد المعاينة التي أجراها مفتشــ المركــز البريطاني وهو في طريقه لقضاء العطلة في بــلاده . وعدني المفتش بالاستعداد لاستــلام العمل فور عودتــه . فوجئت خلال غيابه باختيار شاب آخــر في مثل سني لنفس الوظيفــة ، مــع أن ن مؤهلاته الدراسية أقــل مني بكثير . وقد أصبــح الشاب في ما بعد من الأفذاذ في إدارة الحكم المحلي في البلاد!! وزاد من عنائي أن الشارع الذي أسكن فيه لا يخلو في أيــة لحظة ، من رجال المخابرات الذين أصبحوا مــن كثرة زجري لهم والاحتكاك معهم ، يتصرفــون معــي من منطلق الحقد والعداء الشخصي أيضــاً . اكتشفنا مرة أحدهم مختبئا في ركن غرفة مظلمة في النادي ليسترق السمع لما يدور بيننا من حديث أو لسرقة بعض الأوراق

والوثائق ، فأوسعناه ضربا وشتما حتى أطلق ساقيه للفرار طالبا النجاة وذيله بين فخذيه كالكلب المذعور!! لا يمضي أسبوع في تلك الأيام دون استدعائي للتحقيق مرة أو مرتين فأيقنت أن السلطات لن يهدأ لها بال ، حتى تراني وراء القضبان مرة ثانية . لم أكن خائفا من هذا المصير ، لكنني كنت مؤمنا بأن موقعي في قلب المعركة ، إذ ما نفع السيف حين يبقي في قرابه بينما المعركة في عنفوانها؟؟ آثرت في النهاية الانتقال إلى مدينة بورتسودان على أجد حظا أوفر ، زيادة على أنها صارت معقلا صامدا وقلعة منيعة للنضال ، منذ دورها الرائع في مقاومة الجمعية التشريعية . كانت لحزب الاتحاديين في بورتسودان لجنة نشطة أصابها بعض التراخي بسبب ارتحال سكرتيرها محجوب عثمان إلى الخرطوم والتحاقه بصحيفة الرأي العام . رحب الحزب بفكرة ذهابي إلى بورتسودان على أمل أن أنفخ الروح في لجنتنا الفرعية حتى تستعيد من جديد مكانتها القيادية في الحركة الوطنية هناك .

تستغرق الرحلة على القطار بين الخرطوم وبورتسودان ٢٤ ساعة تقريبا . القطارات في ذلك الزمان تسير بانتظام وفق مواعيد دقيقة للغاية ، وأسباب الراحة فيها وافرة لركابها على مختلف الدرجات ، خاصة عربات النوم التي كانت – إذا تجاوزنا عن حجمها- كغرف الفنادق الفاخرة بمخادعها الوثيرة وتهويتها الجيدة ، فضلاعن نظافتها وتأمينها ضد الضوضاء والارتجاج ، حتى أن الراكب لا يعرف إن كان القطار واقفا أم منطلقا بأقصي سرعته ، إلا حين يطل من النافذة . تحرك القطار بنا من محطة الخرطوم في الصباح . ذهبت في منتصف النهار إلى عربة البوفيه فقابلني العم شورة (وكيل البوفيه) ، مهللا في فرحة وابتهاج مما لفت أنظار الآخرين لا سيما الخواجات . والعم شورة مناضل شرس متطرف في عدائه للبريطانيين .لم يقعده الربو وكبر سنه عن الخروج في المظاهرات بل تحريكها في بعض الأحيان . جلست إلى مائدة سبقني إليها رجل وقور قدم لي نفسه بأنه رجل الأعمال عبد الحافظ عبد المنعم ، وهو ذاهب إلى بورتسودان في مهمة تتعلق بشركة عبد المنعم محمد من كبريات المؤسسات الاقتصادية الوطنية . قال عبد الحافظ لي إن له صلات طيبة مع معظم الشركات ورجال الأعمال في بورتسودان ،

ويسعده أن يزكيني لديهم . ولحق بي العم شورة بعد الغداء يحمل ورقة بيضاء لأكتب عليها عريضة باسمه إلى مدير عام الخطوط الحديدية البريطاني ، طالبا منه العمل فورا على إعادة ترتيب لوني الأحزمة التي يرتديها عمال الفنادق وعربات البوفيه التابعة لإدارته ، لأن في نظامها الساري احتقارا لمصر وافتئاتا على حقوقها . رؤساء العمال (الوكلاء والباشصفرجية) يتمنطقون بحزام أحمر رمزا للعلم البريطاني بينما خصص اللون الأخضر رمز العلم المصري لمن دونهم . وهذا نظام غير مقبول لأن مصر بعلمها الأخضر اللون - كما يري العم شورة - صاحبة السيادة وفاروق الأول ملك وادي النيل . وعليه يجب أن يكون اللون الأخضر علامة ميزة للرؤساء ، والأحمر لون العلم البريطاني للمرؤوسين!! من المفارقات أن العم شورة نفسه متمنطق بحزام أحمر باعتباره وكيل البوفيه!! ومع ذلك ، جبرت بخاطره وحررت العريضة لأفاجأ في وقت وجبة العشاء بالعم شورة ، يطوف بالعريضة على البريطانيين وغير البريطانيين ممن كانوا في البوفيه ويشير إلى بفخر واعجاب في كل مرة . وجدت في انتظاري في محطة بروتسودان فريقين ، أحدهما من أهلي الرباطاب يتقدمهم صديق العمر محمد عز الدين والمهندس أبو القاسم حاج حمد . أما الفريق الثاني فقد اختطفني (هاي جاك) وسط دهشة المستقبلين بعد وصولي بدقائق قلائل ، وأخذوني إلى مركز الشرطة ، حيث أجري الضابط ميرغني الأمين تحقيقا معي عن أسباب مجيئي إلى بورتسودان . وأطلق سراحي بكفالة مالية تعهد بها محمد عز الدين ، وبتعهد مني بحسن السير والسلوك لمدة ستة أشهر ، كما صادرت الشرطة ثلاثة كتب عثرت عليهما في حقيبتي : الغربال لمؤلفه ميخائيل نعيمة - وستالين لمؤلفه محمد صبيح عبد القادر - وجمال الأفغاني الذي لا أذكر اسم مؤلفه . اختفي عبد الحافظ عبد المنعم الذي عقدت الأمل عليه في السعي للعمل ، وباءت بالفشل كل محاولاتي للعثور عليه . فص ملح وذاب !!رحت أسعى من شركة لأخرى ، ولم يكن حظي بأحسن مما في العاصمة ، إذ قابلتني نفس العقبات . كان لي مع شركة جلاتلي وهانكي البريطانية التي اختارتني لوظيفة في جدة نفس التجربة التي مرت بي مع مفتش الكاملين (بحري الجزيرة)!! لم أكن في حاجة ملحة للعمل من أجل دخل مضمون فقد كفاني زملائي الاتحاديون مئونة

ذلــك ، بالإضافة لبعض الأهل . لكنني كنت حريصا على الالتحاق بوظيفة من أجل الهيبة والاحترام ، لأن السياســة الاستعمارية في ذلك العهد فرضت على المجتمع تقديس الوظيفة خاصــة في دواوين الحكومة . عرجت في طريق عودتي خائبا للعاصمة على مدينة سنكات ، بدعــوة من أحمد عاولي مدير دائرة الشريفة مريم الميرغنية لحضور «الحولية» التي درجت على اقامتهــا كل عام . الشريفة مريم إمرأة صالحة ، ومن كراماتهــا المأثورة أنها دشنت بدعواتها في سنــوات الحرب العالمية الثانية ما عرفــت بميليشيا المروج التي شقت طريقها من سنكات عبر الجبــال الوعرة إلى اريتريا ، فأسهمت في تحرير شمالها حتى ميناء مصوع . وعادت الميليشيا في نهايــة الحــرب بكاملها دون أن تخسر جريحا أو قتيلا . ووالد السيدة مريم هو السيد هاشم عم السيد على الميرغني .

صادفت في سنكات في تلك الأيام السيد أبوبكر من أسرة المراغنة في مصر . جاء لعقد قرانــه مــن قريبة له مقيمة مع الشريفة مريم ، التي كانــت مهمتها تنظيم الزيجات بين بنات ورجــال الأسرة المنتشرين في مصر والسعودية واريتريا والسودان . لم يكن مسموحا حتى عهد قريــب زواج نساء آل الميرغني مــن خارج الأسرة انطلاقا من مبدأ التكافؤ . وقد أجبر القضاء في مصر الشيخ على يوسف صاحب مجلة المؤيد ، الذي «جن جنونا ببنت النبي» على طلاق زوجته لأنها من الأشراف وهو فلاح بسيط دونها رتبة في النسب!! كنا نلتقي مساء في النادي مــع العريســ السيد أبوبكر . ولفت نظــري إلى جانب ضخامته أنه يتحــدث بلهجة مصرية شعبية ، يرسل النكات والقفشات تباعا دون تحفظ أو حساب ، ويضحك ضحكا مدويا مثلما يفعل رواد المقاهي البلدية في حواري القاهرة . وهذا سلوك غير معهود في السادة المراغنة . كان السيــد العريس يكثر من شراب الزنجبيل الساخن كوبــا إثر كوب . واعترف لنا بأن العطارين في القاهرة ، لما علموا أنه مقبل على اكمال نصفه الحلو ، نصحوه بالاكثار من تعاطي الزنجبيل مسحوقــا ومحلــولا . وقال السيد أبوبكر لنــا إن العطارين في مصر ، حدثــوه أيضاً عن وصفة سودانيــة تستخــرج من التمساح أشد مفعولا من الزنجبيل . وتســاءل السيد العريس إن كان

هنالك من يسعفه بها ؟؟ ثم أطلق ضحكة عالية جرتنا إلى الحديث عن الطب البلدي ، واتضح لنا أن السيد العريس ليس زبونا عاديا للعطارين في مصر ، وانما مرجع أيضاً في أسرار مهنتهم وخفاياها ، وكاد أن يطير من الفرح عندما أحضرنا له كتاب «مختارات الصائغ» الذي تناول مؤلفه فيه ألوانا مختلفة من الأدب والتاريخ والتراث الشعبي ، بما في ذلك أعمال السحر والطب البلدي وكتابة الأحجبة . مؤلف الكتاب عوض الكريم الصايغ شيخ سوداني من أعيان أم درمان . حرص على تذييل كل وصفة جنسية بلدية فيه بعبارة «جربته في أم أولادي» لكي يدفع عن نفسه الشبهات ويثبت في الوقت نفسه مصداقية وصفاته الناجعة المجربة . ومما يؤسف له أن هذا الكتاب القيم رغم رواجه في مجتمع «الفقرا» لم يجد اهتماما من جانب المعنيين بتراثنا الشعبي . وقد كتبت في منتصف الأربعينات مراجعة للكتاب في صحيفتي الشباب والأديب اللتين ذويتا في عمر الزهور . اغتالت الإدارة الاستعمارية الشباب عن طريق المصادرة والغرامات الفادحة ، وذوت الأديب متأثرة بفقر الدم أو بعبارة أخرى ضيق الموارد .

عدت في آخر المطاف من سنكات إلى العاصمة لأجد عبد الله ميرغني قد عدل عن المضي قدما في تنفيذ مشروع صحيفة يومية باسم الخرطوم حصل بالفعل على تصديق بها من السلطات وأحضر مطبعة لها من مصر (المطبعة الوطنية) وكنت موعودا بالعمل فيها . هكذا اقتصر نشاطي على المساهمة مع عبد المنعم حسب الله في تحرير صحيفة «اللواء» الاسبوعية لسان حال حزب الاتحاديين . رئيس تحرير اللواء المعتمد لدي السلطات محمد الخليفة طه (الريفي) كان متمسكا بالبقاء في القضارف ولا يأتي إلى العاصمة إلا لماما . كانت اللواء تصدر في أربع صفحات في حجم التابلويد وتباع النسخة منها بخمس مليمات يخصم ود المبارك متعهد التوزيع ربع تلك القيمة ولا يزيد ما نطبعه من الصحيفة بالمجان في المطبعة الوطنية على ستمائة نسخة وهذا رقم لا بأس به في تلك الأيام . واضطررنا إلى مضاعفة ما نطبعه من الصحيفة عقب مقالات كنت أكتبها بتوقيع (م خ .ب) عن فضائح زعماء حزب الأشقاء في القاهرة الذين آثروا إدارة المعركة ضد الاستعمار البريطاني من ردهات فندق الكونتننتال

وصالونـات الباشوات . نشبت بسبب هذه المقالات معركة ضارية بين اللواء وصحيفة المؤتمر ، أوقفناها من جانبنا عندما تبين لنا عن طريق ود المبارك وآخرين أن مكتب السكرتير الإداري يشتري كل أسبوع نحو خمسمائة نسخة من اللواء لتوزيعها في الأقاليم وهذا سر رواجها .

اتجهت إلى جانب مساهمتي في تحرير اللواء لميدان الأعمال الحرة ، فاشتريت سيارة لوري قديمة حسب اقتراح العم مدني أبشر الرباطابي ، لتعمل السيارة في ترحيل مواد البناء كالرمل والتراب والطوب والحصباء . وأبدي العم مدني الذي يمتلك أكبر متجر في أم درمان لمواد البناء استعـداده لضمان توفير العمل . غير أن السائق (مرحـوم) الذي استأجرناه لم يكن أمينا ولا مواظبا على العمل ، بسبب إدمانه على تعاطي الخمور البلدية ، كما أن سيارة اللوري القديمة نفسها كانت أشد منه إدمانا للوقود والزيوت وقطع الغيار . اضطررت بعد أسابيع لبيع السيارة لأريـح نفسي على الأقل ، مـن عناء البحث عن السائق المخمور في أوكار الخمور البلدية ، أو عن السيارة المدمنة في الجراجات!! هكذا فشلت تجربتي الأولى في دنيا الأعمال الحرة ، فرحت كمـا يفعل التاجر الذي أخني الدهر عليه أنبشـ الدفاتر القديمة بحثا عن ديون منسية!! وما كنت في حاجة إلى نبش الدفاتر ، وفي انتظاري ثلاثة آلاف جنيه على الأقل لدي جهة معلومة بيني وبينها فركة كعب .هذا المبلغ عبارة عن نصيبي من مكافآت مالية خصصها الملك فاروق لسجنـاء الجمعية التشريعية . قرر حزب الاتحاديين يومذاك رفضها لأسباب أخلاقية ووطنية ، في إطـار تصوره لعلاقة الند بالند بين مصـر والسودان في ظل وحدة وادي النيل . وقد أحضر ابرهيم المحلاوي في احدي زياراته لي في سجن الدامر مائة وخمسين جنيها كدفعة أولى من المكافأة الملكية ، لم أكتف برفضها امتثالا لقرار الحزب وإنما أرسلت أيضاً خطابا شديد اللهجة إلى مديـر الري المصري في الخرطوم الذي جاءت المكافـآت عن طريقه واستعان على توزيعها بالسيـد عمـر الخليفة . وقد أثار موقفـي دهشة ابرهيم المحلاوي وربمـا سخطه ، وقال لي وهو يودعنـي معاتبـا في نبرات أبوية : «يا بني هدايا الملوك شرف لا يجوز ردها» . لقد تغير الموقف الآن وأصبحـت في حالة اضطرار بعد خروجي من السجن لمواجهة مطالب الحياة ، والضرورة

تبيح المحظور . بدأت بعد مشاورات مع زملائي في حزب الاتحاديين بزيارة السيد عمر الخليفة في داره بحي العباسية في أم درمان . ذهبت إليه في المساء وألفيت معه الشيخ عبد الله البنا وأمامهما مائدة يتصدرها طبق حمام مشوي .حذرني شيخ البنا من الاقتراب من الحمام لأن لصاحب الدار مآرب أخري ، فاقتصرت على غيره ، ولم تمتد يدي إليه مع أن شيخ البنا انقض على طبق الحمام وازدرد في شراهة نصفه على الأقل . أحالني السيد عمر برسالة منه إلى مدير الري المصري . فذهبت إليه في اليوم التالي ليجابهني في غلظة واحتقار فور دخولي عليه بقوله : إن اسمي أبعد من قائمة المنتفعين بسبب الرسالة التي بعثتها إليه من السجن ، واعتبرها من ناحيته تطاولا على الذات الملكية العلية . لم يخف المدير امتعاضه مما ينشر في صحيفة اللواء ، وراح يعدد مآثر مصر وأفضالها على السودان . وقال كلاما لا أرضاه عن حزب الاتحاديين إذ وصفنا بالخونة ، وقال إننا أشد خطرا على وحدة وادي النيل من الانفصاليين ، لأننا كالذئب الجائع وسط قطيع الأغنام الغافلة!! واجتاحني شعور قاتل بالذل والصغار وكلمات مدير الري «فرعون الصغير» تخترق أذني كالقذائف الصاروخية الصاعقة . وخرجت من عند المدير مرددا قول بشار بن برد «أذل الحرص أعناق الرجال» . لم أحزن يومذاك على ضياع الثلاثة آلاف جنيه وما بنيته عليها من آمال حسبتها قريبة المنال ، بقدر حزني على ضياع كرامتي وكبريائي في موقف صنعته بنفسي حين اتخذت من شرف النضال في سبيل الوطن عاهة استدر بها العطف مثلما يفعل بعض المتسولين المعوقين أمام أبواب المساجد!! أخضعت نفسي يومذاك لحساب عسير . ليس من طبعي أن أخاف مما يقوله الآخرون عني بقدر خوفي من وخز ضميري وتوبيخه . كان ذهابي لمدير الري المصري هفوة لا مبرر لها عاقبت نفسي عليها بالصيام ثلاثة أيام تكفيرا عنها ، وتلوت خلالها المصحف . واستوقفتني الآية الكريمة «وتلك نعمة تمنها على أن استعبدت بني اسرائيل» ، وأنا استرجع صلف الفرعون الصغير وحديثه عن أفضال مصر ومآثرها على السودان . على أية حال كانت تلك بداية المنعطف الذي قادني في النهاية إلى محطة الحزب الجمهوري الاشتراكي . ومدير الري المصري كان دائما وأبدا الواجهة المعتمدة للسياسة الرسمية المصرية في السودان ، وما كان ليجرؤ على اتخاذ

مثـل ذلك الموقف مني لو كان يعلم أنه لن ينال رضاء القاهرة . وما قاله عن استياء المسئولين هنـاك من حزب الاتحاديين لم يكن سوى أصـداء لتصريحات معظم السياسيين المصريين في مناسبـات عديدة ، من منطلق تفسيرهم للوحدة بالاندماج الكامل ، وسايرتهم في هذا الاتجاه في خنـوع وخضوع الأحزاب الاتحاديـة الأخري . بينما انفرد حزب الاتحاديين بالدعوة لوحدة عمليـة مجربة بين دولتين مستقلتين على غرار رابطـة الشعوب البريطانية (الكومونويلث) لا وحـدة خيالية وقودها العاطفـة!! وما كنا ندعو إليه في حزب الاتحاديـين هو في الواقع صيغة وحدوية استقر رأي رواد الوحدة العربية عليها مثل عبد الرحمن باشا عزام وعلي باشا علوبة صاحـب فكرة مؤتمـر الوحدة العربية الذي عقد في بلودان بلبنان عـام ١٩٣٧ . وهنالك أيضاً فـؤاد باشا أباظة رئيس منظمة نـادي الاتحاد العربي . ونشرت مجلة الهلال المصرية في أوائل الأربعينـات مقالا ، بقلم علوبة باشا عبر فيه عن رفضه للوحدة العربية الاندماجية ، وقال إن مجرد التفكير فيها ومناقشتها مضيعة للوقت وإن الوحدة التي يتعين على العرب العمل على تحقيقهـا ، تتمثل في تطوير التعاون بين الدول العربية في مجالات الاقتصاد والثقافة والقضايا الدفاعية وغيرها دون مساس بالاستقلال السياسي لأية دولة عربية .

ولعزام باشا - أول أمين عام لجامعة الدول العربية - مكانة خاصة في قلوب الاتحاديين وتوطـدت أواصر الـود والإعجاب المتبادل بيننا وبينه ، عندما أصبح خضر حمد مديرا لمكتبه في القاهرة في الظاهر ، وممثلا للسودان في الجامعة في حقيقة الأمر . وعزام باشا سياسي مخضرم احتل الصدارة بين طلائع القومية العربية في القرن الماضي . قال عنه المندوب السامي البريطاني في مصر «شاب جذاب مفرط في حماسته للقضايا العربية ، اجتمعت فيه كل خصائل البدو كالشجاعـة وقوة الاحتمال والاعتزاز المطلق بالكرامة ، ويتحلـي فوق ذلك بالظرف والدعابة وقـدر كبير من المثالية» . وسعـدت بمقابلة الباشا مرات عديدة كانـت أولاها برفقة عبد الله ميرغنـي عندما كان مندوب حزب الاتحاديين في الوفد السـوداني ودار بيننا حوار قال الباشا فيـه : إنه يـري أن تكون الوحدة بين مصر والسودان كالرابطـة القائمة بين بريطانيا وأستراليا

وكندا . ولما أوضحنا له إن هذا ما ندعو إليه ويعني في نظرنا الارتباط بين دولتينا في ظل تاج مشترك وسياسات دفاعية وخارجية مشتركة ، مع احتفاظ كل منهما بحق الانفصال ، صاح الباشا معلقا بقوله إن الإخوة السودانيين اهتدوا بفضل صفاء نفوسهم وصدق وطنيتهم إلى الطريق المثالي لا لتحقيق وحدة وادي النيل فحسب وانما لتحقيق الوحدة العربية أيضاً . وحدثنا الباشا عن مسيرته مع موكب الوحدة العربية منذ فجر حياته ، فروي لنا قصة مجابهة وقعت بينه وبين سعد باشا زغلول في مؤتمر السلام في باريس في عام ١٩١٩ .قال إنه كان يطمع في اقناع سعد باشا بضرورة توحيد الصف العربي في المؤتمر من خلال تناول القضية المصرية في الإطار العام للقضايا العربية ، لكن سعد باشا رد عليه بقوله «إن قضيتنا مصرية وليست عربية «وسخر من التضامن العربي في المؤتمر متسائلا عندما نضيف صفرا لصفر ماذا ستكون النتيجة ؟ وقد مضي عزام وقبله سعد ولا يزال العرب وتضامنهم أصفارا على شمال المجتمع الدولي!! سألت عزام باشا يومذاك عن اتهام الجامعة العربية بأنها من صنع بريطانيا وصنيعة لها فكان مما قاله إن أي مشروع يجمع كلمة العرب لا بد من أن يكون عربي الهوية في جوهره ودوافعه . ثم أردف قائلا عندما يكتشف المرء أن مقاييس البدلة الجديدة التي ظل يحلم بها سنوات وسنوات مختلة وغير مضبوطة فإنه لا يسارع بإلقائها في الزبالة وإنما يقوم بتهذيبها وتشذيبها حتى تصبح لائقة .وهكذا ينبغي أن تكون نظرتنا للجامعة!! وبالرغم مما يقال عن دور بريطانيا في تأسيس الجامعة العربية فإنها لم تقابل بارتياح تعيين عزام باشا أمينا عاما لصلاته الوثيقة مع على ماهر باشا «العبقري الشرير في بطانة الملك فاروق» على حد تعبير الخارجية البريطانية ، عندما رفض ماهرباشا كرئيس للوزراء إبان الحرب العالمية الثانية إعلان مصر الحرب ضد المحور ، كما رفض اغلاق السفارة الايطالية في القاهرة . وكان عزام باشا من أعضاء حكومته البارزين . وفي الواقع أن الحكومة البريطانية - كما يروي خضر حمد - كانت أميل لتعيين فارس الخوري مرشح نوري السعيد الذي أبلغ الحكومة البريطانية عن طريق سفارتها في القاهرة بوجوب تعيين أمين عام يتمتع بثقتها وثقة الدول العربية سواء بسواء . وكان من رأي نوري السعيد أن إسناد مثل هذا المنصب الخطير لعزام باشا ، يعني الاعتراف

بزعامة مصر في المنطقة العربية ، وربما يفضي في المدي الطويل إلى تحالف مصري سعودي ضد العراق وبالتالي ضد مشروع الهلال الخصيب .

كنـا نقضـي الأمسيات في تلك الأيام إما في (شيخ الأندية) نادي الخريجين أو نادي الاتحاديـين . وقـد ندلف في بعضـ الأحيان إلى مقهـي الخواجة خرلمبو ، ولنـا ركن معروف في ممـره المسقـوف في طرفه الجنوبي . نلتقـي هناك بكوكبة من الأدبـاء تضم عددا من طلبة وخريجـي المعهد العلمي ، وآخرين منهم عفان وحسن الطاهر زروق والريفي وعبد الله عشري الصديـق والشاعـران محمد المهدي المجذوب و كرف وابرهيم زيـن العابدين .ويرجع الفضل في تجميـع هـذا النفر إلى عبد المنعـم حسب الله نظرا لصلاته الواسعـة مع مختلف قطاعات المجتمـع . كنا ننفر من ما يسمى بسوق «الموية» ملتقـى شباب ليس همهم كهمنا ، وعالمهم ليس كعالمنا ، شباب مشغولون بالقشور وسفاسف الأمور . سوق الموية كان سوقا للأدب الرخيص أو بالأحـرى بمثابة حاضنـة لتفريخ أدعياء الفن والشعر ممن لا ذخيرة لهم غير معجم لمفردات العيون والشفاه والورود والأزاهير والكؤوس والدنان والنجوم وجداول الماء بمشتقاتها وملحقاتها . كلمـات يرصونهـا جنبا إلى جنـب أو فوق بعضها بعضا ويملأون الفجـوات بينها بخلطة من الآهـات والدمـوع وأنات المشتاقين . لكننا كثيرا ما نذهب في عطلـة آخرالأسبوع إلى الخرطوم حيـث الملاهي والكازينوهات ذات الطابع الأوروبي مثل حديقة المقرن وغوردون ميوزيك هول التي اشتهرت باستجلاب فرق موسيقية وراقصة أجنبية . وكنت أميل إليها دون سواها ، لأني عرفـت خلال عملي في الفندق الكبير الخواجة سبيرو ، عازف الجيتار الذي كان يعمل نهارا كاتـب استقبـال في الفندق ومساء قائدا للفرقة الموسيقية في الملهـى . أتاحت لي هذه الصلة فرصـة الاختلاط مع أعضـاء الفرق الزائرة وراء الكواليس!! ومـن رواد غوردون ميوزيك هول الدائمين في تلك الأيام صديقي السياسي والصحفي ورجل الأعمال محمد أحمد عمر وهو من المقربين جدا للإمام عبد الرحمن المهدي و سكرتيره الخاص للشئون السياسية . وقد كان شهمـا كريمـا ومحبا للحيـاة ، وأشد ما يثير غضبه أن يجرؤ أي واحـد منا على تسديد فاتورة

الحساب في ختام السهرة ، ولمن يسبقه على ذلك الويل والثبور وعظائم الأمور . . . يد فراسة ولسان أحد من السيف!! نقل محمد أحمد عمر لي في تلك الأيام رسالة من الأميرالاي عبد الله بك خليل يود فيها مقابلتي لأنه تلقي رسالة تعنيني من ابرهيم بدري صديقه منذ أيام جمعية الاتحاد السوداني . كنت على علم سابق بمحتويات الرسالة ورغم حرصي على الحصول على عمل ترددت في الذهاب لعبد الله بك خوفا من الشامتين ، لأن عبد الله بك خليل في نظرنا رمز للمؤسسة الاستعمارية البريطانية ، وحليفها الأول ضد كل ما تنادي به الحركة الوطنية وهو فوق ذلك الأمين العام لحزب الأمة وزعيم الأغلبية في الجمعية التشريعية . توكلت على الله بعد مشاورات مع زملائي في حزب الاتحاديين ، وقررت مقابلة عبد الله بك وقلت لنفسي إذا كان لا بد من مقابلته فإن من الخير أن أقدم عليها الآن باختياري ومن مركز قوة ، بدلا من الاقدام عليها في المستقبل مضطرا وفي حالة ضعف وتخاذل .

تناولت ذات صباح وجبة الإفطار مع دكتور على بدري وزير الصحة ، وتربطني به إلى جانب القرابة مودة وصداقة . اتفقت معه على أخذي لمقابلة عبد الله بك في مكتبه بالجمعية التشريعية . استرعي انتباهي في طريقنا إلى الخرطوم على سيارة وزير الصحة الحكومية أن سيارته الخاصة تسير خلفنا ولا أحد فيها غير سائقها !! . وهذا تقليد فريد درج دكتور على بدري عليه ، طيلة الفترة التي أمضاها وزيرا للصحة . السيارة الحكومية للمهام الرسمية فقط ، بينما تبقي السيارة الخاصة جاهزة وفي المتناول دائما للمهام الخاصة والمناسبات الاجتماعية كالمآتم وزيارة المرضي . تقليد لا يمليه القانون أواللوائح الحكومية وإنما أملته عليه طهارة النفس وحرمة المال العام . تركني دكتور على بدري في كافتيريا الجمعية التشريعية وذهب إلى مكتبه في الوزارة ، ومكثت زهاء ساعة في انتظار وصول عبد الله بك فكرت خلالها أكثر من مرة في العودة أدراجي راضيا من الغنيمة بالإياب!! أليست هي الجمعية التشريعية التي ضحيت عاما ونصف العام في السجن من أجل مقاومتها ؟؟ لم يكن بين الجالسين في الكافتيريا أحد أعرفه باستثناء بوث ديو وهو من الجنوبيين القلائل

الذين تركوا على الساحة السياسية القومية ، بصمات ظاهرة من خلال دعوته للفيدرالية ودعاباته الساخرة التي تكسبها عباراته العربية الركيكة ، ولهجته الأعجمية مزيدا من الطرافة والطلاوة ، وله قفشات خالدات مع زميليه في الجمعية التشريعية : الناظر يوسف العجب ومركوبه (حذائه) السارح دائما تحت كراسي القاعة ، وحاج محمد ناظر الجعليين . . ولم أسلم يومذاك من سخرية بوث ديو عندما علم أني قادم لمقابلة عبد الله بك خليل . روي لي ضاحكا كيف يجري الحمار في الغابة إلى عرين الأسد عندما يسمع زئيره . ولا أدري إن كان ذلك صدقا أم كذبا ؟ ومع أنها دعابة تبدو جارحة إلا أنها مقبولة في زماننا فقد كانت نفوسنا صافية ومفهومنا للخلافات السياسية – من منطلق الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية – لا ينعكس على علاقاتنا الاجتماعية . وانضم إلينا بعد قليل آخرون بينهم الشريف ابرهيم يوسف الهندي والناظر سرور رملي ، ثم عثمان على من رجال الإدارة الأهلية في منطقة سنار . ولما وصل عبد الله بك إلى مكتبه ، حزمت أمري معللا نفسي بأن كل شيئ يجري على قدر ،وربما ينفر المرء من شيئ هو خير له . استقبلني عبد الله بك في مكتبه بابتسامة عريضة لم تخطئها عيناي ولم يخطئ قلبي استيعاب مكنونها . شعرت بالراحة تسري في أوصالي لما تبددت أوهامي وهواجسي أمام نقاء تلك الابتسامة وصفائها . ولو أني أعجب حتى اليوم كيف نفذت تلك الابتسامة من بين «متاريس» التجهم والصرامة التي لا تفارق وجه عبد الله بك إلا لماما ، والتي طالما أعطت الناس انطباعا خاطئا عن باطنه وما في أغوار نفسه من طيبة وحب للناس . بادرني عبد الله بك بعد التحية قائلا «لقد كنت في شبابي شقيا مناكفا مثلك لا أبالي من شيئ إلى أن وصلت من خلال تجاربي وحدي إلى ما عليه اليوم من معتقدات وقناعات منها أن العبودية بطعمها ورائحتها الكريهة لا يخفف من غلوائها أن يكون السيد خيرا وعطوفا ، فلا بد من الحرية في النهاية . وأضاف قائلا «كنت في مطلع حياتي مؤمنا بوحدة وادي النيل بل أديت يمين الولاء للجالس على العرش في القاهرة كضابط في الجيش المصري ، ثم أدركت من خلال التجربة أن المناداة بالوحدة ليست سوى ظاهرة طبيعية ، تمثل المرحلة الأولى من الوعي الوطني التي يجب ألا يصاب السودانيون

عندها بالجمود ، وإنما يتعين عليهم تخطيها إلى مرحلة الاستقلال . وأنا واثق عندما تتحقق تصفية الحكم الثنائي من أننا لن نختار جميعا بديلا عن الاستقلال» . وحدثني عبد الله بك بعد ذلك عن الرسالة التي وصلته من ابرهيم بدري طالبا منه إلحاقي بالعمل في مشروع الزاندي ، ثم التفت إلى سكرتيره - الدرديري نقد - وطلب منه الاتصال هاتفيا بشريف أحمد عمر كبير المحاسبين في وزارة الزراعة ، وجاء رده بأن لديه وظيفة محاسب شاغرة في مشروع الزاندي . وقال شريف لما ذكر له اسمي إنني سبق أن تقدمت قبل أيام للوظيفة نفسها ، لكن طلبي رفض بناء على توجيهات من سلطات الأمن . عدت في اليوم التالي لمقابلة عبد الله بك ، ووجدت معه هذه المرة بابكر الديب نائب مدير شرطة المباحث . لم تطل المقابلة ، إذ لم يجد الديب ما يرد به على عبد الله بك عندما قال له في حزم «هذا ابني وسألحقه بالعمل في وزارتي وأنا ضامن له . . . عاوزين إيه بعد كده»؟؟ وهكذا تمت إجراءات تعييني محاسبا في إدارة مشروع الزاندي التابع لوزارة الزراعة بمرتب استثنائي ما كنت لأحلم به . وقبل سِفري للجنوب ذهبت لعبد الله بك خليل في داره لأودعه شاكرا صنيعه . وجدت الباب الخارجي مفتوحا على مصراعيه ومع ذلك قرعته مراراً دون أن يرد على أحد . . ووقفت حائرا إلى أن أنقذني من حيرتي صديقي عمر حسن ، المعلق الرياضي المعروف ، الذي جاء في تلك اللحظات لزيارة عبد الله بك . قال لي عمر ضاحكا :إن باب هذا البيت لا يغلق مطلقا ، وإنما يظل مفتوحا على مدار الأربع والعشرين ساعة حتى أمام أمثالكم من الخصوم!! واقتادني عمر إلى الصالون . وجاء عبد الله بك بعد قليل . كان مما قاله لي يومذاك إنني أذكره بصديق له مات سجينا في شرخ الشباب يسمي حسين طه ، كان مهندسا مثل شقيقه أمير .والدهما طه أبوزيد كبير الصيارفة في حكومة السودان كان مشغوفا بالهندسة والمهندسين ، إلى حد جعله يشجع أبناء جلدته النوبيين عليها ، ويستغل نفوذه لإلحاق النابهين منهم بكلية الهندسة في الخرطوم ، ومنهم ابناه أمير وحِسين وعبد الله بك نفسه وابرهيم أحمد وعبد الرحمن عابدون . ويفسر هذا تشكيل النوبيين حتى عهد قريب أكبر شريحة بين المهندسين السودانيين . وعمل طه أبوزيد - وهو من قبيلة

الكنوز المشتركة بين مصر والسودان - كبيرا للصيارفة منذ أول الحكم الثنائي حتى تقاعد في عام ١٩٢٨ ، فعاد إلى مسقط رأسه في بلدة الدر قي صعيد مصر ، وانتخب عضوا في مجلس النواب المصري عن دائرة أسوان ثم في مجلس الشيوخ . اشتهر طه أبوزيد بولائه لنمر السياسة المصرية اسماعيل باشا صدقي ، العدو اللدود للوفديين وسعد باشا زغلول . وروي عبد الله بك لي كيف تنكر حسين طه في زي عمال البوفيه في القطار الذي كان يستقله صدقي باشا رئيس الوزراء في إحدي زياراته للصعيد في أوائل الثلاثينات . ولما سنحت الفرصة إنقض حسين طه على رئيس الوزراء بساطورأخفاه تحت جلبابه محاولا قتله انتقاما لسعد باشا . كانت محاولة فاشلة اقتيد بعدها حسين للسجن في انتظار محاكمته . ورفض أبوه وأهله زيارته استنكارا لفعلته فقد كانوا جميعا من شيعة صدقي باشا . وبقي حسين في السجن أربعين يوما مضربا عن الطعام حتى أسلم الروح قبل تقديمه للمحاكمة ، وراح مأسوفا على شبابه كغيره من عشرات الشباب المناضلين الذين طواهم النسيان بعد أن هزوا شجرة الحرية وبقي في الذاكرة من نعموا بثمارها المتساقطة . شرعت في الاستعداد للسفر إلى الجنوب عاقدا العزم هذه المرة على أن أتفرغ للقراءة فحصلت من سودان بوكشوب على عدد من الكتب في الأدب الإنجليزي وخاصة ما يدور منها حول أشعار كيبلينغ متنبئ الفرنجة ، ولا أزال معجبا بشعره رغم نعرته الاستعمارية . وكفاني صديقي الدوش مئونة البحث عن الكتب العربية . كانت للدوش مكتبة لبيع الكتب في ميدان المحطة الوسطي في أم درمان . وجاء بابكر أحمد موسي إليه في تلك الأيام بحقيبة مليئة بنفائس الكتب العربية بينها جمهرة رسائل العرب ومشاهير الإسلام ، وأجزاء من كتابي الأغاني والأمالي ، اشتراها الدوش كلها بستة جنيهات ودفعت له ٨ جنيهات ثمنا لها ، وكانت الحقيبة جزء من الصفقة!! وبابكر أحمد موسي شاعر وأديب ولغوي نابغة عاصرته طالبا في كلية غوردون ، وكنا نري في انتظاره مستقبلا عظيما ، لكنه انقطع مبكرا عن الدراسة المنتظمة ، ولولا ذلك لكان له شأن كبير مثل الدكتور عبد الله الطيب وتلامذته أمثال عون الشريف والواثق والحبر نور الدائم!!

مكثت في طريقي إلى أنزارا نحو شهر في جوبا مجددا صلاتي الأولى مع أعضاء جمعية الرفاهية ، وصادف أن أحدهم ، غوردون أيوم كان يستعد في تلك الأيام للسفر إلى بريطانيا في بعثة دراسية . راتبه لا يتعدي عشر جنيهات في الشهر لا يكفي لشراء ما يلزمه من حاجيات ، فجمعنا له مبلغا لا بأس به من تجار جوبا ، كما تبرع له جورج حجار بحقيبة ملابس لائقة ومعطف من الصوف الثقيل يعينه على زمهرير الشتاء في بريطانيا . ولما ودعناه في المطار كان في جيبه نحو مائة جنيه استرليني . أتيح لي بعد شهر في جوبا مقعد أمامي في سيارة اللوري (البوستة) التي تذهب إلى أنزارا مرة واحدة في الأسبوع . أمضينا الليلة الأولى في أمادي في ضيافة الفاتح الياس ، ثم الليلة الثانية في مريدي حيث درج الشماليون من تجار وموظفين على الاحتفاء بمن يأتي على سيارة البوستة في منزل التاجر محمد الأمين في سهرة امتدت حتى الصباح ، وضمت عددا ممن عرفتهم قبل سنوات في جوبا كالأخوين التاجرين عباس ومحمود المهدي ودكتور ابرهيم سليمان حكيمباشي المستشفي وعلي الفكي مدير المحلج والترزي خوجلي شقيق الشاعر الغنائي مصطفي بطران . وصلت إلى أنزارا في منتصف النهار ووجدتهم قد أعدوا لي منزلا منعزلا ومهجورا في طرف الغابة بعيدا عن المنازل الأخري . اكتشفت منذ الليلة الأولى أن تجويف سقف ألمنزل أصبح وكرا لأسراب لا حد لها من الخفافيش ، نظرا لبقائه غير مأهول مدة طويلة ، ربما منذ تشييده . تحدث الخفافيش زيادة على الرائحة الكريهة جلبة وضوضاء وأصواتا مخيفة لا تترك للنوم سبيلا . وتتجسم مخاوفي عندما يختلط معها ما يصدر من الغابة من فحيح وحفيف وصيحات الطيور والحيوان . وتكتمل سيمفونية الرعب بهدير المطر المنهمر كأفواه القرب ، مصحوبا بالرواعد الصاخبة ووميض البرق . وتزداد محنتي عندما أذهب في الصباح إلى المكتب ، فأجد إزورارا عني من الجميع ، بعضهم يحييني في اقتضاب وآخرون لا يردون حتى على تحيتي . استدعاني ذات يوم مستر ويتكر رئيس المحاسبين وسألني إن كنت شيوعيا فقلت إنني لست عضوا في الحزب الشيوعي وإنما اشتراكي فابياني ألتقي مع الشيوعيين في بعض الأفكار الماركسية ، ولي بين أعضاء حزبهم أصدقاء كثيرون . ودار بيننا حديث طويل عن جمعية الفابيان إذ كان مستر

ويتكـر نفسه عضوا فيها . وزارني في ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم محمد أحمد الرشيد زميلي في قسم المحاسبين ، وفرحت بزيارته لأنه كان أول من أتي إلى بيتي من أهل أنزارا منذ وصولي قبل أسبوعين . وهو الشقيق الأكبر لمولانا خلف الله الرشيد وعلي قدر من الاطلاع في مجـالات الثقافة والسياسة والدين ، ومثله الأعلي أحمد خير المحامي في الآخرين وعبد الله بـن عباس في الأولـين . اكتشفت من الرشيد في تلك الليلة سر نفور النـاس مني فقد كـان (ن أ) قبل التحاقه بالمشروع في أنزارا موظفا في شركة متشل كوتس البريطانية في الخرطوم التي سحبت في آخر لحظة - بأمر من سلطات الأمن - وظيفة عرضتها الشركة على بعد اجتيازي المعاينـة تحريرا وشفويا . كان (ن أ) مطلعا على كل ذلك بوصفه مديرا لشئون المستخدمين في الشركة . ولما علم أني قادم إلى أنزارا أشاع بين الناس أنني شيوعي ، وحذرهم بحكم منصبه ونفوذه من الاختلاط بي!! ولكي أمحو هذا المفهوم الخاطئ من الأذهان أخذت منذ ذلك اليوم أؤدي صلواتـي في برندة المنزل المكشوفة ليراني المارة في طريقهم من وإلى السوق ، مع حرصي بصفـة خاصة على أداء صلاة الظهر في المكتـب . وعلم الناس من الرشيد أنني من المقربين لعبـد الله بـك خليل زعيم الجمعية التشريعية ووزيـر الزراعة ، وهو الذي جاء بي للعمل في أنـزارا ، فدخـل في روعهم أني ربما أكون عينا له على ما يدور في المشروع . كانت هذه المعلومة وحدها كافية لإثارة مخاوف (ن أ) وأصبح يضع لي ألف حساب .

استأجـرت بعـد أيام قليلة من وصولي إلى أنزارا خادما من أبناء الزاندي ،ليعينني على نظافة البيت وغسل الملابس . وسجلت على هامش صفحة من كتاب الأمالي وعلى مرأى من الخادم اسمه بالكامل وقريته وسلطانه . وعدت ذات يوم إلى المنزل بعد انتهاء ساعات العمل فلم أجد أثرا للخادم .ولم تطل حيرتي إذ سرعان ما اكتشفت أن الخادم أفرغ المنزل من كل محتوياته ، وحملها معه . لم يبق الخادم على شيئ سوى السرير والكتب باستثناء كتاب الأمالي!! ذهبت على الفور إلى نقطة الشرطة الوحيدة المسئولة عن الأمن في أنزارا بمصانعها ومتاجرها والمرافق الحكومية الأخري . كانت النقطة عبارة عن كوخ متداع لا أثاث فيه غير حصيرتين وكرسي واحد يجلس

عليه الجاويش رزق رئيس الشرطة . ولا أثر لأوراق ودفاتر أو يحزنون ، زيادة على أن الجاويش رزق نفسه أمي لا يعرف الكتابة أو القراءة لكنه يتمتع بذاكرة كومبيوترية قوية يحتفظ فيها بتفاصيل بلاغات مضت عليها سنوات طويلة . وعدت ومعي الجاويش رزق إلى المنزل لمشاهدة موقع الجريمة علـى الطبيعة خاصة آثار أقدام الخـادم . ونفحت الجاويش في النهاية بمبلغ من المال ورسالة إلى الخواجة سيداري لإعطائه ثلاث زجاجات بيرة كحافز له على الاهتمام بالقضية . قبل حادث السرقـة كنت أعيشـ في محنة قاسية من جراء مقاطعة الناس ونفورهم مني . ثم جاء الحادث فـكان قاصمة الظهر التي أودت بما تبقي في صدري مـن صبر وقوة احتمال!! إنهارت أعصابي تمامـا وفكـرت جديا في العودة إلى الخرطوم وشر البلاد - كما قال المتنبي - مكان لا صديق به فكيف به إن كان مكانا مسكونا بالأعداء الشامتين ؟؟ ظل الجاويش يتردد على عصر كل يوم ليحدثني عن سير البحث عن السارق وليأخذ ما فيه النصيب عينا أو نقدا . أويت إلى فراشي في اليوم الرابع مهموما كسير القلب ، وبكيت بصوت عال بكاء لم أجربه من قبل ، واستنجدت بكل الأولياء الصالحين الذين كانت تستغيث أمي بهم في الملمات ومنهم جدي «الفكي مالك وشيخـه الحاج سعد ألفي القبة رعد» . ويبدو أن البـكاء والدموع التي ذرفتها أراحت أعصابي المشـدودة فاستسلمـت لنوم عميق . رأيت في المنام نسرا ضخمـا رابضا فوق قمة ضريح جدي الفكـي مالك وبين مخالبـه رجل يتلوي ويصرخ من شدة الألم إلى أن أطلقه النسر فسقط على الأرض محدثا دويا هائلا نهضت إثره مذعورا لأسمع طرقات عالية على الباب وصوت الجاويش رزق . فتحـت البـاب لأجد الجاويش ممسكا بحبل على طرفه الآخر الخادم السارق مشدودا إلى عنقه!! لقد اعتقلوه مع عصابة في موقع بين الأشجار والأحراش الشائكة في غابة قريبة اتخذته العصابة مخبأ لحصيلة سرقاتها العديدة من أنزارا منذ نشأتها قبل أربع سنوات على الأقل . ذهبنا إلى نقطة الشرطة فوجدت الأشياء المسروقة مني كاملة غير منقوصة ، باستثناء صفحة من كتاب الأمالي نزعها السارق الشقي لسبب لا يغيب عن ذهن القارئ ؟؟ ومنذ ذلك اليوم أخذت نظرة الناس تتغير نحوي . ولا أدري هل أشكر الخادم السارق ؟ أم الجاويش رزق ؟؟ أم جدي الفكي مالك ؟؟ والشكر على كل حال لله من قبل ومن بعد .

قبيلة الزاندي بامتدادتها في الكونغو وافريقيا الوسطي تعتبر أكبر القبائل السودانية على الإطلاق ، اشتهرت على مر التأريخ بمهارات عظيمة في استخراج الحديد وتصنيعه خاصة صناعة الأسلحة البيضاء كالحراب والسهام والمدي والسواطير . وتقتصر الزراعة في منطقة الزاندي على انتاج محصولات غذائية معينة في مساحات محدودة للغاية .لكن بعد منطقة الزاندي ووعورة المسالك إليها ، جعل من الصعب وصول السلع الاستهلاكية إليها من الخارج وبينها سلع حيوية للغاية . طرح مستر توتهيل مدير الزراعة في عام ١٩٤٣ خطة لانشاء ما عرف بمشروع الزاندي ، وتتلخص في أنتاج المشروع لبعض تلك السلع للاستهلاك المحلي وتصدير الفائض إلى المناطق المجاورة ، والاستفادة من عائده في استيراد الأشياء التي لا تنتج محليا كالبترول ومشتقاته . وتقرر على ضوء الدراسات التي استعان الخبراء فيها بتجارب يوغندا والكونغو أن يعتمد المشروع على زراعة القطن وقصب السكر ، وأن تقام فيه مصانع للغزل والنسيج والسكر والزيوت النباتية والصابون . اعتمدت الحكومة في تمويل المشروع على المكافأة المالية التي منحتها الحكومة البريطانية للسودان تقديرا لدوره في الحرب العالمية الثانية ، فأنشأت في عام ١٩٤٦ «لجنة مشاريع الاستوائية» لتتولي عمليات التنفيذ وإدارة المشروع ، وحددت مهامها في انتاج القطن ومحصولات نقدية أخري ، مع تحسين الأحوال الزراعية في منطقة الزاندي ، وجلب البضائع المستوردة المطلوبة لبيعها بأسعار معتدلة ، وتدريب الجنوبيين على العمل التجاري من خلال متاجر ثابتة ومتنقلة تابعة للجنة . ومنحت كل أسرة ٣٥ فدانا لزراعتها على نظام الدورات حتى لا تفقد الأرض خصوبتها ، على أن تزرع الأسرة نصف فدان منها قطنا تحت اشراف مراقبين زراعيين . وبلغت جملة انتاج المشروع من القطن قصير التيلة في موسم ٥٠/ ١٩٥١ قرابة سبعين ألف قنطار للتصدير والتصنيع محليا . استغرقت أعمال إنشاء مشروع الزاندي ست سنوات ، بدأت بعدها المصانع في أنزارا انتاجها بالفعل فالقطن يغزل وينسج وبذرته تستخرج منها زيوت بعضها للطعام والبعض الآخر لصناعة الصابون . ويعصر قصب السكر في ساكوريه لاستخراج سكر خام في حاجة لمزيد من التنقية والتكرير . وهذا أول مصنع في السودان لانتاج السكر . وتقع ساكوريه على مسافة نحو ثلاثين ميلا

جنوبـي أنزارا . ولا يستعين المصنع بخبرات اجنبيـة وإنما يشرف على إدارته الخبير السوداني عبد العزيز المصري . وتباع جميع منتجات المشروع إلى جانب سلع أخرى مستوردة في حوانيت ثابتـة ومتجولة على سيـارات تابعة للقسم التجاري من مشروع الزندي . ولا خلاف على أن مشـروع الزانـدي ، في ذلك العهد ، أكبر مشروع زراعي صناعي في القارة الإفريقية بأسرها إن لم يكـن الوحيـد من نوعه .ويكفي أن يقال للتدليل على ضخامته ، أن محطة توليد الكهرباء في أنـزارا ثانية أكبر محطة في السودان بعد العاصمة . وينظر إلى المشروع كتجربة رائدة ، تقام في حالـة نجاحها مشروعات أخرى مماثلة في الجنوب وجهـات أخرى من السودان . وكثيرا ما يستشهد به على أن الجنوب لم يكن مهملا كما يدعي المضللون من أبناء الجنوب ويصدقهم الجاهلـون في الشمال . إن مشروع الزاندي بغض النظر عن ما يقال عنه يشكل بداية خروج جنوب السودان – على الأقل – من دائرة التخلف والإهمال .

نجحـت في غضـون ثلاثة أشهر من وصـولي إلى أنزارا في اخـتراق مجتمع الشماليين والجنوبيـين على السواء .اكتسبت صداقات عديدة بـين الفريقين وانتخبوني سكرتيرا لنادي الموظفـين . ويعتـبر النادي كغيره مـن الأندية الاقليمية المماثلة فرعا لنـادي الخريجين في أم درمان . وجرت التقاليد في تلك الأندية على اسناد منصب السكرتير فيها إلى أحد الناشطين المناكفين للسلطات ، بينما يسند منصب الرئيس إلى مأمور المركز أو كبير الكتبة (الباشكاتب) في عواصـم المديريات ، باعتبارهما رمزا للسلطـة الحاكمة وعينا لها . هذا حكم غير مطلق لا يجـوز الأخـذ به في كل الأحوال . وأخذت أسعى مع نخبة من الشباب في أنزارا إلى تأسيس نقابـة للعاملين في المشروع من موظفين وعمـال . وتكللت مساعينا في نهاية المطاف بتأسيس «نقابـة مستخدمـي مشروع الزانـدي» ، أول تنظيم نقابي ينشأ في جنـوب السودان . وجدنا تشجيعا على شكل نصائح وتوجيهات من الاتحاد العام للعمال في الخرطوم خاصة من نائب رئيسـه حمزة الجاك والصديقين قاسم أمين والشفيـع أحمد الشيخ . وحضر الاجتماع الأول للجمعية العمومية حوالي ثلاثمائة ، معظمهم من الجنوبيين ، وتم انتخاب المهندس على الفيل

رئيسا للنقابة بينما انتخبت سكرتيرا عاما لها . ويبدو أن انتخاب على الفيل رئيسا كان نتيجة ترتيبات مسبقة بين الأعضاء الشماليين وإدارة المشروع لكبح جماحي . والفيل بحكم مهنته كمهندس كهربائي «متكهرب» على الدوام ، يثور لأتفه الأسباب ويهددنا بالاستقالة . والويل والثبور وعظائم الأمور لمن لا يخاطبه بلقب «باشمهندس»!! واستفدت من تجربتي السابقة في جوبا مع جمعية الرفاهية بالإضافة للإضراب العام الذي نظمناه . لم تخرج قائمة المطالب التي تقدمنا بها لإدارة المشروع في ما يتعلق بالمستخدمين الجنوبيين عن مطالب جمعية الرفاهية التي رفعناها إلى السلطات في جوبا قبل سنوات . أما الشماليون فقد كانت مطالبهم محدودة تدور حول شروط الخدمة وتحسين المرتبات التي كانت مجزية للغاية . ودخلنا في مفاوضات مطولة مع الإدارة وفي بعض الأحيان بمشاركة ميجر وايلد مفتش مركز يامبيو الذي لعب دورا كبيرا في انشاء المشروع ، خاصة إعادة تسكين الزاندي على نحو يتمشي مع متطلبات زراعة القطن . ولا يخفي ميجروايلد حرصه خلال المفاوضات على توفير المرافق السكنية للعمالة المحلية ، لتغطية احتياجات مصانع أنزارا . كنا نعلم أن الإضراب أو التهديد به هو الأداة الناجعة لتحقيق مطالبنا ، لكننا رأينا أن تسبق ذلك حملة توعية بين الجنوبيين الذين يشكلون أغلبية الأعضاء وليست لهم تجارب سابقة في العمل النقابي . ولم يمض وقت طويل حتى وصل إلى أنزارا المهندس جوزيف طمبرا ، خريج المعهد الفني في الخرطوم ، وتقد م جوزيف للعمل في المشروع .لكن الإدارة عرضت عليه باعتباره جنوبيا مرتبا هزيلا لا يزيد عن ربع مرتب أصغرواحد من العمال الشماليين غير المهرة ، وأقل من نصف مرتب خادم مهندس شمالي من دفعته في المعهد!! باءت بالفشل كل مساعينا لانصاف المهندس جوزيف طمبرا ولم يبق أمامنا من سبيل إزاء تعنت الإدارة سوى التهديد بإضراب عام . ووجدنا استجابة واسعة بين العمال الجنوبيين نظرا لارتباط القضية بهم ارتباطا وثيقا مباشرا ، واعتبروها خطوة أولى نحو تحقيق مطالبهم المتمثلة في مساواتهم مع الشماليين في الأجور وغيرها من شروط الخدمة . وجدنا تشجيعا أيضاً من بعض السلاطين والسحرة في المناطق المجاورة لأنزارا ، كما علمنا أن ميجر وايلد مفتش المركز يؤيد موقفنا من وراء ستار . جاء الإضراب الأول شاملا

ليوم واحد ، لم يتخلف عن الالتزام به إلا قلة من الشماليين ذوي الياقات الزرقاء ومن العمال الجنوبيين .وأسهمت حتى حيوانات الغابة في إنجاح الإضراب!! فقد اندست ثلاثة خنازير برية بين جوالات القطن المكدسة في ساحة المحلج ، وعندما أخذ العمال غير المضربين في نقل الجوالات إلى داخل المحلج انطلقت الخنازير مذعورة ميممة شطر الغابة ، وانطلق وراءها كل العمال الزا ندي الذين جاءوا للعمل .لم يبق أحد في موقعه ، فالزا ندي لا يقاوم اغراء اللحم ، ولا يتردد في التضحية في سبيله بكل ما يملك . هكذا وبفضل تلك الخنازير البرية اكتمل الاضراب وكتب النجاح له مائة في المائة مما دفعنا لتكرا ر التجربة بعد شهر واحد . غير أن إدارة المشروع في هذه المرة لجأت في مكر وخبث إلى دق اسفين بين أعضاء النقابة الشماليين والجنوبيين ، إذ استدعت اثنين من كبار أعضاء النقابة الشماليين (الفيل وشرفي) وأبلغتهما بقبولها جميع مطالب الشماليين وتنفيذها تدريجيا ، ابتداء بالاصلاحات المطلوبة في المرافق السكنية . اصلاحات شكلية تندرج ضمن الكماليات مثل أعمال الترميم وإقامة سياج حول المنازل ، في الوقت الذي ترفض الإدارة فيه توفير أدني قدر من المرافق والخدمات السكنية للعمال الجنوبيين الذين يعيش معظمهم في أكواخ بدائية أو تحت الأشجار في الغابات القريبة من أنزارا . ولكي تكتمل المكيدة جاءت الإدارة بالعمال الجنوبيين في اليوم التالي لتنفيذ تلك الإصلاحات ، مما أوغر صدور الجنوبيين ، وتحولت مشاعر الحقد والكراهية التي خلقناها بين العمال الجنوبيين ضد إدارة مشروع الزاندي والبريطانيين بوجه عام ، إلى الشمال والشماليين . دعوت أعضاء النقابة إلى اجتماع عام في النادي ، واحتشدت الدار بأعداد هائلة من الجنوبيين العاملين وغير العاملين ، إذ ظلت الطلبول (النقارة) تدق منذ العصر دقاتها التقليدية لاستنفار وحشد الناس للقتال وغيره من المناسبات . جاء كثيرون مسلحون بالعصي والفؤوس والحراب وغيرها من الأسلحة البيضاء . وبدأت الحديث مفتتحا الاجتماع فأخذ الشماليون يقاطعونني بصيحات الاستهجان وعبارات مسيئة مما أهاج الجنوبيين فحملوا على الشماليين ولاذ معظمهم بالفرار ، واستجار الباقون من الشماليين بي داخل مبني النادي ، ووقفت أمام الباب مع أربعة شماليين (الرشيد وعثمان حمد ومهدي ابرهيم وعابدين) نصد الجنوبيين الهائجين عن

الوصـول إليهم . ثم أخذنا الشماليين واحدا واحدا تحت حراستنا إلى مساكنهم ، بينما انتشر الجنوبيـون في الحـي مهددين ومتوعديـن . كان من الممكن أن يقع مـا لا تحمد عقباه لو تجرأ أي شمـالي في تلك الليلة على الخروج من مسكنه . هكـذا أصبحت أنزارا كلها تقريبا تحت قبضتنـا مما حدا بمحمد أحمـد الرشيد إلى اقتراح إعلان دولة شعبية ديمقراطيةعاصمتها أنزارا أسوة بالصين وكوريا .

بقينا في النادي حتى الصباح ، وقد عقد الجنوبيون العزم على منع الشماليين بالقوة من الذهاب لمباشرة العمل ، وعلي تخريب منشئات المشروع إذا اقتضي الأمر . كان موقفا عصيبا للغايـة يمكـن أن يفلت الزمام في أية لحظة من يدي وأيـدي العقلاء من النقابيين الشماليين والجنوبيـين ، لينطلق الجنوبيون الهائجون في أعمال القتل والتخريب . ووصل حوالي السادسة صباحـا من يامبيو نائب المأمـور برنابا على رأس قوة من الشرطة وهو من أوائل أبناء الزاندي الجامعيين الذين انخرطوا في خدمة السلك الإداري . وانتهت بوصوله الأزمة . أبدي برنابا منذ الوهلـة الأولى تفهما لقضية العمال الجنوبيين ، وتعهد بأن يعمل مع إدارة المشروع على اعطاء مطالبهـم الأسبقية ، ويعني ذلك في ما يعني إيقاف تنفيذ برنامج اصلاح مساكن الشماليين فـورا . وألقـي برنابا على العمال المحتشدين في النـادي كلمة في هذا المعني أخذوا بعدها في الانفضاض . لكن الاحتكاكات لم تتوقف منذ ذلك اليوم بين الشماليين والجنوبيين ، ووصلت في بعضـ الحالات إلى محاولات اغتيال ، صار بعضها موضع بلاغات كيدية ضدي . كانت تلـك الأحداث في الواقع – كما جـاء في تقرير القاضي قطران – البذرة الأولى لشجرة الزقوم التـي ما زلنا نطعم من ثمرها منذ أحداث التمرد الأول في مدينة توريت عشية جلاء القوات المصريـة والبريطانية . انقسمت نقابتنا يومذاك إلى جناحين متناحرين : أحدهما يضم جميع الشماليـين باستثناء سبعـة منهم ويحظي بدعم الإدارة ، بينما ضـم الجناح الثاني بزعامتي سائر الجنوبيين والشماليين السبعة .وعمد الشماليون بالإضافة لبلاغاتهم الكيدية إلى اغتيالي معنويـا وأدبيـا باطلاق إشاعات مغرضـة يتهمونني فيها بالتآمر مـع المبشرين المسيحيين في

المنطقة خاصة الكنيسة الكاثوليكية القريبة من أنزارا . ولما كنت مسئولا عن خزانة المشروع في أنزارا ، عمد بعضهم إلى نصب فخاخ لإيقاعي في مخالفات مالية أو جريمة عدم الأمانة ، لكن محاولاتهـم باءت بالفشل . وافتتحت رسميـا – وسط هذا الجو المشبع بالتوتر وعد م الثقة – المنشئات الصناعية التابعة لمشروع الزاندي في أنزارا ، وعلي رأسها مصنع الغزل والنسيج الذي كان يعـد في تلك الأيام أكـبر مصنع من نوعه جنوبي الصحراء . يشرف على تشغيل المصنع مهندسـ بريطـاني ومصطفي تمتام ، وهـو شمالي عمل فترة طويلـة في مصانع المحلة الكبري للغزل والنسيج في مصر .أما المهنس البريطاني فقد تعلم ركوب الدراجة في أنزارا مما يوحي بأنه ليس مهندسا وإنما عامل بسيط في أحد مصانع لانكشير!! جاء من الخرطوم لحضور الافتتاح : الأمـيرالاي عبد الله بك خليل وزير الزراعة وزعيم الجمعيـة التشريعية ، وعبد الماجد أحمد وكيل التجارة ، وعبد الله رجب صاحب ورئيس تحرير صحيفة الصراحة اليسارية . كنت أقف غـير بعيد من الأميرلاي الوزير عندما قام بقص الشريط التقليدي إيذانا بافتتاح مصنع الغزل والنسيـج ، فانطلقت ماكينات المصنـع واختلط هديرها ودويها مـع صيحات الجموع الغفيرة وتصفيقها . والتفت الأميرلاي الوزير إلى مستر مان مدير المشروع معربا عن دهشته واعجابه ، فـرد المديـر عليه في خبث مشيرا إلى قائلا «يا معالي الوزير في امكان هذا الصبي المشاغب أن يوقف هذه الماكينات في لحظة خاطفة وبكلمة واحدة منه»!! وعندما التقيت في المساء في مأدبة العشـاء التي أقامها المدير للضيوف ، قال لي الأميرالاي عبد الله بك خليل إنه مسرور لما قاله المدير عني لأنه ذكره بشبابه «لقد كنت ثائرا مثلك» .

وزار أنـزارا في تلـك الأيام الشيخ أحمد الطاهر قاضي القضاة ونائبه الشيخ بشير الريح برفقة الشيخ على عبد الرحمن قاضي شرعي الجنوب . وما كان لمثل هذه الزيارة أن تتم لولا تحـول الإدارة البريطانية تحولا صادقا منذ مؤتمر جوبا عن سياساتها الانفصالية السابقة . ويمثل الشيـخ أحمد الطاهـر أعلي مرجع إسلامي رسمـي في البلاد .أحتفلنا بهم في النادي حيث تحـدث الشيـخ أحمد الطاهر عن جماعة اتحاد المسلمين بالسودان التي شكلت في تلك الأيام

برئاسته وسكرتارية نائبه الشيخ البشير الريح كفرع لجماعةاتحاد المسلمين في باريس بزعامة البروفيسور اقبال على شاه خليفة المصلح الإسلامي جمال الدين الأفغاني . الغرض من الاتحاد ، كما أوضح لنا الشيخ أحمد الطاهر يومذاك ، توثيق العلاقات بين سائر المسلمين في جميع أنحاء العالم بعيدا عن السياسة . ومن أغراض الاتحاد أيضاً محاربة الأفكار اللادينية (الماركسية) التي يري العلماء أنها أخذت تنتشر انتشارا واسعا بين المسلمين . كما يعمل الاتحاد على قيام مؤتمر إسلامي ، وأوفد لهذا الغرض أحد أعضائه (محمد صالح الشنقيطي) إلى بيروت وعواصم عربية أخري . غير أن اتحاد علماء السودان قوبل بارتياب شديد شأنه في ذلك شأن أية حركة تقوم في تلك الأيام خارج إطارا لحركة الوطنية المناوئة للإدارة البريطانية . والشيخ بشير الريح نائب قاضي القضاة زوج عمتي زينب مالك ، شكوت إليه من مهادنة شيخ على عبد الرحمن لإدارة المشروع ووقوفه إلى جانبها في قضايا دينية منها ، اعتماد يوم الجمعة عطلة للعاملين المسلمين ، وإنشاء مجمع مشترك يضم جامعا وكنيسة يفصل النادي بينهما . وقد رفضت الإدارة كل ذلك وأيدها شيخ على في موقفها .

تلقيت دعوة في تلك الأيام عن طريق حزب الاتحاديين لحضور زفاف الملك فاروق إلى ناريمان ضمن الوفود السودانية العديدة التي شدت الرحال إلى هناك .اعتذرت نظرا لضيق الوقت وبعد المسافة بين أنزارا والخرطوم لاستقلال الطائرة من هناك إلى القاهرة .واكتفيت بأرسال برقية تهنئة إلى جلالة الملك فاروق . أهدى الحاكم العام للملك فاروق بهذه المناسبة السعيدة ، ناقوسا مشدودا بسلاسل ذهبية إلى سني فيل ومطرقة من الأبنوس . ورغم هذه اللفتة الودية كادت أن تقع أزمة بين الخرطوم والقاهرة إذ أنعم الملك فاروق بمناسبة عقد قرانه بأوسمة ورتب ملكية على عدد من أعضاء الوفود السودانية دون استشارة الحاكم العام . تقدم محمد حاج الأمين في الجمعية التشريعية باستجواب يتساءل فيه عن موقف الحاكم العام من تلك الانعامات الملكية ؟ ورد جيمز روبرتسون السكرتير الإداري عليه قائلا : كان متبعا منذ سنوات أن يتقدم معالي الحاكم العام بتوصياته لدولتي الحكم الثنائي لمنح الرتب أو النياشين ،

أما في ما يرتبط بالحكومة المصرية فإنها لم تمنح أي رتب أو نياشين لأحد من السودانيين بعد عام ١٩٤٣ . وقال روبرتسون إن الحاكم العام بعث بتوصياته للحكومة المصرية في عامي ٤٤و٤٥ ولما لم تستجب أوقف تقديم توصياته بعد ذلك ، ولم يستشرالحاكم العام في الإنعامات الأخيرة . وقد أنعم الملك فاروق يومذاك برتبة البكوية على كل من : اسماعيل الأزهري وعمر الخليفة عبد الله ، وخلف الله حاج خالد وحماد توفيق والدرديري أحمد اسماعيل المحامي ، وعمر اسحق ومحمد نور الدين ، والخليفة أحمد عبد الله ومصطفي أبو العلا . كما أنعم بنيشان النيل من الدرجة الرابعة على السيد إدريس الإدريسي وخضر عمر وأحمد يوسف هاشم وخضر حمد ، وعبد الله ميرغني وابرهيم المحلاوي ومحمد المهدي الخليفة عبد الله وابرهيم صالح سوار الذهب ، وأحمد المفتي ، والمحامين ابرهيم المفتي ومبارك زروق ومحمد أمين حسين . وفي الحقيقة أنني لم اعتذر عن التوجه للقاهرة بسبب ضيق الوقت وبعد المسافة وحدهما ، وانما يرجع اعتذاري أيضاً وربما في المقام الأول إلى الشكوك التي أخذت تساورني حول الاتحاد مع مصر إلى حد حلت فيه الريبة والشكوك مكان اليقين والإيمان . وصادف أن قامت الإدارة البريطانية في تلك الأيام بتشكيل لجنة لتعديل الدستور من أعضاء الجمعية التشريعية وخارجها . وقال الحاكم العام في خطاب أمام الجمعية إن الحكم الذاتي يمكن أن يقوم فقط في أي قطر ، عندما تتفق الأغلبية فيه اتفاقا صادقا على الأسس الجوهرية التي يستند الحكم عليها . وعبرت عن موقفي من اللجنة في رسالة إلى عبد الله ميرغني ذكرت فيها أن المطلوب من اللجنة الخروج بدستور لحكم ذاتي فوري كامل غير منقوص ، تقوم بموجبه حكومة وطنية مسئولة أمام برلمان وليد انتخابات حرة ونزيهة وعادلة وشاملة ، تخوضها كل الأحزاب السياسية بلا استثناء وليذهب إلى الجحيم شعار «نقاطعها ولو جاءت مبرأة من كل عيب» ، وهو الشعار الذي صاغه في الأصل عبد الله ميرغني وتبناه اسماعيل الأزهري . قلت في الرسالة إن علينا أن نمارس عقب مرحلة الحكم الذاتي حقنا في تقرير المصير ، لا حبا في الوحدة مع مصر أوالاستقلال ، وإنما حرصا منا على وضع حد للحكم الثنائي بقرار يمثل إرادة الشعب بالإجماع . وخصصت عبد الله ميرغني بهذه الرسالة لأنه قاد حركة أنصار التعديل

في حزب الاتحاديين وعين مع حسن عثمان اسحق عضوين في لجنة التعديل . اعترضت الحكومة المصرية على لجنة التعديل بحجة أن الحاكم العام البريطاني موظف لدي دولتي الحكم الثنائي ، ليس من حقه اتخاذ اجراء من هذا القبيل ، وإن الفصل في هذه القضية يجب تركه للمتفاوضين البريطانيين والمصريين!! وجاء على لسان ابرهيم فرج الوزير المصري المكلف بشئون السودان أن الحاكم العام عين لجنة التعديل استجابة لاقتراح من الجمعية التشريعية التي لا تعترف مصر بها ، وأن هذه المحاولات لا يهدف من ورائها إلا التفريق بين أبناء وادي النيل .وأن مصر حريصة على رفاهية أهل جنوب الوادي ، ولها الرغبة الصادقة في أن توفر لهم كل مقومات الحكم الذاتي في نطاق الوحدة تحت تاج الفاروق . وإلى جانب تصريحات الوزير ابرهيم فرج قام النائب الوفدي حنفي الشريف بطريقة مسرحية مثيرة في قاعة البرلمان بتمزيق نسخة من معاهدة ١٩٣٦ بين بريطانيا ومصر تعبيرا عن إلغائها . ورد محمد صلاح الدين وزير الخارجية عليه داعيا بريطانيا إلى جلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس وتحقيق وحدة مصر والسودان تحت تاج الفاروق المفدي!! ووصل الصراع يومذاك بين القاهرة والحاكم العام حدا أخذت الحكومة الوفدية تعمل فيه على إقالته وتعيين حاكم عام مصري ، لكنها وجدت نفسها في مأزق لم تضع له حسابا في البداية ، إذ تبين أن تعيين مصري حاكما عاما ، سيفسر في السودان تفسيرا ليس من مصلحة مصر . هكذا اتجهت الحكومة المصرية إلى تعيين سوداني!! لكن كيف يتم اختياره ؟؟ كانت مصر أميل إلى اختيار السيد على الميرغني بيد أن السيد أصدر في تلك الأيام بيانا أكد فيه أنه رجل دين لا دخل له بالسياسة . لم يبق أمام الحكومة المصرية سوى الإمام عبد الرحمن المهدي ؟؟ وجري ترشيح الإمام بالفعل بين الأوساط الرسمية ، وكشفت عن ذلك صحيفة الجمهور المصري إذ جاء في ما نشرته في هذا الصدد ، أن على ماهر باشا رفع مذكرة مطولة إلى الجهات العليا في مصر عن محادثات دارت بينه وبين الامام عبد الرحمن المهدي في سويسرا . واقترح ماهر باشا في المذكرة تعيين الإمام نائبا للملك في السودان!! احتج اسماعيل الأزهري على ذلك عندما علم به من أصدقائه فيَ القصر الملكي .وقال الأزهري إنها سياسة تسيئ إلى دعاة الوحدة في السودان ، وجاء في

مجلة روز اليوسف : «أبدي الأزهري أسفه للمسئولين لما تنشره الصحف المصرية عن مقابلات واتصـالات تتـم مع المهدي الذي لا تعنيه وحدة الوادي بل أنه يعمل للحصول على منصب حاكـم السـودان المعين من قبل مصر وهدفه بعد ذلك أن يستقل بالسودان ، ويعقد حلفا بين السودان ومصر كبلدين مستقلين ثم ينادي بنفسه ملكا!! .»

وأعـود إلى لجنـة التعديل التي عقدت أول جلسة لهـا في قاعة الاجتماعات بمصلحة التجـارة خلال النصف الأخير من ابريل عام ١٩٥١ . وتولي أعمال السكرتارية محمد عثمان يس نظرا لغياب سكرتير اللجنة المستر كين . وقعت في آخر جلسة للجنة في أواخر نوفمبر من العـام نفسه ، خلافات بين الأعضاء حول صلاحيـات اللجنة الدولية المقترحة . طالب ستة أعضاء بأن تحل اللجنة الدولية محل الحكم الثنائي وتتولي سلطاته وهؤلاء الستة هم ميرغني حمـزة والدرديري محمـد عثمان وعبد الله ميرغنـي وحسن عثمان اسحـق ومحمد أحمد محجوب وعبد الفتاح المغربي . بينما رأى سبعة آخرون اقتصار دور اللجنة الدولية على المراقبة إلى أن يقـرر السودانيـون مصيرهم بعد الحكم الذاتي وهؤلاء السبعة : ابرهيم بدري وعبد الله بـك خليل ومحمد أحمد أبوسن وعبد الرحمن على طـه وعبد الماجد أحمد وابرهيم قاسم مخـير وبوث ديو . وعندما فشلت اللجنة في الوصول إلى حل وسط استقال الستة من عضوية اللجنة باستثناء المغربي الذي قال إنه لن يستقيل بالرغم من تمسكه بوجهة نظره . كما استقال ابرهيـم بدري بحجة أنه لا يـري داعيا لاستمراره عضوا في اللجنـة طالما استقال هذا العدد الكبـير من أعضائها . وفي نهاية المطاف رفع القاضـي ستانلي بيكر رئيس اللجنة إلى الحاكم العـام صورة من الدستورالذي اتفق الأعضاء عليـه بالإضافة لنقطة الخلاف . وأصدر الحاكم العام مرسوما بحل لجنة التعديل . جرت كل هذه الأحداث وأنا لا أزال في أنزارا في صراعات مريـرة مع إدارة المشـروع وأعوانها من العاملين الشماليين .غير أني كنت متابعا للأحداث من خلال الإذاعات والصحف والرسائل البريدية من زملائي الاتحاديين في العاصمة . ووصلتني رسالـة في تلـك الأيام مـن الأستاذ مالك ابرهيـم مالك المحامي (ابن عمـي وصهر ابرهيم

بدري) أبلغني فيها أن ابرهيم بدري يوشك على تنفيذ فكرة الجمهوري الاشتراكي في الأيام القادمة ويريد مني الحضور إلى الخرطوم ، لكنه يريد مني أولا القيام بجولة في الجنوب للدعوة للحزب وتشكيل لجانه الفرعية . قدمت استقالتي التي فرحت إدارة المشروع بها وعبرت عن ذلك بقبولها واعتبارها نافذة على الفور ، بدلا من مرور شهر كما نص التعاقد بيننا . بدأت جولتي بعد اسبوع تقريبا حيث زرت أولا طمبرا ومريدي وأمادي ، ثم توجهت إلى بحر الغزال حيث زرت مدنها الرئيسية . وركبت الباخرة من شامبي التي أمضيت فيها يوما في ضيافة الخواجة غريغوري إلى ملاكال حيث زرت بعض مناطق أعالي النيل . استغرقت هذه الجولة شهرا كاملا ظهر خلالها إلى حيز الوجود في الخرطوم الحزب الجمهوري الاشتراكي كتنظيم سياسي مناسب جاء في الوقت المناسب أيضاً ، لو تأخر لقيل الصيف ضيعت اللبن!! كيف ولماذا ؟؟ فقدت مصر بإلغائها اتفاقيتي الحكم الثنائي من جانبها شرعية وجودها في السودان ، وما يترتب عليه من حقوق وواجبات . بينما لم تخف بريطانيا عزمها على المضي قدما في تنفيذ المرحلة قبل الأخيرة من مشروع التطور الدستوري ، التي تليها مرحلة تقرير المصير رضيت مصر أم أبت . غير أن الإدارة البريطانية في الخرطوم لم تخف في الوقت نفسه قلقها من تهديدات طائفة الختمية والأحزاب الاتحادية بالاستمرار في سياسة المقاطعة التي ظلت تنتهجها منذ عهد المجلس الاستشاري ثم الجمعية التشريعية . رأت الإدارة البريطانية أن قيام برلمان للحكم الذاتي تشترك في انتخابه كل فئات وتنظيمات وكيانات الشعب الدينية والسياسية والاجتماعية على اختلافها وبدون استثناء خير ضمان لنجاح مشروع التطور الدستوري . وعلي صعيد آخر وجد السيد على الميرغني زعيم طائفة الختمية نفسه في مأزق حرج للغاية ، إذ تكشف له بما لا يدع مجالا للشك أن مقاطعته للجمعية التشريعية أدت إلى انفراد حزب الأمة (الجناح السياسي لطائفة الأنصار) بالحكم . وجنت قيادة الأنصار وأتباعها ثمار ذلك على هيئة مناصب حكومية عليا ، ومشروعات زراعية في عهد بلغت أسعار القطن فيه عنان السماء بسبب الحرب الكورية . كل المشروعات الزراعية الجديدة منحت للأنصار قيادات وأتباعا باستثناء مشروعات لا يزيد عددها على أصابع اليد ذهبت لنفر من الختمية

كالبكباشي خلف الله حاج خالد ودكتور سيد أحمد عبد الهادي . وفي الوقت نفسه ألحقت حكومة الجمعية التشريعية أضرارا بالغة بمصالح الختمية قيادة وأتباعا من حيث المشروعات الزراعية ، وفرص التجارة ووظائف الدولة . تضاف إلى ذلك مخاوف السيد الميرغني التقليدية من تطلعات الإمام عبد الرحمن المهدي ليصبح ملكا على السودان المستقل ، أو نائبا للملك بالتفاهم مع المصريين !! . وتغذي هذه المخاوف محنة أسرة الميرغني وأتباعها في عهد المهدية . ومن ناحية أخري ، لم يكن معظم رجال الإدارة الأهلية من أتباع طائفة الأنصار ، وإنما ينتمون في الواقع إلى طوائف وطرق صوفية أخرى مثل الختمية والتجانية والقادرية والسمانية والشاذلية . وجد رجال الإدارة الأهلية أنفسهم وبالرغم منهم مدرجين في قائمة الأنصار ، نظرا لقبولهم مشروع التطور الدستوري ، ومشاركتهم الفعلية في مؤسساته كالجمعية التشريعية ومجلسها التنفيذي الذي كان بمثابة مجلس للوزراء ، ومن أعضائه محمد حلمي أبوسن ناظر الشكرية . كثيرون من رجال الإدارة الأهلية نكبت أسرهم وقبائلهم خلال حكم المهدية مثل ابرهيم موسي مادبو(الرزيقاتِ) ، وحاج محمد ابرهيم فرح (الجعليين) ومحمد صديق طلحة (البطاحين) ويوسف العجب (عرب رفاعة) وأولاد أبوسن (الشكرية) . وفي الواقع أن رجال الإدارة الأهلية والجنوبيين أيضاً كانوا يشعرون بقدر من الإحباط عندما يفكرون في مستقبل البلاد ، نظرا لموقف مصر والأحزاب الاتحادية الذي سيدفع الإدارة البريطانية بكل تأكيد إلى الميل بكل ثقلها نحو الأنصار وجناحهم السياسي «حزب الأمة» .

بدأت أولى الخطوات لتأسيس الجمهوري الاشتراكي بدعوة الصحفيين الأجانب الزائرين إلى مؤتمر صحفي عقده نحو عشرين من الجنوبيين وزعماء العشائر الأعضاء في الجمعية التشريعية ، بينهم بابو نمر ومنعم منصور ، وابرهيم موسي مادبو وعبد الرحمن بحر الدين ، وسرور رملي ومحمد حلمي أبوسن ويوسف هباني ، والملك رحمة الله ويوسف العجب ، وبنيامين لوكي وبوث ديو وستانسلاوس بياساما وإدوارد أدوك وأندريه غور وابرهيم يوسف الهندي . وقد وجه الدعوة للمؤتمر الصحفي نيابة عنهم الشيخ يوسف العجب أبوجن . وقال

المتحدثـون في المؤتمـر إنهم يمثلون نحو ستة ملايين من جملة السكان البالغ عددهم آنذاك نحو ثمانيـة ملايين نسمة ، وإنهم يتمتعون بتأييد ستين في المائة على الأقل من أعضاء الجمعية التشريعية ، ثم وزعوا بيانا على الصحفيين أوضحوا فيه موقفهم في ما يلي :

* التعـاون مع حكومة السـودان ومشاركتها في جهودها لوضـع دستور الحكم الذاتي لتمكين السودانيين من تقرير مصير بلادهم في المستقبل .

* الاعتراف بحاجة البلاد إلى قوة أجنبية مما يحتم عليها الحصول على أكبر قسط من الفائدة من الأجانب الذين يبدون استعدادا للعمل في حكومة السودان التي ستكون حكومة سودانية خالصة تعمل فقط لخير السودان والسودانيين

ووصـف البيان الرافضـين التعاون مع حكومة السودان بالافلاس وأ نتهاج سياسات ستؤدي إلى التدمير والاتلاف بدلا من التعمير والانشاء . وجاء في البيان أيضاً ، إنهم يطالبون باستمرار بريطانيا في الاشراف على حكم البلاد حتى تقرير المصير .

كان المؤتمرالصحفـي بمثابـة بالون اختبـار أحدث دويا كبيرا علـى الساحة السياسية ، وسرعـان مـا انطلقت الارهاصات هنا وهناك عن مولد حـزب جديد يقلب كل الموازين على عقـب . ثـم جاءت ساعة الصفـر في السادس من ديسمبر ١٩٥١ ، حيـث عقد نحو أربعين مـن رجال الإدارة الأهلية والجنوبيين الأعضاء في الجمعية التشريعية اجتماعهم التأريخي في حدائـق المقـرن في الخرطوم . وتناولت المباحثات بينهم مستقبـل السودان ودورهم في تكييفه بالإضافة لوضعهم في العهد الجديد . وتقدم بعض الحاضرين باقتراح دعوا فيه إلى قيام حزب جديد يعمل من أجل استقلال السودان ، على أن يكون الحكم جمهوريا اشتراكيا . وسرعان ما نشب نقاش حاد ومشادات كلامية عندما اعترض تسعة من زعماء العشائر الموالين لطائفة الأنصـار على الفكرة وانسحبوا مع آخرين من الاجتماع . وبقي ثلاثة وعشرون من الجنوبيين وزعمـاء العشائر الذين وافقوا على قيام الحزب الجمهـوري الاشتراكي آملين أن ينضم إليهم

آخـرون من أعضـاء الجمعية التشريعية وخاصة زعماء العشائـر . وفي الوقت نفسه استمرت الاتصـالات مع قيادة طائفة الختميـة وأوساط المثقفين .اختير في اجتماع المقرن ابرهيم بدري أمينـا عاما للحزب الجمهوري الاشتراكي . وانضم للحزب في غضون أيام قليلة عدد كبير من رجال الإدارة الأهلية . كما أثمرت الاتصالات التي كانت جارية قبل اجتماع المقرن مع قيادة الختميـة عن ارتمائهـا بكامل ثقلها وراء الحزب الجديد ، ووجهت خلفاءها في جهات السودان المختلفـة لتأييده والدعاية له . هكذا كانت نشأة الحـزب الجمهوري الاشتراكي . ولست هنا بصـدد دفـع ما حامت حول نشأته من اتهامات قد أعرض لها لاحقا لكني أود قبل ذلك أن أبـين أسبـاب انضمامي إليه . لقد قامت قبل الجمهوري الاشنراكـي أحزاب سياسية كثيرة لتحقيق مختلف الاتجاهات الوطنية ، وغلب اتجاهان عليها هما الاستقلال التام أو الوحدة مع مصر وفق صيغ متباينة ومتفاوتة . لم تكن مناصرة هذه الاتجاهات السياسية قائمة على أساس الآراء والأفـكار باستثناء حزب الاتحاديـين الأبروفيين والحزب الشيوعي الذي كان يعمل في الخفاء . وقد مرت بالبلاد فترات منيت فيها بأحداث كان الواجب الوطني يحتم على أبنائها التكتـل وتوحيد الجهود مهمـا تباينت ميولهم واختلفت آراؤهـم . استحال تحقيق ذلك نظرا لتأصل الخلاف بين الطائفتين وشدة التنافر بينهما ، فأضحت المصلحة الوطنية الكبري ثانوية بالنسبة للكسب الطائفي . وغني عن البيان أن أي تنظيم سياسي يقوم في بلد كالسودان على أساس الطائفية المجردة أو هيمنة منطقة على المناطق الأخرى مصيره الانهيار .

إن الاتجـاه الاستقلالي لم يستطع أن يكسب إلى جانبه الكثيرين ممن يؤمنون باستقلال السـودان ، بل يصح القـول بأنه دفع بالكثيرين وأنا واحد منهـم إلى الاتجاه المضاد نظرا للون الطائفي الذي اصطبغ به ، ولما لصق بحزب الأمة من تهمة العمل على تحقيق ملكية محلية معينة ، لم يستطع دفعها رغم نفيها ، وزادتها الأيام والحوادث رسوخا في الأذهان .

أمـا الدعوة للاتحاد مع مصر فقد انكشف القنـاع عنها ، وذلك بما استصدرته الحكومة المصرية من مراسيم حددت الاشتراطات التي تجعل منها أساسا لذلك الاتحاد ، والتي فرضت

علــى الســودان فيها – دون استشارة أهله – وضعا لا يبقي للسودان فيه كيان بين الشعوب ، ممــا أفــزع الكثيرين ممن يودون قيام علاقة سياسية خاصة مــع مصر جوهرها الندية . كل هذه الأحــداث والعوامل زادت في تعقيد الأوضاع والمشاكل السياسية في السودان ، وزادها تعقيدا وإلحاحا قرب نيــل السودانيين لحريتهم واستيلائهم على مقاليد السلطة والحكم في بلادهم ، الأمــر الــذي يفرض على كل مواطــن مخلص أن يتفاني في تلك الفــترة الحاسمة في العمل لتوحيــد الجهود لوضع الأسس السليمة التي تمكــن السودانيين من الاضطلاع بأعباء الحكم والاحتفــاظ باستقلالهــم كاملا . إن الأمل في قيام حكم ديمقراطي سليم ، لا يمكن تحقيقه ما دامــت المبــادئ لا تقوم على أسس سياسية واقتصادية قويمــة . وإن التكتل يومذاك على غير هــذه الأسس لكفيــل بالتطويح بوحدة البلاد إلى أبد الآبدين . لقــد أصبح من الواضح ، إذا مــا أريــد للسودان السير في طريق الحرية والتقدم ولحاقــه بركب الأمم المتمدينة أن يعمل على تنظيــم كيانــه السياسي بطريقة لا تعرض حريته ووحدته الداخلية وتقدمه لأي خطر . ولم أر داعيــا في تلك الأيــام إلى التشكك في نوايا الإدارة البريطانية المعلنــة ، فقد كان واضحا أنها سائــرة بالبلاد في طريق برنامج التطور الدستوري الذي وضعته حتى نهاية الشوط رغم موقف مصــر الرافض . وقد فقدت مصر دورها الشرعــي في السودان عندما أقدمت الحكومة الوفدية في حماقــة وقصــر نظر ، على الغاء معاهدات الحكم الثنائي تجاوبــا مع الشارع المصري وتزلفا لفاروق الأول ملك مصر والسودان . كان واضحا أن الإدارة البريطانية عاقدة العزم على تحقيق الاستقلال للسودان وأنها ستبذل كل ما في وسعها من أجل ذلك . رأيت أن أفضل نظام بعد نيل البلاد الحرية والاستقلال هو نظام الجمهورية الإشتراكية ، لأن في النظام الجمهوري قضاء علــى المخاوف من قيام ملكية محليــة كانت أم أجنبية ، فضلا عن أن الحكم الملكي الصالح لا يستستقيــم إلا في بلاد مارست الحيــاة الديمقراطية زمنا طويلا . كما أن الملكية اقترنت في محيطنــا العربي باحتضانها لطبقــة غنية خاصة على حساب مصالــح الأغلبية الفقيرة نظرا لغيــاب الممارسات الديمقراطية . وفي السودان على الأخصــ يستحيل قبول ملكية تقوم على أســاس التأييد الطائفي بسبب انعدام التقليد الملكــي الراسخ واصطراع أبنائه وراء الطائفية ،

ووجـود فئة كبيرة لا تدين بدين الأكثرية . لقد تأثرت في إيماني بالنظام الجمهوري بما اطلعت عليـه من أعمال عدد مـن المفكرين والأدباء الأوروبيين الذين عرفـوا برفضهم النظم الملكية والدعـوة لتقويضهـا واستبدالها بالنظام الجمهوري أمثال توم بـن البريطاني الأصل وبلاسكو أبانيز الكاتب والروائي الإسباني الذي ذكر في إحدي رواياته منتقدا الملكية في اسبانيا إن ما ينفـق على الأسرة المالكة أكثر ممـا ينفق على التعليم في البلاد وقال عن حليفتها االكنيسة : «بينما تنتشر الأكواخ الحقيرة والكهوف المنتنة في قلب مدريد تتطاول دورالكنائس وملحقاتها مـن دور العبـادة وقد أنشئ خمسون منها خلال عشرين عاما بينما لم تنشأ مدرسة واحدة .» وكأني ببلاسكـو أبانيز يريـد أن يقول لقومه إن الكنائس وملحقاتها تفيض عن حاجة الناس وما من أحد أراد أن يصلي فلم يجد كنيسة أو أكثر في حيه بينما لا يجد أطفال الحي مدرسة تهيئهـم للحيـاة في العصر الحديث . يشبه هذا مقولة الرباطابـي الذى طلب منه التبرع لبناء مسجد في الحي : إئتوني بأى أحد أراد الصلاة فلم يجد مسجدا ؟؟

أما النظام الاشتراكي فإن نظرة واحدة إلى أقرب الأقطار المجاورة لنا والتي نالت حريتها ورضيـت بالنظـام الرأسمالي ، تبين مـدي قيمة الحرية التي دفعت جماهـير شعوبها دماءها وحياتها ثمنا لها ، لتصبح في النهاية أداة طيعة في أيدي الرأسماليين في تلك الأقطار المجاورة ، تستغلها لمصلحتها الخاصة ، فأضحت الحرية – وهي غاية كل شعب – بالنسبة لتلك الطبقة الرأسماليـة وسيلة لنيـل مآربها ، ولسواد الشعب تسلطا واستعبـادا . انتقلت تبعية الجماهير وعبوديتها في تلك الأقطار من غاصب أجنبي إلى مستغل من أبناء البلاد . ولم يبق أمام تلك الشعوب إلا أن تستأنف كفاحها لتجعل من تلك الحرية السياسية أداة لتحقيق ما تصبو إليه من عدالة اجتماعية وتقدم واستقرار .

إن الشعوب في كفاحها لنيل حريتها يجب أن تأخذ العبرة والعظة من كفاح من سبقها مـن الأمم . وأن تـراث الإنسانية في نزوعها إلى المثل العليا ملك لـلأمم الحرة والمستعبدة على السـواء ، تنهل منـه وتسترشد به . فما أحرانا أن نتعظ بمن سبقونـا في هذا السبيل ، ونجنب

أمتنا وبلادنا السير في طريق لم يسلم سالكوه قبلنا . إن أية حرية ننالها ولا نلتزم فيها بتطبيق العدالة الاجتماعية المتمثلة في المبادئ الاشتراكية في كل صورها سوف تكون حرية جوفاء .

ولما كانت فكرة الاشتراكية من الآراء التي تحتاج إلى تفسير وتبيان ، نسبة لما يثار حولها مـن جـدل وغبار ، مع أنها مـن أصلح وأرقي الأفكار التي دارت بخلـد الإنسان ، فلا بد من تعريـف الاشتراكية التي نادي بها الحزب الجمهوري الاشتراكي تعريفا واضحا خاليا من كل لبس أو غموض . إن الاشتراكية مبدأ يدعو إلى المساواة الاجتماعية ويهيئ فرصا متساوية لكل فرد في كل مرافق الحياة اجتماعية كانت أم اقتصادية أو سياسية . كما تحرص الاشتراكية على ألا يحول الفقر أو العرق أو اللون أو اللغة أو الدين دون اعطاء تلك الفرص لمن يريد أن يستفيد منها ويفيد المجموعة . ولا تعني المساواة إلغاء مبدأ تنازع البقاء بين الناس وانما تنظم التنافس بينهم وتشرع لهذا الغرض القوانين العادلة حتى لا ينفرد البعض بمنافع على حساب الآخرين . ثـم أن الناس ليسو كأسنان المشط من حيث العقل وقـوة البدن ولهذا السبب لا تحرم المساواة في ظـل الاشتراكيـة المرء من حقه المشروع في التمتع بحصيلة تميزه من حيث المعرفة والمواهب البدنيـة والعقلية . ليس معني الاشتراكية امتـلاك الدولة كل مرافق الحياة وإنما هنالك مجال واسع للعمل الفردي ، والكسب الفردي . فالدولة تباشر الأعمال الكبيرة والمرافق الهامة إذا ما رؤي أن في ذلك تحقيقا للعدالة الاجتماعية . ومن الممكن في مراحل لاحقة أن تحل الشركات العامـة مكان الدولة . ويمكن للأفراد في ظل النظام الاشتراكي القيام بأعمال أخرى بطريقة لا تؤثـر تأثيرا ضارا على توفـير العدالة الاجتماعية وحماية المجتمع . ولا بد من الإشارة هنا إلى أن عدم المساواة في اعطاء فرص متساوية للمواطنين في جميع مرافق الحياة هو مصدر ما تعانيه كثـير من بلاد العالم الثالث من محن وويلات وتفكيك وانحلال في كيانها الاجتماعي . وهو زيادة على ثبوت فساده من الناحية الأخلاقية فإنه معطل لتقدم البلاد الاقتصادي والعمراني . إن في التزام الحزب الجمهوري الاشتراكي بالمبادئ الاشتراكية تأمينا للسودان من الشرور المريعة التي حاقت ببلاد يسودها القلق الاجتماعي والفوضي السياسية والاستغلال الرأسمالي . وإيمان

الحزب بالاشتراكية نابع من تقاليد بلادنا وما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا من أخلاق ونظم هي خير معين على قيام دولة رائدها رفاهية الفرد والمجموعة وتحقيق العدالة الاجتماعية ، وضمان حرية التعبير والتفكير وحرية التدين والتنقل في أصقاع البلاد . فالاشتراكية بعكس الشيوعية تكفــل كل هــذه الحريات وتعمل على أن يتمتع بها كل فــرد من أفراد الأمة . ولا يعني ذلك بالضــرورة نقل كل النظريــات الاشتراكية التي تطبقها البلاد الأخرى حرفيــا ، وانما علينا أن نأخــذ منهــا ما يلائم أحوال بلادنا وواقع حياتنــا . إن الاشتراكية في أسمي معانيها هي نزوع للمساواة وتحقيــق العدالة الاجتماعية . وتعمل على انصاف الطبقات الكادحة وحمايتها من غوائــل الفقر والجهل ، ورفع مستوي معيشتها عــن طريق تطبيق النظم الاقتصادية الحديثة في تنمية موارد الثروة في البلاد وتوزيعها توزيعا عادلا . وقد سئلت مرة إن كان زعماء العشائر الذين انضموا إلى الحزب الجمهوري الاشتراكي يفهمون الاشتراكية مثلما يفهمها المثقفون من أعضاء الحــزب فــرددت قائلا :إنهم لا يفهمونهــا فحسب وإنما يعيشونها أيضــاً لأنها لا تختلف عن المبــادئ الاشتراكية التي درجــوا عليها في حياتهم في مناطقهم الزراعية والرعوية ، ولا تختلف عــن النهج الذي سارت الإدارة البريطانية عليه متمثلا في مشروع الجزيرة والخطوط الحديدية ، والخدمــات الصحية والتعليــم ، والبريد والبرق ، وما إلى ذلك من مرافق أخرى تديرها الدولة .

هذا ما كان من أمر انضمامي إلى الحزب الجمهوري الاشتراكي ودوافعه أما تحولي من معسكر الاتحاد مع مصر إلى الاستقلال ، فإنه يرجع بصفة أساسية إلى الأحداث التي وقعت في مصر آنذاك ومنها حريق القاهرة المشهور واغتيال عدد من العناصر الوطنية المصرية المعروفة بتوجهاتها الديمقراطيــة وعدائها للقصر . يضاف إلى ذلك نظرة المصريــين حكومة وشعبا إلى وحدة وادي النيل ، باعتبارها فرض الهيمنة المصرية على السودان كأرض تابعة لمصر وتاجها ، لا ندا ،له نفس الحقــوق والتطلعات . وفي الحقيقــة أنني اقتنعت يومذاك – ولا أزال حتى اليوم – بأن للوحدة مــع مصــر أو المشاركة وجهين لعملة واحدة يصبان في مصلحة شعبــي وادي النيل . فالوحدة السياســية صعبــة المنال إن لم تكن مستحيلة . لكن من الممكــن أن يرتبط البلدان بسياسات مشتركــة خارجية واقتصادية ودفاعية واصلاحية إلى آخر القائمة . هذا ما أقصده بالمشاركة أو

ما أصبح يعرف بالتكامل . وقد أثبتت الأحداث في ما بعد أن الوحدة بين مصر والسودان مجرد خرافة أو كالفزاعة في الحقول ، وإن غيابها لم يحل ولن يحول دون تنفيذ أي عمل مشترك يتفق البلدان عليه ، بل وصل الأمر أكثر من مرة إلى دخول الجيش السوداني الأراضي المصرية للدفاع عنها وهذا أرقي مراتب الوحدة . ويمكن الاستشهاد في هذا السياق بأن حدود السودان الشمالية مع مصر ظلت بمأمن من القلاقل والاضطرابات التي أصبحت منذ الاستقلال سمة دائمة لحدودنا الأخري . وهذا فضل يجب الاعتراف به لمصر الشقيقة .

عاتبني صديقي خضر حمد مرة أمام اسماعيل الأزهري رئيس الوزراء قائلا له أنني كنت معهم في حزب الاتحاديين وأبليت بلاء حسنا لكني تنكرت لهم وانحرفت إلى معسكر الاستقلاليين فرد اسماعيل الأزهري عليه «يا حاج خضر من أدراك لعله من السابقين ونحن اللاحقون ؟؟» وحتى تلك اللحظة لم يكن الأزهري قد كشف عن عزمه على إعلان الاستقلال بدلا من وحدة وادي النيل!! بقي أن أقول باختصار ردا على من يتهمون الحزب الجمهوري الاشتراكي بأنه صنيعة استعمارية برز إلى حيز الوجود بأمر من الإدارة البريطانية لاحباط مخططات مصر ودعاة وحدة وادي النيل وتطلعات الإمام عبد الرحمن المهدي ليصبح ملكا على السودان أصيلا أو بالنيابة . ليس غريبا أن يوجه مثل هذا الاتهام للحزب الجمهوري الاشتراكي فما من حزب سياسي في تلك الأيام نجا من مثل هذه الاتهامات . فأي حزب إما أن يكون صنيعة لمصر (الأحزاب الاتحادية) ، أو لموسكو(الحزب الشيوعي) ، أو لبريطانيا كحزب الأمة الذي اعترف الإداريون البريطانيون أكثر من مرة بأنهم أنشأوه أو شجعوا على قيامة ليكون «ترياقا مضادا للحركة الوطنية» . على الذين يتهمون الحزب الجمهوري الاشتراكي أن يسألوا أنفسهم : هل كان من سبيل آخر لاعتراف مصر والأحزاب الاتحادية للسودان بحق تقرير المصير وتخليهم مع طائفة الختمية عن شعار نقاطعها ولو جاءت مبرأة من كل عيب ؟ وهل من سبيل آخر لتجنب هيمنة الأنصار وحلفائهم على برلمان الحكم الذاتي والإنفراد بحكم البلاد في المرحلة الانتقالية مثلما فعلوا في عهد الجمعية التشريعية ؟ وهل من سبيل آخر لقطع الطريق أمام قيام

نظام ملكي محلي أو أجنبي في السودان ؟؟ الإجابة على كل هذه التساؤلات كانت مطالب وطنية في تلك المرحلة الحاسمة في طريق السودان إلى الاستقلال تفرض قيام تنظيم سياسي كالحزب الجمهوري الاشتراكي . ولا يجوز اتهام من عمل على تحقيق تلك المطالب الوطنية بأنه صنيعة استعمارية . جاء في البيان الذي أصدره ابرهيم بدري أمين عام الحزب في ١٧ ديسمبر ١٩٥١ ما يلي «حسبنا أن هذا الحزب الذي ندعو إليه لم ينشئه غير سودانيين مخلصين ولن تقومه سوى أموال سودانية خالصة يساهم فيها أعضاؤه مختارين . ولن يكون لأجنبي عليه سلطان ولا تأثير . وحسبنا أن أهدافنا لا رباط فيها مع شعب آخر ولا ارتباط بتاج ولا سبق فيها للحوادث ولا قيد معها للمستقبل . فإلى أبناء السودان الأماجد نوجه النداء واثقين من تجاوبهم . وإلى كل مخلص لبلاده نرسل الدعوة للمؤازرة في ما نبغي من ورائه حرية لبلادنا وأمنا لشعبنا . والله نسأل أن يوفقنا جميعا إلى سواء السبيل» مثل هذه الأقوال لا يستطيع أي حزب آخر في تلك الأيام الإدلاء بها لا سيما الحزب الوطني الاتحادي الذي رأى النور في مكتب اللواء نجيب في القاهرة والذي لا يخفي قادته اعتمادهم على مصر ماديا ومعنويا .

وقد اعترف سيرجوين بل السكرتير الإداري الأسبق بأنه لا يد للإدارة البريطانية في تشكيل الحزب الجمهوري الاشتراكي . ورد ذلك في مذكراته التي نقلها إلى العربية الأستاذ بشير محمد سعيد . ولا ينكر أحد أن الجمهوري الاشتراكي «وقع في جرح» بالنسبة للإدارة البريطانية التي كانت حريصة على مضي الشعب السوداني بالاجماع في طريق التطور الدستوري حتى يبلغ مرحلة تقرير المصير . وعلى الذين يتهمون الحزب الجمهوري الاشتراكي بأنه قام لضرب الحركة الوطنية أن يبينوا أين ؟وكيف ؟ ومتي ضربها وبأي سلاح ؟؟ هنالك حقيقة لا بد من اثباتها وهي أن الحزب الجمهوري الاشتراكي هو التنظيم السياسي الوحيد في تأريخ السودان الذي ضم أعضاء جنوبيين مؤسسين ضمانا لوحدة البلاد بشقيها في وقت لم يكن في الأحزاب الأخرى حتى أعضاء جنوبيين عاديين . ولم يقم قبل الجمهوري الاشتراكي أو بعده وحتى اليوم حزب سياسي أعضاؤه المؤسسون مزيج من الشماليين والجنوبيين .

لعل هذا النقص المعيب هو السبب الرئيسي في أن وحدة الشمال والجنوب ظلت في مهب الرياح منذ غياب الجمهوري الاشتراكي عن الساحة السياسية ، وعدم قيام حزب بديل عنه حتى الآن ، يضم أعضاء مؤسسين من الشمال والجنوب . ومن رأي الحزب أن الطائفية لا ينبغي أن تكون المصدر الوحيد لتأييد هذا الحزب أو ذاك كما هو الحال بالنسبة لحزب الأمة (الأنصار) وحزب الأشقاء (الختمية) . ولا يرفض الجمهوري الاشتراكي الطائفية أو ينكر دورها السياسي ، لكنه لم يرتم في أحضانها مستسلما ورهن إشارتها . ومن خلال هذا المفهوم يجوز لنا أن نقول أن الحزب الجمهوري الاشتراكي قام على أربعة دعائم هي :

* الأدارة الأهلية المصدر الأول لتأييده كما أنها القوة الوحيدة القادرة على كبح جماح الطائفية في أي زمان ومكان .

* الجنوبيون ضمان وحدة البلاد وضمان ضد التغول الديني في حالة هيمنة الأنصارعلي حكم البلاد تحت شعارهم المعلن «وطننا السودان وديننا الإسلام» .

* طائفة الختمية التي وجدت في الحزب صمام الأمان ضد تغول الأنصار خصومها التقليديين .

* المثقفون المتذمرون من هيمنة الطائفية على الحزبين الرئيسيين : الأمة والأشقاء .

وينتمي المثقفون الذين انضموا للحزب لجميع ألوان الطيف السياسي ومعظمهم من دعاة الاستقلال خاصة المقربين للأميرالاي عبد الله بك خليل الأمين العام لحزب الأمة وزعيم الجمعية التشريعية ووزير الزراعة . من هؤلاء يوسف مصطفي التني وأحمد جمعة المحامي وعبد الرحيم الأمين هاساي وابرهيم قاسم مخير والدرديري نقد وزين العابدين صالح أبوقاضي (أخو عبد الله بك في الرضاع) .ومن المثقفين الآخرين مكي عباس وعبد الماجد أحمد وابرهيم وحسن عثمان اسحق وعبد الحافظ عبد المنعم . وهنالك كثيرون من كبار الموظفين الذين طلبوا الابقاء على عضويتهم سرا في طي الكتمان لاعتبارات مختلفة .

محطة ٩

* الجمهوري الاشتراكي في الساحة السياسية * دستور الحكم الذاتي على منضدة الجمعية التشريعية * صحيفة الوطن الناطقة باسم الجمهوري الاشتراكي * هدية اتحاد الصحفيين يوم عرسي * طرائف ومقولات عن الزواج.

صدر النص الكامل لدستور الحزب على النحو التالي :

* يسمي الحزب بالجمهوري الاشتراكي .

* الأغراض (١) استقلال السودان بحدوده الجغرافية الحالية (٢) قيام جمهورية اشتراكية مستقلة .

* وسائل الحزب لتحقيق أهدافه وأغراضه هي الوسائل التي يتخذها الأحرار من كل شعب لنيل حريتهم ولتحقيق العدالة الاجتماعية . وسيعمل الحزب على نيل الحكم الذاتي الكامل فورا ثم تقرير مصير السودان في أو قبل نهاية ١٩٥٣ وذلك بالطرق الديمقراطية التي يقرها الحزب . ومن تلك الوسائل الديمقراطية التي يقرها الحزب سلوك الطرق الإيجابية التي توصله لأهدافه .

* العضوية مفتوحة لكل سوداني لا يقل عمره عن ١٨ سنة .

وجـاء في دستور الحزب أن ماليته تتكـون من اشتراكات وتبرعات الأعضاء دون سواهم وبينهـم رجـال ميسـورون بعضهم شركاء في مشـروع أم هاني الذي يعد مـن أكبر مشروعات انتاج القطن في منطقة النيل الأبيض . وتقوم العلاقة بين مزارعيه وأصحاب المشروع على أسس اشتراكية بحتة مثل مشروع الجزيرة تماما . والمعروف في ذلك العهد أن دائرة المهدي كانت تتكفل بتمويـل حزب الأمة في سخاء وأريحيـة بالغة . بينما تكفلت مصر الرسمية والشعبية بتمويل حـزب الأشقاء . وفي تلك الأيام التي ظهر الجمهـوري الاشتراكي فيها ، وصل إلى مطار وادي سيدنـا (مطار الخرطوم كان تحت التشييـد) على متن الطائرة المصرية الأستاذ (خ . ع) من كبار القياديين في حزب الأشقاء ، قادما من القاهرة . كانت في انتظاره في المطار قوة من الشرطة بناء علـى معلومات تلقتها المخابرات في الخرطوم مفادهـا أن (خ . ع) يحمل شيكا بمبلغ دسم على مصرف في الخرطوم . وفور وصوله إلى صالة القادمين ألقت الشرطة القبض عليه تمهيدا لتفتيشه ، وقـاوم (خ .ع) رجـال الشرطة مقاومـة عنيفة ، وقدكان قوي البنية . وبعـد جولة من المصارعة اليابانية حرة وغيرحرة ، تمكن رجال الشرطة من طرحه أرضا ، فأخرج صاحبنا وريقة من جيبه وحشرهـا في فمـه ثم ابتلعها رغم أن شرطيا أطبق على عنقه بقوة حتى لا تجتاز الوريقة الحلقوم في طريقها إلى جوفه . وأصيب (خ .ع) الشقيق القيادي في أخريات حياته بقرحة معوية . علق الشاعر توفيق صالح جبريل على ذلك قائلا : يستاهل سرطان مش قرحة لأنه بالع مليون جنيه !! . كان توفيق ناقما عليه لأنه كثيرا ما يماطله في تسديد إيجار منزل من منازل أسرته . وأثيرت هذه القضية في الجمعية التشريعية عندما تقدم بدوي محمد على أبو جنزير باستجواب للسيد عبـد السلام الخليفة ، وكيل الداخلية متسائلا : هل يوافقني وكيل الداخلية على وضع تشريع يحمي السودان والسودانيين من الأموال الأجنبية لغرض الدعاية مهما كان نوعها ؟

الوكيل : هذه فكرة حسنة ولكنه موضوع آخر

يوسف علقم : هل يوجد قانون يمنع الأموال الأجنبية من دخول السودان وإذا لم يوجد هذا القانون فلم قبض على (خ ع) في مطار وادي سيدنا ؟؟

الوكيــل : إن للبوليس سلطات تحــت قانون التحقيق الجنائي تخــول له القبض . وقد يقبضــ علــى شخص ما ثم يطلق سراحه . وإذا أبدي الشخص مقاومة فإن للبوليس الحق في القبض عليه .

عبد الفتاح المغربي : الأحزاب الشيوعية في انجلترا تتلقي معونة مالية من روسيا وليس هناك قانون لمنع الأموال من روسيا فهل يوجد قانون في السودان لمنع مثل هذه الأموال ؟

وهنــا تدخل سير جيمز روبرتسون السكرتير الإداري قائــلا إن وكيل الداخلية أجاب علــى الأسئلة الإيضاحية وإذا كان الأعضاء يرغبــون في بحث هذه المسألة فليتقدموا باقتراح في هذا الصدد .

وصحبت مولد الجمهوري الإشتراكي إشاعات كيدية مصدرها حزب الأمة والأحزاب الاتحاديــة ، أوردهــا الأستاذ حسن نجيلة في مقالة له في الرأي العام على هيئة تساؤلات تناول فيها ما يشاع عن سعي الحِزب في أجندة خفية لانضمام السودان إلى رابطة الشعوب البريطانية (الكومونويلث) ، كما أبدي تشككه في الاشتراكية التي ينادي بها . أحدثت المقالة دويا على الساحــة الوطنية مما دفع ابرهيم بدري إلى الــرد عليها في صحيفة الرأي العام أيضاً ، وجاء في رده أن أهداف الحزب السياسية هي إ قامة جمهورية اشتراكية مستقلة لا تخضع لنفوذ أجنبي ولا ترتبــط بتــاج أجنبي ، ويكون رأســ الدولة فيها رئيسا ينتخب انتخابــا حرا لمدة معينة . ولــن يدخــل السودان في أي ارتباط أو تحالف حتى يتم نيل السودان استقلاله الكامل . وقال ابرهيــم بدري عن الاشتراكية التي ينادي بها إن الاشتراكيين يختلفون عن الشيوعيين في أن الاشتراكيــين يؤمنون بأن توليهم للسلطة يجب أن يأتي بالطريق الدستوري المشروع عن طريق رغبــة الشعب وإرادته . لم يسلــم الحزب من تعليقات السيد محمد الخليفة شريف الساخرة ، إذ كان يقول للأنصارخلال جولاته الاقليمية «إن اسمه الجهموري الإشراكي .الجهموري من جهنم وقاكم الله حرها ، والاشراكي من الإشراك والعياذ بالله !!»

وصلت إلى الخرطوم بعد جولتي في المديريات الجنوبية في اليوم الثاني من ابريل ١٩٥٢ . رافقني في الطائرة التي أقلتني من ملاكال نباتي أمريكي هو مستر هوسكنز رئيس قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الأمريكية . عندما جيئ لنا بوجبة الغداء اكتفي هوسكنز بأكل الخضار والبقول ، والتهمت باقي طبقه نيابة عنه!! عرفت لماذا جاء هوسكنز إلى مطار ملاكال على متن سيارة تابعة للري المصري ، فقد تبين لي من الحديث الذي دار بيننا أنه يميل إلى ارتباط السودان بالتاج المصري عملياً أو ، رمزياً على الأقل . وتساءل عن الحكمة في رفضنا ذلك فقلت له إن هذا أمر غير ذي موضوع . وإذا كان من العبث تكليف نباتي مثلك بالقاء محاضرة عن مزايا وأفضال أكل اللحوم ، فإن من العبث أيضاً أن تنتظر ممن ينادي بالنظام الجمهوري قبول الملكية محلية كانت أم مستوردة . ثم أضفت ضاحكا لا مانع يا صديقي أن نحول التاج المصري لكم مثلما حولت إلى من طبقك قبل لحظات صدر الفراخ!! وتحدث هوسكنز عن حرص مصر على تأمين حقوقها في مياه النيل ، فقلت له إن على مصر ألا تنتظر من السودان الذي يمر نهر النيل على بابه أن يموت من الظمأ . أما حقوقها فإننا لا نمانع في أن يستضيف السودان لجنة دولية مقيمة لمنع الافتئات على حقوق مصر المشروعة في مياه النيل ، بدلاً من سعي مصر لفرض هيمنتها على السودان من خلال وحدة وادي النيل .

وصلت إلى الخرطوم عشية اليوم الذي وضع فيه دستور الحكم الذاتي على منضدة الجمعية التشريعية مصحوبا برسالة من الحاكم العام تلاها رئيس الجمعية جاء فيها :

«حيث إن رغبتي ايجاد دستور للسودان ينص على الحكم الذاتي الكامل ليكون مقبولا لدي الشعب السوداني كما يمكن تطبيقه عمليا . وحيث أني تعرفت على رأي الجمعية بشأن بعض المسائل المتعلقة بهذا الدستور وحيث أن الدستور الذي شمله الأمر سمي قانون الحكم الذاتي قد تمت صياغته الآن ووضعه سير جيمز روبرتسون (السكرتير الإداري) اليوم كمسودة على منضدة الجمعية : لهذا فإني أرغب تمشيا مع أحكام المادة ٦٦ من قانون المجلس التنفيذي والجمعية التشريعية عام ١٩٤٨ أن أتعرف على رأي الجمعية في هذا الصدد» . وعلق سير

جيمز روبرتسون قائلا «إذا نفذ هذا الأمر فان السودان يكون قد بلغ المرحلة الأخيرة في تقدمه الدستوري السابقة للخطوة النهائية . . . ألا وهي تقرير المصير» .

كان هنالك تفاهم تام مع ابرهيم بدري قمت في نطاقه بالجولة التي سبقت الإشارة إليها في الجنوب . وقد أدرج ابرهيم اسمي في قائمة المؤسسين التي عرضت في اجتماع المقرن . وعقب الاجتماع صرح ابرهيم بدري ردا على سؤال من مندوب صحيفة الرأي العام ، بأن الحزب سيصدر صحيفة يومية ناطقة باسمه وسيتولي منصب رئيس تحريرها الأستاذ محمد خير البدوي باعتباره «من المؤمنين بالجمهورية الاشتراكية ومن الطلائع الأولى التي قام الحزب على جهودها!!» . غير أن مكتب السكرتير الإداري تردد في اعتمادي رئيسا للتحرير بحجة أني دون السن القانونية بنحو خمس سنوات ، كما أن اتحاد الصحافة لم يكن متعاطفا معي . كان الاتحاد يعمل في الخفاء ومن خلال صلاته بالسكرتير الإداري على توجيه المسئولين في الحزب لاسناد منصب رئيس التحرير لأحد أقارب رئيس الاتحاد!! ونظرا لضيق الوقت وحاجتنا الملحة لاصدار الصحيفة تولي ابرهيم بدري اسميا ومؤقتا منصب رئيس التحرير المسئول ، ريثما يبت مكتب السكرتير الاداري في أمرى . صدرت «الوطن» لسان حال الحزب الجمهوري الاشتراكي في الثالث من يوليو ١٩٥٢ من مطابع الرأي العام . كنت في الواقع المسئول المباشر عن تحرير الصحيفة وإدارتها بوصفي رئيس التحرير المسئول بالنيابة ومساعد الأمين العام للحزب . وتولي الأستاذ رحمي سليمان منصب مدير التحرير . وتضم هيئة التحرير أربعة أعضاء متعاونين من الصحفيين المخضرمين هم الأساتذة يوسف مصطفي التني وأحمد جمعة المحامي وأمين بابكر (ابن الشعب) ومحمد صفوت الذي تولي تحرير الصفحة الأدبية . كانت خبراتهم وتجاربهم السابقة خير معين لي في مستهل تجربتي كصحفي محترف . وجاء في الرأي العام مرحبة بصدور العدد الأول : «صدرت أمس صحيفة الوطن لسان حال الحزب الجمهوري الاشتراكي في تحرير قوي وتبويب أنيق حافلة بأخبار الحزب وأهدافه ووسائله في العمل ، كما حوت الكثير من الأخبار والمواضيع العامة التي تهم المجتمع

في مجموعه فنرجو للزميلة الجديدة التوفيق والإزدهار» . كانت الرأي العام يومذاك أوسع الصحف السودانية انتشارا وأقواها نفوذا وتأثيرا على الساحة السياسية والوطنية . أخضعت خلال شهرين لاختبارات ومقابلات صارمة شفوية وتحريرية مع المسئولين في مكتب السكرتير الإداري ومنهم صديقي وعدوي اللدود بابكر الديب . استدعاني جيمز روبرتسون في آخر المطاف ليبلغني بحضور مساعديه محمد عثمان ياسين وميخائيل بخيت باعتمادي رئيسا لتحرير صحيفة الوطن بدلا من ابرهيم بدري . وقال إنها حالة استثنائية يتحمل مسئوليتها شخصيا ، ويرجو أن أكون عند حسن ظنه . وعلي خلاف ما تردد يومذاك ورردده كثيرون في ما بعد لم يعرض الحزب الجمهوري الاشتراكي على أي أحد منصب رئيس التحرير المسئول . وجاء قرار السكرتير الإداري مخيبا لأمال بعض الطامعين المتطلعين ولرئيس اتحاد الصحافة ورهطه بصفة خاصة . كانت تلك بداية توتر العلاقة بيني وبين الاتحاد دون ذنب جنيته . ومما يؤسف له أن الاتحاد لم يتعفف من شدة حقده وضراوة عداوته عن ضربي تحت الحزام دون رحمة أو هوادة ، متخليا عن أبسط مقتضيات الذوق والزمالة واحكام اللعبة . في صبيحة يوم عرسي جاءني زميل حاملا هدية الاتحاد ، عبارة عن خطاب أنيق مطبوع على الآلة الكاتبة يخطرني الاتحاد فيه بفصلي طالبا تسليم كارنيه العضوية فورا لمندوبه!! الكارنيه المعني يصدره مكتب الاتصال العام (السكرتير الإداري) بتوصية من اتحاد الصحافة ويوفر لحامله امتيازات عديدة تعينه على ممارسة العمل الصحفي . ولا يجوز للصحفي من الناحية النظرية أن يباشر مهمته بدونه . قلت للزميل مندوب الاتحاد إن الكارنيه في مقام الرخصة التي تبيح لي العمل في الصحافة ولا أعتقد أن بائع التسالي أمام دار السينما يتنازل عن رخصته بمثل هذه العفوية ، وسأعيد الكارنيه إلى مكتب الاتصال العام متي طلب ذلك . شكرت الزميل على لطفه وظرفه وهدية اتحاد الصحفيين الثمينة ، وبالرفاء والبنين والعاقبة عندكم في المسرات!! زواجي مسألة شخصية لا داعي لانشغال الآخرين بها . أما الزواج كقضية عامة فالناس يقولون من تزوج «جعلية» لا يجد زوجة وانما يفوز باصهار لما عرف به الجعليون من شجاعة ومروءة وشهامة . ومن تزوج شايقية يفوز بزوجة ولا يلقى أصهارا لأن رجال الشايقية مشغولون بحب الغناء

والطرب والرقص على نغمات الطمبور . أما من يتزوج رباطابية يخرج من المولد بلا حمص : لا زوجة ولا أصهار . ورأيي في العلاقة بين الرجل والمرأة لا يختلف كثيرا عما جاء في رواية ﴿أبناء حواء الأربعة﴾ للروائي الإسباني أبانيز نقلا عن الأساطير القديمة التي جاء فيها على لسان الراوي : أن الإله زار حواء بعد طردها من الجنة في ساعة كانت مشغولة فيها بتنظيف أولادها . وحل الموكب الإلهي وقد فرغت حواء لتوها من تنظيف رابعهم!! فوهب الإله أولهم الملك ، والثاني الفصاحة ، والثالث القضاء ، والرابع الغني والمال . أما الباقون من اولاد حواء الذين لم يسعفها الوقت لتنظيفهم فقد كتب عليهم - كما ذكر الراوي - أن يكونوا الشغيلة والأجراء المسخرين لخدمة الآخرين . وسئل الراوي عن نصيب بنات حواء ولماذا لم تشملهن الرحمة الإلهية ؟؟ فرد الراوي قائلا : يا مغفلين إن الإله أعطاهن كل ما يعمل له الملوك والفصحاء والقضاة والأغنياء والشغيلة والأجراء . كل ما يشقون في جمعه يذهب إلى بنات حواء في آخر المطاف . ولي صديق حكيم تزوج خمس مرات حتى كتابة هذه السطور يرى أن الزواج ليس شراكة بين اثنين وانما شركة مسئولياتها غير محدودة ينبغي أن يلتزم طرفاها بالعناصر التي تضمن نجاحها وتقيها شرور الشركات غير محدودة المسئوليات .وليس الحب أو القرابة من تلك العناصر ، فالحب حالة طارئة مصيرها الزوال ليس ضروريا لنجاح الشركة ، وإنما مجرد ديكور في أحسن الحالات ، أما القرابة فإن من العيب أن يقف أي من الزوجين ﴿طرفي الشركة﴾ أمام المحاكم متظلما من الآخر ليصبح القدح بلا غطاء والغطاء بلا قدح !! . على أية حال لا أستبعد أن يأتي يوم تستغني المرأة فيه عن الرجل لإداء وظيفتها البيولوجية فتأتي بعد مرحلة الاستنساخ -التي بلغناها- مرحلة تخرج المرأة من مكتبها في أخر النهار فتشتري في طريقها إلى البيت من الباعة المتجولين نطفة أوعلقة مصنعة حسب المواصفات التي تريدها ومسايرة للموضة من حيث اللون والطول والعرض وما إلى ذلك . أو قد تشتري جنينا جاهزا أنثي أو ذكرا داخل قارورة . وعلي الرجل حينئذ أن يبحث عن أنثي مخلوق آخر مثلما فعل أسلافه في فجر الخليقة كما أخبرنا عبد الله عشري في ندوة الجمعية الأدبية في الأحفاد .ويحكي الشيخ بابكر بدري في كتابه «الأمثال السودانية» عن زمان قادم يسمى

﴿سنـة العـود﴾ يصل الرجال فيه إلى حافة الانقراض بينمـا يصل عدد النساء إلى أضعاف وأضعـاف ، فتتنافسـ آلاف النساء علـى رجل واحد يهرب منهن إلى قمـة «عمته النخلة» مستجيرا بها . ولما تعجز النسوة عن اللحاق به يكتفين بلمسه بعود طويل وشم رائحته لإطفاء لهيب شبقهن . . . على الريحة فقط ؟؟ وسوف يهتفن يومذاك بسقوط نوال السعداوي نصيرة المـرأة في زماننا الحاضـر وبسقوط صويحباتها السائرات على دربهـا!! أرجو ألا تغضب معشر النسـوة على فإنها مجرد مؤانسة ومجالسـة داخل عربة قطار العمر في رحلته الطويلة . . . ولا جنـاح على من لا تقبل عـذري إن قطعت الرحلة وفارقتنا في المحطة القادمة!! ويروى الشيخ بابكـر بدري في الكتـاب نفسه عن الفتـاة السودانية المشتاقة للزواج قولهـا : «أبوى داير لى البيسـتر الحال ، وأمي دايرا اليجيب المال ، وأنا دايـرا الصبي القدال !!» أما المرأة عند العرب الأقدمين فإن : «عزها بكاء وبرها سرقة» . . . في الحرب لا تملك غير دموعها ، وتبر والديها بما تأخذه من بعلها بعلمه أو خفية .

لا أدعـي أن صحيفة الوطن كانت مدرسـة فريدة في مسيرة الصحافة السودانية ، وإنما أقـول إنهـا كانت بمثابة نقطة الانطلاق لعـدد من النوابغ الذين شقـوا طريقهم في الصحافة والسياسة ، ومجالات اخري أمثال الأستاذ ادريس حسن ، ودكتور منصور خالد والوزير السابق ابرهيـم رضوان ، والسفير الزعيـم الطيب حميدة والشيخ الفاضل التقلاوي الذي كان يكتب يوميـا مقالات رصينة عن الاشتراكية في الإسلام ، وعمر عبد التام رائد الصحافة الرياضية ، رشحـه لنـا لاعب فريق الهلال الشهير دكتور يوسف شبيكة . كان عمر يعمل في تلك الأيام كاتبـا تجاريا مع دفع الله شبيكـة والد يوسف . كانت الوطن تصدر يوميا في أربع صفحات في طباعـة أنيقـة من مطبعة الرأي العام ثم تحولنا بعد نحو ستة أشهر بناء على رغبة السيد على الميرغنـي إلى مطبعة السـلام التي تمتلكها دائرته وبعض تجارالختميـة ، ويدير الشركة قاضي المحكمـة العليا المتقاعد الدرديري محمد عثمان . وتصد ر من المطبعة نفسها صحيفة صوت السـودان الناطقة باسم الختمية . مستوي الطباعة في مطبعة السلام رديء للغاية ، ولا سبيل

لمقارنته مع مطابع الرأي العام ، لكن لا سبيل لرفض رغبة السيد على في تلك الأيام . وأغلب الظن أن انتقالنا لمطبعة السلام كان بمثابة رشوة لست في حل من ذكر الجهة المنتفعة خوفا من طائلة القانون أو غضبة الأولياء الناشبين!! وحسبي أن أقول إن مطبعة السلام كانت تتقاضي منا مقابل طباعة الوطن ضعف ما كنا ندفعه للرأي العام . وقد وقع على العقد مع مطبعة السلام نيابة عنا الخليفة يحيي عثمان الكوارتي العضو المؤسس في الحزب الجمهوري الاشتراكي وأحد حلقات الاتصال المعتمدة بيننا وبين السيد على الميرغني خاصة في الشئون المالية . لم أكن مرتاحا للتحول إلى مطبعة السلام فنيا وبسبب ارتفاع التكاليف ولأن محرري صوت السودان يسطون على موادنا الاخبارية وينشرونها في صحيفتهم التي تسبقنا عادة بساعات . صارحت بذلك العم زين العابدين أبو قاضي فرد على في عفوية معهودة : كم عمرك في السياسة يا ابني ؟؟ وفي الحقيقة كان هنالك في تلك الأيام خيط رقيق ودقيق يفصل بين الختمية والحزب الجمهوري الاشتراكي . لهذا السبب احتدمت المنافسة بين الوطن وصوت السودان كما يحدث بين الضرتين تحت سقف واحد . ويبدو أن انتقالنا إلى مطبعة السلام كان مؤامرة دبرتها أسرة صوت السودان أيضاً لنصبح تحت رحمتها لا سيما أن عمال المطبعة يدينون بالولاء لصوت السودان . في مرات عديدة تدلق الصفحات عمدا على الأرض بعد صفها باليد حرفا حرفا فنضطر لإعادة صفها من البداية لتخرج الصحيفة متأخرة عن موعدها اثنتي عشر ساعة على الأقل ، بالإضافة إلى تكبدنا أجورا إضافية (أوفرتايم) للعمال . كانت المطابع في تلك الأيام شبه بدائية كل كلمة تجمع حرفا بحرف ثم تصف السطور لتتكون منها الصفحات ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الطباعة البطيئة للغاية بمعدل نحو مائة نسخة في الساعة . ومعظم عمال الطباعة في ذلك العهد أعضاء ناشطون في الحزب الشيوعي بزعامة كامل خيري . وقع في تلك الأيام حادث فريد في تأريخ الإدارة البريطانية في السودان ، إذ أدين مهندس الأشغال البريطاني في الدويم باختلاس المال العام فحكم عليه بالسجن ، وجيئ به إلى سجن كوبر في الخرطوم بحري تحت حراسة حكمدار الشرطة ابرهيم حسن خليل . لم يسبق أن أدين بريطاني في السودان بمثل هذه الجريمة ، وقد اشتهر سائر البريطانيين الذين عملوا في السودان بالعفة

والأمانة . يجري اختيارهم بدقة فائقة من خريجي جامعتي أوكسفورد وكامبريدج العريقتين اللتين لا يلتحق بهما إلا نادرا غير أبناء البيوتات الكبيرة العريقة . التقط منصور خالد الخبر من مصدر في دار الثقافة وجاءنا به قبيل منتصف الليل ، ودفعت بالخبر إلى المطبعة ممنيا نفسي بسبق صحفي خطير في اليوم التالي . لكنا فوجئنا بالخبر في اليوم التالي يحتل مكان الصدارة في صوت السودان ولا أثر له في الوطن!! وبدلا من السبق الصحفي خرجت باعتذار من العم الدرديري محمد عثمان ووعدد بألا تتكرر تلك الاعتداءات على موادنا!! لكنها لم تتوقف ، ورأينا أن السبيل الوحيد لردع صوت السودان عن «لطش» أخبارنا نصب فخ أو بالأحرى مقلب يكون درسا قاسيا لها يوقفها عند حدها . صغنا بعد مشاورات مع رحمي سليمان خبرا ملفقا مفاده ، أن الصاغ صلاح سالم أبلغنا أن لندن أبلغت القاهرة باعفاء الحاكم العام من منصبه وتعيين راندولف تشرشل خلفا له .وأرسلنا الخبر إلى المطبعة وكلفنا قمر الدين المبارك برصد ما سيحدث أولا بأول وهو واحد من العاملين في المطبعة إلى جانب شهرته كشاعر غنائي . جاءنا قمر الدين بالفعل بعد نحو ساعة ليخبرنا بأن الخبر أمام الأستاذ محمد أحمد السلمابي رئيس تحرير الصوت . إذن لقد التقط صاحبنا الطعم ، ولن يمر وقت طويل قبل أن تنغرس السنارة بين فكيه!! انتظرنا حتى بلغت صوت السودان مرحلة الطباعة ، وأوشكت ماكينة المطبعة على الدوران وقد احتل خبر إقالة الحاكم العام مكان الصدارة ، بعد إضافات جادت بها قريحة السلمابي عن الحاكم العام الجديد وأبيه ونستون تشرشل ومقتطفات من كتاب حرب النهر . والسلمابي صحفي موهوب خصب الخيال وعلي قدر عظيم من الذكاء . ذهبنا إليه - أنا ورحمي - في مكتبه فاستقبلنا بابتسامته المعهودة المفعمة بالطيبة ، ثم فاجأنا قائلا إن البكباشي عبد الفتاح حسن قائد القوات المصرية في الخرطوم أبلغه أن الحاكم العام أعفي من منصبه ولا مانع أن ننشر هذا الخبر في صحيفتنا الوطن التي تصدر عادة بعد صوت السودان ببضعة ساعات . وسرعان ما أسقط في يده عندما فاتحته قائلا : يا أستاذ أطلع من دورك هذا خبر مفتعل حبكته مع رحمي لتلطشه كالعادة . وهرول السلمابي على الفور إلى المطبعة ليوقف عملية الطبع ، وعاد ليصب جام غضبه علينا سبا وشتما ، ولم يبق على ورقة

في شجرتـــي أنسابنا إلا وحشرها في غليونه!! ثم جلس السلمابي ليعد مادة بديلة ، ولما طالت حيرتــه قلت له متهكما إننــي وضعت حكمة اليوم مكان الخبر في صحيفة الوطن «ما تمنيت زكامــي لسارق منديلي» واقترح أن تضع مكانه في صحيفة الصوت أهزوجة «وأشغل أعدائي بأنفسهم وأبليهم ربي بالمرج» من أهازيج الختمية المشهورة . وتولى رحمي مهمة ضابط الإيقاع بينمــا أخذت أدور حــول السلمابي منشدا الأهزوجة مصحوبــة برقصتها كما يفعل الختمية في أذكارهــم . وثــارت ثائرة السلمابــي حتى تطاير الشرر من عينيــه وكاد أن يرميني بغليونه المشتعــل . ومــع ذلك لم أنس قبل مغــادرة مكتبه أن أقول له يا أستــاذ «كان ما عارف أرجع للقضارف!! ومحمد أحمد السلمابي الذي ربما لا يرد ذكره في ما تبقي من قطار العمر - أحد الصحفيين المشاهـير الأربعة الذين جاءوا إلى العاصمة من القضارف . الثلاثة الآخرون هم : محمــد الخليفة طه الريفي وعبد الله رجب (الصراحة) ، وعوض برير الذي انتهي به المطاف في أروقــة البعث الاشتراكــي العراقي وقضي نحبه بالقلب في بغــداد . لقد أدركتهم جميعا حرفــة الأدب وتقيدوا بهــا حتى مماتهم باستثناء السلمابي الــذي طلقها في منتصف الطريق ليقتحــم دنيا المال والأعمال فأصاب نجاحا عظيما واشتهربالمروءة وأياديه البيضاء في مجالات البر والاحسان .

محطة ١٠

* السيد على الميرغني بين الوحدة والاستقلال * اضطهاد الختمية في عهد المهدية * عضوية السودان في الكومونويلث * أحمد جمعة المحامي المسلم المثالي * الصراع بين روبرتسون السكرتير الإداري ومساعديه البريطانيين * الأصابع الأمريكية على ساحة السودان السياسية * لقاء ابرهيم بدري مع مندوب الخارجية الأمريكية * فاروق ملك مصر والسودان والإمام عبد الرحمن نائبه في الخرطوم * الانقلاب في مصر يحبط زيارة الإمام عبد الرحمن المهدي للقاهرة * تشكيل الوطني الاتحادي واعترافه مع مصر بتقرير المصير * وفد الجمهوري الاشتراكي إلى القاهرة * رحلات صلاح سالم المكوكية واتفاقية الحكم الذاتي * ابرهيم بدري يحذر مما سيجري في الجنوب * الدعاية والأموال المصرية تغضب حزب الأمة * انتخابات برلمان الحكم الذاتي وفوز دعاة الوحدة بالأغلبية *

السيد على الميرغني ليس شخصية مثيرة فحسب وإنما محيرة أيضاً لمن لا يعرف مفاتيح شخصيتــه التــي ربما يكون الوصول إلى أنف الأسد أيسر مــن الوصول إليها . قليلون جدا من امتلكــوا بعض تلك المفاتيح سوى مفتاح واحد يدركــه كل من اتصل بالسيد على الميرغني عــن قرب أو احتك بــه في أي شأن من شئون الحياة . يتمثــل المفتاح في تخوف السيد على الميرغنــي المفرط من تغول الأنصار ، وتلازمه من جراء ذلك وساوس دائمة لا يسلم منها من حولــه ، حتى الأصدقاء وأقرب الناس إليه!! تتجسم مخــاوف السيد على من تغول الأنصار كلما ازدادوا قوة ونفوذا . لا يرجع ذلك إلى أن الأنصار الطائفة المنافسة للختمية فحسب وانما

يرجع أيضاً إلى ما لحق بمن تبقي من أسرة الميرغني داخل السودان من مهانة وإذلال خلال فترة المهدية ، بلغ قمتة في عهد الخليفة عبد الله التعايشي . جمع الخليفة عبد الله كل نساء أسرة الميرغني وفتياتها لتوزيعهن كجوار أو زوجات على أقاربه والموالين له من أمرا ء المهدية ، بحجة أنه لا يليق ترك حفيدات فاطمة الزهراء دون زواج . والمعروف حتى عهد قريب أن نساء المراغنة لا يتزوجن من خارج الأسرة . أوشك الخليفة عبد الله على تنفيذ عزمه ، لولا تدخل الأمير سليمان كشة ، في آخر لحظة إذ حذر الخليفة عبد الله من مغبة فعلته . وقال له إن ما يعتزم فعله ، يعني قطع طريق التجارة صادرا وواردا بين سواكن والداخل ، لأن سكان سواكن وماحولها من مريدي الطريقة الختمية المتشددين . سليمان كشة من قبائل الأرتيقة المعروفة في شرق السودان ، جعله الخليفة عبد الله مسئولا عن تجارته بين سواكن والداخل . يحمل سليمان إلى سواكن تجارة الخليفة عبد الله كالصمغ وريش النعام والعاج ويعود من هناك بسلع كالمنسوجات والعطور ، ومنها الصندل أحب الأشياء للخليفة عبد الله أعوادا تحرق وعطرا يتضمخ به .زرت بيته لأول مرة في عام ١٩٤٠ مع مجموعة من تلاميذ مدرسة الأحفاد بقيادة أستاذنا شيخ الدين جبريل ، وهالنا أن غرفة الحمام لم تزل حتى ذلك العهد عابقة برائحة الصندل تفوح منها بقوة ، كأنما خرج الخليفة عبد الله منها لتوه!! ويروي عن الأمير سليمان كشة أن أهله نصحوه بألا يخرج مع الخليفة عبد الله إلى معركة كرري الفاصلة فأبي قائلا : كيف أقاسمهم حلو الحياة ونعيمها ثم أهجرهم عند الشدة والبلاء ؟؟ وقيل إنه دفن كل ما لديه من أموال الخليفة عبد الله من فضة وذهب وأشياء ثمينة في المنطقة الواقعة غربي ستاد أم درمان ، ثم خرج مع المدافعين ليسقط شهيدا جنبا إلى جنب مع أمير الأمراء يعقوب شقيق الخليفة عبد الله . وسليمان كشة الصحفي المخضرم هو ابن الأمير سليمان وقد أسموه باسم أبيه كعادة أهل السودان لمن يولد بعد ممات أبيه . لقد ضرب الأمير سليمان أسمى آيات المروءة والوفاء ودفع في النهاية حياته ثمنا لذلك على عكس ابنه الذي خان في العشرينات جمعية الاتحاد السوداني وأفشي أسرارها وأسرار أعضائها الذين قادوا حركة اللواء الأبيض!! تري ما ذا كان سيحدث لو تمت على يد الخليفة عبد الله تلك الزيجات الأنصارية

الميرغنية ؟؟ تحضرني بهذه المناسبة واقعة مماثلة وفي نفس السياق . كان عمنا مختار محمد قريش الرباطابي مكلفا في عهد الخليفة عبد الله بجباية الضرائب في منطقة الجزيرة ، ويروى أن نفرا جـاءوا لزيارته كلهم من قبيلة التعايشة الحاكمة باستثناء اثنين أو ثلاثة يدعى أحدهم داؤود مـن قبيلة الجوامعة التي تعيش في كنفها . وبينما كان مختار يعد الشاى لضيوفه دوي صفير الباخـرة القادمـة من المتمة محملة بالسبايا الجعليات اللائـي وقعن في الأسر عقب المذبحة المشهورة على يد الأمير محمود ود أحمد . وما أن سمع داؤود الصفير حتى نهض من مكانه قائـلا : أنا ذاهـب إلى خليفة المهدي ليعطيني جعلية اتخذها جارية!! واستشاط مختار غضبا وأرغـي وأزبـد من هول ما سمع فعاجـل داؤود بصفعة حامية أردتـه صريعا على الأرض . وصـاح مختار في وجهه : هل يرضي الخليفـة استرقاق الجعليات يا سفيه ؟ كيف تقول ذلك وتشـرب الشـاي في بيتي ؟؟ وركل مختار عدة الشاي فتناثـرت على الأرض . ويقول الشيخ بابكـر بدري الذي شهـد الواقعة إنه خشي على مختار من بطش الخليفة عبد الله فقال له معاتبـا بعد ذهـاب الضيوف : ما الذي حملك على مثل هذا الـكلام - يا عم مختار - في هـذا الزمـان وفي مثل هذا المكان وبحضور هؤلاء ؟؟ ويمضـي الشيخ بابكر قائلا حملق مختار في مغضبـا ثـم قال لي : أنت والله جبان ماذا نريد بحياة نسمع فيها مثل هذا الكلام من مثل هذا الدنىء وإذا كنت خائفا يا بابكر من أن تضبط معي فألحق بأهلك!! وعندما أبلغ الخليفة عبـد الله بما حدث من مخنار أمر باطلاق سراح السبايا الجعليات وتسليمهن إلى ذويهن قبل مغيب شمس ذلك اليوم .

علـي أية حال الحديث ذو شجون ، لم نبتعد عـن الموضوع فما خضنا فيه ليس سوى جانـب من خلفيـات مخاوف السيد على الميرغني التي فرضـت عليه في ما فرضت الارتماء في أحضـان مصر ودعاة وحدة وادي النيل . هـذه المخاوف هي التي تتحكم في تفكير السيد علـى ومواقفـه على ساحة السياسـة الوطنية : فهو مع وحدة وادي النيـل من أجل حمايته وطائفتـه من تغول الأنصـار . وهو في الوقت نفسه ضد وحدة وادي النيل ومع الاستقلال إذا

وفر الاستقلال له تلك الحماية . كانت تلك المخاوف نقطة الضعف التي نفذنا منها إلى قلب السيد على من اجل انضوائه تحت راية لحزب الجمهوري الاشتراكي ووقوفه خلفه بكل ثقله . لم نكن على عكس الأحزاب الاتحادية في حاجة إلى استغلال اسم السيد على الميرغني في دعايتنا واتصالاتنا وفي الاجتماعات العامة ، خاصة خارج المدن حيث يتمتع رجال الإدارة الأهلية بشعبية تقليدية واسعة النطاق . أما في المدن فقد كان اعتمادنا على مبادئ الحزب وبرامجه ، وعلي موقفنا المضاد لحزب الأمة وطائفة الأنصار كافيا لوضعنا تلقائيا في خانة طائفة الختمية وقيادتها . وقد انتهج السيد على مع الحزب الجمهوري الاشتراكي ذات الأسلوب الذي انتهجه من قبل مع حزب الأشقاء ، ويتمثل في «الإشارة» وفي بعض الأحيان توجيه تعليمات صريحة ومباشرة إلى خاصة خلفائه وخلصائه من ذوي النفوذ بين أتباعه . في خلال جولة حزبية في شرق السودان مع اليوزباشي زين العابدين صالح أبوقاضي والشريف ابرهيم الهندي التقينا في دار الشيخ عبد الباسط رئيس الحزب في بورتسودان مع مجموعة من سكان المدينة على رأسهم الزعيم الشقيق يحيي الغصين الذي قاطعني أثناء حديثي ، مشككا في موقف قيادة الختمية من الحزب الجمهوري الاشتراكي . فرددت عليه قائلا إننا نسعى في مانسعى له إلى وضع حد لهيمنة الأنصار على الحكم وإلى ضمان عدم قيام نظام ملكي على راسه الإمام عبد الرحمن المهدي ملكا متوجا أو نائبا للملك فاروق . وهدفنا هو قيام نظام جمهوري دعامته الأولى زعماء العشائر والجنوبيون ولك أن تفهم من ذلك أين تقف قيادة الختمية ؟؟ وأثارت جولتنا في الشرق حفيظة الأحزاب الاتحادية وفي مقدمتها حزب الأشقاء بجناحيه (أزهري ومحمد نور الدين) وطلبوا من (حلة خوجلي) استنكار ما أسموه إدعاءات الجمهوريين الاشتراكيين ، فأصدرت حلة خوجلي بيانا مقتضبا للغاية جاء فيه أن السيد على لم يصرح لشخص أن يدعو باسمه لأي حزب من الأحزاب .وقالت الصحف يومذاك إن المقصود بذلك الحزب الجمهوري الاشتراكي وفات عليها أن توضح لقرائها أن ما ورد في البيان يسري على جميع الاحزاب السودانية . لم يحدث أن كشف السيدعلي في بيان أو شفاهة تأييده لحزب ما إلا مرة واحدة كانت بعد الاستقلال . علقنا في صحيفة الوطن

على البيان قائلين إن اشتراك كثيرين من كبار الختمية في الحزب الجمهوري الاشتراكي ، أقنع الجماهير بأنهم ما كانوا ليقدموا على مثل هذا العمل مالم يكن السيد على راضيا ، وربما يضطر نفر منهم إلى الحديث عن تأييد السيد على للحزب الجمهوري الاشتراكي بدافع وطنيتهم الصادقة وولائهم لطائفة الختمية . غير أنهم لا يلجأوون إلى مثل ذلك إلا نادرا ، على خلاف الأحزاب الاتحادية التي درجت دواما على اقحام مولانا في الأمور الصغيرة والكبيرة سواء بسواء ، ولا ترى نصيرا لها سواه . واتخذنا من البيان حجة لتوجيه نداء سافر لسائر جماهير الختمية للانضمام إلى الحزب لأن زعيمهم ومرشدهم السيد على ترك الباب مفتوحا لكي يعتنق أي منهم ما يشاء من المبادئ السياسية . وإن مبادئنا القائمة على أساس «لا ملكية محلية أو أجنبية» أقرب المبادئ إلى تطلعاتهم السياسية والوطنية وصمام الأمان ضد تغول الأنصار في الحاضر والمستقبل .

ومن عادات السيد على أن يختصر لقاءه مع شخص ما أو لا يقابله مطلقا بحجة الاعتكاف أو وعكة طارئة ، اعرابا عن عدم رضائه عن موقفه السياسي . أما في حالة الرضاء فإنه قد لا يزيد على قوله بأن لأتباعه مطلق الحرية لاعتناق ما يشاؤون من المذاهب السياسية . وقد مر الشيخ محمد حمد أبوسن ناظر الشكرية (القضارف) بهذه التجربة إذ تردد في البداية في انضمامه للحزب الجمهوري الاشتراكي بسبب ميوله لحزب الأشقاء ، ولأنه في منطقة تضم إدارتين أهليتين (بكر وقلع النحل) معروفتين بولائهما المفرط لطائفة الأنصار ، وهو في حاجة لمواجهتهما في أية انتخابات محلية أو عامة لأصوات الناخبين في مدينة القضارف التي أنشأ الشيخ محمد أحمد المرضي فيها خلال عمله قاضيا شرعيا هناك قاعدة صامدة لحزب الأشقاء . على أية حال كان اتصالنا بالسيد على الميرغني يتم عن طريق أربعة انتدبهم الحزب لهذا الغرض هم اليوزباشي زين العابدين أبو قاضي وسرور رملي وحاج محمد ابرهيم فرح وشخصي . أما ابرهيم بدري زعيم الحزب فإنه لم يكن ميالا لزيارة السيد على إلا في القضايا المهمة جدا . وقال لي مرة إن قراءة رواية جيب خير عنده وأمتع من الذهاب إلى حلة خوجلي

واحتساء أكواب القرفة!! وللسيد على مستشارون سياسيون من خلصاء أتباعه المثقفين أمثال الشيخ عمر اسحق والدرديري محمد عثمان وميرغني حمزة ومحمد الحسن دياب والبكباشي خلف الله حاج خالد .

تزامنت مع ارهاصات مولد الحزب الجمهوري الاشتراكي ،تحركات تهدف لانضمام السودان إلى الكمونويلث (رابطة الشعوب البريطانية) كاتجاه مضاد لوحدة وادي النيل في ظاهرها ، لكنها في الباطن محاولات كيدية وراءها حزب الأمة لوأد الحزب الجمهوري ، الاشتراكي في مهده ولضمان استمرار تأييد البريطانيين القابضين على زمام الأمور في السودان لحزب الأمة . كانت تلك التحركات تدور في البداية سرا وفي الخفاء بزعامة بوث ديو السياسي الجنوبي واثنين من حزب الأمة هما السيد محمد الخليفة شريف والأستاذ محمد أحمد عمر (السكرتير الخاص للإمام عبد الرحمن المهدي) . استطاعوا استمالة نفر من زعماء العشائر والجنوبيين ، ومن كبار الخريجين .وجدت الدعوة لعضوية السودان في الكومونويلث في الوقت نفسه ، ترحيبا من كبار الإداريين في الخرطوم مثل كبيرهم سير جيمز روبرتسون السكرتير الإداري ، الذي كان يطمع في أن يصبح نائبا لملك بريطانيا في السودان في حالة انضمامه للكومونولث . و سرعان ما تكشفت الأمور وظهر دور حزب الأمة الرامي إلى وأد الحزب الجمهوري الاشتراكي في مهده حتى يخلو الجو له ، ويبقى التنظيم الاستقلالي الوحيد في البلاد ليحافظ بذلك على تأييد البريطانيين له . هكذا أخذ المخدوعون الذين أغرتهم دعوة الكومونولث في الانسحاب وخاصة الجنوبيين وزعماء العشائر . لم يرض دعاة الكومونولث بالهزيمة فسارعوا في محاولة أخيرة فاشلة إلى انشاء ما عرف بحزب الدومنيون بزعامة محمد أحمد عمر وبوث ديو . لم يعمر هذا الحزب طويلا رغم دعم بعض الإداريين البريطانيين له . وفي نهاية المطاف وقبل أن يلفظ حزب الدومنيون أنفاسه الأخيرة أبدي رغبة في الانضمام إلى الحزب الجمهوري الاشتراكي شريطة تعديل دستوره بحيث ينص على انضمام السودان إلى الكومونويلث . نقل حامد السيد إلينا هذه الرغبة وكان ذلك في عهد المفاوضات بين الأحزاب

السودانية ثم بينها وبين دولتي الحكم الثنائي . وهي المفاوضات التي تمخضت في النهاية عن اتفاقية الحكم الذاتي . وجرت بالفعل اجتماعات بين الطرفين اشترك فيها من جانبنا ابرهيم بدري وسرور رملي وعبد الماجد أحمد ومن جانب حزب الدومنيون محمد أحمد عمر وبوث ديـو والوسيط حامد السيد . كان رأي الحزب الجمهوري الاشتراكي واضحاً يتمثل في حرصه الدائـم علـى عدم الدخول في أي ارتباط أو تحالف مع أيـة جهة حتى يتم للسودان استقلاله الكامـل بقيـام الجمهورية الاشتراكية . أمـا في ما يختص بتعديل دستـور الحزب فإنه خطة سابقة لأوانها ولا يمانع الحزب الجمهوري الاشتراكي في انضمام السودان إلى الكومونويلث في المستقبـل بقرار يجب اتخاذه على نحـو ديمقراطي وشرعي بعد الاستقلال ، وبعد معرفة رأي الجهـات المعنية في الكومونويلث مـن امكانية الإنضمام إليه ، إذ إن بين أعضاء الكومونويلث دولا مثل جنوب افريقيا معروفة بنزعاتها العنصرية المتطرفة . قبلت جنوب افريقيا على مضض انضمام الهند وباكستان . ومن رأي الحزب الجمهوري الاشتراكي أن أية دعوة من هذا القبيل في ذلك الوقت ، ستعتبر ضمن معايير المعادلة السياسية ، مجرد مجابهة مشبوهة لدعوة وحدة وادي النيل مما يفتح الباب لمصر وأنصارها في السودان لدمغ الحزب بالعمالة لبريطانيا .

لم تكن الساحة السياسية عند عودتي من الجنوب للخرطوم كما عهدتها من قبل ، إذ كان أمر دستور الحكم الذاتي وتعديلاته قد حسم .وأصبح من الواضح أن الإدارة البريطانية ماضية قدما في تنفيذ برنامجها لتحقيق الحكم الذاتي ثم تقرير المصير رضيت مصر أم رفضت . وكان واضحا أيضاً أن مصر فقدت حقها كطرف في الحكم الثنائي بإعلان حكومتها إلغاء معاهدتي الحكم الثنائي وترتيباته الأخري . هذا الإلغاء خطوة عقيمة حمقاء ما كان لتقدم حكومة الوفد عليها لولا استسلامها للتيارات الوطنية المتطرفة وسعيها لاحباط المكائد الحزبية والملكية التي تستهدفها . إن كل ما فعلته حكومة الوفد هو اطلاق يد البريطانيين مرة أخرى وانفرادهم بإدارة السودان مثلما حدث في اعقاب أحداث ١٩٢٤ . ومن مظاهر تغير الساحة السياسية في السودان تغـيرا جذريـا أن المعركة الحقيقية في الداخل لم تعد بين حـزب الأمة الاستقلالي والأحزاب

الاتحاديـة ، وانما بـين الحزبين الاستقلاليين : حزب الأمة والحـزب الجمهوري الاشتراكي .أما الأحزاب الاتحادية فقد بقيت متمسكة بمقاطعة كل مشروعات التطور الدستوري البريطانية بما في ذلك انتخابات الحكم الذاتي ، وفي مقدمتها حزب الإشقاء المنشق إلى جناحين متخاصمين ومتنافريـن ، أحدهما بزعامة اسماعيل الأزهري والثـاني بزعامة محمد نور الدين . واحتدت المنافسـة بين الجناحين إلى درجة أصبحا فيهـا كالضرتين يزايدان في خطب ود مصر الرسمية وكسب عطفها وعطاياها . كانت الأحزاب الاتحادية ومعها مصر في ذلك العهد ، ترفض حتى مبـدأ تقريـر المصير للسودان ، وتطالب بدلا من ذلك بوحدة وادي النيل تحت تاج الملك فاروق المفدي!! كنا في الحزب الجمهوري الاشتراكي ننظر للأحزاب الاتحادية في معركة الحكم الذاتي كصفـر على الشمال ، إذ لم يعد لها وزن بعـد انسحاب قاعدتها الجماهيرية المتمثلة في طائفة الختمية وانحيازها إلى الحزب الجمهوري الاشتراكي ،وأصبح بالتالي شعار «نقاطعها ولو جاءت مـبرأة مـن كل عيب» مجـرد حبر على ورق لا يشبـع أو يغني من جـوع!! الإدارة البريطانية متمسكـة بالمضي قدما في طريق التطور الدستوري .أعـدت كل شيئ لإجراء انتخابات برلمان الحكـم الذاتي . ولن يستأثر حزب الأمة بخوضها منفـردا هذه المرة فيجني ثمارها وحده كما حدث في انتخابات الجمعية التشريعية وإنما سيواجه شريكا منافسا يتمثل في الحزب الجمهوري الاشتراكي الداعي مثله للاستقلال ، يرفض النظام الملكي ، وينادي بمبادئ اشتراكية من شأنها تنظيـم الشراكـة بصورة عادلة بين أصحاب المشروعات الزراعيـة والمزارعين ، على غرار النظام المطبـق في مشـروع الجزيرة ، مما يشكل خطرا على مصالح دائـرة المهدي التي تدير مشروعاتها الزراعية وفق نظام استغلالي احتكاري ، أقرب إلى السخرة . تجسم هذا الخطر أمام الدائرة بانشاء مشـروع أم هـاني الزراعي مجاورا لمشاريعها في منطقة النيل الأبيض لتمويل الحزب الجمهوري الاشتراكي . تقوم الشراكة في مشروع أم هاني مع المزارعين طبقا لقانون تأميم مشروع الجزيرة . يعنـي ذلـك في ما يعني تقسيما عادلا لأعباء العمل في المشروع وتخصيص نصيب عادل من أرباحـه للمزارعين تقارب النصف ، بالإضافة لتخصيصـ نصيب آخر للخدمات الاجتماعية في منطقـة المشـروع مثل التعليم والخدمات الصحية . إنها خدمـات تفتقر إليها معظم مناطق

مشروعات دائرة المهدي التي لا تسهم بأي نصيب في هذه المجالات . نخلص من كل هذا إلى أن الحزب الجمهوري الإشتراكي ومن ورائه بصفة خاصة الختمية وزعماء العشائر والجنوبيين أصبح يشكل آنذاك خطرا مباشرا على مؤسسة الأنصار : سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وطائفيا . كانت تلك بداية العد التنازلي لانحسار قوة طائفة الأنصار ونفوذها السياسي ، حتى أضحت بعد سنوات قليلة من الحكم الوطني وغياب الإمام عبد الرحمن المهدي مجرد شراذم حائرة في مهب الرياح!! قلت للأزهري في أول لقاء معه بعد توليه الحكم لقد سلمناكم حزب الأمة في حالة احتضار وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة . وبقي عليكم أن تقوموا بدور الحانوتي لتحملوه إلى مثواه الأخير . ضحك الأزهري ثم تساءل : من سيدفع التكاليف ؟ فرددت عليه قائلا : أتعاب الحانوتي ستكون خصما من مال الفداء . ولا داعي للمأتم يا سيدي الرئيس فالعزاء سينتهي بانتهاء مراسم الدفن والله يحب المحسنين .

كانت مهمتي مزدوجة فإلى جانب صحيفة الوطن ألفيت نفسي مسئولا أيضاً عن الإشراف على شئون الحزب الإدارية من مقره الرئيسي في أم درمان ، يعاونني في ذلك أمين مصطفي التني والعم ابرهيم بليلة وكيل البريد المتقاعد وهو من أهل الدامر . وتتمثل تلك الشئون في استقبال الزائرين وقضاء حوائجهم في العاصمة . كثيرون منهم يأتون بقضايا شائكة ومزودين بتوصيات من قيادات الحزب في مناطقهم . بعضها قضايا إنقاذ من حبل المشنقة نحيلها إلى أحمد جمعة المحامي . وأخرى تجارية يساعدنا في حلها عبد الماجد أحمد وابرهيم عثمان اسحق . وهنالك آخرون نجد حلا لمشاكلهم في البنك العثماني . واضطررت مرة – تحت إلحاح ابرهيم موسي مادبو – للسفر بالسيارة إلى سنجة مع أحمد جمعة للدفاع عن رزيقاتي متهم بجريمة القتل . الطريق وعر وشاق إذ كانت الطرق المسفلتة محدودة للغاية قاصرة على داخل المدن الكبري . وما كنا لنصل إلى غايتنا لولا وداعة عثمان رحمة الذي تسلم عجلة القيادة . كان وداعة إلى جانب حذقه ومهارته خبيرا بالطريق ، يجيد مراوغة الحفر والمطبات ومجاري الخيران . وكان أحمد جمعة في تلك الأيام

في قمة مجده كمحام قدير يقف على قدم المساواة مع مبارك زروق ومحمد أحمد محجوب ، ومن النادر أن يخسر قضية . شهدت أحمد يومذاك يجول ويصول أمام المحكمة في سنجة حازما في مكان الحزم وساخرا حين تلزم السخرية ، مطلقا النكتة في عفوية ظاهرة حتى نال موكله البراءة في آخر المطاف . وأحمد جمعة سوداني عاش في مصر ، درس القانون هناك ثم عاد إلى السودان في منتصف الأربعينات من القرن الماضي ليعمل أولا في صحافة حزب الأمة ثم في المحاماة حيث تدرب على يد محمد أحمد محجوب قبل أن ينشئ مكتبا مستقلا خاصا به . هنالك من ينسبونه إلى القبائل النوبية المنتشرة في جنوب مصر وشمال السودان . لكنني ، أذكر أن أحمد جمعة رافقنا في زيارة حزبية إلى منطقة عرب الفراحنة المجاورة لمدينة بارا في كردفان . واحتفي بنا الناظر عبده عمر قش زعيم القبيلة احتفاء عظيما ، غير أنه لم يخف اهتمامه بأحمد جمعة أكثر من اهتمامه بالآخرين ، وقال لنا إنه «ولدنا» وقدم إلينا الناظر بالفعل نفرا من أهله المقربين!! ومهما اختلف الناس ، فإن أحمد جمعة أمة قائمة بذاتها لا يختلف إثنان في وطنيته الصادقة ، وفي سمو أخلاقه و عفته وطهارته ، وثقته العمياء في من حوله إلى حد أوقعه فيه أحد العاملين في مكتبه في محنة مفتعلة وهو نقيب للمحامين ، مما أدي لشطبه من سجل المحامين . ولما تبينت الحقيقة عاد أحمد جمعة لممارسة المحاماة . ومن المألوف في زماننا هذا الحديث عن الورع وتقوي الله وتلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار باعتبار أنها من صفات المسلم المثالي .

لا أريد أن أخوض في ذلك وأنا أكتب عن أحمد جمعة ، لكن لو قال لي أحد إنه رأى أحمد جمعة ماشيا فوق ماء البحر كما يفعل أصحاب المعجزات والكرامات أنبياء وأولياء صالحين لما كذبته!!

لم يكن أحمد يتقاضي أتعابا على القضايا التي يكلفه الحزب الجمهوري الاشتراكي بها ، بينما كنا ندفع راتبا شهريا للدكتور «محمود نصر» مقابل علاج من نحيلهم إليه . على أية حال هذه بعض سلبيات الحياة الحزبية في السودان وربما هذا هو طابعها حتى اليوم .

فالحزب السياسي في نظر كثير من أتباعه مجرد تكية يأوون إليها لقضاء حاجاتهم وإذا لم تقض ففي الأحزاب الأخرى متسع للجميع . وتختلف تجربتي مع الحزب الجمهوري الاشتراكي عن تجربتي في حزب الاتحاديين في أن الأخير كان تنظيما سياسيا فقيرا محدود العضوية لا أمل له في حكم البلاد . وكنا نجد عنتا كبيرا في توفير إيجار الدار وغير ذلك من التكاليف المالية ، لولا أريحية عبد الله ميرغني وعبد الله سلمان .

أما الحزب الجمهوري الإشتراكي فقد ولد كما يقولون لا بأسنانه فحسب ، وإنما خرج أيضاً إلى الحياة وفي فمه «ملعقة الحكم» ولا ينقصه المال . ويسلم الجميع بأنه سيشكل الحكومة القادمة لا محالة في ظل دستور الحكم الذاتي .

تكشفت لي من خلال هذا الوضع للحزب الجمهوري الاشتراكي أشياء صدمتني في معترك الحياة السياسية والوطنية ، جعلتني أعيد النظر في كثير من القيم والمعايير التي كنت أؤمن بها من قبل خاصة أيام كنت أخرج في المظاهرات حاملا كفني . رأيت رجالا ليس أكثرهم أعضاء في الحزب يبيعون ضمائرهم ويتذللون ابتغاء مرضاتنا . كانوا ينقلون إلينا أسرار أحزابهم ، ويعرضون خدماتهم علينا للنيل منها . بل إن واحدا منهم أتانا بنسخة من الميزانية السرية لدائرة المهدي ليثبت تعاملها مع المرابين وأكلها أموال الزكاة . رأيت رجالا ملء العين والبصر يطلبون الانضمام إلى الحزب شريطة عدم إعلان ذلك لزوم اللعب على حبلين أو أكثر . أما «فلان» فقد تبين لي منذ أول يوم عرفته فيه أن حشو خزائنه بالمال أهم عنده من مصلحة السودان وشعبه ، وهي خزائن شرهة لا تشبع أو تصيبها تخمة ، ولا تكف عن الصياح صباح مساء طالبة المزيد!! رأيت صحفيين كبارا وصغارا يمدحون الحزب الجمهوري الاشتراكي ويروجون له عندما يجزل لهم العطاء نقدا أو عينا ، ثم ينقلبون فيلعنونه في صفاقة ويشبعونه سبا وشتما إذا توقف العطاء . لولا حرصي على أن يري ما أكتبه النور وأن يدخل كل بيت ، لأوردت أسماء كثيرين من أولئك الرجال وأهل الصحافة . من يدري ربما يجيئ من بعدي من يضع النقاط على الحروف ؟؟ لعل وعسى!!

قيادة الحزب كانت تصرف شئونه عن طريق التشاور ، ولم تكن لدينا لجنة تنفيذية بالمعني المفهوم . درجنا على عقد اجتماع كل يوم اثنين إما في دار الحزب ، أو منزل ابرهيم بدري ، وفي بعض الأحيان في مكاتب صحيفة الوطن في عمارة قطان في الخرطوم . يحضر الاجتماع في العادة كبار أعضاء الحزب الذين يصادف وجودهم في العاصمة ، خاصة رجال الإدارة الأهلية وأعضاء الجمعية التشريعية القادمين من الأقاليم . أما المواظبون على الحضور من المقيمين في العاصمة أذكر منهم على سبيل المثال زين العابدين أبو قاضي والدرديري نقد وعبد الماجد أحمد ، ويحيي عثمان الكوارتي ، ويوسف مصطفي التني وأحمد جمعة ومالك ابرهيم مالك وابرهيم عثمان اسحق ، وسرور رملي وأحمد متولي العتباني ومحمد عثمان ياسين . هنالك متعاطفون كنا لا نمانع في حضورهم واشتراكهم في المناقشات بينهم دكتور سيد أحمد عبد الهادي ومحمود محمد طه وجعفر السوري ، وسعد الدين فوزي وعبد الله مسعود ومأمون بحيري . كان أحمد خير المحامي في تلك الأيام كثير التردد على دار صحيفة وادي النيل اليومية الناطقة باسم الأشقاء (جناح نور الدين) ويرأس تحريرها الصحفي المخضرم يحيي عبد القادر . ومن عادات أحمد خير أن يعرج بين حين وآخر لزيارتنا في مكتب جريدة الوطن المجاور لوادي النيل في عمارة قطان . جاء مرة قبيل اجتماع الحزب بدقائق ، ولما اكتشف ذلك طلب الاستئذان . لكن ابرهيم عاجله مداعبا «إبق معنا كضيف شرف» وبقي أحمد خير حتى نهاية الاجتماع .

درج الحزب الجمهوري الاشتراكي على أيضاح آرائه في مختلف القضايا السياسية في مذكرات يرفعها إلى مكتب السكرتير الإداري في الخرطوم أو رأسا إلى الحكومتين المصرية والبريطانية . ويتولي إعداد المذكرات أو يشرف عليها في العادة ابرهيم بدري الأمين العام للحزب يعاونه في ذلك - وفي صياغتها النهائية بوجه خاص سواء بالإنجليزية أوالعربية - يوسف مصطفي التني وأحمد متولي العتباني ومكي عباس الذي كان كثير الحضور إلى العاصمة من مقر عمله في بركات حيث رئاسة مشروع الجزيرة .

ومـن جهة أخرى يحرص ابرهيم بدري على مرافقتي له في لقاءاته مع المسئولين البريطانيين في الخرطوم لتسجيل وقائع ما يدور فيها وللتعارف مع أولئك المسئولين . نشأت صداقات بيني وبين العديد منهم أمثال دنكان والأخوين هوكسويرث وجوين بل ونيكلسون ووليام لوس وماكوماكس وكيمر مدير شركة سودان ماركنتايل البريطانية . ومن السلك القضائي ستانلي بيكر ولندسي ودونالد هولي . ومع مرور الأيام أصبحت أنوب عن ابرهيم بدري في تلك اللقاءات خاصة ما يتعلق منها بإعادة تخطيط الدوائر البرلمانية وغيرها من ترتيبات انتخابات برلمان الحكم الذاتي . وكثيرا ما أكلف بالسفر إلى الأقاليم لحل خلافات حول اختيار مرشحينا كالخلاف الذي نشب في الأبيض بين صالح حميدة وهو شخصية لها وزنها في مجتمع المدينة وحسين عثمان الذي كان يحظي بتأييد قيادة الختمية . ووصلت معهما إلى حل وسط يقضي باعتماد ترشيح حسين عثمان على أن يكون صالح حميدة ضمن أعضاء الحزب المعينين في مجلس الشيوخ . وأذكر أني ذهبت لزيارة مستر هوكسويرث مدير كردفان أملا في وساطته لحل الخلاف إذ كان الإثنان من المقربين له . تركني هوكسويرث وحدي في مكتبه ليتحدث في انفراد مع صالح حميدة في غرفة مجاورة . غاب الإثنان نحو عشر دقائق فوجئت خلالها بأربعة من رجال الشرطة المسلحين يقتحمون المكتب يتقدمهم انجليزي أمرني بالوقوف ورفع يدي إلى أعلي . فوقفت امتثالا للأمر ، و قبل أن ارفع يدي عاد هوكسويرث ليتساءل مذهولا عما يجري فـرد عليه الإنجليزي قائلا : هذا الشخص أعرفه منذ أيامي في أتبرا وأخشي أن يكون قد جاء للاعتداء عليك!! إذن هذا مستر هيغ – لعنه الله – لا يزال سادرا في غبائه وحماقاته ، وما كنت أعلم أن المطاف انتهي به مفتشا للحكومات المحلية في مديرية كردفان ، وهو منصب بمثابة سلة المهملات يودع فيه الإداريون الفاشلون . كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها منذ أحداث أتبرا . لم أتبينه بادئ الأمر فقد طار صوابي وأظلمت الدنيا أمام عيني من هول المفاجأة . يبدو أن هيغ لمحني لدي مروره إلى مكتبه المجاور من خلال النافذة جالسا وحدي في مكتب المدير فكان ما كان .

جرى تقسيم الدوائرخاصة في الأقاليم منذ عهد الجمعية التشريعية على نحو يضمن فوز مرشحي حزب الأمة . وكان لا بد من مراجعتها وتعديلها هنا وهناك استعدادا لانتخابات برلمان الحكم الذاتي التي كان يبدو حتى تلك اللحظة أن المنافسة فيها ستكون حامية بين حزب الأمة والحزب الجمهوري الاشتراكي وقاصرة عليهما بسبب تمسك الأحزاب الاتحادية بمقاطعتها حتى ولو جاءت مبرأة من كل عيب . وأسند الحزب إلى لجنة رباعية (ابرهيم بدري والناظران سرور رملي وحاج محمد ابرهيم فرح وشخصي) مهمة الاتصال مع المسئولين في مكتب السكرتير الإداري لمراجعة تقسيم الدوائر والعمل على تعديلها لمصلحة حزبنا . وكان من رأينا في الحزب أن من الأفضل تطبيق مبدأ الانتخابات غير المباشرة في بعض الدوائر في شمال السودان وفي الجنوب بأسره نظرا لتدني درجات الوعي فضلا عن انعدام خدمات النقل والمواصلات فيها .

كان سير جيمز روبرتسون السكرتير الإداري يميل إلى الإبقاء على النظام القديم ليجد نفسه مكتوف اليدين أمام توجهات مضادة من جانب بعض مساعديه البريطانيين والسودانيين في الخرطوم ومديري المديريات . وواجهتنا أكبر المشاكل في مديرية كسلا التي تشمل منطقة البحر الأحمر ومناطق أخرى على نهر أتبرا . ففي هذه المديرية جيوب ذات نفوذ معروفة بولائها المطلق للأنصار وبالتالي لحزب الأمة تتمثل بصفة رئيسية في ثلاث إدارات أهلية : بكر وقلع النحل والهدندوة . وتوصلنا بعد مفاوضات شاقة إلى إعادة تقسيم الدوائر في سائر مديرية كسلا على نحو لا أمل فيه لحزب الأمة في الانتصار في أية دائرة منها . وهذا ما حدث بالفعل في ما بعد إذ ضاعت من حزب الأمة حتى دوائره الثلاثة المضمونة أو شبه المقفولة . وفي ما عدا مديرية كسلا حققنا تغييرات في إعادة تخطيط وتقسيم العديد من الدوائر الانتخابية في جهات السودان الأخري . وجدنا عونا في ذلك من المعلومات التي تأتينا من رجال الإدارة الأهلية بالإضافة إلى الاحصائيات الرسمية التي وفرتها لنا مصلحة الإحصاء في الخرطوم بفضل وجود موظفين اثنين فيها هما صديقي عوض عبد الرازق (سام)

القيادي الشيوعي المعروف وأحمد عثمان اسحاق الذي صار في ما بعد أول مدير سوداني لمصلحة الإحصاء ، وهوكما يظهر من اسمه شقيق ابرهيم . يضاف إلى ذلك أننا كنا نعمل في الخفاء بقدر الامكان ، كما أن حزب الأمة لم يكن شديد الاهتمام بأمر الانتخابات إذ كان واثقا من الفوز اعتمادا على تجاربه السابقة .وفات عليه أنها ستكون أول انتخابات يخوضها في ظل المنافسة ، وأنها لن تكون كسابقتها سهلة هينة كرحلة في الخلاء ، وانما سيواجه هذه المرة خصما قويا سحب بدعوته إلى الاستقلال من تحت أقدامه أكثر من بساط ، فلم تعد مسايرة معظم زعماء العشائر لحزب الأمة وقفا عليه باعتباره الحزب الاستقلالي الوحيد .لقد جاء لمنازلته هذه المرة حزب آخر ملأ الساحة السياسية أنقى منه في دعوته للاستقلال وأقدر على تحقيقها وتسانده طائفة الختمية فضلا عن مجتمعات عريضة لم تفارق ذاكرتها ما لقيته في عهد المهدية من إذلال واضطهاد ومذابح جماعية . حاج محمد ناظر الجعليين قال لي مرة معلقا على مقال لي في صحيفة الوطن : قبل قيام الجمهوري الاشتراكي كنت أشعر بالخجل ووخز الضمير كلما التقيت مع عجائز الجعليين نساء أو رجالا في المتمة لأني وجدت نفسي يومذاك في الجمعية التشريعية محسوبا على معسكر الأنصار بل منهم من يلومونى صراحة وبعبارات قاسية (دا كلام عيب يا ود البيه) «!! . ومذبحة المتمة واحدة من أبشع ما ارتكب في عهد المهدية على يد الأمير محمود ود أحمد في طريقه إلى أتبرا لملاقاة جيش العدو بقيادة لورد كتشنر في معركة فاصلة أذنت شمس المهدية بعدها بالغروب . وإذا كان من حق الأنصار أن يفاخروا بمآثر المهدية وانجازاتها فإن عليهم مقابل ذلك أن يحملوا أوزارها أيضاً .

لم يكن لأمريكا حتى ذلك العهد دور ظاهر على الساحة السياسية في السودان باستثناء المظاهرات التي كان يسيرها الشيوعيون بين حين وآخر في العاصمة احتجاجا على ارتفاع أسعار الطماطم في كوريا بسبب السياسات الإمبريالية الأمريكية في الشرق الأقصي . لم يكن للسودان حتى ذلك الحين موقع في الأجندة الأمريكية أو بين مخططاتها وأطماعها القريبة والبعيدة .لكن مع اقتراب الحكم الذاتي وفشل المفاوضات المصرية البريطانية المتواصل

وارتطامها دائما بصخرة القضية السودانية ، أخذت أصابع السياسة الأمريكية تظهر على الساحة السياسية بسبب رفض مصر أي دور في المخططات الأمريكية للدفاع عن الشرق الأوسط ما لم تحل قضية السودان على نحو يضمن لها السيادة على السودان والاعتراف بفاروق الأول ملكا عليه . هكذا اتجهت واشنطون إلى الضغط على بريطانيا للوصول إلى اتفاق مع مصر يحقق لها أطماعها في السودان ثمنا لانضمامها إلى حلف غربي للدفاع عن الشرق الأوسط يكون بمثابة صمام أمان ضد الخطر الشيوعي . وطالما أبدت واشنطون تعجبها لموقف الإداريين البريطانيين يومذاك من قضية السودان . بل أن مستر كافري السفير الأمريكي في القاهرة أدلي بتصريح أبدى فيه دهشته من رفض الإداريين البريطانيين تحقيق أطماع مصر في السودان ثمنا لقبول مصر الحلف الغربي المقترح ضد المد الشيوعي . تساءل كافري قائلا بالحرف الواحد : «كيف نضحي بسلام العالم الحر وأمنه من أجل ثمانية ملايين زنجي؟؟» تعداد سكان السودان في ذلك الزمان ثمانية ملايين نسمة تقريبا . كانت واشنطون تؤمن بأن أي حلف من هذا القبيل لن يكون فعالا إذا بقيت مصر خارجه . بل لن يكتب له الظهور إلى حيز الوجود إذا اتخذت مصر منه موقفا معارضا ، نظرا لنفوذ مصر الكاسح في أوساط الرأي العام العربي . كان هدف واشنطون واضحا ، لكنها سلكت في سبيل الوصول إليه سياسة متخبطة كشفت عن جهلها الفاضح بشئون السودان وتأريخه وتياراته السياسية . ويبدو أن كل ما كانت تعرفه واشنطون عن السودان مصدره الساسة المصريون ودعاة وحدة وادي النيل من السودانيين المقيمين في مصر ومن يترددون عليها . وتدخل في زمرة هؤلاء بالطبع الفلول المتبقية من وفد السودان في القاهرة . أبدت الحكومة البريطانية تحت الضغط الأمريكي المتزايد ميلا للوصول إلى اتفاق مع مصر فخرجت بصيغة جديدة أكدت فيها قبولها للوحدة بين مصر والسودان تحت التاج المصري ، ويعني ذلك ضمنيا اعترافها بلقب الفاروق ملكا على مصر والسودان ، شريطة أن يتم ذلك من خلال ممارسة السودانيين حقهم في تقرير المصير . كان من رأي الحكومة البريطانية أن هذه الصيغة تمثل الحد الأقصي لما يمكن قبوله ويرضي طموحات المصريين دون المساس بما تعهدت بريطانيا به للسودانيين في ما يتعلق بسيادة السودان وتقرير

مصـيره . وجرت بالفعل اتصالات في هـذا الصدد مع القصر الملكي في القاهرة . رحب الملك فـاروق بالصيغة الجديـدة مبديا في الوقت نفسـه استعداده للموافقة علـى اشتراك مصر في مخططات الدفاع عن الشرق الأوسط . أعاد هذا الموقف إلى الأذهان اتفاقية (صدقي – بيفن) المشئومـة ،لكنهـا جاءت هذه المرة في ظـروف مواتية للتنفيذ إذ ألقـت واشنطون بكل ثقلها لضمـان نجاحها . واصلت واشنطون ضغطها على الحكومـة البريطانية بينما أحيت الحكومة المصرية بدورها فكرة تنصيب الإمام عبد الرحمن المهدي نائبا للملك في السودان ،وهو في هذه المرة أكثر استعدادا من ذي قبل ،فقد ضاع أمله بسبب الجمهوري الاشتراكي في أن يكون ملكا ولم يبـق أمامه سوى أن يقنـع بنائب للفاروق ملك مصر والسودان . كنا في الحزب الجمهوري الاشتراكـي غير مكترثين بما يجري من مساومات بين لندن والقاهرة وواشنطون لأننا كنا نثق بصدق الإداريين البريطانيين في الوقوف ضد أية خطوة مهما كان مصدرها فيها مساس بسيادة السـودان وحـق شعبه في تقرير المصير ، أو فيهـا تحويرأو تغيير لمسيرة التطـور الدستوري التي توشك أن تؤتي أكلها .إنها الشجرة التي ظلوا يرعونها طيلة خمسين عاما ، يثبتون جذورها في أعماق الأرض ، ويوفرون لها أسباب النماء رغم العاديات من الداخل والخارج . كيف يرضون لهـا الضيـاع وقد حان أوا ن قطافها حتى لو كان في ضياعها ثمن لبناء حصن منيع يدفع عن العالم بأسره تهديدات الدب الروسي ؟؟ وما من شك في أن واشنطون تعلم أن هؤلاء الإداريين البريطانيين هم العقبة الوحيدة في طريق الوصول إلى اتفاق مع مصر بشأن السودا ن يضمن لها المضـي قدما في تحقيق مخططاتها الدفاعيـة في الشرق الأوسط . وتعلم فوق ذلك أن ترتيبات الحكـم الثنائي في السودان وفق المعاهـدات والاتفاقيات بين لندن والقاهرة تجعل من حاكمه العـام – رأس الإدارة البريطانية في السودان – حاكمـا دكتاتوريا مطلقا له من السلطات مالم يتوفـرلأي حاكم دكتاتوري آخر في العالم بأسره بمـا في ذلك أدولف هتلر وموسوليني وستالين والجنرال فرانكو . في امكان الحاكم العام الوقوف بكل قوة في وجه سياسات لندن والقاهرة لا سيما ضد المخططات التي تتعارض مع إرادة السودانيين وطموحاتهم . أوفدت واشنطون أوائل عـام ١٩٥٢ إلى الخرطـوم بعثة في إطار مساعيها لاقناع الأحزاب السودانية والإدارة البريطانية

بقبــول صيغة جديدة تضع الســودان تحت التاج المصري ولو بصفة رمزية مرهونة بتقرير مصير السودان في النهاية . كانت البعثة الأمريكية برئاسة ولسون ستابلر وكيل الخارجية الأمريكية وعضويــة آخرين مــن موظفي السفارةِ الأمريكية في القاهرة . أقمنــا حفل شاي تكريما للبعثة في دار الحــزب في أم درمــان حضره عدد من أعضاء الحــزب في الجمعية التشريعية ومعظمهم مــن زعماء العشائر والجنوبيــين إلى جانب عدد من الإداريين البريطانيين ، ومستر كيمر مدير شركــة ســودان ماركنتايل ومستر غيتسكل محافظ مشروع الجزيــرة . كما لبي دعوتنا لحضورِ الحفل يحي منور مدير مكتب الخبير الاقتصادي المصري في الخرطوم .أ لقي السياسي الجنوبي المخضــرم إدوارد أدوك في الحفــل البيــان الذي أعده الحزب ، موضحــا سياساته وموا قفه من القضايا المطروحة . أ كد البيان إيمان الحزب بالنظام الجمهوري باعتباره توجها حضاريا معاصرا فضــلا عــن أنه يجنب السودان مشــاكل طائفية وقبلية وجهوية قد يصــل بعضها إلى درجة حرب أهلية . ومن هذا المنطلق فإن الجمهوري الاشتراكي يرفض النظام الملكي جملة وتفصيلا لا فــرق في ذلــك بين الملكية المحلية أو القادمة مــن الخارج . ولا يمكن أن يقبل بجعل مصير الســودان ومستقبلــه كبش فداء لقاء أي مشروع لتأمين المنطقة من الخطر الشيوعي . وجاء في البيــان عــن الاستفتاء المقترح أنه غير عملي خاصة في جنوب السودان حيث توجد أكثر من أربعــين لغــة لا هي بالعربيــة أو الإنجليزية ، ويقتضي تنفيذ الاستفتــاء توفير مترجمين لكل هــذه اللغات يضاف إلى ذلــك ضعف الوعي السياسي في ا لجنوب وقلــة التعليم وعدم توفر المواصلات . ومن ناحية أخرى أكد البيان أن غالبية الشعب السوداني تريد الاستقلال . وهذا مــا وعــدت بريطانيا به ، وليس هنالك مــا يدعونا للشك في نواياهــا والتزاماتها بشأن الحكم الذاتــي وتقرير المصير في وقت قصير . لقد رزحنا تحت الحكم الاستعماري خمسين عاما ولن يضيرنا أن ننتظر شهورا قليلة لنري إن كانت بريطانيا صادقة في وعودها أم لا . وفوجئ أعضاء الوفد الأمريكي لدي خروجهم من دار الحزب بعد الحفل بمظاهرة هائلة ضمت نحو ثلاثمائة استقبلتهــم بهتافات داوية ولافتــات عليها شعارات معادية لأمريــكا ومخططاتها الدفاعية . كانت مظاهرة صاخبة هادرة صادفت موعد خروج الجمهور من دار الرياضة بعد انتهاء المباراة

في ذلـك اليـوم فانضمت إليها أعداد كبيرة حتى وصل قوامهـا في أوجها إلى أكثر من ألف . وأبـدي أحد أعضاء الوفد دهشتـه ، وكان يقف إلى جانبي فقلت له يا سيدي قد تتفقون مع الحكومتين المصرية والبريطانية ، لكن هذه المظاهرة العفوية تثبت لكم أن الرأي العام وحده في السـودان ومصر كفيل بإسقاط مخططاتكم الدفاعيـة!! تذكرت في تلك اللحظة أنني تناولت وجبـة الغداء بعد ظهر ذلك اليوم في مطعـم العروسة ومعي عبد الخالق محجوب ومحجوب حمـد وعلما مني خـلال الدردشة بأمر حفل الشاي . كان الشيوعيـون في تلك الأيام ملوك الشـارع لا يعجزهم تنظيـم مظاهرة هادرة خلال أقل من ساعـة . ومطعم العروسة واحد من المطاعـم اليونانيـة الكثيرة في الخرطوم في تلك الأيام ، يقع في محيط المحطة الوسطي وتقوم في موقعه الآن عمارة لم تكتمل منذ سنوات عديدة بسبب أخطاء في تصميماتها . اشتهر مطعم العروسة بوجباته الشهية وفي مقدمتها «عتود بالفرن» . والعتود في لغة أهل السودان هو السخلة ولـد الشاة . وكان من المشاهـد المألوفة في سوق الخرطوم رجال مـن ضواحيها يحمل الواحد منهم عتودا أو أكثر لا يزيد عمره على اسبوعين لبيعه للمطاعم اليونانية . وتؤكل أو بالأحري «تقرمش» عظام العتود الهشة كقطعة البسكويت مع لحمه الغض الطري الخالي من الشحوم ، فلا يبقي شيئ منه في الطبق . لا يزيد ثمن هذه الوجبة الشهية مع ملحقاتها في ذلك الزمان عـن عشرة قروش!! لا يدفع الزبون للجرسون بقشيشـا فقد كان جرسونات المطاعم يرفضونها في غضـب وغلظـة في بعض الأحيان كبرياء واعتزازا بالنفس . . . صفات مميزة لأهل السودان توشك للأسف أن تقضي عليها متغيرات الحياة !! .

قـدم إلى السـودان أيضاً في تلك الأيام مستر هوسكنز أحد كبار المسئولين في الخارجية الأمريكية في آخر محاولة لقبول التاج المصري . كان موقفنا منه واضحا لدى لقائه مع ابرهيم بـدري إذ أكـد له رفضنا القاطـع ، وأبان ابرهيم بدري له أن احـترام حق الشعوب في الحرية هـو صمام الأمان الوحيد ضد التهديـدات الشيوعية . ولا تجدي إقامة أحلاف مع حكومات علـى حسـاب شعوبها المقهـورة والمحرومة من الحرية ، ونحن كجمهوريـين لا يمكن أن نقبل

بنظـام ملكي ، ولا يمكن أن نتنازل عن حريتنا واستقلالنا الكامل من أجل مخططات دفاعية لتأمين العالم من أخطار لا نري أننا هدف مباشر لها . ثم تساءل ابرهيم بدري إن كان الشعب الأمريكـي يرضـي بإستبدال نظامه الجمهوري بنظام ملكي علـى رأسه ملك بريطانيا مقابل تنفيـذ تلـك المخططات ؟ يبدو أن المبعوث الأمريكي وجد ميلا من جانب حزب الأمة على أن يكـون التاج رمزيـا ، وأن يكون الامام عبد الرحمن المهدي نائبا للملك في السودان إلى أن يتـم تقرير المصير . وشجع هذا الموقف الحكومة المصرية فسارعت بتوجيه الدعوة للإمام لزيارة القاهرة . وخشي الإمام أن يثير قبوله الدعوة مخاوف الحكومة البريطانية والاداريين البريطانيين في السـودان . فاختـار إرسال وفد برئاسة السيد عبد الله الفاضـل ابن أخيه وساعده الأيمن . وتوصـل الوفـد إلى اتفاق ما مع نجيب الهـلالي رئيس الوزراء المصري ممـا أثار مخاوف السيد على الميرغني ، فأبلغ المسئولين في الخرطوم بأنه سيرفض أي اتفاق بين مصر ووفد الإمام عبد الرحمـن المهـدي ، ولن يتردد في مثل هـذه الحالة في الخروج عن سياستـه التقليدية ليجاهر بانضمامـه للحزب الجمهوري الاشتراكي ، ويطلب من أتباعـه جميعا الانخراط فيه لمقاومة الاتفـاق بكل الوسائل المتاحة .علي أية حال لم تعمـر حكومة الهلالي طويلا وخلفه حسين باشا سري بعد أيام قليلة من عودة الوفد إلى الخرطوم . كانت مصر في تلك الفترة ومنذ حريق القاهرة تعيش في أجواء مزرية من البلبلة والاضطراب السياسي . أصبح تصريف شئون الحكم وغـيره في أيدي خدم القصر الملكي ، أمثال أنطون بوللـي الإيطالي وشماشرجي الملك فاروق «محمـد حسـن السليماني النوبي» ، الـذي وصل نفوذه حدا أصبح فيـه بيده وحده تعيين الحكومـات وعزلها متي وكيف شاء . كان تغيير الـوزارات وتعيين رؤسائها وهو الشماشرجي الحـاذق أهـون عليه من تغيير أربطة العنق التي يتزين الفـاروق بها يوما بعد يوم أوساعة بعد ساعة!! واصل سري باشا سياسة سلفه تجاه السودان بل ذهب إلى حد أبعد إذ أدلي بتصريحات صحفيـة غـداة توليه الحكم أكد فيها أن لقب (فـاروق الأول ملك مصر والسودان) لا رجعة عنـه ولن يكون موضع تفاوضـ لأنه أصبح من صميم الدستـور المصري .وتلقي الإمام عبد الرحمن المهدي دعوة ثانية لزيارة القاهرة .وأرسل الجمهوري الاشتراكي برقية احتجاج لرئيس

الوزراء المصري استنكر فيها محاولات مصر لتعطيل مسيرة التطور الدستوري في السودان ، مؤكدا أن الإمام عبد الرحمن المهدي لا يمثل الأغلبية طائفيا أو سياسيا وأن أ ية دعوة لفرض نظام ملكي في السودان مرفوضة جملة وتفصيلا لا فرق بين تاج محلي أو رمزي مستورد من الخارج . كانت كل المؤشرات تدل على اتصالات تجري في الخفاء بين المصريين والإمام عبد الرحمن المهدي ، وعلي ميله لقبول صيغة ترضي طموحات المصريين المتشبثين بلقب ملك مصر والسودان على أن يكون الإمام عبد الرحمن نائبا له في السودان . ربما لم تغب عن ذهن الإمام عبد الرحمن والخلية الداخلية من أهل بيته وأصدقائه المقربين تجربة محمد على باشا - رأس الأسرة المالكة في مصر - فقد جاء الباشا إلى مصر واليا باسم الخليفة العثماني ثم تمرد عليه وأصبح سلطان الخليفة على مصر رمزيا وأ خذ يتلاشي تدريجيا ، حتى انفردت اسرة محمد على في النهاية بحكم مصر . من الطبيعي أن تقابل توجهات الإمام عبد الرحمن المهدي هذه بعدم ارتياح من جانب الإداريين البريطانيين في السودان . رأوا فيها تنكرا لمواقفه السابقة التي عهدوها وطالما ساندوه فيها . وأذكر أني التقيت في تلك الأيام مع سير جيمز روبرتسون (السكرتير الإداري) في حفل خاص أقامه مستر كيمر مدير شركة سودان ماركنتايل في الخرطوم . قال روبرتسون ردا على سؤال وجهته إليه إنهم واثقون من عدم قدرة مصر ودعاة وحدة وادي النيل والإمام عبد الرحمن الوقوف في النهاية ضد إرادة شعب السودان وفرض وضع عليه لا يرضاه . وإذا تخلي الإمام عبد الرحمن عن راية «السودان للسودانيين «فسوف يحملها غيره في قوة وصمود . وأكد روبرتسون لي أنهم ماضون في طريق التطور الدستوري الذي رسموه حتى آخر الشوط ولن يتركوا لأحد فرصة لتقويض ما بنوه في صبر وعناء طيلة نصف قرن من الزمان . سألته هل فقدوا الأمل في الإمام عبد الرحمن المهدي ومعسكره ؟ فأجابني روبرتسون وهو مشهور بمكره ودهائه «كلا لم ولن نفقد الأمل لكن الإمام عبد الرحمن يسلك طريقا يفقده الأمل فينا» . وقال روبرتسون لي إنه في اتصالاته مع أصدقائه من قيادات حزب الأمة حذرهم من مغبة ما ينوي الإمام عبد الرحمن الإقدام عليه . ونشرت بعد يومين في صحيفة الوطن ملخصا لما دار بيننا في ذلك اللقاء بعد عرضه على روبرتسون حسب طلبه .

لقيـت دعـوة حسين باشا سري قبولا لدي الإمام عبـد الرحمن المهدي لزيارة القاهرة في السادسـ والعشريـن مـن يوليو ١٩٥٢ . لكن حسـين باشا سري أقيل قبـل ذلك الموعد بأربعة أيام ليخلفه نجيب الهلالي الذي مكث في الحكم أقل من ٢٤ ساعة إذ استولت حركة الضبـاط الأحرار صباح ٢٣ يوليو على الحكم بقيـادة اللواء محمد نجيب . استمعت كغيري للبيان الأول من إذاعة القاهرة بصوت أنور السادات ونقلت محتوياته إلى ابرهيم بدري وغيره مـن قيـادات الحزب . عقدنا اجتماعا عاجلا بعد ظهر ذلـك اليوم في مكتب صحيفة الوطن حضـره لفيف من أعضاء حزبنـا الموجودين في العاصمة . كان رأي الجميع أن ما حدث شأن يهم المصريين وحدهم حتى تلك اللحظة ، وأن موقفنا سوف يحدده موقف النظام الجديد من قضيـة السـودان ، وأن الوقت لا يزال مبكرا لكي يتخذ الحزب الجمهوري الاشتراكي قرارا في هـذا الصدد . كانـت تساورنا المخاوف لإحجام النظام الجديد في مصـر عن إلغاء الملكية فور استيلائـه على الحكم ولاستعانته بعلي باشا ماهر وشخصيات سياسية مصرية مدنية موالية لـه اختارهـم ماهر باشا ، وموقفه معـروف كما أسلفت من قبل تجاه النظـام الملكي في مصر وتنصيب الإمام عبد الرحمن المهدي نائبا للملك في السودان في ظل وحدة وادي النيل . وزاد مـن مخاوفنا أيضـاً دور مستر كافري السفير الأمريكي في القاهـرة فقد كانت أصابعه ظاهرة في الأحـداث التـي سبقت الانقلاب بقيـادة اللواء محمد نجيب ، وهذا مـا أكدته بعد أيام قلائـل تصريحـات المسئولين الأمريكيين في القاهرة ، واتصالاتهم مـع القادة المصريين الجدد ومـع المسئولين البريطانيين في القاهرة . كانت كلها اتصالات تهدف لإقامة الحلف المزمع ضد الاتحـاد السوفييتـي على حساب حريـة السودان واستقلاله . في ما عـدا ذلك كان من رأينا في الاجتمـاع إن ما حدث في مصر يشـكل خطرا عظيماعلي مستقبل الديمقراطية في المنطقة وخاصـة في السودان لأن الانقلاب العسكري سيدخل عاملا جديدا على الساحة السياسية يتمثـل في الاستعانة بالسلاح أيـا كان مصدره لتحقيق المطامع والمطامـح السياسية التي لا سبيل لتحقيقها بالوسائل الديمقراطية .

قوبـل النظـام الجديد في مصر بابتهاج بين سائر الأوساط في السودان جماعات وأفرادا باستثنـاء أحمد سنجر عضو حـزب وادي النيل . حاول سنجر - في ما يقال - لشدة غضبه واستيائـه القفـز من كوبري أم درمـان إلى النيل لكن من معه في السيـارة حالوا دون ذلك . وسنجر مـن ظرفاء العاصمة في ذلك الزمان اشتهر بالدعابة وبتقاليعه الضاحكة . وقد سألته في مـا بعد فأجابني بأنهـا كانت مجرد تمثيلية!! ربما كانت تمثيلية فعـلا إلا أن ارتداء ضباط سودانيـين كثيرين في تلك الأيام النظارات السوداء تشبها بالصاغ صلاح سالم لم يكن تمثيلية وانما ظاهرة أثارت الهواجس والمخاوف .

لم يصدر االحزب الجمهوري الاشتراكي بيانا يؤيد فيه نظام الحكم الجديد في مصر كما اقـترح حاج محمد ابرهيم ناظر الجعليين . واكتفينا بمقـال افتتاحي في صحيفة الوطن رحبنا فيه بالنظام باعتباره خطوة في الطريق لتخليص مصر من الملكية إلى الأبد والعودة بأسرع ما في الإمـكان إلى حكم مدني مسترشد بالمبادئ والقيم ا لديمقراطية ، مع قيام نظام جمهوري نابع من إ رادة الشعب المصري ، ونتمني أن يصبح في المستقبل حليفا لنظام مثله في السودان .

تلقيـت في أوائـل شهر سبتمبر مكالمة تلفونية من قيـادة الجيش المصري في الخرطوم ، المتحـدث علـى الطرف الآخر صديقي وزميل الدراسة صـلاح حامد صالح الملك الضابط في الجيشـ المصري . طلب صلاح مني ترتيب لقـاء بين ابرهيم بدري وحسين ذو الفقار صبري نائـب قائد الجيش المصـري في السودان . رفض ابرهيم بدري اللقاء بحجة أنه لا جدوي منه لأن الحكومـة المصريـة تعرف موقف الحزب الجمهوري الاشتراكـي سلفا ولن يحيد عنه قيد أنملة . كان ذو الفقار حريصا جدا على اللقاء وطرق من أجله أبوابا كثيرة . كل محاولاته باءت بالفشل ، إلى أن التقيت مع ذو الفقار في منزل العم خلف الله حاج خالد بصحبة محمد أمين حسـين المحامي . قال لي ذو الفقار يومذا ك إنه عـرف ابرهيم بدري قبل مجيئه إلى الخرطوم مـن خلال ما ذكـره عنه صديقهما المشترك توفيق البكري ، وازداد إعجابه به عندما جاء إلى الخرطـوم وأخذ يتابع أفكاره وآراءه السياسية .طلـب ذو الفقار مني أن أبلغ ابرهيم بدري بأنه

سوف يسمع منه ما يثلج صدره وما لم يسمعه من أي مصري من قبل . وتم اللقاء بعد أيام في المنزل الذي يستأجره ابرهيم بدري في حي الملازمين بأم درمان من مالكه الأستاذ محمد أحمد عبد القادر والد زين العابدين . بعد التحية والمجاملات واحتساء أقداح الشاي سأل ابرهيم ضيفه في لباقة إن كان يمانع في بقائي معهما قائلا ، هذا ابن عمي وساعدي الأيمن أو ما تسمونه في المصطلح العسكري بكاتم الأسرا ر . ضحك ابرهيم وضحك معه ذو الفقار وبقيت معهما حتى نهاية اللقاء . دار بين الإثنين حديث راق وشيق تناول أمورا كثيرة في الفلسفة والتأريخ والأنثربولوجيا خاصة ما يتعلق بقبائل جنوب السودان . أما في السياسة فقد قال ذو الفقار إنهم جاءوا بأفكار جديدة عن قضية السودا ن يعترفون فيها أولا بحق السودان في تقرير مصيره وبحقه في الاستقلال استقلالا كاملا غير منقوص ، وسوف يعلنون عن ذلك في الوقت المناسب ، لأن الأمر يتطلب وقتا لتهيئة الرأي العام في مصر لا سيما أن خصومهم السياسيين ، وعلي رأسهم حزب الوفد لن يقفوا مكتوفي الأيدي . كما أن في صفوف الجيش المصري وبين الضباط الأحرار أنفسهم من لا يرون بديلا عن وحدة وادي النيل وينكرون حق السودان في تقرير المصير مستشهدين بحق الفتح ووقائع التأريخ القريب والبعيد . قال ذو الفقار يومذاك ردا على مخاوف ألمح ابرهيم بدري لها ، إن أمر مستقبل النظام الملكي في مصر أصبح مسألة وقت لا غير وسوف يحل مكانه حكم جمهوري لا رجعة فيه ، ويعني ذلك تلقائيا قيام نظام حكم مماثل في السودان سواء في ظل الاستقلال أو وحدة وادي النيل . وأضاف معلقا على تصريح للواء نجيب في الصحافة المصرية في تلك الأيام امتدح فيه الإمام عبد الرحمن المهدي وقال إنه يتمني أن يراه ملكا على مصر والسودان . قال ذو الفقار في ابتسامة ملؤها الاستخفاف إن نجيب رجل مخرف وهو مشكلة لنا قبل أن يكون مشكلة لكم ، وحاجتنا إليه مرحلية سوف تنتهي بانتهاء الظروف التي فرضته علينا .

وفي معرض حديثهما عن عزيز المصري ذكر ابرهيم بدري أنهم فكروا خلال الغزو الإيطالي للقطر الليبي في ارسال قوة من المتطوعين السودانيين بقيادة عبد الله خليل او سر

الختـم صالح جبريل للقتال جَنبا لجنـب مع المجاهدين العرب غـير أن السلطات البريطانية علمت بذلك ، فأحبطت الخطة في مهدها . كانت هذه الزيارة بداية مودة واعجاب متبادل بين ابرهيـم بدري وذو الفقار مما مهد لقبولنا الدعوة التـي وجهت للحزب ا لجمهوري الاشتراكي لإيفاد مندوبيه إلى القاهرة .

كلفـت قبل سفـر وفدنا بالذهاب إلى مصر لاستطلاع الموقف عن كثب وأمضيت نحو سبعـة أيام قابلـت فيها نجيب وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة وعددا من الصحفيين بينهم أحمـد أبو الفتـح . قابلت نجيب صباح اليوم الثاني من وصـولي للقاهرة في مكتبه . يبدو أنه فـرغ ومن معـه قبل لحظات من مجيئي من تنـاول وجبة الإفطار فقـد غشيتني عند الباب رائحـة نفاذة مصدرها فضـلات البصل والفجل المتناثرة مع فتـات الفول المدمس والفلافل . كانـت الرائحة قوية وساخنة كأنما مبعثها قنبلة مسيلـة للدموع ، نفذت إلى خياشيمي حتى أدمعت عيناي وكدت أن اختنق . فوجئت بأن نجيب لم يكن على علم بالدعوة التي وجهت إلى الحـزب الجمهوري الاشتراكي ، وقال لي دون مجاملة إنه حزب صنعه البريطانيون لخدمة مصالحهـم وتنفيـذ مخططاتهم المعاديـة للتيارالوطني في مصر والسـودان . وأ نهم في مصر لا يعترفون بغير حزب الأمة كممثل لدعوة الاستقلال وهو واثق شخصيا في الوصول إلى تفاهم مـع الإمام عبد الرحمن المهدي . تمالكت أعصابـي وقدرت أني ضيف وأمام رجل أكبر مني سنـا في مقـام رأس الدولة . لكن غلبـت السخرية على فقلت له مخاطبـا في هدوء إنني لم أعجـب من اتهامه للحزب الجمهوري الاشتراكي لأنه ليس أمرا جديدا علينا وكل حزب في السودان متهم بأنه صنيعة لإحدي دولتي الحكم الثنائي .لكنني أعجب من أنك لا علم لك بأمـر الدعـوة وأنت قائد الثورة ورئيس مجلسها ، ولا تعلم أيضاً أني أ نزل في فندق الجزيرة في ضيافـة الحكومـة المصرية ، وأن الضابط أبونار كان في استقبالي في المطار لأني جئت خصيصا للاتفاق على برنامج وترتيبات زيارة وفدنا للقاهرة في الأيام القليلة القادمة . ومنعني الحياء أن استرسـل متسائلا : أتراك يا سعادة اللواء كالـزوج آخر من يعلم؟ وبعد هذا الاستهلال غير

المشجع تحدثت دون مقدمات إلى نجيب عن موقف الحزب الجمهوري الاشتراكي من مشروع قانون الحكم الذاتي الذي سيصبح ساري المفعول حتى إذا لم تخطر لندن والقاهرة الحاكم العام بالتصديق عليه . والمأمول أن تسارع الحكومة المصرية بالموافقة عليه حتى لا تفقد عطف قطاع كبير من الشعب السوداني . وكان مما قاله نجيب في هذا الصدد إن مشروع قانون الحكم الذاتي وضعه الإنجليز في غياب مصر وهو مرفوض من جانب دعاة وحدة وادي النيل الذين يشكلون الأغلبية في السودان . فأجبته بأن مصر هي التي غيبت نفسها عندما ألغت اتفاقيات الحكم الثنائي وإن مؤتمر ا لخريجين عندما كان ممثلا لكل الاتجاهات في السودان طالب في مذكرته الشهيرة باعطاء الشعب السوداني حق تقرير المصير . وهذا محور المشروع وجوهره . وعلي أية حال هذه أمور تستحسن مناقشتها مع وفد الحزب عندما يأتي إلى القاهرة . لفت نظري في صبيحة اليوم التالي تصريح مختصر للبكباشي جمال عبد الناصر في الصفحات الداخلية لصحيفة الأهرام ذكر فيه إن حكومة الثورة تعتبر مشكلة السودان قضية قائمة بذاتها ولن تمانع في جلاء البريطانيين عن السودان قبل الجلاء عن مصر . أدهشني هذا التصريح المخالف لما سمعته من اللواء نجيب في اليوم السابق . وتساءلت كيف يجرؤ ضابط برتبة بكباشي وعضو مغمور في مجلس الثورة على مثل هذا القول الخطير المناقض تماما لرأي رئيسه اللواء نجيب ؟ إذن لا بد من أن يكون وراء الأكمة ما وراءها!! طلبت من الصاغ صلاح سالم أن يهيئ لي لقاء مع عبد الناصر و ظل يماطلني ، وظللت ألاحقه مرات ومرات كل يوم إ لي أن استجاب في اليوم الرابع حيث حضر إلى الفندق في منتصف النهار . وذهبت معه في سيارته إلى ثكنات العباسية . أثناء سيرنا في ممر طويل دفع بابا على يمينه فانفتح الباب ثم التفت نحوي صائحا متبرما : أهو عبد الناصر بتاعكم!! ومضي الصاغ صلاح سالم في طريقه . استقبلني عبد الناصر في منتصف الغرفة متبسما وتصافحنا يدا بيد . كانت لحظة رهيبة لن أنساها . طارت شرا رة أو أكثر من يد عبد الناصر لما تصافحنا وأحسست بما يشبه صعقة من شحنة كهرباء ساكنة(ستاتيك) تسري في جسدي من اخمص القدمين حتى شوشة الرأس . وتذكرت في ومضة إلى الوراء سمكة الرعاد (البردة) التي صعقتني وأنا يافع أطارد مع لداتي الأسماك

المختبئة بين الصخور تحت مياه النيل . لقد بهرني عبد الناصر من أول لقاء به وأيقنت يومذاك أني لست أمام ضابط مغمور وانما ظاهرة خارقة بيده مفاتيح الأمور ، كتب له في ما بعد أن يهز وجدان الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ، وأن يوقظها من سباتها العميق . كان عبد الناصر يصغـي إلى في اهتمام شديـد . يتحدث في تؤدة وهدوء . وينتقـي الكلمات والعبارات بدقة كأنها تمر قبل خروجها من فمه بميزان للذهب .دار الحديث بيننا بالطبع حول تصريحه المختصر للأهرام وكان مما قاله لي إن تمسك الحكومات المصرية السابقة بعدم فك الارتباط بين قضيتي مصـر والسودان ، واعتبارهمـا قضية واحدة مكن الإنجليز من البقاء فيهما سويا حتى اليوم إذ اتخذوا من كل واحدة منهما صخرة تحول دون حل الأخري . ولما أخبرته بما سمعته من اللواء نجيب في اليوم السابق ضحك قائلا : إنه الفارق بين الأجيال وعلينا أن نصبر ونصانعه مثلما يفعـل الأبنـاء مع الآباء ، ومع ذلك هو رجل له قدر كبير من طيبـة أهل السودان ولكن فيه حدتهم التي تظهر لأتفه الأسباب!! .

عـدت إلى السـودان في اليوم التالي وأطلعت قيادة الحـزب على حصيلة اتصالاتي في القاهرة ثم سافر ابرهيم بدري ومحمد حلمي أبوسن إلى القاهرة عن طريق قطار الاكسبريس ، لأن الأطباء نصحوا ابرهيم بعدم السفر بالطائرة . كان ابرهيم يحمل جواز سفر باسم (ابرهيم بـدري) فقط ولما أ صر ضابط الجوازات المصري في أسوا ن على تثليث الإسم رد ابرهيم عليه ساخطـا «علـي يافندم « . ومن سخرية القدر أننا أرسلنا نعي ابرهيم يوم وفاته عام ١٩٦١ إلى إذاعة أم درمان وكانت صيغته كالتالي «توفي فجر اليوم في أم درمان ابرهيم بدري على أثر نوبة قلبية «لكن المذيع العبقري قرأ (علي) بكسر اللام ظنا منه أنها اسم علم لا حرف جر . هكذا كانت خاتمة حياته نبوءة عفوية جاءت (ستروبيا) دون قصد ولو استشير لما اختار غيرها .

تمخضـت زيـارة وفدنا إلى القاهرة عـن اتفاق مع الحكومة المصريـة نص على بقاء سلطـات الحاكم العام في مـا يختص بالجنوب كما جاءت في مشروع قانون الحكم الذاتي ضمانـا لوحدة السودا ن ومصالح أهل الجنـوب . كان من رأينا أن عدم الثقة المتبادل بين

الشماليـين والجنوبيـين لا يزال قائمـا ولا يمكن حتى إذا صدقت النيـات أن نطوي بين عشيـة وضحاها السلبيات التي غرستها السياسـة البريطانية طيلة خمسين عاما . وهكذا يصبـح لزاما علينا جنوبيين وشماليين أن نواصل ما بدأته الجمعية التشريعية من خطوات ايجابيـة لبنـاء الثقة بين الشمال والجنـوب . ولن يتحقق ذلك ما لم تعـط للحاكم العام مسئوليـات استثنائيـة تجـاه الجنوب خلال الفـترة الانتقالية من أجـل تطمين الجنوبيين وضمـان استمرارهـم في العمـل يدا واحدة مـع الشماليين في ظل الحكـم الذاتي . لهذا السبـب حرص الجمهوري الاشترا كـي في الاتفاقية على عدم تحديـد موعد أقصي تتم السودنـة فيـه ، على أن تتم بدلا من ذلك بأسرع ما في الامكان مع مراعاة المحافظة على مستويـات الخدمـة المدنية وكفاءتها ومراعاة مشاعـر الجنوبيين الذين قد يرون في السودنة مكسبـا للشماليـين وحدهـم وبسطا لهيمنتهـم على الجنوب . كان مـن رأي الجمهوري الاشتراكـي في هذا الصدد أيضـاً أن جعل تنفيذ السودنة في موعـد معين شرطا لممارسة تقريـر المصير سيحرم السودانيين من تلك الممارسة إذا اختاروا ذلك قبل السنوات الثلاث التـي حددها قانـون الحكم الذاتي . على أية حال اتفاقيـة الحزب الجمهوري الاشتراكي لم تخـرج في جملتها على ما نصـ عليه قانون الحكم الذاتي باستثنـاء تعديلات بسيطة تتعلـق بدوائـر الانتخابـات غـير المباشـرة .

بعد أيام قليلة من عودة وفد الجمهوري الاشتراكي من مصر أخذت الأحداث تتلاحق ويأخذ بعضها برقاب بعض ، ففي الثاني من نوفمبر ١٩٥٢ تم في منزل اللواء نجيب في القاهرة توحيد الأحزاب الاتحادية تحت راية الحزب الوطني الاتحادي برئاسة اسماعيل الأزهري وأسند منصـب الأمين العـام لخضر حمد . جاء في دستور الحزب الجديد أن أهدافه تتمثل في جلاء الاستعمار وقيام حكومة سودانية في اتحاد مع مصر تعمل على انهاض البلاد بكامل حدودها الحاليـة اجتماعيـا واقتصاديا وثقافيا ، مع الاهتمام بوجه خاصـ بالجنوب والأقاليم النائية ، وكفالـة حقوق الإنسـان دون التمييزعرقيا أو دينيا وطائفيا بين سكان السودان . قوبل الوطني

الاتحـادي منذ اليوم الأول بالرفض حتى من جانب حـزب الأشقاء الذي يتزعمه اسماعيل الأزهـري . عقدت اللجنــه العليا للأشقاء في اليوم الثاني لإعــلان تشكيل الوطني الاتحادي اجتماعا في نادي الخريجين بأم درمان وأرسلت برقية احتجاج شديدة اللهجة لكل من نجيب والأزهـري في القاهرة ، تعرب فيها عن رفضها وعدم الاعتراف بالحزب الجديد . قالت اللجنة في برقيتهـا إنهـا لن تسمح بانضمام أعضاء حزب الأشقاء إليــه . ويرجع هذا الاحتجاج إلى أن الحزب الوطني الاتحادي -كما رأت اللجنة العليا للأشقاء - لم يشكل على أسس سليمة وعادلــة تتناســب مع وزن حزب الأشقــاء بالقياس للأحزاب الاتحاديــة الأخري . بالإضافة إلى استبعــاد عدد من كبار أعضائه المناضلــين وخاصة يحي الفضلي دينمو الأشقاء والرجل الثــاني في تنظيماته . اتهمت اللجنــة العليا لحزب الأشقاء في برقيتهــا اللجنة الثلاثية التي باشــرت عملية التوحيد واختيار قيادات الحزب الجديد بعــدم المسئولية وانجرافها وراء نزوات شخصيــة حزبية . كانت اللجنة الثلاثية مؤلفة من رجال ثلاثة ينتمون لأحزاب اتحادية ليس بينهــم واحد من حزب الأشقاء أكبر الأحــزاب الاتحادية على الاطلاق . كما وقعت اللجنة الثلاثيــة في المحظــور باستبعادها من المناصب القيادية في الحــزب الجديد جميع العاملين في خدمــة الدولة وفي هذا تسليم بسياســة الإدارة البريطانية التي تحظر على الموظفين الانخرا ط في الحركــة الوطنية والتي طالما قوبلت بالرفض والاستهجــان من الجميع ،وفي مقدمتهم مؤتمر الخريجــين رائد الحركة الوطنية . لقد كان احتجاج حزب الأشقاء قاصرا على تشكيل الحزب الوطني الاتحادي . لكن كان هنالك آخرون لم يرقهم تحول الحزب لقبول مشروع الحكم الذاتي والمشاركــة في مؤسساتــه الدستورية ، بل أن منهم من يــري في ذلك خيانة عظمي ويدعو إلى العودة للالتزام بشعار نرفضها ولو جاءت مبرأة من كل عيب . من أولئك أحمد خير المحامي عضــو الهيئة العامة للحزب الوطني الاتحادي الذي رفض مع آخرين في أول اجتماع لها أ داء يمــين الولاء للحــزب . وانتهي الأمر بفصل أحمد خير مع رفيقــه المهندس خضر عمر بحجة قيامهما بنشاط معاد للحزب .

لقـد خرج الوطني الاتحادي إلى حيز الوجود في ليلة ظلماء في مكتب نجيب بعد ولادة متعسـرة حاملا في طياتـه عوامل تمزقه وتفتته إلى شظايا . كانـت عملية مفتعلة جرت تحت ضغط المسئولين المصريين ، أشبه بإخفاء الأوساخ تحت البساط . وسرعان ما انسلت الأوساخ مـن تحت البساط وسـال الصديد كما أثبتت الأحداث مباشرة عقـب فوز الوطني الاتحادي في الانتخابـات وتوليه حكم البلاد . وغاية القول أن الحزب الوطني الاتحادي نبتة غريبة عن السودان نبتت في غير أرضه وتحت سماء غير سمائه . . . وصاحب المزمار عبد لمن يدفع!!

رحـب الجمهـوري الاشتراكي بتوحد الأحزاب الاتحاديـة المصطنع تحت راية الوطني الاتحادي رغم علاته لأنه جاء مقترنا بما يبشر بأهداف من صميم مبادئنا تتمثل في تحول مصر الرسميـة ودعاة وحدة وادي النيل في شقي الوادي إلى الاعتراف بحق تقرير المصير والمشاركة في انتخابات الحكم الذاتي ومؤسساته الدستورية مما سيحقق الاجماع المطلوب ، وعدم انفراد معسكـر الأنصار بالهيمنة على أدوات الحكم ، مثلما حـدث من قبل ، وبالتالي سد الطريق أمام الطامعين في فرض نظام ملكي بطريقة أو أخرى على السودا ن .

وجاء الصاغ صلاح سالم في أول زيارة يقوم بها مسئول في النظام الجديد إلى الخرطوم . انتدبنـي ا لحزب لاستقبالـه في مطار وادي سيدنا الذي نقلت إليـه حركة الطيران مؤقتا في تلـك الأيـام ، ريثما يتم تجديد وتطويرمطار الخرطوم . قبل هبـوط الطائرة بقليل ظهر صديقي اللـدود بابكر الديب في غرفة الاستقبـال . كانت فرصة طيبة إذ اصطحبني الديب معه دون غـيري لاستقبـال الصاغ سالم عند سلم الطائرة . لم يفت على صلاح سالم عند مصافحته أن يهمسـ في أذني قائـلا «عبد الناصر يبلغك تحياته!! « . لا أدري إن كان ذلك حقا أو خبثا أم من قبيل المداعبة . ودرج الصاغ سالم على ابلاغي تحية عبد الناصر كلما التقينا حتى وقعت القطيعة بينهما .

بقي الصاغ سالم في العاصمة أياما قليلة أجري خلا لها اتصالات مع الأحزا ب الوطنية على اختلافها ومع السيدين المهدي والميرغني . ثم عاد أدراجه وقد كان يومذاك وزيرا للإرشاد

القومي ومسئولا في الوقت نفسه عن ملف السودان يعاونه في ذلك حسين ذو الفقار صبري ، وحامد سلطان وزير شئون السودان والدرديري أحمد اسماعيل المحامي وكيل الوزارة .

كانت زيارة الصاغ سالم رغم قصرها آخر صفحة في ملف السودان الذي شرعت حكومة نجيـب في اعدا ده فور توليها الحكم . وبدأت المفاوضات بين الحكومتبن المصرية والبريطانية في أواخـر نوفمبر عام ١٩٥٢ حول مشـروع الحكم الذاتي وتقرير المصير للسودانيين كقضية قائمة بذاتها غير مرتبطة – كما كان يحدث في الماضي – بالقضايا المصرية الأخرى البحتة . وكانت تجـري في الوقت نفسه في الخرطوم مفاوضات واتصالات موازية بين الأحزاب السودانية وبينها وبـين المصريين والبريطانيين . ولم تنقطع خلال ذلك رحلات الصاغ سالم المكوكية بين القاهرة والخرطوم التي ازدادت فيها شعبيته بين الجماهير السودانية . وقام في واحدة منها بزيارة الجنوب يرافقـه الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقـاف المصري . سعينا في الجمهوري الاشتراكي مع الإداريين البريطانيين لمنع الصاغ سالم من تلك الزيارة خوفا من إثارة الفتنة وخلق بلبلة بين عامة الجنوبيين البسطاءِ الذين لم تتم تهيئتهم بعد لمثل هذه الطفرات . اقترحنا بدلا من ذلك أن يجتمع الصاغ سالم في الخرطوم أو القاهرة مع من يختارهم من السياسيين الجنوبيين المستنيرين خاصـة زعماء العشائر وأعضاء الجمعية التشريعية . غير أن الإداريين البريطانيين لم يستجيبوا لنا وسمحوا للصاغ سالم ورفاقه بزيارة الجنوب حاملا معه برميل البارود وأدوا ت تفجيره ساعة الصفر التي حلت بعد ذلك بسنوات قليلة ، وما زلنا نعيش حتى اليوم في جحيم النيران التي انطلقت شرارتها الأولى من توريت غداة جلاء القوات الأجنبية من السودان . تجول الصاغ سالم يومـذاك في أرجاء الجنوب «كالمدفـع الرشاش الطليق دون زا جر أو حابس . رقص عاريا فأبدع وخطب فأسمع ودفع من المال ما دفع» . أما رفيقه أحمد حسن الباقوري فقد ألقي محاضرة في نادي الموظفين في جوبا حمل فيها حملة شعواء على البعثات التبشيرية المسيحية مندذا بدورها في تأجيج مشاعر الحقد وا لكراهية بين الجنوب والشمال . ولم يخرج في محاضرته عن الدعوة للتخلص من الاستعمار البريطاني وقيام دولة وادي النيل الموحدة .

وتواصلت المفاوضات في الوقت نفسه في ثكنات الجيش المصري في الخرطوم بين الأحزاب السودانية والمصريين . كان موقف الجمهوري الاشتراكي واضحا ومحددا منذ البداية وحتى النهاية ، يتمثل في التمسك بمشروع الحكم الذاتي كما أصدرته الجمعية التشريعية . ويكتسب المشروع شرعيته من أنه قرار ديمقراطي صادرعن هيئة برلمانية تمثل كل السودا ن .وإذا كانت ثمة حاجة لتعديله فإن النهج الديمقراطي يقضي بتركه لبرلمان الحكم الذاتي بما في ذلك التعديل الخاص بسلطات الحاكم العام المتعلقة بالجنوب . أوضحنا يومذاك على مائدة المفاوضات إننا في بداية الطريق نحو الحكم الذاتي ثم تقرير المصير وعلينا ألا نفترع مسيرتنا بالتنكر للنهج الديمقرا طي وبنقض القرارات التي تتخذ باسمه بمثل هذه الطريقة البعيدة عن مفهوم الديمقراطية والتي لن تخدم قضية وحدة السودان . في الواقع أن سلطات الحاكم العام المتعلقة بالجنوب خلال فترة الحكم الذاتي الانتقالية كانت عظمة النزاع على مائدة المفاوضات . المصريون والأحزاب السودانية الأخرى يرون فيها تهديدا بانفصال الجنوب بينما نري فيها ضمانا لوحدة السودان جنوبا وشمالا وتعزيزا للثقة بين الطرفين وازالة مخاوف قطاع كبير من الجنوبيين الذين لم يتخلصوا بعد من رواسب السياسات الانفصالية والأوهام التي بثتها الكنائس المسيحية في نفوسهم . وإلى جانب ذلك كان لنا ولنفس الأسبا ب تقريبا رأي يختلف عن الآخرين في ما يتعلق بالسودنة وقد أوضحت ذلك من قبل . ومن المؤسف أ ن حزب الامة اتخذ خلال المفاوضات في ما يتعلق بالسودنة وسلطات الحاكم العام مواقف مطابقة تماما لمواقف المصريين والحزب الوطني الاتحادي ضاربا بعرض الحائط قرارات الجمعية التشريعية التي كان يتمتع بالأغلبية المطلقة فيها قبل قيام الجمهوري الاشتراكي .أعطينا في الحزب الجمهوري ا برهيم بدري تفويضا كاملا للتفاوض باسم الجمهوري الاشترا كي تاركين له حرية اختيار من يعاونه من الأعضاء . كان من النادر أن يذهب وحده وانما يصطحب معه دائما واحدا أو اثنين مثل سرور رملي ومحمد أحمد أبوسن وزين العابدين صالح أبو قاضي وأحمد جمعة المحامي . ويحرص ابرهيم أن يصطحب معه عندما يكون الأمر المطروح متعلقا بالجنوب إدوارد أدوك أو ستانسلاوس بياساما . ومن جانبي كنت ألحق به كلما سمحت لي

ظروف العمل في صحيفة الوطن . كانت المفاوضات تسير في هدوء وصفاء بيننا ومع المفاوضين المصريـين ذو الفقـار وعبد الفتاح حسـن قائد القوات المصرية في السـودان . لكن سرعان ما يتكهـرب الجوعندما ينضم إليهما الصـاغ سالم وينصب نفسه قائدا أوحدا لمحاربة الاستعمار البريطاني ، ويتحدث من هذا المنطلق في غطرسة واستعلاء واصفا كل من يخالفه الرأي بأنه بـوق للاستعمـار . وكثيرا ما تصدر منه كلمات جارحة فقد قال مرة إ ن روا د الحركة الوطنية المصريين منذ عهد مصطفي كامل هم الذين أسهموا في نشر الوعي الوطني بين السودانيين ، وعلموهـم كيف يدافعون عن وطنهم . فتصديت للرد عليه قائلا كلاما كثيرا أذكر منه قولي : إننـا في السودان لسنا في حاجة لأجنبي يعلمنـا الوطنية كما حدث في مصر على يد جمال الدين الأفغاني ، الذي لولاه لما عرفت مصر أولئك الرواد ا لذين تتحدث عنهم .

ومضت المفاوضات في شد وجذب حتى كانت الجلسة التي عقدت في ٧ يناير ١٩٥٣ بدعـوة مـن الصاغ صلاح سالم العائد لتوه من زيارته للجنوب . حدثنا الصاغ سالم نحو ساعة عـن مآسـي الاستعمار هناك وكيف جلسـ مع الجنوبيين البسطاء تحت شجـرة المانقو وأكل مـا يأكلـون واحتسي ما يحتسون ودخن ما يدخنون . وكيـف رقص معهم على دقات النقارة مرتديـا فراء النمـور الرقطاء . وقال الصاغ سالم متباهيا إنه عـاد من زيارته والجنوب في جيبة وإن الجنوبيـين الذين استمع إليهم في بحر الغـزال والاستوائية وأعالي النيل يحملون الإنجليز مسئوليـة تخلفهـم ويتطلعون إلى حيـاة أفضل وإلى تعويض ما فاتهـم في ظل الحكم الوطني تحـت راية وحدة وادي النيـل . وفي ما عدا ذلك لم يذكر الصاغ سالم شيئا ذا أهمية . وأعرب عـن تمسك حكومته بتنفيذ السودنة في موعدها المحدد لكنهالا تمانع في الإبقاء على سلطات الحاكـم المتعلقـة بالجنوب شريطة ممارستهـا داخل لجنته المزمعة المنصوصـ عليها في مشروع الحكم الذاتي . لعل الصاغ قصد بذلك استرضاء الحزب الجمهوري الاشتراكي . وعلق ابرهيم بـدري بقوله إن ذلك سوف يحرم الحاكم العام من مسئولياته الشخصية وسوف يفقده بالتالي ثقة الجنوبيين فيه ويدفعهم إلى المطالبة بوضع خاص في المستقبل قد يصل إلى حد الانفصال .

قال ابرهيم بدري في تعليقه أيضاً إن الحزب لا يزال على رأيه في عدم تحديد موعد للسودنة أو ربطها بتقرير المصير .وانما ينبغي أن يسير تنفيذها جنبا إلى جنب مع تطوير الجنوب .فوجئنا في اجتماع عقد في العاشر من يناير باتفاقية قيل لنا إنها ستكون أساسا لدستور الحكم الذاتي . وقع مندوبو جميع الأحزاب عليها باستثناء ابرهيم بدري الذي رفض التوقيع نيابة عن الحزب الجمهوري الاشتراكـي ، بحجة أن الاتفاقية تشكل خطرا على مستقبل العلاقة بين الجنوب والشمـال مما يهـدد وحدة البلاد . ولا بد من الإبقاء على سلطات الحاكم العام في حالة عدم إيجـاد بديل فعـال يطمئن الجنوبيون له ويزيل مخاوفهم . هذا ما تفتقده الاتفاقية وفيها أيضاً اجحـاف واضح بحقـوق الجنوبيين وتأمين مستقبلهم مما سيدفعهـم قطعا إلى تجاهل الوسائل الدستوريـة والاستعانة بدلا عنها بوسائلهـم البدائية المتاحة لمواجهة ما سوف يلحق بهم من غـبن وعدم انصاف . لـو كان بين الموقعين جنوبي واحد من الأطـراف الأخرى لما ترددنا في التوقيع . وقال ا برهيم بدري يومذاك إن الحزب الجمهوري الاشترا كي لن يوقع على الاتفاقية خوفـا من أن يصبح مسئولا أمام الله والتأريخ عن ما سيقع من اضطراب وفتن متلاحقات في الجنـوب ، وعن تمزيق وحدة السودان . وسوف يندم كل مـن وقعوا على هذه الاتفاقية ولات حـين مناص . ألم أقل إن ابرهيم عبقري جاء كالأنبياء في أوانه ليهدي قوما ليسو بالمهتدين!! وخرج ابرهيم بدري من غرفة الاجتماع وهو يردد قول الشاعر

محضتهم نصحي بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحي الغد .

لحقنـا بابرهيم بـدري أنا وسرور رملي الذي جئنا للاجتماع علـى سيارته . ذهبنا إلى مكتـب صحيفـة الوطن حيث طلب ابرهيم بـدري أن نحضر له سيـارة تاكسي أمام الباب الخلفـي للعمارة واستقلها طالبا مني أن ألحق بـه فور الفراغ من عملي ، في الدهليز ﴿صالون توفيـق صالـح جبريل﴾ علـى ألا أخبرأي أحد بمكانـه . وتكاثرت يومـذاك الإشاعات عن مـكان اختفاء ابرهيـم بدري فمن قائل أنه مختبئ في منزل سـير جيمز روبرتسون السكرتير الإداري . ومـن قائـل أنه ذهـب إلى رفاعة . وقال آخرون أنهم رأوه يستقـل الطائرة إلى جوبا

لتحريض الجنوبيين . حضر بعد ساعات قليلة من خروجنا إلى مقر المفاوضات زين العابدين صالح أبوقاضي والدرديري نقد ووقعا على الاتفاقية نيابة عن الحزب حسب اتفاقنا في اليوم السابق ، إذ كان من رأينا أن عدم توقيعنا على الاتفاقية سوف يعرقل مسيرة البلاد في طريق الحكم الذاتي . ومهما كانت اعتراضاتنا ، فإن الاتفاقية تحقق هدفين من أهدافنا الرئيسية المتمثلة أولا في اعتراف مصر ودعاة وحدة وادي النيل بحق تقرير المصير للسودان وثانيا تحقق ولأول مرة في تأريخ السودان قيام برلمان شامل منتخب يمثل السودان بأسره جنوبا وشمالا .وغني عن البيان أن تحقيق هذين الهدفين يعني ضمنا وبالضرورة حرمان طائفة الأنصار من الإنفراد بحكم البلاد وبالتالي من تحقيق أحلامهم الرامية إلى فرض نظام ملكي عضوض ومتوارث لآل المهدي . وغاية القول إن الاتفاقية ليست كلها شر ولو أنها تجاهلت بعض مطالبنا ومقترحاتنا التي طرحناها خلال المفاوضات إلا أنها من ناحية أخرى تضمنت مكاسب حيوية ليست للحزب وانما للسودانيين أجمع . لقد كانت مكاسبنا لدي المقارنة أكبر من مكاسب الأحزاب الأخرى بينما كانت خسارتنا أقل . وهكذا استقر رأينا في الحزب على أن يرفض ابرهيم بدري التوقيع على الاتفاقية بوصفه الأمين العام على نحو ما حدث ثم يقوم الدرديري وزين العابدين بعد ذلك بالتوقيع على الاتفاقية . وسوف نكون قد عبرنا بذلك عن تأكيدنا وتمسكنا بما أبديناه خلال المفاوضات من اعتراضات وتحفظات . وراجت أقاويل في تلك الأيام مفادها أن زين العابدين والدرديري وقعا على الاتفاقية دون تفويض من الحزب الجمهوري الاشتراكي وتتهمهما بقبض ثمن من صلاح سالم يسيل له اللعاب . والحقيقة كما ذكرت وليس أدل على ذلك من أنه لم يرتفع صوت احتجاج واحد في الحزب على ما أقدما عليه . وقد وقعت على الاتفاقية بخلاف الحزب الجمهوري الاشتراكي أحزاب الأمة والوطني الاتحادي والوطني ، والأخير حزب جديد إلى حد ما بزعامة الشريف عبد الرحمن الهندي . أتجهنا بعد ذلك إلى تكثيف اتصالاتنا مع الإداريين البريطانيين وشخصيات بريطانية أخرى في الخرطوم مثل مستر كيمر مدير شركة سودان ماركنتايل وكانوا جميعهم بمثابة حلقة اتصال بيننا وبين الحكومة البريطانية ومفاوضيها في القاهرة أو كانوا بالأحري

مجموعــة ضغط (لوبــي) في أروقة المفاوضات . كان المفاوضون البريطانيون في حاجة لمثل هذا الضغط لا لمجابهة إدعاءات المصريين وحدها وإنما لسد الطريق أيضاً أمام الأمريكيين الساعين سعيــا حثيثا ومحموما لتحقيق مخططاتهم الدفاعيــة . وأمريكا هي أمريكا دائما وأبدا وحتى اليــوم لا ترعي حرمة الشعوب الأخرى في سبيل تحقيق مصالحها كاملة غير منقوصة ، وعلي الآخريــن أن يضحوا من أجل سواد عيونها بــكل غال وثمين . لم يفت على الجانب المصري استغلال الموقــف الأمريكي لاجبار المفاوضين البريطانيين على التنازل عن مواقفهم المتشددة فقد أرسل اللواء نجيب مذكرة إلى الرئيس الأمريكي أيزنهاور أعرب فيها عن استعداد حكومته للمشاركــة في المخططات الدفاعية الغربية شريطة الوصــول إلى اتفاق مع الحكومة البريطانية حــول القضايا موضع الاختلاف . ولما احتدم الخلاف بــين الجانبين المصري والبريطاني على مائــدة المفاوضات حــول السودنة وسلطات الحاكم العام المتعلقــة بالجنوب سارع اللواء نجيب إلى الاستنجــاد بالسفيرالأمريكي في القاهرة . لم يخــف السفير امتعاض حكومته من موقف بريطانيــا الذي يقدم حماية السودان من خطر مصري موهوم على حماية العالم الغربي بأسره مــن تهديدات الشيوعيــة . لم يكن السودانيون في نظر الأمريكيين في تلك الأيام كما صرحوا مــراراً ســوى حفنة من العبيد لا تزيد على ثمانية ملايين نسمة ، ولا يعتبرون السودان نفسه قطرا ضمن خارطة الشرق الأوسط ، وبالتالي لا دور له في مخططاتهم الدفاعية لحماية الشرق الأوســط الذي كانت أطماعهم قاصرة عليه كمصــدر للبترول لا تتجاوزه إلى القارة الافريقية جنوبي الصحراء الكبري .

وقعت مصر وبريطانيا بعد جذب وشد ، وأخذ ورد في ١٢ فبراير ١٩٥٣ على ما عرفت باتفاقية الحكم الذاتي وتقرير المصير للسودان . وقوبلت الاتفاقية بالرضا والابتهاج على الساحة السياسية باستثناء الحزب الشيوعي السوداني . ولا يعني ذلك بالضرورة خلو الاتفاقية المصرية البريطانية من بعض المآخذ والمثالب في نظر الأحزاب الأخري . أما في الجمهوري الاشتراكي فقد كان من رأينا أنها تحمل بعض ملامح الاتفاقية التي رفضنا التوقيع عليها رسميا ، لكنها

جاءت في الوقت نفسه من حيث روحها وهيكلها العام مطابقة للمشروع الذي أجازته الجمعية التشريعيـة ولواحد من أهم توجهاتنا الأساسية يتمثل في إجراء انتخابات نيابية تشمل لأول مـرة السودان بكامل حدوده الجغرافية ويشارك فيهـا كل السودانيين على اختلاف طوا ئفهم وأحزابهـم السياسية . لقد انفرد الحزب الجمهوري الاشتراكي بهـذا التوجه الوطني السامي دون غيره من سائر التنظيمات الحزبية الأخرى المتقوقعة في سلبية عقيمة تحت شعار نقاطعها ولـو جـاءت مبرأة من كل عيب أو المستفيدة من ذلك الشعـار الذي طالما أخلي الساحة من أي منافس لها .

وتتلخصـ مطابقة الاتفاقية للمشروع الذي أجازته الجمعية التشريعية في أن الاتفاقية قـررت الاحتفاظ بسيادة السودان لشعبه والاعتراف بحقه في تقرير المصير . هذه أمور لم تكن محـددة تحديـدا صريحـا في اتفاقيات الحكم الثنائـي وظلت موضع رفضـ دائم من جانب الحكومـات المصريـة المتعاقبة ودعـاة وحدة وادي النيـل في السودان . كما أقـرت الاتفاقية بقـاء السلطـة الدستورية في البلاد خلال المرحلة الانتقالية في يـد الحاكم العام مع منحه في الوقـت نفسه سلطـات استثنائية عامة تشمـل السودان كله لضمان معاملـة سائر المواطنين السودانيين في عدل وانصاف داخل المليون ميل مربع . كما تعطيه خلال مرحلة الحكم الذاتي الحـق في إعـلان ما يسمي بالانهيار الدستوري والعـودة إلى نقطة الصفر في حالات الفوضي والاضطرابات . وربما يكون في هذه الصيغة المعدلة بديل لما كنا ننادي به من سلطات استثنائية في مـا يتعلق بالجنوب . وفيه بدون شك حرمان للجنوبيين من الوضع الخاص الذي يتطلعون إليـه خلال المرحلة الانتقالية . ومما يدعو إلى الاستغراب أن الأحزاب السودانية التي ارتضت تلك السلطات الاستثنائية هي نفسها التي رفضت اقتراح الحزب الجمهوري الاشتراكي بمنح سلطات استثنائية للحاكم العام قاصرة على الجنوب فقط لا السودان كله . وازدا د الطين بلة بأن موضوع السودنة لم يحدث فيه تعديل وضربت مقترحاتنا في هذا الصدد بعرض الحائط إذ نصـت الاتفاقيـة على أن تتم خلال فترة لا تتعدى ٣ سنوات سودنة كل الوظائف الحكومية

التي يخشي أن تؤثر على حرية السودانيين لدي ممارستهم لتقرير المصير ومنها الوظائف الإدارية والقوات النظامية .

وغاية القول أن للاتفاقية محاسنها مثلما لها من مساوئ خاصة في ما يرتبط بالجنوب ومع ذلك لا بد من أن تقبل وتقبل رغم بخرها . هكذا كان موقفنا في الحزب الجمهوري الاشتراكي يومذاك وشيئ أحسن من لا شيئ !! . وقبل أن نطوي صفحة الاتفاقية المصرية البريطانية لا بد من أن نسجل للحقيقة والتأريخ أن تفهمنا في الحزب الجمهوري الاشتراكي لقضايا الجنوب نابع من المعايشة والواقع . كنا نعلم ما يجهلون والآخرون يجهلون ما نعلم ويغالطون حتى أنفسهم . فهم ينددون بالسياسات الاستعمارية الرامية لعزل الجنوب عن الشمال تمهيدا لفصله ، لكنهم يتجاهلون في الوقت نفسه ما خلفته تلك السياسات من فجوة وجفوة وجفاء وغير ذلك من سلبيات ليس أقلها عدم الثقة المتبادل . الجنوبيون غير مطمئنين لنوايا الشماليين بينما يتهم الشماليون الجنوبيين وخاصة المثقفين منهم بأنهم صنائع للاستعمار .

بدأت الاستعدادات لخوض انتخابات برلمان الحكم الذاتي بمجلسيه شيوخا ونوابا فور التوقيع على الاتفاقية المصرية البريطانية . كانت أولى الخطوات تعيين لجنة الانتخابات إذ أصدر الحاكم العام خلال النصف الأول من شهر ابريل ١٩٥٣ مرسوما حسب المادة السابعة من الاتفاقية يقضي بتعيين الخبير الهندي سوكومارسن رئيسا للجنة ، والبكباشي عبد الفتاح حسن قائد القوات المصرية في السودان ممثلا لمصر ومستر بني ممثلا لبريطانيا ومستر بيركينز ممثلا للولايات المتحدة الأمريكية بالإضافة لتعيين ثلاثة أعضاء سودانيين هم البكباشي خلف الله حاج خالد عن الوطني الاتحادي وغوردون بولي عن الجنوبيين وعبد السلام الخليفة عن الاستقلاليين . جري تعيين هؤلاء الثلاثة بعد التشاور مع الأحزاب المعنية . وقوبل تعيينهم بارتياح لدى الحزب الجمهوري الاشتراكي فالعضو الجنوبي غوردون بولي كان عضوا في الحزب والبكباشي خلف الله حاج خالد من المتعاطفين معه بحكم موقعه كواحد من كبار مستشاري السيد على الميرغني الاستقلاليين الذين ارتضوا منذ البداية انحيازه للحزب

الجمهوري الاشتراكي ، متخلياعن دعاة وحدة وادي النيل وبالتالي عن مبدأ «نقاطعها ولو جاءت مبرأة من كل عيب» . وهنالك إلى جانب ذلك صداقة حميمة وزمالة بين البكباشي خلف الله وابرهيم بدري منذ عهد جمعية الاتحاد السوداني في عشرينات القرن الماضي . كان حزب الأمة قد رشح في الأصل الأستاذ أمين التوم لعضوية لجنة الانتخابات.بينما كان مرشحنا الدرديري محمد أحمد نقد ثم اقترحنا السيد عبد السلام الخليفة كحل وسط رضي به حزب الأمة . كنا نعلم حينذاك أن عبد السلام ليس عضوا في حزب الأمة وإنما أميل إلينا وتمنعه الإعلان عن ذلك اعتبارات أسرية بوصفه نجل الخليفة عبد الله التعايشي وصهر الإمام عبد الرحمن المهدي . وقد كنت كثير التردد عليه بتكليف من الحزب الجمهوري الاشتراكي لنقل آرائنا ومقترحاتنا في ما يتعلق بقضايا الانتخابات شفاهة أو مكتوبة . وهكذا توطدت بيننا صداقة حميمة رغم فارق السن وظل رحمه الله حتى وفاته يحتفي بي كلما قدمت من لندن إلى العاصمة في حفل شاى بمنزله في حي الملازمين في أم درمان . وامتدت صداقتي معه إلى ابنيه عبد المنعم وصِلاح رحمهما الله .

كان هنالك ثلاثة أسماء عرضت على الأحزاب لاختيار واحد منها لمنصب سكرتير لجنة الانتخابات هم : الإداريان حسن على عبد الله ومكاوي سليمان أكرت والأستاذ ميخائيل بخيت من مكتب السكرتير الإداري . وأيد الجمهوري الاشتراكي اختيار أولهما لأن ثانيهما محسوب على حزب الأمة والثالث على الوطني الاتحادي . ذهبت لمقابلة مستر دنكان في قصر الحاكم العام موفدا من قبل الحزب لابلاغه بقرارنا فألمح إلى أنه كان يتمني لو وقع اختيارنا على مكاوي أكرت وقال لي كلاما كثيرا عن كفاءته وميزاته الإدارية . رددت على دنكان ردا قاسيا دفعت ثمنه غاليا بعد سنوات عندما كنت رئيسا لتحرير صحيفة الجزيرة وجاء مكاوي إلى بركات محافظا للمشروع ؟؟ على أية حال هذه قصة سأتناولها لاحقا في مكانها!!

مع اكتمال عقد لجنة الانتخابات ذات الصبغة الدولية برئاسة الخبير الهندي ، أصبح كل شيئ جاهزا لاجراء أول انتخابات برلمانية شاملة دون مقاطعة أي حزب سياسي أو

طائفة ، ليست الأولى من نوعها فحسب في تأريخ السودان السياسي وإنما آخرها أيضاً حتى كتابة هذه السطور ﴿يناير ٢٠٠٧﴾ . ترى هل كان في الإمكان تحقيق ذلك لولا بروز الحزب الجمهوري الاشتراكي إلى الساحة السياسية ؟؟ لا أريد الإجابة على هذا التساؤل لأنها معروفة سلفا وربما تكون موضع طعن لدي الكثيرين ، لكني أود ممن يتصدي للإجابة أن يكون منصفا وأمينا مع نفسه ومع التأريخ وأن يسأل أولا : ماذا كان سيحدث لو بقيت مصر وأنصارها وطائفة الختمية على موقف المقاطعة ؟؟ وماذا سيجني المصريون وأنصارهم من البقاء على المقاطعة بعد نبذ طائفة الختمية لها وعزمها على خوض الانتخابات تحت راية الجمهوري الاشتراكي ؟؟ على أية حال كنا نود أن تشرع لجنة الانتخابات في عملها فورا لاجراء الانتخابات قبل موسم الأمطار في عام ١٩٥٣ وكان أمامها على الأقل ثلاثة أشهر . لم يكن ذلك مستحيلا إذ إن القانون حدد الدوائر وأسلوب الانتخابات فيها مباشرة وغير مباشرة بالإضافة إلى ما يلزم من ضوابط ولوائح . لكن اللجنة اضطرت إلى تأجيل الانتخابات إلى منتصف اكتوبر من العام نفسه استجابة لضغوط لا تقاوم من جانب مصر والحزب الوطني الاتحادي وحزب الأمة الذين طالبوا اللجنة بمراجعة قانون الانتخابات وحدود الدوائر وأساليب التصويت فيها . من حق الوطني الاتحادي أن يطالب بذلك لأنه جديد على الساحة السياسية وفي حاجة لتثبيت أقدامه فيها وتعبئة ناخبيه ولأنه لم يكن طرفا في وضع القانون واللوائح والضوابط . أما نحن وحزب الأمة فقد كنا طرفا في وضعها وهكذا لا داعي للمطالبة بمراجعتها . استغل الحزب الوطني الاتحادي فرصة التأجيل حتى اكتوبرخير استغلال إذ شهدت تلك الفترة حملة مصرية جارفة من الدعاية لوحدة وادي النيل والحزب الوطني الاتحادي أشرفت على تمويلها المؤسسات المصرية العاملة داخل السودان : مكتب الخبير الاقتصادي والبعثة التعليمية والمفتش العام للري المصري وقائد القوات المصرية في الخرطوم . ووراء كل هذه المؤسسات الصاغ صلاح سالم الذي تتالت زياراته إلى السودان حتى كادت الخرطوم أن تصبح مقرا دائما له بدلا من القاهرة . كان يأتي في صحبته عدد من المسئولين والسياسيين المصريين بالإضافة إلى بعض السودانيين مثل

الدرديري أحمد اسماعيل المحامي وكيل وزارة شئون السودان ، وجمال السنهوري من الإخوان المسلمين والشاعر الغنائي عبد المنعم عبد الحي ، وصادق عبد الكريم المحرر بصحيفة الإهرام . وكنت شاهد عيان على زيارات الصاغ صلاح سالم إذ كثيرا ما أذهب مع العم زين العابدين صالح أبو قاضي لاستقباله في مطار وادي سيدنا ونصطحبه من هناك إلى منزل العم زين في حي العرضة بأم درمان حيث يجد الصاغ سالم المائدة الخضراء عامرة في انتظاره فيأمرمدير مكتبه «أبو نار» بفتح واحدة من الحقائب الحديديةالتي أحضرها معه ووضع محتوياتها أمامه على المائدة دفعة واحدة أو على أقساط حسب ما يمليه سير اللعب كسبا أو خسارة . الصاغ صلاح سالم مقامر مدمن ، لعل حظه على المائدة الخضراء لم يكن بأحسن من حظه في معترك السياسة!! وتدفقت حشود ضخمة على مدن السودان وأقاليمه من السودانيين المقيمين في مصر للدعاية لوحدة وادي النيل والاشتراك في الانتخابات ، بعضهم مولودون هناك لم تطأ أقدامهم أرض السودان من قبل . جاؤا جميعا على حساب الحكومة المصرية ومنهم موظفون وعمال منحوا عطلات مفتوحة .كان وجودهم ظاهرا في الشارع والأماكن العامة والمقاهي والمنتديات وأصبحوا العنصر الطاغي في المظاهرات والليالي السياسية . كما كان بينهم وعاظ دينيون من شيوخ الأزهر انتشروا في جميع الأصقاع يدعون إلى وحدة وادي النيل من منطلق إسلامي إلى حد كادوا أن يجعلوها ركنا سادسا في الإسلام من يكفر بها مصيره إلى الجحيم!! وإلى جانب ذلك تدفقت أموال طائلة من مصر بطرق غير مشروعة لدعم الحزب الوطني الاتحادي على نحو ما تكشف في ما بعد في الاعترافات التي أدلي بها البكباشي خلف الله حاج خالد أمين مال الحزب أمام المحكمة في القضية المشهورة التي رفعتها حكومة الوطني الاتحادي الانتقالية في عام ١٩٥٥ ضد الأستاذ محمد مكي صاحب صحيفة الناس لنشره معلومات اتهم فيها الحكومة بالفساد مما أوقعه تحت طائلة المادة ١٠٥ من قانون العقوبات السائد منذ عهد الإدارة البريطانية . وهي مادة أخطبوطية سيئة السمعة تقضي بسجن كل من يرتكب عملا أو قولا فيهما تحريض حتى وإن كان تلميحا على كراهية حكومة السودان أو دولتي الحكم الثنائي . كان من ضحاياها العديد من

قادة الحركة الوطنية بما فيهم الزعيم اسماعيل الأزهري . اعترف البكباشي خلف الله حاج خالد أمام المحكمة بأن الحزب الوطني الاتحادي لم يجمع تبرعات أو اشتراكات من أعضائه وانما تلقى أموالا من مصر قيل له بوصفه أمين مال الحزب بأنها سلفة . ويؤخذ من اعترافاته أن الأموال المصرية لم تكن تصل بالضرورة لخزانة الحزب وانما كانت تدفع مباشرة لاسماعيل الأزهري وأعوانه المقربين أمثال محمد نور الدين . ومنها ما يدفع مباشرة للمستفيدين تحت ستار بناء مدارس أومساجد . كان البكباشي خلف الله حاج خالد في موقف حرج كعضو في لجنة الانتخابات لأن في تلقي حزبه مثل هذه الأموال المصرية ما يتعارض مع مسئولياته كعضو في لجنة الانتخابات التي عليها عدم السماح لمثل هذه الممارسات ضمانا للحيدة وحرية الناخبين . وقدرت تلك الأموال المصرية بنحو خمسة ملايين جنيه مصري ، لكنها حسب اعتراف البكباشي عبد الفتاح حسن قائد الجيش المصري في السودان لا تزيد على ثلاثة ملايين أتت كلهاعن غير طريق المصارف . أما ما أتي عن طرق أخرى تسأل عنه المائدة الخضراء في شارع العرضة بأم درمان ؟ . وخلقت تلك الأموال أزمة كادت تودي بالعلاقات مع مصر عند استبدال العملة المصرية بالعملة السودانية الجديدة . لم نجزع في الجمهوري الاشتراكي أمام هذه الحملات المصرية الشرسة لأننا كنا نعلم أنها لن تؤثر على مواقف مرشحينا ومعظمهم من زعماء العشائرفي الشمال أو من الاستقلاليين الصامدين في الجنوب . أما حزب الأمة فقد ملأ الدنيا عويلا وضجيجا خوفا من خطر الحملات المصرية على مرشحيه في مختلف الدوائر سواء في المدن أو الأقاليم . وتتالت وفود الحزب إلى القاهرة لاقناع المصريين المسئولين بإيقاف تلك الحملات وعادت في كل مرة بالفشل حاملة معها كلمات معسولة من اللواء محمد نجيب لا تقدم أو تؤخر . إما لأن نجيب لم يكن جادا أو لأن الأمر لم يكن في يديه وهذا أقرب للواقع . واستنجد حزب الأمة بالحكومة البريطانية طالبا العون ماديا ومعنويا لمواجهة الدعاية المصرية . واتصل بنا في احدي المراحل مستر ريتشي المبعوث البريطاني في الخرطوم مقترحا صيغة للتحالف بين حزبي الأمة والجمهوري الاشتراكي حتى يمكن للحكومة البريطانية النظر في امكانية تقديم العون المطلوب . قال مستر

ريتشي أنه مستعد أن يبدأ لتحقيق ذلك بتنظيم لقاء بين ابرهيم بدري وابرهيم أحمد . كان ردنا عليه بأن خوفنا من قيام نظام ملكي في السودان أكبر من خوفنا من وحدة وادي النيل . وأن الانتخابات التي سنواجهها ليست لتقرير مصير البلاد وانما لاختيار من سيحكمها خلال فترة الحكم الذاتي الانتقالية وفق دستور متفق عليه ليس فيه ترجيح كفة على أخرى . ويرى الحزب الجمهوري الاشتراكي أن اختلاف أساليب نظم الحكم في بريطانيا ومصر يجعل من العسير على الحكومة البريطانية مجاراة الحكومة المصرية ومنافستها كما أن أي عون مالي بريطاني لدعم موقف الاستقلاليين في الانتخابات سوف يتكشف عاجلا أو آجلا . ولن يكون ذلك من مصلحة الاستقلاليين سواء في انتخابات برلمان الحكم الذاتي أو الجمعية التأسيسية التي ستقرر مصير السودان . وأبلغنا مستر ريتشي يومذاك أنه لا سبيل لمحاربة الدعاية المصرية في مختلف جبهاتها ومن الأفضل العمل على إيقافها لا منافستها . وسوف يقع عبء ذلك على بريطانيا باعتبارها طرفا في الاتفاقية مع مصر . وأكد اللواء محمد نجيب التزام حكومته بإيقاف الحملات المصرية في رسالة بعث بها في تلك الأيام إلى السفير الأمريكي في القاهرة . على أية حال لم ندع في كل لقاءاتنا مع المبعوث البريطاني شكا في رفض الحزب الجمهوري الاشتراكي أي دعم مالي أجنبي لحركة الاستقلال في الحاضر أو المستقبل عندما يحين موعد تقرير المصير . كان لدى الحزب ما يكفيه من أموال جاءت عن طريق تبرعات أعضائه ومشروع أم هاني الزراعي لمساعدة غير القادرين من مرشحيه على تحمل تكاليف الحملات الانتخابية . وأشترط السيد على الميرغني علينا أن نأتيه باستحقاقات المرشحين غير القادرين ليسلمها لهم بنفسه . وسلمنا له بالفعل نقدا استحقاقات من قبلوا اشتراطه .واكتشفنا أن السيد على لم يسلمها البتة لبعضهم أو سلمها للبعض الآخر ناقصة . من هؤلاء محمد توفيق صاحب الجمرات مرشحنا في دائرة حلفا ضد محمد نور الدين الرجل الثاني في الحزب الوطني الاتحادي ، والمرضي محمد رحمة مرشحنا في دائرة بربر الشمالية الذي كادت أن تفوته فرصة التسجيل لولا أننا تداركنا الأمر في اللحظة الأخيرة فوفرنا له المبلغ المطلوب ورتبنا له السفر على قطار لنقل البضائع إلى بربر

التـي وصـل إليها قبل ساعتـين فقط من قفل بـاب الترشيح . لقد تكبدنـا نفقات الحملة الانتخابيـة مرتـين : دفعناها أولا للسيد علـى الميرغني «فرقد» كما يقـول التعبير السوداني بمعظمهـا . واضطررنا في نهاية الأمر لدفعها ثانيـة للمرشحين مباشرة . وفي الحقيقة أن موقف السيد على من الحزب الجمهوري الاشتراكي لم يتكشف لنا إلا قبل إجراء الانتخابات بشهر واحـد فقط حين قرر الحـزب إيفادنا ﴿زين العابدين أبو قاضـي وشيخ العرب محمد أحمد أبوسـن وشخصـي﴾ إلى كردفان لحل بعض المشـاكل الانتخابية منها الخـلاف بين الناظر محمـد تمساح سيماوي وعبده عمر قش عمدة الفراحنة . ذهبت مع شيخ العرب مرشحنا في دائـرة الشكريـة رفاعة لزيارة السيـد على الميرغني صباح اليوم الـذي سافرنا فيه بالقطار إلى الأبيضـ . وقابلنـا سيادته ببشر وترحـاب ، وتناقشنا حول سير الحمـلات الانتخابية بوجه عـام . لم يظهـر الميرغنـي لنا ما يمكن تفسيره مـن قريب أو بعيد بتحولـه إلى الحزب الوطني الاتحـادي . بل إنـه انتدب ثلاثة من خلفائه الذين حضروا المقابلة للسفر معنا في اليوم نفسه إلى رفاعـة لمؤازرة شيخ العـرب في حملته الانتخابية . قال السيد على لهم أمامنا إن انتصارنا في دائـرة الشكريـة رفاعة سيكون الضربـة القاضية على الأنصار حتـى الأبد . وقلت مؤمنا علـى ذلـك إنها ستكون ياسيدي قاصمة الظهر – إن شاء الله – مثل واقعة كرري . وضحك السيد على معربا عن ارتياحه ثم همس قائلا : يا ولدي قل هذا الكلام لعمك شيخ بابكر!! أخذنـا القطار يومذاك من محطة الخرطـوم في طريقنا إلى الأبيض ومعنا الخلفاء الثلاثة الذين كان في انتظارهـم علـى شقيق شيـخ العرب في محطـة الحصاحيصا لمرافقتهـم إلى رفاعة . وعندمـا وصـل القطار إلى هناك نزل شيخ العرب . كانت في انتظـاره مفاجأة مذهلة إذ أبلغه شقيقـه أن عشـرة مـن خلفاء الختميـة وصلوا في اليوم نفسـه على ظهر اللـواري إلى رفاعة للدعايـة لأحمـد جلي مرشـح الحزب الوطني الاتحـادي . اعتذر شيخ العـرب عن مواصلة الرحلـة إلى الأبيضـ لكنه كان كعادته نبيلا إذ لم يفته أن يودع الخلفاء الثلاثة شاكرا سعيهم ونفـح كلا منهم بخمس جنيهات ثـم شد على أيديهم قائلا في سخريتـه المعهودة : يا فقرا فـراق سيـدي على حار وعيب زي طلاق بنت العم لكن مـا باليد حيلة!! وعبر شيخ العرب

وشقيقه النهر يومذاك إلى الضفة الأخرى حيث تقع رفاعة عاصمة دائرته ليخوض معركة انتخابية ضارية ضد مرشحي قطبي الطائفية السيد على الميرغني والإمام عبد الرحمن المهدي . خرج شيخ العرب محمد أحمد أبو سن منتصرا ليثبت أن الإدارة الأهلية هي القوة الضاربة الوحيدة في السودان القادرة على منازلة الطائفية مجتمعة وكبح جماحها . على أية حال عرفنا يومذاك على رصيف محطة الحصاحيصا ولأول مرة على وجه اليقين أن حليفنا السيد على الميرغني تحول بكل ثقله إلى معسكر الحزب الوطني الاتحادي .لم نحقد عليه لعلمنا أن حاجة حلفائه الجدد أكبر من حاجتنا إليه ، وفي انحيازه إليهم تشجيع لهم على الاستمرار في خوض الانتخابات حتى النهاية وعدم عودتهم في المستقبل إلى شعار نقاطعها حتى لو جاءت مبرأة من كل عيب . شعار ، لا يخدم غير مصالح وأطماع الأنصار ويمكنهم من فرض نظام ملكي على السودان . وأثارت زيارتنا إلى كردفان منذ وصولنا إلى الأبيض مخاوف معكسر الاتحاديين . واتخذت الصحافة في الخرطوم والقاهرة منها ذريعة لاتهام هوكسويرث مدير كردفان بالتدخل في سير الانتخابات بل أن الحكومة المصرية أرسلت احتجاجات رسمية في هذا الشأن إلى لجنة الانتخابات ، وكلها إدعاءات وهمية من صنع الخيال . غير أن لجنة الانتخابات برئاسة سوكامارسن مضت في مباشرة مهامها رغم العديد من الشكاوي والاحتجاجات من جانب حزبي الأمة والوطني الاتحادي والحكومة المصرية . أما في الجمهوري الاشتراكي فقد كنا راضين عن أداء اللجنة وكانت ملاحظاتنا التي تصلها موضع اعتبار خاصة في ما يتعلق بترتيبات الانتخابات غير المباشرة في الجنوب وبعض المناطق الريفية في الشمال . استغرقت عمليات التصويت المباشر وغير المباشر بما في ذلك دوائر الخريجين نحو شهر تقريبا ابتداء من ٢ نوفمبر ١٩٥٣ إلى ٥ ديسمبر . كان عدد الناخبين الذين تم تسجيلهم نحو مليون وسبعمائة ناخب أي نحو٢٠ في المائة من جملة سكان السودان . وبلغ عدد الناخبين في دوائر الخريجين الخمس ٢٢٤٧ بينهم ١٥ إمرأة . ومن ناحية أخرى كان عدد المرشحين لمجلس النواب نحو ٢٨٠ مرشحا .لم يشارك الجمهوري الاشتراكي بمرشحين في المدن باستثناء دائرة حلفا (محمد توفيق) والخرطوم بحري (جابر)

وبورتسـودان (هاشـم) الذي كتب له الفوز بينما سقط الآخـران . وأعلنت نتائج الانتخابات مـن إذاعـة أم درمان خلال النصـف الأول من شهر ديسمـبر ١٩٥٣ فكانت حصيلة حزب الأمـة ٢٢ مقعـدا فقـط بينما نال الحـزب الوطني الاتحـادي ٥١ مقعدا نصفهـا تقريبا من مرشحـي الحـزب الجمهـوري الاشتراكي الذين انضمـوا للحزب الوطني الاتحـادي إما قبل عمليـات التصويت أو بعد إعلان نتائج فوزهـم كمرشحين باسم الجمهوري الاشتراكي ومن هـؤلاء على سبيل المثال : محمد حمد أبوسن ومحمد الصديق طلحة ومجذوب ابرهيم فرح وطيفـور محمد شريف والمرضي محمد رحمة ومحمد كـرار كجر وأبو فاطمة باكاش ومشاور جمعـة سهل . ولا بد من أن نذكـر هنا للايضاح انه كان يتوجب على المرشح أن يودع لدي لجنة الانتخابات عند ترشيح نفسه بيانات وافية منها انتماؤه الحزبي . لم يسعف الوقت بعض مرشحينـا لتعديلها اثر انضمامهم للحزب الوطني الاتحـادي . هكذا كانت لجنة الانتخابات توافي إذاعة أم درمان بالنتائج حسب البيانات المودعة لديها . وهذا نموذج واحد لماحدث :

* دائرة القضارف - الفائز الشيخ محمد حمد أبوسن - جمهوري اشتراكي .

وبعد ساعات قلائل يعود المذيع ليعلن الآتي :

جاءنـا من الشيخ محمد حمد أبوسن إنه استقـال من الجمهوري الاشتراكي وأصبح ختميا مستقلا .

وتمضي ساعات قلائل ليعود المذيع معلنا :

جاءنا من الشيخ محمد حمد أبو سن أنه انضم للوطني الاتحادي .

هذا نموذج واحد ينطبق على الآخرين . كان المكلف بإذاعة النتائج يومذاك المرحوم أبو عاقلة يوسف .

وكنـا قد أجمعنا قبيل اجراء عمليات التصويت على أن ندع لمرشحينا الفائزين الخيار للبقاء في الحزب أو الوقوف مستقلين أو الانضمام للحزب الوطني الاتحادي في الفترة الانتقالية لكي تتوفر له الأغلبية المطلوبة لتشكيل الحكومة . واشترطنا عليهم أن يدعموا التيار الاستقلالي داخل الحزب الوطني الاتحادي . وكان ابرهيم بدري الأمين العام أشدنا اطمئنانا فلم يجزع أو يتزعـزع إيمانـه بما سيؤول الأمر إليه في نهاية المطاف . ويقول لمن حوله حسبنا أن مصر ابتلعت نصف الطعم وسوف تبتلع النصف الآخر لا محالة . وما علينا إلا الانتظار!! وقد رفضنا اقتراحا تقـدم به الناظر حاج محمـد ابرهيم فرح للاندماج في الحزب المذكور . كان من رأينا أن فكرة الجمهوريـة الاشتراكيـة يجب أن تبقى وتحقيقا لذلك ينبغي استمـرار حزبنا في البقاء خارج البرلمـان أو ممثلا فيـه ببضعة من أعضائه مع بقاء داره في أم درمـان مفتوحة ، وعليها اللافتة التـي تحمـل اسمه إلى أن يحين موعد تقرير المصير . وبقيت الـدار مفتوحة بالفعل حتى يوم إعـلان الاستقلال . تحتل الدار موقعا استراتيجيا في شارع الموردةالرئيسي الممتد بين أم درمان والخرطوم وأمام ستاد أم درمان حيث لا تخطئها عيون المارة ورواد الاستاد . كنا حريصين على بقـاء فكرة الجمهورية الاشتراكية كما كنـا نعلم في الوقت نفسه أن زعماء العشائر أو النواب المحسوبـين عليهـم لا يمكن أن يتخـذوا داخل البرلمان أو في الخارج موقفـا معارضا للحكومة القائمـة في القضايـا غير المصيرية لا خوفا من الحكومة أو إيمانا بهـا وانما حرصا على مصالح مناطقهـم وضمـان توفير الخدمات لها . فهذا قدرهم الذي كتب عليهم ولا سبيل للتنكر له . لكن بينهم والحكومة دائما خطا أحمرمتفقا عليه لا ينبغي أن يتعداه أي منهما . أما الفائزون مـن مرشحي الحزب في الجنوب فقـد انضم بعضهم للحزب الوطنـي الاتحادي بينما شكل الباقـون كتلة داخل البرلمان باسم حزب الجنوب أو الأحـرار . لم ننظر إلى نتيجة الانتخابات مـن زاوية حزبية ضيقة وإنما رأينا فيها خيرا للسودان في الحاضر والمستقبل عندما يحين موعد تقريـر المصير . كنا واثقين من أن انضمام مرشحينـا الفائزين إلى الحزب الوطني الاتحادى لا يعني مطلقا تخليهم عن قضية الاستقلال تحت نظام جمهوري اشتراكي . ومن ناحية أخرى كنـا نرى في الجمهوري الاشتراكي أن قادة الحـزب الوطني الاتحادي لن يختاروا وحدة وادي

النيل إذا ذاقوا حلاوة الحكم خلال الفترة الانتقالية ،وهو حكم لا ينقصه الكثير من مكونات الدولة المستقلة عن دولتي الحكم الثنائي ، و خير رغم علاته الموقتة من أي نظام يمكن قيامه في ظل وحدة وادي النيل . أما حزب الأمة فقد كان في خروجه من الانتخابات باثنين وعشرين مقعدا دون زيادة أو نقصان هزيمة مريرة لم يتوقعها . وكان من الطبيعي أن يسارع حزب الأمة بألقاء اللوم على الدعاية المصرية والأموال الطائلة التي أغرقت بها الساحة السياسية مما أدي لافساد الذمم والضمائر كما جاء في بيان أصدره الحزب . وهذا تعبير غير لائق فمن حق الحزب أن يتهم مصر وقد يوافقه كثيرون في ذلك . أما اتهام الناخبين السودانيين بفساد الذمم والضمائر لأنهم لم ينصروا مرشحيه فإنه تجن سافر وظاهرعلي شعب السودان الذي مارس حقه الديمقراطي في صدق وأمانة وانطلاقا من مسئولياته الوطنية . وما كان لحزب الأمة أن يفاجأ بهزيمته في هذه الانتخابات فهي وإن كانت أول انتخابات نيابية ينازل الحزب فيها معسكر الختمية وزعماء العشائر إلا أن نتيجتها جاءت مطابقة وصورة طبق الأصل لنتائج انتخابات مجالس الحكم المحلي التي لم يقاطعها الختمية في كل مدن السودان وأريافه . لم ترتفع الأصوات مرة واحدة متهمة الناخبين بفساد الذمم والضمائر أو المصريين بالتدخل بالمال والدعاية . لقد كانت الاغلبية لمعسكر الختمية والأدارة الأهلية في معظم تلك المجالس رغم أن انتخاباتها كانت تجرى تحت إشراف الإداريين البريطانيين الذين لا يمكن اتهامهم بالولاء لمصر على الأقل . ويجب أن نسجل للحقيقة والتأريخ أن حزب الأمة أصدر بعد يومين من إعلان نتائج الانتخابات بيانا برفضها جاء فيه بالحرف الواحد «أن الحزب يعلن للشعب السوداني عامة وللعالم أجمع عدم اعترافه بنتيجة هذه الانتخابات التي لوثتها حكومة مصر بأموالها ودعاياتها وتحيزها» !! وسنحت الفرصة لجماهير الأنصار للتعبير عن عدم الاعتراف في أحداث مارس يوم افتتاح البرلمان وهذا ما سنتناوله إن شاء الله في مكانه لاحقا .

وغاية القول أنها كانت أول وآخر انتخابات ديمقراطية مكتملة جرت في جو تسوده الحرية والنزاهة في جميع أرجاء السودان دون مقاطعة أية فئة طائفية أو سياسية ودون غياب

أيــة منطقة في البلاد شمالا وجنوبا وغربــا وشرقا .كان هذا واحدا من الأهداف التي قام من أجلهــا الجمهوري الاشتراكي فمقاطعة أي تنظيم للانتخابات النيابية خاصة إذا كان في وزن طائفة الختمية يفتح الباب عريضا أمام الطعن في شرعيتها ويجعل نتاجها مسخا مشوها وقزما في ثيــاب عملاق . ولعل هذا ما قصده الحاكم العام البريطاني في كلمته عند افتتاح الجمعية التشريعيــة حين أعرب عــن أسفه لرفض طائفة الختمية المشاركــة في انتخاباتها . فالطائر لا يحلق بجناح واحد وسيبقي فوق الأرض فريسة للمتربصين!! ومن يمشي على ساق معطوبة ليس كمن له ساقان سليمتان . على أية حال وبغض النظر عن مكاسب هذا الحزب أو خسارة ذاك في انتخابــات برلمان الحكم الذاتــي فإن مجرد إجرائها ثم نتاجها يعتبر خطوة انتقالية إيجابية موفقة في مسيرة السودان نحو تقرير المصير تنفيذا لبرنامج التطور الدستوري الذي تبنته الإدارة البريطانيــة . وقــد تعثر البرنامــج أولا في مضيه قدما في ظل اجماع وطنــي حال دون تحقيقه موقــف الرفض من جانب مصر الطــرف الثاني في نظام الحكم الثنائي ودعمها في هذا الاتجاه لطائفــة الختمية ودعاة وحدة وادي النيل . ولا بد للمرء أن يتساءل هنا ماذا كان سيحدث لو أن نتيجــة الانتخابــات جاءت يومذاك – على عكس مــا جاءت به – في غير مصلحة مصر وحلفائها ؟ إذن لما ترددت مصر وحلفاؤها في إعلان عدم الاعتراف بها . ولما أعجز مصر اتهام الإدارة البريطانية بالتدخل بالمال والنفوذ ولسارعت مصر الرسمية بالغاء اتفاقيتها مع بريطانيا مــن طرف واحد مثلما فعلت بسابقاتها . وهكــذا كنا سنعود وتعود البلاد القهقرى إلى نقطة الصفــر . وهنالــك حقيقة مهمة لا بد من تسجيلها اظهارا لــدور الإدارة الأهلية فقد تبين أن نسبة التصويت في الدوائر الاقليمية بلغت أكثر من خمسين في المائة . بل وصلت في بعضها إلى سبعين في المائة بينما تراوحت في المدن بين ١٤ و٤٦ في المائة . ويكشف هذا عن قدرات رجــال الإدارة الأهلية على التعبئة والتنظيم وعن مدي تأييد جماهير قبائلهم وانقيادها لهم . لقــد ظل رجــال الإدارة الأهلية حتى اليوم رغم المحنة التي حاقــت بهم قوة يعتد بها في أية انتخابات جرت أو ستجرى في السودان بغض النظر عن انتماءاتهم الحزبية أو الطائفية فهم في دين قبائلهم فوق الطائفية والأحزاب . وفي تقديري أن الأموال التي أنفقتها مصر خلال تلك

الانتخابات أسهمت بدور ثانوي في هزيمة حزب الأمة . والاتفاق السائد أن الهزيمة ترجع في المقام الأول إلى أن حزب الأمة خاض الانتخابات من منطلق طائفي بحت أعاد إلى الأذهان الفظائع والأعمال الوحشية التي لحقت خلال عهد المهدية بالعديد من الأفراد والمجموعات القبلية والطرق الصوفية . كما أثارت في الوقت نفسه مخاوف رجال الإدارة الأهلية ومعظمهم من غير الأنصار . وترجع الهزيمة ثانيا إلى أن المعركة دارت في ساحة أجاد خصوم حزب الأمة اختيارها حين جعلوا محورها طرد السلطة الاستعمارية الجاثمة على الصدور ، المتمثلة في الإدارة البريطانية لا في مصر الطرف المغيب في نظام الحكم الثنائي التي اتخذها حزب الأمة الهدف الوحيد لحملاته الانتخابية . وشتان ما بين عدو ماثل للعيان (بريطانيا) وآخر وهمي (مصر) أشبه بطواحين الهواء .

ذهبت خلال الأسبوع الذي أعلنت فيه نتائج الانتخاباتِ لزيارة السيد اسماعيل الأزهري في داره بأم درمان لتهنئته بالفوز في الانتخابات . ذهبت بصحبة الأستاذ خضر حمد سكرتير الحزب الوطني الاتحادي الذي قام بترتيب الزيارة وقد رافقنا فيها ثلاثة من زملائي القدامي في حزب الاتحاديين : عبد الهادي حمدتو ومحمد جبارة وهاشم أبوسمرة . كانت الدار يومذاك متواضعة ورثها الأزهري من أبيه وتتألف من طابق واحد وعلى بابها الرئيسي شعار الثورة المصرية (الاتحاد – النظام – العمل) وهو شعار لا غبار عليه يمكن أن يرفعه أي شعب لا سيما إذا كان شعبا في طريقه للوصول وشيكا إلى الحرية والانعتاق من ربقة الاستعمار . لكن خصوم الأزهري رأوا في ذلك استفزازا لهم ونذيرا باستيلاء مصر على السودان تحت ستار وحدة وادي النيل . وسألني الأزهري عن ابرهيم بدري فقلت له إنه يبلغكم تحياته وتهانيه ولولا حالته الصحية لقدم بنفسه لتهنئتكم . وتبسم الأزهري قائلا : لا سأذهب إليه بنفسي للاطمئنان على صحته أما أنت فبابي مفتوح أمامك في البيت والمكتب متي تشاء . وقد أوفى رحمه الله بوعده على نحو ما سيرد ذكره كما أنه كان يأتي أثناء توليه الحكم لزيارة ابرهيم بدري بين حين وآخر . ومع اكتمال إعلان نتائج انتخابات مجلسي الشيوخ والنواب

في ديسمبر افتتح البرلمان في جلسة غير رسمية في يناير ١٩٥٤ كلف فيها الأزهري بتشكيل أول حكومة وطنية كما انتخب محمد أحمد محجوب زعيما للمعارضة مع أنه لم يكن حتى ذلك الحين عضوا في حزب الأمة الذي كان بين نوابه السيد صديق المهدي وعبد الله بك خليل . واقتصر التشكيل الوزاري على ثلاثة أحزاب فقط من الأحزاب الاتحادية المندمجة في الحزب الوطني الاتحادي . أغلبية الوزراء كانوا من حزب الأشقاء إلى جانب حماد توفيق وخضر حمد من حزب الاتحاديين وميرغني حمزة وأحمد جلي وخلف الله حاج خالد من حزب الجبهة الوطنية بالإضافة إلى رابعهم الدرديري محمد عثمان عضو لجنة الحاكم العام . وكانت المفاجأة الكبرى التي أحارت الكثيرين غياب يحيي الفضلي الذي يعد قطب الرحي في معسكر الأزهري منذ عهد حزب الأشقاء وهو من مؤسسيه فضلا عن أنه أحد الأشقاء الأربعة (الفضلي – ياسين) الذين استمد الحزب اسمه منهم . لم يستكن يحيى لتخطيه فأشعلها حملة شعواء على الأزهري داخل الحزب وخارجه وفي الصحافة . ودرج يحيي على حشد أنصاره كل صباح أمام مبني البرلمان ليقف فيهم خطيبا معددا سابق أفضاله في الحركة الوطنية ومنددا بالأزهري دون رحمة . وأطلق في تلك الأيام مقولته الشهيرة «هذا الصنم سأحطمه مثلما صنعته» قاصدا بذلك اسماعيل الأزهري الذي أقدم في النهاية طائعا أو مجبرا على اختلاق وزارة جديدة أسندها إلى يحيي الفضلي أسماها وزارة الشئون الاجتماعية لتشرف على مهام انتزعها الأزهري من وزارة الداخلية كمكتب العمل ومكتب الاتصال العام (الإعلام) الذي كانت الإذاعة تابعة له . ولم يواجه اسماعيل الأزهري مشقة في اختلاق الوزارة الجديدة لأنه كان وزيرا للداخلية ورئيسا للوزراء . وحسنا فعل لأن يحيي الفضلي ليس ممن تخطب عداوته فهو مقاتل شرس عنيف في خصومته وهبه الله بيانا ساحرا ولسانا بليغا أحد من السيف إذا غضب أما في حالات المحبة والرضا فإنه أعذب من الماء الزلال في فم ظمآن . ولا خلاف بين كثيرين في أن يحيى الفضلي أحق من سواه بالمنصب الوزاري في أول حكومة وطنية إذا كان المعيار ما قدمه للحركة الوطنية من جهود وتضحيات وصمود في وجه المستعمر . وتجنب الأزهري بضم يحيي الفضلي لحكومته أزمة خطيرة يمكنها بكل تأكيد تمزيق

وحــدة الحزب وزعزعة الحكومة الوطنية الوليــدة . فالرجل أقوى قادة الحزب الوطني الاتحادي ديناميكية وله شعبية كبيرة بين جماهيره زيادة على تمتعه بولاء عدد كبير من رجالات الصف الأول في العاصمــة والأقاليم . لكل هذه الأسباب تدارك الأزهري موقفه . لكن السؤال الذي ينتظر الإجابة هو لماذا استبعد يحي الفضلي من التشكيل الوزاري في البداية ؟؟

محطة ١١

* أحداث أول مارس * اللواء نجيب وسلوين لويد في الخرطوم * أخطاء الأنصار والحكومة الوطنية * قتيل بسبب الطربوش * وليام لوس ينقذ الموقف * الترفيه عن نواب الحكومة والمعارضة * بشير محمد سعيد وعصا ود جلي * الحكومة الوطنية والخدمة المدنية * كارثة السودنة * الطيب السراج العضو البراني * التمرد في الجنوب

أول مارس ١٩٥٤ يوم مشهود في مسيرة السودان الدستورية نحو تقرير المصير ، فقد تحدد ذلك اليوم موعدا رسميا لافتتاح برلمان الحكم الذاتي بمجلسيه نوابا وشيوخا . دعت الحكومة الوطنية الوليدة ضيوفا من الخارج لحضور هذه المناسبة . وجهت الدعوة إليهم عن طريق الحاكم العام لاحتفاظه في ظل الحكم الذاتي بالشئون الخارجية . شملت الدعوة الحكومات العربية وحكومات أجنبية : بريطانيا والهند واثيوبيا وسيلان والباكستان وايران . ونظرا لضيق الوقت اعتذرت الحكومات المدعوة عن تلبية الدعوة باستثناء الرئيس المصري اللواء محمد نجيب ووزير الخارجية البريطانية سلوين لويد . ومن حق الحكومة أن تحتفل بهذه المناسبة ، لكن الظاهر أن نشوة الانتصار جعلتها تغفل ما ينطوي الاحتفال عليه بمثل الصورة التي تعتزمها من إثارة لمشاعر معسكر الأنصار ، الذين لا تزال مرارة الهزيمة متأججة في صدورهم . لعل الأنصار لم يمنوا بهزيمة أقسى منها وقعا وأشد إيلاما منذ معركة كرري الفاصلة التي أطاحت بدولة المهدية . ثم أليس من غير اللائق ، أن تقيم حفل عرس صاخب بينما في بيت جارك مأتم حزن على فقيد عزيز ؟؟ أخذت جموع الأنصار تتدفق

علــى العاصمة على نحو لم يسبق له مثيــل . ازدحمت الطرقات بهم حتى ضاقت . وبددت هتافاتهم المدوية «الله أكبر ولله الحمد» الهدوء ليلا ونهارا . ونشبت أزمة حادة في الخبز الذي نفــدت امداداته في المخابز والمتاجر . كما نضب معين جــرار «السبائل» المنتشرة في الأسواق وأمــام المساكــن في مختلف الأحيــاء . وتلقت الحكومة طلبات من تنظيمــي شباب الختمية والأنصــار للتصديــق لهمــا بالمشاركــة في الاحتفال بأعــداد كبيرة من أتباعهمــا . ورفضت الحكومــة طلب التنظيمين لأسباب أمنية ، لكنهما تجاهــلا الرفض . ويعني هذا أن الحكومة تــدرك أن ثمة مخاوف أمنية من مشاركة تنظيمي شبــاب الختمية والأنصار ، وهما تنظيمان عسكريــان أقــرب إلى التنظيمات الفاشيــة العسكرية . كان في امــكان الحكومة فرض حالة الطــوارئ في مديرية الخرطــوم ، وإعلانها منطقة مقفولة لمنع تدفق جمــوع الأنصار عليها من خارجهــا . وصل سلوين لويد إلى الخرطوم قبل يــوم من موعد الاحتفال وكان مقررا أن يصل الرئيســ نجيب قبله ، لكنــه تأخر إلى صباح أول مارس بسبب محاولــة جرت لعزله أحبطها ســلاح الفرســان بقيادة خالد محيي الديــن ، وأعاده إلى كرسي الحكــم . وقال اللواء محمد نجيــب لسلوين لويد عندمــا التقيا في سراي الحاكم العام عن محاولــة عزله «إن الشباب من أمثال عبد الناصر يظنون أنهم يعرفون كل شيئ لكنه تمكن من تحجيمهم وأحضر معه الصاغ صلاح سالم ليتأكد من حسن سلوكه» . استحالت العاصمة صباح يوم أول مارس إلى برميل بــارود مهيــأ للانفجار في أية ساعة ، فإلى جانب الجيش العــرم من الأنصار احتشدت جموع غفــيرة في الخرطوم مــن مؤيدي الحكومة تدفعهم فرحة الانتصــار خاصة أن الحكومة أعلنت اليــوم عطلة رسمية . وبينما كنت أستعد للذهــاب إلى الخرطوم لحضور افتتاح البرلمان جاءني رســول أبلغني أن العميد يدعــوني للافطار معه . والعميد هو لقب الشيخ بابكر بدري وكنت أسكــن جواره في حي الشيــخ ﴿أبو حليمة﴾ دفع الله الغرقان . فذهبــت إليه وإذا به يطلب منــي ألا أذهــب إلى الخرطــوم لأنه يخشى أن يتطــور الأمر إلى شغــب وأعمال عنف ، ومن الأسلــم بقائــي بعيدا . بقيت في أم درمان مع العميد نتابــع الأحداث سويا من خلال جهاز الراديــو . كان مقررا وصول طائرة اللواء نجيب حــوالي الثامنة صباحا إلى مطار الخرطوم حيث

خـف الحاكم العام ، واكتملـت مراسم الاستقبـال . امتلأت الساحة التي أمـام المطار منذ الصبـاح الباكـر بعشرات الآلاف من الأنصار وبأعداد أقـل من مؤيدي الحكومة الذين تجمع معظمهـم في الساحـات حول قصر الحاكم العام ، ليكونوا في استقبال اللواء نجيب . ولا أدري إن كان اختيارهـم ذلـك المكان بمحض ارادتهم أم بتوجيه مـن قياداتهم ؟ ؟ . وما أن هبطت الطائـرة المقلـة للواء نجيب حتى تكهربـت الأجواء وتعالت الهتافات الموالية والمعادية له في انتظـار خـروج موكبه متوجهـا إلى القصر . غير أن السلطات وجهت الموكـب لأسباب أمنية ظاهـرة إلى الخروج من المطـار ، عبر طريق غير معبد شرقي المطار على مشارف حي بري بدلا مـن الطريق الرئيسـي المسفلت غربي المطار ، حيث ترابط جماهـير الأنصار!! وحز في نفوس جماهـير الأنصار إفلات صيدهم بهذه الطريقة الماكرة بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدني من مرماهـم . وهكذا غلت الدمـاء والتهبت المشاعـر وتأججت الصدور غضبـا فزحفت جموع الأنصار الحاشدة الصاخبة نحو قصر الحاكم العام . وراحت تقتلع الأشجار في طريقها وتهشم النوافـذ وتحطـم السيـارات إلى أن بلغت ساحة القصر . ولمـا لم تجد سبيلا لاقتحـام أسواره فرضـت حصارا عليـه . وسرعان ما تحول تبادل الهتافات بين الأنصـار ومؤيدي الحكومة إلى اشتبـاكات بين الطرفين استخدمـت فيها العصي والأسلحة البيضاء ممـا دفع رجال الشرطة المسلحـة بالهراوات والقنابل المسيلة إلى التدخل لتجد نفسها هي الأخرى طرفا مستهدفا في الاشتباكات فسقط أربعة عشر قتيلا من رجالها في الحال على أيدي الأنصار بينهم قومندان شرطـة الخرطـوم البريطـاني «ميكي» ونائبـه مصطفي مهـدي ، بالإضافـة إلى العديد من الجرحـي . وألقي بعضـ رجال الشرطة بأنفسهم في النيل طلبا للنجـاة . وانفض هذا المشهد الدامـي بعـد وقت غير قصـير عندما استدعيت قـوة عسكرية أطلقت عـدة أعيرة نارية في الهـواء ، كانت كافية لفـرار الجميع من الساحـة . كان الأنصار في ذلك اليـوم الأسود مثل المدفـع الجامـح الطليق لا كابح أو سلطان عليـه . لم يسلم من شرهم حتى مؤيديهم فقد كان بـين من قتلوهم مدنيان من أسرة أنصارية عريقة في أم درمان هما الشاب أبو القاسم ميرغني محمـد طالب القانون في كلية الخرطـوم الجامعية وابن عمه ميرغني عثمان صالح الذي جاء

في ذلك اليوم كعادته مرتديا الطربوش ، غطاء الرأس المصري الذي فرضته طبيعة عمله عليه كمدير لفرع شركة عثمان صالح في القاهرة . لكن الطربوش جني عليه يومذاك فقد كان بمثابة الوشاح الأحمر في حلبة مصارعة الثيران . حسبته جماهير الأنصار اللواء نجيب أو واحدا من حاشيته على الأقل . أما نائب القومندان مصطفي مهدي فإنه ينتمي لأسرة الأمير أبو قرجة أشهر قادة الثورة المهدية العسكريين . ومن سخرية القدر أن القومندان ميكي هو نفس الرجل الذي نجا من الموت على يد المناضل عبد القادر سالم في أتبرا ليلقاه في الخرطوم على أسنة رماح الأنصار ، الذين مثلوا بجثته وقطعوه أربا أربا . والآجال بيد الله وما تدري نفس بأي أرض تموت !! . ويذكر اللواء نجيب أنه خاطب المتظاهرين من شرفة القصر رغم اعتراض الحاكم العام وقال لهم «إن الله كفى المؤمنين شر (هكذا) القتال . وما تفعلونه لن يجر سوى المصائب لكم .» أما سلوين لويد الذي صعد إلى سطح السراي كتب يقول «استطعت أن أرى ميدان كتشنر بوضوح وكانت فيه جماهير غفيرة واصطدامات . وكان البوليس يستخدم الرصاص والقنابل المسيلة للدموع ، وكان القتلي والجرحي ينقلون عبر البوابة الغربية إلى مستشفي النهر» وذكر سلوين لويد أن عدد قتلي البوليس ثمانية ومن المدنيين عشرون . وذهب وليام لوس مستشار الحاكم العام إلى الإمام عبد الرحمن المهدي لتهدئة أنصاره . بقي سلوين لويد أياما قليلة في الخرطوم بينما أمضى اللواء نجيب ليلة واحدة عاد بعدها إلى القاهرة . كان قادة الأنصار الميدانيين في ذلك اليوم الأمير عبد الله عبد الرحمن نقد الله وعوض صالح وعلي فرح . وقد حكم على ثلاثتهم بالسجن لفترات طويلة ، وأفرج عنهم قبل انقضائها . ولم تستجب الحكومة الوطنية للمناداة بتقديم قادة سياسيين من حزب الأمة إلى المحاكمة بينهم عبد الله بك خليل الأمين العام للحزب والسيد الصديق النجل الأكبر للإمام عبد الرحمن المهدي . لقد كان على الحكومة الوطنية أن تنحني للعاصفة خوفا من تحول الأمر من مجابهات ساخنة إلى حرب أهلية تطيح بمكاسبها وتكون وبالا على السودان بأسره . ومن ناحية أخرى نشبت خلافات حادة بسبب أحداث مارس بين لندن والخرطوم!! كان من رأي الخارجية البريطانية التي شاهد وزيرها الأحداث إعلان

الانهيار الدستوري بموجب المادة ١٠٢ من قانون الحكم الذاتي ويشاركه في هذا الرأي عدد من البريطانيين في الخرطوم بينهم لندسي رئيس القضاء، ومستر بيتون وكيل وزارة الداخلية، والجنرال اسكونز القائد العام لقوة دفاع السودان. ويعني تنفيذ المادة المذكورة في ما يعني حل البرلمان وإقالة الحكومة وتعيين مجلس شوري لمعاونة الحاكم العام في تصريف شئون الحكم. غير أن الحاكم العام أخذ برأي مستشاره وليام لوس وأعوانه وماوو قورداتو(MAWO GORDATO) المحامي العمومي. كان رأيهم يقضي بعدم إعلان الانهيار الدستوري بحجة أن ما جرى ليس بالانهيار المقصود في المادة ١٠٢. كما أن تطبيقها سوف يضير العلاقة بين الحاكم العام ومجلس وزرائه. وتكفي الاستعانة بالقانون العام الذي يبيح إعلان حالة طوارئ عادية لمعالجة الموقف. اقتنع الحاكم العام والأزهري بهذا المنطق. وأعلنت الحكومة حالة الطوارئ العادية التي تخولها سلطات إضافية في حالة الإضطرابات والإخلال بالأمن. ذهبت لزيارة ابرهيم بدري مساء اليوم الثاني للأحداث أخبرني بأن وليام لوس وأحمد متولي العتباني النائب العام حضرا لزيارته عصر اليوم ذاته وكان مما قاله لهما «أن مصر سوف تفسر إعلان الانهيار الدستوري بأنه رفض بريطاني لنتيجة الانتخابات. وسوف تتهم مصر البريطانيين بتدبير تلك الأحداث الدامية بالتعاون مع حزب الأمة، لاتخاذها ذريعة لإعلان الانهيار الدستوري، وبالتالي حرمان مصر وحلفائها من جني ثمار انتصارهم في الانتخابات. ولهذا لا يري من الحكمة إعلان الانهيار الدستوري. وعلي البريطانيين سواء في لندن أو الخرطوم بدلا من ذلك استغلال هذه الفرصة للتقارب مع الحكومة الوطنية واكتساب ثقتها». وقال ابرهيم بدري لزائريه أيضاً إنها كانت انتخابات لاختيار من يحكم البلاد خلال مرحلة الحكم الذاتي لا لتقرير المصير. وفي رأيه أن التيار الاستقلالي داخل الحزب الوطني الاتحادي أقوى عددا و نفوذا من تيار دعاة وحدة وادي النيل، وستكون الغلبة له عندما يحين موعد تقرير المصير. ومن الأفضل تحقيق الاستقلال على يد الوطني الاتحادي والختمية بدلا من الأنصار وحزب الأمة ولن يجد المصريون حينذاك سبيلا للاعتراض.

لقد ارتكبت الحكومة الوطنية خطأ كبيرا بتصميمها على الاحتفال بافتتاح البرلمان في أول مارس وسط مظاهرة دولية حافلة يتصدرها اللواء محمد نجيب دون أن تضع وزنا لما في ذلك من عوامل الاستفزاز للمعسكر المنهزم . فالأمر ليس مجرد مباراة ساخنة بين فريقي المريخ والهلال ينطلق بعدها أنصار الفريق المنتصر إلى الشارع شامتين على الفريق الآخر ليسلقوا أنصاره تعييرا واستخفافا!! وانما هي مسيرة أمة في أول طريقها إلى الانعتاق من أسار الحكم الأجنبي ، مما يستوجب العمل يدا واحدة في ظل الديمقراطية ، والالتزام بما أسفرت المسيرة عنه في شوطها الأول ذي الصبغة الانتقالية . أما حزب الأمة فقد كانت خسارته كبيرة لأن الأحداث الدامية التي ارتكبتها جموع الأنصار في وحشية بالغة أثارت المخاوف وآيات الرعب والفزع مما أعاد إلى الأذهان مآسي المهدية وامكانية عودتها إذا آل الأمر إلى المهدويين الجدد . ومن ناحية أخرى يتفق المتابعون لتلك الفترة أو معاصروها على أن أحداث أول مارس دقت عطر منشم بين قيادة الأنصار والبريطانيين ممن في الخرطوم أو لندن إذ أخذت تتداعي الثقة التي كانت قائمة بين الطرفين . ظهر ذلك عندما رفض البريطانيون تقديم أي عون مالي لدائرة المهدي حين ذهب السيد الصديق بعد أشهر من أحداث مايو إلى بريطانيا لهذا الغرض . وفي الحقيقة أن استنكار البريطانيين لتلك الأحداث يرجع إلى حرصهم الشديد على نجاح البرنامج الدستوري الذي وضعوه للسير بالبلاد إلى تقرير المصير ، مما جعلهم ينظرون إلى أحداث أول مارس كعمل من شأنه تقويض ذلك البرنامج وقطع الطريق أمام تنفيذه .

وقبل أن نطوي صفحة أحداث أول مارس لا بد من الإشارة إلى أن الحاكم العام البريطاني رغم قيام الحكومة الوطنية كان بمقتضي قانون الحكم الذاتي مسئولا حتى إعلان الاستقلال عن شئون السياسة الخارجية وعن قوة دفاع السودان بوصفه القائد الأعلي . كما كان مستر بيتون وكيلا للداخلية وقد حل مكان جيمز روبرتسون السكرتير الإداري العتيد بعد شهرين من توقيع اتفاقية الحكم الذاتي . واقترن ذلك أيضاً بنقل وليام لوس مدير النيل الأزرق ليكون مستشارا للحاكم العام . وبين مستر بيتون واسماعيل الأزهري رئيس الوزراء

ووزيـر الداخلية ود مفقود منـذ كانا عضوين في هيئة التدريس في كليـة غوردون التذكارية . إذن لم تكن الشرطة والجيش في أول مارس في يد الحكومة الوطنية !! . وهكذا وقف الأزهري ووزراؤه يتابعون الاشتباكات من شرفة وزارة الداخلية وهم مكتوفي الأيدي .

هـدأت الأحـوال نسبيا خلال أسبوع مـن أحداث أول مارس ، فافتتح الحاكم العام البرلمان دون جلبة أو ضوضاء في العاشر من الشهر نفسه . حدد الحاكم العام في تلك الجلسة سياسة الحكومة الوطنية في السودنة ، والعمل على توفير الأجواء المواتية لممارسة تقرير المصير ، واحترام حقوق الإنسـان ، والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات ، وحماية الأجانب ، والمحافظـة على الحياة الديمقراطية البرلمانية . ولم تخرج الحكومة الوطنية عن دائرة هذا المفهوم في تسييرهـا لدفـة الحكم مما لا يحتاج مني إلى تعليق . لكن لا بد مـن القول بأن الحكومة الوطنيـة قدمت أرقي صورة للحكم الديمقراطي لأول وآخر مرة في تأريخنا المعاصر . لم يدفعها بطر الانتصار إلى الإنفراد بآرائها معتمدة على أغلبيتها الميكانيكية في البرلمان . كانت الشفافية مبدؤهـا في التعامل مع البرلمـان . وتحرص دائما على موافقته في ما تتخذ من خطوات . تحترم رأي المعارضـة وتستشيرها في الأمور الحيوية خلال اجتماعـات اسبوعية منتظمة تعقدها مع قادة المعارضة .

لم يتأثـر حراكي في معـترك الحياة السياسية كثيرا من جـراء انزواء الحزب الجمهوري الاشتراكـي فقـد أعانتني على المواصلة - ربما في إطـار أوسع - الحصيلة التي اكتسبتها على مـر السنوات من المعارف والأصدقاء .فإلى جانـب الجنوبيين ونواب الحزب الوطني الاتحادي الذين كانوا ينتمون في الأصل للجمهوري الاشتراكي ، كان هنالك زملائي القدامي في حزب الاتحاديـين ومنهـم من احتل مواقع قياديـة في الحزب الوطني الاتحادي أمثـال حماد توفيق وخضـر حمد والمهندس بشير عبد الرحيم عضو مجلس الشيوخ ومحمد جبارة العوض نائب كسـلا . كمـا كان لي أصدقاء ومعارف بين المسئولين البريطانيين أمثال وليام لوس ونيكلسون مديـر أعالي النيل ووليام بير ضابط الخدمات الاجتماعية في مشروع الجزيرة والقاضي دونالد

هـولي وريتشي المبعوث البريطاني . أما من المصريين فقد قامت صداقة وطيدة وتقدير متبادل بيني وقائد الجناح حسين ذو الفقار صبري .

انشغلـت في الأيام الأولى من عهـد الحكومة الوطنية بتدبير مصـدر للعيش . كانت مشكلتـي الكبرى أنني بـدأت الصحافة محترفا مـن القمة كرئيس تحريـر لصحيفة الوطن اليوميـة ، مما جعل من العسير استيعابي في أية صحيفة في منصب أدنى من ذلك . وحاولت أن أدخل شريكا في صحيفة السودان الجديد لصاحبها أبو الصحف أحمد يوسف هاشم لكنا لم نتوصل إلى اتفاق . وهكذا لم يستقر بي المقام ويهدأ بالي قليلاً إلا بعد أن أصبحت مراسلا لإذاعـة الشرق الأدني البريطانية التي كانت تبث برامجها باللغة العربية من جزيرة قبرص . كمـا اختارتنـي وكالة الأنباء العربية في الوقت نفسه مديـرا لمكتبها الجديد في الخرطوم وهي تابعـة لوكالـة رويتر وتمثلها في الشـرق الأوسط ، ومقرها الرئيسي آنـذاك في القاهرة . واشتهر مديرها العام توم ليتل بصداقته المتينة مع الرئيس جمال عبد الناصر . كنت في وكالة الأنباء العريبة رئيسا للتحرير بينما كان صلاح محمد على الصحفي المصري يتولي الشئون الإدارية . لقـد هدأ الأنصار (حـزب الأمة) بعد أحـداث مارس قانعين بالمعارضـة داخل البرلمان . لم تحـدث احتكاكات ذات بال باستثنـاء تحرش الشرطة مرة واحـدة بالسيدين أحمد وصادق المهـدي أثنـاء ممارستهما رياضة ركوب الخيل في فناء جامع الخليفة في أم درمان . أما الحكومة الوطنيـة فقد ظلت في قلـق دائم بسبب تمرد عصبة من نوابها بـين كل حين وآخر . وتتألف العصبـة من النواب حسن محمد زكي وعمر المكاشفي والمرضي محمد رحمة ومحمد جبارة العوضـ وينضم اليهم في بعضـ الأحيان طيفور محمد شريف والنائـب الجنوبي بوث ديو . كانت هذه العصبة عامل زعزعة دائم وتشكل خطرا أشد من المعارضة خاصة عند طرح عدم الثقـة بالحكومة مما يستدعي كل مرة استرضاءهم بمختلف الوسائل والمغريات لكي يعودوا إلى الحظـيرة . كان هذا السلوك المشين وصمة عار في جبين الديمقراطية تعدت حدود السودان إلى العـالم الخارجي . حتـى أن أنتوني إيدن رئيس الوزراء البريطاني عندما ضيقوا الخناق عليه في

مجلس العموم في احدى المناسبات ، أطلق قولته المشهورة مخاطبا المجلس : أتريدون مني أن أشتري نوابا من السودان للاستنجاد بهم ؟؟ حقا لقد أضحى برلماننا يومذاك سوقا للنخاسة في الساحة السياسية غمر صيته الآفاق!! شاركت في بعض المرات في مساعي قيادات الحزب الوطني الاتحادي لاسترضاء تلك العصبة الناشرة المتمردة وذلك بحكم صلاتي بالمرضي وطيفور منذ عهد الجمهوري الاشتراكي وبمحمد جبارة زميلي في حزب الاتحاديين . وقد يندرج ذلك في إطار الخفايا والأسرار ومن أجله سوف أمسك عن الاستطراد مكتفيا بأن ما تردد عن التقاط صور فوتوغرافية فاضحة لبعض أفراد العصبة كان مجرد شائعة لا أساس لها من الحقيقة أريد بها تخويفهم . وقد كنت طرفا في إيصال الشائعة أولا للأفراد المعنيين ثم ترويجها بتكليف من يحي الفضلي وزير الشئون الاجتماعية . أسررت بها إلى المرضي محمد رحمة على سبيل الإشفاق والتحذير ، وقلت له إني رأيت الصورعند يحيى الفضلي . وذكرت للمرضي تفاصيل بعضها على نحو لم يخالف وقائع ما جرى في الليلة التي التقطت الصور فيها . وقد زودني يحيي الفضلي بتلك التفاصيل الدقيقةالتي نقلها إليه عيون شهود زرعهم خصيصا . أما أنا فلم أكن حاضرا ولا وجود للصور المزعومة . وصدق المرضي ما نقلته إليه ونقله بدوره إلى باقي أفراد العصبة . على أية حال كانت هذه الواقعة بمثابة تهديد باغتيال سياسي أدت مهمتها المطلوبة . ولست نادما على دوري فيها . وتجدر الإشارة إلى أن الحزب الوطني الاتحادي استأجر تلك الأيام دارا في الخرطوم جنوب للترفيه عن نوابه يشرف عليها السر عباس الذي أصبح في ما بعد رجل أعمال مرموقا . وهو معروف بصداقته مع يحيي الفضلي ومبارك زروق . بينما اتخذ حزب الأمة دارا لنفس الغرض في حي الشيخ دفع الله بأم درمان أوكل أمرها للصحفي عبد الرحمن مختار . وما كان يجري في الدارين من ألوان الترفيه متروك لفطنة القارئ وخياله!! ويجب أن نسجل من باب الانصاف أن نواب حزب الأمة كانوا أشد انضباطا وأكرم سلوكا وتقديرا للمسئولية من سواهم . سارت المداولات البرلمانية على نسق جيد وأمين يضاهي أرقى البرلمانات وأعرقها في البلاد التي تسودها النظم الديمقراطية الأصيلة . وأبدي بابكر عوض الله رئيس مجلس النواب رغم خلفياته السياسية قدرا عاليا

من الحنكة والحياد وحسن الإدارة يشد من أزره محمد عامر بشير «فوراوي» كاتب المجلس القدير بتجاربه الغزيرة منذ عهد المجلس الاستشاري ثم الجمعية التشريعية ، ويساعده الطاهر السـراج ثم عثمان محمد الحسن بعد عودته من فـترة تدريبية في مجلس العموم البريطاني ، حيـث اكتسـب خبرة عظيمـة أضحت بضاعة بائـرة منذ زوال الديمقراطيـة على يد الحكم العسكـري بقيـادة الفريق ابرهيم عبـود ، لتعود الديمقراطية في فترات تاليـة في صور ممسوخة تعوزهـا الخبرات والكفـاءات . كانت شرفات الزوار مزدحمة دائمـا بحشود ممن يأتون لمتابعة المساجلات المدهشة بين محمد أحمد محجوب زعيم المعارضة ومبارك زروق زعيم الأغلبية . مساجلات جادة وفي الصميم لا تخلو من قفشات وتنكيت وتبكيت مما يبعث البهجة والمرح في النفوس . كان بوث ديو النائب الجنوبي ملك الفكاهة بين النواب . ومن النوادر التي تروى عنـه أنه كان يجلس مجاورا للشيخ يوسـف العجب الذي من عادته أن يخلع حذاءه البلدي (مركوب) ويستسلم للنوم أثناء الجلسات . واستيقظ العجب مرة فجأة وبحث عن مركوبه فلم يجـده ، فمال إلى جاره بـوث ديو قائلا : يا البوس مركوبي ما وقع في عينك ؟؟ فرد بوث ديو عليه : دا كلام يا شيخ العرب ؟؟ العين كلو قدر شنو ؟؟ المركوب الكبير دا كان وقع في عيني يشرطوا طوالي !! . كانت حياتنا السياسية على مداها الطويل حافلة بالمرح والحبور ، فالنفوس صافيـة ، والقلوب طاهرة نقية لا تعتورها إحن واحقاد . والخلاف لا يفسد للود قضية . وليت الله يقيض لنا مـن يجمع في كتاب الملح والطرائف التي كانت تـدور بيننا في ذلك الزمان!! جـاءت شركة أجب الإيطالية في تلك الأيام لأول مـرة إلى السودان واختارت محمد أحمد محجوب مستشارا قانونيا لها . وحضر محجوب يوما إلى البرلمان مرتديا بدلة أنيقة فاخرة فسأله يحيـي الفضلـي في خبث : من أين لك هذا . . . أجـب ؟؟ والتورية واضحة لا تحتاج لتبيان بين فعل أمر واسم علم متشابهان . وفي واقعة أخرى التقي عوض ساتي في حفل استقبال مع ابرهيم المحلاوي وزير الثروة المعدنية الذي كان مهووسا بالتنقيب عن البترول ، وكان يدور في تلك الأيـام لغط وارهاصات حول عزم الأزهري على إقالة وزرائه المعروفين بانصياعهم لقيادة طائفة الختمية . ابتدر عوض ساتي الوزير متسائلا : متي «سيطلع زيتك «يا معالي الوزير ؟؟ »

وأقال الأزهري بالفعل وزراء الختمية بعد أيام ولم يكن المحلاوي واحدا منهم ، (لم يطلع زيته مـع الآخرين) . وعوض ساتي من أحب أساتذتنـا لقلوب طلبته في كلية غوردن التذكارية ، اشتهـر بخفة الـدم وبنكاته العفوية . وعندما يضحك جلسـاؤه لاحدي نكاته يتصنع الحيرة والدهشة كأنه لا يعلم لماذا يضحكون أو ماذا قال . . . كما يفعل مشاهير عباقرة نجوم الكوميديا مثل عادل إمام المصري وهنري كوبر البريطاني . وعندما مثل عوض ساتي أمام ملكة بريطانيا لتقـديم أوراق اعتمـاده كأول سفير لنا قال لها مغازلا : يا صاحبـة الجلالة أراك أجمل ما في الصور الفوتوغرافية ؟؟

أذكر أني عرجت صباح يوم إقالة وزراء الختمية على الأزهري رئيس الوزراء في مكتبه وأنا في طريقي من أم درمان ، وكانت سيارته تسير أمامي . انضم إلينا بعد قليل بشير محمد سعيـد . وأسر الأزهري الينـا بعزمه على إعلان إقالة أولئك الـوزراء في منتصف نهار اليوم . وطلـب مني ألا تنشر وكالة الأنباء العربية الخـبر قبل الثانية بعد الظهر . وشاءت الأقدار أن يلمحنـا أحمد جلي أحد الوزراء المعزولين عند مغادرتنـا مكتب رئيس الوزراء . واقترح بشير أن نعـرج على البكباشي خلف الله حاج خالد وزيـر الحربية في مكتبه المجاور لرئاسة الوزراء وهـو مـن المعزولين أيضاً . اكتشفنا أن البكباشي لم يكـن على علم بقرار عزله بعد ساعات . وراح يحدثنـا عـن خلافاتهم مع رئيس الوزراء . ثم ظهر فجأة أحمد جلي وهو مشهور بسرعة الانفعـال وكانـت علامات الغيـظ ظاهرة على وجهـه ، إذ يبدو أنه علم بعـد خروجنا من الأزهري بقرار عزله مع الآخرين . وبادر أحمد جلي قائلا :

* شايف يا سيد خلف الله أزهري عمل فينا كيف ؟؟
* شنو . . . الله يصلح الحال ؟؟

والتفت أحمد جلي وهو يتميز من الغيظ نحو بشير ووكزه في رأسه بعصاه وكزة شديدة خلفت ورما في حجم حبة العنب وهو يقول مستغربا :

يعني أبرويس ده ما كلمك ؟؟ والتفت جلي نحوي بعصاه مزمجرا : ولا بتاع رويتر نقال الخبارات ؟؟ وأجفلت سريعا فلم تصبني العصا التي يبدو أن جلي ظل محتفظا بها رغم تقاعده منذ عهد عمله في الشرطة . غادرنا المكان وبشير يتحسس (رويسه) من حين لآخر مسائلا نفسه : ود جلي شكيتو لي الله ما لو على ؟؟ ما يمشي يفلق أزهري اللي رفتوا ؟؟ واقترحت على بشير مازحا أن نذهب إلى السيد على لنشكو ود جلي فعلق ساخرا ومستنكرا : " ياخوي كفاية . . . فلقة واحدة توجع الرأس "!! لقد كان الأزهري سخيا في تعامله معي لا يتواني في مدي بالأخبار والتصريحات كلما قابلته في دار البرلمان أو أتيته في مكتبه أو عن طريق التلفون . أذكر تصريحا نشرته وكالة الأنباء العربية ، أدلي به إلى بعد أحداث الجنوب ردا على شائعات مفادها ، أن تقرير المصير قد يتأخر عن موعده المحدد في الاتفاقية بسبب تلك الأحداث . أوضح الأزهري في تصريحه أن فترة الانتقال المنصوص عليها في الاتفاقية مدتها ٣ سنوات تنتهي في آخر عام ١٩٥٦ وبعد أن تمت السودنة والجلاء في مدة أقل مما كان منتظرا أصبح علينا أن نعجل بتنفيذ بقية إجراءات تقرير المصير ولا داعي للانتظار . أحدث هذا التصريح حراكا واسعا في الساحة السياسية داخل البلاد إذ أحس الناس على اختلافهم بقرب موعد تقرير المصير .

يحمد للحكومة الوطنية برئاسة الزعيم اسماعيل الأزهري ، أنها فطنت منذ أول يوم لطبيعة الخدمة المدنية وتفهمت دورها في تصريف أمور الدولة وتحقيق الاستقرار . وقد عوض ذلك عن السلبيات التي صاحبت تشكيل مجلس الوزراء من رجال تنقصهم الخبرة بفنون الحكم ، لم يشغلوا مناصب عالية في دواوين الحكومة باستثناء ثلاثة او أربعة منهم ، على الاكثر ، بينهم على سبيل المثال ميرغني حمزة وحماد توفيق . أما الباقون فقد تم اختيارهم لسابق فضلهم في الجهاد ووزنهم الحزبي مثل القاضيين الشرعيين على عبد الرحمن ومدثر البوشي اللذين لا تتعدى تجاربهما في العمل الحكومي قضايا الميراث والزواج والطلاق . أما خارج هذا الإطار فإن خبراتهم وتجاربهم تدور في معظمها - شأن القضاة الشرعيين – حول

التعايش في جزر ومد مع أمراض السكري . ولي عمان من القضاة الشرعيين هما ابرهيم ومجدوب مالك !! . انعكس التفاهم بين الوزراء السياسيين ورجال الخدمة المدنية في أن الحكومة الوطنية الأولى هي الحكومة الوحيدة في تأريخ السودان حتى الآن التي لم يتهم رئيسها أو أي وزير فيها بالفساد المالي أو استغلال النفوذ . واستشهد بثلاثة من وزرائها : محمد نور الدين وزير الأشغال ، ويحيى الفضلي وزير الشئون الاجتماعية ، وحماد توفيق وزير المالية . عندما فارق ثلاثتهم الحياة شيع جثمان أولهم من منزله المتواضع في حي المساكن الشعبية في الخرطوم بحري ، وثانيهم من بيت مستأجر من الأوقاف في الخرطوم ، والثالث – حماد توفيق – من بيت مستأجر أيضاً بالقرب من بوابة عبد القيوم في أم درمان . كانت الحكومة الوطنية رغم طابعها الحزبي قومية تماما لكل السودان . لا محسوبية أو محاباة . كانت رمزا للعفة والطهارة . لدينا خدمة مدنية راقية وممتازة تضاهي مثيلاتها في أعظم بلاد العالم تقدما وحضارة . بل لعلها صفوة الصفوة في العالم بأسره . يتسنم موقع الصدارة فيها من عرفوا بالسلك السياسِي من مديري المديريات ومفتشي المراكز المهرة في كل حرفة على حد العبارة الإنجليزية JACK OF ALL TRADE ومن هنا جاءت عبارة " حكومة المفتشين " كاسم مرادف للإدارة البريطانية في عهد الحكم الثنائي . كان معظم رجال السلك السياسي البريطانيين من خريجي جامعتي أوكسفورد وكامبريدج البريطانيتين وقلة من العسكريين . يجري دائما اختيار أليقهم ذهنيا وبدنيا .وبلغ عدد من عينوا منهم طيلة عهد الحكم الثنائي نحو أربعمائة . وإلى هؤلاء يرجع الفضل في بناء السودان الحديث . وهذه حقيقة اعترف مؤتمر الخريجين بها مراراً في مذكراته واتصالاته مع المسئولين البريطانيين . بل أن المؤتمر نفسه اعترف في مذكرته الشهيرة في ابريل عام ١٩٤١ بأنه " ثمرة ناضجة من ثمرات الحكم الثنائي " !! . وتجلى موقف الحكومة الوطنية المحمود تجاه الخدمة المدنية في منشور أصدره مجلس الوزراء على ضوء مذكرة رفعها سير جون ماكمايكل الوكيل الدائم لوزارة المالية ، ويعتبر بحكم منصبه عميد الخدمة المدنية . حدد المنشور العلاقة بين الوزراء ورؤوس الخدمة المدنية مبينا حدود مسئوليات كل منهم وما عليه وله في مباشرة صلاحياته مما يصون الخدمة المدنية ، ويعمل

على تقويتها . واجب الوزراء كما جاء في المنشور رسم السياسة وعلي الموظفين تنفيذها بصرف النظر عن موافقتهم عليها أو رفضها . ومن حق أي من رؤوس الخدمة المدنية الاعتراض على أي قرار وزاري ، لكن عليه أن يضمن ذلك مذكرة يرفعها للوزير يوضح فيها أسباب اعتراضه . ولفـت نظري في المنشور يومـذاك أنه يحرم على الموظف انتقاد سياسـات الحكومة وعليه أن يستقيـل إن فعـل ذلك . ومن الواضح أن هـذا يشبه إلى حد كبير ما كان معمولا به في عهد الإدارة البريطانيـة ممـا لا يجوز بقاؤه في عهد حكومة وطنيـة وزير ماليتها حماد توفيق ضحية تلك السياسة الاستعمارية .

ومـن الطبيعي أن يتطلع السودانيون في أواخـر عهد الحكم الأجنبي مع تنامي وعيهم الوطني والسياسي إلى اليوم الذي يحلون فيه مكان البريطانيين وغيرهم من الأجانب في أجهزة الخدمـة المدنية وهذا ما نسميه بالسودنة . وهو حق مشروع لا سبيل لانكاره . غير أن اتفاقية الحكم الذاتي تناولت هذا الأمر من منطلق خاطئ إذ نصت على تحقيق السودنة خلال ثلاث سنـوات لا من أجل عيون السودانيين أو تأكيدا لحقهم المشروع وإنما لأن وجود البريطانيين في أجهـزة الخدمة المدنية سوف يهيئ الفرصة لهم للتأثير علـى السودانيين ، عندما يحين تقرير مصيرهم للاختيار بين الاستقلال التام ووحدة وادي النيل . ومن الواضح أن الاتفاقية نصت على السودنة بهذه الصورة تحت ضغط مصر رغم موقف الحزب الجمهوري الاشتراكي وتحذيره مـن مغبة ذلك . وافق الحزب الوطني الاتحـادي تلقائيا على موقف مصر من السودنة . بينما وافـق حزب الأمة مدفوعـا بأجندته الخفية ولأن محسوبيه والمتعاطفـين معه سوف يخلفون البريطانيين بحكم احتلالهم المناصب العليا التي تلي البريطانيين في الخدمة المدنية منذ عهد حكومـة الحزب في ظل الجمعية التشريعية . كان مـن رأينا في الحزب الجمهوري الاشتراكي ألا يحـدد تنفيذ السودنة بفترة زمنية ولا يعني ذلك التعجيل أو الإبطاء ، وإنما يعني تنفيذها وفق برنامج مدروس بدقة وعناية لضمان سلامة الخدمة المدنية والمرافق الفنية الأخري ، من حيث القدرات والكفاءات والأداء ، ولضمان الاستقرار في البلاد خاصة في جنوب السودان .

كان مــن راينــا أن للجنوب وضعا استثنائيــا يستوجب عدم اخضاعــه لمتطلبات السودنة في أنحــاء البلاد الأخري . على أية حال التمســك بالسودنة بحجة الخوف من تدخل الموظفين البريطانيين وتأثيرهم على الناخبين ، كان مجرد أوهام لا أساس لها ودعوة حق أريد بها باطل . وقد ثبت ذلك من خلال نتائج انتخابات برلمان الحكم الذاتي التي جرت تحت أسماع وأبصار الموظفين البريطانيين ، وفاز دعاة وحدة وادي النيل فيها بالأغلبية الساحقة .

لقــد نفذت السودنة حرفيا طبقا لمــا نصت الاتفاقية عليه . وغادر الموظفون البريطانيون البــلاد قبل انقضاء فترة السنــوات الثلاث التي حددتها الاتفاقية . وحل مكانهم المحظوظون من أبناء شمال السودان بحكم الأقدمية قبل الكفاءة . ومع ذلك اختار السودانيون بمنأى عن نفــوذ الموظفين البريطانيين وتأثيراتهم المزعومة الاستقــلال بدلا من وحدة وادى النيل!! ترى هل كانوا سيختارون غير الاستقلال لو بقي الموظفون البريطانيون ؟؟ لقد أخطأت مصر وجنت ممــا أصرت عليه السراب وقبض الريح . كلفتنا السودنة التي لم نكن في حاجة لها البتة أو في حاجة إلى الطريقة التي تمت بها على الأقل ، كلفتنا نحو أربعة ملايين جنيه استرليني دفعت كتعويضــات للموظفين البريطانيــين الذين تم الاستغناء عنهم قبــل الأوان . تولت لجنة مال الفــداء الشعبية بتصديق من الحكومة الوطنية جمع ذلك المبلغ الطائل ، عن طريق التبرعات التــي جاد الشعب بها في أريحيــة وسخاء . وصفوها بأنها ثمن الحريــة التي كان في امكاننا كمــا أثبتــت الأحداث نيلها حتى إذا بقي البريطانيــون في مناصبهم ؟؟ كانت تلك الملايين الأربع في حقيقة الأمر ثمن تذكرة المرور إلى ما يعيش السودان فيه من شقاء وبلاء وعناء منذ الاستقــلال وحتى ا ليوم . فقد كانت السودنة الشرارة التي أشعلت نار حرب أهلية دامية في جنــوب السودان ، انطلقت من توريت مقر قيادة الفرقة الاستوائية التابعة لقوة دفاع السودان ، وظلت نار الحرب مضطرمة خمسين عاما تخمد طورا وتستعر طورا آخرا . هذه الحرب الأهلية التــي غمــرت الجنوب بأســره وامتدت إلى جهات أخــرى في الشمال لم نــذق بسببها طعم الاستقــلال حتى اليــوم ، هددت وحدة البــلاد ، وعاقت تقدمها في طريــق التنمية والرخاء

والازدهار وأهدرت من جرائها أرواح ملايين من البشر . لقد حذر الجمهوري الاشتراكي خلال المفاوضـات قبل وبعد الاتفاقية من كل ذلك فلـم يستمع إليه أحد ، ورمونا يومذاك بالخيانة العظمى والعمالة لبريطانيا . ومع ذلك نقول اللهم لا شماتة!! وحسبنا أننا أدينا واجبنا فأبرأنا الذمة وأرضينا ضمائرنا . وراحة الضمائر في دنيا السياسة عملة أصعب منالا من أنف الأسد . لا سبيـل للمغالطة في أن البريطانيين زرعوا برميـل البارود في الجنوب ، ثم أخذوا يعملون في صـدق واخلاص على ابطال مفعوله منذ منتصف الأربعينات بعد مؤتمر جوبا . وظهرت بوادر ذلك في ساحات عديدة ليس أقلها مشاركة الجنوبيين في الجمعية التشريعية ، وإضفاء الطابع العربـي على مناهج التعليم فألزمت بها المدارس التابعة للبعثات التبشيرية المسيحية . كما تم ضم الجنوب إلى دائرة القضاء الشرعي . كانت كل المؤشرات تؤكد مضي البريطانيين في هذا الطريـق حتى النهاية . كنا في الجمهـوري الاشتراكي ندرك ذلك . وندرك في الوقت نفسه أن صفحـات عدم الثقة المتبادل بين الجنوبيين والشماليـين لا يمكن طيها بين عشية وضحاها . ولهـذا دعونـا لمنح الحاكم العام البريطـاني سلطات استثنائية خلال الفـترة الانتقالية تخوله التدخـل في حالات اتخاذ قرارات سياسية أو إصدار قوانين تلحق أضرارا بمصالح الجنوبيين . كان مـن رأينـا في الوقـت نفسه ألا يجري تنفيذ السودنة على نحـو يفزع الجنوبيين ويثير في نفوسهـم شعورا بأنها استئثار الشماليين بمواقع السلطـة في العهد الجديد ، وحرمان الجنوبيين منهـا . لم يكن اصطلاح تقاسم السلطات معروفا يومذاك فقد استنه غرانغ وطه بعد خمسين عامـا أو يزيـد . لكننا كنا ننادي بـه في الجمهوري الاشتراكي من خـلال موقفنا من اتفاقية الحكـم الذاتي وخاصة السودنة وسلطات الحاكم العام ومن خلال النظام الفيدرالي الذي كنا ننادي به أيضاً ، ويقضي باعتبار الجنوب ولاية فدرالية تتمتع بالحكم الذاتي في إدارة شئونها . ولابرهيم بدري مقولة حكيمة في هذا الصدد مخاطبا الشماليين أوردها باختصار : " إذا أردتم اصلاحا خذوا ما لكم وأعطوا أهل الجنوب ما لهم " . أليس هذا جوهر اتفاقية نيفاشا ولحمتها وسداها ؟؟ لقد رفضوا الوضع الناجم عن اتفاقية نيفاشا عندما قدم لهم قبل الاستقلال على طبـق مـن فضة ونضار ثم عادوا فطعموه بصوفه وريشه على طبق من طين!! احتل الشماليون

بفضل السودنة كل المناصب التي كان يشغلها بريطانيون في الشمال والجنوب وبلغ من جشعهم أن جرت مساع محمومة لابعاد المرشح الشرعي لمنصب وكيل وزارة الري المهندس " حسن كافي " ، الذي ينتمي لأصول جنوبية . وهموا باسناد المنصب لمهندس آخر يمت بالقرابة لواحد من أقطاب الحزب الحاكم منذ عهد حزب الأشقاء . وكاد أن يتحقق هذا لولا وقفة الأزهري رئيس الوزراء وتهديده بالاستقالة . وأثبت حسن كافي كفاءة عالية وقدرات عظيمة عندما أصبح وكيلا لوزارة الري . تم في عهده مضاعفة مساحة مشروع الجزيرة بتنفيذ امتداد المناقل ، بأيد وخبرات سودانية تحت إدارته . واستثني من مكنسة السودنة الخرقاء سير جون كارمايكل السكرتير المالي الذي بقي وكيلا دائما لوزارة المالية حتى بعد إعلان الاستقلال . وبررت الحكومة الوطنية هذا الاستثناء بحاجة البلاد لخبرته . وهذا منطق لا غبار عليه ، ليت الحكومة الوطنية استرشدت به أيضاً فيما يتصل بالجنوب فاستثنت من السودنة بعض الموظفين البريطانيين الذين كنا أيضاً في حاجة لخبراتهم إداريا وسياسيا واجتماعيا . وفي الحقيقة أن استثناء كارمايكل يرجع إلى أن هنالك أربعة على الأقل يرى كل منهم أنه أحق بخلافته . اثنان منهما جامعيان (حمزة ميرغني حمزة ومامون بحيري) والثالث بحكم الأقدمية(خليل عبد النبي) بينما تمسك الرابع (مكاوي أكرت) بأنه أحق منهم لأنه كان وكيلا للمالية في عهد الجمعية التشريعية . ولكل واحد من الأربعة جهة حزبية أو طائفيةأو فئوية تدعمه!! وما من خلاص من هذا المأزق الشائك ، سوى الابقاء على كارمايكل اتقاء للدخول في معارك في أربع جبهات . إلى جانب ذلك شمل الاستثناء من السودنة مشروع الجزيرة وكلية الخرطوم الجامعية . ولا تفهم مبررات ذلك إذا كان مبدأ السودنة قائماً حقاً على ضمان حرية تقرير المصير ، فالمشروع والكلية من المرافق ذات الوزن الثقيل في الساحة الوطنية مما يحتم تلقائياً إبعاد أي أجنبي عن إدارتهما . ومن المفارقات الضاحكة أن السودنة طالت معلمين بريطانيين في مراحل دون الجامعية . على أية حال يثبت لنا كل ذلك أن السودنة كما نصت الاتفاقية عليها عبارة مطاطية حمالة للوجوه ، وكان من الأصوب عدم ارتباطها أصلا بضمان الحرية عند تقرير المصير . لقد كنا في غني عن السودنة فهي في أحسن حالاتها

نافلة كالنوافل في الصلاة مكروهة أو محظورة في بعض الأحيان . كما أن السودانيين كانوا قد بلغوا مستوى من الوعي جعلهم بمأمن من التأثر لدي تقرير مصيرهم بأي عامل أجنبي بين ظهرانيهم أوعن طريق التحكم من بعد . وعندما قرروا اختيار الاستقلال على نحو مخالف لما نصت عليه الاتفاقية ، فعلوا ذلك من داخل نفس البرلمان الذي تم انتخاب أعضائه في ظل الحكم الثنائي ، وبوجود المدنيين والعسكريين الأجانب الذين قيل أنهم يشكلون خطرا على حرية تقرير المصير . بل كان البرلمان يضم أعضاء في مجلس الشيوخ عينوا بموجب مرسوم من الحاكم العام البريطاني!! .

ضمت لجنة السودنة إلى جانب أعضائها الأجانب ثلاثة أعضاء سودانيين من الحزب الحاكم (محمود الفضلي وابرهيم يوسف سليمان ودكتور عثمان أبو عكر) .

واتخذت اللجنة مقرا لها في عمارة أبو العلا القديمة في نفس الطابق الذي فيه مكتب وكالة الأنباء العربية ، مما أتاح لي فرصة متابعة أعمال اللجنة عن كثب . كنت أري أعضاء اللجنة كل يوم تقريبا ومعهم الشيخ الطيب السراج (العضو البراني) هكذا أسمي نفسه . يأتي صباح كل يوم تقريبا مع ابرهيم يوسف ويعود معه في آخر اليوم إلى أم درمان . كانا يأتيان إلى مكتبي بين حين وآخر لشراب القهوة التركية التي يجيد صنعها صبي المكتب طلحة بشهادة الشيخ السراج الذي كان معجبا بها إلى حد بعيد ، ويردد في عناد وهو يرتشفها أبياتا أذكر منها :

قهوة البن حرام شربها قد نهي الناهون عنها

كيف تدعوها حراما وأنا أشرب منها!!

أخفيت عن الشيخ سر المهنة وهو أن طلحة كان يضع في قعر الفنجان نغبة من شراب الكونياك المعتق لتضفي على القهوة نكهتها الطيبة المميزة . ويجري شغل منصب رئيس لجنة السودنة بالتناوب شهريا بين اعضائها وذلك بخلاف الشائع بين الناس . وصادف عند سودنة

قوة دفاع السودان أن كان رئيس لجنة السودنة دكتور أبو عكر مما مهد له في المستقبل أن يصبح أول قائـد للسلاح الطبي لدى نشأته . وأستطيـع القول بحكم المتابعة بفضل الجوار أن عبء عمـل لجنة السودنة وقـع على عاتق ابرهيم يوسـف سليمان فهو ينفـرد دون سائر أعضائها بتجاربه وخبراته التي اكتسبها من خلال خدمته في مصلحة المالية مما جعله على دراية واسعة بشئون الخدمة المدنية وقوانينها وخفاياها وأسرارها ، على عكس العضوين السودانيين الآخرين - أبو عكر والفضلي - أولهما طبيب والثاني معلم في المدرسة الأهلية بأم درمان . وعلينا - إذا سلمنـا بأن الجنوبيين ظلموا من جراء السودنـة - ألا نغفل توجهات ابرهيم يوسف سليمان العروبيـة فهـو واحد من قيادات حـزب الاتحاديين الأبروفيين ، وتمثـل تلك التوجهات حجر الزاويـة في برنامج الحزب وأفكاره الوطنية . كما أن حزب الاتحاديين أشد التنظيمات الوطنية ارتباطـا بجامعة الدول العربية وأمينها العـام عبد الرحمن عزام ، وقد أطلق ابرهيم اسم عزام علـى ابـن له تيمنا به . بينما شغل الحاج خضر حمـد منصب مدير مكتب عزام في القاهرة سنـوات طويلـة وكان يعتبر مندوب السودان في الجامعة . وخضـر حمد من مؤسسي الحزب وأول أمـين عام للحزب الوطنـي الاتحادي الذي انضوت تحت لوائه سائر الأحزاب الاتحادية . وما رويته عن الشيخ السراج ليس من أجل متعة المؤانسة فحسب وإنما تأكيدا أيضاً لتوجهات ابرهيـم يوسف سليمان العروبية فقد كان الشيـخ - الأب الروحي للأبروفيين في هذا المجال - مفتونـا إلى حـد الهوس بالعروبة لغـة وثقافة وفكرا ومنهجا . يتقمصـ الشخصية العربية الجاهلية حتى لتحسبه ابن المنذر صاحب الخورنق والسدير متمنطقا بسيفه على صهوة جواده بزيه الفضفاض وشعره المسدل تحت عمامته الخضراء . والشيخ الطيب السراج عصامي لم ينل حظا كبيرا من التعليم النظامي وإنما عكف على تثقيف نفسه بنفسه من خلال اطلاعه على ذخائر التراث الغربي ونفائسه ومجالسة أهل العلم حتى أصبح حجة في آداب العرب وأسرار لغتهـم وتأريخهم لا يدانيه أحد في زماننـا الحاضر ولا يقل قدرا عن الأعلام السابقين . وقد اشتهر بكراهته لبريطانيا والبريطانيين وكثيرا ما اصطدم بهم خلال عمله في مصلحة الخطوط الحديدية بل إنه كان يدرب جواده على منازلة الاسطول البريطاني بالقفز على المراكب الراسية

على شاطئ النيل ومنها بنطون أبوروف - شمبات!! وفناء داره الكائنة في حي أبوروف عبارة عن مضرب للبدو يضم خباء من الشعر ومربطا لخيله وأباعره وهودجا لزوجته أم النصر عندما يصطحبها لزيارة أهلها في مضارب عرب الفتيحاب بجوار مدينة أم درمان .

أنجـزت لجنــة السودنة مهمتها خــلال عام ونصف تقريبا في الفــترة من مارس ١٩٥٤ إلى أن رفعــت تقريرهــا الختامــي أغسطس ١٩٥٥ . وكان مــن رأي البريطانيين الالتزام بفترة السنوات الثلاث التي حددتها الاتفاقية حتى يتم تدريب السودانيين الذين سيحلون مكانهم وخاصــة الإداريــين وضباط الشرطة وقوة دفاع السودان . بينما كان من رأي مجلس الوزراء أن تستغــرق عمليات السودنة عامين . وهنالــك متطرفون بزعامة محمد نور الدين الرجل الثاني في الحــزب الحاكم ينــادون بتنفيذ السودنة خلال أسبوعين فقــط . واستهلت اللجنة أعمالها بسودنــة وظائف الإداريين وضباط الشرطة وقوة دفــاع السودان خلال تسعة أشهر فقط تجاوبا مع التيار الوطني الذي كان يرى في تلك الوظائف رمزا للحكم الأجنبي وعصبا له . وواجهت اللجنــة ضغطا عظيما من قبل الإداريين السودانيين الذين كانوا أعلي صوتا في أطماعهم وفي لهفتهــم على الحصول على نصيبهم من الكعكة سريعــا وكاملا غير منقوص ، فكان لهم ما أرادوا . وتقلدوا مناصب عليا ما كان الواحد منهم يحلم ببلوغها حتى آخر عمره أو بعد عشر سنــوات علــى الأقل لولا السودنــة . وهي وظائف لم يشغلها من قبلهــم أي بريطاني إلا بعد كــد وعناء واختبارات ومران لسنوات طويلــة . في عهد الحكم الثنائي كان الإداري البريطاني المحظــوظ خريج كامــبردج أو أوكسفورد لا يصل إلى منصب مديــر المديرية إلا بعد ٢٥ عاما تقريبــا من الخدمة كمفتش مركز في مختلف أنحــاء السودان . وليس بين من خلفوا المديرين البريطانيــين بفضــل السودنة من يزيد عمــره في الخدمة على عشرين عامــا على الأكثر ربما باستثنــاء واحد منهم هــو شيخ العرب على أبو سن مدير دارفور . أما الباقون ومن دونهم فقد كانــوا مــن خريجي مدرسة الإدارة التي افتتحت في عــام ١٩٣٦ . ، ولم يكن لأي من أولئك الإداريــين دور ظاهر في الحركة الوطنيــة ليكافأ عليه في العهد الوطني . بل كان كثيرون منهم

حربا عليها بعضهم في الخفاء وآخرون في العلن . ودرجت لجنة السودنة خلال عملها على استدعاء كبار الموظفين السودانيين والبريطانيين لاستجوابهم . غير أن الهيئة القضائية رفضت الاستجابة بحجة أنها لا تقع في دائرة اختصاصها كما نصت الاتفاقية ، وأن القضاة بحكم طبيعة عملهم ليسو ممن يخشى منهم على ضمان الحرية لدي تقرير المصير . ورفع أعضاء الهيئة القضائية سودانيين وبريطانيين بالفعل مذكرة إلى لجنة السودنة في هذا المعني ، يطالبون فيها ببقاء القضاة البريطانيين . لكن اللجنة لم تستجب لهم ، ومضت في طريقها فأقصت جميع البريطانيين العاملين في الهيئة القضائية بما فيهم لندسي رئيس القضاء ، وخلفه مولانا محمد أحمد أبورنات بحق وجدارة . وينبغي أن يقال انصافا إن الهيئة القضائية يومذاك كانت أكثر مرافق الدولة استعدادا للسودنة لما تزخر به من خبرات وكفاءات لا يقل مستواها عن البريطانيين ، ويكفيها فخرا أنها قدمت (مولانا بابكر عوض الله) أعظم رئيس للبرلمان في حياتنا الديمقراطية ، كما قدمت قبله مولانا محمد صالح الشنقيطي رئيسا للجمعية التشريعية ثم لأول برلمان جرى انتخابه في عهد الاستقلال .وكادت أن تقع أزمة حول سودنة قوة دفاع السودان لولا حكمة الأزهري والحاكم العام البريطاني القائد الأعلي . فقد رأي البكباشي خلف الله حاج خالد وزير الحربية أن الضباط البريطانيين في قوة الدفاع منتدبون في الأصل من الجيش البريطاني للعمل في السودان خارج هيكل الخدمة مع حكومته لذلك لا يستحقون دفع تعويضات لهم أسوة بالموظفين المدنيين البريطانيين الذين شملتهم السودنة . وكان وزير الحربية يعتزم التخلص من أولئك الضباط في غضون شهرين بينما كان الجنرال سكونز القائد العام لقوة الدفاع يرغب في بقائهم لمدة عام ونصف على الأقل ، حتى يتسني استيعابهم من جديد في الجيش البريطاني . كما كان يتمسك بدفع تعويضات مالية لهم . وبعد التشاور بين الأزهري رئيس الوزراء والحاكم العام أرسل الجنرال سكونز إلى بريطانيا للعمل على إيجاد مواقع لاستيعاب أولئك الضباط البريطانيين في قوات بلادهم المسلحة . وأفلح الجنرال سكونز في مهمته لكنه لم يعد إلى السودان ، وحل مكانه جنرال بريطاني آخر . وتمت سودنة قوة دفاع السودان خلال فترة وجيزة حيث عين اللواء أحمد محمد الجعلي قائدا عاما لها . ورفض

وزيـر الحربيـة أولا ترقيته إلى رتبة فريق لأن تعداد قوة الدفاع لا يسمح بذلك عملا بالتقاليد العسكرية المتعارفة . وتنازل الوزير عن اعتراضه بعد أخذ ورد ووساطات .

كانت السودنة غنيمة خالصة للشماليين خرج الجنوبيون منها خاليي الوفاض . وأدهى مـن ذلك أنهـا – كما أسلفت – كانت الشرارة التي أشعلت برميل البارود في الجنوب . لقد كان الجنوبيون في خوف وقلق من هيمنة الشماليين الذين لا ينتظرون تحت سيطرتهم ما كانوا يجدونه في عهد البريطانيين من عطف حقيقي أو تصنعا . كما كان المسيحيون من الجنوبيين يخشون على حرياتهم الدينية من تغول المسلمين . ولم يتوان المبشرون في تغذية تلك المخاوف وتأجيجها في الصدور . أن سوادالجنوبيين لا يفهمون الحرية كما يفهمها أهل الشمال . ليست الحريـة عندهم نقيضا لما نسميه بالاستعمـار وإنما هي نقيض للرق الذي تم تحريرهم منه على يـد البريطانيين غداة انتصارهم في معركة كرري على دولة الرق والاسترقاق ، التي يفخر أهل الشمـال بها حتى اليـوم ويحلمون بعودتها . وهنالك واقعة طريفة تروى في هذا السياق . فقد قيل إن عضوا في الجمعية التشريعية من أصل جنوبي وقف يتحدث في حماسة أثناء مناقشة قانون الحكم الذاتي مطالبا بجلاء الاستعمار البريطاني . ظل يردد مراراً بين كل جملة وأخرى عبارة " عاوزين حريتنا " فالتفت عضو رباطابي إلى جاره هامسا في دهشة واستغراب : يا خوي الناس ديل الإنجليز أدوهم حريتم من زمان تاني دايرين شنو ؟؟

علـي أية حال فارت القدر عندما جاءت السودنة بما جاءت به حيث تمت سودنة نحو ثمانمائة وظيفة في الشمال والجنوب لم ينل الجنوبيون شيئا ماعدا ترقية اثنين إلى درجة مفتش مركـز وأربعة إلى درجـة مأمور . وهي درجات لم تكن في الماضي وقفـا على البريطانيين فقد كان هنالك قبل السودنة مفتشون شماليون ، أما المآمير فكلهم شماليون . وهذا غبن ظاهر ولا يشفـع للجنة السودنة والحكومة الوطنية التزامهمـا بقوانين ولوائح الخدمة المدنية فهي قوانين ولوائـح وضعهـا المستعمر لأدارة البـلاد وفقا لمصالحه وتوطيدا لأقدامـه . لا تصلح بأية حال لعهد جديد يتولى السودانيون فيه حكم بلادهم بأنفسهم . ولا يشفع للجنة والحكومة الوطنية

أيضـاً أن الجنوبيين تنقصهم الخبرة والكفاءة لأن ذلـك لم يكن معيارا عند اختيار الشماليين للمناصـب التـي كان يشغلها البريطانيـون . لقد طالب الجنوبيون يومـذاك بأربعين فقط من المناصـب الحكومية العليا التي كانت للبريطانيين . وهو مطلب متواضع جدا لدى مقارنته مع مـا آل الأمر إليه ، في ظل مبـدأ تقاسم السلطة الذي استحدث بعـد خمسين عاما .ونقلت القيـادات السياسية الجنوبية مطلبهـم للمسئولين في لجنةالسودنـة والحكومة الوطنية فقوبل بالرفضـ بدعـوى أن جميع الجنوبيـين المرشحين لتلك المناصب غـير مؤهلين لها من حيث درجاتهـم وخبراتهم وكفاءتهـم . وأذكر أن القادة الجنوبيين كانوا علـى اتصال دائم مع لجنة السودنة سواء عن طريق المذكرات أوالمقابلات وكنت أراهم من مكتبي ذاهبين أوعائدين من مقـر اللجنـة . وقد نسقت مرة باتفاق مع مولانا محمد ابرهيم النـور لقاء في بيته على مائدة الغداء بين ابرهيم يوسف سليمان وستانسلاوس بياساما الذي كان قد حمل إلى اللجنة قبل أيـام المذكرة التي تحوي مطالب الجنوبيين . واستمر اللقاء ساعات عديدة وكان محور الحديث فيـه مستقبل السودنة في الجنوب .وطـرح ستانسلاوس مقترحاته ومنها تعديل قوانين ولوائح الخدمـة العامة وخلـق مناصب استثنائية عليا يشغلها الجنوبيـون في الشمال والجنوب . كما تساءل عن امكانية تعاقد الحكومة الوطنية مع بعض الموظفين البريطانيين كمستشارين ، بعد سودنتهـم للبقاء في الجنوب مؤقتا حتى يتم تدريب جنوبيين يخلفونهم . وأفتى مولانا محمد ابرهيـم النور بأنـه لا يرى ما يمنع التعديل وقيـام البرلمان باصدار تشريـع يبيح الاستثناءات المطلوبة . وأذكر أن ستانسلاوس بياساما كثيرا ما استشهد في حديثه بآيات من القرآن الكريم رغـم أنه مسيحي كاثوليكي ، وكان مما قالـه يومذاك : أن الله جل جلاله قال لا تزر وازرة وزر أخـرى وهكـذا لا يجوز أن يعاقـب الجنوبيون على ما اقترفه الإنجليـز في الجنوب من تخلف وحرمـان من التعليم وفرصـ العمل . وتساءل ستانسلاوس : كيـف نعاقب المجني عليه لا الجاني ؟؟ وهل يليق بالشماليين أن يقطفوا ثمار جناية الإنجليز على أشقائهم في الجنوب بدلا من انصافهم ؟؟

ومهما اختلف الناس حول أسباب تمرد الجنوبيين وخلفياته فلا خلاف في أن خروج الجنوبيين صفر الأيادي من خيرات السودنة واستئثارالشماليين بها كان الشرارة التي ألهبت برميل البارود ، فقضت نيرانه على الأخضر واليابس في أركان السودان الأربعة لا في الجنوب وحده . ما من بقعة أو أسرة سلمت من شرور الحرب الأهلية التي امتدت لمدة خمسين عاما . وقد تشعبت الآراء والتحليلات حول أسباب التمرد لكن يغنيني تقرير لجنة التحقيق في أحداث التمرد في الجنوب عن الخوض فيها واستعراضها ، سلبا وإيجابا لمعرفة الحقيقة . شكلت الحكومة الوطنية اللجنة برئاسة القاضي توفيق قطران الفلسطيني الجنسية وعضوية إثنين أحدهما جنوبي والثاني من الشمال . وجاء في تقرير اللجنة أن أسباب التمرد سياسية بحتة لا دينية .واستشهدت اللجنة باشتراك جنوبيين مسيحيين ومسلمين ووثنيين جنبا إلى جنب في أحداث التمرد ، حين انطلقت مستهدفة الشماليين من توريت إلى باقي المديريات الجنوبية الثلاث : الاستوائية وبحر الغزال وأعالي النيل . إذن لقد كانت الأسباب سياسية بحتة وليس هنالك ما يدعو لرفض ما توصلت إليه لجنة التحقيق التي باشرت مهمتها في أمانة وحياد تام . كان للحكومة الوطنية رأي آخر اعتنقته بقوة ولم تحد عنه مصدره الشيخ على عبد الرحمن الوزير ومستشارها لشئون الجنوب . وقد رشحه لذلك عمله لمدة أربع سنوات تقريبا قاضيا شرعيا للجنوب مقره الرئيسي في ملاكال . وهذه ميزة لم تتوفر لأي من أعضاء الحكومة الشماليين . ويمكن وصف شخصية الشيخ على بإيجاز بأنه إسلامي بحكم المهنة والثقافة وقومي عربي بحكم توجهاته السياسية . يضاف إلى ذلك أنه كان يري في الولاء لمصر سلما لبلوغ ما يطمح إليه من أمجاد سياسية . وهكذا لم يكن من المستغرب أن تتمسك الحكومة الوطنية بأن التمرد في الجنوب اندلع لأسباب دينية ونتيجة لمؤامرة بريطانية . الأسباب الدينية نفتها لجنة التحقيق بما لا يدع مجالا للشك . أما القول بأن التمرد كان نتيجة مؤامرة بريطانية ليس قولا مردودا فحسب وإنما مؤامرة مصرية قصد الصاغ صلاح سالم من ورائها النيل من اسماعيل الأزهري رئيس الوزراء الذي أخذت تتكشف نواياه نحو الاستقلال . وليس أدل على ذلك من أن الحكومة المصرية دعت بريطانيا إلى ارسال قوات مصرية بريطانية

مشتركة للسودان للعمل على استتباب الأمن والنظام فيه ، ويعني ذلك ضمنيا إعلان الانهيار الدستوري في البلاد والرجوع بها إلى ما كانت عليه قبل الحكم الذاتي . ورفضت الحكومة البريطانية والحاكم العام طلب مصر ارسال قوات بريطانية ومصرية إلى جنوب السودان إيمانا منها بأن من السهل جلاء القوات البريطانية وبقاء القوات المصرية بعد تحقيق الاستقرار في الجنوب . ولو كانت بريطانيا هي التي دبرت للتمرد في الجنوب لاتخذت موقفا مغايرا ولما تصدي الحاكم العام ومستشاره وليام لوس للعمل يدا واحدة مع الحكومة الوطنية لاخماد التمرد . وليام لوس ذهب مع مبارك زروق وزير المواصلات إلى الجنوب وقاما بتوزيع منشورات هناك تدعو المواطنين إلى الهدوء واحترام القانون . وعملا سويا على تبديد المخاوف والأوهام التي تساور الجنوبيين . واصطحب الإثنان معهما القائد العام في رحلتهما للجنوب . وقام وليام لوس بوصفه مستشار الحاكم العام للشئون الخارجية بمطاردة قادة التمرد الذين هربوا إلى يوغندا التي كانت يومذاك في عداد المستعمرات البريطانية . وأعيد الهاربون إلى السودان لمحاسبتهم أمام القضاء . وأذكر أن وكالة الأنباء العربية نشرت في اليوم الثاني للتمرد تصريحا حصلت عليه من وليام لوس أعرب فيه عن عدم قلقه إزاء الموقف في الجنوب وعن ثقته في قدرة الحكومة الوطنية على احتواء التمرد وإعادة الأمن إلى نصابه . كما نفى الأنباء التي جاءت في الصحف المصرية ورددتها إذاعة ركن السودان من القاهرة عن دخول قوات بريطانية من يوغندا إلى جنوب السودان . هذا عن اتهام بريطانيا . أما مصر فإن أصابعها في اشعال التمرد كانت ظاهرة . وقد روى لي العميد عبد الله الهادي - قائد البلك الاول في توريت عندما وقع التمرد - في ما روى أن عبد المنعم عبد الحي الضابط السوداني في الجيش المصري جاء إلى توريت قبل فترة قصيرة من اندلاع التمرد واحتفل به الصاغ يعقوب كبيدة قائد بلك الإشارة في ليلة ساهرة . وقام عبد الحي بتوزيع أموال وموتورسايكلات على الجنوبيين ، كما أخطر مضيفه كبيدة بأن التمرد سيقع في شهر أغسطس لذلك أخذ كبيدة عطلته السنوية بحجة مرضه وسافر إلى مصر للعلاج . وعبد المنعم عبد الحي كان في تلك الأيام مرافقا ملازما للصاغ صلاح سالم في جميع زياراته المكوكية للسودان . وقد شاهدت يعقوب كبيدة في الخرطوم مع

الشيخ على عبد الرحمن قبل أيام قليلة من التمرد في طريقه لمصر . وظهر في ما بعد أن وحدة سـلاح الاشـارة في توريت تحت قيادة يعقوب كبيدة كانت حلقة الاتصال بين المتمردين قبل التمرد وبعده . وذكر لي العميد عبد الله الهادي أن رينالدو قائد التمرد في توريت أرسل برقية لاسلكية إلى الحامية البريطانية في كينيا وجاءه الرد بأنه متمرد وعليه تسليم نفسه للسلطات السودانيـة ليحاكـم محاكمة عادلة . وحكم علـى رينالدو بالخيانة العظمـى لاتصاله بدولة أجنبيـة وأعدم رميـا بالرصاص . كما أعدم يعقوب كبيـدة في عهد الاستقلال لاشتراكه في محاولة انقلابية عسكرية فاشلة لحساب مصر .

يؤخـذ من الاحصائيات الرسمية أن عدد قتلي أحداث التمرد في جنوب السودان في عام ١٩٥٥ من الشماليين بلغ نحو أربعمائة قتيل من الشماليين رجالا وأطفالا ونساء في أنحاء متفرقة من الجنوب لكن معظم القتلي كان في ما تعرف آنذاك بالمديرية الِاستوائية ، ولم يقتل مـن الأجانب سـوى اثنين . كانت بريطانيا والكنائس المسيحيـة حبل الغسيل الذي علقت عليـه الحكومة الوطنيـة أخطاءها أو كالبساط الذي أخفت تحتـه كل أسباب التمرد المباشرة وغـير المباشرة وخلفياته التأريخية . وترتب على ذلك أن لجـأت الحكومة الوطنية إلى اعتماد القوة العسكرية في التعامل مع المتمردين فأنفذت إلى هناك جيشا جرارا من جنودها ، اختارت لقيادتـه أقوى ضباطها الشماليين عودا وأصلبهم مكسرا في مقدمتهم أحمد عبد الوهاب خير الله " فتـى الدامـر" وهذا لقبه الذي تغني به في تلـك الأيام الشاعر الدكتور عبد الله الطيب في قصيدتـه العصمـاء ، التي لم يعبر فيها عن مشاعر أهل الشمال تجاه الجنوبيين بقدر ما عبر عن نظرتهم التقليدية الموروثة الكامنة في عقولهم الباطنية نحو الزنج . وثورة الزنج من الأحداث المعروفة في التأريخ العربي . والدكتور عبد الله الطيب شاعر وعالم موسوعي جليل وإلمامه بتأريخ العرب لا يقل عن إلمامه بتأريخ الأمم الاخري منذ القدم . وقد عاتبته على ما جاء في قصيدته وقلـت لـه إنه كان من الأليق وأقرب إلى الأفهام ، أن تقرن التمرد في الجنوب بثورات الزنج في العصـر الحديث ضد السادة البيض في الأمريكتين ؟؟ ورد على الدكتور قائلا : هذا ما أوحى

بـه شيطان شعري ومـالي سلطان عليه!! وتواترت أنباء في تلك الأيام تتحدث عن حرق قرى بأكملهـا في الجنوب وعن أعمال قتل بشعة وتجـاوزات أخرى مما لا يصدقه العقل . والأدهى أن الشماليـين كانـوا يتناقلونها كبطـولات تشفي الغليل وتشبع شهـوة الانتقام . لقد كانت الحكومة الوطنية في غنى عن كل ذلك لأن أعمال التمرد التي انطلقت من توريت دامت أياما معدودات انفرط بعدها عقد المتمردين إذ لم يكن هنالك تنظيم يربط بينهم ، وهرب معظمهم إلى الأدغـال والقـري النائيـة بينما لجأ قادتهـم إلى أقطار مجاورة . وهكـذا كان من الممكن للحكومـة ملاحقتهم بالوسائل الإدارية بالتعاون مـع السياسيين والبرلمانيين الجنوبيين الذين لم يبـد أي منهم تأييـدا للمتمردين . وفي الحقيقة أن أحداث التمـرد كانت بمثابة قمة جبل الجليـد ، وظنـت الحكومة الوطنية أن في تخلصها من القمـة قضاء على باقي الجبل المختفي تحت سطح البحر . وما درت أن الجبل كالهايدرا كلما اقتطعت قمة نبتت مكانها قمة أخرى!! ويعلـم المطلعون على تأريخ الجنوب أن من العسير اخضاع قبائله بقوة السلاح وهذا ما فشلت فيـه دولـة المهدية . أما الحكم الثنائي فقـد واجه مقاومة عنيفة مـن الجنوبيين استمرت في مواقع متفرقة منذ عام ١٩٠١ ، منها ثورة الزاندي في عام ١٩٠٥ إثر مقتل أحد زعماء القبيلة علـى يـد البريطانيين ، و ثورات الدينكا العديدة التـي كان آخرها في عام ١٩٢١ وقتل فيها مديـر مديرية منجلا البريطاني . وأذكر أني قابلت الأزهـري رئيس الوزراء بعد أحداث أنزارا عاصمة مشروع الزاندي التي سبقت التمرد في توريت وقلت له إن من المستحسن عدم إرسال قـوة عسكريـة من الفرقة الجنوبيـة إلى هناك خاصة تحت إمرة ضبـاط شماليين ، لأن الجنود الجنوبيين إذا أطلقوا النار على بني جلدتهم اليوم لن يجدوا في المستقبل غضاضة في إطلاقها علـى الشماليين مأمورين أو بمحض إرادتهم . كما أن من غير المستحسن أيضاً إدخال السلاح كلغـة للتفاهـم بين الجنوبيين والشماليـين . واقترحت على الأزهري في تلـك المقابلة إجراء إصلاحـات في هيكل العمـل والإدارة في مشروع الزاندي بينها تعيـين مثقف جنوبي مديرا للمشروع ، ورشحت بالفعل أحد اثنين هما الإداري كليمنت أمبورو ، وإدوارد أدوك السياسي الجنوبـي المخضرم . وقبل ذلك وفي مناسبة أخرى قابلـت رئيس الوزراء مع وفد من العاملين

في مشروع الزاندي وبحضور حسن عوض الله وزير الزراعة ، وعرض رئيس الوزراء على العودة إلى الزاندى نائباً لمدير المشروع . رحبت بذلك أشد ترحيب . ولما استشرت ابرهيم بدري طلب مني امهاله حتى اليوم التالي . وعندما عدت إليه قال لي إنه لا يستطيع الاستغناء عني لذلك يفضل بقائي إلى جانبه . وأبلغت حسن عوض الله بذلك ورشحت له جوزيف طمبره ليكون نائبا لمدير مشروع الزاندي وهو منصب ظل يشغله باشمهندس المشروع البريطاني منذ قيامه . وجوزيف طمبرا من الأسرة المالكة في الزاندي وهو المهندس الجنوبي الوحيد آنذاك ، تخرج من المعهد الفني في الخرطوم . لكن الحكومة قامت بعد أيام ولسبب لا أعلمه بتعيين الطاهر السراج نائباً لمدير مشروع الزاندي ، وهو من الشباب الجامعيين الواعدين محط الرجاء . وجاءني الطاهر مع صديقنا المشترك اسماعيل موسي المحامي قبيل سفره إلى أنزارا لتنويره عن المشروع وطبيعة العمل والعاملين فيه . وكان مما قلته له أن مهمته ستكون صعبة لأن العاملين الجنوبيين لن يفهموه وسوف يناصبه الشماليون العداء ما لم يقدمهم على الجنوبيين . وذهب المسكين إلى أنزارا يحمل شحنة من الآمال والأحلام والأفكار . وبعد وصوله بأشهر قلائل إلى أنزارا نشب التمرد فلقي الطاهر مصرعه مأسوفا عليه . لقد أباد المتمردون جميع الشماليين في أنزارا باستثناء واحد منهم - الرشيد كمير - الذي فر إلى الغابة وظل مختبئا فيها إلى أن تم انقاذه بعد شهر تقريبا . تلك الأحداث الأليمة الدامية هل كان لها أن تقع في أنزارا لو كان المهندس جوزيف طمبرا ابن زعيم قبائل الزاندي نائبا للمدير ؟؟ لقد فقدت في أنزارا أصدقاء عديدين حزنت لفراقهم منهم محمد أحمد الرشيد (شقيق مولانا خلف الله) وعبد الرزاق فضل المولي ومحمود عبد النور ومهدي حامد ، والصاوي وحسون شيخ النجارين ونائبه عيسى أابرهيم عيسى (أبوشنب) وآدم عثمان الجزار - رحمهم الله جميعا وأسكنهم فسيح جناته . لكن الفقد الأكبر كان مشروع الزاندي نفسه أعظم مشروع زراعي صناعي جنوبي الصحراء الكبري - فقده السودان شماله وجنوبه ولم تقم للمشروع قائمة حتى اليوم . ومن يدري ؟ عله يبعث من جديد ليحتل مكانه رائدا للتنمية في ظل السلام!! من يدري ؟؟ لعل وعسى!! وفقدت حكومة الشماليين أيضاً هيبتها في أعين الجنوبيين منذ الأحداث الأولى للتمرد نتيجة

هروب معظم الموظفين الشماليين مدنيين وعسكريين من مواقعهم . لم يصمد منهم في المديرية الاستوائية مثلا سوى ثلاثة هم محمد عمر يعقوب مفتش مركز مريدي والفاضل الشفيع مفتش مركز ياى ومعه الملازم أول عصمت عبد الوهاب بحيري .استشهد ثلاثتهم بعد مقاومة باسلة انتهـت بنفاذ ذخيرتهم . الجنوبيون يمجدون الشجاعـة والشجعان ويعيبون الجبن ، ويستخفون بالجبناء . هذه الحقيقة قامت عليها العلاقة بين الجنوبيين وحكامهم البريطانيين . وترجع إليها ما كانت تتمتع به الحكومة من هيبة ومهابة . لم يسجل التأريخ رغم كثرة الثورات وعنفها في الجنـوب هروب أي موظف بريطاني عسكريـا كان أو مدنيا من موقعه ، بل كان الواحد منهم لا يتزحـزح من مكانـه قيد أنملة ، ويظل يقاوم في بسالة وصمود حتـى لو بقي وحده إلى أن تنقشع المعركة إما بمقتله أو انتصاره . ومن هؤلاء ميجر فيرغسون الجد الأكبر لديانا أميرة ويلز السابقـة ، ويوجد قبره على الشاطىء قريبا من مرسـى البواخر في مدينة شامبي . ويروي أن ميجـر فيرغسون وقف بعد هزيمة وحدته يقاتل وحـده المئات من النوير المتمردين حتى سقط قتيلا فقطعوه أربا أربا واتخذوا من ذراعيه عصيا للضرب على دفوف الحرب ﴿النقارة﴾ . لقد اتخذ البريطانيون الذين عملوا بالسودان من الجنرال غوردون قدوة لهم ومثلا أعلى في الصمود والثبـات ، حين آثـر البقاء في الخرطوم المحاصرة رغم توفر فرصـ الهروب حتى لقي مصرعه في النهايـة . وقد لقيـت الحكومة الوطنية صعوبة كبيرة أيام التمرد في ملء منصب مدير بحر الغـزال الشاغر منذ انسحاب مديـره السابق وأعوانه من واو . وقال لي يحيى الفضلي – وزير الشئـون الاجتماعيـة - في مقابلة في مكتبه في تلك الأيـام إن جميع من رشحتهم الحكومة من الإداريين رفضوا الذهاب إلى واو فسألته إن كان بينهم خليل صابر مدير مكتب الاتصال العـام التابـع لوزارته ؟ فرد يحي على ضاحكا : يا خـي دا حلبي ساكت!! وهنا قلت ليحيي متجاوبا مع ضحكه : يا معالى الوزير الحلب صنفان إما أن يكون شجاعاً مثل حماد توفيق أو جبانا مثلك ؟؟ . والحلب كلمة ينعت بها في السودان كل من كان لون بشرته أميل إلى البياض كالمصريين وهذا لون بشرة الثلاثة : حماد ويحي وخليل . ورب جد جره الهزل!! استقل خليل صابر بعد أيام قليلة الطائرة إلى واو ليتسلم مهام منصبه مديرا لبحر الغزال ، ولم تكن الأوضاع

مستقرة فيها تماما . لكن ضابط البوليس الجنوبي غوردون مورتات استطاع أن يؤمن هبوط طائرة المدير الجديد بسلام في مطار واو . ويرجع الفضل إلى هذا الضابط الهمام رغم صغر رتبته في عدم امتداد التمرد بصورة خطيرة إلى مديرية بحر الغزال مما يثبت جدوى الوجود الجنوبي في الأجهزة الإدارية وهذه حقيقة تجاهلتها الحكومة الوطنية عند تنفيذ السودنة رغم أن حزبنا ﴿الحزب الجمهوري الاشتراكي﴾ شدد عليها خلال المفاوضات التي تمخضت عنها اتفاقية الحكم الذاتي وتقرير المصير . كان من رأينا عدم تحديد موعد لتنفيذ برامج السودنة حتى لا تضار الخدمة المدنية وتفقد استقرارها وفعاليتها مع وضع اعتبار خاص للجنوب حيث لا يوجد موظف جنوبي يمكن أن يخلف أي أجنبي في وظيفته العليا إذا التزمت الحكومة الوطنية في تنفيذ السودنة كما فعلت بمعايير الأقدمية والخبرة والكفاءة وكانت النتيجة أن آلت سائر الوظائف العليا إلى الشماليين وخرج الجنوبيون من " المولد بلا حمص أو يحزنون " وترتبت على ذلك آثار سلبية يطول شرحها ابتداءا بأول رصاصة في توريت وانتهاء باتفاقية نيفاشا وهي ﴿آخر العلاج الكي﴾ وشكراً للبصير شيخ على نائب الرئيس .

وخليل صابر الذي أقدم على منصبه الجديد مديرا لبحر الغزال في جرأة وشجاعة ينتمي إلى أسرة كردفانية عريقة من قبيلة الهوارة أشهر نسائها السيدة رقية بنت جلاب والدة السيد الحسن الملقب بأبجلابية نسبة لأمه بنت جلاب لا للجلابية زي الرجال في السودان . وأبوه محمد عثمان الختم -الجد الأكبر للسيد على الميرغني - قضي فترة من حياته في بارا حيث تزوج رقية وكان عمرها آنذاك ١١ عاما . ويروى أن السيد الختم سبق الإمام الثائر عثمان بن فودة بزواجه من رقية بنت جلاب قبل أيام قليلة من نزول بن فودة في بارا عائدا من الحج إلى نيجيريا!! أسر بن فودة إلى آل جلاب أنه عرج على بارا خصيصا ليتزوج ابنتهم رقية لأنه تكشف له من خلال اطلاعه على الأسرار الربانية أن رقية ستلد ولدا صالحا يصبح قطب الأقطاب ويعقد له لواء الرئاسة على سائر الأولياء . وهكذا أرادت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يأتي السيد الحسن أبجلابية من صلب الختم لا ابن فودة . ترى ماذا كان سيقع لو

حـدث العكس فصار السابق مسبوقا والمسبوق سابقا ؟؟؟ وللإجابة على هذا التساؤل ينبغي ألا يغيـب عن البـال أن ابن فودة من أئمـة الطريقة التيجانية ومشهـور بمقاومته للاستعمار الأوروبـي في غـرب افريقيا وله بصمـات ظاهرة في الثورة المهديـة في السودان وحركة مهدي الصومال المعروف في المراجع الغربية بالملا المجنون !!

عرفت خليل صابر عندما جاء منتدبا من السلك السياسي ليتولي منصب مدير مكتب الاتصال العام خلفا للإداري حسين شرفي في فترة حساسة من تأريخ السودان زاخرة بالدسائس والمكائـد ، إذ أن المكتب يعتبر الناطق الرسمي باسم الحكومة والمسئول عن علاقاتها العامة ، وتقـع على عاتقه إدارة الإذاعة ومهمة التعامل مع الصحافة المحلية والأجنبية ، بالإضافة إلى الإرث الـذي يحمله المكتب منـذ نشأته الأولى كجهاز للمخابرات . ولم يتخلص المكتب من هذا الإرث حتى اليوم رغم تحوله إلى وزارة مختلفة الأسماء . كان مكتب الاتصال العام تابعا للسكرتـير الإداري قبل إلحاقه بوزارة الشئون الاجتماعية في عهد الحكومة الوطنية . واكتسب خليـل صابـر أثناء عمله في مكتب الاتصال العـام ود وصداقة العاملين في حقل الاعلام لما يمتاز به من دماثة الخلق وهدوء الطبع والابتسامة التي لا تفارقه أبدا . ونقلت لي ابنته السيدة سمـيرة في العـام الماضي نبأ وفاتـه رحمه الله . كان خليل صابر مـن القليلين الذين خدموا السـودان في اخلاصـ ونكران للذات وغادر الحياة في صمت مثلما عمل في صمت لا يطلب جزاء ولا شكورا .

محطة ١٢

* زيارة أزهري لبريطانيا رغم احتجاج المصريين * لماذا تحول الأزهري من الوحدة إلى الاستقلال * وليام لوس مهندس مرحلة الحكم الذاتي * احتدام الخلاف بين الختمية والحكومة الوطنية * زيارة الأزهري إلى الشمالية * إعلان الاستقلال من داخل البرلمان * السودان أول قطر افريقي يتحرر من الاستعمار * سقوط الحكومة الوطنية بعد شهر من إعلان الاستقلال * لقاء السيدين المهدي والميرغني

في أواخر أغسطس ١٩٥٤ شد اسماعيل الأزهري رئيس الوزراء الرحال إلى لندن بدعوة من الحكومة البريطانية . لم تكن مصر كما أبدت صحافتها راضية عن تلك الزيارة ، لكنها فشلت في اقناع الأزهري بالعدول عنها . كان من رأي مصر أن مثل هذه الزيارة تقع في دائرة الشئون الخارجية التي لا تملك الحكومة الوطنية صلاحية مباشرتها كما نصت على ذلك اتفاقية الحكم الذاتي . وهي نفس الحجة التي استندت مصر عليها في اعتراضها على اشتراك الأزهري في مؤتمر باندونغ الذي أسفر عن منظمة عدم الانحياز . وأذكر أنني التقيت قبل ذلك ببضعة أسابيع مع مستر ريتشي المبعوث البريطاني عند مدخل عمارة أبو العلا القديمة وصحبته إلى مكتبه الكائن في العمارة نفسها ، وأسر إلى بأن دعوة وجهت إلى الأزهري لزيارة بريطانيا وأنهم في انتظار رده . وسألت الأزهري عندما قابلته في البرلمان في اليوم نفسه فأكد لي أنه تلقى الدعوة بالفعل وأنه لا يري مانعا في قبولها ، باعتبار بريطانيا طرفاً في الحكومة الثنائية ، ولا يزال عليها دور ينبغي أن تقوم به حتى يتم تقرير المصير .

لكن لا بد من عرض الدعوة أولا على مجلس الوزراء . ووعدني الأزهري بأن أكون أول من يبلغه بالقرار الأخير رفضا أو قبولا . وقد أوفى الأزهري بوعده فكنت أول من نقل خبر قبوله الزيارة وموعدها بالتحديد . وتلقيت رسالة شكر وثناء على ذلك من توم ليتل مدير عام وكالة الأنباء العربية ، وهذه عادته كلما حققت سبقا صحفيا . تمثل زيارة الأزهري إلى العاصمة البريطانية منعطفا تأريخيا خطيرا في مسيرة السودان نحو تقرير المصير وفي حياة اسماعيل الأزهري السياسية . قوبل أزهري والوفد المرافق في لندن بحفاوة بالغة واهتمام شديد ، وألغى رئيس الوزراء البريطاني ووزراؤه المعنيون كل ارتباطاتهم للتفرغ له . كانت المفاجأة الكبرى في الاحتفال الرسمي حين أخرج الأزهري من جيبه الكلمة التي ألقاها متجاهلا الكلمة المطبوعة التي أعدتها سكرتاريته ووضعتها أمامه لإلقائها وتحوي كما علمت من بعض أعضاء الوفد المرافق ، عبارات جارحة لا يليق صدورها من ضيف نحو مضيفه ، فيها ذم للحكم البريطاني في السودان وإشادة بأفضال مصر في الماضي والحاضر والمستقبل . قوبلت الكلمة البديلة التي ألقاها الأزهري بارتياح من جانب البريطانيين واستطاعوا أن يروا من خلالها ضوءا خافتا في نهاية النفق المظلم على الأقل . كان مستر نيكلسون مدير أعالي النيل السابق بين من حضروا الاحتفال الرسمي وهو صديق لابرهيم بدري الذي عمل معه مفتشا لمركز الرنك . لم يعد نيكلسون لبريطانيا نتيجة للسودنة وانما عاد قبلها بقليل بسبب خلاف بينه وبين جيمز روبرتسون السكرتير الإداري الذي طلب منه تقديم خدمات معينة لحزب الأمة . أبدى نيكلسون في رسالته إلى ابرهيم بدري اعجابا شديدا باسماعيل الأزهري وقال إنه أبدى مؤشرات إيجابية في ما يتعلق بمستقبل السودان يأمل أن يعمل الاستقلاليون في السودان والحكومة البريطانية على استثمارها . وأدلى أزهري أثناء زيارته بتصريحات للصحافة وهيئة الإذاعة البريطانية حوت تلميحات يمكن إدراجها تحت بند " عليه" في دفتر حسابات وحدة وادي النيل كالتصريح الذي أدلى به للأستاذ بشير محمد سعيد وجاء فيه ما معناه أن الحكومة الوطنية التي تتولي حكم السودان اليوم لن تسلمه لأجنبي مصرياً كان أم انجليزياً !! ولا أدري ما جرى وراء الكواليس بين الأزهري والمسئولين البريطانيين في لندن .

لكن سير جيلان السكرتير الإداري سابقا قال لي عندما التقيت به في لندن خلال الستينات " إننــا أصبحنــا بعد زيارة الأزهــري على يقين من توجهاته الاستقلاليــة " . لقد أثارت زيارة الأزهــري إلى لندن وتصريحاتــه فيها غضب المصريين الذين كانوا ضــد الزيارة منذ البداية . وأصبــح الأزهري وحكومته الوطنيــة منذ ذلك الوقت هدفا لحملة مسعــورة شنتها الصحافة والإذاعــة المصرية بقيادة الصاغ صلاح سالم . كما أسهمت فيها بعض الصحف في الخرطوم . وتصــدت إذاعة أم درمان للحملة المصرية تحــت إشراف الوزير يحيي الفضلي مباشرة ويعاونه بصفــة رئيسية المذيع أبوعاقلة يوســف والأستاذ عبد الماجد أبو حسبو المحامي ، وكنت أسهم بأحاديــث بين حين وآخر يتم تسجيلها في مقر وزارة الشئون الاجتماعية في الخرطوم في الموقع الــذي فيه عمارة التأمينات الآن . كانت تلك أول تجاربي الإذاعية . ومن ناحية أخرى واجه الأزهــري عداء ليســ أقل ضراوة من جانــب أنصار مصر المتشددين داخــل الحزب الوطني الاتحــادى بينهم وزراء مثل شيخ على عبد الرحمن ومحمد نور الدين ، وكان أعلى الأصوات طبعــا المجموعة المعروفة باسم الدكاترة خريجــي الجامعات المصرية أمثال أحمد السيد حمد ومحيــي الديــن صابر وعقيل أحمد عقيل . ومـما يدعو للاستغــراب أن السياسيين من كبار الختميــة المعروفين بميولهــم الاستقلالية انضموا إلى الناقمين في تلــك الفترة على الأزهري . وربمــا يفسر ذلك بتجدد مخاوف السيد على الميرغني التقليدية . و جاء في تلك الأيام الصاغ صــلاح ســالم إلى الخرطوم في احدي زياراته المكوكية وكان في وداعه في المطار لدي عودته إلى القاهــرة نفر يتقدمهم الدرديري محمد عثمان عضو لجنة الحاكم العام ، ضاربا بعرض الحائط مــا يفرضه عليــه البروتوكول كعضو في المؤسســة الرئاسية الخماسية ، مما أثــار سخطا عظيما واستهجنتــه معظم الصحــف بشدة . وكان يحيي الفضلي حريصا علــى إيراد الخبر في نشرة وكالــة الأنباء العربية . واحتل الخبر نقلا عنها مــكان الصدارة في الصحف المصرية ظنا منها أن فيــه تأكيدا لتمســك الشعب السوداني بوحدة وادي النيل وإدانة لموقف الأزهري الجديد . والســؤال الــذي يتبادر إلى الأذهان تلقائيا هو : لماذا تحــول الأزهري من وحدة وادي النيل إلى الاستقــلال ؟؟ هذه علامة استفهام كبــيرة تشعبت الأراء في الإجابة عليها ، وأول ما أتناوله

منهـا اتهـام الأزهري جورا وبهتانا بالعمالة لبريطانيا وبيعه السودان لها . وهذا اتهام طالما ردده دعـاة وحدة وادي النيل في مصر والسودان من قبـل ضد أنصار الاستقلال منذ تبلور الحركة الوطنيـة بين الاتجاهـين ، وطال في من طال الحزب الجمهوري الاشتراكي المفترى عليه نتيجة دوافـع واستنادا إلى حيثيات أبعد ما تكون عن الواقع . وأنا أعلم الناس بها بحكم موقعي في الحزب المذكور . وإذا كان اتهام الأزهري بالعمالة لبريطانيا من هذا الضرب من حيث الدوافع والحيثيات فإنه اتهام باطل جملة وتفصيلا ، ليس هناك ما يؤيده إذا استرجعنا تأريخ الأزهري في الحركـة الوطنيـة ومواقفـه المشهودة ضد البريطانيـين . بل إن الأزهـري لم يخف مشاعره المعاديـة لهـم حتى يوم إعلان الاستقلال حين ألقي كلمتـه التأريخية التي حمل فيها على البريطانيـين ودمغهم بالطغاة الذين ساموا أهل السودان الهوان والإذلال طيلة سبعة وخمسين عامـا . ولا أميل إلى القائلين بأن الأزهري وأقرانه اتخـذوا من العمل للوحدة مع مصر ستاراً للتخلص من البريطانيين في السودان . هذا إدعاء ساذج أثبتت عقمه حركة ١٩٢٤ التي أدت إلى نقيضـ مـا دعت إليه ونجم عنهـا توطيد أقدام البريطانيين في السـودان واجتثاث ما كان لمصـر فيه من وجود عسكري ومدني بدلا من اندماجه مع مصر تحت تاج الملك أحمد فؤاد . وهنـاك آخرون يرون أن ما حدث للـواء نجيب في مصر من عزل واعتقال على يد عبد الناصر كان سببـا في تحـول الأزهري والرأي العام في السودان بوجه عـام إلى نبذ الوحدة وإلى اختيار الاستقـلال . وهـذا جائز لكنه لا يمثل غير جزء ضئيل جدا من الحقيقة . فالعلاقة بين اللواء نجيـب والأزهري كانت ضعيفة وليسـ أدل على ذلك من أن اللواء نجيب لم يشركه أو يشرك أيا من قيادات حزب الأشقاء في المجموعة التي عهد إليها بتأليف الحزب الوطني الاتحادي . كان اللـواء نجيـب أقـرب إلى الإمـام عبد الرحمـن المهدي مـن سائر الزعمـاء السياسيين السودانيـين ، وكل منهما مفرط في إعجابه بالآخر ، وبينهمـا ود متبادل لم تفسده الخلافات السياسية . لكي نستكشف سر ذلك التحول المصيري نبدأ بإلقاء الضوء على بعض الجوانب في شخصيـة الأزهـري . ينتمي اسماعيل الأزهـري إلى أسرة دينية عريقـة . وجده لأبيه – الـذي سمـي عليه – الشيخ اسماعيل الولي تتلمـذ في أول حياته على السيد محمد عثمان

الميرغنـي وأخذ عنه علوم الديـن والصوفية كما انخرط على يديـه في الطريقة الختمية . ولما اشتـد ساعد الشيخ اسماعيل الـولي وسنحت الفرصة له أخذ " استقلالـه " فأنشأ الطريقة الإسماعيليـة المنسوبـة لاسمه والمعروفة حتى اليوم . ولا عجـب في سير الأبناء على خطى آبائهـم ؟ وقد جاء في أمثالنا السودانية : ألفي والدك يقالدك . . . وابن الوز عوام!! ويقول مثل آخـر : الاسـم يجـر!! وأوجه المقارنـة واضحة لا تحتاج إلى شـرح وتفصيل ومـا أشبه الليلة بالبارحـة . وعرف الأزهـري بألقاب عديدة بعضها من ورائه والبعض يخاطب به دون حرج . عبد الحليم على طه يلقبه في شعره بزاهر وآخرون يدعونه أبو الزهور . غير أن لقب ﴿صاحب الرئاسـات﴾ أكثر ألقاب الأزهري شيوعاً أطلقه عليه الهادي أبوبكر تعبيراً عن حب الأزهري للرئاسـة وولعه بأن يكـون الرئيس على كل شيئ ، فهو رئيس للمؤتمـر ولحزب الأشقاء ووفد السـودان في القاهرة ثم رئيس للحزب الوطني حتى انتهـي به المطاف رئيساً للوزراء ثم رئيساً لمجلـس السيادة . ولا ينكر أحـد أنه وصل إلى منصب رئيس الـوزراء بفضل احتضان مصر للحـزب الوطنـي الاتحادي ودعمها له بمالهـا ونفوذها في انتخابات برلمـان الحكم الذاتي من أجل وحدة وادي النيل . وما درت مصر أن العشماوي تسلم وحدة وادي النيل لشنقها حتى المـوت منـذ أن تسلم الأزهري بعونها مقاليد الحكم!! وما حدث في مصر في عهد الثورة كفيل بـأن يثير مخـاوف الأزهـري فهوبطبعه ديمقراطـي يرفض الحكومـات العسكريـة السلطوية الشموليـة . ولعلـه الوحيـد من قـادة السودان الـذي اتخذ موقفـا معاديا ضـد الانقلابين العسكريـين اللذيـن عاصرهما : انقلاب ابرهيم عبود ثم جعفر النمـيري . حكومة الثورة في مصـر حلـت الأحزاب وعزلت عـن الحياة السياسيـة كل القيادات المدنيـة أمثال مصطفي النحاسـ وعلي ماهر وعبـد الرزاق السنهوري وفـؤاد سراج الدين ونجيـب الهلالى ومرتضي المراغـي وحسـين سري وعبد الرحمن عـزام والهضيبي مرشد الأخـوان المسلمين . كل هذه الأسمـاء عرفها الأزهـري في مرحلة النضال وكانت سندا له خـلال مقامه في القاهرة رئيسا لوفـد السودان . ومـن الطبيعي أن يثير كل ذلـك مخاوف الأزهري صاحـب الرئاسات فما جـرى في مصـر يمكن أن يجري في السودان في ظل وحـدة وادي النيل . وحينذاك لن يكتب

البقاء لسائر الأحزاب السودانية ولن ينجو الساسة المدنيون وهو منهم من مصير رصفائهم في مصر .وعلى صاحب الرئاسات إذا تحققت وحدة وادي النيل الاقتناع في أحسن الحالات بلقب جديد (المواطن الأول) مثلما حدث للزعيم السوري شكري القوتلي في ظل الجمهورية العربية المتحدة . هكذا أصبح اختيار الاستقلال أو وحدة وادي النيل بالنسبة للأزهري مسألة حياة أو موت أو على حد تعبير شكسبير : أن تكون أو لا تكون !! . ولكي تكتمل الصورة ينبغي أن نرجع إلى الوراء لنقلب صفحات التأريخ المعاصر . أظهرت مصر عند قيام مؤتمر الخريجين قدرا كبيرا من الشكوك والارتياب وصرح الأميرعمر طوسون بأن المؤتمر حركة من صنع البريطانيين القصد منها انفصال السودان عن مصر . والأمير طوسون من أقرب المصريين للسودان وأكثرهم إلماما بشئونه وقضاياه . وشاركه في رأيه يومذاك معظم الساسة المصريين . وفي الحقيقة أن الخريجين لم يظهروا عند نشأة المؤتمر أي اتجاه نحو مصر وظل التفاهم بينهم وبين الإدارة البريطانية في الخرطوم قائما إلى أن رفض الإداريون البريطانيون في لؤم وازدراء مذكرة المؤتمرالمشهورة في أواخر عام ١٩٤٢ . كانت المذكرة في غاية الاعتدال وأدي رفضها إلى انشقاق كبير في صفوف الخريجين فانقسموا إلى فريقين اتجه أحدهما بزعامة اسماعيل الأزهري نحو مصر للعمل معها على تحرير السودان من السيطرة الاستعمارية البريطانية تحت شعار وحدة وادي النيل تحت التاج المصري ، وهو الفريق الذ ي عرف في ما بعد باسم حزب الأشقاء ، بينما أنشأ الفريق الثاني حزب الأمة الداعي لاستقلال السودان تحت رعاية الإمام عبد الرحمن المهدي وشعاره " السودان للسودانيين " . وشهدت انتخابات قيادة المؤتمر عام ١٩٤٣ تنافسا عظيما بين حزبي الأمة والأشقاء خرج منها الأخير بأغلبية ساحقة . وكان أول قرار أصدره المؤتمر يدعو لقيام حكومة سودانية في اتحاد مع مصر تحت التاج المصري . وأصبح هذا القرار مبدأ أيضاً لحزب الأشقاء دون توضيح لنوعية الاتحاد أو تحديد صلاحيات الحكومة السودانية وسلطاتها . كما أصبح مبدأ نص عليه دستور الحزب الوطني الاتحادي الذى انضوت تحت لوائه الأحزاب الاتحادية الأخرى بما فيها حزب الأشقاء ، وعين الأزهري رئيسا له . هكذا كان موقف الأزهري وحزبه عندما خاضوا

انتخابات برلمان الحكم الذاتي في عام ١٩٥٣ وخرجوا منها بأغلبية مطلقة **أهلتهم لتأليف أول** حكومـة وطنيـة . لم يظهر الحـزب الوطني الاتحادي قبـل تلك الانتخابـات وخلالها وبعد تشكيـل حكومتـه الوطنية أية بادرة توحي من قريب أو بعيـد بتخليه عن مبدئه المتمثل في وحدة وادي النيل .

ذهبت لزيارة الأزهري بعد أيام من عودته من لندن ومعي النائب محمد صديق طلحة والملـك ود ناصر ناظر الجموعيـة لتهنئة الأزهري بسلامة العودة . وتحـدث طلحة عن إجماع الشعب علـى الاستقلال وترحيبه بتصريحات الأزهري في بريطانيا التي جاءت متجاوبة مع ذلـك الإجمـاع ومعبرة عـن إرادة الشعب . ورد الأزهري عليه قائـلا : ياشيخ محمد إن من يـذوق طعـم الحرية لن يفرط فيها لأحـد "بس ما تنسونا من دعواتكـم الصالحات " . وقال الأزهـري مجيبـا على سؤالي إنه ليس في حاجة إلى من يدفعه لتأييد استقلال السودان فهذه إرادة الشعب وإنه ذهب إلى لندن مقتنعا به اقتناعا تاما وكل ما كان يرجوه من البريطانيين ليس أكـثر من تأمين حقنا في تقرير المصير ، وتمهيـد الطريق لتحقيق طموحاتنا في يسر واطمئنان ، بوصفهـم طرفـا في الاتفاقية ومن قبل طرفا في معاهدة الحكم الثنائي . ولم ينس الأزهري وهو يودعنـا أن يقـول لي مداعبا : يا أستاذ أنتم السابقـون ونحن اللاحقون!! ورددت عليه مداعبا أيضاً : لولا أنك أستاذي لقلت أخشى أن أكون " الحوار اللي غلب شيخو " . ولعل كثيرين قد لا يصدقـون أن الأزهري محـب للنكتة يجيد حياكتها وصياغتها مثلما يحسن الاستماع لها والضحـك منهـا حتى وإن كانت عليه . غير أن كل ذلك تحجبه فروض الزعامة والرئاسة عن الأسماع والأنظار إلا في القليل النادر أو في معية نفر محدود من خلصائه مثل زميلنا الصحفي الساخر دائما على حامد الذي نصحني مرة بأن أختتم أي لقاء مع الأزهري بنكتة لا أكملها حتى أضمن لقاءه مرة ثانية لأجده متلهفا لسماع باقي النكتة . واكتشفت من خلال التجربة أنها نصيحة صادقة ولو أني لم ألجأ إليها كثيرا فقد كنت أعتمد في ترتيب لقاءاتي مع الأزهري في بيته أو مكتبه – وبتوجيه منه– على سكرتيره أحمد حسين الرفاعي أو محمد صالح داؤود

تابعه الملازم له على مدار ٢٤ ساعة تقريبا وهو ممرض في الأصل ، ترك التمريض كي يتفرغ لخدمة الأزهري في تفان واخلاص .

اكتفي الأزهري بعد عودته من لندن بالتلميحات ولم يجاهر بتوجهاته الاستقلالية الجديدة . بدأ بتصريحات أعرب فيها عن تطلعاته إلى علاقات بين مصر والسودان تقوم على أساس الندية ، أشبه بعلاقات مصر مع الدول العربية في إطار الجامعة العربية . ثم جاهر الأزهري بتأييده للاستقلال في تصريح أدلى به بعد ستة أشهر تقريبا من زيارته لبريطانيا لصحيفة صوت السودان الناطقة باسم طائفة الختمية بدلا من صحيفة العلم الناطقة باسم الحزب الوطني الاتحادي التي كانت خاضعة للهيمنة المصرية . وكان غرض الأزهري من إيثار صوت السودان تعبئة جماهير الختمية للاستقلال واجتذاب مجموعة ميرغني حمزة للعودة إلى الحزب الوطني الاتحادي بعد انشقاقها عنه رافعة راية الاستقلال .تضم هذه المجموعة صفوة كبار القيادات السياسية المعروفة بولائها للسيد على الميرغني أمثال الدرديري محمد عثمان وخلف الله حاج خالد ومحمد الحسن دياب ودكتور سيد أحمد عبد الهادي ،وانضم إليهم محمد أحمد أبوسن وبعض رجالات الإدارةالأهلية . ولم يكن مستغربا بعد تصريح الأزهري في صوت السودان أن تزداد الحملات المصرية ضده احتداما وأن تقترن بمكائد ومؤامرات في الخفاء للإطاحة بالحكومة الوطنية . وما يدعو للاستغراب حقا نشوب عداء سافر بين قيادة الختمية والأزهري أو بالأحري بينها وحليفها القديم : معسكر الأشقاء المهيمن على الحزب الوطني الاتحادي والحكومة الوطنية . ترى هل عاودت الميرغني مخاوفه القديمة من الأنصار ؟ لا أدري ولكن هذا أقرب الاحتمالات . وينسب إلى بريطاني عمل في السودان في عهد الحكم الثنائي قوله : إن ما يجري في السودان لا يمكن أن يتنبأ به إلا نبيا أو غبيا!! ولعل المقصود بهذا القول السيد على الميرغني فهو رجل غامض مغلق العواطف يعيش في عزلة يخرج منها نادرا ليصدر بيانا مقتضبا يختار كلماته وحروفه بدقة بالغة دون زيادة ، وربما يعتور البيان نقصان مقصود أحيانا . وغاية القول أن

السيد على الميرغني ظاهرة فريدة في حياتنا السياسية لا تزال في حاجة إلى دراسة مركزة ومكثفة ، وياحبذا لو عهد بها إلى عصبة من أساتذة أجلاء في علوم الاجتماع والدين والفلك والفلسفة والسياسة . وكل ما أستطيع قوله أن الأزهري ليس ملوما في نشوب صراع مع الميرغني في تلك المرحلة يعلم أنه ليس من مصلحته . كان الصراع شرسا فاجرا طالما خرج الفريقان فيه عن حدود اللياقة وتبودلت فيه الشتائم والعبارات الجارحة مما لم تألفه الساحة السياسية في السودان من قبل . وقيل إن السيد على الميرغني أبدى ندمه لما لحقه من أذى مباشر هتك الأستار وأحدث شروخا وخدوشا لا سبيل لرتقها في هالة القداسة والوقار المحيطة به . وكان فارس الحلبة بلا نزاع يحيى الفضلي المعروف بدينامو الحزب وهو خطيب مفوه جرىء إمتلك ناصية البيان وأسرار البلاغة . خرج الفضلى يومذاك على الناس بعبارات في حق الميرغني أضحت كالأمثال السائرة في أدبيات الحركة الوطنية مثل : يا مددم باكر تندم!! وهزيمة القداسة على أعتاب السياسة !! . وطلب يحي الفضلي مني في تلك الأيام الاشتراك بكلمة في ليلة سياسية يقيمونها في الخرطوم بحري عند عتبة دار الميرغني على حد تعبيره . اعتذرت تجنبا لاحراج وكالة الأنباء العربية ، واقترحت على الفضلي أن يشركوا في مكاني الشاعر أحمد محمد الشيخ الملقب بالجاغريو . ولم يكن الفضلي ذا صلات واسعة مع الوسط الفني على عكس غيره من زملائه ، لذلك طمأنته على أن الجاغريو سيكون قنبلة مجنونة تنسف الخرطوم بحري كلها لا حلة خوجلي وحدها . والجاغريو صديق حميم كنا نسمر معا بانتظام في بيت معشوقته المجاور لنا في حي الشيخ دفع الله ، نظم فيها العديد من أشعاره الغزلية ، لا يذكر اسمها مكتفيا بالتورية ، فيقول تارة " اسمك يسود الكل " وتارة أخرى " أكسر لي اول حرف واللام عليهو سكون " . وهذه تورية نصف مكشوفة على الأقل . وعلي عشاق الكلمات المتقاطعة أن يحلوا اللغز!! وفي هذه المعشوقة نظم الجاغريو أغنية " طار قلبي " معبرا عن حزنه لفراقها عندما تزوجت معشوقته قريبا لها سافر بها إلى كردفان . وجاء اليوم الموعود فاقيمت الليلة السياسية في الخرطوم بحري في موقع غير بعيد من مساكن الميرغني . وتعاقب خطباء

الوطني الاتحادي على المنبر : الأزهري ويحيى الفضلي ومبارك زروق وعبد المنعم حسب الله وآخرون . ثم جاء دور الجاغريو فاعتلي المنبر ، وخلع عمامته وأمسكها بيده اليسرى كعادته ، ثم انبرى منشدا القصيدة التي أعدها لذلك اليوم فهاجت الجماهيرالحاشدة وعلا هتافها ممتزجا بزغاريد النساء وارتجت الأرض حتى كادت أن تميد . كان الجاغريو نجم الليلة واكتسح كل الخطباء .وكزني يحيى الفضلي الذي كنت جالسا بجواره ليهمس في أذني مندهشا : يا خي صاحبك ده قنبلة ذرية من أين جئت به ؟؟ واتجه الجاغريو من المنبر صوب الأزهري الذي نهض واقفا وحياه بحرارة ثم قبله على رأسه وسط تصفيق الجماهير وهتافها المتواصل . وأكثر ما أعجبني في القصيدة وألهب مشاعر الجماهير تصوير الجاغريو لجشع الطائفية وأطماعها وتحكمها في حياة الخلق وأرزاقهم .من أبيات القصيدة :

نحن رفعنا أعلاما وطردنا عدوها ونحن بنينا استقلالا يوم هابوها

لامن شلنا نارا . . . . بيدورو ياكلو حلوها

لابدين في الضلام لامن حلت ختفوها الضللو العباد أعصابم فقدوها

جنة ربهم كلها بالمتر باعوها أكان الدولة بمال الحرام ياخدوها

ناس هاو وعمهم ما تقنعوا وفاتوها

ثم التفت الجاغريو وأشار نحوي بيده مخاطبا :

أنا ونت والدين والوطن رابعنا من قومة الجهل حاشانا ما تخلعنا

لي سابع سما غير سلم نحن طلعنا والزارعنا غير الله اليجي يقلعنا !!

في البيت قبل الأخير إشارة لشعار الحزب الجمهوري الاشتراكي " الدين لله والوطن للجميع "

وليـام لوس واحد من أفذاذ الإداريين البريطانيين الذين سعد السودان بهم خلال فترة الحكـم الثنائي . وهو في رأي من عرفوه مهندس المرحلة التي بدأت بالحكومة الوطنية بزعامة الرئيس اسماعيل الأزهري وأفضت بنا إلى الاستقلال في آخر المطاف . تخرج وليام لوس من جامعـة كامبريدج التي درس فيها التأريخ الحديـث واللغات الحية المعاصرة والتحق بالسلك الإداري في السـودان عـام ١٩٣٠ وعمره آنذاك ٢٣ عاما . وعمـل وليام لوس مفتش مركز في بربر ودارفور والاستوائية والنيل الأزرق التي أصبح مديرا لها ، ونقل منها في أول عهد الحكم الذاتي ليكـون مستشارا للحاكم العام البريطاني في الشئـون الدستورية والسياسة الخارجية . وبقـي في هـذا المنصب حتى إعـلان الاستقلال فغادر السودان ليصبـح حاكما لعدن حيث أمضـى نحو أربع سنـوات ، نقل بعدها حاكما مقيما للخليج . بقـي هناك حتى عام ١٩٧٠ ليصبـح مستشارا للخارجيـة البريطانية لشئون الخليج العربي . توفي سـير وليام لوس في عام ١٩٧٧ ونعـاه صديقـه الشيـخ زايـد آل نهيان بقولـه : " لقد خدم العـالم العربي باخلاص وحماسـة وكأنه وطنه مستوعبا مشـاكل العرب وتطلعاتهم " . ولم تنقطع خدمات وليام لوس الجليلـة للسودانيين حتـى بعد الاستقلال ، وما زلنا نجني ثمرات ذلـك حتى اليوم إذ يرجع الفضـل لـه أثناء خدمته في الخليج العربي في تدفق العمالة السودانية على المنطقة من فنيين وخـبراء وعمال في مختلف المجـالات . عمل وليام لوس علـى استجلابهم مقدما لهم على العـرب الآخرين . عرفته أول مـرة عندما كان مديرا للنيل الأزرق حيث التقيت به في مدينة ود مـدني مع الشيـخ عثمان على أحد رجال الإدارة الأهلية في أمـر يتعلق بتقسيم الدوائر ، استعدادا لانتخاب برلمان الحكم الذاتي . دعانا وليام لوس لتناول الشاى في منزله عصر ذلك اليوم .اكتشفـت أنه من المهتمين بالظواهـر الخارقة للطبيعة وخاصـة الورائيات الغيبية التي تعـرف في علم النفـس الحديث بتبادل الخواطـرTELEPATHY . ولما علم أني رباطابي حكـي لنـا طرائف وقعت له مع الرباطاب أثناء عمله مفتشا في مركز بربر ومنها أنه خرج مرة في حملـة تطعيـم ضد الجـدري . وجدوا إحدي القـرى خالية من الأطفـال وأقسم العمدة المرافـق لهم علـى عدم وجود أي طفل فيها . لكن وليام لوس لاحظ حركة تحت قفة كبيرة

مقلوبة تحت شجرة دوم ، ولما رفعت القفة وجدوا تحتها فتاتين وصبيا في نحو الثانية عشر من عمره في حالة رعب شديد . تم تطعيم الفتاتين أما الصبي فقد أطلق ساقيه للريح . ولما كاد الشرطي أن يلحق به رمى الصبي بنفسه في النهر وعبره سابحا إلى الضفة الأخرى . وأحضر العمدة المكسوف من كذبته الصبي الهارب آخراليوم وتم تطعيمه ضد الجدري . ويخاف الرباطاب على أطفالهم من التطعيم ضد الجدري الذي كان يظهر في ديارهم من حين لآخر ويعملون دائما على اخفائهم عن أعين حملات التطعيم . وتوطدت صداقتي مع وليام لوس عند قدومه إلى الخرطوم مستشارا للحاكم العام . واعترف بأن صداقتي معه بددت أية شكوك في نفسي حول صدق النوايا البريطانية نحو السودان ، المتمثلة في السير به قدما خلال مرحلة الحكم الذاتي حتى يبلغ الاستقلال التام . وكنت أراه يعمل - كما قال الشيخ زايد - في صدق واخلاص من أجل السودان وكأن السودان صار وطنا له مثل بريطانيا أو في مكانتها . ومن حق الناس أن يعيبوا اعترافي هذا لو أن الأحداث أثبتت عكس ذلك ولم ينل السودان استقلاله . أو لو أن وليام لوس سخر دوره كمستشار للحاكم العام لتقليم أجنحة الحكومة الوطنية وتعطيل مسيرتنا نحو الاستقلال ، وقد واتته الفرصة مرتين لتنفيذ ذلك بإعلان الانهيار الدستوري أولاهما أحداث أول مارس والثانية التمرد في الجنوب . كان في الحالتين مستشارا أمينا نصح الحاكم العام رغم موقف الحكومة البريطانية والإداريين البريطانيين في الخرطوم من أحداث أول مارس ورغم دعوة الحكومة المصرية لإعلان الانهيار الدستوري في أعقاب التمرد في الجنوب . و لا يعلم الكثيرون أن وليام لوس قام بدور حمامة السلام في كل الأزمات التي نشبت بين الحكومة الوطنية والموظفين البريطانيين الذين طالتهم السودنة . كانت كل أزمة تنتهي بما فيه خير السودان مما أوغر صدور بعض الموظفين البريطانيين على حمامة السلام . وقد اكتشفت الحكومة الوطنية بعد أشهر قلائل من توليها الحكم ما اكتشفته قبلها في وليام لوس فاطمأنت إليه وأولته ثقتها . كيف يعاب على مثل هذا السبق . أين المنطق وأين العدالة والإنصاف ؟؟ دع الناس يقولوا ما يقولون إن كان عن جهل فليغفر الله لهم وإن كان عن حسد فإن بيني وبينهم المعوذتين

والسبع المثاني . إ ننني لا أنكر دور الحزب الوطني الاتحادي بزعامة الأزهري الذي كان له فضل التوقيع على شهادة وفاة الحكم الأجنبي وشهادة مولد السودان الحر المستقل . غير أني لا أغمط في الوقت نفسه حق الآخرين ممن أسهموا في تحقيق الاستقلال . دعوني أكتب عن تلك الحقبة المفصلية في تأريخ السودان لا كشاهد على العصر فحسب وإنما كمشارك متواضع في أحداثها أيضاً . المكان بيت وليام لوس الكائن في موقع تشغله الآن وزارة الخارجية . والزمان لا أذكره على وجه التحديد لكنها كانت ليلة ماطرة مما يوحي بفصل الخريف بعد أسابيع قليلة من زيارة الأزهري رئيس الوزراء لبريطانيا . اصطحبني الناظر سرور رملي في تلك الليلة لزيارة وليام لوس وانضم الينا بعد نحو ساعة مولانا محمد أحمد أبورنات رئيس القضاء . دار نقاش بيننا حول كيف يتم تحقيق استقلال السودان ؟؟ . لقد نصت الاتفاقية بين مصر وبريطانيا على انتخاب جمعية تأسيسية لتقرير مصيرالسودان ، يجري انتخابها استجابة لقرار يصدره برلمان الحكم الذاتي ، يعرب فيه عن رغبته في اتخاذ الترتيبات اللازمة لتقرير المصير . ويقوم الحاكم العام باخطار الحكومتين المصرية والبريطانية بالقرار . ثم تقوم الحكومة الوطنية على ضوء ذلك بوضع قانون لانتخاب الجمعية التأسيسية في موعد أقصاه الحادي والثلاثين من ديسمبر عام ١٩٥٥ . غير أن الحزب الوطني الاتحادي لم يكن ميالا للجمعية التأسيسية ويشاركه في ذلك حزب الأمة ولكل منهما دوافعه . وهكذا وتبعا لذلك أصدر البرلمان بالإجماع قرارا يقضي باجراء استفتاء شعبي بدلا من الجمعية التأسيسية . كان هنالك خوف من أن تفعل مصر ما فعلته في انتخابات برلمان الحكم الذاتي فتكتسح انتخابات الجمعية التأسيسية أو الاستفتاء لتأتي النتيجة مؤيدة لوحدة وادي النيل . لقد كان جمال عبد الناصر في أوج شعبيته ونفوذه يخشاه الجميع وكانت وراءه أجهزة دعائية مسموعة ومقروءة ضارية لا تقاوم ، تخشاها كل الحكومات العربية وتعمل لها ألف حساب . ولن يتوانى عبد الناصر في انفاق أضعاف ما أنفقته مصر من قبل لتحقيق وحدة وادي النيل . وينسب لصلاح سالم في تلك الأيام تصريح قال فيه إنه لن يتردد في قطع عشرة ملايين جنيه من أقوات الشعب المصري لتحقيق وحدة وادي النيل . هكذا بدا

الموقـف مدار نقاشنـا في تلك الليلة الماطـرة في بيت وليام لوس الذي طـرح رأيا جديدا نال استحساننـا وهو أن يقوم برلمان الحكم الذاتـي بممارسة تقرير المصير معلنا الاستقلال طالما أن هنالـك إجماعا عليه ، وطالمـا أن البرلمان الممثل الشرعي لكل السـودان . ولا يرى غير ذلك ترياقـا مضادا لهزيمة أية مخططات مصريـة . وقال وليام لوس في سياق النقاش إنه لا يري ما يدعـو مصر وبريطانيا للوقـوف ضد إرادة شعب السودان إذا اتخـذ البرلمان مثل هذه الخطوة . وطلبـت مـن وليام لوس كعادتي دائما أن يأذن لي بنقل ما قاله إلى اسماعيل الأزهري رئيس الـوزراء . فـرد على قائلا : " هذا ما كنت سأطلبه منك لـو لم تسبقني إليه " . أمضيت تلك الليلـة بسبـب الأمطار في بيت الناظر سـرور رملي بالقرب من مستشفـي الخرطوم .وذهبت مبكرا في الصباح إلى مجلس الوزراء . لبثت منتظرا وصول الازهري – في ضيافةأحمد أفندي الطاهـر أمـين المجلس وهو من أهالى توتي عرفته منـذ كان باشكاتبا للمديرية في الدامر أثناء سجنـي هناك . لمـا وصل ركب الأزهري كنت في انتظاره أمام بـاب مكتبه فحييته وقلت له ردا علـى استفسـاره إن لدي أمـرا مهما جئت من أجله في هذه الساعـة المبكرة . نقلت إلى الأزهـري رئيـس الوزراء كل ما دار من نقاشـ في الليلة السابقة وكيـف أن وليام لوس يرى إعـلان الاستقلال من داخل البرلمان بدلا من الاستفتاء أو الجمعية التأسيسية . وبدا لي من استفسارات الأزهري التي ما كنت أملك الرد على بعضها أنه مرتاح للفكرة . وقال لي في ما قال إنها فكرة خطيرة لم نقدم عليها من قبل لأنها تتطلب إجراء تعديل جذري في الا تفاقية ونأمـل أن تكون هذه سياسة الحكومة البريطانية لا رأي وليام لوس وحده . وسلمت الأزهري في غضـون يومـين مذكرة طلبها منـي إذ لم يكن أحد معنا لتدوين مـا نقلته إليه . وضمنت المذكـرة ايضاحـات لبعض استفساراته رجعت فيها إلى وليـام لوس . ومن تلك الإيضاحات أن الحكومـة البريطانيـة بوصفها طرفـا في الاتفاقية والحكم الثنائي لا تـزال متمسكة بحق الشعـب السوداني في تقرير مصيره . ولا تـرى أن لمصر أو بريطانيا ما يدعوهما للاعتراض إذا التقـت إرادة الشعب السوداني ممثلة في برلمانه علـى ممارسة تقرير مصيره عبر البرلمان . وسوف تجـد الحكومـة المصريـة نفسها في حالـة اعتراضها في موقـف يصعب الدفـاع عنه . وكلف

الأزهـري مبارك زروق زعيم الأغلبية ووزير المواصـلات بمتابعة الأمر مع وليام لوس . ولا علم لي بتفاصيـل مـا جرى بعد ذلـك إلى أن بلغ الأمـر نهايته المعروفة . وشهـدت تلك الأيام اشتـداد الحملات المصرية ضـد الأزهري وحكومته الوطنية ،كما بدأت في الوقت نفسه بوادر الانشقاقـات في الحزب الوطني الاتحادي .وهي انشقاقات متوقعـة في حزب ضم منذ نشأته متناقضـات لا يمكـن بقاؤها مدة طويلة خبيئـة تحت البساط الذي أسـدل عليها في مكتب اللـواء نجيـب في القاهرة . لقد ضم الحـزب الوطني الاتحادي أشتاتا مـن الأفكار والاتجاهات العربيـة القوميـة والاشتراكية والاستقلالية . كما ضم الوحدويـين وهم خشوم بيوت عديدة متنافـرة تـتراوح بين الاندماج مع مصر اندماجا كاملا والاتحـاد معها على درجات متفاوتة . وأخطـر مـا في تلك الانشقاقـات أنها تزامنت مع جفـوة حادة متنامية بـين الميرغني زعيم الختمية ومعسكر الأزهري داخل الحزب الوطني الاتحادي . ولا أدعي أني نبي أو غبي لكني أقـول في تحفظ شديد إن السيد علـى الميرغني كان في تلك المرحلة أميل إلى موقف المصريين مـن كيفيـة ممارسة تقرير المصـير . لم يجاهر كعادته بتأييده لوحـدة وادي النيل لكنه كان في منتصف الطريق إليها .

قام الأزهري بجولته الماراثونية من الخرطوم إلى آخر حدود المديرية الشمالية ، واصطحبته فيهـا بناء على رغبته . قال لي إنه حريص علـى مرافقته لأن وكالة الأنباء العربية هي نافذة السودان الوحيدة على العالم التي يمكن أن تنقل للعالم مدى شعبيته والتفاف الجماهير حوله . أدركـت أن له غرضا آخر من اصطحابي . واللبيـب بالإشارة يفهم!! اعتذر المكتب الصحفي في رئاسـة الوزراء عـن إرسال سيارة لاحضاري في السادسة صباحـا من أم درمان للانضمام لموكـب الرئيـس ، وكان مقررا أن يتحرك من أمـام مقر مجلس الـوزراء في السابعة صباحا . وتـدارك صديقي الرفاعـي الأمر فأرسل لي سيارة في موعد مناسب . وتحرك الموكب في موعده المحـدد تتقدمه سيارة الأزهري . وعندما تجاوز الموكب الخرطـوم بحري إلى الطريق غير المعبد تـولي قيادته دكتور عبد القادر مشعال بسيارتـه الأمريكية الفارهة . لم يكن هنالك أي طريق

مسفلت شمالي الخرطوم بحري على عكس ما نراه اليوم من طرق مسفلتة كانت حلما في ضمير الغيب حينذاك . ولا شك في أن الموكب كان في حاجة يومذاك لدليل كالدكتور مشعال له خبرة بمعالم الطريق من صخور ورمال وخيران ومنحدرات فهو طالما سلك هذا الطريق مراراً في رحلاته المكوكية بين مقر عيادته في الخرطوم وشندي مسقط رأسه . خرجت الجموع الحاشدة لاستقبال الموكب بهتافاتها وطبولها وبالذبائح في القرى على طول الطريق حتى بلغنا حوش بانقا ، فألفينا عند مدخلها صفا طويلا من الخراف والعجول الذبيحة يتوسطها جملان ذبيحان . خاطب الأزهري الجماهير الحاشدة وأعقبه خطباء آخرون داعين كلهم إلى الاستقلال وعدم الانقياد للطائفية . كانت تلك المرة الأولى التي أري فيها حوش بانقا التي طالما طربنا لحسن عطية وهو يغني " قعدة وقهوة في حوش بانقا " . التقيت وسط الجماهير الحاشدة مع عدد من رفاق السجن في الدامر منهم عبد العاطي الذي كان يتولى نظافة العنبر رقم ١١ بما في ذلك المرحاض المتنقل وهو عبارة عن جردل كبير لقضاء الحاجة ، يحضره عبد العاطي إلى العنبر مساء ويرجعه صباحا . وساقني عبد العاطي إلى " حوش الملك " المسكن الذي كان يقيم فيه الملك فرح عمدة الرباطاب ، خلال منفاه الذي حكم به الإنجليز عليه لكراهيته لهم ورفضه في إباء وكبرياء السفر إلى بورتسودان لمقابلة جورج الخامس " مليكهم الكافر " على حد تعبيره . مكث الملك فرح في المنفى إلى أن توفي ونقل جثمانه إلى أبوحمد بالقطار في صالون مدير عام السكك الحديدية ، إكراما لعمنا يوسف تكونة الذي قام بدور كبير في أعمال مد الخط الحديدي في أول عهده من حلفا إلى داخل السودان لخدمة الجيش الفاتح بقيادة لورد كتشنر . كانت فرحة عبد العاطي كبيرة عندما قدمته إلى الأزهري والوزراء المرافقين ذاكرا أفضاله علينا في سجن الدامر . وصافحوه جميعا معربين عن تقديرهم له . وجدنا في انتظارنا في حوش بانقا " ذهبية المديرية " التي أقلتنا في رحلة نهرية إلى شندي ، استمتعنا خلالها بجمال ضفتي النيل حيث الخضرة التي تبعث البهجة في النفوس ، وانعكاسات أشجار النخيل والسنط على صفحات الماء . تناولنا وجبة غداء متأخرة على ظهر الذهبية ، وجبة شهية من اعداد مصلحة المرطبات ختامها أطباق من الفاكهة . تناول الأزهري قطعة

موز – فاكهته المفضلة – وأخذ يحدثنا بعيدا عن السياسة عن الموز وقيمته الغذائية وخصائص قشوره الواقية التي لا تنفذ من خلالها الجراثيم . لكننا في السودان نقص طرفي قطعة الموز قبل وضعها على المائدة ، مما يعرض باطنها للتلوث بجراثيم ضارة يحملها الهواء أوالذباب . وقد كففت منذ ذلك اليوم عن تعاطي الموز مقصوص الأطراف ، ولعل آخرين من الحاضرين فعلوا ذلك . وفي شندي احتشد عشرات الآلاف من أهل المدينة وضواحيها لاستقبال الرئيس الأزهري وصحبه . هتافات عالية وطبول داوية وزغاريد مجلجلة . وامتلأت المدينة يومذاك بصور الأزهري واللافتات عليها شعارات الاستقلال وتمجيد الحزب الوطني الاتحادي ورئيسه الأزهري ، إلى جانب لافتات تنادي بسقوط الاستعمار . وأقيمت ليلة سياسية صاخبة في المساء تعاقب على الخطابة فيها قادة الوطني الاتحادي المرافقون : مبارك زروق ويحيى الفضلي ومحمد أحمد المرضي وعبد المنعم حسب الله ودكتور مشعال ، ومن القادة المحليين الشيخان الطيب بابكر ومحمد الحسن محمد سعيد والشاب الواعد عامر جمال الدين المحامي . ثم اعتلى الأزهري المنصة وظل صامتا نحو ربع ساعة حتى تهدأ موجة الهتاف والتصفيق . كانت ليلة سياسية عامرة . لم أر لها مثيلا حتى بمقاييس الليالى السياسية في العاصمة . وأدهشني أن يحدث هذا في شندي التي زارها الدرديري محمد عثمان عضو لجنة الحاكم العام ودكتور أحمد السيد حمد والوزير شيخ على عبد الرحمن قبل يوم من وصولنا اليها لتحريض خلفاء الختمية وأتباعهم على إحباط زيارة الأزهري . أمضينا الليلة في شندي وكان من حظي المبيت مع الازهري والوزراء في البيت الفخم الجديد الذي شيده الناظر حاج محمد ابرهيم فرح . بقي البيت شاغرا حتى تم افتتاحه على يد الأزهري في ذلك اليوم . وقد نحر حاج محمد عجلا عبر الأزهري الباب من فوق جثته إلى فناء البيت كعادة القادرين من أهل السودان . واصل الموكب جولته صباحا لزيارة القري على ضفتي النيل تارة برا على السيارات وتارة أخرى على ظهر الذهبية . كان الاستقبال حافلا وحارا في قرية كلي ، عرين آل ضبعة الأشاوس المعروفين بالكرم ومواقفهم البطولية الوطنية . وفي قرية الكتياب سار الموكب على الأقدام إلى مكان الاحتفال بين صفين من الرجال تحت عريشة من سيوفهم المتشابكة ، وسط

الهتافات والزغاريد . وخاطب الأزهري والآخرون الجماهير الحاشدة وتبارى الشعراء بالفصحي والعامية ، وليس هذا بمستغرب ففي كل بيت من بيوت الكتياب شاعر ، ويكفي أنها أنجبت من عمالقة الشعر التجاني يوسف بشير ومحمد سعيد الكهربجي ومحمد القاضي وصديق المجتبى . في هذه المرحلة من الجولة تجلت قوة الأزهري الخارقة على الصبر واحتمال المشاق . لا يكل أو يمل ، ولا يشكو عناء ورهقا رغم أنه كان يومذاك في منتصف الخمسينات ، وهو العمر الذي يبلغ الرجال فيه سن المعاش ويخلدون للراحة على الكراسي الوثيرة في ظلال الضحى والظهيرة . ظل الأزهري حتى صباح اليوم التالي يترجل من سيارته عند كل قرية ، ويقف خطيبا أمام جماهير المستقبلين ، ويتناول ما يقدم له من كرم الضيافة شرابا أو طعاما . كان يخرج وحده مراراً للقاء الجماهير بينما الآخرون وهم أصغر منه سنا داخل سياراتهم إما نائمين أو أنضاء عاجزين عن الحركة من شدة التعب والإرهاق . تذكرت يومذاك قول أحمد شوقي مخاطبا الشباب الليبي في رثائه لعمر المختار :

وأرح شيوخك من تكاليف الوغي وأحمل على فتيانك الأعباء

واصل الموكب جولته منذ خروجه من شندي حتى وصلنا في الساعات الأولى من الصباح إلى الدامر ، عاصمة المديرية الشمالية التي أصبحت اليوم ثلاث ولايات . كان مدير الشمالية عبد الله محمد الأمين غائبا في إجازة مرضية مما أثار بعض التساؤلات لأنه حفيد الخليفة عبد الله التعايشي . لكني كنت أعلم أنه مريض حقا وقد قابلته في أم درمان ، وأعلم أكثر من ذلك أنه ليس متعاطفا مع حزب الأمة وإنما كان أقرب إلى الجمهوري الاشتراكي . افترقت في الدامر عن بقية الموكب فقد كان لي برنامجي الخاص . أخذت أولا قسطا من الراحة في بيت صديقي الفيلسوف الساخر محمد خليل بتيك نائب المدير . ثم توجهت إلى السجن وكنت في هذه المرة ضيفا مكرما تحمله سيارة نائب المدير ، لا نزيلا مقيدا . التقيت مع الحراس الذين اعرفهم ويعرفونني ومع عدد قليل من السجناء الذين لم يخرجوا للعمل مع الباقين ، بينهم اثنان أو ثلاثة ممن عاصرتهم . وزعت عليهم كل ما أحمل من السجائر ثم

عرجت على مقهي التقلاوي المجاور للسجن حيث تناولت القهوة والشاي مع بعض الحراس وصديقي عبد القيوم الحلاق الذي صادف وجوده في المقهي . ووقفت لحظات أمام دار نائب المأمور مستعيدا ذكرى منتدانا ولياليها العذبة الجميلة أيام كان سيد الدار توفيق صالح جبريل نائبا للمأمور وكنت نزيل السجن . وخطرت لي فكرة لم تكن على البال وكأنها هبطت من السماء فعدت إلى السوق واشتريت كمية من اللحم بما فيها المرارة . ثم ذهبت حاملا ما اشتريت لبيت " النخيل " تلك السيدة النبيلة التي كنت ألقى عندها كل ما يفتقده نزلاء السجون . لم تعرفني النخيل في بادئ الأمر إذ كنت مرتديا بدلة كاملة لا زي السجين . وقفت النخيل حائرة مشدوهة بضعة ثوان ثم صرخت " يا حليلك ده إنت ؟؟ " . جلست على " البنبر " في الراكوبة مثلما كنت أفعل من قبل . وجاءت النخيل بعدة الجبنة وأشعلت النار في الموقد وشرعت في إعداد القهوة وهي جالسة على " بنبر" آخر ، بينما انشغلت أمها بتحضير المرارة والشواء . قضيت ساعات في أنس وحبور بين أقداح القهوة وأطباق الشواء والمرارة لم نفتقد خلالها سوى صديقنا المشترك توفيق الذي خلد النخيل في إحدي قصائده وقد كانت ذات صوت شجي وراقصة مبدعة . سعدت وحزنت في وقت واحد عندما بلغني منذ سنوات أنها بعد أدائها الحج ذهبت إلى المدينة المنورة ، فتوفيت ودفنت هناك في الأرض الطاهرة التي ضمت رفات أكرم الخلق وخاتم المرسلين . أعذروني إذ وجدت نفسي منساقا إلى أمور لا تهم غيري . لكن ما ذا أصنع ففي حياة المرء لحظات كالواحة في صحراء العمر يحن إليها أبدا ويتبعها أينما سقطت من الدهر!!

لحقت بالموكب قبل دقائق قلائل من تحركه إلى أتبرا التي وصلنا إليها قبيل الغروب . وذهب كل منا إلى منزلته التي أعدت له لنرتاح قليلا استعدادا لليلة السياسية . وجدت نفسي في استراحة السكة حديد مع ابرهيم المفتي وزير التجارة ومبارك زروق وزير المواصلات . ولليالى السياسية في عاصمة الحديد والنار طابع فريد وطعم خاص لا تجدهما في المدن الأخرى من حيث الحماسة والثبات وارتقاء الوعي العام بقضايا الوطن وهمومه .

جاءت إلى الليلة السياسية هذه المرة جموع حاشدة ، وخاطبها كالعادة الأزهري والوزراء المرافقون بالإضافة إلى القادة المحليين . وفي ختام الليلة حمل المتظاهرون الأزهري على أكتافهم إلى سيارته . ولفتت انتباهي في أتبرا هتافات ولافتات ضد قيادة الختمية ، وذلك لأول مرة منذ بداية الجولة ، كما كان للشيوعيين وجود ظاهر ومنهم خطباء تحدثوا باسم الجبهة المعادية للاستعمار . وانضم محمد السيد إلينا في الاستراحة عند عودتنا إليها ، وهو من كبار موظفي مصلحة السكة حديد وزميل لمبارك زروق عندما كان موظفا فيها قبل المحاماة . واشتهر محمد السيد بلقب " بحلق " . سهرنا حتى الساعات الأولى من الصباح نتجاذب أطراف الحديث في موضوعات شتى شملت ما يجري على الساحة السياسية منذ عودةالأزهري من لندن . وألمح زروق والمفتي أكثر من مرة إلى قرارات مهمة ستتخذها الحكومة الوطنية بشأن الاستقلال لم يفصحا عن طبيعتها . واعتذرت في أتبرا عن مواصلة الجولة وعدت إلى الخرطوم في عربة صالون ملحقة بمحض الصدفة بقطار لنقل البضائع نظرا لعدم وجود قطار للركاب في ذلك اليوم إلى الخرطوم . ولكل من كبار موظفي السكة حديد عربة صالون يتنقل بها لأداء واجباته . وهكذا صار السفر فيها حلم كل من شب مثلي منذ صغره في بيئة السكة حديد!! وأعددت تقريرا عن الجولة وما شاهدت خلالها من شعبية الأزهري والتفاف الجماهير حوله من أجل الاستقلال ، وعن صدى الجولة في الساحة السياسية لضمه لنشرات وكالة الأنباء العربية . عرضت التقرير على الأزهري لدى عودته ، وأبلغته أني سأعطي نسخة منه لوليام لوس بعد إضافةالملاحظات التي أبداها فلم يمانع الأزهري!! كنت واثقا من أن ذلك قصده من وراء حرصه على مرافقته في الجولة . لم يصارحني به ولكن اللبيب بالإشارة يفهم!! شهدت الفترة التي تلت جولة الأزهري في المديرية الشمالية تحركات واسعة على الساحة السياسية ، وضاعفت الأحزاب نشاطها بعقد الليالى السياسية في العاصمة والأقاليم . وصحب ذلك احتدام الصراع بين الحزب الوطني الاتحادي الحاكم ، وقيادة طائفة الختمية التي انحاز إليها كثيرون ممن شقوا عصا الطاعة على الحكومة الوطنية . ولم يعد خافيا على أحد أن الحكومة الوطنية جادة في نبذها وحدة وادي

النيل وتحولها لاستقلال السودان . كادت مصر أن تفقد أعصابها إلى حد اقترح فيه بعض قادتها على عبد الناصر أن يطير إلى الخرطوم ليعلن استقلال السودان فيصبح بذلك بطل الاستقلال وصانعه . وبيدي لا بيد عمرو!! وارتسمت في الجو علامة استفهام كبيرة أصبحت مدار النقاش في كل مكان : كيف سيتحقق الاستقلال بعد أن اكتملت السودنة وتم جلاء القوات الأجنبية عن أراضيه ؟؟ أعن طريق الجمعية التأسيسية المنتخبة كما نصت الاتفاقية ؟ أم عن طريق استفتاء عام كما دعا البرلمان ؟ حزب الأمة يحبذ الاستفتاء العام لأنه لن يجري على نظام الدوائر الذي كان من أسباب خسارته في انتخابات برلمان الحكم الذاتي حيث كانت جملة الأصوات التي نالها مرشحوه أقل مما ناله مرشحو الوطني الاتحادي بنحو ٣٩ ألف صوت فقط ، و خرج حزب الأمة رغم هذا الفارق الضئيل جدا باثنين وعشرين مقعدا بينما نال الوطني الاتحادي ثلاثة وأربعين مقعدا . كان حزب الأمة واثقا من أن تأتي نتيجة الاستفتاء العام في مصلحة الاستقلال ببذله مزيدا من الجهد لتعبئة أنصاره ، زيادة على أصوات مؤيدي الاستقلال الآخرين من غير المنتمين لحزب الأمة في الشمال والجنوب . ومن ناحية أخرى تتمسك قيادة الختمية ومصر والموالين لهما في الحزب الوطني الاتحادي بالجمعية التأسيسية المنتخبة التزاما بما نصت الاتفاقية عليه ، لكنهم لا يمانعون في الاستفتاء . وغرض مصر والختمية من ذلك كسب مزيد من الوقت ، فلعل الله يهيئ لهما مخرجا : إما مات البعير أو الأمير أو الفقير كما حكي عن الشيخ فرح ودتكتوك!! أما الحزب الوطني الاتحادي أو بالأحري الفصيل الحاكم فقد استقر رأيه بحلول نوفمبر ١٩٥٥ على إعلان الاستقلال من داخل البرلمان . ولا أدري كما ذكرت من قبل ماجرى في هذا الشأن بين وليام لوس ومبارك زروق ، لكن لا بد من أن قيادة الوطني الاتحادي اطمأنت حينذاك لموقف الحكومة البريطانية لأن الأمر يقتضي تعديل الاتفاقية بين مصر وبريطانيا أو الإغضاء عنها بموافقة مصر وبريطانيا . واختيار الوطني الاتحادي لإعلان الاستقلال من داخل البرلمان يرجع إلى أنه يعلم ضعف موقفه في حالةالاستفتاء أو انتخاب الجمعية التأسيسية جراء فقده لتأييد مصر وتعاطف قيادة الختمية . يضاف إلى ذلك أن الوطني الاتحادي لن يفوز

بشرف إعلان الاستقلال من داخل البرلمان فحسب وانما سيضمن في الوقت نفسه الاستمرار في حكم البلاد لفترة أطول . وتكشف للوطني الاتحادي وهو يعد للخطوة الجديدة أن نواب حزب الأمة لن يقفوا معه عندما يطرح مشروع قرار الاستقلال على البرلمان لأنهم يرون أن حزبهم أحق من سواه بإعلان الاستقلال ، ويعز عليهم أن يذهب الفضل إلى من قضوا طيلة عمرهم السياسي يدعون لوحدة وادي النيل . وتكشف للوطني الاتحادي أيضاً أن عددا كبيرا من نوابه لن يؤيدوا المشروع ولاء منهم لمصر أو لقيادة الختمية . جاءني خضر حمد ذات يوم بعد الظهيرة ليخبرني أن الأزهري يريد مني الحضور إليه في بيته ، فذهبت معه ووجدت هناك مجموعة من" الأشقا ء" وقد فرغوا لتوهم من الغداء ، بينهم حسن عوض الله ومبارك زروق ومحمد أحمد المرضي وشيخ الخاتم وبابكر قباني . هممت بالجلوس بعيدا لكن الأزهري طلب مني الانضمام إليهم . كان النقاش يدور حول موقف الحزب الوطني الاتحادي داخل البرلمان ، مستعرضين بالتفصيل نوابه فردا فردا ، من منهم سيؤيد مشرع قرارالاستقلال أو لا يؤيده ؟ وخلصوا في النهاية إلى أن ثمة خوفا من سقوط المشروع وسقوط الحكومة معه . وهنا التفت الأزهري قائلا لي لقد رأيت وسمعت الآن كل شيء ، أريد منك الذهاب إلى الإمام عبد الرحمن المهدي لتحصل لنا منه على تصريح يؤيد فيه إعلان الاستقلال من داخل البرلمان . يعلم الأزهري أني كنت أتردد في تلك الأيام على الإمام اسبوعيا لإطلاعه على ما ينشر عن السودان في الخارج فقد كان الإمام شديد الاهتمام بذلك . وذهبت إلى الخرطوم في مساء اليوم نفسه مصطحبا الأمير محمد نقد الله لكي ييسر لي مقابلة الإمام ، لأن الأمير في مقام ابن البيت ، وليس كالآخرين تحول سدود وقيود دون دخوله على الإمام عبد الرحمن المهدي متى شاء . وقد رحب الأمير محمد نقد الله ترحيبا حارا بالمهمة التي كلفت بها . قابلنا الإمام في غرفة في الطابق الأرضي من سراياه في الخرطوم . لم أخبره بأنني قادم بتكليف من الأزهري ، وإنما شرحت له بالتفصيل ما سمعته بعد ظهر ذلك اليوم قبل أن أطلب منه بحكم عملي في وكالة الأنباء العربية تصريحا بموافقته على إعلان الاستقلال من داخل البرلمان . ورد على الإمام بأن من رأيه تأييد ذلك ، وقد اتصل به كثيرون في هذا

الشأن ، لكنه آثر أن يترك الأمر للسياسيين ، ولا يرى داعيا لتدخله الآن . كان من الممكن أن تنتهي المقابلة عند هذا ، لكن وكأنما هبط وحي على من السماء بما لم يجل في خاطري من قبل قلت للإمام : يا مولانا الإمام -- حفظك الله —عرفناك مزارعا تهيئ الأرض وتوفر كل مدخلات زراعة القطن وترعى شجيراته في مختلف أطوارها حتى إذا جاء وقت الحصاد لا تشترط أن يجنيه هذا أو ذاك وإنما يأتي العمال من كل الآفاق لجنيه ، و يعرف منذ تلك اللحظة وحتى وصوله إلى مصانع لانكشير باسم قطن الإمام مرورا بمراحل الحلج والنقل برا وبحرا!! الاستقلال الذي نقف على عتبته اليوم هو " قطن الإمام " وقد حان قطافه فليقطفه من يشاء فهو لك وأنت أبوه الذي كافح من أجله دهرا طويلا وأنفقت ما أنفقت ، ولاقيت ما لقيت من عنت وبلاء . وتبسم الإمام واعتدل في جلسته ثم قال : رحم الله شيخ بابكر . فرددت : هذا بعض ما علمنا . . . رحمه الله وأطال عمرسيادتكم لخير البلاد والعباد!! هكذا ظفرت من الإمام عبد الرحمن المهدي بالتصريح الذي جئت من أجله وقد أشار إليه في سيرة حياته في كتاب بعنوان " جهاد في سبيل الاستقلال " نشر بعد وفاته . واصبح أمام نواب حزب الأمة بعد هذا التصريح خيار واحد هو تأييد الاستقلال من داخل البرلمان . كما أسقط في يد نواب الوطني الاتحادي الموالين لمصر وقيادة الختمية فأدركوا أن مشروع قرار الاستقلال سوف يجاز بهم أو بدونهم ، يكفيه تأييد نواب حزب الأمة والباقين من نواب الحزب الوطني الاتحادي والجنوبيين . ربما كانت إجازة القرارغير مستبعدة بأغلبية كبيرة أو صغيرة بدون التصريح الذي ظفرت به من الإمام عبد الرحمن المهدي ، لكن من المؤكد أنه لا سبيل بدونه لاجازة القرار بالإجماع على الأقل كما حدث في ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ . لقد بشر الأزهري بطرح مشروع القرار قبل أسبوع من ذلك التاريخ في رده على استجواب من النائب يعقوب حامد بابكر ، أوفر نواب حزب الأمة نشاطا وله صداقات واسعة خارج حزبه شملت في من شملت مبارك زروق وأحمد خير المحامي والمهندس خضر عمر والشريف حسين الهندي . تقدم النائب يعقوب باستجواب فرعي لرئيس الوزراء تساءل فيه : إن كانت حكومته وعدت بريطانيا بمنحها قاعدة جوية في الأراضي السودانية ؟؟ ورد الأزهري بالنفي

القاطع . ثم تساءل نائب جنوبي : إن كان النفي يشمل ما قيل عن حلف أبرمته الحكومة مع بريطانيا وأمريكا ؟؟ وفي هذه المرة وقف أزهري ليجيب في حزم وثبات قائلا : إن حكومته أنجزت مهمتها المتمثلة في السودنة والجلاء وإنها حققت أيضاً جمع كلمة السودانيين حول الاستقلال . ثم اعتدل الأزهري ليقول في صوت عال : " لم يبق إلا إعلان الاستقلال من داخل هذا المجلس يوم الإثنين القادم الموافق التاسع عشر من ديسمبر إن شاء الله " . وأكد الأزهري أن حكومته لم تدخل في أي اتفاق مع أي شخص أو حكومة . افتتحت الجلسة التأريخية صباح الإثنين بمشروع قرار تقدم به ميرغني حسين زاكي الدين نائب حزب الأمة عن دائرة كردفانية وثناه بنيامين لوكي النائب الجنوبي .يدعو مشروع القرار الذي أجيز بالإجماع إلى الاعتراف بمطالبة الجنوبيين بالحكم الفيدرالى للجنوب واعطاء ذلك الاعتبار الكافي أمام الجمعية التأسيسية المرتقبة . ثم حلت اللحظة التأريخية فتقدم النائب دبكة ﴿حزب الأمة﴾ باقتراح يطلب فيه إرسال خطاب إلى الحاكم العام نصه : " نحن أعضاء مجلس النواب في البرلمان مجتمعا نعلن باسم الشعب السوداني أن السودان أصبح دولة مستقلة كاملة السيادة . ونرجو من معاليكم أن تطلبوا من دولتي الحكم الثنائي الاعتراف بهذا الإعلان فورا " وثني الاقتراح الشيخ مشاور جمعة سهل النائب عن الحزب الوطني وهو زعيم عشائري كردفاني وعضو في الجمهوري الاشتراكي قبل انضمامه للحزب الوطني الاتحادي . وأجيز الاقتراح بالإجماع كما أجيز بالإجماع أيضاً اقتراح مواز له قدمه في مجلس الشيوخ العضو ابرهيم بدري . وأثناء المداولات في مجلس النواب ألقي محمد أحمد محجوب زعيم المعارضة كلمة بليغة لا تزال جملة منها عالقة في ذهني حتى اليوم حين قال : " لا شك عندي في أن هذا الشعب السوداني شعب عظيم يعرف متى يختلف وعلي ماذا يختلف . كما يعرف متي يلتقي ويقف صفا واحدا كلما ادلهمت الأمور وداهمته الحوادث" . أما مبارك زروق زعيم الأغلبية فقد ألقى كلمة مطولة استشهد فيها بمقولات ماثورة للزعيم الهندي نهرو وقال فيها أيضاً " يجب أن نقيم دعائم السودان منذ اليوم على أسس من الديمقراطية والعدالة وأن نواجه مشاكل المستقبل كرجال ،فبناء الأمم ليس بالأمر

الهين» . واستجابت دولتا الحكم الثنائي فبادرتا بالاعتراف بقرار البرلمان فورا . وتم تعيين مجلس السيادة من خمسة أعضاء ليحلوا مكان سير نوكس هلم آخر حاكم عام بريطاني الذي لم يعد من عطلته في بريطانيا .

إن إجازة البرلمان قرار إعلان الاستقلال بالإجماع حدث عظيم في تأريخ الديمقراطية في السودان وربما في تأريخها على مر العصور . حدث يجب الوقوف عنده لما فيه من دروس ودلالات . لقد نزلت الأغلبية المنتخبة تأييدا لوحدة وادي النيل يومذاك على رأي الأقلية المنادية بالاستقلال . كان من الممكن من ناحية شكلية على الأقل أن تكون الكلمة للأغلبية الميكانيكية امتثالا لحكم الديمقراطية . لكن ما قيمة الديمقراطية وجدواها عندما تصبح أداة للوقوف ضد إرادة الشعب وقد أجمعت إرادة الشعب السوداني على الاستقلال؟

أقيم في أول يناير في القصر الجمهوري الاحتفال الرسمي بحضور البكباشي عبد الفتاح حسن مندوبا عن مصر وسير دودز باركر عن بريطانيا ، وتسلم كل منهما علم بلاده بينما رفع الأزهري ومحمد أحمدَ محجوب زعيم المعارضة علم السودان بألوانه الثلاثة . وشهد الاحتفال السيدان على الميرغني والإمام عبد الرحمن المهدي الذي سالت دموعه غزيرة في تلك اللحظات من فرط فرحته وابتهاجه مسترجعا أمجاد الماضي ، عندما سقط غوردون باشا صريعا في نفس المكان بسيوف الأنصار وحرابهم في عام ١٨٨٥ ، ليصبح السودان أول قطر يتحرر من ربقة الأمبرطورية العثمانية مثلما أصبح في الفاتح من يناير ١٩٥٦ أول قطر في افريقيا يتحرر من ربقة الاستعمارالأوروبي ، وتواصلت بعد ذلك تصفية الاستعمار في باقي بقاع العالم . أقدمت نحو الإمام فصافحته مقبلا يده الكريمة فأمسك بيدي برهة وهو يردد في همس " الحمد لله " ولاحظت كم جلبابه المبتل بالدموع . ثم صافحت السيد على الميرغني الذي كان جالسا إلى يساره . كان يوما خالدا مشهودا خرجت العاصمة فيه رجالا ونساء وأطفالا إلى الشوارع في فرحة غامرة هاتفين ، يحيون بعضهم بعضا حتى دون سابق معرفة ، ويرقصون ويتغنون بالأهازيج والأناشيد . ومر شريط الذكريات على خاطري فأخذت أتبعها كما يتابع الزارع ثمار حقله منذ

كانت بذرة أودعها باطن الأرض فانبثقت شجيرة لدنة يرعاها ويشقى من أجلها حتى قوي عودها ثم طرحت ثمارها خيرا للناس أجمعين . عرفت منذ ذلك اليوم راحة الضمير وما أدراك ما راحة الضمير فهي أغلى ما في حياة الإنسان وزاده بعد الممات!! هذا من ناحية شخصية بحتة . أما من الناحية العامة فقد كان الاستقلال آخر صفحة في مانفستو كل حزب من أحزابنا السياسية وبقيت منذ ذلك التأريخ أحزابا خاوية من الأفكار والبرامج لما بعد مرحلة الاستقلال ، عدا الصراع على الحكم من أجل الحكم لا غير . هذا حال الحزبين الطائفيين الكبيرين -- الأمة والوطني الاتحادي – غداة إعلان الاستقلال .هناك أحزاب وتنظيمات عقائدية لكنها هامشية منها : الإسلاميون بناة الدور والقصور في الدنيا ومجمعات الحور واللؤلؤ المنثور في الآخرة . والشيوعيون اللاهثون وراء سراب بقيعة لا يطفئ ظمأهم قد يجدون الله عنده أو لا يجدون . والجمهوريون المحموديون الراقصون " خارج الدارة " . طافت بخاطري يوم فرحتنا بالاستقلال ذكرى الشيخ بابكر بدري وتمنيت لو كان حاضرا وهو الذي لم يركن للهزيمة يوم واقعة كرري وإنما واصل المعركة ضد الغاصبين بسلاح العلم الذي كتبت للغزاة الغلبة بفضله . وكذب القائل السيف أصدق إنباء من الكتب . كما تذكرت بعد سنوات عديدة ابرهيم بدري متمنيا لو كان معنا يوم فرحتنا بالتوقيع على اتفاقية السلام في نيفاشا التي جاءت في جوهرها وتفاصيلها مطابقة لما نادى ابرهيم به قبل ذلك التأريخ بأكثر من خمسين عاما ، لكن القوم صدوا عنه مثلما صد قوم نوح عن نبيهم وهم خاسرون . ولجداتنا طقوس للفرحة : إذا وضع أمام الواحدة منهن طعام شهي تذكرت ابنها الغائب . وإذا هب نسيم عليل عليها تذكرت موتاها المحرومين من الهواء في أجداثهم . لم تخف مصر الرسمية والشعبية بطبيعة الحال خيبة أملها في اختيار السودانيين الاستقلال بدلا من وحدة وادي النيل وزادها حنقا أن يتحقق ذلك على يد من ظلت ترعاهم بمالها ونفوذها واعلامها إلى أن وصلوا بفضلها إلى مقاعد الحكم . وقد ذهبت بعد أشهر قليلة في زيارة قصيرة إلى القاهرة ونزلت كعادتي في شقة قريبة من دار أخبار اليوم أمامها كشك لبيع الصحف صاحبه شاب ظريف خفيف الظل يدعى عزمي له قرد اسمه محمود خفيف الظل مثل صاحبه يداعب الزبائن ويأتي بحركات تعجبهم ويضحكون لها . وهو في ما يبدو مهووس

بصحيفة أخبار اليوم ، ماأن يقف الزبون أمام الكشك حتى يسارع محمود باختطافها من الرف ليضعها أمام الزبون باسطا يده لاستلام ثمنها . بعض الزبائن يدفعون له الثمن فيسلمه بدوره لصاحبه ،وآخرون يردون الصحيفة فيطلق محمود القرد صرخات عالية ويلطم خديه كما تفعل النادبات . لم أجده هذه المرة وسألت عنه صاحبه فرد على متحسرا : ياعيني عليه أخد استقلالو من زمان وفات ؟؟ لقد خذل الأزهرى حلفاءه المصريين وبلغوا في حقدهم عليه درجة دمغه بالغدر والخيانة بينما لم يخف الاستقلاليون رغم فرحتهم غضبهم عليه لأن الأزهري اختطف منهم شرف إعلان الاستقلال وهم الذين ظلوا يناضلون في سبيله عشرات السنين وبذلوا كل غال ونفيس . كان الاستقلاليون أشبه بالعريس الذي اختطفت عروسته من الكوشة وهي في أبهى زينتها وحلاها !!

سقطت الحكومة الوطنية التي أنجزت الجلاء عسكريا ومدنيا وحققت الاستقلال بعد شهر من إعلانه لينتقل السودان عقب ذلك إلى الدائرة المفرغة التي يعيشها حتى اليوم تتجاذبه فيها حكومات ائتلافية وقومية وأخرى عسكرية أو حكومات وحدة شاملة . كلها حكومات ذات طابع شمولي ، وإن استتر بعضها وراء ديمقراطية زائفة . لقد بدأت المؤامرات لاغتيال الحكومة الوطنية قبل عام من إعلان الاستقلال . وأفلح المتآمرون في اسقاطها فعلا قبل نحو شهر من إعلان الاستقلال ، حين رفض البرلمان الميزانية العامة بأغلبية تسعة وأربعين نائبا مقابل خمسة وأربعين صوتوا إلى جانب الحكومة!! كان بين الرافضين نواب الوطني الاتحادي الأربعة إياهم الذين حولوا البرلمان إلى سوق نخاسة في رابعة النهار . وهذه الفترة التي " استمر فيها شراء النواب ورشوتهم في الخفاء " على حد تعبير خضر حمد في مذكراته . وأنا شاهد على ارتشاء عدد منهم . كنت أحد الساعين لإرجاعهم إلى الحظيرة لأسباب لو ذكرتها لانكشفت أسماؤهم ؟؟ وتقدم الأزهري بعد حجب الثقة عن حكومته باستقالته في مساء اليوم نفسه . ثم عقد مجلس النواب جلسة أعيد فيها انتخاب الأزهري بعد أن أثمرت مساعينا وعاد ثلاثة من النواب إياهم إلى حظيرة الحزب .

بعد اسبوعين تقريبا تم لقاء السيدين على الميرغني زعيم طائفة الختمية والإمام عبد الرحمن المهدي زعيم طائفة الأنصار . لقد ظل السيدان طيلة فترة الحكم الثنائي في خصام عملت الإدارة البريطانية على تصعيده وبقائه خدمة لمصالحها ، لكنه كان في الوقت نفسه عاملا مساعدا في تطور السودان دستوريا على أسس ديمقراطية متينة ، حيث تولي الأنصار السلطة في عهد الجمعية التشريعية وعارض الختمية إلى أن انتقلت البلاد في سلام للحكم الذاتي ، فانقلبت الآية في عهد الحكم الذاتي حين تولى الختمية الحكم وتولي الأنصار المعارضة لينال السودان استقلاله في سلام أيضاً . كان من المأمول أن يسود هذا التداول بين الطائفتين دعما وضمانا للديمقراطية والحكم الصالح . فأي نظام ديمقراطي يجب أن يقوم على دعامتين قويتين تحكم احداهما وتعارض الأخري ، مثلما هو قائم في أمريكا حيث الديمقراطيون والجمهوريون وفي بريطانيا حيث المحافظون والعمال . إذن كان لقاء السيدين كارثة مسئولة عن كل المحن والأهوال التي ظلت طابعا مقيما في السودان منذ استقلاله . لم تقعده عن التقدم فحسب وانما دفعته إلى الوراء أجيالا وأجيالا . كنت واحدا من الأصوات القليلة التي ارتفعت يومذاك منددة بلقاء السيدين وأعربت عن موقفي في مقالات في الصحف غير الموالية لطائفتي الأنصار والختمية كالأخبار والأنباء والصراحة . بل أن محمد أحمد محجوب الذي أصبح رئيسا للوزراء بفضل لقاء السيدين اعترف في آخر حياته بأن اللقاء كان كارثة على السودان .

لا سبيل للتخلص دينيا من الطائفية والطرق الصوفية ، وليس هذا ما ندعو إليه عملا باحترام حرية العقيدة ، لكن الطائفية ستبقى ورما خبيثا في هيكل حياتنا السياسية إلى أن نجد قوى تقضي على نفوذها سياسيا لتنعم البلاد بالديمقراطية والحكم الصالح بعد أن أجهضت تجربتنا في الجمهوري الاشتراكي ، وذبحت الإدارة الأهلية القوة الضاربة الوحيدة القادرة على تحجيم الطائفية سياسيا وحصرها في حلقات الذكر والعبادة .

لقد كان واضحا أن لقاء السيدين المهدي والميرغني وليد دوافع سياسية هدفها أولا ابعاد اسماعيل الأزهري الذي أصبح زعيما قوميا لأول مرة في تأريخ السودان منافسا للسيدين . وهدفها الثـاني الهيمنـة على الساحة السياسية وتقليم أظافر الديمقراطيـة في مهدها أو تكييفها لخدمة مصالح طائفتي الختمية والأنصار . وعليه لم يكن مستغربا أن يشتعل ثرموميتر العداء بين قيادتي الحـزب الوطني الاتحـادي والختمية غداة لقاء السيدين الميرغني والمهـدي . أصدر السيد على الميرغنـي على غير عادته بيانا مطولا ضم فيه صوته إلى المنادين بقيام حكومة قومية ، وأخذت الحلقة تضيق حول الأزهري رئيس الحكومة الوطنية ، وهدد ثلاثة من الوزراء بالاستقالة ﴿حماد توفيق ودكتور أمين السيد وميرغني حمزة﴾ . واستسلم الأزهري في آخر المطاف ، فألف الحكومة القوميـة أو بالأحري الائتلافية بعد نحو شهر واحد من إعلان الاستقلال . وتولي عبد الله بك خليل سكرتير عام حزب الأمة حقيبة وزارة الدفاع ومحمد نور الدين للمواصلات والشيخ على عبد الرحمن للمعارف وميرغني حمزة للزراعة والري . لم تعمرهذه الحكومة طويلا إذ بلغ العداء بين قيادتي الختمية والوطنيِ الا تحادي القمة التي لا رجعة منها ، وانشق الموالون للختمية عن الحزب وألفوا حزبا جديدا بزعامة الشيخ على عبد الرحمن الوزير في الحكومة القومية . وأصدر السيد على الميرغني بيانا أعلن فيه تأييد الحزب الجديد داعيا أتباعه للإنخراط فيه ، وهذه المرة الأولى التي يخرج الميرغني فيها عن سياسته التقليد ية التي يلتزم فيها بالابتعاد عن السياسة . لم يسبـق لـه أن جاهر بتأييد أي حزب سياسي أو دعـا أتباعه علانية للانخراط فيه . سقطت الحكومـة القوميـة في أوائل يوليو ١٩٥٦ أي بعد أقل من ستة أشهر من قيامها إثر حجب الثقة عنهـا في البرلمـان بأغلبية ستين صوتا مقابل واحد وثلاثين . استقال معظم الوزراء قبل الاقتراع من مناصبهم ليشاركوا في التصويت ضد الحكومة .وقامت حكومة جديدة برئاسة عبد الله بك خليـل تضـم وزراء من حزبي الأمة والشعب الديمقراطي ووزراء جنوبيين إلى جانب وزير الدولة الشيـخ يوسف العجب عن حزبنـا الجمهوري الاشتراكي . لم يكن حزبنا موافقا على الاشتراك في الحكومـة الجديدة . وحملت رسالة الحزب في هـذا الصدد إلى الأزهري رئيس الوزراء ، ونجم عـن ذلك تعثر تشكيل الوزارة الجديدة بضعة أيام ، وكان من الممكن أن تطول المدة لولا تدخل

العميد يوسف بدري ودكتور مامون حسين شريف . وقد كان ذلك سببا في حملة شعواء شنها على الشيخ على عبد الرحمن في ليلة سياسية أقيمت في ساحة جامع الخليفة بأم درمان . وشيخ علـى عبد الرحمن لمن لا يعرفونـه : المسامير طعامه المفضل في موائد السياسة يلتهمها في نهم وشراهة ويتخذ من الليالي السياسية بديلا عن الخلاء حيث يعلو فيها صياحه ويكثر عواؤه . لقد عرفتـه عن كثـب منذ عمل قاضياً شرعياً للجنوب يأتي مراراً لزيارة أنزارا ، وكان أقرب للتعاون مع إدارة المشروع من تعاونه مع نقابتنا التي كنت سكرتيرا لها . ثم عرفته في الساحة السياسية كقيادي متقلب كالحرباء عنده لكل موقف لون يظهر به لتحقيق أطماعه وطموحاته . ورغم بعد الشقة في قاموس السياسة بين اليمين واليسار يري شيخ على عبد الرحمن المسافة بينهما ليست سوى فركة كعب يقطعها في تنقله بين اليمين واليسار بسرعة الضوء . أصدق مثال موقفه الرافض للمعونة الأمريكية وهو وزير في الحكومة القومية برئاسة عبد الله خليل . قبلت الحكومة المعونة الأمريكية التي كان ضمن برامجها مد طريق مسفلت بين مدينتي مدني والخرطوم وتوسيع ميناء بورتسـودان وإقامة معهد للدراسات التكنولوجية ومطار وسلخانـة في نيالا . من الطرائف التي تروي أن السيد على الميرغني استدعي شيخ على في تلك الأيام وسأله عن أسباب رفضه المعونة الأمريكية في وقت تحتاج البلاد لها ؟ فرد عليه شيخ على بأنها مخطط استعماري للسيطرة على البلاد العربية . وضرب مثلا بطريق مدني الخرطوم زاعما أن الأمريكان يريدونه مدرجا لطائراتهم الحربية لضرب مصر الشقيقة!! ضحك السيد على وقال متعجبا : يا شيخ على " هل الأمريكان غبيانين من مطار وادي سيدنا البنوه ويعرفوه شبرا شبرا كباطن كفهم ؟؟ " كان شيخ على عنيفا في مقاومتـه للمعونة الأمريكية ، مما أدى بالإضافة لعوامـل أخرى إلى سقوط الحكومة وتسلم العسكريين الحكم في انقلاب بقيادة ابرهيم عبود . افترعت الحكومة العسكرية عهدها بالتوقيع علـى اتفاقية المعونـة الأمريكية ، فانتقل شيخ على بسرعة الضوء من اليسار إلى اليمين وسارع بتأييد الحكومة العسكرية والثناء على سياساتها ومنها قبول المعونة الأمريكية!!

محطة ١٣

* الاشتراكية تقودني لجحيم مشروع الجزيرة * لماذا انهار المشروع وكيف نحييه من جديد ؟ * فترة استجمام في رحاب الدهليز قبل الرحيل لبريطانيا * إذاعة البي بي سي العربية * الشاعر الجاغريو يلخص وحدة الوجود في كبسولة أعجزت التجاني وجبران.

عشقت الصحافة منذ صباي الباكر فقد كان أبي مشغوفا بالصحف والمجلات المصرية والسودانيــة يحضرها بانتظام ، ويستضيف محصلي اشتراكاتها عندما يأتون لجمعها في المدينة التــي فيها ، وأذكر منهم اثنين : مصطفي التني كبير خلفــاء الشريف يوسف الهندي ، وآخر ضخــم الجثة يدعى أردب من خلفاء الختمية . هكــذا تفتحت عيناي على الصحافة ، أقلب صفحاتهــا دون أن أ فهــم ما أقــرأ في أكثر الأحيان ، وأقطع مــا في المجلات المصرية من صور تعجبنــي لألصقها على الجــدران . كانت الصحافة في ذلك الزمــان أداة الإعلام الوحيدة في مجتمعنــا ، قبل أن تلحق بهــا الإذاعة والتلفزيون وأخيرا الانترنــت . ولما بلغت مرحلة كلية غــوردون التذكاريــة ، كنت أكثر وعيا ، وأوســع إدراكا لما أقرأ في الصحــف والمجلات خاصة الصحف البريطانية التي كان يوسف بدري العائد من جامعة بيروت الأمريكية يحصل بانتظام مــن سودان بوكشوب علــى طبعاتها المخصصة للنقل جوا مطبوعــة على ورق رهيف خفيف الــوزن كورق السجائــر . وانتقلت في الكلية من مرحلة العشق إلى الهواية ، فأصدرت صحيفة جداريــة باسم " صــور المجتمع " ، وإلى جانبها جدارية سريــة أسميتها " البركان "!! كانت بركانا فعلا على الاستعمار وسياساته لكنني كنت فيها " انتحاريا " نسفني البركان بينما بقي

الاستعمار!! فصلت من الكلية عندما اكتشف أمر الجدارية السرية . ثم انتقلت من مرحلة الهواية إلى الاحتراف على نحو ما رويت في موضع سابق . وعند إعلان الاستقلال كنت مراسلا لإذاعة الشرق الأدنى البريطانية ، ومدير التحرير في مكتب وكالة الأنباء العربية (واع) في الخرطوم . كانت الوكالة نافذة السودان الوحيدة في تلك الفترة على الخارج . واستقلت من الوكالة استنكارا للعدوان الثلاثي على مصر واقترانه باكتشاف شبكة للمخابرات البريطانية في القاهرة يديرها مستر سونبيرن - المدير الإداري لوكالة الأنباء العربية في القاهرة بمعاونة داهية الاستخبارات صموئيل عطية الذي آوى إلى مصر بعد تقاعده عن العمل في قلم المخابرات في الخرطوم . وتهيأت لي بعد استقالتي فرصة للعمل ملحقا صحفيا في الجامعة العربية ، بفضل مجهودات صديقي الدرديري أحمد اسماعيل . لكن شاءت الأقدار في تلك الأيام أن يلقى صديقي جعفر السوري «الثوري» رئيس تحرير صحيفة الجزيرة الأسبوعية مصرعه في حادث حركة مؤسف . وذهبت مع ابرهيم بدري لمأتمه ، فالتقينا هناك بمكي عباس محافظ مشروع الجزيرة الذى أبدى رغبته في أن أتولى رئاسة تحرير صحيفة الجزيرة ،لأنه يريد اشتراكيا مثلي ، يسخر الصحيفة لخدمة وتعميق مبادئ الاشتراكية بين جماهير المزارعين . وراقت الفكرة لابرهيم بدري لأنه لم يكن متحمسا لذهابي إلى القاهرة ، ويريد أن أكون قريبا منه دائما . تقدمت لوظيفة رئيس تحرير الجزيرة مع آخرين بينهم ثلاثة صحفيين : محمد سعيد معروف والريفي وعبد الحفيظ هاشم ، ووقع الاختيار علي . ولا أدعي أنني كنت خيرا من ثلاثتهم . ويبدو أن تزكية محافظ المشروع لعبت دورا من وراء ستار . فهو يعرفني منذ عهد صحيفته الرائد التي كانت أول صوت يدعو للجمهورية الاشتراكية . ولما أنشأنا حزبنا الجمهوري الاشتراكي كان مكي عباس على رأس المنضوين تحت لوائه . مثلت أمام لجنة المقابلة لاختيار رئيس تحرير الجزيرة المكونة من ثلاثة من كبار موظفي إدارة مشروع الجزيرة : أحمد صلاح بخاري (ضابط الخدمات الاجتماعية) ، وأمين عبد الله الفكي (رئيس قسم شئون المستخدمين) وعمر محمد عبد الله الكارب (مساعد مدير الإدارة) . عرفت في ما بعد لماذا تصدر بخاري المقابلة ، وانفرد بتوجيه الأسئلة إلى باللغة الإنجليزية للإجابة عليها باللغة

نفسهـا ، مما جعل زميليه أشبه بالأطرشـن في الزفة ، فقد كان بخاري حريصا على اختياري . وهو صديق قديم منذ عهد كلية غوردون التذكارية ، لا يجيد اللغة الإنجليزية فحسب وإنما أبرع سوداني أيضاً في إجادة نطقها ، ولا يجاريه في ذلك أحد سوى سر الختم الخليفة رئيس وزراء اكتوبـر . عمل بخاري بعد مشـروع الجزيرة بالخارجية السودانية حتـى بلغ منصب السفير . سمعـت محمـد أحمد محجوب يقول لو عـاد وزيرا للخارجية ،لسرح جميـع العاملين فيها باستثناء فخرالدين والأمين ورحمة الله وبخاري وعبد الله الحسن .

وصحيفـة الجزيـرة ذات وضع محير نتيجة الصراع على ملكيتهـا بين المزارعين وإدارة المشـروع ، مع انهـا ليست تابعة لاي منهما أو هكذا يجـب أن تكون . وهي في الحقيقة تقع ضمن أمبرطورية مصلحة الخدمات الاجتماعية التي كان مديرها مكي عباس قبل أن يصبح محافظا للمشروع . صدرت صحيفة الجزيرة قبل قيام تلك المصلحة فهي إذن " بنت سفاح " لأنها ولدت قبل أن يدخل أبوها على أمها التي كانت حينذاك نطفة في رحم الغيب . ظللت منذ توليت رئاسة التحرير أردد أنني مع قانون تأميم مشروع الجزيرة ، الحكم الفصل بيني وبين كل مـن يدعي ملكية الصحيفة أو يرى أنها تابعة له وناطقة باسمه . كان همي الأول تأمين استقلال الصحيفة وتحصينها ضد التغول من جانب المزارعين أو إدارة المشروع التي أوكل إليها أمـر تمويلها من مخصصات الخدمات الاجتماعية . أقدمت من أجل ذلك على خطوة جريئة باتفاق مع محمد نور الهدي المدير الزراعي وعثمان أحمد عمر (عفان) مدير انتقال السلطات المسئول عن تطوير مجالس القري لتحل في آخر المطاف مكان مفتشي الغيط تخفيضا لتكاليف الانتـاج بالإضافة لفوائدهـا الاجتماعية الأخري . لم تكن لتلـك المجالس المنتشرة في قرى الجزيـرة أية ميزانية تدعمها للقيام بمهامهـا ، فأقدمت على جعل كل مجلس وكيلا لصحيفة الجزيـرة ، يتحصـل قيمة الاشـتراكات في قريته نيابة عنها ، مع إضافـة عشرين قرشا لقيمة الاشتراك يحتفظ المجلس بها . وصل عدد المشتركين في غضون أشهر قليلة إلى أكثر من ستة آلاف . ورفـع خليل عتباني مديـر شركة الإعلان تبعا لذلك فئة الإعلان في صحيفة الجزيرة

بنسبة أربعين في المائة فأصبحت أعلي قيمة تتقاضاها أية صحيفة أخرى مقابل الإعلان فيها . كان عدد المشتركين من قبل لا يزيد على أربعمائة مشترك سنويا يجمعها موظف التحصيل محمد خالد الذي خصصت له للقيام بمهمة التحصيل سيارة لاندروفر وسائق ، وتستهلك السيارة دون تكاليفها الأخرى ١٢٠ جالونا من الوقود شهريا . كانت الصحيفة تعتمد في تمويلها على مصلحة الخدمات الاجتماعية فأصبحت بعد الخطوة التي اتخذتها مع مجالس القري مكتفية ذاتيا لا عالة على إدارة المشروع أو المزارعين . دخلها من الاشتراكات والإعلان يزيد على تكاليف إصدارها ، بما في ذلك مرتبات العاملين . لكن ضابط الخدمات الاجتماعية لم يكن مرتاحا ، ورأي فيما أحدثته من انقلاب نذيرا بخروج صحيفة الجزيرة عن طاعته . وزاد من قلقه أنها أخذت تسلك سياسات لا تتفق مع رؤية إدارة المشروع في كثير من القضايا التي تنشب بينها وبين الشريكين الآخرين : الحكومة والمزارعين . كانت هنالك مثلا مشاكل تقع من حين لآخر بين الإدارة ووزارة الري المسئولة عن توفير المياه للمشروع ، أو بين الإدارة ومصلحة الأبحاث الزراعية التابعة لوزارة الزراعة ، زيادة على مشاكل الإدارة المستمرة مع اتحاد المزارعين . وهنالك مشاكل تهم مصلحة الخدمات الاجتماعية مباشرة مثل مشاكل قسم المرشدات الاجتماعية . هذا القسم تابع من الناحية الفنية لوزارة التربية ومهمته نشر الوعي الصحي والاجتماعي والاقتصادي بين المجتمع النسائي في منطقة الجزيرة . ترأس هذا القسم كبيرة المرشدات منيرة سيدهم وهي سيدة مصرية مسيحية يعمل زوجها في مدرسة حنتوب الثانوية شرقي مدينة واد مدني . كانت منيرة سيدة مدللة لسحر جمالها حتى ليحسبها المرء نجمة سينمائية . كلمتها نافذة وأمرها مطاع . يصدق عليها بيت الشعر :

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزرا مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

ثار المسئولون في وزارة التربية ومصلحة الخدمات الاجتماعية غضبا جراء مقال دعوت فيه إلى سودنة وظيفة كبيرة المرشدات مقترحا تعيين فاطمة طالب اسماعيل مكانها ، وهي أول جامعية سودانية ، التحقت بوزارة التربية عقب تخرجها من آداب جامعة الخرطوم .

ودافعت عن اقتراحي بأن من الأفضل أن تكون كبيرة المرشدات سودانية مثقفة مسلمة ملمة بعاداتنـا وتقاليدنا واحتياجات المـرأة السودانية . وطلب ضابط الخدمـات الاجتماعية مني الاعتـذار فرفضت وأبديـت له استعدادي لنشر أي تعليق يأتيني منـه شخصيا أو نيابة عن إدارة المشـروع . اشتكـى الضابط لمكي عباس محافظ المشروع فأوضح له أن الصحيفة حرة في ما تنشر طالما ظلت ملتزمة بقانون التأميم والقوانين التي تحكم مهنة الصحافة بوجه عام . كان ضابط الخدمات الاجتماعية يرى في رواج صحيفة الجزيرة وتحولها لمؤسسة رابحة حافزا للتمرد عليـه وسوف يحدث ذلك شرخا خطيرا في امبرطوريتـه . كنت سعيدا بثقة المحافظ ورعايته للصحيفـة في ثوبهـا الجديد لخدمة الاشتراكية والتبشير بأفكارهـا بين مجتمعات المزارعين . ثـم تغير الحال حين استقال مكي عباس فجأة بسبـب مؤامرة دنيئة دبرتها جهات تجارية في الخرطـوم ، وعين مكاوي سليمـان أكرت خلفا له . كانت العلاقة سيئـة بيني وبين المحافظ الجديـد لأسباب ترجـع إلى خمس سنوات تقريبا . ومن الطبيعـي أن يجد ضابط الخدمات الاجتماعيـة أذنا صاغية لدى مـكاوي أكرت فبادر بارسال خطـاب لي طلب فيه بناء على توجيهـات المحافـظ إيقاف تلقي مزيـد من المشتركين وألا يزيد ما يطبـع من الصحيفة على ستـة آلاف . وراح الضابط يسوق اتهامات سخيفة أقابلها تارة بالاحتجاج وتارة مصيرها سلة المهملات في معظم الأحيان . ليس من الحكمة ذكر اسم ضابط الخدمات الاجتماعية ويكفي أن نسميـه ﴿شرفنطح﴾ وهو اللقب الـذي أطلقناه عليه في تلك الأيام . استدعاني شرفنطح مـرة إلى بركات ليقول لي إني لم أظهـره في صورة منشورة في الصحيفة لحفل تكريم له بمناسبة تبرعه بمبلغ من المال لقرية الرميتاب لترميم بناء مدرستها فاعتذرت له بأن الكاميرا لم تلتقطه لأنه كان جالسا بين العملاقين حسن كافي وكيل وزارة الري وحامد الفيل قومندان البوليس!! كل منهمـا يزيـد طوله على ستة أقدام بينما شرفنطح العجيب قصير القامة أقرب إلى الأقزام تحسبـه فـرخ غراب لأن رأسه أكبر مـن باقي جسمه ، وعيناه إحداهمـا أعلى من الأخري ، أشبـه بكفتي ميزان شعراني معطوب في حانوت عطار على عتبة الإفلاس!! . كنت أعلم أنه لم يستدعنـي بسبـب الصورة وإنما لأمر لا يستطيع الإفصـاح عنه . وهو أن التعليق المصاحب

للصورة فيه إشارة إلى أن ما تبرع به يعادل نصف تكاليف الاحتفال التي تكبدها أهل الرميتاب مما يكفي لبناء مدرسة جديدة كاملة!! تضم امبرطورية الخدمات الاجتماعية أقساما أخرى عدا صحيفة الجزيرة : فلاحة البساتين ، والغابات ، وتعليم الكبار ، والبحث الاجتماعي ، والرياضة ، والفلاحة الريفية النموذجية ، والآبار الإرتوازية ، ومدرسة زراعية لأولاد المزارعين . وينص قانون الجزيرة على تحويل أي قسم منها عند نضجه ونجاحه إلى جهة تناسبه . وكتبت مرة مقالا ذكرت فيه أن الأوان قد حان لتحويل بعض تلك الأقسام : فلاحةالبساتين والغابات والزراعة النموذجية الريفية لوزارة الزراعة ، وتعليم الكبار لوزارة التربية ، والآبار لوزارة الأشغال ، وصحيفة الجزيرة لوزارة الاستعلامات أو لمؤسسة صحفية كالأيام والرأي العام . كانت هناك مؤامرات تحاك ضدي منذ قدومي إلى الجزيرة لم أحفل بها اطمئنانا لوجود مكي عباس وما أولاني به من حماية ، لكن المؤامرات والمضايقات أخذت تتكشف وتزداد لؤما وشراسة مع مجيئ مكاوي اكرت . وما كانت قصة تجميد المشتركين عند ستة آلاف إلا البداية . في أحد الأيام خرجت على سيارتي من قرية مساعد مقر صحيفة الجزيرة إلى بركات سالكا كالعادة طريق ردمية القناة الرئيسية (إسكيب) . نزلت من الإسكيب عند قرية بيكة إلى الطريق المتجه إلى مدني ، وبعد مسيرة نحو كيلو متر إنفصل العجل الخلفي في دوي هائل فارتجت السيارة ووقعت متكئة على جنبها الأيسر . سارعت بإيقاف محرك السيارة وخرجت منها سالما بفضل من الله ورحمته . وتبين عند الكشف على السيارة أن شخصا ما عبث بصامولات العجل الخلفي وأرخي قبضتها . حمدت الله على أن العجل لم ينفصل قبل نزولي من الاسكيب وإلا للحقت بسلفي جعفر السوري الذي لقي مصرعه في حادث مماثل إثر انفصال العجل فسقطت السيارة به في جوف القناة الرئيسية ومات غرقا .وأكاد أجزم بأن أياد بعينها أكاد أعرفها هي التي عبثت بالسيارتين . وإذا كان بعض الظن إثم فما بال بعضه الآخر ؟؟ ومنذ ذلك الحادث أصبحت لا أركب سيارتي وحدي أو مع السائق قبل الاطمئنان بنفسي على سلامة عجلاتها وفرملتها . ونجوت فعلا بفضل يقظتي من محاولات تالية عبثت فيها تلك الأيدي بالعجلات .

أخبرني الخادم - وهو من أبناء دارفور - ذات يوم لدى عودتي مع أسرتي من إجازة قصـيرة ، أنه وجد في ركن حديقة المنزل أثنـاء غيابنا كلبا مذبوحا فوق جثته المتعفنة قرعة فيهـا أعشـاب يابسة وحجارة سـوداء . فأوقد الخادم نارا أحرق فيهـا الكلب وما فوقه كما يفعلـون في دارفورلابطال السحر . وأخبرت المرشـدة فاطمة دكة زوجة الشيخ حمد النيل " ازرق طيبة " .أحضرت فاطمة دون أن أطلب منها حجابا من زوجها الرجل الصالح لافساد " العمـل " . علقـت الحجاب على شجـرة في نفس الموضع الذي وجد فيـه الكلب الذبيح جـبرا لخاطر فاطمة دكة ، وحفاظا على أرواح الـكلاب المسكينة - على الأقل - من مزيد مـن الضياع على أيدي السحرة والمشعوذين!! عملت فاطمة دكة معلمة في مدرسة الأحفاد قبـل زواجهـا من أزرق طيبة والتحاقهـا بقسم المرشدات ، وهي من أسـرة معروفة في حي الاسبتاليـة بـأم درمان ، وأخوهـا عوض من مشاهير لاعبي فريق الهـلال القدامي ولها أخ آخر موسيقار عبقري يعزف على كل الآلات الموسيقية ، تخرج على يديه من مدرسة نادي الإصـلاح معظـم المطربـين والموسيقاريـين .

أقيـم في بركات احتفال ضخـم لاستقبال جمال عبد الناصر عنـد زيارته للسودان . لمحني عبد الناصر بين مستقبليه فأشار إلى بيده مبتسما وكأنه يتساءل : أين أنت ؟ تقدمت إليـه فنهض واقفا ، وصافحته مرحبـا به ثم عدت إلى مكاني . وتلقيت في اليوم التالي رسالة لئيمـة مـن شرفنطح مستنكرا فيها مصافحتى لعبد الناصـر معتبرا ذلك تطاولا مني لا مبرر له . ومثلت أمام مجلس تأديب برئاسة عمر الكارب حكم على بقطع مرتب ثلاثة أيام عقابا لمصافحتـى جمـال عبد الناصر!! لكن محمد العوام نمر ألغـي القرار بعد اطلاعه على الحكم وحيثياتـه بوصفه عضو مجلـس الإدارة المنتدب للشئون الإدارية . والعوام نمر من طلبة الكلية الحربيـة الذين ألهبـوا ثورة ١٩٢٤ ، وحكم عليـه بالسجن لمدة عشر سنـوات ، والتحق بعد الافـراج عنـه بخدمة الحكومة حيث عين خبيرا زراعيا ،ظل يتـدرج إلى أن أصبح أول وكيل سوداني لوزارة الزراعة قبل تعيينه عضوا في مجلس إدارة الجزيرة .

الناس كما يقولون عبيد السلطان إذا عطست دجاجته أصابتهم جميعا إنفلونزا الطيور . هكذا وجدت نفسي في مساعد محاصرا داخل سياج من الأعداء ينالون مني ما ينالون ، ويتربصون بي الدوائر في مسلك أبعد ما يكون عن العفة والمروءة ومكارم الأخلاق . كل ذلك زلفى وإرضاء للسلطان!! وصلوا إلى حد نقلوا فيه العزابة إلى بيت مجاور لي وقطعوا سياج أشجارالحناء الساتر بينه وبين بيتى!! تقلصت حريتنا داخل البيت ، وأصبحنا نرى العزابة يتجولون في ملابسهم الداخلية دون حياء ، ونسمع كلامهم الفاحش في أغلب الأحيان ، وتؤرقنا صيحاتهم وضجيجهم في لياليهم الصاخبة . كانت الكهرباء تقطع عنا أياما عديدة ، وعامل الصحة لا يأتي بانتظام لتغيير جرادل المرحاض . وأصبحت حديقة منزلي خاوية على عروشها لعدم العناية بها حتى أني اقترحت على سالم عامر ضابط البساتين أن يحضر المزارعين أصحاب الحدائق ليروا عاقبة الإهمال بدلا من الحديقة المهملة التي خصصها لهذا الغرض بجوار المشتل . حتى دفع الله الجزار أصبح خادمي يعود منه بالخيبة مرات كثيرة ، بحجة أن اللحم محجوز في ذلك اليوم لهذا أو ذاك من الموظفين . وتضم مساعد أكثر من خمسين عاملا وموظفا يعملون في فروع مصلحة الخدمات الاجتماعية المختلفة بالإضافة لسكان القرية . ولا شك في أن موقفهم العدائي مني كان بإيعاز من السلطان وتنابلته ، أو أنهم كانوا طامعين في التقرب منهم ونيل رضائهم . لا يكاد يمر يوم طيلة السنوات الأربع التي أمضيتها في الجزيرة دون أن أكون هدفا للمكايدات والمضايقات مما جعلها أتعس سنوات حياتي واكثرها بؤسا وشقاء!! لقد جئت إلى الجزيرة مشحونا بالأحلام والتطلعات لخدمة قضية الاشتراكية في مجتمع مشروع الجزيرة الذي يعد نموذجا يقتدي به في تصوراتنا لما ينبغي أن يكون النظام الاشتراكي عليه في السودان بعد الاستقلال . كنت في ثقة تامة من العمل بنجاح من أجل ذلك تحت رعاية مكي عباس أول من جاهر بالدعوة للجمهورية الاشتراكية في السودان . وتغير الحال بعد مجيئ مكاوي أكرت محافظا لمشروع الجزيرة . يجمع كثيرون ممن عرفوا مكاوي على كفاءاته الإدارية وعلو كعبه ثقافة وفكرا ، لكنني لم ألمس فيه هذه المميزات خلال معاصرتي له في الجزيرة التي جاء ها مبعدا ليحل احد المقربين من الحكومة مكانه في

وزارة الداخلية في الخرطوم . لقد مر مكاوي قبل ذلك بمواقف مماثلة خلال عمله في الحكومة في العهد الوطني إذ حرم لأسباب لا يراها مقبولة من تقلد منصب أول وكيل لوزارة الداخلية ، أو منصب مماثل في وزارة المالية بدعوي أنه كان وكيلا لها قبل قيام الحكومة الوطنية . كان مكاوي يطمع أيضاً عند الاستقلال ، في منصب وكيل وزارة الخارجية الذي ذهب لغيره . هذا التخطي المتكرر خلق في نفسه أحقادا لا حد لها غذتها عقدة لازمته طيلة حياته لمسها الشاعر الساخر محمود الفكي لمسا خفيفا في قصيدته الساخرة " الاستغاثة " حين قال :

بدرة الإداري ولا أداري وأقرب الناس من للإداري
زميلنا المكاوي ذو الرجولة من سودته لحمة الخؤولة

وذكر لي بعض معاصريه في كلية غوردون التذكارية أن مكاوي أول دفعته ، كان يحلم بأن يتخرج طبيبا ، وحال دون ذلك سواد بشرته فقد كان الإنجليز يرون أن عادات وتقاليد أهل السودان في ذلك الزمان لا تسمح لسود البشرة بمزاولة مهنة الطب خاصة في محيط النساء!!

كتب مكاوي مقالا في واحدة من كبريات الصحف اللندنية في أول الخمسينات مشككا في تهيؤ السودان للاستقلال وحمل في حديثه عن الجنوب حملة قاسية على تجار الرقيق لما ارتكبوه من المآسي مستشهدا بوالده الأمير سليمان أكرت أحد قادة الثورة المهديةالذي ضمه ابنه مكاوي لزمرة تجار الرقيق الموصومين . وقوبل المقال باستهجان واستنكار في جميع الأوساط في الخرطوم ، وعلقت عليه في صحيفة الوطن تعليقا عنيفا وصفت فيه كاتب المقال بعقوق الوالدين . ولا بد أن ذلك قد أوغر صدره على كما أوغره وقوفي مع الداعين لاختيار محمد عثمان يس وكيلا للخارجية ، وكنت بالفعل أعلاهم صوتا وأكثرهم تحركا بين صانعي القرار . أخبرني محمد عثمان ياسين أنه عندما تلقي عرض توليه ذلك المنصب ، وكان مديرا لأعالي النيل أرسل قبل قبوله العرض برقيات لزملائه المديرين الآخرين من قبيل المجاملة ، فردوا عليه مهنئين باستثناء مكاوي أكرت مدير كردفان الذي أرسل برقية احتجاج إلى رئيس مجلس الوزراء!! هكذا جاء مكاوي إلى بركات مثقلا بكل هذه الأحقاد التي ولدتها أحداث

كنت طرفا في بعضها ، ومن الطبيعي أن أصبح حائط المبكي الذي يذرف دموعه عليه تشفيا وانتقاما لا تهجدا ودعاء ، أو كنصب الشيطان في منى تنهال الجمرات عليه من كل جانب . وتكشـف لي جانب آخر من أحقاد صاحبنا حـين الإعداد لاصدار عدد خاص بمناسبة مرور عشر سنوات على تأميم مشروع الجزيرة . أعددت مقالا عن قصة التأميم منذ الاجتماع السري الذي عقد في دار الإمام عبد الرحمن المهدي في عام ١٩٢٢ وأعدت فيه مذكرة بمطالب وطنية شملت تأميم المشروع . لكن واحدا من بيت المهدي كان حاضرا الاجتماع أفشي أمر المذكرة لقلـم المخابـرات فصودرت قبل وصولها إلى الحاكم العـام . رويت في المقال كيف تحقق تأميم المشـروع في عام ١٩٥٠ ودور مكي عباس في ذلـك . وكيف أصبح أول سوداني تولي منصب المحافـظ . لكـن مكاوي أمر بعدم نشر المقال وبألا يرد اسم مكي في العدد الخاص اطلاقا ؟؟ ولمـا أخبرت بشير محمـد سعيد أخذ المقال ونشره في صحيفة الأيـام . وصدر عدد صحيفة الجزيرة الخاص دون أية إشارة فيه لمكي عباس . حزنت لذلك حزنا شديدا ، وآلمني أن ينحدر رجل في قامة مكاوي ملء العين والبصر لمثل هذا الدرك من الخصومة والعداء . ولكي أخلي نفسـي من المسئولية أمام الله وضميري صـدر العدد خاليا من اسمي كرئيس تحرير لصحيفة الجزيرة ، حتى الافتتاحية لم تحمل اسمي ، وهربت فيها من الواقع القابض للنفس إلى الخيال حيث تنبأت بيوم تتحول فيه شجيرة القطن بفضل التكنولوجيا الحديثة إلى مصنع ينتج الملابس جاهزة حسب الطلب بدلا من القطن الخام وتصبح عاصمة الأزياء وصرة العالم مدينة في قلب المنطقة التي تقع فيها الآن حقول النفط في أعالي النيل . وفكرت مراراً في الاستقالة لولا خوفي مـن أن يحل بي غضب من الله إن قطعت رزقي بيدي ، فآثرت الصبر عسى يرعوي السلطان وتنابلتـه ، أو يجعـل الله لي مخرجا يرضاه . وسنحت الفرصـة للمتربصين عندما اتفق اتحاد مزارعـي الجزيرة وإدارته والحكومة على إدخـال تعديلات خطيرة على قانون مشروع الجزيرة ، تضمنـت تعديلا يسمح بتمثيل المزارعين في مجلس الإدارة . واتخذت صحيفة الجزيرة موقفا مضـادا لأن تلك التعديلات تشكل خطرا داهما على المشروع الذي كان انتاجه من الأقطان حينـذاك يوفر نحو ستين في المائة من إيرادات الدولة . ونتيجة لموقف الصحيفة تلقيت خطابا

بتوقيـع عمر الكارب مساعد مديـر الإدارة يخطرني فيه بالفصل من الخدمة فورا وإيجازيا . لم أقـدم إلى مجلس تأديب ، أو تعطـي لي فرصة الدفاع لدحض الاتهامات الكاذبة التي وردت في الخطاب . وسلمت إلى نائبي كل شيئ بما في ذلك السيارتين تنفيذا لما جاء في الخطاب . لم يراعـوا أننـي مع أسرتي في قرية لا يمكن البقاء فيها بدون سيارة ، فهي تبعد عن مدني أقرب المـدن لها بنحو ٢٥ ميـلا . بينما تقع المدرسة التي فيها أطفالي علـى مسافة خمسة أميال . لكـن الله قيضـ لي صديقاً شهماً ووفياً هو دكتـور سيد أحمد عبد الهادي فقد أرسل لي من مـدني سيارتـه الفارهة التي بقيت معي إلى أن غادرت مساعـد في غضون اسبوعين . كانت أفخـم من سيارة محافـظ المشروع . وما كانت إدارة المشروع لتجرؤ على اتخاذ قرار بالاستغناء عن خدماتي ظلت تنتظره منذ زمن بعيد لولا علمها بأنها لن تجد اعتراضا عليه من الحكومة واتحـاد المزارعين بسبب موقفي من تعديل القانون . علـى أية حال لم أحاول الطعن في القرار إداريا أو قضائيا فان من طبعي الترفع عن منازلة خصم لا تردعه دواعي النبل والمروءة ومكارم الأخلاق عن سلوك طريق المذمة والعار .

ومن سخرية القدر أن مصلحة الخدمات الاجتماعية كانت أولى ضحايا تمثيل المزارعين في مجلسـ إدارة المشـروع تجسيـدا للحكمة القائلة " من حفر لأخيه حفـرة وقع فيها " فهي التـي حملت لواء العداء ضدي وكان جميع العاملـين فيها وراء أية مؤامرة أو مكيدة عانيت منها . تنازلت إدارة المشروع عن مصلحة الخدمات الاجتماعية وحولتها إلى فرع من فروع اتحاد المزارعـين ، يعمـل شرفنطح تحت إمرة من كانوا يقفون بالأمس علـى بابه في انتظار عطاياه . هكـذا صـار السيد مسودا والمسود سيدا نافذ الكلمـة . وسبحان الذي يعطى الملك من يشاء وينزعـه ممن يشاء!! ولحقـت اللعنة بعدد من أولئك العاملين الذيـن عاصرتهم وعكروا صفو حياتي .وسأروي دون ذكر الأسماء مصير ثلاثة منهم لا تشفيا أو شماتة وانما ليكون عبرة لكل من لا يتعفف عن الإضرار بالناس ، صنو الإشراك بالله كما جاء في الحديث الشريف .

دخلـت مرة على الحاج أبوزيد صاحب مطبعة التمدن في الخرطوم وألفيت معه رجلا

شاحبا غائر العينين رث الثياب تحسبه واحدا من الواقفين على أبواب المساجد . ولما هم الرجل بالخروج ناوله حاج أبوزيد حفنة من النقود وناولته مثلها عطفا عليه . وبعد خروجه سألني حاج ابوزيد متعجبا إن كنت أعرف الرجل ؟؟ قلت لا . فضحك حاج أبوزيد وأخبرني أنه فلان!! تذكرت في تلك اللحظة حادث انفصال عجلة سيارتي الذي أوشكت فيه على الانتقال إلى العالم الآخر فقد كان فلان الفاعل العابث بصامولات العجل .

وفلان آخر نكب بعد أشهر قليلة من مغادرتي الجزيرة بموت طفلته باكورة انتاجه . ماتت الطفلة أمام عينيه حرقا اثر نار شبت في البيت . وقد خلد الشاعر المهندس محمد ناصر في قصيدة هازلة أنف فلان هذا الفطساء ، حين شببها الشاعر ببعرة البعير . وفلان هذا من رواد الحركة الإسلامية منذ عهد بابكر كرار في جامعة الخرطوم ، غير أن إسلاميته الكاذبة تجلت في شهادته بالزور في حقي وبنيت عليها الاتهامات التي حواها خطاب فصلي عن الخدمة .وشاركه في شهادة الزور "فلان " ثالث قضى نحبه في البيداء من شدة الظمأ ونهشت الصقور والسباع جثته قبل العثور عليها . والقائمة طويلة وكفي في ما ذكرت عبرة وعظات .

لست نادما حتى اليوم على موقفي من تعديل القانون الذي أم بموجبه مشروع الجزيرة ليصبح ملكا للدولة . فقد أثبتت الأيام ، أن التعديل سبب انهيار المشروع وضياعه ولم يبق منه سوى شبح عالة على الدولة لا عائلا لها!! ولن تجدي المحاولات الجارية لإحيائه وفقا لما تسمى ببرامج الخصخصة التي سوف تفضي بنا في آخر المطاف إلى تمكين دولة الأغنياء التي حذرنا القرآن منها وتنبذها كل المبادئ الرامية لخير الإنسان . الاتجاه الغالب اليوم (يناير ٢٠٠٧) يتمثل في تفتيت المشروع إلى ملكيات صغيرة على غرار حوانيت الأحياء لتفترسها تدريجيا الرأسمالية المحلية والأجنبية مثلما حدث لمؤسسات الدولة التي شملتها الخصخصة في بريطانيا . هذا المصير الشنيع يجب أن يدركه المزارعون الذين فرحوا بهذا الاتجاه الغالب ، وهللوا له مثلما هللوا من قبل لتمثيلهم في مجلس الإدارة . السبيل الوحيد لاحياء مشروع الجزيرة هو العودة إلى القانون الذي أم بموجبه في عام ١٩٥٠ دون تعديل أو تبديل ليبقي

المشروع مثلما كان من قبل ملكا للشعب تحت إدارة موحدة .

تعـود نشأة مشـروع الجزيرة إلى النصـف الأول من عشرينات القـرن الماضي ضمن مخططـات الهيئة الأمبرطورية البريطانيـة لزراعة القطن ، التي عهـدت الحكومة البريطانية لهـا بالتوسع في زراعة القطن طويل التيلـة في مستعمراتها ، للحد من اعتماد صناعة النسيج في بريطانيـا علـى القطن الأمريكي قصـير التيلة . وصادف أن سير جيمـز كري الذي عين مديـرا للهيئة كان قد شغـل منصب أول مدير لمصلحة المعـارف السودانية لدى تأسيسها في مطلـع القرن الماضي . وهكـذا أصبح السودان مـن أولويات الهيئة . ويعـود الفضل إلى سير جيمز كـري في تكوين الشركة الزراعية البريطانية التي تولت أمرالمشروع حتى تأميمه . ودعا قيـام المشروع إلى إصدار قانون أراضي ١٩٢١ الـذي تم بموجبه استئجار الأراضي اللازمة من ملاكهـا بواقع عشرة قروش مصريـة للفدان الواحد . كما تم نزع الأراضي اللازمة لمد القنوات وبنـاء المساكـن والمنشئات مقابل تعويض ملاكها بواقع جنيه واحد للفدان ومنها أراض ملك لجدي مالك ، بينها الأرض التي أقيمت عليها مباني رئاسة المشروع في بركات . وقد انتزعت مـن جدي مالك قبل ذلك الأرض التي عليهـا مستشغي مدينة مدني . ولجدي مالك أيضاً أراضـ شاسعة مستأجرة في الجزيرة يقع معظمهـا في منطقة قبيلة الخوالدة التي ارتبط جدي مالـك بصلات حميمة معها . وقد نص العقد المبرم بـين حكومة السودان والشركة الزراعية البريطانية على امكانية تجديده بعد ٢٥ عاما لكن الحكومة امتنعت عن ذلك ، فأممت المشروع في عـام ١٩٥٠ أي قبـل ٦ سنـوات تقريبا من استقلال السـودان . تم تأميم المشروع على يد السلطـة الاستعمارية ليكون ملـكا للشعب ، وتجري خصخصته الآن على يد السلطة الوطنية ليصبـح ملـكا لدولة الأغنياء!! لقد كان تأميم مشروع الجزيـرة تجسيدا صادقا ونموذجيا للفكر الاشتراكي القائم على العدل والمساواة حيث يصعد الأدني إلى مرتبة أعلى بينما يجد من في المرتبة الأعلى حقه كاملا دون أن يستحوذ على حق سواه . الفكر الاشتراكي لا يقر التطرف والاعتساف والاجحاف وانما يلتزم بالانصاف : انصاف العاجز بحفزه واستنهاضه لكي يصبح

قادرا وانصاف القادر بعدم حرمانه مما يكسبه بفضل قدراته ومميزاته . انها الفطرة السليمة التي تعترف بالتنوع والتفاوت كأساس للانصاف والتي عبر عنها الإسلام دين الفطرة محذرا " كي لا يكــون دولــة بين الأغنياء منكم " . افتونا يا أهل الذكر أيهما أقرب إلى جوهر الإسلام أهو التأميم أم الخصخصة ؟؟ وغاية القول أن مشروع الجزيرة من أعظم منجزات الإدارة البريطانية في عهــد الحكم الثنائي ويعتبر من أهــم دعائم نهضة السودان المعاصر . ولا يقلل من أهميته أن الإنجليز أنشأوه في الأصل لفائدة صناعة النسيج البريطانية . لقد استفاد السودان منه أيضاً كاستفادة الإنسان من العسل الذي يصنعه النحل لتغذية صغاره لا لمنفعة الإنسان ، يتعاطاه شاكرا ، أو كالثمار التي تنتجها الشجرة حفاظا للنوع لا طعاما للبطون الشاكرة أيضاً .

تركــت الجزيــرة صحيفة ومشروعا غــير نادم ونفضت قبل صعــودي إلى عربة القطار حذائي من غبارها عملا بحكمة المسيح عليه السلام كما جاءت في الكتاب المقدس : " وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا حتى الغبار الذي بنا من مدينتكم ننفضه عنا "!! أمضيت عاما كاملا في العاصمة عازفا عن العمل . لقد كنت في حاجة شديدة لفــترة استجمــام طويلة أو بالأحرى لفــترة نقاهة لا بد منها للمريض عقــب شفائه من داء عضــال أنهكه سنوات عديدة . أمضيت العام في صحبة ابرهيم بدري وتوفيق صالح جبريل . نلتقي كل يوم تقريبا وينضم إلينا بين حين وآخر الشاعر الشيخ محمد سعيد العباسي منشدا قصائده الفريدة وأشعار غيره بصوت شجي رخيم ، يفيض رقة وعذوبة ولا غرو فهو القائل :

غيري شدا فتعالوا اليوم واستمعوا شعر النواسي من تلحين اسحاقا
شعر هو الأدب العالي أنسقه كالدر عقدا وكالخيري أطباقا

وينضم إلينا أحيانا صديقنا الأديب الفنان محمد عثمان ياسين وأسعد الأسعد سفير لبنان وهو راوية لأشعار أحمد شوقي ويعبده مثلما يعبده العباسي . ولأيام الجمعة طعم خاص يميزهــا عن بقية الأيام ، إذ كنــا نلتقي منذ الصباح في الدهليز – منزل توفبق – وينضم إإلينا صديــق آخر من المعلمين القدامي مشهور بكنيته المناقضة لاسمه الحقيقي ، وكثيرا ما تلحق

به زوجته في منتصف النهار . ما أن نسمع جلجلة صيحاتها ودقات قدميها التي تحكي طبول الحرب حتى يهرع صاحبنا مختفيا وراء جوال البلح تحت السرير ، نفس المكان الذي يختبئ فيه كل مرة تداهمنا زوجه فيها ، تاركا حذاءه خلفه ، مما لا يدع سبيلا لانكار وجوده معنا . وتتجه الذئبة المسعورة -- كما يدعوها صاحبنا -- إلى السرير دون أن تلتفت يمينا أو يسارا ، وتسحب المسكين من رجليه فيخرج مرتعدا رافعا محفظته بدلا من المنديل الأبيض دليل الاستسلام ، فتخطف الذئبة المسعورة المحفظة ثم تشبعه صفعا وردحا ، غير عابئة بتوسله وتضرعه ، ولا تستجيب لشفاعتنا . علمتنا التجربة ألا نزيد على زجرها بالكلام فقط معسولا في لطف أو قاسيا في عنف ، أما إذا تعدينا الخط الأحمر إلى الفعل فإن مصير الفاعل لن يكون بأحسن من الزوج المنكوب ، عملا بالمثل القائل " الحجاز أديهو عكاز " . كنا نبقى في مكاننا متفرجين إلى أن تخمد المعركة غير المتكافئة من تلقاء نفسها مثلما تخمد النار حين ينفد الأوكسوجين . سألت صاحبنا مرة كيف انجب ست بطون من الذئبة المجنونة فرد قائلا : هذا السؤال تجد الإجابة عليه عند النعجة أم شوك!! النعجة أم شوك نوع من القنافذ يصل طول الواحدة من اشواكه إلى نصف قدم ، وهي أشواك كالسهام الحادة المسمومة يطلقها على أعدائه دفاعا عن نفسه!! وقد أراحنا جرقاس كلب توفيق من غارات الذئبة المسعورة أيام الجمعة . أشرنا على صاحبنا أن يغير مكان اختبائه في المرة القادمة . ولما سمعنا نذر مقدمها اختفى صاحبنا وراء خزانة الملابس ، بينما قذف توفيق بعظمة تحت السرير سرعان ما لحق جرقاس بها ، وكان جرقاس مشغولا بأكلها عندما مدت الذئبة المسعورة يدها لتسحب الزوج كعادتها كل مرة . انقض جرقاس عليها ظنا منه أنها تريد أخذ العظمة . وأطلقت الذئبة المسعورة المذعورة صرخات داوية ضاعفت من هياج جرقاس الذي ظل يدور حولها مزمجرا ومكشرا بأنيابه . ثم جلست الذئبة على الأرض ، ويبدو أن جرقاس تذكر العظمة فعاد إليها تحت السرير . وتسللت الذئبة المسعورة حينذاك إلى الخارج مرتعدة في خطوات خافتة ، ولم نرها ثانية منذ ذلك اليوم . ويعلم دائنو توفيق – وما أ كثرهم – أن عليهم ألا يأتوا للدهليز لاسترجاع دينهم وإنما خير لهم أن يصطادوه في أي مكان آخر ، لأن جرقاس دائما بالمرصاد .

يعرفهم واحدا واحدا ، لسر يعلمه الله ، ويخيفهم عند الباب بنباحه وأنيابه البارزة . كما يخيف سليمان كشة الذي يأتي طالبا العطف نقدا " من معدم مثله " كما يقول توفيق .

غادرت السودان في مارس ١٩٦٢ للعمل مع البي بي سي بعقد لمدة ثلاث سنوات على أن تكون الأشهر الستة الأولى فترة اختبار ، يجري خلالها تدريبي على العمل الإذاعي ويحق لأي الطرفين بعدها إنهاء العقد إذا رأي ذلك . واعتبرت هذا إجراء شكليا إذ أن المسئولين في البي بي سي أبدوا رغبتهم في أن آتي للعمل فيها وفاتحوني برغبتهم هذه خلال زيارتي إلى لندن قبل أن أترك الجزيرة . وقد مررت بكل إجراءات التعيين المعمول بها ، وشملت إختبارات تحريرية وشفهية أديتها في مكتب السفارة البريطانية بالخرطوم . وتم التعاقد معي على ضوء ذلك بالإضافة لتزكية ثلاثة هم : توم ليتل مخدمي سابقا ومستر نيكلسون مدير أعالي النيل سابقا ومحمد صالح الشنقيطي رئيس آخر برلمان في السودان وهو شخصية معروفة في الأوساط السياسية والقانونية في بريطانيا . خضعت لكل الإجراءات المتبعة بلا استثناء أو محاباة ، على عكس ما يروج له بعض ذوي النفوس المريضة . وصل معي إلى لندن خلال يومين من وصولي إليها زميل فلسطيني (يحيي الكوسا) المعلم بمدارس اللاجئين الفلسطينيين في لبنان . وبدأنا سويا فترة التدريب أمام الميكرفون تحت إشراف روني آيك وحسن الكرمي . طلب مني بعد اسبوع الانتقال للعمل مترجما للأخبار والأحاديث السياسية وإعداد برامج أخرى وإخراجها ، مثل لكل سؤال جواب ، والسياسة بين السائل والمجيب ، وبرنامج المرأة والجيل الجديد . كان هنالك اثنان منتدبان من الخارجية البريطانية لكتابة الأحاديث السياسية اليومية :على هامش الأخبار ، وشئون الساعة ، ومقتطفات من الصحافة البريطانية . وكنت كثيرا ما أناقش مندوبي الخارجية أو ديفيد ميتشل منسق البرامج المشرف على سير العمل من يوم ليوم حول ما يعهد إلى بترجمته إما بغرض التغيير فيها أو تعديل بعض العبارات لكي تكون مناسبة للنقل إلى العربية دون اخلال بالمعني المقصود ، فأنا لا أؤمن بمصطلح «الترجمة» المتعارف عليه وإنما هنالك «نقل» من لغة إلى أخرى . وهو النهج الذي سار عليه العرب الأقدمون ممن نقلوا

إلى العربيــة كنوز المعرفة من لغات أخرى . الترجمة الحرفية قد تخل بالمعني المقصود ، وتفقد العربيــة ما تمتاز به عن سائر لغــات العالم من بلاغة وبيان ومحسنات أخرى . وتجرد الترجمة الحرفيــة الكلمات العربيــة من شحناتها الكهربائية . والفرق واضــح بين النقل والترجمة في أعمال عباس محمود العقاد وابرهيم عبد القادر المازني مع أنهما يغترفان من نبع واحد . العقاد أقرب إلى المترجم والمازني ناقل مجيد . وأعجب ديفيد متشل إعجابا شديدا بعملي ووثق في قدراتي واستيعابي للقضايا السياسية إلى حد أخذ يكلفني فيه بكتابة الأحاديث السياسية ، وهذه أول مرة في ذلك الزمان يكلف فيها عربي من العاملين في البي بي سي بمثل هذه المهمة . ولا أعلم أن عربيا كلف بمثلها حتى آخر عهدي بالبي بي سي . كنت سعيدا بأدائي مترجما وكاتبا ومعدا ومخرجا للبرامج . وسعدت أكثر بأن أكرم صالح المذيع المبدع كان باستمرار توأمي في نوبة الأخبار ، يقرأ النشرات التي أعدها ويدربني في الوقت نفسه تكرما منه على الميكرفون كلما سنحت الفرصة في الأستوديو أو في غرفتي في الفندق في أوقات الفراغ . أما من الناحية الرسميــة فلــم تتح لي الفرصة لمواصلة التدريب . وأوكل إلى حسن الكرمي قراءة ما أعده من الأحاديث السياسية . جئت معه مرة مبكرا إلى الأستوديو فطلبت من الكرمي أن أقرأ حديث شئــون الساعة بغرض التدرب على الميكرفون ريثمــا يأتي المهندس ، ذهب الكرمي إلى غرفة الأجهــزة لكي يتابع قراءتي . قــرأت الحديث وأبدى الكرمي إعجابــه مع بعض الملاحظات والارشادات . ثم جاء المهندس وتم تسجيل الحديث بصوت حسن الكرمي . ولما اقتربت فترة الاختبــار مــن نهايتها ذهبت إلى مس برايتون رئيسة شئــون المستخدمين لأطلب منها تذاكر الطائــرة لاحضــار أسرتي من الخرطوم إذ كنت واثقا من رضــا الإدارة عن أدائئ خلال الفترة الاختباريــة ،لكني ذهلت عندما ناولتني مســ برايتون خطابا جاهزا أمامها تخطرني فيه بأن الإدارة رأت الاستغنــاء عــن خدماتي لأن صوتي ليس إذاعيا ، رغم أن أدائي كمترجم ومعد ومخــرج للبرامج كان ممتازا . وأعربــت مس برايتون عن أســف الإدارة لأن سياستها الجديدة تشــترط أن يكون الواحد إذاعيا شاملا صوتــا ومترجما!! هذه السياسة الجديدة لم تطبق على أحــد قبلي أو بعدي وكأنهــا وضعت خصيصا لسد الباب أمامي ، لم تطبق حتى على يحيى

الكوسا الذي اعتمد تعيينه في اليوم نفسه وأرسل في دورة لتعلم اللغة الإنجليزية على حساب البي بي سي .!! وعندما قابلت المدير تكشف أن الإدارة استندت في قرارها على معلومة كاذبة مفادها أني أخذت حظي كاملا من التدريب خلال فترة الاختبار ، لا أياما معدودات ، وأن حسن الكرمي عرض على اللجنة تسجيلا يثبت ضعف إدائي أمام الميكرفون . ودافعت بأني عندما طلبت الالتحاق بالبي بي سي لم أدع أن لي خبرة سابقة بالعمل الإذاعي ، وكنت أنتظر أن يتم تدريبي عليه خلال فترة الأشهر الستة الاختبارية التي لم أنل خلالها تدريبا سوى يومين أو ثلاثة . أما التسجيل الذي عرضه حسن الكرمي على اللجنة فإنه كان محاولة مني لتدريب نفسي بنفسي لا جزءا من برامج التدريب . وما كنت أعلم أن الكرمي قام بتسجيل تلك المحاولة . إنها مؤامرة دنيئة أحزنني أن يكون على رأسها رجل في مكانة حسن الكرمي بعلمه ودينه وشيبته . على أية حال مرت الأزمة بسلام وسحبت الإدارة قرارها في غضون أيام قليلة ، على أن أقضي فترة الشهرين القادمين في التدريب فقط . ودخلت في مرحلة التدريب الجديدة . طلب مني في اليوم الأول قراءة نشرة أنباء قديمة كان من حظي أنها من إعدادي فقرأتها أمام الميكرفون بحضور روني آيك المسئول عن التدريب ومحمد البيبي كبير المذيعين وخبيرة الأصوات في البي بي سي . هنأوني ثلاثتهم ، وقالت الخبيرة إنها سمعت صوتا فريدا ما سمعت مثله من قبل إلا نادرا ، بينما اتفق آيك والبيبي على أني لست في حاجة لمزيد من التدريب . فأخبرتهما حينذاك بأني كنت أتدرب في ساعات الفراغ خلال الأشهر الماضية تحت إشراف أكرم صالح!! والظاهر أن الإدارة أحست بتانيب الضمير على ما وقعت فيه نتيجة للتضليل فلم تكتف بإعادتي للخدمة لمدة ثلاث سنوات ، وإنما بشرتني باستمراري في العمل في وظيفة مستديمة عند انتهاء العقد . وصدقت البشري لما حل أوانها .وأنا مدين بالفضل لأكرم صالح ذلك الأخ النبيل الذي لا عيب فيه سوى حبه للناس حبا جارفا إلى درجة يهمل فيها ما على نفسه من حق ويحرمها ما يريده للآخرين من خير وسعادة وهناء . ينتمي أكرم لعائلة فلسطينية معروفة تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت وعمل قبل التحاقه بالبي بي سي معلما في الأحفاد بأم درمان ، كانت تلك بداية معرفتي به . أما حسن

الكرمي فقد التقيت به في السودان أيضاً عندما جاء مع فريق من المراسلين الأجانب لتغطية انتخابـات برلمان الحكم الذاتي . حكى لي محمد عثمـان ياسين إنه رافق فريق المراسلين في زيارة لكردفان . وتعود الكرمي كلما هبطوا في قرية الا نسلاخ عن الفريق للتحدث مع الأهالي علـى إنفراد . وفي إحدي المرات جاء أعرابـي إلى ياسين وقال له : الكافر داك كان قعد معانا شهر بس نخليهو يتكلم عربي كويس!! وأشار الأعرابي إلى الكرمي الذي كان منهمكا بعيدا في الحديـث بالفصحى مع مجموعة من الأعراب ، حسبـوه أوروبيا أعجميا ونصرانيا لبياض لونـه ولهجته العربية التي لم يألفوها وإن فهموا بعض مفرداتها . والعربية الدارجة في السودان غنية بالفصحي إلى درجة لا تدانيها الدارجة في البلاد العربية الأخري!! فأي بلد غير السودان تعـرف فيـه السحابة بالديمة كما يسميها الأقدمون ؟؟ اشتهر حسن الكرمي في البي بي سي ببرنامـج قول على قول الذي كان صديقنا الزميل فـؤاد جميعي يبدل حرفا واحدا منه بآخر فيصبـح شيئـا ناقضا للوضوء مكانه دورة المياه لا موجـات الأثير . هذا البرنامج كان يعده في الحقيقة أساتذة عرب في معهد الدراسات الشرقية في لندن الغني بالمراجع والمعاجم ، وللكرمي أجرالمناولـة . هذا سر يعلمه المطلعون على بواطن الأمور من معاصري الكرمي في لندن!! هذه المكيـدة الكرميـة التي نجوت منها بفضل مـن الله وعونه يجب ألا تؤخـذ بمعزل عن موقف الزمـلاء العرب آنـذاك تجاه السودانيين ، موقف يمكن وصفه بأنه غير ودي على الأقل مرجعه إلى تخوفهم على مستقبلهم من تحلي السودانيين بالصدق والأمانة في عملهم وولائهم للوظيفة مما أكسبهم اطمئنان المسئولين البريطانيين وثقتهم فيهم . ولا خلاف في أن السودانيين يتميزون بصفات تجعلهم أحب لقلوب البريطانيين من سواهم . نتيجة لهذا التخوف من السودانيين لم يظفر بوظيفة ثابتة في زماننا غير سودانيين اثنين (الطيب صالح وشخصي) بينما بلغ عدد من يشغلون تلك الوظائف من العرب الآخرين آنذاك أكثر من عشرة . وفصل عن الخدمة عثمان وقيـع الله أعظـم فنان في تأريخ الخط العربي بحجة أن خطـه ردىء!! وامتنعت البي بي سي العربية لمدة عشر سنوات عن تعيين أي مذيع من السودان رغم كثرة الكفاءات السودانية التي تقدمت لها ومنهم حمدي بدر الدين عميد المذيعين في الإذاعة السودانية وصوت أمريكا .

من نافلة القول أن نذكر أن هيئة الأذاعة البريطانية أنشئت بموجب فرمان ملكي كفل لهـا الاستقلال حتى عن الحكومة البريطانية استقلالا تاما من الناحية النظرية على الأقل. امـا من ناحية عملية فالأمـر في يد المسئولين والعاملين فيها، لهم أن يفعلوا ما يروقهم ولكن عليهـم أن يدافعوا عن مواقفهم بالحجة والمنطق، إذا تعرضوا للمحاسبة خاصة إذا كانت ثمة شكـوي من جهات متضـررة. وأعظم ما ترفضه البي بي سي الكـذب في الأخبار والتجني المتعمد دون مبرر ومسوغات في التعليقات. وأذكر على سبيل المثال أن قسم الأخبار المركزي أرسـل لي خبرا مـن مصادرعربية أردفه بعد قليل بنفي من مصـدر اسرائيلي. تجاهلت ضم النفي في حينه لنشرتنا العربية. ولما احتج رئيس قسم الأخبار المركزي وهو صهيوني معروف اعتـذرت بأن النفي وصلنا متأخرا، ثم طلب مني ضمـه للنشرة القادمة فاعتذرت أيضاً بأن النفي جاءنا من مصدر واحد فقط، وعلينا أن ننتظر حتى يصلنا تأييد له من مصدر ثان على الأقل تمشيا مع سياسة البي بي سي في نقل الأخبار. ولو كان في مكاني متعاطف مع الدولة الصهيونية لفعل العكس. ومن حسنات سياسات العمل في البي بي سي في زماننا إنه كان من المسموح لنا مناقشة المسئولين ومراجعتهم في أية مادة اخبارية اوغيرها قبل إذاعتها. كما أن من حق المذيع الاعتذار دون أن يحاسب عن قراءة ما يطلب منه قراءته، لكن الويل له إن لم يعتذر وأسقط عند قراءته الكلمة أو العبارة موضع اعتراضه. ولا يكمن تفوق البي بي سي العربية على زميلاتها العربيات في رقي أجهزتها أو كوادرها. ففي زماننا كانت أجهزتها عتيقة لـدي مقارنتهـا مع العربيات الأخريات التي يمتلك بعضها أرقـي ما وصلت إليه التكنولوجيا الحديثـة. أما الكـوادر ففي المحطات العربية أفذاذ أعلى خـبرة وموهبة ممن في البي بي سي العربيـة. ورغم ذلك ظلـت البي بي سي العربية تتسنم القمة ومكان الصدارة لأسباب منها توفـر المنـاخ المواتي للإبداع. هـذه ميزة معدومة تماما في بلادنا العربيـة، حيث تبدأ نشرات الأخبـار بمقابلات وتحركات الحاكم وتصريحاته الخالية من أيـة قيمة اخبارية!! وقد تتضمن النشـرات أخبارا كاذبة تتبعها تعليقات فجـة لأسباب معروفة لدي الجميع. كل ذلك يفقد الإذاعات المحلية العربية مصداقيتها ويجردها من أي قدرة للتنافس مع البي بي سي العربية

التي تتمتع أيضاً بميزة أخرى تضمن تفوقها على الدوام تتمثل في تقديم ما لا تجرؤ على تقديمه وسائط الإعلام الأخرى في بلادنا العربية!! هذه الميزة الأخيرة سر بقاء البي بي سي في القمة حتى اليوم وستظل كذلك طالما ظلت متمسكة بها . وكنت أقول لمن يأتون إلينا في دورات تدريبية إنكم أعلم منا بما جئتم من اجله وأقدر عليه ، وخير أن يأتي بدلا عنكم المسئولون عن الإعلام في بلادكم ، ليقفوا على ما تنعم به البي بي سي العربية من مناخ موات للعطاء والإبداع . استقلال الإذاعات في عالمنا اليوم لا تضمنه الحكومات التي هي في الوا قع خطر عليها .وأية حكومة تدعي عكس ذلك فهي كاذبة . فالاستقلال الحقيقي للإذاعة في أي مكان مصدره الشعب ، الضامن لاستقلالها والمنافح عنه كما هو حادث في حالة هيئة الإذاعة البريطانية ﴿البي بي سي﴾ . استطاعت البي بي سي بفضل ذلك أن تتحدى ونستون تشرشل رئيس الوزراء وتنتصر عليه ، وأن تفعل الشيئ نفسه ضد خليفته أنتوني إيدن في واقعة العدوان الثلاثي على مصر . وغاية القول أن العمل في البي بي سي له إيجابياته ولا يعني بالضرورة العمالة لبريطانيا . وليس من المستغرب صدور مثل هذا الاتهام من المواطنين العرب لأن الإذاعاتَ في بلادهم أبواق لحكوماتهم وطبول لها ، وتسيرها في الغالب أجهزة المخابرات ؟ ؟ إن الإمكانيات المتوفرة للبي بي سي العربية تتيح لها الفرصة دون سائر الإذاعات في العالم العربي وغير العربي ، لكي تلعب دورا مهما في مستقبل الديمقراطية وتوطيد دعائم الحكم الصالح من عدالة وشفافية واحترام لحقوق الإنسان في المنطقة العربية ، التي أخذت تهب عليها الآن رياح التحول من الظلام الذي تعيش فيه إلى عالم الانفتاح والضياء . وإلى أن تزول ظلمة التعتيم التي تفرضها الحكومات العربية على شعوبها يتعين على البي بي سي العربية أن تظل مصدر النور الذي يبدد الظلام لتمليك الشعوب العربية حقائق ما يدور حولها وكشف ما تتعمد حكوماتها إخفاءه . هنالك قضايا سياسية واجتماعية ودينية محظور تداولها على وسائل الإعلام في بلادنا العربية ينبغي أن تتصدى لها إذاعة البي بي سي العربية في شجاعة وإقدام ، ويقع العبء بصفة خاصة على العرب العاملين فيها ، ولن يجدوا في قوانينها وتقاليدها ما يعيقهم عن ذلك متى صدقت النيات واتسعت

الآفاق والأفهام . وتجدر الإشارة إلى أن الإذاعة العربية أكبر الإذاعات باللغات الأجنبية التي توجهها هيئة الإذاعة البريطانية من لندن بلغات أجنبية بلغ عددها في زماننا أكثر من ثلاثين تتجمع كلها في مكان واحد ليهيئ فرص الاختلاط بين جنسيات مختلفة مما يمكن للعاملين في الإذاعة العربية استغلالها للتعريف بالعرب وقضاياهم وتصحيح كثير من الأفكار والمفاهيم الخاطئة التي يروج لها أعداؤهم لتشويه صورة البلاد العربية في عيون العالم . أدهشني عند مقدمي إلى لندن أن معظم الزملاء يجهلون السودان ولا يعرفون عنه أكثر مما يعرفونه عن جزر الواق واق وبلاد تركب الأفيال . حتى أشقاؤنا المصريون لا تخرج دائرة معرفتهم بالسودان عن محيط البوابين والجرسونات في مقاهي القاهرة . سألني أحدهم مرة عن الجامعة التي درست اللغة الإنجليزية فيها . صدقني عندما قلت له لا توجد مدارس أو جامعات في السودان وأني تعلمت اللغة الإنجليزية خلال عملي جرسونا في مقهى الجيش البريطاني في الخرطوم!! أما الآخرون من غير أشقائنا المصريين فأمرهم عجب . كل ما يعرفونه عن السودانيين أنهم قوم متوحشون يعيشون في الغابة مع القرود طعامهم الفول السوداني الذي يسمونه في بلادهم " فستق العبيد " . استغرب أحدهم عندما رآني مرة أعصر قطعة ليمون على طعامي فسألني : هل تعرفون الحامض في السودان ؟؟ أجبته مستخفا بأن اسمه ليمون وأي شيئ في طعمه يسمي حامضا وهو كثير في السودان نضيفه إلى اللحوم البشرية . . . طبقنا المفضل في الأعياد!! صدق الجاهل المسكين أننا أكلة لحوم البشر وراح يسألني عن طعمها ونكهتها وهل نأكلها نيئة أم مسلوقة أو محمرة!! هذا من ناحية عامة ، لعلني لم أوفها حقها . أما في الناحية الشخصية فاني مدين للبي بي سي بأفضالها وحسن صنيعها ، ويكفي أنها هيأت لي نعمة الأمن وطيب المستقر . . . وما أدراكم ما هي ؟؟ عشت مع أسرتي في راحة وهدوء بال ما كنت لأجدهما لو بقيت في السودان . وأتيحت لبناتي وأولادي فرصة التعليم بالمجان دون مشقة أوعناء ، حتى أكملوا المراحل الجامعية . وهذه فرصة غير متاحة حتى اليوم في أرض الوطن . وتعليم الأبناء والبنات لإعدادهم للحياة في المستقبل ، هو بارجة القيادة في أسطول الأحلام التي تدور في رأس رب كل أسرة . ويقولون أن الأعمار بيد الله لكنني عندما أرجع إلى الوراء لا أجد من

زملائي رؤساء التحرير الذين عاصرتهم سوى واحد على قيد الحياة أطال الله عمره ، ولا أجد احـدا غيري من قيادات الحزب الجمهـوري الاشتراكي وحزب الاتحاديين . ذهبوا جميعا إلى رحـاب الله وبقيت مثل السيف وحدي!! أمضيت في خدمة البي بي سي زهاء ربع قرن وهي أطول مدة أمضاها أي عربي حتى الآن في خدمتها منذ تأسيسها في ثلاثينات القرن الماضي . باشـرت خلال تلك المدة الطويلة سائر المهام الإذاعية باستثناء تلاوة القرآن الكريم والغناء ولو أني اشتركـت مرة واحـدة عرضا في الغناء أمام الميكرفون في لقاء مع الفنان أحمد المصطفي . كانت أغنية مطلعها :

حاولت أنساك . . . وقلبي زاد في جروحو . . . وريني كيف الحي يودع روحو ؟؟

هذا المطلع عبارة عن كبسولة أودع الشاعر الجاغريو فيها مجمل فلسفة وحدة الوجود!! الأمر الذي أعجز جبران خليل جبران والتجاني يوسف بشير في أشعارهما . وعهد إلى بتأسيس برنامـج التجـارة والصناعة عقب تقريـر اللجنة الملكية برئاسة لورد عـن وزارة الخارجية التي توفـر ميزانيات الاذاعَات الموجهة بلغات أجنبية . أوصت اللجنة في تقريرها بأن تسخر الوزارة مهمامهـا الدبلوماسيـة لخدمة تجارة بريطانيا وصناعتها والعمـل على تعزيز علاقاتها مع بلاد العالم في هذا المجال .وبقيت مسئولا عن برنامج التجارة والصناعة اعدادا واخراجا وتقديما أكثر مـن عشر سنوات . وتذاع يوميا حلقة جديدة من البرنامج وأخرى إعادة لحلقة اليوم السابق . وأصبحت لي بفضل البرنامج علاقات واسعة مع رجال الأعمال العرب والشركات البريطانية والكيانـات الأخرى المرتبطة بها كوزارة التجـارة والصناعة والغرف التجارية واتحاد الصناعات البريطانيـة ، واتحـاد التجـارة مع الشرق الأوسط . وتمـت في ذلك العهد " صفقـة اليمامة " أعظم صفقة في تأريخ العلاقات التجارية والصناعية بين بريطانيا والمملكة العربية السعودية . سبـق البرنامـج ابرام الصفقـة بتغطية المعرض الـدولي لصناعة الطائـرات في فانبرا في أربع حلقـات متتاليات سلمـت تسجيلاتها للسفارة السعودية تلبية لطلبها . ولم نهمل في البرنامج نشـر الثقافة الاقتصادية ، وقد استرعي ذلك اهتمام دكتـور محيي الدين صابر مدير منظمة

اليونيسكــو العربية . فاقترح في إحدي زياراته جمع ما يقدمه البرنامج من ثقافة اقتصادية في كتــاب تتكفل المنظمة بطبعه ونشره . وفي الحقيقة أني وجــدت في برنامج التجارة والصناعة مــلاذا آمنــا بعدت فيه عن البرامج الأخرى ذات الطابــع السياسي التي قد أتعرض فيها إلى احتكاك مع المسئولين .

تركــت البــي بي سي في عــام ١٩٨٥ متقاعدا في نفس الدرجة التــي بدأت بها عام ١٩٦٢ . لم أظفــر بالترقيــة لأني بقيت حاملا الجنسية السودانية وحدهــا حتى اليوم ، بينما يعطي القانــون في بريطانيا الأفضلية في حالات الترقية لزملائي الكثيرين من العرب حاملي الجنسيــة البريطانية . ورضيت بهــذه التضحية حفاظا على بقاء دوري في الحركة الوطنية نقيا مــن كل شائبة أو شائنة واعتزازا بوطن كــم شقيت في سبيل حريته ، ولا أرضى بالخلد عنه بديلا .

محطة ١٤

دروس تعلمناها من محمد صالح الشنقيطي * عودة العلاقات الدبلوماسية بين لندن والخرطوم * لقاء مع الفيصل واطلاق سراح الإسلاميين من كوبر * مولانا الرشيد رئيس القضاء بنعل مثقوب في لندن * ضربة حظ ليبية سنوسية * مع ضباط الجنوب اليمني في لندن * حكايتي مع الوزير أبو حريرة ورئيس الوزراء صادق المهدي

أعلم أن كثيرين يتوقعون أن أعرض مستفيضا لانطباعاتي عن بريطانيا المنفى الاختياري الذي لا أزال مقيما فيه منذ عام ١٩٦٢ ، وأن أروي تجاربي ووقائع حياتي فيها . وسوف أفعل ذلك - إن شاء الله - في مقام آخر . أما في هذه المرة سأكتفي بما يقع في دائرة المؤانسة والمجالسة امتدادا لدوري في الحياة العامة في السودان قبل انتقالي لبريطانيا .

عرفت السيد محمد صالح الشنقيطى منذ الصغر إذ ربطته صلات حميمة بأسرتنا حتى تحسبه واحدا منها . ندعوه عم شنقيطي ، ولا يفرق عميدنا الشيخ بابكر بدري بينه وبين أبنائه من ظهره . وهو أحد اثنين من أوثق أصدقاء ابرهيم بدري واحتفظ باسم الثاني : دميم الخلقة لئيم الطباع تحسبه قردا من فصيلة الشمبانزي هرب من حديقة الحيوان !! . يذكر اسمه كلما تحدث الناس عن اختراق السلطات البريطانية جمعيتي الاتحاد السوداني واللواء الأبيض ، أو تحدثوا عن البذرة الأولى للشقاق في صفوف الخريجين . ظل عم شنقيطي وفيا لابرهيم بدرى حتى فرق الموت بينهما مما زاد اتصالي به في الحياة العامة وخاصة الساحة السياسية . عمل العم شنقيطي رئيسا للجمعية التشريعية ثم للبرلمان بعد الاستقلال . ويعد

كبير مستشاري الإمام عبد الرحمن المهدي ولو أنه ليس عضوا في حزب الأمة . وله من الناحية الشخصية أفضال كثيرة على وعلي أصدقائي الذين مهد لثلاثة منهم على الأقل ، العمل في المشروعات الزراعية في منطقة السوكي ، منهم الشاعر الغنائي اسماعيل حسن الذي قدمته إلى عم شنقيطي مع قريب لي لدى عودتهما إلى السودان من معهد مشتهر الزراعي في مصر . ذهبت إليه في إحدى زياراته إلى لندن فوضع أمامي كعادته أصنافا عدة من الشاى لاختار ما يروقني . وأخذ يعدد مزايا كل منها ، فاخترت الإيرل غراي ، المعروف قديما في السودان باسم الشاى ﴿أبريحة﴾ ، ثم قام وصنع لي فنجانا من الشاي بنفسه على موقد كهربائي صغير رغم اصراري على قيامي بهذه المهمة . سألني عم شنقيطي خلال حديثنا إن كنت قد سمعت بوفاة ابن فلان في السودان ، فقلت لم أسمع وقد زرت فلانا هذا خلال علاج ابنه في المستشفي في لندن .أ ظهر عم شنقيطي ارتياحا كبيرا لأنه يعلم ما لحقني من فلان وسوء معاملته لي في الجزيرة ، وقال لي أكمل فضلك على فلان وأرسل إليه برقية عزاء . . . و " الكريم يا ولدي مسامح " . ولم يمهلني إذ وضع القلم والورق أمامي وطلب مني أن أكتب البرقية ففعلت . ثم ضغط عم شنقيطي على الزر وأتى عامل الفندق فناوله البرقيةلإرسالها في الحال على حسابه . والتقيت مع فلان بعد مدة في مكتب مبارك ميرغني في الخرطوم فحياني في حرارة بالغة معربا عن شكره وتقديره لبرقية العزاء ، وعن أسفه لما لحقني منه في الجزيرة . وأذكر من نصائح عم شنقيطي لي وأنا أستعد للسفر إلى لندن للعمل في البي بي سي نصحا ثمينا ، أرجو أن يعيه كل من وجد نفسه خارج السودان في أي بلد من بلاد العالم . قال لي إن سفارتنا في لندن كشأن أية سفارة تمثل الحكومة لدى بلاط سانت جيمز ، أما شعب السودان فيمثله أبناؤه الذين في بريطانيا للعمل أو طلب العلم ، بسلوكهم والعمل على مافيه خير بلادهم . لا يصرفهم عن ذلك موقفهم من حكومة اليوم لأن الحكومات تذهب وللشعب البقاء . وقال لي كلاما طويلا في هذا الصدد فهمت منه في ما فهمت أن المعارضة مكانها داخل السودان . أما المعارضة في الخارج فإنها تفتح الباب أمام التدخلات الأجنبية ، وقد تصبح سلعة تباع وتشترى . لقد كان الكبار من أمثال العم شنقيطي الذين

عملنـا في الحياة العامة تحت ظلالهم أسوة لنـا . اقتدينا بهم في علاقاتنا بالمجتمع وتشربنا بما لمسناه فيهم من قيم أخلاقية فاضلة منها التسامح والسمو فوق الصغائر عند الخلاف والصدق مع النفس قبل الناس ، وصونها عما يدنسها في ساعات الرضا أو الغضب . من يصدق مشهد الرئيس اسماعيل الأزهري يوم توليه الحكم رئيسا لأول حكومة وطنيه ، وهو ينحني في خشوع وخضوع ، وأذنه بين أصبعي الشيخ بابكر بدري ليسمع نصيحته "إياك والغرور يا اسماعيل" . حـدث هذا أمام حشد المحتفلـين ، لم يتذمر رئيس الوزراء أو يتبرم وهو في ليلة عرسه . ولم ير جمهـور المحتفلين في ما شاهدوا شيئا غريبا غير مألوف!! هكذا كان الكبار الذين عملنا تحت ظلالهـم . لقد ظللت طيلة حياتي منذ الاستقلال ﴿ معارضـا وعارضا ومعترضاومتعارضا ﴾ ضد سائر الحكومات مدنية أو عسكرية . لا أظلمها إن أحسنت ، ولا يمنعني رفضها اقتناص أية فرصة سانحة فيها خير لوطني وأهله . والحديث ذو شجون عندما يكون من أجل المؤانسة والمجالسـة!! وجدتني مـرة في مأدبة عشاء جمعت نفرا من الخارجيـة البريطانية بينهم وزير الدولة مستر فاتشيت ، وجرنا الحديث إلى العلاقات بين بريطانيا والسودان . كانت العلاقات الدبلوماسيـة مقطوعة بينهما والحرب مستعرة في جنـوب السودان . واستحسن المجتمعون ما ذكرته عن ضرورة عودة العلاقات بين البلدين لمصلحتهما المشتركة ، وعن الدور الذي يمكن أن تقوم به بريطانيا لايقاف الحرب الأهلية في الجنوب التي تتهم بريطانيا جورا وبهتانا بإشعالها . لم أذكـر لهـم شيئا عن رأس الجنرال غوردون وبطولاتنا في كـرري ثم في شوارع العاصمة عام ١٩٢٤ . وإنمـا ذكرتهم بالتقريـر الرسمي البريطاني عن الحرب العالميـة الثانية ، وما جاء فيه مـن اعتراف صريح بدور السودن الذي لولاه لما تحقـق النصر للحلفاء .وتساءلت كيف تخذل بريطانيـا أصدقاءها الذين وقفـوا يدافعون عنها أيام الشدة ؟؟ وكيـف تقف مكتوفة الأيدي وهي ترى صروح التقدم والعمران التي شيدتها في السودان خلال خمسين عاما تنهار صرحا إثـر صرح وإنجازا تلو إنجاز ؟؟ هكـذا كانت بداية مساعينا من أجل عودة العلاقات بين لندن والخرطوم وشاركني فيها سير دونالد هولي القاضي الذي حكم على بالسجن في أتبرا ، وابنتي زينب . اتفقنا منذ الوهلة الأولى على العمل في طي الكتمان .

امتدت مساعينا لأكثر من عام قام خلاله مستر فاتشيت بزيارة الخرطوم مزودا بمذكرة أعددتها له . وقال لي بعد عودته إنه كان يبدأ يومه في الخرطوم بقراءة تلك المذكرة ، وإنها كانت خير عون له في محادثاته مع المسئولين . ولما تكللت مساعينا بالنجاح ، سافرت إلى الخرطوم بناء على طلب مستر فاتشيت لأبلغ وزير خارجيتنا مصطفي اسماعيل باستعداد الحكومة البريطانية لعودة العلاقات الدبلوماسية فورا دون قيد أو شرط إلا ما تمليه الأعراف الدبلوماسية . ومكثت أياما في الخرطوم دون أن تتاح لي فرصة لمقابلة وزير الخارجية رغم اتصالاتي المتكررة بمكتبه ، إلى أن نصحني صديقي نصر الدين شلقامي بالاستعانة بالسيدة الفاضلة ليلي المغربي . ذهبت إليها في مكتبها بمجلس الصداقة الشعبية فهيأت لي مقابلة الوزير في اليوم التالي ونقلت إليه رسالة الخارجية البريطانية . لم يخف الوزير استياءه من روبين كوك وزير الخارجية البريطانية الذي رفض مقابلته في مقر الأمم المتحدة وحوله إلى مستر فاتشيت وزير الدولة . أوضحت لوزير خارجيتنا أن روبين كوك لم يقصد الإساءة إليه فهو متخصص في شئون نيجيريا ولا يعلم شيئا عن قضايا السودان التي عهد بها لوزير الدولة . وعادت العلاقات الدبلوماسية بين لندن والخرطوم ، وانطلقت مع عودتها – كما كنت أتوقع – المساعي الدولية لتسوية قضية الحرب الأهلية في الجنوب التي تكللت في النهاية باتفاقية نيفاشا . حقيقة أن أمريكا كانت في الواجهة على خشبة المسرح بينما يحرك مستر غولتي وفريقه البريطاني العرائس من وراء ستار .

التقيت مرة في السعودية خلال جولة في البلاد العربية بعدد من قادة المعارضة السودانية ، بينهم عمر نور الدائم من حزب الأمة وعثمان خالد مضوي ومالك بدري وآخرون من الإسلاميين . كان من المقرر أن يصل الرئيس جعفر نميري في غضون أيام قليلة في أول زيارة له للملكة العربية السعودية بعد تنكيله بالشيوعيين واستبداله العباءة الحمراء بالخضراء . وعدت يوما إلى فندق اليمامة فوجدت في انتظاري بعض أولئك الإسلاميين ، ولما علموا أني كنت في مقابلة مع الملك فيصل وسأعود لمقابلته مرة ثانية ، رجوني أن أطلب من

جلالتـه التوسط لدى نميري لاطلاق سراح الإسلاميـين المعتقلين في سجن كوبرفي الخرطوم بحـري ، وعددهـم نحو أربعين بينهم زعيمهم حسن الترابي . فقلت لهم أني لم أكن يوما من الإسلاميـين وزادني زهـدا فيهم وابتعادا عنهم ما حدث لي مـن إيذاء في الجزيرة من " بعرة البعير " الذي ذكرته لهم باسمه ، وهم يعرفونه كواحد من قادتهم منذ عهد جامعة الخرطوم . وبشرتهـم بأني سأكون عند حسن رجائهم رغم ذلـك إكراما للأستاذ مالك ابن عمي بابكر بـدري ، ولا خير في مـن رماه في أحضانكـم!! وتحدثت أولا مع الشيخ أحمـد عبد الوهاب سكرتـير الفيصل فطمأنني بأن مولانا يرحب بمثل هـذه الأشياء ولا غضاضة في الكلام إليه بشـأن المعتقلـين الإسلاميين . في مقابلتي الأولى مع الفيصـل حملت إليه رسالة من محمد أحمـد محجـوب قدمني فيها تقديما طيبا ظهر في ما لقيتـه عند جلالته من حفاوة واهتمام . وأعـددت نفسـي للمقابلة الثانية باسترجاع ما ورد في القرآن والأقوال المأثورة عن فك الرقاب ونصرة الإسلام والمسلمين ، وعن العصبة الناجية التي إن هلكت لن تقوم للإسلام قائمة بعد هلاكها . وجاء اليوم الموعود فذهبت في ساعة مبكرة إلى مقر مجلس الوزراء ، الواقع أمام فندق اليمامة ، فلم أجد أحدا غيرِ الفراشين ومن على شاكلتهم . جلست وحدي في القاعة الكبيرة حيـث يعقد الفيصل مجلسـه كل صباح للاستماع لشكاوى وقضايـا عامة الناس واستلام عرائضهـم قبل مباشـرة مهام الدولة . وأخـذ الناس يأتون زرافـات ووحدانا ، حتى امتلأت القاعـة . ثم وصل الفيصل فانتظم المجلس . وجاء دوري فألقيت كلمة قصيرة استغرقت نحو خمسـ دقائق عـن الإسلاميين المعتقلين في سجن كوبر ، وعـن بلائهم في سبيل الإسلام ، وناشـدت الفيصل أن يتدخل للافراج عنهم عندما يلتقـي مع الرئيس جعفر نميري . وذهب الفيصـل إلى مكتبه بعـد انفضاض المجلس ، وقضيت ساعة تقريبـا في مكتب سكرتيره ثم أذن لي بمقابلته . واصلت حديثي إليه عن قضية المعتقلين فبشرني خيرا . كما تناول الحديث قضايا السودان الأخرى . وذكرت لجلالته عن الجنوب أن القبائل العربية توقفت في زحفها من الشمال قبل مئات السنين عند خط معين لم يجرؤوا على تخطيه خوفا على أنعامهم من ذبابة التسي تسي ، التي تكفي لسعة واحدة منها لهلاك الحيوان في دقائق معدودات حتى وإن كان

في ضخامة الجمل . ولولا هذه الذبابة اللعينة لاجتاح العرب بسيوفهم ورماحهم ومصاحفهم القارة الافريقية حتى رأس الرجاء الصالح قبل مئات السنين . ولا أزال عند رأيي الذي ذكرته يومذاك وهو أن المستقبل للعروبة والإسلام في القارة الافريقية حتما طال الزمن أم قصر . وددت لو شملت اتفاقية نيفاشا للسلام بندا يتعهد الطرفان فيه بالقضاء على ذبابة التسي تسي . وأكبرت في الفيصل تقديره للمحجوب وإعجابه .وقد أبدى أسفه لابتعاده عن الساحة السياسية بسبب المرض ، في وقت يرجى منه الكثير لخدمة العرب والمسلمين . وغادرت الرياض بالطائرة وجاء أحمد عبد الوهاب لوداعي في المطار وليبلغني أن مولانا الفيصل أمر بوضع قضية الإسلاميين المعتقلين على رأس أجندة مباحثاته مع جعفر نميري . وصل نميري إلى السعودية في اليوم الذي غادرت فيه جدة إلى الخرطوم ، وأمر غداة عودته للخرطوم باطلاق سراح سائر الإسلاميين المعتقلين في سجن كوبر . وعرفت من اللواء الباقر وزير الداخلية أن نميري علم بما جرى بيني وبين الفيصل ويريد مقابلتي . فذهبت إليه في الموعد المّحدد في مكتبه في المباني الملحقة بالقصر الجمهورى ، وكانت تلك المرة الأولى التي أرى نميري فيها ، وما كنت أعرفه من قبل . قلت له ردا على سؤاله أنني لست إسلامياً ولا أعرف أي واحد من المعتقلين ، لكني لا أقبل اعتقال أي مواطن دون محاكمة لا سيما إذا كان الاعتقال لأسباب سياسية ، ومن يدري ربما يأتي يوم تكون يا سيدي في مكانهم وحينذاك سأفعل الشيئ نفسه حتى وإن كلفني حياتي!! لم يعاتبني نميري أو يبد استياء . وتحدثت إليه ردا على تساؤله عن صدي اعدامه قادة الحزب الشيوعي المدنيين الثلاثة ﴿عبد الخالق والشفيع وغرانغ﴾ . وكان مما قلته له إن البريطانيين يرفضون أحكام الاعدام الصادرة من قضاة محترفين فكيف بها إن كانت صادرة من عسكريين في محكمة عسكرية حرمت المتهمين من توكيل محامين للدفاع عنهم!! انتهت المقابلة بسلام وكانت فرصة طيبة للتعارف ، ولولا دم الشفيع وعبد الخالق الذي في عنق نميري لاتخذته صديقاً ، أما دم محمود محمد طه فالقاتل معروف ولا يحاسب نميري عليه إلا باعتباره ساعد في الجريمة وهو في حالة تخدير كالمخمور غائب العقل والرشد!! وقتل المرتد في أحسن الحالات سنة راشدية أملتها أوضاع معينة في زمان لم يتجاوز الإسلام فيه حدود

شبه الجزيرة العربية وكان عدد المسلمين لا يزيد على عشرات الآلاف . أما اليوم فإن المسلمين يعـدون بمئات الملايـين ومنتشرون في أركان المعمورة الأربعة ولا يضـير الإسلام أن يرتد عنه أحد أو أقلية من البشر . وقد أحزنتني الفتوي التي صدرت في عهد الحكم الديمقراطي بتكفير محمود محمد طه ورأيت فيها شططا كبيرا واعتداء على حرية الفكر والعقيدة . وكتبت رسالة في هذا الشأن إلى الحاج خضر حمد عضو مجلس السيادة فرد على برسالة مطولة أقتطف منها مـا يلي : " أما محمود محمد طه فقد طلق منـه المرأة أبوها شيخ لطفي منذ أن خرج محمود مـن السجن بعد أن إدعى أنه سيدنا عيسى عليـه السلام . ومحمود ما زال يحاول أن يكون نبيـا يشارك محمد الرسالـة فذاك الإسلام الأول ومحمود نبي الإسـلام الثاني الذي يصلح للقرن العشرين . وقد استفتينا علماء السودان ومصر ومشائخ الطرق وأصحاب السبح والدراويش والعلمـاء في الجامعـة الإسلامية وجامعة الخرطوم وجامعة القاهـرة وكلهم كفره وخطأه . هل يترك ليعير أم يسلم لكوبر ؟؟ " هذه الرسالة بتأريخ ٢٨-٤-١٩٦٩ .

كان الفيصل رحِمه الله إنساناً وسع قلبه حب الناس أجمعين ، يحمل همومهم ويفرح لفرحهم مثلما يحزن لأحزانهم . أخذ الملك المهابة من تواضعه وبساطته واكتست سدة العرش بسموه ووقاره رفعة وجلالا . وتجلت شجاعة الفيصل ومهاراته السياسية في تسخير سلاح النفط لأول مـرة في الحرب ضد اسرائيل وحلفائها مما عجز عنه الساسة العرب حتى اليوم . والفيصل ثالث الفرسان الثلاثة ﴿ناصر والمحجوب والفيصل﴾ في قمة اللاءات الثلاثة في الخرطوم التي منذ أن فارقها العرب فارقتهم العزة والكرامة وحلت بهم المذلة والهوان . كانت أمنية الفيصل التي ظل يحلم بها وهو يودع الحياة " الصلاة في المسجد الأقصي " والقدس عاصمة الدولة الفلسطينية . ولم تكـن السعودية تعرف قبل عهد الفيصل التخطيط ودولة المؤسسات ذات الموازنات العامة . ومـن سخريـة القدر أن الفيصل لقي مصرعه على يد آثمـة اغتالته في مقر مجلس الوزراء ، في نفس القاعة التي يلتقي فيها كل صباح بالعفاة والمظلومين من الرعية والتي جئتها - كما سبق ذكـره - في الصبـاح الباكر قبل نحو عامين من الحادث فوجدتها خالية إلا من الفراشين . جاء

الفيصل يومذاك كعادته مطمئنا بجسمه الناحل دون حراس حوله . وهالني ذلك وتحدثت إلى سكرتيره أحمد عبد الوهاب ، فقال لي إن مولانا يرفض الحراسة والحراس ، ويقول دائما : الحارس الله ولن يصيبنا إلا ما كتبه وإن كنا في بروج مشيدة . لقد كان دوري في الافراج عن السجناء الإسلاميين بدافع وطني خالص لا إيمانا بقضية المعارضة في الخارج أو انتصارا لها فأنا أرفض الحكم العسكري بينما أرفض بقدر أكبر الاستعانة بأية قوة أجنبية على اقصائه . وفي اعتقادي أن ما نعانيه اليوم في السودان وإلى مستقبل بعيد يرجع في المقام الأول إلى ارتماء تنظيمات المعارضة السودانية في أحضان جهات أجنبية منذ النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي . وأستثني من ذلك انتفاضة أكتوبر التي أطاحت بنظام عبود فهي الانتفاضة الشعبية الوحيدة التي أوقدتها المعارضة من الداخل وقادتها حتى النصر دون أي عون من الخارج . وأعترف من هذا المنطلق بأني بقيت منذ قدومي إلى لندن متحفظا في تعاوني مع أي تنظيم للمعارضة السودانية في الخارج وتجلى هذا في عهد المعارضة بقيادة الشريف حسين الهندي ضد نظام نميري . فقد اقتصر دوري على ما يمكن تسميته عند العسكريين باللوجستيات ، مثل مساهمتي في المصالحة بين القائد معمر القذافي والحزب الشيوعي السوداني فقد ظلت العلاقات بينهما متوترة منذ اجبار الطائرة البريطانية التي تقل بابكر النور وفاروق حمد الله على الهبوط في ليبيا وتسليمهما للخرطوم ، حيث أعدما لاشتراكهما في الانقلاب الفاشل بقيادة هاشم العطا . وإلى جانب ذلك شاركت في المؤتمرات التي تعقد في ليبيا بين السلطات الليبية والمعارضة السودانية . كما حملت رسائل شفوية ومكتوبة بين الشريف حسين وقادة المعارضة في الداخل كعبد الماجد أبو حسبو وتوفيق صالح عثمان صالح وملك الفحم عثمان محمد خير . وأوفدني الشريف في أواخر حياته إلى السعودية حيث وفقت في رفع الحظر الذي كان مفروضا على مجلة الدستور الناطقة باسم المعارضة السودانية ، كما وفقت في رفع الحظر المفروض على دخول الشريف الهندي نفسه إلى الأراضي السعودية . وكان الشريف حسين الهندي في طريقه إليها عندما وافته المنية في أثينا ، وبلغني النبأ في لندن في الوقت الذي كنت استعد للسفر إلى جدة لأكون في استقباله .

تلعب الصدفة في حياتنا أدوارا يحار المرء فيها ويذهب في تعليلها مذاهب شتى لا سيما إن كان معتزليا مثلي . ومن ذلك مثلا أني خرجت غداة وصولي لندن من فندق البي بي سي في حي بيزووتر قاصدا مكان العمل في بوش هاوس فاصطدمت عند زاوية الالتقاء بين شارعي موسكو رود وكوينزواي برجل منطلقا بسرعة شديدة ، وكدت أن أسقط فوق الأرض جراء الاصطدام . ومضي الرجل في سبيله خطوات قليلة ثم عاد إلى وظننت أنه يريد الاعتذار ، لكنه فاجأني بقوله : هل أنت مستر بدوي ؟؟ فتطلعت إليه وإذا بي أمام مستر سوينبيرن بشحمه ولحمه!! نعم سوينبيرن المدير الإداري السابق لوكالة الأنباء العربية في القاهرة في الظاهر ، لكنه كان يعمل في الخفاء رئيسا لشبكة الجاسوسية البريطانية التي اكتشفت أيام العدوان الثلاثي وحكم عليه بالسجن خمسة وعشرين عاما لم يكملها إذ أفرجت السلطات المصرية عنه قبل أسابيع قليلة من وصولي إلى لندن . كانت تلك الشبكة سبب استقالتي من الوكالة كما ذكرت من قبل . تبادلنا التحايا وعبارات المجاملة وقلت له أني جئت إلى لندن في زيارة قصيرة ثم انصرفت ولم أره ثانية حتى اليوم!! وفي واقعة أخرى مماثلة : كنت مطرقا في مكتبي ذات يوم أفكر كيف أتصل بمولانا خلف الله الرشيد رئيس القضاء ، لأعرف ما تم في قضية رفعتها في تلك الأيام ضد وزارة الاعلام في حكومة ثورة اكتوبر التي فصلتني عن العمل كمراسل لإذاعة أم درمان . وبينما أنا سارح مطرق رفعت رأسي فإذا بي أجد أمامي مولانا الرشيد بشحمه ولحمه . عرفت منه أن القضاء حكم لصالحي بتعويض قدره ثلاثمائة جنيه دفعتها وزارة الإعلام!! وأصطحبت مولانا الرشيد للغداء إلى مطعم قريب ، وبينما كنا سائرين على رصيف الطريق ، قفز مولانا في ألم قفزةعالية مصحوبة بصرخة مكتومة ، لقد وطئ بنعله المثقوب عقب سيجارة مشتعل . نعم رئيس القضاء أعلى سلطة قضائية في السودان بحذائه الهالك المثقوب في شوارع لندن ؟؟ إنها لعمري آية في الزهد وعفة اليد سبحان موليها !!

عندما فكرت في شراء بيت في لندن لم أكن أملك ولو نذرا قليلا من مال يمكنني من الشراء بالتقسيط عن طريق الجمعيات العقارية . كان ذلك يتطلب خمسمائة جنيه على

الأقل . وجاء دور الحظ ليضرب ضربته أو للصدفة لتلعب دورها ، إذ فوجئت ذات صباح في البريد وعلي غير ميعاد بشيك قيمته ثمانمائة وخمسون جنيها من الحكومة الليبية السنوسية ، مقابل أتعابي في انشاء وكالة الأنباء الليبية . كان توم ليتل المكلف بتلك المهمة قد طلب مني إعداد خطة كاملة لانشاء الوكالة . أعددت الخطة المطلوبة وما كنت انتظر أجرا باعتبارها خدمة شخصية لصديقي ومخدمي السابق توم ليتل . هكذا اشتريت بيتا بالأقساط ثمنه نحو خمسة آلاف بعته بعد عشرين عاما بثمانين ألف جنيه . كانت ضربة حظ سعيدة سقطت من سماء زرقاء تذكرني بضربة نحس وقعت لي في زمان مضي في السودان .أرسل لي الصاغ صلاح سالم يوما عن طريق الخبير الاقتصادي المصري في الخرطوم ، رخصة وعدني بها لاستيراد عشرات الأطنان من الأرز الرشيدي من مصر . يمكنني بيع الرخصة للمستوردين في الخرطوم لأصبح من أصحاب الآلاف أو المئات على الأقل . كانت الرخص في أيامنا سبيلا للثراء السريع يمنحها صلاح سالم لأنصار الوحدة وأصدقائه المقربين . وما أن تسلمت الرخصة في الصباح حتى انطلقت إلى صديقي التاجر مبارك ميرغني ممنيا نفسي بأحلام طالما وقف شح المال حائلا دون تحقيقها . كنت واثقا من أن مبارك سوف يشتري الرخصة كما اتفقنا لحساب شركة عثمان صالح أكبر مستوردي الأرز . وضعت الرخصة أمام مبارك دون مقدمات وبدلا من أن يتناولها ضحك وأسند ظهره على الكرسي ثم قال ضاحكا : ما عندك حظ يا شاطر!! وناولني مبارك ميرغني الصحيفة الصادرة ذلك اليوم وعلي صدرها خبر بالبنط العريض عن إلغاء الحكومة المصرية رخص استيراد الأرز وعن فتح الباب أمام من يشاء دون حاجة لها . أعطاني مبارك بدلا من آلاف الجنيهات مائة وخمسين جنيها ثمنا للرخصة التي أصبحت باطلة المفعول لكنها ستساعد في اتمام اجراءات الاستيراد العادية بسرعة .

من المواقف المحرجة التي واجهتها خلال عملي في البي بي سي وما أ قلها موقف كان ضحيته مولانا محمد أحمد أبورنات أول رئيس للقضاء في عهد الاستقلال . فقد جمعتنا رحلة بالطائرة من الخرطوم إلى لندن . سمح الكابتن بانتقالي إلى الدرجة الأولى للجلوس بجوار

مولانـا أبـو رنات خلال الرحلة . وأخذنا نتجاذب أطـراف الحديث في أمور شتى أخبرني أنه ذاهب إلى لندن بدعوة من الحكومة البريطانية للانضمام للجنة شكلتها لتسوية قضية الجنوب اليمنـي ، الذ ي يضم إلى جانـب عدن عددا من المحميات تحت الحكم البريطاني . ورفضت الجامعة العربية والدول الأعضاء المشاركة في اللجنة .وقد بلغ النضال ضد البريطانيين في تلك الأيـام ذروتـه حدة واشتعالا تحت قيادة صديقي قحطان الشعبي . قال لي مولانا أبو رنات إن حكومـة السودان تعلم بسفره وهي موافقة علـى اشتراكه في اللجنة . ونقلت الخبر إلى ديفيد متشـل منسـق البرامج في البي بي سـي العربية ، وكاد يطير من شدة الفـرح باعتباره سبقا صحفيا ، ولأن السودان البلد العربي موافق على الاشتراك في اللجنة . ويبدو أن البي بي سي اتصلـت بالخارجية البريطانية التـي كانت حريصة على بقاء الخبر في طي الكتمان خوفا من إثـارة الـرأي العام العربي ، فطلبت الخارجية من البي بـي سي وأد الخبر وعدم إذاعته . لكن الخـبر تسـرب بطريقة أو أخرى إلى فليت ستريت ؟؟ وعندما ذهبت في اليوم التالي إلى فندق سانـت جيرمـان القريب مِن قصر باكنجهام ، وجدت مولانا يستعد للعودة في اليوم نفسه إلى الخرطـوم استجابة لبرقيـة تلقاها من الرئيس اسماعيل الأزهـري . وأحسست يومذاك بحرج شديـد بسبب دوري في ما وقع . فقـد كان حديثا عابرا لم يحذرني مولانا أبو رنات من نشره ولعل هذا لم يخطر على باله ، لكن ما كان لي أن أفعل ما فعلت دون استئذان .

انتدبت في تلك الأيام لمرافقة ثلاثة ضباط عرب عظام جاؤا من عدن لزيارة بريطانيا ، لا يعرفـون غير اللغة العربيـة ، ورافقتهم في زياراتهم المختلفة داخل لنـدن و لبعض القواعد العسكريـة ، وكلية ساندهيرست التي كان بين طلابها الحربيين في تلك الأيام السيد قابوس بـن سعيد ، سلطان عمان في ما بعد . لاحظت أن الضباط الثلاثة يتبادلون التحية العسكرية مـع حراس فندق دورشستر الواقفين عند البـاب ببزاتهم المهيبة التي تشبه الزي العسكري ، وبعضهم عسكريون سابقون بالفعل تحلي صدورهم الأوسمة وشارات اليوميات الزاهية الألوان . سألني الضباط العرب الثلاثة في استغراب عن أولئك الحراس فأجبتهم في أسى بأنهم ضباط

مولانـا أبـو رنات خلال الرحلة . وأخذنا نتجاذب أطـراف الحديث في أمور شتى أخبرني أنه ذاهب إلى لندن بدعوة من الحكومة البريطانية للانضمام للجنة شكلتها لتسوية قضية الجنوب اليمنـي ، الذ ي يضم إلى جانـب عدن عددا من المحميات تحت الحكم البريطاني . ورفضت الجامعة العربية والدول الأعضاء المشاركة في اللجنة .وقد بلغ النضال ضد البريطانيين في تلك الأيـام ذروتـه حدة واشتعالا تحت قيادة صديقي قحطان الشعبي . قال لي مولانا أبو رنات إن حكومـة السودان تعلم بسفره وهي موافقة علـى اشتراكه في اللجنة . ونقلت الخبر إلى ديفيد متشـل منسـق البرامج في البي بي سـي العربية ، وكاد يطير من شدة الفـرح باعتباره سبقا صحفيا ، ولأن السودان البلد العربي موافق على الاشتراك في اللجنة . ويبدو أن البي بي سي اتصلـت بالخارجية البريطانية التـي كانت حريصة على بقاء الخبر في طي الكتمان خوفا من إثـارة الـرأي العام العربي ، فطلبت الخارجية من البي بـي سي وأد الخبر وعدم إذاعته . لكن الخـبر تسـرب بطريقة أو أخرى إلى فليت ستريت ؟؟ وعندما ذهبت في اليوم التالي إلى فندق سانـت جيرمـان القريب من قصر باكنجهام ، وجدت مولانا يستعد للعودة في اليوم نفسه إلى الخرطـوم استجابة لبرقيـة تلقاها من الرئيس اسماعيل الأزهـري . وأحسست يومذاك بحرج شديـد بسبب دوري في ما وقع . فقـد كان حديثا عابرا لم يحذرني مولانا أبو رنات من نشره ولعل هذا لم يخطر على باله ، لكن ما كان لي أن أفعل ما فعلت دون استئذان .

انتدبت في تلك الأيام لمرافقة ثلاثة ضباط عرب عظام جاؤا من عدن لزيارة بريطانيا ، لا يعرفـون غير اللغة العربيـة ، ورافقتهم في زياراتهم المختلفة داخل لنـدن و لبعض القواعد العسكريـة ، وكلية ساندهيرست التي كان بين طلابها الحربيين في تلك الأيام السيد قابوس بـن سعيد ، سلطان عمان في ما بعد . لاحظت أن الضباط الثلاثة يتبادلون التحية العسكرية مـع حراس فندق دورشستر الواقفين عند البـاب ببزاتهم المهيبة التي تشبه الزي العسكري ، وبعضهم عسكريون سابقون بالفعل تحلي صدورهم الأوسمة وشارات اليوميات الزاهية الألوان . سألني الضباط العرب الثلاثة في استغراب عن أولئك الحراس فأجبتهم في أسى بأنهم ضباط

عظام سابقون قاموا بمحاولات انقلابية فاشلة لتولي الحكم في بريطانيا ، فعوقبوا بطردهم من الجيش وبالعمل حراسا في الفنادق وسيظلون هكذا مدى حياتهم ، وهذا مصير أي ضابط عسكري في بريطانيا يورط نفسه في حركة انقلابية!! وصدقني الضباط الثلاثة . كانت في تلك الأيام حكومات عسكرية انقلابية في سوريا والعراق ومصر والسودان . أما الجنوب العربي الذي كان يعرف بالمحميات فلم يعرف أية حكومة عسكرية انقلابية إلا بعد وحدته مع اليمن ، ويبدو أن ضباطه الذين صدقوا ما قلته اتخذوا عبرة مما رأوه أمام فندق الدورشستر .

لعل السودان شهد أولى خطوات ونستون تشرشل في طريقه إلى المجد وتخليد اسمه على صفحات التأريخ قبل القرن الماضي . جاء ونستون إلى السودان مرافقا الجيش المصري بقيادة لورد كتشنر لإستعادة السودان في عام ١٨٩٨ والقرن في حالة احتضار . لم يكن مقاتلا بل مراسلا حربيا يزود الصحافة البريطانبة برسائله منذ بداية الزحف حتى معركة كررى الفاصلة حيث بهرته شجاعة المدافعين واستبسالهم في القتال بأسلحتهم البدائية سيوفا ورماحا وبنادق عتيقة ضد جيش نظامي يملك أحدث أسلحة الدمار ومنها أسلحة جرى استخدامها لأول مرة كقذائف الدم دم المحرمة ومدافع المكسيم الرشاشة سريعة الطلقات . سجل ونستون تشرشل كل ذلك في كتابه المشهور حرب النهر . وظل طيلة حياته معجبا بشجاعة وبطولات المقاتل السوداني . وقد طلب مني عندما قابلته في عام ١٩٦٢ في مجلس العموم البريطاني «جبة مرقعة « – الزي التقليدي لأنصار الإمام المهدي – ليضمها لمقتنياته . وعدته باحضارها إليه وكتبت في هذا الشأن لصديقي الأمير محمد عبد الرحمن نقد الله . ووصلت الجبة المرقعة إلى في لندن بعد وفاة ونستون تشرشل بأشهر قليلة وهي مكونة من ألوان سوداء وخضراء وحمراء ومعها مسبحة بنفس الألوان من حبات اللالوب . أرسلها ألامير محمد نقد الله مع صديقه رجل الأعمال على دنقلا .أهديت الجبة والمسبحة لسير دودز باركر الذي رتب المقابلة لي مع ونستون تشرشل في مجلس العموم البريطاني بعد أسابيع قليلة من وصولي إلى لندن للعمل في إذاعة لندن العربية . وحضر المقابلة معي يومذاك وليام بير « المفتش

الأحمـر « الذي كان معروفا بين زملائـه الإداريين البريطانيين بميوله اليسارية الصارخة وكان آخـر منصب شغله في السـودان « ضابط الخدمات الاجتماعيـة « في مشروع الجزيرة حيث لعب في الخفاء دورا كبيرا في نشأة اتحاد مزارعي الجزيرة الذي أصبح تحت قيادة الشيخ الأمين محمد الأمين واحدا من أقوى التنظيمات الشيوعية في السودان ولا تعدله في جبروته وسطوته سـوى نقابة عمال السكك الحديدية . وتزوج وليام بـير بعد عودته من السودان مس كليتون المعروفـة لـدي الرعيل الأول من المبعوثين السودانيين إلى بريطانيا إذ كانت تعمل في الملحقية الثقافية في وكالة حكومة السودان ثم السفارة السودانية وتذكر دائما من نوابغ أولئك المبعوثين : كامـل شوقي خبير الغابات – المهندس محمـود جادين – المهندس فاروق الطيب شكاك – الدبلوماسـي أحمد صلاح بخارى – دكتور أحمد ألطيـب رائد المسرح في السودان . ومن كبـار الموظفين المبعوثين : محمد صالـح الشنقيطي وبابكر عوض الله ومحمد يوسف مضوي والأطباء عبد الحليم محمد وعبد الرزاق المبارك والنور عبد المجيد وآخرين لا تعيهم ذاكرتي التـي اعتراها الوهن لكثرة مـا حملتها . أما سير دودز باركر فقد عمل أيضاً مفتش مركز في السودان في عهد الحكم الثنائي خاصة في كردفان وله فيها أصدقاء من رجال الإدارة الأهلية مثـل الشيـخ منعم منصور ناظر دار حمر والعمدة السعيد علـي مطر . وعمل سير دودز لفترة مـن الزمـان سكرتيرا للحاكم العام البريطاني وصار في حقبـة الخمسينات من القرن الماضي وزيـر دولة في الخارجية البريطانية في عهد رئيس الوزراء أنتوني إيدن . وحمل سير دودز باركر إلى الخرطـوم في يناير ١٩٥٦ وثيقة استقـلال السودان نيابة عن الحكومة البريطانية وتسلم علـم بلاده لدى انزاله من ساريته في القصر الجمهـوري . كان ذلك أول اتصالى به ومعرفته وتوطـدت العلاقة بيننا بعد مجيئي إلى لندن والأقامـة فيها وتعرفت بفضله على سياسيين كثيرين من حزب المحافظين . أما السياسيين من حزب العمال فقد كان جسر وصولي إليهم مسـنر ستونهاوس وزير البريـد في حكومة هارولد ولسون . وستونهاوسـ مشهور بتعاطفه مع القضايا الإفريقية ويعتبر رائد الحركة التعاونية في يوغندا وزامبيا وزمبابوي وتنزانيا .

الأحمر « الذي كان معروفا بين زملائه الإداريين البريطانيين بميوله اليسارية الصارخة وكان آخر منصب شغله في السودان « ضابط الخدمات الاجتماعية « في مشروع الجزيرة حيث لعب في الخفاء دورا كبيرا في نشأة اتحاد مزارعي الجزيرة الذي أصبح تحت قيادة الشيخ الأمين محمد الأمين واحدا من أقوى التنظيمات الشيوعية في السودان ولا تعدله في جبروته وسطوته سوى نقابة عمال السكك الحديدية . وتزوج وليام بير بعد عودته من السودان مس كليتون المعروفة لدي الرعيل الأول من المبعوثين السودانيين إلى بريطانيا إذ كانت تعمل في الملحقية الثقافية في وكالة حكومة السودان ثم السفارة السودانية وتذكر دائما من نوابغ أولئك المبعوثين : كامل شوقي خبير الغابات – المهندس محمود جادين – المهندس فاروق الطيب شكاك – الدبلوماسي أحمد صلاح بخارى – دكتور أحمد ألطيب رائد المسرح في السودان . ومن كبار الموظفين المبعوثين : محمد صالح الشنقيطي وبابكر عوض الله ومحمد يوسف مضوي والأطباء عبد الحليم محمد وعبد الرزاق المبارك والنور عبد المجيد وآخرين لا تعيهم ذاكرتي التي اعتراها الوهن لكثرة ما حملتها . أما سير دودز باركر فقد عمل أيضاً مفتش مركز في السودان في عهد الحكم الثنائي خاصة في كردفان وله فيها أصدقاء من رجال الإدارة الأهلية مثل الشيخ منعم منصور ناظر دار حمر والعمدة السعيد علي مطر . وعمل سير دودز لفترة من الزمان سكرتيرا للحاكم العام البريطاني وصار في حقبة الخمسينات من القرن الماضي وزير دولة في الخارجية البريطانية في عهد رئيس الوزراء أنتوني إيدن . وحمل سير دودز باركر إلى الخرطوم في يناير ١٩٥٦ وثيقة استقلال السودان نيابة عن الحكومة البريطانية وتسلم علم بلاده لدى انزاله من ساريته في القصر الجمهوري . كان ذلك أول اتصالى به ومعرفته وتوطدت العلاقة بيننا بعد مجيئي إلى لندن والآقامة فيها وتعرفت بفضله على سياسيين كثيرين من حزب المحافظين . أما السياسيين من حزب العمال فقد كان جسر وصولي إليهم مستر ستونهاوس وزير البريد في حكومة هارولد ولسون . وستونهاوس مشهور بتعاطفه مع القضايا الإفريقية ويعتبر رائد الحركة التعاونية في يوغندا وزامبيا وزمبابوي وتنزانيا .

أخـبرني سـير دودز باركر في منتصـف الثمانينات من القرن الماضـي أنه علم أن في استراليـا جبة الخليفـة عبد الله التي كان يرتديها ساعة مقتله ، وعلى الجبة بقع من دمائه الطاهرة وثقوب أحدثها الرصاص . وقد أخذ الجبة إلى استراليا الكولونيل سميث SMYTH قائد الوحدة التي أعدمت الخليفة عبد الله ورفاقه رميا بالرصاص في أم دبيكرات . وآلت حيازة الجبة بعد وفاة الكولونيل سميث إلى ابنه وهو من كبار ضباط السلاح الجوي الاسترالي وليس له وريث لأنه لم يتزوج . وعرض سير دودز باركر على الملكة أليزابيث الثانية شراء جبة الخليفة عبـد الله خوفـا عليها من الضياع . وقمت بدوري بنقـل هذه المعلومة إلى السيد صلاح عبد السلام حفيد الخليفة عبد الله وقد كان وزيرا آنذاك . نقلت المعلومة إليه شفوياً وعبر الصحافة السودانية ، واقترحت عليه أن يسعى لاسترداد جبة جده الشهيد التي لا يعرف مصيرها منذ وفـاة ابـن الكلونيل سميث قبل سنوات . ولدينا جالية سودانية في استراليا كبيرة وفعالة فيا ليتها تعمل على اقتفاء أثرها واكتشاف المكان الذي انتهت إليه الجبة حتى يمكن استرجاعها وإيداعها في متحف بيت الخليفة في أم درمان .

تركت العمل في البي بي سي عام ١٩٨٥ مستقيلا ومتقاعدا قبل بلوغ السن القانونية . استقلـت احتجاجـا أولا على موقف البي بي سي العدائي من الإسـلام والقضايا العربية ، مـن بينها القضيـة الفلسطينية ، والحرب الأهلية في جنوب السـودان التي تتمسك البي بي سـي بوصفها حربا بين المسيحيـة والإسلام . وثانيا احتجاجا على تعيين بن عمار نائبا لمدير البـي بي سي العربية ، وهو صهيوني متعصب يعمل في قسم الإذاعة العالمية (WORLD SERVICE) . وكثـيرا ما يتحرش بالإذاعيين العرب عندما يلتقي بهم في الكافتيريا . وما قامت حرب بين اسرائيل والعرب إلا وسافر بن عمار إلى اسرائيل ليقاتل في صفوف جيشها الاحتياطي .أوضحـت في كتـاب الاستقالة أنه لا سبيل للتعـاون مع بن عمار لأن بلدينا في حالـة حرب دائمـة . وتفهمت البي بي سي مشكورة موقفي فقبلـت استقالتي واعتبرت ما تبقـى لي من أشهر لبلوغ السن القانونيـة للتقاعد اختياريا عطلة بمرتب ، أي مدفوعة الأجر ،

تقديرا واعترافا بخدمتي الطويلة الممتازة ، خاصة أنني كنت أكتب وأقدم خارج ساعات العمل برنامجا أسبوعيا ساخرا " أحداث وشخصيات من بريطانيا" ، ولا أتقاضى أجرا عليه . كان اشتراطي الوحيد ألا يوضع أحد بيني وبين المايكرفون ليتدخل في ما أقدم لأي سبب من الأسباب ، مما أثار حفيظة صديقي سامي حداد نجم تلفزيون الجزيرة الذي كان آنذاك رئيسا لقسم الأحاديث . غير أن الإدارة لم تكترث لاحتجاجه!! ولم أمارس بعد تقاعدي عام ١٩٨٥ أي عمل لقاء أجر . وظهوري في الإذاعة والتلفزيون والكتابة للصحف من حين لآخر من قبيل التسلية وحسب المزاج مثل لعبة الطاولة . وسنحت لي فرصة في صحيفة السياسة السودانية لكتابة عامود يومي باسم «كرباج» خلال عهد حكومة صادق المهدي التي أعقبت الحكومة الانتقالية برئاسة المشير عبد الرحمن سوار الذهب . والعامود كاسمه كان نقدا سياسيا واجتماعيا لاذعا وجريئا . حملت فيه على الحكومة بوجه عام وعلي سياسات وزير التجارة بوجه خاص . لقد انتشر الفساد في ظل تلك الحكومة يومذاك إلى حد مريع وعلي نحو مكشوف «على عينك يا تاجر» . وأصبح المال العام «على قفا من يشيل» نهبا للقادرين وغير القادرين . واشتهر وزير التجارة بعقد صفقات مريبة بعضها من وراء ظهر المسئولين في وزارته . وبلغ الفساد قمته باستيراد شحنات من الخراف الاسترالية إلى السودان الذي يتصدر كما هو معروف منذ عهد طويل تجارة اللحوم في المنطقة العربية ويمدها بها مذبوحة أو حية تسعى على حوافرها الأربعة . إنها حماقة أشبه بتصدير النفط الخام إلى السعودية أو التمر إلى هجر!! وخرج الكرباج يومذاك بمقال جاء فيه : " إننا لم نظلم وزير التجارة لكنه ظلم نفسه استعلاء واستكبارا وأورد قومه موارد الهلاك . وإذا كان بين القوم واحد لم يكتو حتى الآن بجحيم تلك السياسات والممارسات فليرمنا بحجر . كل فرد منا أضحي اليوم مسيحا مصلوبا . وفي هذه المرة نتناول بلغة الأرقام صفقة الخراف الأسترالية التي يباهي بها الوزير والمفتونون ببطولاته الزائفة ، وما هي في الحقيقة إلا وصمة وعارا لا شرفا وفخارا . فالأرقام تقول إن ما وصل من خراف استرالية إلى بورتسودان بلغ ٣٧ ألف رأس دفع ثمنها بالعملة الحرة بواقع أربعين دولارا للرأس ، ومنحت بناء على طلب وزير التجارة وإلحاحه إعفاءات من

رسوم الجمارك والمحاجر والوزن والأعلاف وغيرها من رسوم . كما منحت إعفاء من رسوم الترحيل على القطارات . وتقدر جملة هذه الإعفاءات الفريدة في تأريخ السودان بنحو أربعة ملايين جنيه . وهذه في الحقيقة دعم مباشر لو خصص مثله لدعم انتاجنا المحلي لأصبح في الإمكان توزيع اللحوم بالمجان على الجمهور مع احتفاظ الدولة بالجلد والرأس . بل لو توفر مثل هذا الدعم لتاجر حتى ممن أصبحوا مضغة في فم وزير التجارة لأصبح في الإمكان بيع الكيلو الواحد من اللحوم الأسترالية للجمهور بستة جنيهات فقط ، مع تحقيق أرباح مجزية للتاجر والقصابين . ومن المفارقات الساخرة أن هذه الصفقة الأسترالية التي طبخها وزير التجارة من الألف إلى الياء كانت في جملتها خاسرة خسارا مبينا رغم الإعفاء والإغضاء فقد بلغت تكلفة الكيلو الواحد - الذي بيع للجمهور بعشر جنيهات - نحو ثلاثين جنيها أي بواقع ٤٠٠ جنيه للخروف الأسترالي الواحد . وهذا رقم خيالي لم تصل إليه تكلفة انتاجنا المحلي في أي من الأيام . . . فمرحي يا معشر الخرفان بوزير آخر الزمان " . كان الوزير يتمتع بشعبية هائلة ، فانبرت سائر الصحف وكتابها للدفاع عنه بينما واصلت الحملة عليه في صمود وإصرار ، ودعوت علنا لشنقه على أقرب عامود نور أو تقديمنا للقضاء لتبرئة ساحته!! واضطر رئيس الوزراء صادق المهدي إلى إقالة حكومته بأسرها وإعادة تشكيلها بعد أيام حيث جاء بكل وزراء حكومته السابقة باستثناء وزير التجارة الذي ألهب ظهره الكرباج . هذه أول مرة في تأريخ الصحا فة العربية ينفرد قلم فيها باسقاط حكومة بأسرها ، إنه نصر مشرف للصحافة والديمقراطية في السودان سواء بسواء . ولو أنصف الناس يومذاك لاستويت على مقاليد الحكم " كاستواء بشر على العراق بغير سيف ودم مهراق "!! لكن لو أراد الله بالقلم صلاحا لجعل له دبابة!! ويحفظ للسودان أنه البلد الوحيد في عالم اليوم الذي أطاحت فيه انتفاضة شعبية عزلاء بحكومة عسكرية بقضها وقضيضها فما أحرانا أن يضاف إلى ذلك أيضاً أن السودان البلد النامي الوحيد الذي أسقطت صحافته حكومة مدنية ذات أغلبية مطلقة . كانت حقبة «الكرباج» محطة خضراء يانعة في مسيرة قطار العمر وكأنها محطة أبوحمد عند ركاب قطار الاكسبريس القادمين من حلفا عبر صحراء قاحلة تتخذ محطاتها العشر الأرقام أسماء

لهـا لأنــه لا ماض لها أو حاضر ومستقبل ، ولا أثـر للحياة فيها وغير ذلك مما تؤخذ الأسماء منه . وكان صادق المهدي في حقبة الكرباج زعيما واعدا يرجي منه الكثير ولقبوه بأمل الأمة بالإجمـاع . لكنــه خذل الأمة . وقد تنبأت بذلك في مقالات الكرباج التي كثيرا ما خاطبته فيهـا مشفقـا بعبارة " يا أمل الأمة إني أخشي أن يأتـي يوم عليك يصيح الناس فيه : خيبة الأمـل الراكبة جمل!! وأذكر مقالات حملت فيها على صـادق المهدي رئيس الوزراء عندما اشترت حكومته بعدة ملايين من الجنيهات أرضا زراعية شاسعة ورثتها أسرته عن الإمام عبد الرحمـن المهدي . وتساءلت في تلك المقالات كيف تشـتري الحكومة أرضا وعهدنا بها تبيع الأراضي ولا تشتريها؟؟ وإذا كانت الحكومة تريد الأرض لمصلحة عامة فمن حقها أن تنزعها مع دفع التعويض لأصحابها . بل لو كان صاحب الأرض الإمام « ابو الصديق فراج الضيق» حيـا لوهبها للدولة بـلا ثمن أو يحزنون . وتقيأ صادق المهدي الصفقة في النهاية متعهدا أمام البرلـان برد الملايين التي دفعتها الحكومة للخزانة العامة . وكان أستاذنا جمال محمد أحمد يقول لي دائما عن الكرباج «هذه قمة في الصحافة لم يأت أوانها في السودان!!»

أما أستاذنا أمير الصاوي فمن أشد المعجبين بمقالات الكرباج وأخبرني أنه يأمر أولاده بقراءتهـا كل صبـاح لأنها تحفة أدبية . والصاوي لمن لا يعرفه رجل الخدمة المدنية المخضرم ، تقلب في أرفع مناصبها الإدارية والدبلوماسية .وأعتز بشهادته كأديب أريب لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب . ومن المعجبين أيضاً صديقي وصهري على الخليفة خبير البيئة ، وكثيرا ما أستنجد به ليذكرني بواحدة من مقالات الكرباج فهو يحفظها كلها ويتلهي بها مثلما يفعل التغلبيون بمعلقة ابن كلثوم .

لقد خبرت كإعلامي شامل جميع ضروب الإعلام وهذه نعمة لا يظفر بها إلا قليلون . غـير أن الصحافة المقـروءة أحبها وأقربها إلى قلبي . أجد نفسي فيها لأنها ارتبطت بدوري في الحقـل الوطني منذ فجر حياتي ، ولأن القلم شرفـه الله سبحانه وتعالى حين أقسم به قسما لو تعلمون عظيما .

إلى هنا آن لقطار العمر أن يستريح في انتظار المحطة الأخيرة عند ضريح الفقيه العارف بـالله الشيخ فـرح ود تكتوك على ضفة النيـل الأزرق في مدينة مكـوار المعروفة حاليا بسنار المدينة . هناك سأرقد الرقدة الأبدية إلى جنب أبي وعمي يوسف بدري بجوار الشيخ فرح وفي أكنافه . وصيتي أن يكتب على قبرى :

هنا يحيا من ليس بشاة أو جزار . . . في انتظار تكميل المشوار!!!!


محمد خير البدوي


العميد بابكر بدري


آسيا محمد مالك


العميد بروفسور يوسف بدري


ابراهيم بدري


العميدة السارة موسى


زينب بدري

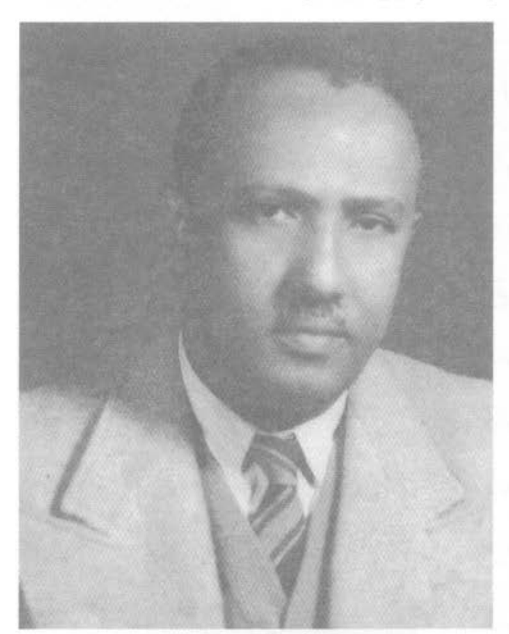

الشيخ بشير الريح


الحاجة زينب مالك
عمة المؤلف

حزب الاتحاديين الابروفيين



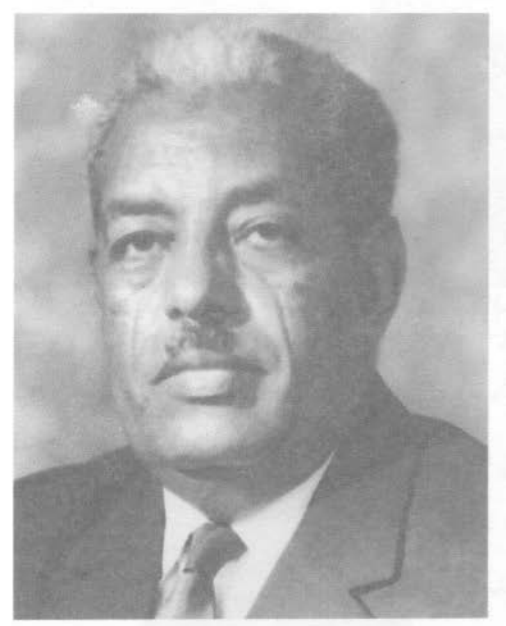
خلف الله بابكر
بين حسن وحسين الكد



حسن أحمد عثمان
(الكد)



السيد حماد توفيق



الحاج خضر حمد
(طوبجي)

الجمهوري الاشتراكي



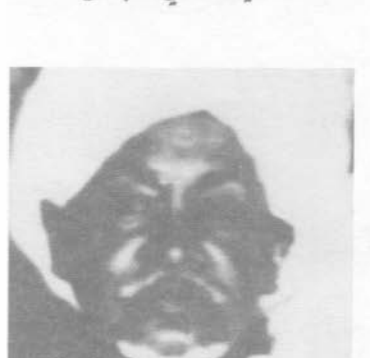
محمد أحمد أبو سن



السيد مكي عباس



يوسف مصطفى التني



يوسف العجب أبو جن



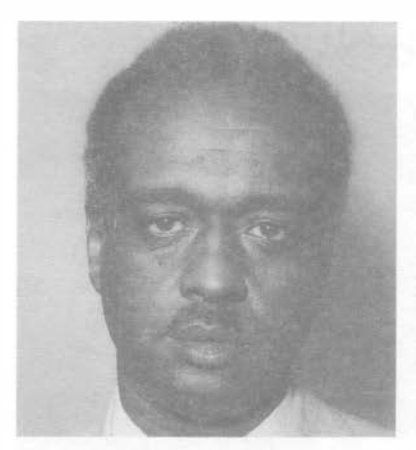
الشريف ابراهيم يوسف الهندي



سرور محمد رملي



الدكتور سيد أحمد عبد الهادي



الشريف حسين يوسف الهندي



الزعيم اسماعيل الأزهري



سير روبرت هاو الحاكم العام



محمد أمين حسين المحامي



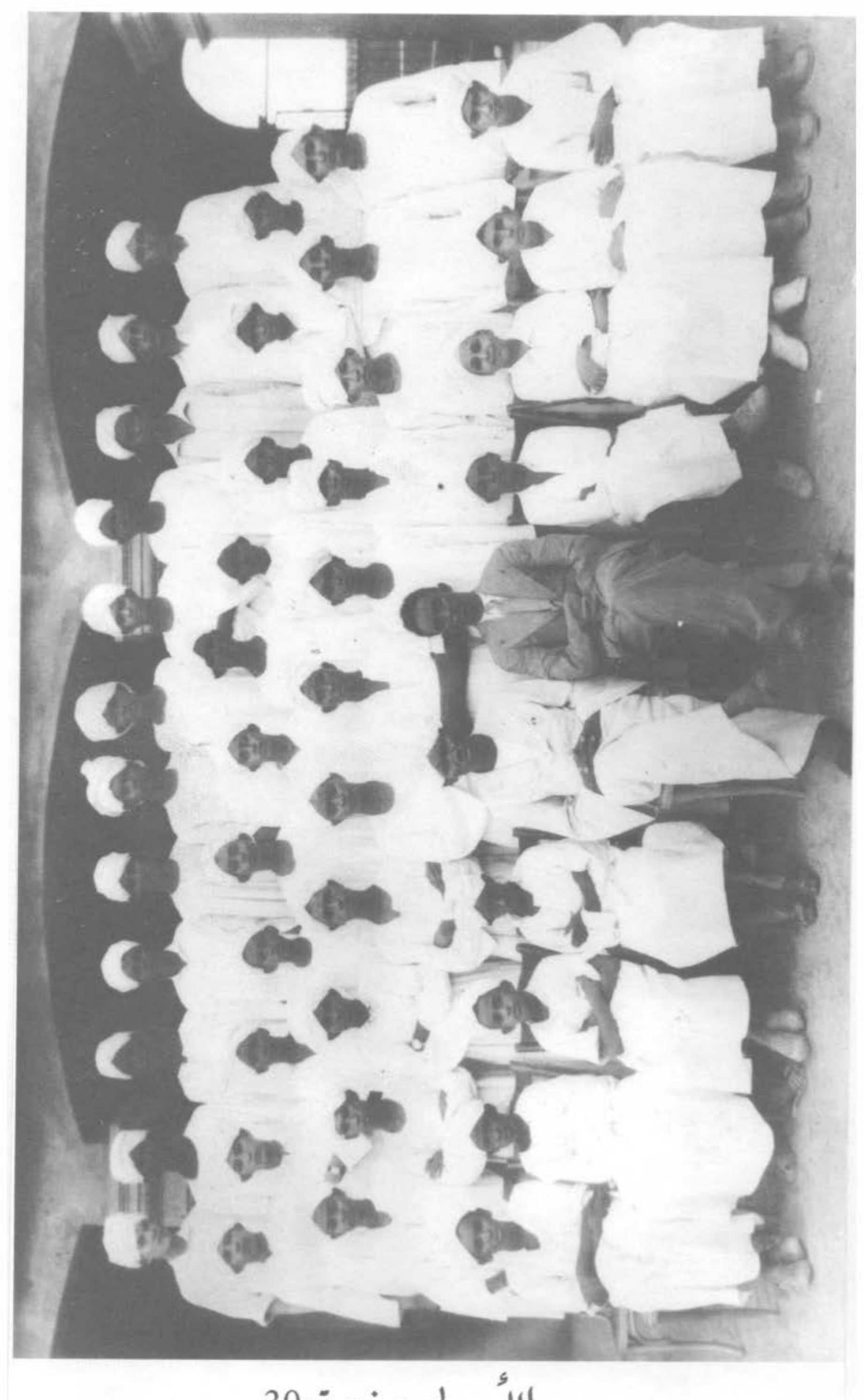
في مكتب اللواء محمد نجيب

احتفال أسرة المؤلف بعيد ميلاده

أحفاد المؤلف (من اليمين يوسف - هناء - صفية - زكريا)



محمد عثمان ياسين
مدير أعالي النيل
مع رث الشلك



الأسماء صفحة 30